

المركز القومي للترجمة

الجزء الثاني

المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها

تأليف: لويس ممفورد

إشراف ومراجعة وتقديم: إبراهيم نصحي

تصدير: حسين نصار

ميراث الترجمة



2683

يهدف هذا الكتاب إلى دراسة التحضر الإنساني، بما يعنيه من انتقال الإنسان من الوجود الفردي إلى الوجود الجماعي، فصارت هذه الجماعة فكانت أسرة، أو كبرت قليلاً فصارت قرية، أو وصلت إلى منتهى الاتساع فصارت شعباً في مدينة. وهكذا، يدرس الكتاب عملية استقرار الإنسان بمراحلها وأنواعها وما احتوى عليه ذلك الاستقرار من وسائل حماية ورعاية وترف. بالإضافة إلى العوامل التي دفعته إلى الانتقال من مقر إلى مقر، أو من مرحلة استقرار إلى مرحلة أخرى، وهل استطاع الاستجابة إلى كل تلك العوامل أو تلبية كل ما طمح فيه، إلخ؟

جملة القول إن الكتاب عبارة عن قصة الحضارة الإنسانية بكل ما لها وما عليها، ويتبع منهجاً دقيقاً في العرض يثير الاهتمام ويضع القارئ على الطريق الصحيح.

المدينة على مر العصور
أصلها وتطورها ومستقبلها
(الجزء الثانى)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 2683
- المدينة على مر العصور: أصلها وتطورها ومستقبلها (الجزء الثاني)
- لويس ممفورد
- إبراهيم نصحي
- حسين نصار
- 2016

هذه ترجمة كتاب:

The City in History:

Its Origins, Its Transformations, and its Prospects.

By: Lewis Mumford

Copyright © 1961 and renewed 1989 by Lewis Mumford.

Published by special arrangement with Houghton Mifflin Harcourt.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

المدينة على مر العصور

أصلها وتطورها ومستقبلها

(الجزء الثاني)

تأليف : لويس ممفورد
إشراف ومراجعة وتقديم : إبراهيم نصحي
تصدير : حسين نصار



2016

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ممفورد ، لويس : ١٨٩٥

المدينة على مر العصور : أصلها وتطورها ومستقبلها / تأليف
لويس ممفورد : إشراف ومراجعة وتقديم : إبراهيم نصحي :
تصدير حسين نصار . (جزء ثانى)
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٦ .

٦٨٤ صفحة : ٢٤ سم

١ - حضارة ٢ - الاجتماع الحضري ، علم

(أ) نصحي ، إبراهيم (مشرف ومراجع ومقدم)

(ب) نصار ، حسين (مصدر)

(ج) العنوان : ٣٠١،٢

رقم الإيداع ٤٧٣٨ / ٢٠١٦

الترقيم الدولى 978-977-92-0584-7

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات
أصحابها فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المشكرون في هذا الكتاب

المؤلف : لويس ممفورد

مؤلف أمريكي ، ولد سنة ١٨٩٥ وتخرج في جامعة نيويورك وكولومبيا ،
أستاذ الدراسات الإنسانية في جامعة ستانفورد منذ سنة ١٩٤٢ - ٤٤ ، وأستاذ
في جامعة بنسلفانيا ١٩٥٢ - ٥٦ . كان عضوا في مؤسسات وجمعيات متعددة
وله نشاط ملحوظ في الفن المعماري وتخطيط المدن ، من بين مؤلفاته
العديدة Story of Utopias ١٩٢٢ ، Technics & Civilisation ١٩٣٤ ،
The Culture of Cities ١٩٣٨ ، City Development ١٩٤٥ ،
The Transformations of Man ١٩٥٦ ، Art & Technics ١٩٥٢ .

المترجم على الترجمة : الدكتور إبراهيم نصحي

أستاذ التاريخ القديم بجامعة عين شمس . ولد سنة ١٩٠٧ وتخرج في
جامعة القاهرة وليقربول ولندن وتخصص في الآثار اليونانية الرومانية
والتاريخ اليوناني الروماني . أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة سنة
١٩٤٦ وعام كلية الآداب بجامعة عين شمس ١٩٥٠ - ١٩٥٤ ، عضو
للمراسل بالجمعية الأثرية بأثينا منذ سنة ١٩٣٨ ، عضو مراسل جمعية الوثائق
الهندية منذ سنة ١٩٥١ ، وعضو لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية
الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . له عدة مؤلفات ، منها « الفنون في عصر
البطلمية » (بالإنجليزية) ، و« تاريخ مصر في عصر البطلمية » (جزآن) ، و« مجمل
تاريخ مصر في عصر البطلمية والرومان » ، و« النظم الدستورية الإغريقية » ،

(و)

و« دراسات في تاريخ مصر في عصر البطالة » ، كما أن له عدة بحوث نشرت
في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية وجوليات كلية الآداب بجامعة
عين شمس :

محتويات الكتاب

الجزء الأول

صفحة	
٨	لماذا هذا الكتاب
٦	مقدمة بقلم : الدكتور إبراهيم نصحي
١	مقدمة المؤلف
٣	الفصل الأول - الهيكل والقرية والحصن
٥١	الفصل الثاني - تبلور المدينة
٩٨	الفصل الثالث - أشكال ونماذج متوارثة عن الأسلاف
١٦٩	الفصل الرابع - طبيعة المدينة القديمة
٢١٢	الفصل الخامس - ظهور المدينة الحرة Polis
٢٨٤	الفصل السادس - المواطن والمدينة المثالية
٣٣٠	الفصل السابع - الحكم المطلق والتحضّر في العصر الهيلينيسى
٣٧٠	الفصل الثامن - من المدينة العظمى إلى مدينة الموتى

الجزء الثانى

٤٤١	الفصل التاسع - الدبر والمجتمع
٥١١	الفصل العاشر - تدبير شئون المدينة فى العصور الوسطى
	الفصل الحادى عشر - آيات انهيار العصور الوسطى وبواكير العصور الحديثة
٥٧٧	

اللوحات

القسم الأول (بين ص ١٥٢ و ص ١٥٣)

- ١ - طقوس ونصب تذكارية
- ٢ - نواة حضرية
- ٣ - ضخامة
- ٤ - مدن المتابر
- ٥ - ملوك بنامون ومدمرون
- ٦ - اعتلال الحضارة
- ٧ - مدينة وحى صناع
- ٨ - جبل مقدر : دلفى
- ٩ - قوة أثينا وشكلها
- ١٠ - أساليب قديمة ، أيام حديثة
- ١١ - نظام ميليتوس (Miletus) « ملطية »
- ١٢ - قلب مدينة كلاسيكى : بومبى
- ١٣ - الحياة اليومية فى بومبى
- ١٤ - بومبى وبافيا
- ١٥ - معبد ومجمع سوق (Super market)
- ١٦ - أوعية الجماهير

القسم الثانى (بين ص ٣٤٤ و ص ٣٤٥)

- ١٧ - نموذج أصل من العصور الوسطى
- ١٨ - عمارة ديرية
- ١٩ - أوكسثورد فى العصور الوسطى
- ٢٠ - سيطرة واكتناف
- ٢١ - معالم فينيسيا الحجرية
- ٢٢ - طقوس ولهو
- ٢٣ - مثل عليا مسيحية
- ٢٤ - فلورنسا

(ى)

- ٢٥ - مساحة من حدود عصر النهضة
- ٢٦ - مساحة تستخدم في أغراض عديدة
- ٢٧ - دينامية باروكية
- ٢٨ - التكلف الباروكي
- ٢٩ - حياة القصور
- ٣٠ - انفراج أرستقراطي
- ٣١ - منظورا قصرين
- ٣٢ - انبساط وانحصار

القسم الثالث (بين ص ٥٨٤ و ص ٥٨٥)

- ٣٣ - القرية الوديمة
- ٣٤ - سيطرة التجارة
- ٣٥ - جمع المال وإنفاقه
- ٣٦ - تخطيط عضوي : أمتردام
- ٣٧ - أمجاد باث
- ٣٨ - تحت سقف واحد
- ٣٩ - مدينة القمح الكوك الصناعية
- ٤٠ - عصر الوسائل التقنية الحقيقية
- ٤١ - قرية صناعية نموذجية
- ٤٢ - مدينة ريفية خضراء
- ٤٣ - غزو الفواحي
- ٤٤ - حي يلومبيرز وضاحية هامستد جاردن
- ٤٥ - نموذج باروكي متأخر : واشنطن
- ٤٦ - تقييم الفوضى
- ٤٧ - تخريب المدن
- ٤٨ - الهيام المكان

القسم الرابع (بين ص ٧٩٢ و ص ٧٩٣)

- ٤٩ - ارتفاع ونكوص
- ٥٠ - مزيد من التعبير

(ك)

- ٥١ - ابتكارات حضرية
- ٥٢ - نظام الخطة
- ٥٣ - تحديد المناطق تحديداً وظنياً
- ٥٤ - الاحتفاظ والتجديد
- ٥٥ - نواة تاريخية
- ٥٦ - مدينة الجامعة
- ٥٧ - الشبكة الإقليمية
- ٥٨ - القالب الأخضر
- ٥٩ - المعيار البشري
- ٦٠ - نحو « المدن الاجتماعية »
- ٦١ - النواة الحضرية
- ٦٢ - من الفرع إلى النور
- ٦٣ - بحث مدينة
- ٦٤ - خليفة أم مدينة

الدير والمجمع

١ - المبرنة السماوية

لم يكبد يقبل القرن الخامس حتى كانت دماء الحياة قد أخذت تفيض من أوردة روما المتقطعة وحتى كانت الأيدي التي قبضت يوماً على زمام إمبراطورية قد أصبحت عاجزة عن أن تكفل الاحتفاظ بأى جزء منها فى قبضتها . وعند ما تراخت الأصابع تساقطت الأجزاء .

بيد أن الموت كان يسير بخطى وثيدة ، ووسط ما أصاب روما من التعفن والانحلال ، أخذت تنبت حياة جديدة على نحو ما تنبت حبوب ملقاة فى القمامة على كوم من خليط الفضلات والسماد . والتصورات الدينية الجديدة التى يسرت قيام هذه الحياة أعطت قيمة إيجابية لألوان الحرمان والفشل التى كانت قد عانتها الشعوب الخاضعة لسلطان روما ، وذلك أنها حولت مرض البدن إلى صحة روحية ، والجوع قسراً إلى الصيام طوعية ، وفقد متاع الحياة الدنيا إلى اتساع فى آفاق الأمل فى النجاة فى الآخرة . وحتى الخطيئة هيات طريقاً إلى النجاة .

والمسيحى بإعراضه عن كل ما كان العالم الوثنى يشتهيه ويمجد فى سبيله ، خطا الخطوات الأولى نحو تشييد مبنى جديد من الأتقاض . ولقد أنشأت روما المسيحية عاصمة جديدة هى المدينة السماوية ، ورابطة حضرية جديدة هى زمرة القديسين ، فهنا كان يوجد النموذج الأصلى الخفى للمدينة الجديدة .

وقد عزى انتصار المسيحية إلى أسباب عديدة ، ولكن أشدها وضوحاً هو أن وجهة النظر المسيحية من حيث توقعها حدوث ضروب الشر الجوهريّة

من ذنوب ، وألم ، ومرض وضعف وموت - كانت أقرب إلى حقائق هذه المدينة المتداعية من أى عقيدة قامت على أساس الصور القديمة ، صور « الحياة والرخاء والصحة » . فكل أحداث الحياة فى نظر المسيح تستمد نشأتها من طريقة مواجهته لألوان الحرمان . إنه فى كل المدنيات السابقة كان البشر يقدمون قربانا لأنفسهم بغير حساب ، فإنه فى المسيحية تمثل إلها بشرا سويا ورضى بالتضحية لكي يفترى المذنب ويخلصه مما نجم عن حالته من إحساس بالقلق والإثم .

وكان المسيح يتقبل ما فى عصره من الحقائق الكريهة بدلا من أن يتهرب منها ، وبإقدامه مختارا على عمل ما كان الوثنى يدأب على تفاديه ، فإنه فى آن واحد جرد القوى التى كانت تهدده من قوة تأثيرها ، وإلى حد ما تغلب عليها ، فكان يعود المريض ، ويواسى الأرملة واليتيم ، ويعوض عن معرات التضور جوعا والمرض والبؤس باتخاذها وسيلة للمودة وإظهار الحب . وبدلا من التشبث بالوجود فى جموع كبيرة طلبا للأمان والطمأنينة ، فإنه كان يرضى بتفرق الناس ويلتمس السلوى فى رابطة أكثر ألفة عندما كان لا يجتمع معا إلا شخصان أو ثلاثة للتسيح باسم المسيح ، والواقع أن أكثرهم ورعا ونقوى كان يغتزل الناس كلية وينشد العزلة والصمت .

وكل هذه التغييرات النفسانية تركت أثرها خلال الألف سنة التالية فى مدن أوروبا الغربية ، بيد أنه حتى قبل سقوط روما ، وفى الواقع فى خلال القرن الثالث ، كانت الطائفة المسيحية قد بدأت تتوقع أسوأ مصير ، ولذلك فإن أبناءها المهددين بالاضطهاد والحجازر ، شرعوا فى إقامة حياة جديدة لأنفسهم فى المغاور التى تملأ فجواتها تلال روما ، حيث كانوا يحتفلون بدفن إخوانهم فى العقيدة ، وفقاً للطقوس المسيحية ، ونحتوا تحت الأرض معابد ومذابح وكذلك شواهد للقبور . والإحساس بالحديد بالأخوة ،

الذى عبرت عنه لأول مرة ديانات الأسرار لدى الإغريق ، وجد الآن تعبيراً أتم وأوفى .

وطوال عهد الإمبراطورية ، كانت المسيحية حركة سرية ، فقد كانت تعتبر إلى سنة ٣١٣ ميلادية ، من ألوان النشاط الهدام ، وعلى ذلك فإنه لم يكن من قبيل المصادفة في تريير (Trier) ومetz (Metz) أن المسيحيين أقاموا هياكلهم لأول مرة في الأسوار الرومانية القديمة والحجرات الواقعة تحت الأرض في « السيرك » . وفي Metz كانت أول كنيسة مسيحية تقوم في داخل المدرج القديم ، وههنا اكليسا (ecclesia) أو جمعية شعبية من نوع جديد لم يكن المعبد الكلاسيكى ولا الفوروم ذاته خليقاً بأن يبيئ لها شكلاً حضرياً ملائماً .

ولم تكن المباني الرومانية ممقوتة فحسب من الوجهة الروحية ، لصورها ورموزها الوثنية ، بل إن الكثير منها أصبح بلا قيمة من حيث أداء وظيفته ، كالمرح والمجتلد والحمام ، لأنها كانت تتناقض مع أسلوب الحياة المسيحية بأكمله . أما المعابد والقاعات الكبيرة (basilicas) القديمة وقد بنيت لتستوعب لعدد كبير من الناس ، فإنها هي وحدها التي حولت بسهولة لإيواء اجتماعات المسيحيين الدينية ، وهكذا فإن معبد أنتونينوس وفاوستينا (Antoninus - Faustina) في روما أصبح كنيسة القديس لورنزو ، ومجلس الشيوخ أصبح كنيسة القديس أدريانو . وفي القرن الرابع عشر كان ما يقرب من نصف ما في روما من الألف كنيسة أو تزيد ، لا يزال يدل بأسمائه أو بمبانيه الظاهرة للعيان ، على أنه وثني الأصل ، بيد أن الحمامات لم تعد تستعمل حمامات ولا المجتلدات مجتلدات ، وكان خلوها نذيراً بما أصابها في النهاية من التهدم والتخريب .

ومن المحقق أن روما لم يصادفها الموت بغتة ، وأن مدن الإمبراطورية لم يحل بها الانهيار وتصبح غير صالحة للسكنى إلا على مهل ، وذلك أن

الغارات البربرية بدأت في الواقع في القرن الثالث وظلت مستمرة بشكل ما من حين إلى آخر لمدة تزيد على ألف سنة . وحتى في القرن العشرين عمد أحد الآثاريين الإيطاليين إلى تعليل المصاعب التي صادفها الجيش الإيطالي في صد النمساويين والألمان على نهر البياف (Piave) بأن هذه هي الثغرة التي سبق أن تدفق منها القوط والهون قبل ذلك بأمد طويل . والمدن في واقع الأمر كالأشجار ، فهي متى استقرت ورسخت لا تزول كلية إلا إذا اجتثت من الجذور ، وإلا فإنه ، حتى إذا قطع الجذع ، سوف تنبت فروع حول القاعدة ، كما حدث في بيت المقدس بعد التدمير الشامل الذي حل به في سنة ٧٠ ميلادية . وإن ما يسميه لافدان « قانون تشبث المسقط الأفقي بالبقاء » يمكن توسيع مداه إلى « تشبث كل نموذج حضري بالبقاء » :

وكذلك كان شأن روما والمدن التي استعمرتها أو حكمتها ، فقد انكمش عدد السكان النازلين بها ، وأصبحت وجوه نشاطها محصورة محدودة ، وأصبحت حياتها تتعرض في اطراد متزايد لغارات لم يعد في وسعها حماية أنفسها منها ، والطرق الرئيسية ذاتها التي كانت تهبط لها في الماضي أسباب الأمان والثروة لم يكن من شأنها الآن إلا تيسير فتوحات الغزاة المتبربرين . وحيال جيش فاتح ، وقنطرة عالية محطة ، وسلسلة من المحصولات المحلية السيئة ، كان من بقى من السكان يعتمدون إلى الاعتصام بالتلال . وكان كل هذا يحمل في طياته نهاية العمران الحضري الروماني ، وتكرار القصة المحزنة التي رواها باوسانياس عندما زار المناطق الصخرية المهجورة في بلاد الإغريق ، حيث كانت مدنها قد أمست أوعية محطة . وعندما تدهورت الحياة الحضرية بسبب الافتقار إلى الأيدي العاملة اللازمة للإبقاء على سير الأمور في مجراها المعتاد ، أخذ التنقيب يدور في المباني القديمة بحثا عما تبقى فيها من قطع الأثاث أو المعدات ، على نحو ما تدفع الحاجة

أسرة كانت يوماً موفورة الثروة إلى رهن ممتلكاتها القديمة الواحدة بعد الأخرى . بيد أن نجاً في الريف كان يساوى قصرأ في المدينة .

وفي داخل روما ذاتها كان في وسع المرء أن يتتبع علائم تغير تدوير رجاءه في كل مكان ، وكان من أول دلائل مدينة العصور الوسطى ، نقل السوق ، فيما بين القرنين الثامن والثاني عشر ، من الفوروم إلى تل كابيتولينوس الذي كان أيسر سيلاً في الدفاع عنه ، ولقد انتقل مع السوق مركز حكومة المدينة ذاته ، ولذلك فإن هذا المركز الأخير كان قد استقر على ذلك التل الشديد الانحدار زمناً طويلاً قبل سنة ١١٤٥ عندما أعيد بناؤه بأكمله تقريباً ، بيد أن العادات القديمة أيضاً ظلت راسخة القدم ؛ إذ أنه ، تبعاً لازدياد عدم اطمئنان الناس على حياتهم ، كانوا يعمدون كذلك إلى سد واجهات الحوانيت بالطوب طلباً للوقاية . ولكن كلا من النوع القديم من الحوانيت ، الذي كان مفتوحاً على مصراعيه على الشارع ، والنوع الجديد منها ، الذي كانت واجهته مسدودة ، ظل موجوداً في إيطاليا في العصور الوسطى ، مثلما احتفظت عمائر فلورنسا في القرن الرابع عشر بشكل الجزر الرومانية . فلا الأسلوب الروماني في الحياة ، ولا الأوضاع الرومانية تلاشت كلية ، وهو ما أثبتته أكسيل بويثيوس (Axel Boëthius) ، في القرن الخامس كان الجزارون يقبعون في فوروم نيرفا وتحت البوائك السفلى في مسرح ماركيلوس (Marcellus) .

وطيلة الخمسمائة السنة الأولى كانت التغيرات في العرف والعادات والقانون أكثر وضوحاً منها في المنشآت القائمة ؛ فقد كانت هذه الأخيرة أقل اتساعاً بوجود مبان جديدة منها بزحف الحشائش والأدغال عليها وبتساقط الأحجار ، وتكديس الفضلات وتلويث الطوارات . ولا شك في أن هذه النتائج بعينها كانت أسرع ظهوراً في الريف منها في المدن ؛ وذلك لأنه إذا كانت قطعة مستصلحة من الأرض في محطة التجارب الزراعية في

روثامستد (Rothamsted) بانجلترا قد أصبحت غابة كثيفة في خلال قرن ، فلابد من أن عودة المراعى والغابات كانت تجرى على هذا النحو في جميع أرجاء أوروبا الغربية ، ولا سيما بعد القرن السابع . وعندما حل القرن الحادى عشر كان تطهير الأراضى بشكل مشكلة خطيرة ، وذلك لأن تصريف مياه المستنقعات ، وقطع أشجار الغابات ، وبناء القناطر كان يستدعى وجود طائفة جديدة من الرواد . وفي هذا الشأن — كما حدث في غير ذلك من الشئون — تولت القيادة الطوائف المنظمة لرهبان الأديرة .

وإذا أغفل الإنسان الدور الذى قامت به الرهبنة ، فإنه يفقد بذلك ما يهديه إلى سر الوضع الحضرى الحديدى ؛ فقد كان لهذا الدور تأثير فعال في تشكيل هذا الوضع ، ذلك لأن أعمق انسحاب من روما لم يكن ذلك الذى كان ينشده اللاجئون الراغبون في النجاة بأبدانهم ، بل كان فوق كل شيء انسحاب الأنقياء الراغبين في إنقاذ أرواحهم . ولم يكن أصحاب النفوس الكبيرة ، الذين كانوا يترعمون هذا الانسحاب ، بغافلين عن كل ما كانوا يتركونه وراءهم من المزايا والمباهج ، بل كان لدى كل من أوجستين وجيروم من الأمانة والصدق ما جعلهما يعترفان بأنهما — في أثناء النوم على الأقل — كانا يتعرضان لإغراء وإغاثات صور الشهوات الحسية في روما . بيد أنه في القرن الثالث كان الانسحاب قد دخل مرحلة جماعية ، فإن جماعات من النسك الذين كانوا يشاركون بعضهم بعضاً في عزلتهم ويهيئون لأنفسهم نظاماً جديداً للحياة ، تجمعوا زمراً . وقد حدث ذلك في أول الأمر في أطراف مدينة كبيرة كالإسكندرية^(١) ، في مواجهة الصحراء ، وبعد ذلك في جهات نائية على قمم تلال صخرية مثل جبل كاسينو أو جبل أنوس ، أو فيما بعد على جبل

(١) إن النسك الذين كونوا لأنفسهم بيعة بالقرب من بحيرة مريوط كانوا من اليهود وليسوا من المسيحيين ، فالرهبنة المسيحية متأخرة عن ذلك في التاريخ ونشأت في الوجه القبلى . ومن مصر انتقلت إلى أوروبا عادة التنسك في الأديرة التى تعتبر أهم خدمة أسستها المسيحية المصرية للمسيحية الأوروبية .

سيناريو الشامخ بالقرب من فلورنسا (في سنة ١٢٢٣ ميلادية) حيث أريج أشجار الصنوبر أزكى من أى بخور .

ولقد كان الدير في الواقع مدينة من نوع جديد ، فقد كان رابطة ، أو بالأحرى أخوة وثيقة بين جماعة من الناس مماثلين في العقلية ، لم يلتقوا معاً مجرد إقامة الطموس الدينية في بعض المناسبات ، بل للمشاركة الدائمة في المعيشة لمحاولة إقامة حياة مسيحية على الأرض ينحصر اتجاهها وتفكيرها في خدمة الله : ولقد أنشأ أوجستين - أسقف هيو - طائفة من هذا القبيل في القرن الرابع ، وفي القرن السادس تولى بنديكت من نورسيا (Benedict of Nursia) تشكيلها على النحو الذي قدر له أن يتأثر به كل ما أعقب ذلك من طوائف الرهبان ، إما بالاتصال المباشر ، وإما بالحث والتحدى عن طريق غير مباشر .

وهنا كانت نقطة الارتكاز لنوع جديد من الحضارة الدينية . وقد كانت هذه الحضارة تسعى إلى السمو على ما كان في الحضارات السابقة من وجوه القصور بنيد أنظمتها المميزة لها ؛ فقد كانت من حيث المبدأ ، تنكر الملكية والجاه والسلطة . فأولئك الذين ارتضوا الفقر نوعاً للحياة حطوا من قدر الجهاز المادى بأكملة الذي يزود الجسم بما يقوم بأوده ، ورفعوا من شأن العمل يجعله التزاماً أديا .

ولقد أصبحت مستعمرة الدير في الواقع القلعة الجديدة ، أى بمثابة نقطة ارتكاز حالت دون انقلاب الانسحاب إلى هزيمة ، إلا أنها كانت قلعة للزوح ، وكان مقرها كنيسة الدير . وليست هذه الموازنة بعيدة عن الصواب ، لأنه إذا كانت الوسائل الدنيوية للمدينة الحضرية قد تشكلت لأول مرة في القصر الملكي ، فإن الدير كان المكان الذي انتقلت فيه الأهداف المثالية للمدينة واستبقيت حية وجددت في النهاية . وهنا أيضاً كان المكان الذي أثبتت فيه القيمة العملية لضبط النفس والنظام والانظام والأمانة

والتنظيم الداخلى، قبل نقل هذه الصفات فى صورة مخترعات وأساليب للعمل كالساعة ودفتر الحسابات واليوم المنظم ، إلى مدينة العصور الوسطى ، وإلى النظام الرأسمالى الذى قام بعد هذه العصور :

ومهما يكن مبلغ تفاقم الاضطراب فى العالم الخارجى ، فإن الدير أوجد فى داخل أسواره واحة من النظام والهدوء . ولم يخالج أحداً الشك فى أن القيم الأساسية فى حياة تقوم على التعاليم المسيحية كانت تتجسم هناك ، ولو أنه لم يكن يتوافر لدى جميع الناس ما يؤهلهم لأن يعيشوا على مثل هذا المستوى الرفيع من الانصراف والتفرغ ، بل كما تبين فيما بعد ، أن ذلك لم يكن يتوافر حتى لدى النساك أنفسهم الذين أوتوا حظاً من التوفيق أكثر من سواهم . ولقد كانت مظاهر الحياة المسيحية جذابة إلى حد حمل يواكيم الفلوريسى (Joachim of Floris) فى القرن الثانى عشر على أن يتطلع إلى مرحلة ختامية للتطور الإنسانى ، مرحلة الروح القدس ، وهى مرحلة يتحد فيها بنو الإنسان فى الدير العالمى كإخوة وأخوات فى الرهبنة . وفى القرن نفسه ، كان الدير فى نظر برنارد من كليرفو (Bernard of Clairvaux) حصناً من حصون الجنة ، بل إنه صاغ التعبير « جنة الدير » .

وعلى ذلك فإن أوثق صلة بين مدينة العصور القديمة ومدينة العصور الوسطى لم تكن تلك التى كونها ما بقى من المباني والتقاليد ، بل تلك التى كونها الدير ، ففي الدير تم نقل كتب الآداب القديمة من أوراق البردى المتفتتة إلى صفحات الرق المتين . وهنا كانت تستخدم اللغة اللاتينية فى الحديث اليومى فأفلتت بذلك من شىء مما عانت اللغات الإيطالية والإسبانية والفرنسية والرومانية من كثرة تنوع لهجاتها الإقليمية والقروية وشدة اختلاف هذه اللهجات إلى حد استغلاق فهم لهجة فريق على فريق آخر . وهنا فى أديرة البندكتين ، على الأقل ، احتفظ بالأساليب الراقية للزراعة الرومانية والطب

الإغريق وبما يتناسب مع ذلك من ارتفاع في مستوى الإنتاج والصحة العامة .

ولقد وقعت الكنيسة في حائل مسئوليات دنيوية عندما تولى مقاليدها رجال شغلوا بشئون الدنيا ، واستهوتهم الرغبة في التوفيق بين المسيحية والمعتقدات والأنظمة الوثنية ، كما حدث في عبادة الفديسين . وذلك أنه إزاء الفوضى التي كانت تهدد الأساقفة ، اضطروا إلى مزاوله السلطة السياسية ، بل إلى تولى القيادة العسكرية ، حينما فشلت القوى الأخرى ، فكان الأساقفة ، عندما تولوا حكم المدن ، يجمعون بين وظيفتي الكاهن والحاكم على النمط الروماني القديم .

بيد أن الأديرة أبقت صورة « المدينة السماوية » حية منتعشة ، وعندما تكونت المجتمعات الحضرية الجديدة بعد القرن العاشر كان الدير في بادئ الأمر أعمق أثراً من السوق في حياتها ، فهنا كان يوجد ما يحبه المسيحيون من السلام والنظام ، والهدوء والتأمل النفساني . ولذا فإن دير وستمنستر وأديرة كليرفو والقديس دنيس وجبل كاسينو وفولدا ، كانت تسيطر على الحياة الحضرية ، بل حتى على أشكال مبانيها إلى مدى لا يتناسب بحال مع عددها . وهرابانوس (Hrabanus) ، الرئيس الذائع الصيت لدير فولدا ، عندما أشار إلى « الحياة المشتركة » بوصفها من مميزات المدن ، كان يعزو إلى المدينة المهمة الخاصة للدير . والواقع أن الدير ، في شكله المثالي ، كان مجتمع أرسطو المكون من أفراد متساوين ينشدون أفضل حياة يمكن بلوغها . وقد كانت هذه الحياة المشتركة ميسورة بل جذابة في القبر ، فهل ستكون ميسورة كذلك في الرخاء ؟ .

٣ - المطامير إلى الحمام

كان لابد للحياة القديمة من أن تمضي في انحلالها إلى مدى أبعد من ذلك قبل أن يتيسر حياة جديدة أن تهيئ شكلها في العصور الوسطى ، ولكن يجب ألا نتصور أن هذا التغيير قد حدث على وجه مفاجئ أو على نسق واحد في كل مكان .

وما من شك أن الحياة بوجه عام ، أصبحت في جميع أنحاء أوروبا ، أكثر فجاجة وانسافاً بالفوضى . ولقد كان حقاً كذلك أن القوة التكوينية لم تعد « رومانية » حتى من قبل أن تتفكك الإمبراطورية ، فتارة كانت السفن المحملة بالبردى من مصر يستولى عليها القراصنة ، وتارة أخرى كان ينعدم وجود الخدمة البريدية ، أو تارة ثالثة كان يخفى أحد البطارقة الأقدمين ، وهو على وشك أن يصبح أكبر الموظفين المدنيين في روما ، ثم يظهر في دير إسباني بعد أربع سنوات من الصمت . وقد تناقص عدد السكان في مجموعه بفعل القحط والمرض . ومن المحتمل أن تكون نسبة المواليد قد نقصت ، وإذا كان من المتعذر تحديد مدى ذلك ، فإنه من المحقق أن السكان الباقيين في المدن كانوا أقل عدداً ، وأن المدن القديمة لم تعد كما كانت مراكز للإنتاج والتجارة .

ولدينا صورة عما كان يجري في بلاد الغال أكثر وضوحاً منها عما كان يدور في سواها - وذلك بفضل وفرة الأدلة الأدبية - ولا شك أن المدن التي أفلحت في تحصين نفسها في وجه المتبريرين كانت تشغل مساحة تقل كثيراً عما كانت قد امتدت إليه فيما سبق . فمدينة پوردو خفضتها أسوارها إلى ثلث حجمها السابق ، ومدينة أوتن (Autun) - التي أنشأها أغسطس - انكمشت من مدينة تبلغ مساحتها خمسمائة فدان إلى قرية مساحتها خمسة وعشرون فدناً .

بل إن لدينا صورة أوفى من ذلك عما حدث لمدينة نيم (Nîmes) ومدينة آرل (Arles) في مقاطعة بروفانس ، ففي نيم حوّل القوط الغربيون (Visigoths) المدرج القديم إلى مدينة صغيرة تضم ألفين من السكان وكنيستين ، وبعد إغلاق مداخل المدرج أصبحت جدرانها الفخمة بمثابة متاريس . وعلى الرغم من أن أسوار آرل كان قد أعيد بناؤها على يد ثيودوريك (Theodoric) ، فإنها دمرت من جديد في خلال الصراع بين شارل مارتل والعرب . وعقب ذلك استخدم المدرج كحصن في آرل أيضاً ، ونشأت في داخله مدينة صغيرة من مدن العصور الوسطى ، كانت أكثر ازدهاراً من أغلب تلك المدن . ولا تزال تشهد بذلك صورة مطبوعة من القرن السابع عشر ؛ لأن مباني هذه المنشأة الصغيرة لم تهدم إلا في أوائل القرن التاسع عشر .

والحصارة المسيحية التي ظهرت وسط هذه الظروف ، لم تتخذ شكلاً حضرياً قبل القرن الحادى عشر . بيد أن بذورها كان قد سبق غرسها في الكنيسة وفي الدير ، فإن المباني الدينية الباقية تعبر عن حاجات ذلك العصر المضطرب بما فيها من توجيه عناية خاصة إلى الإحاطة ، والوقاية ، والأمان ، وطول البقاء ، والاستمرار . وتشهد بذلك كنائس سان استفانو روتونديو ، والبي ، ودرهام .

إلا أنه فيما بين القرنين السادس والحادى عشر — عندما دبّت الحياة أخيراً إلى مدن الغرب وأخذت تنمو وتتكاثر — تقع فترة « رومانسكية » ذات مظاهر متناقضة يجب تفهمها . فقد كانت السحب الزاحفة فوق الأفق داكنة مضطربة ، ولكن ومضات من النور كانت تنفذ خلالها من حين إلى حين ، ومثل ذلك القدرة الخلاقة العظيمة للرهبة في إيرلندا وبخاصة في أيونا (Iona) . بيد أن الظلام اشتد وأرخبى سدوله من القرن الثامن إلى القرن الحادى عشر ، وحالة العنف والشلل والفرع ، التي اتسمت بها

بداية هذه الفترة ، ازدادت سوءاً من جراء غزوات العرب وقراصنة بحر الشمال (Vikings) ، فكان كل فرد ينشد الأمان . وعندما أصبح من المحتمل أن تكون كل فرصة غصة ، وأن تكون كل لحظة هي آخر لحظات الحياة ، احتلت الحاجة إلى الحماية مكان الصدارة بين مشاغل الناس . كافة ، ولم تعد العزلة تكفل الأمان . وإذا كان الدير قد تولى القيادة في الانسحاب ، فإن المدينة تولت القيادة في الهجوم المضاد .

ولم تكن الأساليب القديمة قد اختفت كلية في أى وقت في إيطاليا وفرنسا وإن كانت قد ضعفت وتراخت . وهذا يفسر ما كان في تلك الحياة من التيارات الوثنية الخفية ، وهى تيارات بلغ من عمقها أن اللوين الأسود والأبيض اللذين كانا يستخدمان في تماثيل فينوس ، على نحو ما عرفها العالم الرومانى ، أعيد استخدامهما فيما بعد في صنع الصور السوداء والبيضاء التى تمثل السيدة مريم العذراء . وإن ما سمي نهضة القرن الثانى عشر ، كان على الأصح استعادة شىء وعيه الكامل - شىء لم يكن قد استبعد أو نُسى كلية على الإطلاق . ألم يستشهد جون الساليسبرى John of Salisbury بأفلاطون قبل أن يعود دعاة الأفلاطونية إلى إيطاليا بمئات السنين ؟

وما الكامپو سانتو^(١) (Campo Santo) الذى أقيم في بيزا في القرن الثانى عشر إلا مجموعة مبان عامة منفصلة بعضها عن بعض ، وتقوم في الحرم القسيس الخاص بها ، على مثال أقرب شهاً إلى الأكروبول أو القوروم منها إلى سوق العصور الوسطى . وفى الحقيقة أن المهندسين المعماريين ، على حد قول فسارى (Vasari) ، استمدوا بعض الإلهام من التحف الأثرية والتوابيت الحجرية التى كانت سفن بيزا تأتى بها من الشرق -

(١) أحد الأجزاء التى كانت تتكون منها كاتدرائية بيزا .

بيد أن هذا الإعجاب بالأعمال الرومانية القديمة لم يكن من نتائج حركة إحياء المعارف القديمة التي جاءت فيما بعد ، بل كان على الأصح بمثابة تجميع تراث حتى سلبته أحداث منكودة أفضل الأمثلة المحلية الدالة عليه . وهل مبنى التعميد (Baptistry) ذاته ليس مستمداً إلى حد ما من الحمام الروماني ، فهذا المبنى وإن كان حماماً مطهراً سامياً للاغتسال طبقاً للطقوس الدينية إلا أنه كان يعادل الحمام الروماني في فخامة الحجم ؟ ولعله ليس من قبل المصادفة أن مبنى التعميد يبلغ درجة فذة من الضخامة ، كمنى منفصل ، بوجه خاص في البلاد التي أنتجت أصلاً نموذج الروماني الدنيوى .

بيد أنه حتى حيث ظلت الحياة القديمة باقية ، شأنها شأن نبات معمر يبدو كأنه قد ذوى بما علاه من السواد بتأثير صقيع الشتاء ، فإنه ليس في وسع المرء أن ينكر النقص العام في مدى النشاط والقدرة الخلاقة . فقد كانت الحياة تنحدر نحو مستوى الكفاف ، وكان الفرد ، في سبيل سلامة بدنه لا أكثر ، يضع نفسه راضياً مسروراً تحت حماية زعيم من المتبررين . والواقع أنه عندما حاق الانحلال بالمدينة أخذت أجزائها الأصلية المختلفة تعود إلى الظهور كل على حدة . وهكذا فإن الزعيم القديم ، ومن حوله عصيته الحربية ، عاد إلى الظهور في معقله المحصن ، باسطاً سلطانه على عدد من القرى . ومن ثم فإن التطورات الحضرية التي لا يستطيع المرء المخاطرة بإبداء الرأى عنها إلا مع التحفظ الشديد ، فيما يتعلق بفلسطين وبلاد ما بين النهرين ، أصبح من الممكن الآن تأييدها بأدلة موجودة في جميع أنحاء أوروبا .

وإذا كان تطويق العرب للبحر المتوسط قد عجل بالانتقال من النظام الإمبراطورى المتجانس إلى نظام اقتصادى محلى يقوم على الإنتاج والمقايضة ، ويحشوه خليط سقيم من العادات المحلية والتشريعات المتضاربة ،

فإن الضربة الحاسمة قد كالتها غزوات أهل الشمال (Norsemen) من الطرف الآخر لأوروبا في القرن التاسع ، أجل الضربة الحاسمة والخطوة الأولى نحو النهوض . وكان الغزاة يقومون بهذه الإغارات الهوجاء في سفن صغيرة كانت تتغلغل إلى قلب البلاد فيما بين بريتاني (Brittany) ونهر الألب (Elbe) ولم يكن لأى إقليم ما يعصمه مما كانوا يقومون به من النهب والحرق والذبح . ولعل خشية التعرض لثل هذه الغارات قد أوجدت رابطة جديدة قوامها المنفعة فيما بين الزعيم الإقطاعي ورعاياه من الفلاحين . بيد أنها كشفت أيضا عن انحطاط المستوى الفنى لعصابات الحرب المحلية المتفرقة التي كانت تتجمع سراً على الأقدام لصده هجمات يقوم بها قادة سريعو الحركة ، متمرسون بفنون الملاحة ، ومتخصصون في الحروب .

ولقد كانت الحاجة وحدها هي التي هدت إلى الكشف من جديد عن ذلك الواقى القديم ، وهي السور ، فحيال الغارات المفاجئة ، كان السور بقيامه بالحراسة المستديمة ، أكثر نفعا من أى قدر من الشجاعة العسكرية . وكان من المستطاع شكاكة قوة ومناعة حصن جاثم على صخرة وعرة المنحدر ، حتى في الأراضي المنخفضة ، وذلك إذا ما قام أهل قرية بتشيد سور من البناء أو حتى سياج متين من الأخشاب ، ولدينا أدلة باقية عن مثل هذه الأسيجة في بولندا ، من المحتمل أن إنشاءها يرجع إلى عهد مبكر يبلغ القرن الخامس قبل الميلاد ، ولو أن هناك شكاً كبيراً فيما إذا كان الغرض الأساسي منها حجز المواشى والأطفال في الداخل ، أو صد المغيرين من الخارج . بيد أن سورا ضخما من الأحجار ، ولا سيما إذا كان محوطا بخندق ، كان كشيلا برد المهاجمين .

وفزعاً من المغيرين ، عمد سكان ماينز (Mainz) مثلاً إلى إعادة بناء أسوارهم الرومانية المهتمة . وتنفيذاً لأوامر صادرة من الإمبراطور الألماني هنرى الأول ، أقيمت أسوار حتى حول أديرة الرهبان والراهبات لحمايتهم

من هجوم الوثنيين ، فقد سبق أن دمر أهل الشمال دير سنت أومر (St. Omer) مرتين في القرن التاسع - في سنتي ٨٦٠ ، ٨٧٨ - ولكن عندما عاد هؤلاء القراصنة في سنة ٨٩١ وجدوا أن الدير قد انتهى إلى إقامة أسوار واستطاع أن يتحداهم . ولقد بلغ حقيقة من نجاح هذه الوسيلة الجديدة لكفالة الأمان أنه عندما أقبل القرن العاشر كان دير سنت أومر قد تحول إلى مدينة .

وفي وقت مبكر يرجع إلى سنة ٩١٣ ، تروى « حوليات الانجلوسكسون » (Anglo-Saxon Chronicle) بالإضافة إلى ذلك ، أن بناء الحصون والأسوار حول مراكز الاستقرار كان أحد وجوه النشاط الرئيسية لجيش الملك . وفي هذا أيضاً دليل آخر ، إن كان ثمة حاجة إلى ذلك ، على الدور الذي قام به الملوك في بناء المدن بفضل مقدرتهم على حشد المزيد من الأيدي العاملة . بل إن « الحوليات » تحدثنا بأنه في وقت أقدم عهداً يرجع إلى سنة ٨٨٥ ، كانت مدينة روتشستر (Rochester) محوطة بالأسوار ، وبأن مواطنيها نجحوا في الدفاع عنها ، على حين أنه بعد ذلك بسنة تولى الملك الفريد بنفسه تحصين مدينة لندن . وقد أصبح أداء الخدمة العسكرية واجباً على كل مواطن ، بل لعله ، كما أبدى فردريك وليم ميتلاند ، كانت المقدرة على التزود بجيش دائم والقيام بترميم الأسوار حول مدينة ما ، من بين المؤهلات اللازمة لحصول المدينة على حقوق البلديات .

ولم يكن سياج الأسوار يهيء حماية فحسب من الغزو الخارجي ، بل كانت له مهمة سياسية جديدة ، فقد أثبت أنه أداة ذات حدين . وذلك أنه بتبديل سنة المدينة القديمة كان في الاستطاعة استخدام السور لصيانة الحرية في الداخل . وبفضل السور كان يتسنى للمدينة صغيرة أن تغدو معقلاً ، بعد أن كانت يوماً عديمة الحيلة حتى أمام قوة مسلحة صغيرة . وقد كان الناس يتوافدون زرافات إلى مثل هذه المراكز المباركة التي كان الأمان

يتوافر فيها ، بعد أن كانوا في الأصل يخضعون بدافع من اليأس إلى إقطاعيين تحت إمرتهم عصابات مسلحة ، ويصبحون في عداد أتباعهم وأقنانهم ، لقاء الحصول على الأمان وعلى قطعة من الأرض ، أو كانوا يتخلون عن كل أمل في السعادة المنزلية وينشدون مأوى عقيم في دير للرجال أو النساء .

وعندما أقيم السور وجد الأمان في ظل كثرة العدد ، فالحياة في عزلة الريف ، ولو في كنف قلعة مجاورة ، لم يعد لها من الجاذبية ما كان للحياة في مدينة آهلة بالسكان . وكان العمل في بناء السور ذاته ثمناً رخيصاً يؤديه الفرد للحصول على مثل هذا الاطمئنان والانتظام في التجارة والعمل . وعلى الرغم من أن الحق في إقامة الأسوار ظل امتيازاً ملكياً — وهو أمر له دلالة — فإن صالح كونستانس في سنة ١١٨٤ أعطى هذا الحق للمدن الحرة في إيطاليا .

ولنتأمل تتابع الحوادث ، ففي أول الأمر كانت الحياة في الريف ، وقد استبد بها الخوف ، تقوم على الإنتاج المحلي والمقايضات المحلية على الأغلب ، وكانت الأديرة والمزارع الملكية هي وحدها التي تتبادل ما لديها من نبيذ وجيوب وزيت عبر مسافات بعيدة . وكان ما يرد من التجارة إلى مدينة ما غير منتظم ولا يمكن التعويل عليه ، ولكن ما إن كان يبنى سور حول مدينة ما حتى كانت تظهر سمات عادية أخرى للحياة الحضرية ، وذلك أنه بعودة الوعاء إلى الوجود كان يغدو كذلك قطباً مغناطيسياً . وكثيراً ما كان امتداد السور من القلعة أو الدير إلى القرية المجاورة أمانة على بدء التكوين المادي للمدينة ، ولو أنه لم يكن يتسنى لها الحصول على الحقوق القانونية الكاملة لتصبح لها أهلية البلدية العاملة إلا بعد مساومة شاقة مع الأسقف أو المالك الإقطاعي الذي كانت الأرض في حوزته :

وإن أعظم امتياز اقتصادي — وهو الحق في إقامة سوق منتظم مرة في كل أسبوع يجمع المتجاورين من الفلاحين والصيادين وأرباب الحرف لتبادل ما لديهم — كان يعتمد في آن واحد على توفير الأمان بالوسائل

المادية والحماية القانونية ، ولذا فإنه على نحو ما كان يحدث في بلاد الإغريق قديماً كان من يذهبون إلى السوق يتمتعون في خلال ساعات البيع والشراء « بحماية سلام السوق » ، وكان يرمز له عندئذ بالصليب الخاص بساحة السوق : وهنا حصلت طبقة جديدة على الحماية من السرقة ومن دفع إتاوة تعسفية ، فأخذت تستقر بصفة مستديمة خارج الأسوار مباشرة في مبدأ الأمر ، ونعني بها طبقة التجار . وعندما أصبحوا أعضاء مستديمين في هيئة مواطني المدينة ، بدأ عهد جديد ساعد على إعادة فتح الطرق العامة البرية والمائية القديمة .

وأما أن التجار كانوا يمثلون طبقة جديدة ، فإنه يمكن استنتاج ذلك من موقع مكانهم في الضاحية التي استحدثت تخطيطها خارج الأسوار مباشرة . وإذا كانت القلعة أو الدير مركز المدينة في البداية ، فإنه بعد القرن الحادى عشر أخذت وجوه النشاط الجديدة للمجتمع تنتقل تجاه ساحة السوق ، وقد كانت أمانة إدماج التجار وأرباب الحرف في عداد المواطنين الأحرار ، كانت أمانة ذلك في أكثر من مكان واحد مد نطاق السور حول ضاحيتهم . ومما له دلالة أن تلاحظ ، كما لاحظ هيجل (Hegel) أن الحى الجديد في مدينة ريغنزبرج (Regensburg) في القرن الحادى عشر على نقيض الحى الملكى وحى الكنيسة — كان حى التجار :

وفي مدينة القرون الوسطى حققت هذه القوى الروحية والزرمنية عن طريق طوائفها المهنية — وكانت تشمل المحارب والتاجر والقسيس والراهب والشاعر والعالم والصانع والتاجر — حققت نوعاً من التوازن . ولقد ظل هذا التوازن واهناً غير ثابت ، بيد أن الجهود التي بذلت للمحافظة عليه كانت مستديمة ، كما كانت النتيجة ملموسة ؛ إذ أن كل عنصر تكون منه المجتمع كان يقام له وزن ويمثل كما يجب . وإلى نهاية العصور الوسطى — وهذا حقاً من أمارات النهاية — لم يكن أى عنصر قد بلغ من القوة

ما يهيئ له أن يقيم على وجه دائم سيطرته على كل العناصر الأخرى . وقد كانت نتيجة ذلك من الناحيتين المادية والسياسية أن مدينة العصور الوسطى - ولو أنها أعادت كثيراً من مظاهر أقدم الأنظمة الحضرية - كانت من بعض الوجوه منشأة أصيلة . وإذا كانت الحرية ، والمساواة في الحقوق العامة ، والمشاركة الديمقراطية ، والحكم الذاتي ، لم تتحقق على الإطلاق تحقيقاً كاملاً في أى مدينة من مدن العصور الوسطى ، فاعلمه كان يوجد فيها من هذه الصفات قسط أكبر مما عرف في أى وقت من قبل ، حتى في بلاد الإغريق ، ولفترة وجيزة انتصر الإخاء على السيطرة .

وإن ما جرت به العادة من منح الحرية للمدن فيما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر كان في الواقع تخلياً من جانب سادة التلعة عن ذات ضروب الجزية والاعتصاب التي كانت أصلاً سبباً في ظهور المدينة إلى الوجود . وعلى الرغم من أن الحصن كثيراً ما كان يطل على المدينة بشكله الخفيف مهدداً إياها باستئناف مباشرة امتيازاته الأصلية ، فإن السيادة الإقطاعية اتخذت مكانها في المدن الحرة بوصفها مجرد وحدة أخرى شبه بلدية - لها الصدارة بين وحدات متساوية في المرتبة - ولو أنه بعد ذلك ببضعة قرون ، نتيجة لقيام سلطات مركزية مستبدة ، استعاد الأمراء الامتيازات التي كانوا قد فقدوها ، بل إنهم زادوها زيادة عظيمة . ويمكن تبين المدى التام لما كان عساه أن يبلغه التخلي الأصلي ، من قرار منح مدينة برشلونة الحرية ، فإن الملك رسم فيه بأنه لا يجوز لأى جامع مكوس ولا محصل ضرائب ، ولا أى موظف آخر أن يعرقل أو يعوق تنقلات أى فرد من المواطنين ، أو من موظفيهم أو رسلهم ، ولا بضائعهم أو سلعهم التجارية .

وهذه الحركة الحضرية - التي نجمت عما كان في أوروبا الرومانسكية من عدم الأمان والاضطراب - لم تسر على نسق واحد ، فقد تولتها قيادات متعددة ، ونشأت عن ظروف مختلفة ، وأدت إلى نتائج متباينة .

وفى بعض الأحيان كانت حركة العمران الحضري يشجعها عن قصد أمراء الإقطاع ؛ طلبا لزيادة دخلهم من وراء الانتفاع بإيجار الأرض التي تشغلها المدينة ، وبأخذ نصيب من المكوس التي تدفع في السوق المحلي ، وبالاستفادة من وجود عدد كبير من المستهلكين لزيادة قيمة منتجات مزارعهم الخاصة التي لم يوجد سبيل إلى استهلاكها في مكان إنتاجها . وكثيراً ما كانت مطالبة المدن بالاستقلال تلقى معارضة من أرباب الأملاك الإقطاعيين ، وبخاصة من الأساقفة ، وقد كانوا أشد بأساً من الزعماء الحربيين ؛ إذ كانوا يمثلون نظاماً مترامياً الأطراف يسيطر على موارد مادية وروحية من نوع غير مألوف . وفى بعض البلاد ، مثل إنجلترا وفرنسا ، كان حصول المدن على الحقوق البلدية يستمد العون من تحالف وقى بين المدن والسلطة المركزية ، بوصف ذلك وسيلة لإضعاف النبلاء الإقطاعيين الذين كانوا يتحدون سلطان الملك . ولكن سواء فى حالتي التأييد أم المعارضة ، فإن السكان كانوا يتدفقون على هذه المراكز المحمية ويقومون ببنائها وإعادة بنائها وينهضون بالنواحي المهمة فى حياتهم إلى مستوى جديد من النشاط والإنتاج . وفى مدى بضعة قرون استمدت مدن أوروبا كثيراً مما كانت قد فقدته فى أثناء انحلال الإمبراطورية الرومانية .

٣ — زيادة السطوة والثروة

كثيراً ما يعتبر انتعاش التجارة — حتى فى نظر علماء ممتازين مثل بيرين (Pirenne) — السبب المباشر لما تم فى القرن الحادى عشر من بناء المدن وضروب النشاط التي أدت إلى انتشار المدنية ، بيد أنه قبل أن يتسنى انتعاش التجارة ، كان لا بد من وجود فائض فى المنتجات الريفية وفائض فى السكان ، حتى تتوافر فى آن واحد السلع للتجارة والعملاء لشراؤها . فلو أن التجار كانوا أغلب النازلين بالمدن الجديدة ، لكان من شأن ذلك أن تقتصر حركة التعامل عليهم وحدهم .

وتبعاً لازدياد استجابة الشعوب المتبربرة في شمال ووسط أوروبا إلى المسيحية - ولعله قد أغراهم بذلك ما فيها من باهر الأساطير والمعتقدات الخرافية أكثر منه ما فيها من إدراك عميق لحالة البشر - اتسع نطاق الدور الذي كانت الكنيسة تقوم به . وكانت الحماية التي يمنحها الأساقفة تنافس تلك التي كان يمنحها النبلاء الإقطاعيون ، كما أن ازدياد ما كان للكنيسة من قوة اقتصادية - بوصفها مالكة للأرض التي في حوزتها ، عن طريق الشراء أو الهبات الدينية - أكسب الكنيسة مكانة اضطر الملوك أنفسهم إلى احترامها . ولقد قامت طوائف الرهبان بدور الرواد في الإفادة إلى أقصى مدى مما كانت هذه الظروف تنطوى عليه من ألوان الشقاء ومن الفرص ، والواقع أنهم تولوا قيادة حركة التقدم الحضري بأكملها ؛ إذ كانوا يوفرون ملاذاً للاجئين ، ومأوى مضيافاً للمسافر المهوك القوى ، ويشيدون القناطر ويقيمون الأسواق . وفي تاريخ مبكر سُمي دير النساء في جرنرود (Gernrode) بألمانيا ديرواقعة (Kloster und Burg) ، وما أكثر عدد الأديرة الأخرى التي قامت كذلك بدور مزدوج بوصفها أماكن يلوذ الناس بحمايتها .

ولحسن الحظ أن إقامة سوق منتظم في مكان مأمون عادت بالفائدة على الأمير الإقطاعي أو الدير مالك الأرض . وقبل انتعاش التجارة انتعاشاً عظيماً في القرن الحادى عشر بزم من طويل ، نجد أنه في عهد أوتو الثانى (٩٧٣ - ٩٨٣) رخص للأرملة إيمما (Imma) ، وكانت تقوم بإنشاء دير في كيرنتن (Kärnten) ، بإقامة سوق ودار لسك النقود ، وبأن تجبى ضرائب عنهما ، وهى شروط مطابقة لما كان يرد بعد ذلك بأمد طويل في المراسيم الخاصة بالمدن الجديدة . ويلاحظ هيجل ، علاوة على ذلك ، أنه في عهد أوتو كانت أغلب امتيازات الأسواق تمنح لأصحاب الأملاك من رجال الدين ، فقد كانوا يفضاؤون على النبلاء الدينيين .

وفى لومبارديا ، حيثما كانت توجد مدن قائمة من قبل ، كانت كل أملاك البلديات القديمة ومتعلقاتها ، وكذلك حقوق الحكم والقضاء ، تنقل بصفة آلية إلى الأسقفية ، وكان أسقفها يباشر فعلا السلطات القديمة لمدير البلدية ، وقد تمت مثل هذه المنحة فى مودينا فى سنة ٨٩٢ وفى برجامو فى سنة ٩٠٤ . وإن الكنيسة التى كانت لها الأولوية فى توفير الأمان والنظام ، لم تقبل إلا على مضض أن تنزل بدورها عن مهامها البلدية إلى نقابات التجار وأرباب الحرف .

ولم يكن فى وسع أحد الإخلال بسلام السوق دون التعرض للعقاب الشديد ، فلقد اعترف بأن السلام جوهرى للتجارة ، وذلك منذ أمد بعيد يرجع إلى عصر هومر ، بل ربما كان يرجع إلى ما قبل ذلك بزمان طويل . وفى البلاد الواقعة تحت حكم ملكى ، ظهر إلى الوجود قانون خاص بالسوق كان يطبق على المعارض والأسواق ، وظهرت مع القانون محكمة خاصة كان اختصاصها يتناول التجار . وفى إنجلترا كان يطلق على هذه المحكمة اسم محكمة « مسحوق الفطائر » (Court of Pie Powder) — وهو التعبير الإنجليزى للاصطلاح النورماندى « أقدام يعلوها الغبار » . وهكذا فإن مختلف أنواع الأمان التى كان يوفرها الدين ، والتشريع والمعاملات الاقتصادية العادية — إذ أن كل ذلك لم يكن أقل شأنًا من الهندسة المعمارية فى توفير الأمان — تكاثفت جميعاً فى إنشاء مدن العصور الوسطى .

ولكن فلنلاحظ أن السوق المنتظم ، الذى كان يقام مرة ، وفى بعض الأحيان مرتين أسبوعياً تحت حماية الأسقف أو رئيس الدير ، كان أداة فى الحياة المحلية وليس فى التجارة الدولية . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو إلى العجب من أنه فى سنة ٨٣٣ ، عندما كان أغلب التجارة بين بلاد بعيدة عن بعضها بعضاً ما زال معطلا ، منح لويس الورع (Lewis the Pious)

في ألمانيا ترخيصاً إلى أحد الأديرة لإقامة دار لسك النقود من أجل سوق كان موجوداً من قبل . ومن ثم فإن انتعاش التجارة في القرن الحادى عشر لم يكن الحادث الحاسم الذى وضع الأسس لقيام مدينة من طراز جديد في العصور الوسطى ، وقد أوضحت آنفاً أن كثيراً من المدن الجديدة أنشئت قبل حدوث هذا الانتعاش ، ومن الميسور إضافة المزيد من الأدلة على ذلك . وقد كان النشاط التجارى على الأصح مظهراً لانتعاش أكثر اشتئالاً كان يسرى في الحضارة الغربية ، وكان ذلك دليلاً جزئياً على الإحساس الجديد بالأمان الذى كانت ذات المدينة المطوقة بالأسوار قد ساعدت على إيجاده .

وإذا كانت التجارة أخذ مظاهر ذلك الانتعاش ، فقد كان التوحيد السياسى لنورمانديا والفلاندر و كويتانيا وبراندنبرج مظهراً آخر ، كما أن ما قامت به طوائف الرهبان من استصلاح الأراضي وإزالة الغابات كان مظهراً ثالثاً . ويجب أن يعد مظهراً رابعاً ذلك البرنامج الضخم للبناء الذى خلج على أوروبا « رداء أبيض من الكنائس » . فالبابى ليست من السلع التجارية . والمبالغة في التنويه بالدور الذى قام به السوق في إنشاء المدن إنما ترجع من ناحية إلى أن المؤرخين فروا أحداث الماضي بعوامل ودوافع العصر الحاضر ، كما ترجع من ناحية أخرى إلى عجزهم عن التفارقة بين مختلف الأدوار التى تقوم بها الأسواق المحلية والإقليمية والدولية . ولقد أساء « بيرين » فهم هذا التطور بأكمله ، لأنه أبى أن يطلق لقب مدينة على أى مجتمع حضرى كان لا يعنى بالاتجار مع جهات نائية ويضم عدداً كبيراً من أبناء الطبقة المتوسطة المشتغلين بالتجارة - وهو تعريف جد تعسفى .

إن الأسواق الدولية قليلة الأثر في إنشاء المدن ، وكثيراً ما أقيمت الأسواق الكبرى الدولية في العصور الوسطى في مناسبة عيد دينى ، عندما كان الحجاج يتوافدون من جهات عديدة في أنحاء البلاد على مزار مقدس ؛

فقد كان من شأن تجمع الحجاج أن يجتذب مؤقتا التجار المنجواين إلى مثل هذا المكان ، ولكن أمثال هذه الأسواق كانت لا تقام إلا أربع مرات على الأكثر طوال العام . وعندما كان الحجاج يرحلون كان التجار كذلك يرحلون . ومثل هذه التجارة الدولية كانت أضيق نطاقا من أن تعين على استمرار الحياة في مدينة ما على مدار السنة بأكملها ، والواقع أننا نعلم من المثال المتأخر الذى نستمدّه من مدينة « نيجنى نوفجورود » (Nizhni Novgorod) أن المدينة التى كانت تنبت فجأة حول السوق كان مصيرها أن تصبح مهجورة تقريباً في باقى السنة . ومن ثم فإن التجارة الدولية لم تكن سبباً في نشأة مدن العصور الوسطى ، إلا أنها ساعدت على نموها ، كما حدث في البندقية وجنوة وميلان وآراس وبروج (Bruges) ، بعد أن كانت قد أنشئت لأغراض أخرى .

وعلى العموم فإن السبب في أن الدور الذى قام به التاجر في نشأة المدن كان دوراً ثانوياً يجب أن يكون واضحاً ، وهو أن انتعاش التجارة على أسس رأسمالية كان مقصوراً على سلع الترف المحلوبة من جميع أنحاء أوروبا ، بل حتى من الشرق ، بعد الحروب الصليبية . بيد أن المدينة ذاتها كانت مكان التعامل في المنتجات المحلية للزراعة والصناعات اليدوية ، ولذلك فإنه حتى في عهد متأخر عن القرن الحادى عشر كان التجار وأتباعهم لا يؤلفون إلا جزءاً يسيراً من سكان المدينة ، طبقاً لما يقوله جورج فون بيلوف Georg von Below . ومهما يبلغ من الأهمية التى أصبحت للتجارة ، فإن المنتجين في مدينة العصور الوسطى هم الذين كانت تتألف منهم أربعة أخماس السكان بالقياس إلى ما لعله يبلغ الخمس أو أقل في مدينة الوقت الحاضر .

وما من شك في أن مدناً مثل شارتر (Chartres) ، بسكانها البالغين عشرة آلاف نسمة وكاتدرائيتها الشهيرة كانت توفر من أسباب تيسير أمور الحياة ما كان يجذب إليها الحجاج والتجار في آن واحد ، وبذلك اكتسبت

مكانة تقارب مكانة سوق دولية . وكانت الأرباح الإضافية التي تنشأ عن مثل هذه الغارة المؤقتة — كما يحدث في حالة انعقاد اجتماع لهيئة كبيرة . أو مؤتمر في مدينة حديثة — يفيد منها الجزارون والحجازون وتجار المشروبات الروحية مثلاً كان يفيد صناع القمصان المقدسة ، مما مكن نقابات هذه الحرف — كما يذكرنا فون سمسون (Von Simson) — من تقديم النوافذ الخمس العظيمة في المقصورة التي أقيمت في الكاتدرائية إجلالاً للسيدة العذراء .

فالحقيقة إذن تناقض تماماً تفسير بيرين ، وذلك أن نهضة المدينة المحمية كانت هي التي ساعدت على إعادة فتح طرق التجارة الإقليمية والدولية ، وأدت إلى تداول الفائض من السلع عبر أوروبا ، وخاصة تلك الأنواع من سلع الترف التي كان يتسنى بيعها بأرباح عالية إلى الأمراء والعظماء ، أو تلك الأصناف التي كان يشح وجودها محلياً إلى حد يرفع من قيمة ثمنها ، كالصوف الممتاز من إنجلترا ، والتبذ من حوض الرين ، والتوابل وأنواع الحرير من الشرق ، والدروع من لمبارديا ، والزعفران والزئبق من إسبانيا ، والجلود من بومرانيا ، والأقشة الأنيقة من الفلاندر ، ولم تكن أقل من هذا شأناً الأيقونات الدينية ومتعلقات العبادة من مختلف مراكز الفنون .

وكانت تتألف من المدن نقط ارتكاز في طريق سير هذه السلع ، من ييزنطة إلى البندقية ، ومن البندقية إلى أوجسبرج ، ومن ثم عبر الدين ، وكذلك الشأن أيضاً من مرسيليا وبوردو إلى ليون وباريس ، أو من مدن البحر البلطي مثل دانتزيغ وسترالسند (Stralsund) صوب الجنوب حتى البحر المتوسط . وإن الكعك (marzipan) الذي اشتهرت به مدينة لوبيك ليدل في آن واحد بالاسم الذي عرف به « خبز القديس مرقص » ، وبتركيبه من « اللوز وماء الورد » على صلة هذه المدينة بالبندقية وبلاد الشرق . وبمرور السلع على هذا النحو ، فإن المدن التي أنشئت في بادئ الأمر على أساس من الإنتاج المحلي ازدادت في عدد السكان وفي الثروة ، وبطبيعة الحال صاحب ذلك ازدياد عدد السكان من التجار .

وعندما أصبح ما في متناول اليد من الطعام أكثر وفرة ، وعندما أصبحت مراكز الاستقرار الحضرى أكثر أمناً ، فإن التجارة حفزت إلى نمو المدن عن طريق آخر كذلك ، وبيان ذلك أنه كان لا بد من دفع ثمن سلع الترف الأجنبية نقداً ، وتبعاً لازدياد الطلب على أدوات الأناقة والزينة ، وتبعاً كذلك لازدياد الحاجة إلى المال لتجهيز معدات جند الإقطاع وبخاصة للفرسان أنفسهم بدروعهم الباهظة الثمن ، فإن أمراء الإقطاع كان لديهم حافز خاص يدفعهم إلى تحويل ممتلكاتهم من الأراضي الريفية إلى مناطق حضرية كانت تدر عليهم من الإيجار دخلاً نقدياً أوفر قدراً بكثير . ومن الجائز أن إمداد نشاط الرأسمالية بالمال لم يكن مقصوراً على الإيجارات الحضرية ، إلا أنه من المحقق أن نشاط الرأسمالية هو الذى أيقظ الرغبة فى الحصول على الإيجارات الحضرية ، وعندما نبت مثل هذا النشاط بعد الحروب الصليبية - إذ أنه بدأ يظهر فى أواخر القرن الحادى عشر - حرك الشبهة نحو سلع الترف الشرقية ، وهى التى كانت إلى ذلك الحين تكاد تكون غير معروفة فى اقتصاد يقوم إلى حد كبير على نظام الضيعة (manorial economy) .

ولقد حملت هذه الحاجة مالك الأرض الإقطاعى على اتخاذ موقف مزدوج إزاء المدينة . وذلك أنه عندما لم تعد القوة تتمثل فى ذهنه على نحو عسكرى . بحث ، أغرته نفسه بالتخلص من قسط يسير من سيطرته على أتباعه ومستأجرى أرضه ، بوصفهم أفراداً لكى يحصل منهم بوصفهم جماعة مسئولة على مبالغ نقدية وأجور حضرية ، وهى مطالب لم يكن القن الفقير المرتبط بالأرض ليقوى على الوفاء بها . ولقد كان هذا حافزاً ثانوياً هاماً إلى إنشاء مدن جديدة ومنح امتيازات جديدة للمراكز التى كانت آخذة فى الانبثاق من قرى بسيطة لمجرد ازدياد عدد السكان . وأما عزوف الأساقفة نسبياً عن منح حريات حضرية ، فإنه يمكن تفسيره بأنه كان نتيجة لما كان لديهم من دخل وفير دون الحاجة إلى التخلي عن أرض أو سيطرة سياسية .

ومع ذلك فإن الرأسمالية ذاتها قد أثبتت في أول عهدها أنها عامل هدام أكثر منها قوة بناءة في حياة مدينة العصور الوسطى ، لأن الرأسمالية عجلت بالانتقال من النظام الاقتصادى المغلق القديم - وكان يقوم على أساس الوظيفة والمكانة ويستهدف الطمأنينة ، ويتسم بطابع خلق مستمد إلى حد ما من قواعد الدين والمراعاة الدقيقة للروابط والواجبات العائلية - إلى نظام اقتصادى تجارى جديد يقوم على الإقدام الفردى الذى تحفزه الرغبة في كسب المال ، والتاريخ الاقتصادى لمدينة العصور الوسطى إنما هو إلى حد كبير عبارة عن قصة انتقال القوة من جماعة من المنتجين المشمولين بالحماية الذين كانوا يتكسبون ما يقوم بأود معيشة متواضعة ويحققون حالة من المساواة النسبية ، إلى جماعة صغيرة من تجار الحملة الذين كانوا يتمتعون بوضع ممتاز ، ويتألقون من أصدقاء الأمراء ومنافسيهم ، ويتعاملون على نطاق واسع - وكثيراً ما كان ذلك عبر مسافات طويلة - سعيًا وراء الأرباح الطائلة . ولقد اقترن بهذا الانتقال إنشاء تنظيم جديد للطبقات كانت المرتبة والمكانة فيه تتوقفان أساساً على المال ، وعلى القوة التى يستطيع المال الهيمنة عليها .

وموقف الحماية والخضوع الذى كان يمثل أصدق تمثيل حالة الرفيع والوضع في ظل النظام الإقطاعى قد تحول بدوره إلى نزع الملكية من جانب وإلى ثورة عارمة وضروب من التحدى من الجانب الآخر ، أى بالاختصار - تحول إلى حرب الطبقات التى لم يكن أحد يتوقع ولا يلقى رحمة فيها - بالضبط على النحو المثلث الذى كان خليقاً بأن يرضى كارل ماركس .

ولمدة فترة ، لعلها بلغت قرنين أو ثلاثة قرون ، امتزج النظامان في المدن ذاتها ، مما أدى في بعض الأحيان إلى نتائج وخيمة على حياتها الاقتصادية ، كما حدث في الفلاندر في سنة ١٣٣٦ عند ما أمر لويس دوتشيفر (Louis de Nevers) - من باب الولاء لمولاه ملك فرنسا - بإلقاء القبض على ممثلى إنجلترا ، فقابل الإنجليز ذلك باتخاذ إجراء مماثل من

جانبيهم ، مما قضى على تجارة الأقمشة التي كانت تزوده بدخله . وعلاوة على ذلك فإن هذا العمل أثار ثائرة نقابات « غنت » بزعامة چاك أرتفيلد (Jacques Arlevelde) . بيد أنه في النهاية كانت السيادة للمال في كل مكان حيال أنظمة الحماية الإقطاعية والنقابية في آن واحد ، وذلك لأن المال كان قادراً على التحرك والتركيز والتضاعف ، أما القوة في الأوضاع الأخرى فكانت ثابتة مقيدة ويتعذر جمعها ، فحتى أشد الملوك بأساً وقوة كانوا في قبضة قادة المال الذين كانوا لا يتفككون يشددونها .

وهذا التغير من نظام اقتصادي يقوم على الحماية المتبادلة إلى نظام يقوم على الاستغلال الرأسمالي من جانب واحد ، لم يترتب حتى ظهور حركة البروتستانتية في القرن السادس عشر ، على نحو ما جعل ماكس فيبر (Max Weber) ، لسوء الحظ ، الكثيرين من الناس يعتقدونه ، لأن حركة البروتستانتية ذاتها كانت ، على النقيض من ذلك ؛ قد بدأها الوالدنسيين (Waldensians) (١) — انظر كتاب « حالة الإنسان » (٢) — بمثابة احتجاج مسيحي ضد الأساليب الجديدة للرأسمالية . ولقد كان نظام الاقتصاد الرأسمالي بادياً بجلاء فوق الأفق عندما نظم تشوسر (Chaucer) قصيدته التي تفيض حنيناً وإشادة « بالعصر السابق » ، عند ما لم يكن هناك ربح ولا ثراء . والمدينة ذات الأسوار ، بهيئتها العش الذي تيسر لطائر الرأسمالية الوقواق أن يضع بيضه فيه ، مهدت السبيل لكي يجد أبناءها أنفسهم وقد زاحمهم حتى أجلاهم عن مكانهم فيها ذلك الوافد الجديد الصاحب الذي أفسحت له صدرها .

وفيا وراء انتعاش الصناعة والتجارة الذي حدث بين القرنين الحادي

(١) يطلق الفرنسيون عليهم فودوا (Vaupois) وكانوا من فقراء ليون الذين يظلمهم

في جماعة رجل يدعى بطرس والنو (Peter Waldo)

The Condition of Man (٢)

عشر والثالث عشر ، كانت توجد حقيقة ذات أهمية أساسية أخطر شأنًا ، وهى الاتساع العظيم فى مساحة الأراضى القابلة للزراعة فى جميع أنحاء أوروبا ، واتباع طرق فى الفلاحة أكثر وفاء بالغرض ، بما فى ذلك المواظبة بانتظام على استخدام السماد العضوى الناتج من المدن فى تسميد الأراضى الزراعية المجاورة لها . وفى هذا الصدد قد يتمخض عن تجمع السكان فى الحضر نموذج مفيد للعلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية يكون من شأنه تزويد الأرض بما يجدد قواها ويزيد فى جودة محصولها - لو أقيمت العلاقة على أساس إعداد السماد وليس على مجرد الاستهلاك . فترى أن مساحات من الأراضى فى ألمانيا كانت فى القرن التاسع غابات موحشة ، ثم حلت مكانها أراض مزروعة ، وأن الأقاليم الواطئة التى كانت تكثر فيها المستنقعات ولا تعمل إلا حفنة من الصيادين الأشداء تحولت إلى بقعة من أوفر أراضى أوروبا غلة ؛ وفى وقت مبكر يرجع إلى سنة ١١٥٠ أنشئت فى الفلاندر « الأحواض » الأولى ، ونعنى بها الأرض التى استصلحت عن طريق إنشاء الجسور ارد مياه البحر أو المستنقعات عنها ، فقد كان رجال أحرار ، مثل صيادى فريزيا (Friesia)^(١) ، يتجمعون معاً عن طوعية واختيار للقيام بعمل كان لا يتم إلى ذلك الحين إلا تحت الإكراه العسكرى القامى والتنظيم الجماعى العنيف ؛ فبدون قيادة قسيس ولا ملك ، وبدون الاستعانة بأية آلات أخرى سوى الجراف ، قاموا ببناء جسور عالية ومصاطب عظيمة من التراب كان من الممكن أن تقوم عليها مدينة بأكملها . ولقد كانت هذه الأعمال الباهرة التى تمت بفضل العمل الحر بمثابة تمهيد لانطلاق النشاط الصناعى الذى بلغ فى القرن السابع عشر ذروة كادت تكون انفجاراً .

ولقد كان استخدام الرى فى الزراعة معروفاً فى ميلان منذ عهد مبكر

(١) إحدى المقاطعات الشمالية فى هولندا .

يرجع إلى سنة ١١٧٩ ، وبالقرب من روشفور دى جارد Rochefort du Gard فى مقاطعة بروفانس جفف الرهبان بحيرة بأكملها وحولوها إلى مزارع عظيمة للكروم : وقد اقترن بذلك ارتفاع مستوى تربية الخيول ، وابتكار سرج أفضل ، واستعمال الحدوة الحديدية ، وانتشار الطواحين المائية والهوائية ، ولقد وفرت هذه التحسينات للمجتمعات الحضرية الجديدة موارد من القوة واسعة نسبياً ، وهيات لها ميزة اقتصادية على أهل الريف الذين كانوا أقل منها حظاً . ولم يترتب على المزيد من المخترعات الميكانيكية أنها غيرت طرق استغلال المناجم وصناعة التعدين وجعلت صناعة الزجاج من الصناعات الرئيسية فحسب ، بل إنها كذلك قضت ، على الحاجة إلى عمل الأرقاء ، وأوجدت فائضاً من القوة والسلع أعظم بكثير مما كان يستطيع أن يوفره نظام اقتصادى يقوم على أكتاف عبيد يتضورون جوعاً ، والتجارة التى كانت سفينتها قد جنحت خلال الفترة الرومانسكية دفعها مد الجهود المتزايدة فعادت مرة أخرى تمخر العباب ناشرة أشرعتها .

وهنا أيضاً ، كما أوضح برتراند جيل (Bertrand Gille) ، كانت الخدمة التى أسهم بها الدير خدمة حيوية ، فإنه بالذات نظراً إلى أن الرهبان كانوا ينشدون الاستغناء عما لا ضرورة له من العمل لكى يتوافر لديهم المزيد من الوقت للدراسة والتأمل والعبادة ، فقد تقدموا الصفوف فى استحداث مصادر ميكانيكية للقوة ، وفى ابتكار وسائل لتوفير العمل . وقد كانت قواعد بناء الصهاريج تشجع على بناء الأدبرة بالقرب من الأنهار التى كان يمكن التزود منها بالقوة المائية ، ويمكن معرفة مدى ما كان لذلك من قيمة كبيرة من وصف دير كليرفو فى ميني (Migne) فى عهد سانت برنارد .

« يدخل النهر الدير بقدر ما تسمح البئر التى تعوق سبيله ، فيتدفق أولاً فى طاحون الغلال حيث يستخدم بنشاط بالغ فى طحن الحبوب تحت ثقل وزن العجلات ، وفى هز المنخل الرفيع الذى يفصل النخالة عن الدقيق ، وبعد

ذلك ينساب إلى المبنى التالى فيملاً الرجل حيث يسخن ماؤه لإعداد الجعة التى يشربها الرهبان ، إن كان محصول الكرم لا ينى بما يكافئ جهود تاجر النبيذ . بيد أن النهر لم ينته بعد من عمله ، فإنه بوجه الآن نحو آلات عدك الأقمشة . التالية لطاحون الغلال ، فنى الطاحون أعد طعام الإخوة ، وواجهه الآن أن يساعد على صنع ملابسهم .. وهكذا فإنه يرفع ويخفض بالتناوب المطارق والمدقات الضخمة .. لآلات عدك الأقمشة .. والآن يدخل النهر المدبغة حيث يبذل كثيراً من العناية والجهد فى إعداد المواد اللازمة لصنع أحذية الرهبان ، وبعد ذلك ينقسم إلى عدة فروع صغيرة . وفى خلال سيره الحافل بالمهام ، يخرق أقساماً عديدة ، باحثاً فى كل مكان عن يكون فى حاجة إلى خدماته لأى غرض كائناً ما كان ، سواء أكان للطهى أم لإدارة آلة أم للصحن أم للرئى أم للغسل أم للطحن .. وفى النهاية ، لكى يستحق أتم الشكر ، ولكيلا يكون قد خلف وراءه عملاً لم ينجز ، يحمل معه الفضلات ويترك كل شئ نظيفاً .

ولم تكن هذه المعدات الميكانيكية غير مألوفة فى الأديرة ، بيد أنها احتاجت إلى وقت ومال لإدخالها ، ولو على صورة أكثر تفككاً فى مدينة العصور الوسطى ، فإن ما كان فى وسع الدير أن يزوه بتوافره لديه فى القرن الحادى عشر لم يتيسر للمدينة أن توفره إلا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وأوروبا التى نعرفها اليوم فتحت أبوابها ، أو أعيد فتحها ، للاستقرار على مدى ثلاثة قرون . وإن هذا العمل ليضارع تماماً فتح أمريكا الشمالية فيما بين القرنين السابع عشر والعشرين ، بل إن الإنسان ليستطيع فى الواقع أن يعتبر فتح أمريكا استمراراً لعملية الاستقرار الأصلية على أرض جديدة ؛ إذ أن استعمار نيو إنجلند قد تم على كل حال وفقاً للأساليب الحضريّة فى العصور الوسطى ، كما أن العناصر البريطانية الأرستقراطية التى استعمرت

فرجينيا ، والعناصر الهولندية التي استعمرت نيويورك ، فعلت ذلك طبقاً لنموذج إقطاعي أقدم عهداً يقوم على نظام اقتصاد الضيعة وما يتضمنه من الأرقاء ، وكذلك الخدم المرتبطون بعقود والتزامات (أى أقتان مؤقتون) .

وهذا التوسع في القاعدة الزراعية ، وهذه الزيادة في القوة المادية ، كانتا بدورهما هما اللذين يسرا زيادة عدد السكان . وطبقاً لتقدير بروسر بواسوناد (Prosper Boissonade) ، فإنه فيما بين القرنين العاشر والثالث عشر زاد عدد سكان المنطقة الواقعة بين الرين والموزل إلى عشرة أضعاف ما كان عليه . والمقاطعات الإنجليزية التي كانت تضم ١٠٠٠ ٢٠٠ ١٠ نفس في سنة ١٠٨٦ - وهو رقم دقيق مستمد من سجل لوليم الفائح يعرف « بكتاب دومسداي » (Domesday Book) - بلغت في مجموعها ٢٠٠ ٣٥٥ ٢٠ نفس حوالى سنة ١٣٤٠ . وفي كل مكان ، إذا كانت نسبة المواليد لم ترتفع ، فمن المحقق أنه قد زاد عدد من كانوا يبقون على قيد الحياة ويعيشون من العمر زمناً طويلاً يكفي لإنجاب النرية .

ولم تكن مثل هذه الزيادة مقصورة على المناطق التي فتحت حديثاً في الشمال ، فإن إيطاليا حققت مثل هذا التقدم في نظامها الاقتصادي الزراعى بحيث بلغ تعدادها عشرة ملايين نفس على الأقل في القرن الرابع عشر ، ولما كانت إيطاليا أفضل استقراراً لقيامها على قاعدتها القديمة ، ولكونها أكثر قرباً إلى حضارات الشرق الأرفع مستوى ، فإنها كانت الزعيم الطبيعى في النهضة الحضرية . وفي القرن الثالث عشر كانت في البندقية إدارة بلدية منظمة تنظيمًا دقيقاً ، ويحتمل أنه في ذلك الحين ، كانت كل من البندقية وميلان تضم أكثر من مائة ألف من السكان . وعلى الرغم من أن أغلب هذه الأرقام تقريبية ولا معول عليها ، فإنه لا شك في أن عدد السكان كان يتجه نحو الازدياد المتواصل حتى مجيء الطاعون الأسود في القرن الرابع عشر .

وكانت المدن الجرمانية أكثر انخفاضاً في متوسط عدد سكانها ، مع احتمال استثناء مدينة فينا التي كانت تقع على الحدود الرومانية القديمة . بيد أنه لم يكن هناك افتقار إلى النشاط في حركة الاستعمار الجرمانى ولا في عملية العمران الحضري ، فقد أنشئت في خلال أربعة قرون ٢٥٠٠ مدينة ، والنظام البلدى الذى أقيم هيكله إذ ذاك ظل باقياً في جوهرة إلى القرن التاسع عشر ، والمعالـم الأصلية للمنطقة كثيراً ما بقيت بلا تعديل ، ولو أنه في خلال هذه الفترة كانت المدينة قد شغلت النطاق الزراعى المعتاد الذى يطوقها .

وفى أثناء السنين التى بلغت فيها الحركة ذروتها ، لم يقتصر الأمر على تضاعف عدد المدن ، بل إن نسبة زيادة عدد السكان — بقدر ما يمكن تقديرها — كانت تضارع على وجه التقريب نسبة الزيادة في أوروبا في القرن التاسع عشر ، ففي نهاية القرن الثانى عشر مثلاً ، كان عدد سكان باريس حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ، وفى نهاية القرن الثالث عشر كان عددهم يقرب من ٢٤٠ر٠٠٠ . وفى سنة ١٢٨٠ كان عدد سكان فلورنسا ٤٥ر٠٠٠ ، وفى سنة ١٣٣٩ بلغوا حوالى ٩٠ر٠٠٠ ، على حين أنه في الأقاليم الواطئة كانت مدينتا بروج وغنت قد بلغتا أرقاما مماثلة . والإحصاءات الخاصة بزيادة مساحة العمران الحضري لا تقل عن ذلك وقعا في النفس . وأما فيما يتعلق بفترة الطاعون الأسود ، التى امتدت عشرين عاماً ، فإنها لم تحدث إلا نكسة مؤقتة — ولو أن الطاعون كان يؤدى أحياناً بحياة نصف سكان المدينة .

وإن التجارة ، والإنتاج الصناعى ، والتجهيز بالمعدات الميكانيكية ، والتنظيم ، وتكديس رؤوس الأموال ؛ إن كل هذه الضروب من النشاط قد ساعدت على إنشاء المدن واتساعها ، ولكن كل ذلك لا يفسر إطعام الأفواه الجائعة ، ولا يعلل كذلك المستوى العالى للحياة البدنية التى صاحبت كل هذا المجهود ، فالتاس لا يعيشون بالهواء فحسب ، حتى :

ولو كان « هواء المدينة يجعل الناس أحراراً » ، على حد ما جرى به المثل الألماني . والواقع أن الحياة الناجحة في هذه المدن تتصل اتصالاً وثيقاً بتقديم الزراعة في الريف ، أى إن الفصل بين رخاء المدينة ورخاء الأرض ليس إلا وهماً من أوهام أبناء المدن .

وعلى الرغم من أن الصلة بين أسر التجار من أبناء المدن وبين الفلاحين الذين كانوا يستأجرون أراضيهم في خارجها ربما تكون ظلت قائمة على سوء الظن والتعصب ، إن لم نقل على العداء المتبادل — وفي « حوليات أسرة فلورنسية » ما يشهد بذلك — على الرغم من هذا ، فإن العلاقة كانت وثيقة وثابتة . وقد كان من شأن مزارع الكروم المدرجة والحقول المنسقة ذات الحواجز الواقية من عصف الرياح ، وحركة نقل الفواكه والخضراوات إلى المدينة ، ونقل الروث والتمامة — بما فيها من فضلات صوف فلورنسا — وغلظتهما للحصول على السماد ، كان من شأن كل هذا أن يجعل المدينة — حتى إن كانت قد تجاوزت الحد في نموها كفلورنسا — شديدة الاهتمام بمصالح الريف . ولقد كان يبلغ من قرب الريف إلى بعض المدن الإيطالية أن كل وحدة جوار فيها كانت « تنبئ » قرية معينة واقعة خارج المدينة على أنها المنطقة الريفية الخاصة بها .

وأما في المدن الأصغر حجماً — كما نعلم من المصورات الحضرية البديعة للقرنين السادس عشر والسابع عشر — مصورات بلايو (Blaeu) وميريان (Merian) وسبيد (Speed) — فقد نقل إلى قلب المدينة ما كان في الريف من ألوان التحسينات الزراعية والجمال الريفي ، وتشهد بذلك الحدائق الداخلية والأراضي المنضأة المزروعة ، بل كذلك الحقول العادية الموجودة داخل الأسوار أو خارجها مباشرة . ومدينة العصور الوسطى النمطية — فيما عدا العواصم الإيطالية القليلة المفرطة في النمو والتي كانت بذلك أبعد من أن تكون نمطية — لم تكن واقعة في الريف فحسب ، بل كانت جزءاً من الريف ،

وكما كانت الحال في بلاد ما بين النهرين ، كان يزرع بعض الطعام في داخل الأسوار ، إن لم يكن لشيء إلا لدرء خطر الموت جوعاً في وقت الحصار .

والواقع أن بعض الحرف الزراعية والريفية ، مثل القنص وصيد السمك ، كانت تؤلف جزءاً من الحياة اليومية العادية في المدينة . وإلى زمن متأخر يصل . إلى القرن الرابع عشر ، كان القانون في إنجلترا يلزم أبناء المدن ، دون أى تفرقة بين الطبقات ، بأن يقدموا يد المساعدة لجمع المحصولات في وقت الحصاد . ولعل رحلة الصيف التي يقوم بها أبناء شرق لندن إلى مزارع حشيشة الدينار (hopyards) في مقاطعة كنت (Kent) ، لعلها الأثر الأخير الباقي مما جرت به العادة في العصور الوسطى . وإن كثيراً من المراكز الصغرى في فرنسا وسويسرا ، التي أوقف نموها منذ زمن بعيد ، ما زالت توجد فيها هذه الأماكن القضاء التي لم يُقَمَّ عليها إطلاقاً أى بناء ، وما زالت تستعمل حدائق ، كما هو الشأن في تلك المدينة الصغيرة نيون (Nyon) الواقعة على بحيرة لي مان . وحتى في مدن مزدهرة مثل باريس ، حيث كانت الإيجارات المرتفعة سبباً في الاستمرار في شغل الأماكن التي كانت أصلاً من الأراضي القضاء ، احتفظت أديرة الرهبان والراهبات ودور الطبقة الأرستقراطية بمساحات واسعة من الحدائق وبساتين الفاخرة .

٤ - المدن المنموحة براءات - مصوره استعمارية

وإذا كانت وسائل الحماية العسكرية الجديدة أو المجددة - ونعني بها السور وجيش المواطنين - قد كفلت للمدن أسباباً جديدة للإقبال عليها كأماكن للإقامة وللعمل المأمون من الناحية الاجتماعية ، فقد كانت توجد ، مع ذلك ، مجموعة خاصة من الدوافع الاقتصادية هي التي تفسر التقدم الذي أحرزته هذه الحركة ، فإن تحرير المدن كان خطوة في سبيل إيجاد تنظيم الحياة الاقتصادية ، أي حلول تبادل النقود مكان المقايضة ، وكذلك

حلول الأسلوب الحضري في العمل بالقطعة ، أو لإنجاز عمل بعينه ، أو لمدة موسم معين مكان الخدمة طول الحياة . وبالإيجاز ، الانتقال من حالة اجتماعية ثابتة إلى العمل بالتعاقد - إذا استعرنا التعبير القديم الذي استخدمه سير هنري ماين (Sir Henry Maine) للفرقة بين الحالتين .

وأسطورة العقد الاجتماعي التي ظهرت في القرن الثامن عشر كانت تبريراً للقاعدة السياسية التي قامت عليها مدينة العصور الوسطى ، وكان المواطن جان چاك روسو يعلم أنها ما زالت قائمة في جنيف التي كان يعرف قدر استقلالها واحترامها لذاتها ، وذلك لأن المدينة المتمتعة بالحقوق البلدية كانت في الواقع كثيراً ما تقوم على أساس عقد اجتماعي بين المالك صاحب الأرض وبين المستوطنين أو السكان ؛ فالمدينة جاءت نتيجة لمشاركة بين جانبيين تبادلاً بمقتضاها أشياء لها قيمتها ، ولم تكن في الأصل نتيجة لفتح عسكري ، كما كان الشأن في أقدم الأمثلة السابقة . وإذا لم أكن مخطئاً فإن هذه حقيقة أخرى جديدة في تاريخ المدن ؛ إذ أن تمتع المدن بالحقوق البلدية « جاء مع الحياة الحضرية » ، كما لاحظ ف . و . ميتلاند (F. W. Maitland) .

وحركة المدن منذ القرن العاشر وما تلاه عبارة عن قصة مراكز حضرية قديمة تتحول تدريجاً إلى مدن على قدر كبير أو صغير من الحكم الذاتي ، ومراكز استقرار جديدة في سبيل التكوين تحت رعاية الأمير الإقطاعي ، وقد منحت من الحقوق والامتيازات ما كان سبباً في اجتذاب جماعات من أرباب الصناعة والتجارة للاستقرار الدائم فيها . وبراءة (charter) المدينة - وكانت تمنح لكلا النوعين من المدن - كانت عقداً اجتماعياً ؛ وكانت المدينة الحرة تتمتع بالأمان من الناحيتين : القانونية والعسكرية على السواء ، وكانت إقامة القرن فيها لمدة سنة ويوم واحد محرره من التزاماته ، ومن ثم فإن مدينة العصور الوسطى غدت بيئة منتقية تجمع لنفسها من أهل الريف أكثرهم حظاً - ومن المحتمل إذن أكثرهم ذكاء . ولقد حلت صفة المواطنة ذاتها

والترابط الطليق من كل قيد مكان الروابط القديمة القائمة على صلة الدم والأرض وعلى الأسرة الولاء للأمير الإقطاعي ، كما أن طائفة المشتغلين بذات الحرفة احتلت الآن مكانها في مجموعة جديدة من الصلات والواجبات إلى جانب الأسرة الأصلية وجماعات الجيرة ، فقد كان لهذه الجماعات طرا مكانها في المدينة الجديدة .

وعند تناول الشئون السياسية في العصور الوسطى يتركز الاهتمام عادة حول الصراع على السلطة بين الطبقة المتوسطة في المدن ومن يهيمنون عليها من الأمراء والأساقفة والملوك . ومن شأن هذا الاتجاه إغفال الدور الذي قام به النظام الإقطاعي ذاته في تشجيع زيادة عدد المدن . وكثير من المنازعات التي كانت تحدث في المراكز القديمة كانت بسبب محاولات لإرغام المواطنين الجدد على قبول صفقة خاسرة أكثر منها بسبب الرفض البات لمنح أى امتيازات ، فقد كان كبار أصحاب الأملاك يقومون بإنشاء مدن جديدة على نطاق واسع في جميع أنحاء أوروبا ، وبخاصة في مناطق الحدود ، وعلى الرغم من أن كثيراً من القرى التي حصلت قبل الأوان على الأهلية القانونية للمدينة ، لم تبلغ إطلاقاً في نموها ما يسوغ تلك الصفة ، فإن ما يدعو إلى المزيد من الدهشة هو عدد المدن التي نشأت من العدم . ويلاحظ ج . م . هوستون (J. M. Houston) في بحث له عن المدينة الأسكتلندية (Scottish Burgh) أن البيئات لا تتكشف عن تطور تدريجي من مجتمعات زراعية إلى مدن ؛ إذ أن براءات المدن : أير (Ayr) ودومبارتون (Dumbarton) وكانوننجيت (Cannongate) وسانت اندرو (St. Andrew) توحى بأن التمتع بامتيازات المواطنين كان مشروطاً بالاستقرار على أرض في داخل المدينة ، فكان هذا نوعاً من نظام استنابات حضري . وهنا أيضاً كانت المدينة « عملاً من صنع الأمير » . وكثير من المدن الجديدة كانت مراكز على الحدود ، كما كان الشأن في غسقوينا وويلز وبومرانيا ، ولقد كانت

تمائل في طريقة شغلها منشآت قامت بعدها بزمان طويل في أمريكا ، من حيث إنها أتاحت لقوم غير راضين عن أحوال معيشتهم في الأنحاء الأكثر استقراراً في أوروبا ، أن يقطعوا صلاتهم بها قطعاً باتاً ويبدأوا حياتهم من جديد .

وأما من الناحية السياسية فيني سوف أستشهد بأقوال توماس فردريك تاوت (Thomas Frederick Tout) الذي كانت دراسته لتخطيط المدن في العصور الوسطى أثراً بارزاً باللغة الإنجليزية في هذا الميدان ، وهو يقول : « إن الضرورة السياسية لإنشاء المدينة سبقت ظهور الحاجة الاقتصادية ؛ ففي البدايات المتواضعة للمدن الجديدة ، في العصور الوسطى ، كانت الغلبة دائماً للاعتبارات العسكرية على ما عداها ، وذلك أن حاكماً قوياً كان يفتح إقليماً مجاوراً ، لأملاكه القديمة ، أو كان يرمى إلى الدفاع عن حدوده أمام عدو مجاور ، فكان يبني حصوناً ضخمة ، ويشجع رعاياه على الإقامة فيها حتى ينسنى لهم أن يتولوا مسئولية الدفاع على الدوام » .

فعلى وجه ما ، كانت هذه المدن — مثل ما كان الشأن في المستعمرات الرومانية العسكرية — بديلاً رخيصاً عن جيش قائم . وبمنح النازل الجديد في المدينة الحق في حمل السلاح ، كان الحاكم يتفادى دفع أجر استخدام ذلك السلاح ، وهو ما كان لا بد منه بغير ذلك . ولما كان للقم حق ثابت على الأرض التي كان وثاقه مشدوداً إليها ، فقد كان لابد من مزيد من الإغراء لحمله على الانتقال إلى مسافة تبعد مائتين أو ثلثمائة ميل عن مكانه : وهكذا توافرت له ، لأول مرة ؛ القدرة على المساومة ، وكان المالك مرغماً على استرضاء المستوطن المنتظر . وبوجه عام كان الانضمام إلى مجتمع حضري يتمتع بالحقوق البلدية — ولو كان ذلك في مدينة صغيرة ضئيلة الشأن مثل لوريس (Lorris) في فرنسا ، التي لم تحصل على الحق العام في الحكم الذاتي — كان ذلك يعني التحرر من الإكراه على دفع الأموال ومن

الخدمة العسكرية الإقطاعية ، وكذلك حصول المرء على حرية بيع ممتلكاته والانتقال إلى مكان آخر ، فصفة المواطن كانت تحول صاحبها حرية الانتقال الشخصي . وهل أنا بحاجة إلى التنويه بمدى ما كان لذلك من ضرورة لا غنى عنها لظهور طبقة تشتغل بالتجارة ، وكذلك لإتقان أرباب الحرف ففهم بالعمل أجراء تحت أيدي مختلف الأساتذة في مدن أخرى ؟ وعن طريق النضال ، أو طريق المساومة ، أو طريق الشراء الصريح ، أو عن طريق بعض هذه الوسائل معاً ، فازت المدن بالحق في إقامة سوق بانتظام ، وبالحق في أن تكون خاضعة لقانون خاص بالأسواق ، وبالحق في أن تسك عملتها ، وتقرر الموازين والمقاييس التي تستخدم فيها ، وبالحق في أن يحاكم مواطنوها أمام محاكم محلية ، وفقاً لقوانينها وأنظمتها المحلية ، وبالحق في أن يحملوا السلاح ، وكان لا يقل عن كل ذلك شأنًا كما سبق أن ذكرنا . فهذه السلطات التي كان التمتع بها في الماضي مقصوراً على القلعة ، أصبحت المدينة تتمتع بها الآن ، وكان كل مواطن يتحمل شيئاً من المسؤولية عن ممارستها .

ولعل حق المواطن في حمل السلاح كان أبعد أثراً من ابتكار البارود في الحد من قوة النبلاء الإقطاعيين — ألم يهزم أبناء مدن الفلاندر زهرة فرسان فرنسا في ميدان القتال دون أن تتوافر لديهم ميزة البارود ؟ وإن المرء ليجد الصدى الأخير لتلك النعمة الخاصة بالحرية الحضرية فيما نص عليه الدستور في الولايات المتحدة من أنه لا يجوز حرمان المواطن حقه في حمل السلاح ، ولو أنه في سويسرا الديمقراطية ، بتقاليد نظمها البلدية الأصلب عوداً ، نجد أن هذا الحق قد زيد دعماً بما جرت به العادة من إعطاء كل فرد من أفراد الجيش الاحتياطي بنديته ومعداته عند عودته إلى بيته . وأما عن براءة المدينة ، فإنها أدت إلى وهم قانوني ما زال ينظر إليه بعين الاحترام ، ومواده أن الدولة هي خالقة المدينة والمنفصلة عليها بالبقاء . والحقيقة الناصبة هي أن جميع المدن التاريخية في أوروبا اليوم أقدم عهداً من

الدولة التي تدعى هذه الحقوق قانوناً ، وكان لها كيان مستقل قبل الاعتراف بحقوقها في الوجود !

« وجميع هذه الحقوق قد تؤدي أو لا تؤدي إلى الحكم الذاتي المحلي التام ، المتحرر من أى نوع من التدخل ، كما كان الشأن في المدن العظيمة في عصبة هانسا (Hansa)^(١) ، وهي همبورج وبريمن ولوبيك التي ظلت شائعة بإدارة شئونها ، بوصفها مدناً حرة ، إلى عهد بسمارك ، وعلى كل حال فإن هذه الحقوق أضفت على المجتمعات المحلية أغلب المميزات لما يطلق عليه الآن اسم « دولة ذات سيادة » . فضلاً عن ذلك فإنها نقلت في النهاية إلى الوحدات القومية الكبرى التي ابتلعت المدن ، ضروب ضيق الأفق والغيرة والمشغبة التي اتسمت بها المدينة ذات الأسوار .

وعند ما كان أمير إقطاعي يحتاج إلى المال لتزويد جيشه بالمعدات ، أو للاشتراك في حرب صليبية ، أو للانغماس في ألوان الترف التي تسربت إلى أوروبا ، كان لديه مصدر اقتصادي رئيسي واحد للمال وهو الأرض . وتبعاً لما جرت به العادة في العهد الإقطاعي لم يكن يتسنى له النزول عن الأرض أو بيعها ، بيد أنه بتقسيمها ، وبتشجيع المدن القديمة على النمو والانتساع بمنحها الحكم الذاتي ، وبإنشاء مراكز جديدة ، كان في وسعه أن يزيد ما يحصل عليه من الإيجار السنوي ، وحتى إذا كانت الإيجارات لا ترتفع إلا ببطء لصالح المالك الأصلي ، كما هو الشأن في حالة الإيجارات التي تعقد لمدد طويلة ، فإنه مع ذلك كان مآل ورثته أن يستفيدوا مما لم يكن لهم يد فيه من زيادة النمو والرخاء في المدينة . ويجب ألا يغيب عن البال أنه حتى في لندن ، وإلى الوقت الحاضر ، يحتفظ نفر قليل من الملاك الإقطاعيين - مثل دوق بدفورد ودوق وستمنستر والتاج - بحق ملكية

(١) كَوْنُ عَصْبَةِ هَانْسَا عدد من المدن التجارية للدفاع عن مصالحها ضد القراصنة .

أعظم المناطق استغلالاً . وقد وضع القانون الجرمانى الأرض فى فئة خاصة بمعزل عن المباني والممتلكات الشخصية ؛ وعند ما أصبحت الأرض ذاتها سلعة تشتري وتباع كأي سلعة أخرى ، فإن مصر مدينة العصور الوسطى ، بوصفها منظمة بلدية ، أصبح محتمواً .

وكانت توجد موارد خاصة للدخل الحضري كان للمالك الأرض حصّة فيها ، وكانت هذه الموارد تكاد تعادل فى الأهمية إيجار الأرض ذاتها فى المراكز الحضرية ؛ ونعنى بهذه الموارد الخاصة ما كان يؤخذ من الرسوم عند القناطر وفى الأسواق ؛ والضرائب الجمركية ، والغرامات التى كانت المحاكم تقضى بها ، وقد تضاعفت جميعها تبعاً لازدياد عدد السكان ، ولقد ظلت بعض هذه الرسوم باقية فى أوروبا — مثل الضريبة على ما كان يدخل المدينة من عربات النقل وعربات الركوب — إلى صميم القرن العشرين ، حتى فى باريس العاصمة الكبرى . وقد كانت الضرورة تقضى أحياناً ، عند البدء فى إنشاء مدينة فى منطقة موحشة ، بإعفاء القادم الجديد من الضرائب ، على شريطة أن يقوم ببناء منزل ، أى إن الإعفاء من الضرائب لتشجيع بناء المنازل حيلة قديمة جداً .

وكما هو الشأن فى كل مشروعات المضاربة ، كان فى ضمير الدهر أن تنجح بعض المدن إلى حد يمازى آمال مالكيها ، أن يبقى بعضها الآخر خاملاً اقتصادياً واجتماعياً مثل كثير من المدن المحصنة (bastides) فى جنوب فرنسا . وأبيج مورت (Aigues Mortes) ، التى كانت يوماً ما الثغر الذى يموج بحركة المسافرين للاشتراك فى الحروب الصليبية ، ظلت تتعثر حتى أصبحت لا تزيد على قطعة أثرية فى متحف من المتاحف ، بيد أن بناء المدن فى ذاته كان أحد المشروعات الصناعية الكبرى فى أوائل العصور الوسطى .

ولعلنا نستطيع الآن أن ندرك حقيقة الموقف المزدوج الذى اتخذته

الإقطاع حيال هذه الحركة ، فقد كانت المدينة الحرة مصدراً جديداً للثروة ، بيد أن التحدى الكامن وراء الثقة بالنفس والاستقلال اللذين كانا يسودان من انضموا إلى القومون (Commune)^(١) كان خطراً على النظام الإقطاعي بأسره ، فقد قامت المدينة بتجميع القوة البشرية والقوة الاقتصادية وأسلحة الدفاع ؛ وكان لدى جيوش مواطنيها من الدوافع التي تحارب من أجلها ما يفوق إلى حد بعيد ، ما كان لدى أقتان لا يقومون إلا بخدمة مولاهم - ونفنى الحرية التي أحرزوها ، والمنازل التي شادوها ، والمدينة التي أعانوا على إقامتها . وعلى حين أن القتال وألعاب الفروسية والصيد والقنص كانت المحور الأساسي لحياة الإقطاعي ، فإن المدينة كانت توفر من الموارد الاقتصادية والثقافية ما كانت تعجز عنه أعظم القصور الحصينة . ولقد كانت فرص الحياة المدنية في إيطاليا تجتذب النبلاء وصغار أصحاب الأملاك إلى المدينة ، وإذا لم يقبلوا على الإقامة في المدينة بمحض اختيارهم فإن البلدية كانت ترغمهم أحياناً على ذلك حتى يتسنى لأبناء المدينة أن يراقبوا حركاتهم ، إلا أنه في شمال أوروبا ظلت هذه الطبقة أمداً طويلاً محتفظة بعزلتها ، متشبثة بصيد الدببة « ومطاردة الغزلان » ، وحياة الهواء الطلق ، وقصر الضيعة المقبض ، فظلوا في أنفسهم أقرب إلى الفلاحين الذين كانوا يضطهدونهم منهم إلى أهل المدينة الذين أطلقوا عقال حريتهم .

وحتى في إيطاليا اتسعت الحوة التي كانت تفصل بين هذين الجانبين من جوانب البيئة ، فإن العداء بين المدينة والريف ازداد حدة تبعاً لما كان نجاح الحرف الحضرية يحدثه من زيادة استبعاد الحرف الريفية التي ظلت باقية في المدينة ، وذلك لأن المدينة كانت عبارة عن مجتمع ينبذ

(١) كانت القومونات (communes) قريباً من المدن لم تكنف بالحريات العادية التي حصلت عليها بقية المدن ، بل حصلت دل سلطة سياسية كبيرة بفضل تضافر العناصر المختلفة التي كانت تعيش في المدينة .

كل ما لا يلائمه ويقوم على المشاركة الاختيارية من أجل هدف مشترك . وكانت نظرة كل فرد من أبناء المدينة إلى أبناء الريف الذين ولدوا وشبوا فيه ، نظرة المدعى المغرور الذى بلغ به الغرور حدا لا يوجد إلا لدى محدثي النعمة والثراء . وقد كان هذا من الأسباب التي أودت في النهاية بما في المدينة من حرية وحكم ذاتي . وذلك أن المدينة بجرمانها الريف امتيازاتها ، ألقت نفسها منذ القرن السادس عشر أمام منافس اقتصادي كان افتقاره إلى الحماية والتنظيم حافزا في ذاته إلى الإقدام على مشروعات اقتصادية جديدة وتطور حضري من نوع غير منتظم .

٥ - سيادة الكنيسة

إن الآراء والأنظمة التي جاءت بها حضارة العصور الوسطى لا تعنينا هنا إلا من حيث تأثيرها في طراز المدن وفي تطور أجهزة حياتها الحضارية ، وما لم يتفهم المرء هذه الآراء ، فإنه لا مفر من أن يظل بغير تعليل رجحان كفة المباني المدنية العظيمة التي خصصت لأداء خدمات دينية :

فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية ، كانت الكنيسة هي الجماعة القومية العامة الوحيدة التي بقيت في غرب أوروبا . وكان الانتظام في سلك هذه الجماعة اختياريا من الوجهة النظرية وإجباريا من الوجهة العملية ، فإن الحرمان من غفرانها كان عقابا بلغ من صرامته أنه إلى القرن السادس عشر ، كان الملوك أنفسهم يرتعدون أمام التهديد بالحرمان من غفران الكنيسة . ولقد كان وجود الكنيسة باديا للعيان في كل مجتمع ، من أصغر القرى بكنيستها المحلية إلى أعظم المدن بكاتدرائيتها وكنائسها العديدة وأديرتها ومزاراتها ، وكانت أبراجها أول ما يراه المسافر عند الأفق وكان صليها آخر رمز تقع عليه عين من يفارق الحياة .

وفي حضارة تتميز بما يدعو إلى الحيرة من متعدد ألوان اللهجات

والقوانين وفنون الطهي والموازين والمقاييس والعملات ، كانت الكنيسة تهيء داراً جامعة أو على الأصح ملجأ عاماً . وذلك أن عين المعتقدات وعين الأنظمة وعين الصلوات الجامعة كانت تؤدي بعين الحركات وعين النظام لعين الغرض من أحد طرفي أوروبا إلى أقصى الطرف الآخر . ولم يحدث إطلاقاً أن كان القائل الروماني الدقيق أجدى على البشرية منه في خلال هذه الفترة . ففي أجل مهام الحياة كانت أحقر قرية تقف مع العاصمة على قدم المساواة ، وذلك أن الكنيسة زودت كل المجتمعات ، كبيرها والصغير ، بهدف مشترك . بيد أن الوحدة التي تحققت على هذا النحو شجعت أكثر مما قضت على ما بينها من تباين وما لها من ذاتية .

وكان تقسيم المجتمع إلى أبرشية (parish) وأسقفية^(١) (diocese) هو التقسيم السياسي الذي تقوم عليه كل الروابط والتزامات الولاء . ولم تكن الأبرشيات والأسقفيات مساحات محددة على خريطة ، بل كانت مناطق لكل منها مركز كان داراً مشتركة للعبادة ، ورئيس روحي معين يمثل البابا . وطبقاً لما يقوله ج . ج . كولتون (O. G. Coulton) ، كانت توجد في إنجلترا كنيسة أبرشية لكل مائة أسرة ، ولكن في كثير من القرى والمدن كانت توجد كنيسة لعدد من الأسر يقل كثيراً عن ذلك . وكانت الضريبة التي تجبى في كل مكان هي ضريبة العشور ، أي عشر الإيراد السنوي ، وكانت تحصل عليها الكنيسة — تلك المنظمة الكبرى التي أوجدتها روما — فتستخدم جزءاً منها في سد نفقاتها وصيانتها ، وتستثمر الجزء الآخر على نطاق واسع .

وبطبيعة الحال كان رجال الكنيسة المقيمون في مناطقهم ، فضلاً عن النازلين في الأديرة ، يولفون جزءاً غير قليل من المجتمع . ففي سنة ١٣١٤ كان يوجد في مدينة صغيرة مثل سيرنستر (Cirencester) في

(١) انقسم العالم المسيحي الغربي إلى أسقفيات واسعة يرأس كلا منها أسقف ، وانقسمت كل أسقفية إلى أبرشيات صغيرة بكل منها كنيسة يشرّف عليها قس .

إنجلترا ١٠٥ من سدنة الكنيسة (acolytes) و ١٤٠ من مساعدي الشمامسة (sub-deacons) و ١٣٣ شماسا (deacons) و ٨٥ قسيسا ، فكان مجموعهم الكلى حوالى ٤٦٣ . وكان جزء غير قليل من وجوه النشاط الاقتصادى فى المجتمع يوجه لإعالة رجال الدين وأولئك الذين يقومون على خدمتهم ، على حين أنه كان كذلك جزء كبير من رأس مال المجتمع تحوله الكنيسة . من مشروعات أخرى كان من المحتمل القيام بها ، لينفق فى إقامة وصيانة المباني الدينية ، من كاتدرائيات وكنائس وأديرة ومستشفيات وملاجئ ومدارس مع تزويدها بكل معداتها الثمينة من تماثيل وأيقونات ولوحات مصورة .

ولم تكن التجارة أعظم ما يشغل هذا المجتمع ، مهما يبلغ من اهتمام التجار كأفراد يجمع الثروة ، بل إن أعظم ما يشغله كان عبادة الله وتمجيده ، وسواء أكان الإنسان تاجراً أم أميراً ، فإنه كان يذكر هذا الواجب وهو يتصرف فى ممتلكاته عند ما يدنو أجله ، إن لم يذكره فى وسط حياته الحافلة بضروب الكبرياء والجشع والخداع وحب السيطرة .

ولقد كانت الكنيسة فى ذاتها نظاماً متعدد الجوانب ، وكان مبنى الكنيسة يؤدى عدة مهام فصلت عنه فيما بعد ووزعت على مؤسسات دنيوية متخصصة . بيد أن الكنيسة حتى فى أدنى مستوياتها شأنًا فى المدينة ، أى كنيسة الأبرشية ، كانت ملتحى أهل وحدة الجوار ومركز الحياة اليومية فى المجتمع ، وما من وحدة جوار كان يبلغ بها الفقر إلى حد أنه كانت لا توجد فيها مثل هذه الكنيسة ، حتى وإن كانت توجد فى وسط المدينة كاتدرائية يكفى اتساعها لاستقبال كل مواطنيها فى المناسبات الخطيرة أو مناسبات الأعياد .

وكثيراً ما كانت الكنيسة المحلية بمفردها « متحفاً للعقيدة المسيحية » وداراً للعبادة فى آن واحد ، فإن وجود ناسك متبتل فى صومعته

المحكمة الإغلاق بالقرب من أبوابها ، أو حتى وجود عظام ومخلفات مثل هذا القديس ، كان من شأنه أن يجتذب الأتقياء إليها ، ولا سيما إذا اشتهرت بأن لها قدرة على الإتيان بالمعجزات ، وكانت الكنائس والأديرة التي تملك مثل هذه المخلفات تغدو كعبة للحجيج ، مثل عظام توماس بيكيت (Thomas à Becket) في كنتربروري (Canterbury) ، ودماء سانت يانيواربوس (St. Januarius) في نابلي ، فإن هذه الأشياء — من حيث القدرة على اجتذاب الناس إلى المدن — لم تكن أقل شأنًا من احتمال الحصول على الحرية السياسية أو ممارسة تجارة رابحة .

ومدينة العصور الوسطى في أوروبا — على الرغم من تعدد أصولها وتباين نتائجها — يمكن وصفها على نحو بالغ في الدقة بأنها منشأة جماعية كان هدفها الأساسي المعيشة طبقاً للنهج المسيحي في الحياة ، ولقد أثر هذا الهدف حتى في أنظمتها ، كالحرب مثلاً ، كانت تتناقض تناقضاً صارخاً مع الروح المسيحية ، وكبح جماح عادات أخرى ، كالتعامل بالربا ، كانت لا تمارس إلا بالاحتيايل وفساد الذمة ، بيد أنه فوق هذا كله ، فإن المفهوم المسيحي للحياة ، بما فيه من اعتراف بالألم واستعداد لبذل المعونة ، أوجد وسائل لا يقوم أى دليل على وجودها في المدينيات الحضريّة السابقة .

فقد أخذت المستشفيات تقام الآن على نطاق واسع للعناية على وجه عام بالمرضى والمعتلين ، ولم تعد المصححة منتجعا للصحة يقام بمعزل عن المدينة . ويقتصر على خدمة من يملكون وسائل السفر ، بل مكانا في قلب المدينة وفي متناول اليد ، مفتوح الأبواب لكل من كان في حاجة إليه ، تحت إشراف رجال ونساء على استعداد للقيام بكل الخدمات الكريمة مما تتطلبه حالات المرض والجروح والعمليات الجراحية . وكان المستشفى وجناح العزل كلاهما مستمدين رأساً من الدير ، وقد وفد معهما نوع

من كرم الضيافة كان أعم من ذلك ويلقيه الأصحاء المحتاجون إلى الطعام وقضاء ليلة مريحة ، فعلى مرّ القرون كلها حيناً انغذبت الفنادق والخانات ، وكانت المساكن الخاصة فقيرة بائسة الحال ، كانت دار الضيافة الدير تقدم مأوى مناسباً بلا مقابل .

وكانت تهيئة الملاجئ كذلك من أعمال البلدية في العصور الوسطى ، لأن العناية بالفقراء والمعدمين ، كانت من واجبات الإحسان في المسيحية ، والواقع أن الملاجئ لم تكن أقل المباني جمالاً في مدينة أواخر العصور الوسطى ، ولو أن وجودها يدل على أن الفقراء كان يسير جنباً إلى جنب مع الثراء المتزايد . وأخيراً فإنه لأول مرة أيضاً انتشرت منشآت للعناية بالطاعنين في السن في مدينة أواخر العصور الوسطى ، وكانت أحياناً ، كشأنها في بروج وأمستردام وأوجسبرج ، تؤلف وحدات صغيرة متجاورة لها حدائقها المشتركة وكنيستها ، وهي ما زالت إلى اليوم الحاضر من مراكز المدينة التي تلفت النظر بمجالها .

ولم تنفصل هذه المؤسسات الخيرية عن الكنيسة في أية مرحلة ، كما أن الكنيسة ذاتها لم تنفصل ولا يمكن فصلها في أية مرحلة عن المجتمع ، وذلك لأن المنشآت اللازمة بنيت بفضل الإعانات الاختيارية والإجبارية التي أخذت من المجتمع بأسره ، وكل ما تحاول الدولة ذات السيادة الإقليمية أن تقوم به الآن على نطاق واسع ، قد عمل لأول مرة في مدينة العصور الوسطى بطريقة أكثر اتساعاً بالألفة والمودة ، ويحتل أنها كثيراً ما كانت تنطوى على مزيد من العاطفة نحو الظروف الإنسانية التي استدعتها .

وفي القرن السادس عشر انضمت مؤسسة أخرى إلى هذه المؤسسات السابقة ، وكانت مما تعنى به بوجه خاص طائفة متأخرة من الرهبان وهي

طائفة الجزويت ، ونعني بهذه المؤسسة ملجأ اللقطاء . ولم تقيم إطلاقاً مدينة: من أى طراز سابق بتقديم مثل هذه المساعدات للتابعين ، ولا قامت: بتحويل أعمال المعونة الفردية إلى مثل هذه المباني العامة الجميلة . وإننا: لنستطيع مشاركة هرابانوس (Hrabanus) من القرن التاسع فى وصف: مدينة العصور الوسطى بأنها اتحاد بين الكنيسة والمجتمع من أجل تحقيق الحياة: المقدسة . وحتى عندما فشل هذا الاتحاد فشلاً ذريعاً فى تحقيق المثل الأعلى: للمسيحية فإنه مع ذلك أوجد كلا من المؤسسات والمباني التى كان الغرض: منها موازنة ذلك المثل .

وعلى الرغم من أن الكنيسة كانت تؤدى خدماتها فى كل مكان ، فإن: أهم نتيجة حضرية لما كانت تعنى به من الشئون غير الدنيوية هو أنها — بحكم: العادة إن لم يكن عن قصد متعمد — عممت الديرية ، فإن الاتجاه نحو: التقشف ، والانقطاع للعبادة ، وروح الإحاطة والحياة ، تركت أثرها: فى طراز مدينة العصور الوسطى بأ كمله . وما دامت عقدة العصور الوسطى: باقية على حالها ، فإن سيلا لا ينقطع من الرجال والنساء المعنيين بأمر الدنيا: ممن رفعت غشاوة الوهم عن أعينهم ، كانوا يتحولون عن ساحة السوق: وساحة القتال لينشدوا حياة التأمل والهدوء فى كنف البيع والأديرة . وحتى: عندما نشرت طوائف الوعاظ روح الدير فى قلب المدينة ، ساعين وراء: هداية الحضرى الآثم وإعانة المحتاج بتقديم المثل يومياً بما كانوا عليه من: فقر وتواضع ، فإن هذه « العودة » أيضاً سرعان ما اتخذت الوضع القديم: واستقرت فى مبان جميلة ، وهكذا فإن الحرية الجديدة أضررت اتساعاً: ريفياً إلى قلب المدينة ، فى الوقت الذى كان فيه ضغط السكان فى المراكز: التجارية الأكثر نشاطاً يلتهم الأرض الفضاء الواقعة خلف المنازل: الخاصة . وقد كانت الحدائق المحاطة بأسوار فى بيع هذه الطوائف الجديدة: من الإخوان الديرين تعطر هواء أشد المدن ازدحاماً .

وكان لتركيز التفكير يومياً في الحياة الباطنية ثماره التي تعوض عنه ؛
لإذ أن أخيلة الحلم بجزائرها العاطفية كانت تضيئ إشراقاً على مدرجات الحياة
اليومية المبتذلة ، فقد كانت الصور التي تقع على العين الباطنية حقيقة
على حد سواء كذلك التي تقع في الخارج على حدة العين . وعلى الرغم من
أن بروتستانتية القرن السادس عشر استقدمت عدم الثقة في العين اللاهية ،
فإنها حافظت على مزاوله عادات الدير على انفراد ، أي تكرار الصلاة
والتأمل الداخلي في « خلوة » خاصة .

وفي خلال نصف القرن الأخير تحولت العماره من التطويق إلى
التعريض ، أي من إعادة السور ، إلى إحلال النافذة مكانه . وحتى في
المساكن الخاصة ، كما لاحظ هنري جيمس على القور عند ما زار الولايات
المتحدة في سنة ١٩٠٥ ، كان الناس يفرطون في كل معاني الإحساس
بالألقة والخلوة ، بإزالة الحواجز بين حجرة وأخرى لإيجاد نوع من قبيل
المكان العام المكشوف أمام الأعين لاستخدامه في كل لحظة وفي كل غرض .
ولعل هذه الحركة قد وصلت الآن إلى النهاية الطبيعية لكل ما يشابه ذلك من
ضروب التفسير التعسفي لحاجات الإنسان . فإننا حين فحننا مبانينا أمام
ما لا سبيل إلى تخفيف وطأته من وهج ضوء النهار وحلقة المارة في الخارج ،
أغفلنا ما يقابل ذلك في الأهمية من الحاجة إلى التباين ، وإلى الهدوء ، وإلى
الظلام ، وإلى الاختلاء ، وإلى وكر داخلي ، مما عرض حياتنا للخطر وعاد
علينا بالويل .

وإن الحاجة إلى تطبيق هذا الدرس فيما يتعلق بتخطيط المدن لا تقل
عنها فيما يتعلق بالمباني . والدير في كلا وضعيه ، العام والخاص ؛
له وظيفة دائمة في حياة الناس في المدن ، وإن ما قامت به مدينة العصور
الوسطى من الكشف عن هذه الحقيقة لم يكن أقل ما أدته من خدمات .
فإنه بدون فرص محددة للعزلة والتأمل ، فرص توفرها أماكن مغلقة ،

يمتأى عن عيون الفضلاء ، وعما يدعو إلى تشتيت الذهن من الأسباب الخارجية ، بدون هذه الفرص لابد من أن يؤثر ذلك في النهاية تأثيراً سيئاً حتى في أكثر أنواع الحياة انبساطاً أمام الأعين . فإلى المنزل الذى يخلو من مثل هذه الصوامع إلا ثكنة ، وما المدينة التى لا تشتمل عليها إلا معسكراً . وفى مدينة العصور الوسطى ، كانت للروح فى المزارات أو فى الأديرة ملاجئ منظمة ، وأوضاع معترف بها ، للهروب من الحاح الشواغل الدنيوية ، فكان فى وسع المرء أن يعتكف لمدة ساعة ، أو يعتكف لمدة شهر . وأما اليوم فإن انحطاط الحياة الداخلية ينهض دليلاً على أن المكان الوحيد المأمون من التدخل هو المرحاض الخاص . .

٦ — غمرات النقابات

فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة فى كل مكان تعنى بروح الفرد ، كان مجتمع العصور الوسطى يقوم على أساس الطبقات والمراتب فى نطاق نظام محلى محدود ، نظام إقطاعى أو نظام البلديات . وقد كان الفرد الطليق من أى ارتباط فى خلال العصور الوسطى محكوماً عليه إما بالحرمان من غفران الكنيسة ، وإما بالنفى ، وكان كلاهما يقرب من الموت . فلكى يكون للفرد وجود ، كان عليه أن ينتسب إلى جماعة — إلى بلاط أو ضيعة أو دير أو نقابة . ولم يكن هناك سبيل إلى الأمان إلا عن طريق حماية الجماعة ، ولا وجود للحرية التى لم تكن تعترف بالالتزامات المستديمة للحياة الجماعية . فكان الفرد يعيش ويموت طبقاً للنهج الخاص الذى تعرف به طبقته ، والجماعة التى ينتمى إليها .

وباستثناء الكنيسة ، كانت النقابة هى أوسع ممثلى الحياة الجماعية انتشاراً ، وهى هكذا جمعت مدينة العصور الوسطى بين القاعدتين الأساسيتين للزمالة ، وهما : العمل المشترك ، والعقيدة المشتركة . وعند ما تلتقى بالنقابة لأول مرة فى إنجلترا فى عهد الانجلوسكسون (قبل سنة ٨٩٢) ، تجددها أصلاً

عبارة عن أخوة دينية تحت رعاية أحد القديسين يجتمع أفرادها بصفة أخوية للترفيه والترويح عن النفس ، وتؤمن أعضاؤها ضد أحداث الحياة القاسية ، وتتولى تهيئة دفنهم على نحو لائق . فهي بذلك اشتملت على صفات تشابه إلى حد يلفت النظر ما كانت تشتمل عليه هيئة سابقة عليها ، وإن لم تكن من سلالتها ، ونعني بها الرابطة الرومانية الجنائزية . وقد نقلت هذه الصفات على عدة مراحل ، إلى هيئات حديثة مماثلة كجمعية الصداقة الإنجليزية (English Friendly Society) وطائفة الماسون الأحرار أو الجمعيتين الأمريكيتين ، جمعية العلكان (Elks) وجمعية غربي الأطوار (Odd Fellows) ، بما فيها من الجمع بين الصحة والائتمان .

ولم تفقد النقابة هذا الطابع الديني على الإطلاق ، وظلت رابطة أخوة مرحلة ، ولكنها تكيفت بحيث تتلاءم مع نوع معين من الواجبات الاقتصادية والمسئوليات المهنية ، وإنما دون الانصراف إلى ذلك كل الانصراف . وفي كثير من المدن كان القسم (conjuration) بأن يقف كل فرد إلى جانب الآخر لتبادل المعونة ، عنصراً أساسياً للاندماج فيها . (ولا عجب أن كروبوتكين (Kropotkin) اعتمد إلى هذا المدى البعيد على مدينة العصور الوسطى لضرب الأمثال على المعونة المتبادلة) . وكان الإخوان يأكلون ويشربون معاً في مناسبات منتظمة ، ويستنون أنظمة لتكون منهاجاً للعمل في حرفتهم ، ويضعون الخطط ويدفعون النفقات اللازمة لإخراج مسرحيات الأسرار أو المعجزات^(١) التي كانوا يقومون بتمثيلها لرفع معنويات رفاقهم من أبناء المدينة ، وفي أوقات الرخاء كانوا يشيدون المزارات ، ويمنحون الهبات لإقامة الصلوات على أرواح موتاهم ، وينشئون المدارس العامة - وهي أولى المدارس العلمانية منذ انتهاء العصور القديمة . وإبان أوج قوتهم كانوا

(١) تسمى هذه المسرحيات بالإنجليزية (mystery plays) وكانت مسرحيات دينية

تدور حول حياة المسيح أو القديسين .

يشيدون لنقاباتهم دوراً كبيراً ما كانت في مثل فخامة دار الأقمشة (Cloth Hall) في ابير (Ypres) . وباتخاذ أعضاء كل نقابة من حرفهم محوراً ، اصططنعوا لأنفسهم حياة كاملة في تنافس ودي مع النقابات الأخرى ، وبوصفهم إخواناً كانوا يملأون جنبات الأسوار المجاورة لحبهم لللاقة العدو .

وقد رأينا أن مثل هذه الاتحادات والرباطات الأخوية كانت موجودة من قبل بين أرباب الحرف من أبناء المدن في الإمبراطورية الرومانية ، بل حتى قبل ذلك في القرن الثالث في بلاد الإغريق ، وقد ظلت موجودة في بيزنطة ، وعلى الرغم من أن الصلة بين هذه المنظمات ما زالت غامضة بسبب الافتقار إلى الوثائق المكتوبة ، فإننا نعلم أن ذكرى حادث بعيد الأمد كفتوحات الإسكندر الرائعة بقيت حية بين الأميين في الأساطير الشائعة في أثناء الفترة الرومانسكية الطويلة التي تفصل بين العصرين الكلاسيكي والقوطي ، ولعل فكرة ، وحتى مثال ، هذا النوع من رباطات الإخاء في الحرفة لم تتلاش كلية . وكون أقدم مثال ألماني للتنظيم النقابي - وهو براءات ورمس (charters of Worms) الملكية (٨٩٧-٩٠٤) - يذكر عمال النخل بوصفهم أعضاء ، فإن هذا من شأنه أن يشير إلى وجود صلة بالنقابات الرومانية الأقدم عهداً . وفيما عدا ذلك فإن أولى النقابات التي لدينا أدلة على وجودها في ألمانيا ، إلى جانب جمعيات دفن الموتى ، هي نقابات النساخين في ماينز في سنة ١٠٩٩ ، على حين أنه قبل ذلك الحين كانت توجد نقابة في بافيا (Pavia) منذ سنة ١٠١٠ وأخرى في سانت أومر بفرنسا منذ سنة ١٠٥٠ .

وإذا كان نمو نقابات التجار بوجه عام قد سبق بمدة نصف قرن أو نحو ذلك نمو نقابات الحرف ، فإنه يجب ألا يغيب عن البال ، أنه باستثناء التجارة الدولية ، لم يكن الفارق بين الصانع والتاجر واضح المعالم

لأن الصانع الذى كان يقوم بعمل السلع استجابة للطلب كان فى وسعه كذلك أن يبيع الفائض منها لديه . ووفقاً لما يقوله تشارلس جروس (Charles Gross) ، فإنه فى المرحلة الأولى كان الصانع يتقبلون فى نقابات التجار ، ومن المحتمل أنهم كانوا يؤلفون الأغلبية بين الأعضاء ، وكان يماثل ذلك تماماً ماحدث فيما بعد من أن أبناء الطبقة الإقطاعية أو العلماء ، الذين كانوا يريدون الانخراط فى سلك حكومة المدينة ، كان عليهم أن يصبحوا أعضاء فى نقابة مثل نقابة الصيادلة أو نقابة النقاشين لكى يكون لهم الحق فى تولى المناصب .

وكانت نقابة التجار عبارة عن هيئة عامة تنظم وتشرف على الحياة الاقتصادية فى المدينة بأجمعها ، فقد كانت تنظم قواعد البيع ، وتحمى المستهلك من الابتزاز ، والصانع الأمين من المنافسة غير العادلة ، كما تقوم بحماية تجار المدينة من اضطراب أحوال سوقهم بتأثير عوامل خارجية . ومن الناحية الأخرى كانت نقابة الحرفة عبارة عن هيئة تضم أساتذة الحرفة الذين يقومون بصنع منتجاتهم وتجمع بينهم لتنظيم الإنتاج ووضع مقاييس أمامية للصناعة الجيدة . ومع توالى الزمن أصبح لكل من هاتين المنظمتين مظهر ينم عنها فى المدينة ، الأولى دار المدينة (Town Hall) أو دار السوق (Market Hall) ، والثانية دار النقابة (Guild Hall) . وفى بعض الأحيان كانت تبنى الدار نقابة واحدة بمفردها ، كما هو شأن الدور الصغيرة العديدة فى البندقية ، وفى أحيان أخرى كانت الدار مبنى عظيماً أقيم بفضل جهود مشتركة . ومن المحتمل أن المباني الأولى للنقابات كانت عبارة عن منازل متواضعة أو حجرات مستأجرة عفا عليها الزمن منذ عهد طويل ، كما كان الشأن فى حالة الرابطات القديمة التى وقفنا على بعض ما يثبت وجودها . بيد أن المباني التى بقيت قائمة ، كثيراً ما تنافس يروائها وفخامتها دار المدينة أو الكاتدرائية . ويلاحظ و . ج . أشلى

(W.J. Ashley) أن تكاليف هذه المباني « كانت من بين العوامل التي دعت إلى فرض رسوم عالية للانضمام وكانت فيما يبدو تبرر ذلك ». وقد أفضى هذا بدوره إلى قصر العضوية على أوسع أعضاء المجتمع ثراء . وليست هذه هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي قضت فيها فخامة الغلاف المعماري على المخلوق الذي حمل نفسه عناء إقامته .

والدور الكبير الذي قامت به النقابة في مدينة العصور الوسطى إلى القرن الخامس عشر يدل على ارتقاء عام في مستوى مرتبة العمل ، وبخاصة العمل اليدوى . وكان هذا أيضاً إلى حد كبير ، من الأعمال العظيمة التي حققها الكنيسة ، وذلك من ناحية بإعطائها أهمية لمهن الفقراء والطبقات الوضيعة ، ولكن من ناحية أكبر ، باعتراف طائفة البندكتين بالعمل اليدوى عنصراً أساسياً من عناصر الحياة القويمية ، وفقاً لقولهم « العمل عبادة » . وتدريباً تلاشى الخجل من العمل ، ذلك التراث المحزن الذي خلفته مدنيات كانت تقوم على الرق ، كما أن ما أبداه أعضاء هذه النقابات الحضرية مرات عديدة من ضروب البسالة في الحرب ، حطم ادعاءات الطبقات الإقطاعية التي كانت تحترق كل أشكال العمل فيما عدا ما يختص بالصيد وميدان القتال . وأعود فأقول إن استطاعة مدينة ما أن تفاخر بأن أغلبية أبنائها كانوا مواطنين أحراراً يعملون جنباً إلى جنب على قدم المساواة دون أن توجد دونهم طبقة من الأرقاء - أعيد القول بأن هذا كان من الحقائق الجديدة في التاريخ الحضري . ولقد اقترن بذلك استخدام الذكاء في العمليات التقنية على نطاق لم يعمل إطلاقاً أى نظام من أنظمة الرقيق على تشجيعه ، وعلى هذا النحو فإن تعاليم العصور الوسطى ونجارتها هيأت الشرط الأساسى الذى كان انعدامه سبباً في انهيار نظام الحكم « الديمقراطى » في بلاد الإغريق ، ذلك النظام الضيق القائم على الرق .

وعلاوة على ذلك ، فلتأمل الفارق بين مجتمع العصور الوسطى والمدينة الحديثة ، ففي الصناعة نجد أنه منذ القرن الثامن عشر كان تنظيم العملية الاقتصادية هو الذى اتخذ شكلا محددًا متشابهًا فى المصنع ، وفى الشركة الكبرى ، وفى البيت التجارى المتعدد الفروع وفى المؤسسة التعاونية . وأما الهيئات السياسية مثل الغرف التجارية ، وجمعيات أصحاب المصانع واتحادات العمال ، فإنها لمدة طويلة لم يكن لها نصيب واف فى التنظيم الاقتصادى ، فهى قد ظهرت إلى الوجود متأخرة وفى الأطراف ، ولم تكن تضم إلا جزءاً من السكان الذين كان يعنهم الأمر ، وما من حالة واحدة ، حتى ولا حالة اتحادات العمال ، كان يمكن الادعاء فيها بأنها كانت ترعى أى شطر كبير من حياة أعضائها الثقافية .

أما فى مدينة العصور الوسطى فإن التنظيم الفعلى للصناعة كان بسيطاً ويقوم على اتصال مباشر بين صاحب المصنع والعامل الأجير عنده ، وبين البائع والمشتري فى ساحة السوق . بيد أن الحقيقة الأساسية كانت روح الإخاء ، إذ أن النقابة - بالعمل على تحقيق أغراضها الاجتماعية - غدت عن طريق الاعتماد على نفسها ، جمعية للتأمين الصحى والتأمين ضد العوز فى الشيخوخة ، وجماعة للتمثيل ، ومؤسسة للتعليم . ولم يحدث إلا فى خلال نصف القرن الأخير ، بمحاولة اتحادات عديدة للعمال كفالة الاطمئنان الاقتصادى لأعضائها ، أن شرعت فى استعادة جانب مما كانت تمارسه نقابات العصور الوسطى من ألوان الاهتمام والمساعدات الاجتماعية . ول سوء الحظ أن عين مبدأ الرعاية الذى تطبقه إدارات الصناعات الكبرى ، بتزويدها مصانعها بالمسارح وساحات الألعاب الرياضية وملاعب الكرة والصوالب (bowling alleys) والعيادات الطبية ، - لسوء الحظ أن هذا المبدأ عينه يهدد بإيجاد نوع جديد من الإقطاع التجارى ، ففى ظل هذا النظام ، يصبح الارتباط بالمصنع ، أو على الأقل بالهيئة المالية الكبيرة التى

تديره ، مضارعا تقريبا في قيوده لارتباط الفن بأرضه - ولو لمجرد أن يتسنى للعامل المكبل بقيود خفية أن يجنى ثمار هذا الارتباط بالحصول على مزايا سن الشيخوخة . ومهما تكن الصعوبة التي لقها في القرن التاسع عشر رجال الاقتصاد - من دعاة حرية العمل (laissez faire) - في تفهم مبادئ المجتمع النقابي ، فإنه يجب ألا تكون هناك أى عقبة نفسانية تحول دون فهمنا إياها اليوم .

وعندما انفصل الحافز الاقتصادي عن الحوافز الأخرى للنقابة وأصبح الشغل الشاغل الذى يستنفد كل جهودها ، تطرق الفساد إلى النظام بأسره ، فقد تكونت في داخل النقابة طبقة عليا من أثرياء أقطاب الصناعة لمكى ترك امتيازاتها لأبنائها ، وتعمل على إقصاء الصانع الفقير والطبقة المتزايدة من العمال الكادحين والإضرار بمصالح هؤلاء جميعا ، وذلك باشتراط دفع رسوم كبيرة للانضمام إلى النقابة . وعندما قضت الخلافات الدينية في القرن السادس عشر على روح الإخاء ذاتها في أوروبا الشمالية ، كان قد قضى على طبيعتها التعاونية الاقتصادية ، فإن موفورى الشحم واللحم كانوا من جدد يزدادون اكتنازا للشحم واللحم على حساب الضعفاء المهزولين .

وإذا كانت النقابة قد ظهرت في الواقع مع ظهور مدينة العصور الوسطى ، فإنها قد سقطت بسقوطها بحكم ما بينهما من صلة وثيقة ؛ وذلك لأن النقابات لم تكن إلا عبارة عن المدينة في مظهرها الاقتصادي ، كما أن المدينة كانت عبارة عن النقابات في مظهرها الاجتماعى والسياسى . ولقد ظل باقياً - بدون تحوير تقريبا - كل من الغلاف المادى ذاته وما كانت النقابات تمارسه من شئون وعادات حتى القرن الثامن عشر الذى وجهت « استنارته » إلى حد كبير للقضاء عليها . وحتى في العالم الجديد ، فإن نقابة النجارين (Carpenters' Company) في مدينة فيلادلفيا

ومخلفات أخرى عديدة من هذا القبيل ، ظلت تعمل على نسق نقابات العصور الوسطى حتى نهاية ذلك القرن ، كما أن أنظمة سوق العصور الوسطى ظلت قائمة إلى حد ما في كل مكان حتى ذلك الوقت . واستعمال عبارة العصور الوسطى في مقام الـدم ، تعبيراً عما يتصف بالهمجية والجهل ، كان من ابتكار القرن الثامن عشر . وأن الذين يشوب النقص والقصور معلوماتهم التاريخية كثيراً ما يواصلون تفسير العصور الوسطى طبقاً لذلك النهج المعاد من القذف المأخوذ عن القرن الثامن عشر .

وكان مركز نشاط الإدارة البلدية هو دار المدينة (Town Hall) ، وكانت تؤدي كذلك في بعض الأحيان مهمة دار السوق . وكانت دار المدينة في مبدأ الأمر مبنى قائماً بذاته في ساحة السوق ويتألف من طابقين بهما ردهتان ، وأصلاً كانت ردهة الطابق الأسفل تستخدم لعرض أكثر السلع رقة مما كانت تحتاج إلى الوقاية من تقلبات الجو على نحو كان لا يمكن أن توفره لها الخباء المقامة في ساحة السوق نفسها . وكما هو الشأن في دار السوق التي مازالت قائمة في ميلان ، كثيراً ما كان المبنى يرتكز على أعمدة فيترك الطابق الأرضي مفتوحاً بأكمله ، وهو مثال للبناء « على ركائز » (en pilotis) من أجل سبب معقول ، وذلك منذ مئات السنين قبل أن يجعله لوكوربوزيه (Le Corbusier) بمثابة شعار مبثدل للطراز الحديث ، سواء أكان الغرض الذي شيد المبنى من أجله في حاجة إليه أم لم يكن .

لقد كان بناء العصور الوسطى يضعون عادة في أذهانهم اعتبارات عملية أكثر من ذلك ، فأحد الأسواق الكبرى في بروج ، وكان المركز التجاري للشمال قبل القرن الخامس عشر ، قد سمي « سوق الوباء » (Wasserhalle) لأنه أقيم فوق قناة ، وكانت السلع التجارية ترد في مواعين إلى السوق مباشرة من أسفله . وكانت الحجرة العليا في دار المدينة

تستعمل لعقد اجتماعات المحافظ والمجلس ، وتصريف العدالة ، واستقبال السفراء ، وإقامة الولائم ومجالس الشراب من حين إلى آخر . ونذكر عرضاً بهذه المناسبة أن مخلفات هذا الغرض الأخير ما زالت باقية في لندن الحديثة ، جنباً إلى جانب أشباح الجماعات القديمة ذات الزى الرسمي (Livery Companies) ، فهي تشاهد في المأدبة التي تقام في دار النقابات (Guild hall) عقب الانتخاب السنوي لمحافظ المدينة الجديد والاحتفال بموكبه :

وقبل نهاية العصور الوسطى ، كانت الأسر البارزة - وكان أوسع تجار الجملة ثراء يولفون أغلبها - تستطيع أن تقيم مراقصها وحفلاتها الصاخبة في دار البلدية ، مما كان يثير حسد باقي السكان . والواقع أن هذه الدار أصبحت بمثابة قصر جماعي للطبقة العليا ، ومن ثم فإنها كانت تسمى أحياناً مسرحاً (theatrum) أو داراً للتمثيل . وهنا كانت تقام حفلات الزواج بكل مظاهر الفخامة الملائمة . ودار المدينة - مع احترامها للديمقراطية - ما زالت تؤدي هذه الوظيفة الأخيرة حتى اليوم . ولنلاحظ اعتراف النظام القديم بهذه الوظيفة ، فهو يتمثل في وجود حجرتين خاصتين للزواج ، إحداهما من الدرجة الأولى ، والأخرى من الدرجة الثانية ، في دار المدينة في هيلفرسوم (Hilversum) بهولندا . ولقد أعطانا توماس مان في روايته « آل بودنبروك » لمحة أخيرة مضطربة عن تلك الحياة التي كان يحياها أهل الطبقة العليا من سكان المدن .

وكان الفرد باندماجه في هيئة مواطني المدينة يتخلص من الالتزامات الإقطاعية المباشرة ، لأنه كان يضطلع بأعباء مواطن المدينة . ولم تكن الخدمة العسكرية وحدها هي التي تفرض على الذكور من غير رجال الكنيسة ، بل إن رجال الشرطة في المدينة كانوا يختارون أصلاً بالدور من مواطنيها - للقيام بواجب الضبط والربط . وفي سنة ١٢٥٣ قرر هنري

الثالث الحراسات الليلية في المدن ، ويذكر « ستو » (Stow) نوعين من الحراسة في عهد الملكة اليزابيث وهما ، « الحراسة الثابتة » للواجبات الخطيرة ، و « الحراسة المتحركة » للاحتفالات . ولقد فرضت المجتمعات الحديثة مثل هذه الخدمة من أجل الحرب وحدها ، أو من أجل كارثة طارئة ، إلا أن مدينة العصور الوسطى جعلتها في عداد واجبات الحياة اليومية . وإنه لمن المسائل الخطيرة البت فيما إذا لم يكن ترك أمثال هذه المهام المتعلقة بالأمن تركا كاملا في أيدي الشرطة المحترفين قد أضعف الشعور بالمسؤولية وقضى على وسيلة فعالة للتربية الوطنية .

وفي عهد متأخر يصل إلى سنة ١٦٩٣ ، أصدر المجلس العام لمدينة لندن قانوناً قضى بأنه يجب أن يقوم أكثر من ألف شخص بواجب الحراسة المستمرة في مدينة لندن من الغروب إلى الشروق ، وأنه يجب على كل فرد من السكان أن يقوم بدوره في الحراسة . وللاحتفاظ بمثل هذه الهيئة كان من الواجب أن تبث فيها درجة عالية من الإحساس بالواجب نحو المدينة ، وأن تزود على الدوام بأمثلة خاصة من التفاني في سبيل الواجب ، وكذلك بمكافآت ومنح خاصة . وعندما انعدمت هذه الوسائل بطل تنفيذ القانون في القرن الثامن عشر . بيد أن مكافحي الحرائق والقائمين بأعمال الإسعاف ، الذين كانوا يضطلعون بأعباء هذه الخدمات المجيدة في لندن - وفي مدن أخرى عديدة - في خلال الحرب العالمية الثانية ، إنما كانوا يستأنفون القيام بخدمة اختيارية قديمة العهد ترجع إلى العصور الوسطى . وكثيرون منهم قد شهدوا بأنفسهم بأن روح الزمالة التي ولدها أداء ذلك الواجب عوضتهم بما يفوق المشاق المضنية التي كابدوها حتى إنهم يعدون تلك الليالي من بين أجمل ذكرياتهم .

وهنا ، كما هو الشأن في أغلب النواحي الأخرى ، كان يوجد فارق كبير بين الحالة في القرن العاشر أو الحادى عشر عندما كان لا يزال

يكتنفها البؤس والضيق والتقلقل ، وبينها في القرن السادس عشر عند ما كانت الثروة قد تدفقت على المدن الأوروبية الأكثر رخاء . وفي مبدأ الأمر كانت المدينة - بوصفها وحدة اجتماعية جديدة - تجاهد في سبيل دعم وجودها ذاته ، فإن انعدام الطمأنينة على وجه مستمر ولد جهداً مشرباً بروح الود ، بل تضامناً عاماً بين مختلف الطبقات والمهن ؛ إذ كان كل منهم في حاجة إلى الآخر ، ونحت ضغط تلك الحاجة تألفت تلقائياً جماعات من الجيران المتطوعين ، على نحو ما تتألف اليوم في قرية بنيو انجلند ، حيث لا يزال المتطوعون يؤدون خدمات مكافحة الحريق ونقل المصابين سريعاً إلى المستشفى .

وعندما أحرز بعض الناس مركزاً ممتازاً ، ظهرت فوارق عظيمة في الثروة بين « الناجحين » و « الفاشلين » ، وحينئذ كان المركز بورث كالثروة على حد سواء ، وتبعاً لذلك خلق هذا طبقة جديدة لم يقلل من قوتها اتصافها بالتهذيب المستمد من آداب السلوك والتربية ولهجة النطق . وعندئذ فإن الشكوك الخفية بين الطبقات ، نتيجة لهبوط فجائي في المستوى ، غدت أكبر شأناً من الصوالح المشتركة والحاجز الواقى التي كانت قد جعلت من مدينة العصور الوسطى في وقت من الأوقات وحدة اجتماعية أساسية .

وفي نهاية العصور الوسطى أخذ أفراد من الأثرياء يمنحون المدارس هبات من المال ، ويشيدون ملاجئ للشيوخ واليتامى ، مبشرين بالمهام التي كانت النقابة تؤديها في يوم ما ، ومثل ذلك تماماً مثل ما كان يقوم به الحكام المستبدون الجدد من مباشرتهم ، باسم البلاد بأكملها ، الامتيازات السياسية للمدن الحرة وأنظمة الحكم فيها ، فحولوا بذلك العصبية للمدينة إلى عصبية قومية ونزعة تجارية . بيد أنه عندما يحاول الإنسان أن يجدوصفاً عاماً للعهد بأكمله ، فإنه ما زال في وسعه أن يردد ما قاله جروس

(Gross) - على الرغم من أنه كان مشبعاً بالروح التي كانت تسود عهد الملكة فيكتوريا من إساءة الظن بالوحدات المحددة النطاق والأساليب الوقائية للنقابات ، فقد كانت تضع الأمان فوق المجازفة وحتى الأرباح : « وفيما عدا سكان مراكز الأسواق الممتازة ، فإن سكان مدن العصور الوسطى كانوا أكثر تجانساً من سكان المدن الموجودة في الوقت الحاضر ، فقد كانت السابقة أقل من الأخيرة اشتمالا على الفوارق بين الطبقات ، وأكثر منها انطواء على التعادل في الثروة وعلى المزيد من التناسق في الصوالح » :

ولما كانت هذه الكلمات قد صدرت عن رجل لم يكن معجباً بالنظام الاقتصادي في العصور الوسطى ، فإن قيمة هذا الحكم تكون مضاعفة : وفي وسعنا أن نقول كل هذا دون إغفال الكثير من الحالات الاستثنائية. الكئيبة ، مثل حال الذل التي كان عليها صناع النسيج الفلمنكيون في القرن الثالث عشر ، أو الثورات العنيفة التي نجمت عن ذلك وما قوبلت به من ضروب الكبح العنيف والإبادة الوحشية التي أنزلتها بهم الطبقات الحاكمة . أجل ، فإن القسوة والتعذيب وجداهما مستقرا في داخل هذه المدن سواء بسواء كالأمن والطمأنينة . ومن الممكن أن بعضاً من المخزوقات المشوهة في لوحات برويجل (Breughel) الأكبر كانت ضحايا القانون ، ولم تكن مجرد ضحايا الحرب أو الطبيعة ، وهو ما كان ممكناً أن يكون ، شأنها في بابل القديمة . بيد أن التآلف ، وبذل الجهد ، وتقديم العون ، والمساعدة طوعية واختياراً ، قد تمخضت عنها عادة سياسية ذهبت إلى حد بعيد المدى في تحدى هذه الوحشية فيما بعد - ولو أننا نعلم من عودة التعذيب والإبادة على نطاق واسع في جيلنا الحاضر ، أن هذا الانتصار لم يكن إطلاقاً ، أو على الأقل لم يعد بعد ، انتصاراً أبدياً .

ولم تنكمش نواحي النشاط الاجتماعي في مدينة العصور الوسطى تبعاً

للازدياد نمو نظام الاقتصاد الرأسمالى ، بل إنها على الأصح تحولت من المساعدة الذاتية إلى إعطاء الإحسان ومؤسسات البر ، وأخيراً بحكم الحاجة إلى الإعانات الحكومية ، وبالإضافة إلى الكنيسة ، بقيت من النقابات القديمة مؤسسة واحدة ، بل ازدادت قوة ونفوذاً ، ولعلها كانت المؤسسة الجديدة المفردة التى فاقت أهميتها كل ما أنتجته حضارة القرون الوسطى من مؤسسات . وبحكم الإدراك الغريزى لأهمية هذه المؤسسة ، كان الاسم الذى أطلق عليها هو التعبير العام الذى عرفت به أصلاً كل النقابات فى القرن الثانى عشر وهو « الجامعة » (universitas) .

ولقد أصبحت الجامعة هى النقابة : فإنها على غرار الأنواع الأخرى لجمعية أرباب الحرفة الواحدة كان هدف الجامعة الإعداد لمزاولة مهنة ، وتنظيم القواعد التى بموجبها يؤدى أعضاؤها عملهم . ولقد كانت الدراسات العلمية الجديدة - دراسة الطب الإغريق والعربى من سالكينو ، ودراسة مجموعة القوانين اللاتينية التى كونت حديثاً ، وحتى دراسة ضروب المعارضة للعقائد الدينية التى أقي بها ابن رشد وابن سينا - وقبل الجميع ، أرسطو - كانت هذه الدراسات فى حاجة إلى جهاز مدنى جديد . وكانت كل مدرسة من المدارس العظيمة التى تألفت منها الجامعة فى الأصل - القانون والطب واللاهوت - كانت ذات صفة مهنية ، وعلى الرغم من أن نظامها كان يشتمل على دراسات عامة ، فإن السر فى صبغها الإنسانية كان يمكن فى أسلوب حياتها أكثر مما كان يرجع إلى دراساتها فى الآداب القديمة . والواقع أن الدراسات « الإنسانية » العامة التى بدأت فى الظهور مع كليات عهد النهضة ، وبخاصة فى إنجلترا ، كانت بمثابة تطعيم الشجرة الأصلية على يد الطبقات الراقية . وإلى اليوم الحاضر ما زالت المعاهد المهنية هى التى تعين على التفرقة بين الجامعة والمدرسة .

وابتداء من بولونيا (Bologna) فى سنة ١١٠٠ ، وباريس فى سنة

١١٥٠ ، وكبردج في سنة ١٢٢٩ وسلامنكا في سنة ١٢٤٣ - ولو أنه كانت هناك بدايات غير رسمية في أماكن أخرى في مدارس الكاتدرائيات. في القرن الثاني عشر - وضعت الجامعات نظاما للتعاون في ميدان العلم على أساس التبادل بين الأقاليم المختلفة . فكان طلاب العلم يتوافدون^(١) زرافات. إلى هذه المراكز من جميع أنحاء أوروبا ، وكان الأساتذة بدورهم يدرسون ويلقنون العلم في مراكز نائية ، كما كانوا يفعلون من قبل في مدارس الأديرة والكاتدرائيات . وما كانت الجامعة تهيئه في كلياتها من الجمع بين المعرفة الدينية والمعرفة العلمية والمعرفة السياسية لم يسبق له نظير بضارعه تماما في أى حضارة أخرى .

ولا جدال في أن بذور الجامعة كانت كامنة في المعابد المصرية والبابلية ، إلا أن وجودها كان أكثر وضوحا في أكاديمية أفلاطون وفي معهد الإسكندرية ومكتبتها ، أو في نظام المحاضرات في البلديات الرومانية . بيد أن متابعة العلم في الجامعة قد ارتقت فأصبحت منشأة دائمة لا يعتمد استمرار بقائها على أى مجموعة بمفردها من القسس أو العلماء أو الكتب . ولقد كان نظام المعرفة أكثر أهمية من الأشياء المعروفة ، وكانت الجامعة تؤدى ثلاث وظائف على نحو وافي ، وهى استيعاب الثقافة ، ونشرها بتبادل المعرفة ، وتزويدها بالإضافات الخلاقة - ولعل هذه الوظائف الثلاث كانت أهم الوظائف الأساسية للمدينة . ولما كان من الممكن أن نسمى الدير ومكتبته جامعة غير عاملة ، فإنه من الممكن كذلك أن نسمى الجامعة ديرا عاملا ، فإنها أوضحت - بمتضى ما كان لها من حق مطلق بوصفها جهازا يؤدى وظيفة دينوية - أحد وجوه النشاط الضرورية في المدينة ، وهو الانصراف عن المسئوليات العملية العاجلة وإعادة تقييم التراث الثقافى وتجديده بعين.

(١) ما يجدر بالملاحظة أن الطلبة كانوا يؤلفون أروقة يضم كل منها الوافدين من إقليم أو بلد معين .

فاحصة عن طريق الاتصال المباشر بين الأستاذ والطالب . وفى التخطيط
الأصلى للكلليات فى أوكسفورد وكمبردج ، قدم تخطيط العصور الوسطى
أجل خدماته المبتكرة لتخطيط المدن : ويتمثل ذلك فى الوحدة السكنية
الكبرى (superblock) والخطة الحضرية^(١) (urban precinct) المنزولين.
عن الشبكة القديمة للأزقة والشوارع .

فها هنا ابتكار اجتماعى من الطراز الأول ، ومن أجل هذا وحده كان.
خليقاً أن تتبوأ بلديات العصور الوسطى مكاناً بارزاً ، ولذلك أن
استقلال الجامعة فى ذاته عن معايير السوق والمدينة ، شجع على إيجاد
ذلك النوع من السلطة التى أخذت تمارسها ، ونعنى بها تأييد الحقائق
القابلة للتمحيص التى تدعمها مناهج المنطق والجدل ، والتبحر العلمى.
الواسع ، والمنهاج العلمى ، وذلك تبعاً لانتطور وتراكم هذه النواحي.
من عصر إلى عصر . وقد ينطوى مثل هذا النظام على عيوب كثيرة ،
كما أن الخدمات التى أداها فى أثناء القرون التى ولت منذ قيامه لم تكن
على مستوى واحد فى قيمتها ، لأن الجامعة تشارك الثقافات إلى اليوم
فى جانب من تمسكها المهين بالقديم وإغلاق دوائرها دون غير أهلها . ولقد
حدث كثيراً أن جاءت الخدمات الكبرى للعلم ، من نيوتون إلى أينشتاين ،
ومن جيلبرت إلى فاراداي ، من خارج الجامعة ، ومع ذلك فإن التوسع
فى التراث الفكرى وتناقله من جيل إلى آخر كان من المتعذر عقلاً أن.
يتحققا بالقدر الذى تحققا به فعلاً منذ القرن الثالث عشر بدون وساطة
الجامعة . وعندما لم تعد الكنيسة موئل القيم الجديدة ، أخذت الجامعة
تتولى تدريجاً القيام بشيء من هذه المهمة ، ولقد كان هذا سبباً فى إسباغ
مكانة خاصة على الانصراف إلى مواصلة البحث عن الحقيقة ، بوصفها
أسمى ما فى الحياة ، كما كان سبباً فى أن علمى الجمال والأخلاق أغفلت

(١) مجموعة مبان تتوسطها ساحة مكشوفة .

إلى درجة كبيرة . وهكذا فإن الجامعة أصبحت نموذجاً مثالياً لذلك الإفراط في التخصص وتحديد الوظيفة ، وهو ما يعرقل الآن من التطور الإنساني بل يهدد بقاء النوع الإنساني .

٧ - رحلات ومواكب ومهرجانات

في أثناء حرية التنقل الجديدة - وهي التي برزت مع الحريات المشتركة التي كانت مدينة العصور الوسطى تطالب بها - كانت الحياة تعتبر رحلة ، فقد كانت لدى دانتى رحلة على انفراد خلال « الجحيم » و « المطهر » و « الجنة » ، ولدى تشوسر رحلة مع رفاق في الطريق إلى المزار في كانتربوري ، وحتى في الرواسب التي خلفها عهد العصور الوسطى كانت الحياة لا تزال تبدو في صورة « رحلة مسافر » .

ومهما تكن الاحتياجات العملية لمدينة العصور الوسطى ، فإنها برغم حياتها الحافلة بألوان المشاغل والاضطراب كانت مسرحاً لمراسم الكنيسة ، فقد كانت الكنيسة مدار حياتها والصورة المثلى لكاملها ، وكما أنه في العصر الصناعي المتأخر كان الخيال يبدو في أرقى مراتبه في محطة للطرق الحديدية أو في قنطرة ، فكذلك في حضارة العصور الوسطى بلغ العمل الفعلي ذروته - عن طريق حركة مضادة - في خدمة رمز عظيم للخلاص ، فقد كان الناس الذين لا يملكون إلا القليل لقوتهم يعطون قدراً من ذلك القليل لإقامة صلوات وحفلات دينية وإيقاد شموع ، وإنشاء مبنى ضخم ، حيث كانت تبلور الأساطير والمجازات والعقائد والمعرفة في صحن الكنيسة ومذبحها ، وفي الصور التي زخرت بها الحواجز والجدران ، وفي الردهات والتوافذ المستديرة . وفي بعض مناسبات التأثير الديني العميق ، كتلك التي وصفها هنري آدمز في مؤلفه « مونت - سانت - ميشيل وشارتر » ، كان الفقراء والأغنياء على السواء يذهبون حتى إلى حمل ذات الأحجار اللازمة للمبنى .

وما من طالب قابع في مكانه يستعرض صور هذه العمارة ، وما من شاهد سطحي يتخذ لنفسه موقعا يحاول أن يرسم منه محاورها ونسبها المختلفة — ما من أحد منهما يتسنى له أن يدرك سر هذا الوضع الحضري ، حتى من الوجهة الجمالية البحت . وذلك لأن مفتاح السر في الشكل الظاهري للمدينة يكمن وراء المهرجان المتحرك أو الموكب ، وفوق كل شيء الموكب الديني العظيم الذي يطوف الشوارع والميادين قبل أن ينتهي إلى الكنيسة أو الكاتدرائية لإقامة الحفل العظيم ذاته . ولا مجال هنا للعمارة الثابتة ، فإن الجموع تنتشر وتتشظى فجأة تبعا لاقتراب المراء أو ابتعاده عنهم ، وإن اثنتي عشرة خطوة قد تغير من النسبة بين المنظور في الجزء الأمامي وفي الجزء الخلفي ، أو بين المدى الأسفل والمدى الأعلى لخط الرؤية . وإن المنظر الجانبي للمباني يستوفى الهرمية الشديدة الانحدار وأسطحها الحادة الخطوط ، وقبابها وأبراجها وزخارفها المتشابكة — إن هذا المنظر ليماوج وينساب ، وينقطع ويتجسم ، ويعلو ويهبط بما لا يقل حيوية عن المباني ذاتها ، وكثيراً ما تكون المعالم ذات تباين لا ينتهي ، كما هو الشأن في حالة قطعة جميلة من قطع النحت .

وفي داخل نطاق الطراز العام للعصور الوسطى ، حدثت تغيرات عميقة في الوجدان ، على مدى خمسة قرون ، فإن تجارب الحياة المتباينة تباينا جوهريا يبدو أثرها في الاختلاف بين الرزائة المظمتة — التي تنسم بها المباني الرومانسكية العظيمة بصلابتها التي تحاكي صلابة الحصون ، ووقارها الذي يضارع وقار الترانيل — وبين الروح الإنسانية التي تتجلى في الكنائس الرائعة التي أقيمت للسيدة العذراء ، بما فيها من تجارب جريئة طليقة ، وحيث استحال القبر المطوق بالبحران ، الذي كان يرمز إلى التسليم بالموت ، إلى مصباح سماوي يزجي الأمل في البعث ، على حين أن ما حدث من الإفراط في الولع بالجمال الثني في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وما اقترن به من الإسراف في الزخارف المتشابكة ، يروي لنا قصة أخرى ، قصة

تضائل الإيمان وازدياد الانهماك في بهرج الحياة اليومية أو الإفراط في التكفير عن ذلك بالحرمان والتقص ، على نحو ما يروى لنا يوهان هويزينجا (Johann Huizinga).

يبدو أنه في خلال كل هذه التغيرات احتفظ الوضع نفسه بتركيبه الجماعي ، فقد كان يستوعب لحظات روحية متتابعة دون أن يفقد شيئاً من شكله ؛ وكانت قباب الكنائس وأبراج أجراسها تجذب الأنظار نحو السماء ، كما كانت مبانيها ترتفع درجات تبعاً لمرتبتها فوق ما هو أدنى منها من رموز الثروة والسلطة الدنيوية ، وتنبؤاً مكان الصدارة دون منازع ؛ ومن خلال نوافذها المستديرة كان النور ينبعث في حالات من الألوان الصافية مكونة أشكالاً تجريدية في طرازها . ومن أى مكان تقريباً في المدينة كانت ترى أصابع الزجر فوق أبراج الكنائس في شكل صلبان مطلية بالذهب وكأنها سيوف الملائكة المقربين . وإذا ما غابت لحظة عن العيون ، فإنها كانت لا تلبث أن تبدو فجأة كلما انفرجت السقوف عن بعضها البعض ؛ فيكون لها ما لصوت الأبواق من قوة التأثير ، فإن ما كان محصوراً في وقت من الأوقات داخل جدران الدير ، أصبح الآن بادياً للعيان في جميع أرجاء مدينة العصور الوسطى .

ومن شأن قصر المسالك المؤدية إلى المباني الضخمة ، أو بعبارة أخرى من شأن قصر امتداد المنظر أمامها أن يضاعف من تأثير المسقط الرأسى ، فإن المرء لا ينظر يمينا أو يسارا ليشاهد منظراً واسع المدى بل يتجه بنظره إلى أعلى . وتضييق نطاق الحركة على هذا الوجه المحدود كان جزءاً أساسياً في سير المواكب وفي التناسب بين المباني بعضها بعضاً إلى درجة أنها لم تكن في حاجة إلى ما حباها به الطراز القوطى في إنجلترا من زيادة توكيداً مسقطها الرأسى . ولقد كانت النوافذ المرتبة في صفوف أفقية شائعة في المنازل ، وكان ينحرف من حدة الشكل العمودى للأبراج - في سالزبورى

أو نوتردام دو بارى بما لا يقل شأنًا عن ذلك فى كنيسة الدومو بفلورنسا -
 أحزمة أفقية فى الواجهة أبرزت بجرأة . بيد أنه على الرغم من كل ذلك ،
 فإن الحركة العادية للعين هى إلى أعلى وأسفل ، والتغير الدائم فى اتجاه
 حركة السائر على قدميه من شأنه أن يعين باستمرار على استحداث أشكال
 تبدو عن كثب دينامية ذات أبعاد ثلاثة فى كل ثنية من الطريق كلما ازداد
 المضى فى السير ، مع الإحساس بالانقباض فى الشوارع الضيقة ، وبالانشراح
 عند ما يصل فجأة إلى ساحة السوق أو الفناء الفسيح أمام الكنيسة : وعلى
 الرغم من أن التفاصيل المعمارية تختلف فى لوبيك ، بسقفها الهرمية
 وأبراجها المدينية ، عنها فى فلورنسا ، بسقفها القليلة الميل أو المسطحة ،
 وعناصرها المعمارية البارزة بروزاً كبيراً ، فإنها فى مرتبة واحدة من
 حيث الأثر الجمالى فى مجموعه الذى يحدثه تخطيط المدينة ذاتها :

وكان أولئك الذين يتجولون فى المدينة ، لمتابعة أعمالهم اليومية ،
 أو يسرون فى مهرجان لتقابتهم ، أو ينتظمون فى عرض عسكري ، أو
 يشتركون فى موكب دينى ، يستمتعون بهذه المظاهر الجمالية ، وعند التواء
 الموكب ذاته ودورانه كان يتسنى لهم الإحساس كأنهم يرون أنفسهم أمامهم
 كما لو كانوا ينظرون فى المرآة ، وذلك بمشاهدة الأجزاء الأخرى من
 الموكب . ومن ثم كان المشترك والمتفرج شخصاً واحداً ، وهو ما لم
 يكن يتسنى حدوثه مطلقاً فى عرض رسمى فى شارع مستقيم :

ولنلق نظرة على موكب من مواكب العصور الوسطى من خلال
 عيني أحد المعاصرين المتأخرين الذى خلف وراءه وصفاً مستفيضاً لهذه
 المناسبة : وفيما عدا الصفحات التى ديجها ستو (Stow) ، لأعرف وصفاً
 آخر يعطى المرء صورة أكثر حيوية عن مدينة العصور الوسطى : أما
 الزمن فى أرائل القرن السادس عشر ، والمكان فهو انتورب ، والمشاهد
 فهو البرخت ديرر (Albrecht Dürer) :

« وفي يوم الأحد الذى أعقب يوم صعود سيدتنا الغالية العذراء ، رأيت الموكب العظيم من كنيسة سيدتنا العذراء فى أنتورب عندما اجتمعت المدينة بأسرها من كل حرفة ورتبة . وكان الكل يرتدون أفخر ثيابهم تبعاً لمكانتهم ، وكانت لجميع الطبقات والنقابات أمارات يمكن الاستدلال عليهم بها : وفى الفواصل التى تتخلل الموكب كانت تحمل أعمدة عظيمة للشموع ثمينة القيمة وثلاثة أبواب فرنجية (Frankish) قديمة طويلة من الفضة . وكان يوجد كذلك كثير من الزمارين والطبالين على النسق الألماني ، وكانوا ينفخون فى مزاميرهم ويدقون طبولهم فيحدثون جلبة وضوضاء صاخبة .

« واتقد رأيت الموكب يمرّ على طول الطريق ، والناس ينتظمون فيه صفوفاً ، وكل رجل يقف على مسافة من جاره ، ولكن الصفوف تتلاحق بعضها وراء بعض . وكان هناك الصاغة والتقاشون ، والبناءون ، ومزركشو الأقمشة ، والنحاتون ، ونجارو الأثاث ، والنجارون العاديون ، والبحارة ، والصيادون ، والحزازون ، وصناع الجلود ، وصناع الأقمشة ، والخبازون ، والخياطون ، وصناع الأحذية - فى الواقع كل أنواع الصناعات ، وكثيرون من أرباب الحرف والصنع الذين يعملون لكسب قوتهم اليومي . وكذلك كان يوجد هناك كل أنواع أصحاب الحوانيت والتجار ومساعدتهم . وبعد هؤلاء جاء الرماة بالبنادق ، والسهام ، والأقواس ، والفرسان ، والمشاة من الجنود أيضاً ، ثم تلاهم حرس السادة الحكام . وأعقبهم فصيلة بديعة من الجنود ، يرتدون جميعاً أزياء حمراء تضيف عليهم رونقاً وبهاء ، ومع ذلك فقد كانت تتقدمهم جميع الطوائف الدينية وأعضاء بعض المؤسسات ، فى خشوع عظيم ، وكلهم يرتدون أزياءهم المختلفة .

« ولقد اشتركت أيضاً فى الموكب طائفة كبيرة جداً من الأراذل ،

وهن يَعْدُلْنَ أنفسهن بأيديهن متبعات قاعدة خاصة . وقد كن جميعا يرتدين من قبة الرأس إلى أخمص القدم ملابس من الكتان الأبيض صنعت خصيصاً لهذه المناسبة ، وكان منظرهن يبعث على شدة الحزن والأسى . . . ولقد رأيت بينهن شخصيات على أعظم درجة من الوقار ، وخلف الجميع جاءت طائفة كنيسة سيدتنا العذراء بكل من فيها من رجال الدين والطلبة وأمناء المال . وكان عشرون شخصاً يحملون تمثال مريم العذراء مع السيد المسيح وقد زين كأبهى ما تكون الزينة تكريماً لله العظيم .

« ولقد عرضت في هذا الموكب أشياء كثيرة جداً تبعث على البهجة ، وكلها أعدت على أبداع نسق . وجرت عربات أسدلت عليها أقمعة لتبدو على هيئة سفن ومنشآت أخرى ، وجاءت خلفها جماعة الأنبياء ، طبقاً لترتيبهم ، ومناظر ومواقف واردة في إنجيل العهد الجديد ، مثل بشارة السيدة مريم ، والملوك الثلاثة المقدسين ، على متن إبل عظيمة ، وعلى حيوانات أخرى نادرة معدة أحسن إعداد ، ولقد استمر الموكب من أوله إلى آخره أكثر من ساعتين قبل أن ينتهى مروره بمنزلنا . »

ولنلاحظ العدد الضخم من الناس الذين انتظموا في هذا الموكب ، وكما هو الشأن في الكنيسة ذاتها ، فإن النظارة كانوا أيضاً متعبدين ومشاركين ، فقد أسهموا في الموكب بمشاهدته من أعماق نفوسهم ، وليس بمجرد التطلع من الخارج ، أو على الأصح بالإحساس به داخلها مشاركين بعضهم بعضاً في الأداء في توافق وائتلاف ، وليس كمخلوقات متفرقة يلتزم كل منها القيام بدور وحيد من نوع خاص . وقد كانت المدينة ذاتها مسرحاً لهذه المناظر المتفرقة من دراما الحياة — العبادة أو القداس أو المهرجان أو موكب الحياة أو التعميد أو الزواج أو الجنائز . وقد كان المواطن نفسه — حتى وهو يقوم بأدواره المتباعدة — لا يزال ينظر إليه على أنه كل واحد

كما قررت النظرة في الكون ، ويعيش في حالة من التوتر نتيجة للدراما الإنسانية التي أنشأتها الكنيسة ، محاكية بذلك الدراما المقدسة التي عاناها مؤسسها ، وعندما تصدعت وحدة هذا النظام الاجتماعي تطرق الحلل والاضطراب إلى كل ما حوله ، بل إن الكنيسة العظيمة ذاتها غدت فئة تثير النزاع وتنشد النفوذ والسلطان ، وأمست المدينة ساحة للنضال بين الثقافات المتضاربة وأساليب الحياة المتباينة .

الفصل العاشر

تربس شئون المدينة في العصور الوسطى

١ — المعبنة المنزلية

كان نظام الجماعة المقصورة على أعضائها يسود أغلب نواحي الحياة في العصور الوسطى ، بيد أن الأسرة الحضرية في العصور الوسطى كانت جماعة مفتوحة الجوانب إلى حد كبير جداً ، بالقياس إلى الحياة الحديثة ، وذلك لأنها كانت لا تشتمل على الأقرباء الذين تربطهم بها صلة الأرحام فحسب ، بل تشتمل على طائفة من الصنائع وكذلك من الخدم بوصفهم جزءاً من أهل البيت العاديين ، فقد كانوا يعتبرون بمثابة أعضاء ثانويين في الأسرة . وكان هذا يسرى في جميع الطبقات ، فإن الشبان من أبناء الطبقات العليا كانوا يكتسبون معرفتهم بشئون الدنيا عن طريق الاندماج في خدمة أسرة نبيلة ، فكان ما يشاهدونه وما يصل إلى مسامعهم في وقت تناول الطعام جزءاً من تعليمهم . وكان تلاميذ الحرفة ، وكذلك العمال الأجراء في بعض الأحيان ، يعيشون كأعضاء في أسرة أستاذ الحرفة . وإذا كان زواج الرجال يتأخر فيما يبدو عما هو الحال اليوم ، فإن مزايا الحياة المنزلية لم تكن معدومة بأكملها حتى للأعزب .

لقد كان أفراد دار التشغيل (الورشة) أو بيت التجارة يؤلفون أسرة واحدة ، إذ كانوا يأكلون معا على المائدة نفسها ويعملون معا في الحجرة نفسها ، وينامون في الردهة ذاتها ، أو في ردهة عامة كانت تحول ليلاً إلى أماكن للنوم ، وكانوا يشاركون الأسرة في صلواتها ويشتركون جميعاً في ألوان الترفيه العامة . وكانت العفة والبكارة ما زالتا يعتبران مثاليين على نحو ما نادى

به القديس بولس ، ولكن من بطالع ماكتبه بوكانشيو أو تشوسرسوف لا يغالى في تقدير ذبوعها . وكانت النقاية ذاتها بمثابة أسرة يتمتع فيها الأب بالسلطة العليا ، فقد كانت تتولى المحافظة على النظام في داخل بيئتها ، بتوقيع الغرامة والعقاب على مرتكبي الجرائم الصغرى في حق رابطة الأخوة ، وذلك بصرف النظر عما كانت تفعله البلدية . وحتى العاهرات قن بتأليف نقابات ، والواقع أن المواخير كانت تحت حماية الإدارة البلدية في همبرج وفيينا وأوجسبرج . وعند ما يذكر الإنسان أن « مرض الزهري » لم يظهر بصورة حاسمة - على الأقل بشكل خبيث - إلى القرن الخامس عشر ، فإنه يرى أن الدعارة ذاتها كانت تشكل عندئذ خطرا على الصحة أقل مما بلغت في القرون التالية .

والصلة الوثيقة بين العمل والمعيشة المنزلية - وهي لم تبق اليوم في المدينة إلا في الحوانيت الصغيرة أو أحيانا في بيت مصور أو معماري أو طبيب - كانت هي التي تملئ الترتيبات الرئيسية داخل دار السكنى ذاتها في العصور الوسطى . ومن الطبيعي أنه كان هناك فارق كبير بين ما كان معروفا في القرن العاشر من الأكواخ التي أقيمت حيثما اتفق والحظائر الجرداء المبنية من الحجر ، وبين دور التجار الأنيقة التي شيدت فيما بين القرنين الحادى عشر والسادس عشر ، وهو فارق لا يقل عما يوجد بين مسكن من القرن السابع عشر وإحدى العمائر في عاصمة كبرى اليوم . ومع ذلك فلنحاول أن نبرز عوامل مشتركة معينة في هذا التطور ، فقد خلف بعضها أثرا دائما بقي إلى القرن العشرين .

فالمنازل - ولم تكن تملأ عن طابقين أو ثلاثة طوابق في بادئ الأمر - كانت تبني عادة في صفوف متواصلة حول حافة حدائقها الخلفية ، وأحيانا في حالة الوحدات السكنية الكبيرة كانت تتوسطها أفنية داخلية - فيها رقعة خاصة تكسوها الخضرة - كان الوصول إليها عن طريق بوابة واحدة تطل

على الشارع . وكان يندر نسبياً وجود المنازل المنخفضة ، فهي تتعرض بلا داع إلى تأثير عوامل الطبيعة ، وتترك الأرض هباء على كلا الجانبين ، كما أن تدفقتها أشد صعوبة ، ولذلك فإن المنازل حتى في المزارع كانت تؤلف جزءاً من مجموعة متماسكة تشتمل على حظائر الحيوان ومخازن الغلال والحبوب ، وكانت مواد بناء المنازل تؤخذ من تربة الأرض المحلية ، ولذا فإنها كانت تختلف باختلاف المناطق ، فكانت تارة من الجداول المكسوة بالطين ، وتارة من الحجر أو الطوب ، وكانت سقوفها حيناً من القش مما يجعلها عرضة للحرائق ، وحيناً آخر من الترميد أو « لاردواز » ، وانتظام المنازل في صف متواصل بحيث تؤلف إطاراً مغلقاً لوحدة سكنية ، مع وجود مدخل مخفور في الطابق الأرضي ، كان بمثابة أسوار للمنازل ، كان من شأنها حماية المنازل حماية فعالة من دخول الأشرار في أوقات الاضطراب..

وكانت في أقدم المنازل منافذ صغيرة ، كانت نوافذها عبارة عن أنواع تسدها للوقاية من الجو ، وفيما بعد كانت لمنافذ المنازل نوافذ دائمة كانت تصنع من التماس المعالج بالزيت ، ثم من الورق ، وفي النهاية من الزجاج . وفي القرن الخامس عشر ، أصبح استعمال الزجاج أكثر انتشاراً ، وكان إلى ذلك الحين لا يستخدم إلا في المباني العامة بسبب ارتفاع ثمنه — وكان استعماله في البداية مقصوراً على الجزء الأعلى من النوافذ . وفي اللوحة التي رسمها جوس فان كليث (Joos Van Clave) (وهي الآن في متحف المتروبوليتان) في القرن السادس عشر ، وهي تصور بشارة السيدة العذراء ، يرى المرء نافذة مزدوجة مقسمة ثلاثة أقسام ، والقسم الأعلى منها ثابت ومؤلف من لوحات زجاجية ماسية الشكل ومعشقة بالرصاص ، والقسمان الآخران لهما مصاريع تفتح إلى الداخل . وعلى هذا النحو كان يتسنى التحكم في مقدار ما يسمح بإدخاله من الهواء وضوء

الشمس ، بيد أنه في الأيام التي يقسو فيها الجو كان يمكن إغلاق المصاريع المركبة في كلا القسمين السفليين دون حجب الضوء بالكلية . ومن حيث اعتبارات الصحة والتهوية أياً كانت ، فإن هذا الطراز من النوافذ الذي كان شائعاً في الأقاليم الواطئة كان يفوق ما أعقبه من طراز النوافذ المصنوعة بأكملها من الزجاج ، نظراً إلى أن الزجاج يحول دون مرور الأشعة فوق البنفسجية التي تقتل الجراثيم ، بل إنه كان يفوق على وجه أوقع وأوضح الحائط الزجاجي المحكم الجوانب الذي تولت أخيراً النزعة المعمارية السائدة إقامته في عصر مفروض فيه أنه مستنير ، دون مبالاة بكل قواعد على الصحة أو الفسيواوجيا .

وبحلول القرن السادس عشر كان الزجاج قد أصبح زهيد الثمن ، ويستخدم على نطاق واسع ، حتى إن القول الشائع في إنجلترا عن قصر هاردويك (Hardwick Hall) بأنه « كان يتألف من زجاج أكثر مما كان يتألف من جدران » - إن هذا القول كان ينطبق كذلك على سائر منازل المواطنين . ولكن من الغريب حقاً أن نظام التهوية في إنجلترا كثيراً ما كان غير واف بالغرض . ألم يقترح إرازموس الروتردامي (Erasmus of Rotterdam) في رسالة منه إلى طبيب ولزي (Wolsey) أن الحالة الصحية في إنجلترا قد تتحسن إذا ما زودت حجرات النوم بنوافذ في جانبيين أو ثلاثة جوانب منها ؟

وفي منطقة بحر الشمال كان يمتد إطار عريض من النوافذ في كل طابق على طول امتداد واجهتي المنزل الأمامية والخلفية ، وكان ذلك في الواقع يوازي الميل إلى زيادة عرض المنازل ، بيد أنه في الأجزاء الجنوبية من أوروبا أوقفت حرارة الصيف الحارقة هذا التطور إلا في جدران حجر الجلوس . وعلى الرغم من أنه تبعاً لذلك كثيراً ما كانت الأجزاء الداخلية في دور البعثور الوسطى قليلة الضوء ، إن لم تكن مظلمة بالقياس إلى

مستوياتنا ، فإن بُنائها كانوا يقدمون على توفير الضوء عند الحاجة إليه ، فدور النساخين القديمة في صدفري (Sudbury) بانجلترا لها نوافذ كبيرة إلى حد غير عادي في الطابق العلوى لتوفير الضوء للنول ، وإذا لم يتيسر الحصول على الضوء الكافى بهذه الوسيلة ، فإن العمال كانوا ينتقلون إلى خارج الدار ، كما لا يزال يفعل القدامى من صناع المخزومات مدينة بروج (Bruges) بالجلوس إلى جوار عتب أبوابهم .

ولقد اطرده التحسن في وسائل التدفئة ، وهو ما يعطى إلى حد ما انطلاقة النشاط البشرى في الشمال ، إذ أنه بالتدريج لم يعد الشتاء فترة نوم وخمول ، فإن الموقد المفتوح في وسط أرض البيت الحجرية - وهو لا يكاد يبلغ في تأثيره ما يبلغه نظام التدفئة في خيمة الهنود الحمر - إن هذا الموقد حلت مكانه المدفأة والمدخنة . ولقد اقترنت بهذا التطور العناية بوسائل مقاومة الحريق ، ففي البداية ، لما كانت المواد الملائمة تعوز الفقراء من سكان المدن ، فإن ذلك أغراهم بأن يجربوا صنع المداخن من الخشب ، وكانت تجربة تنطوى على قدر لا مسوغ له من التفاؤل ، وقد تكرر حدوثها في مراكز الاستقرار الأولى في نيو إنجلند وفيرجينيا . وفي سنة ١٢٧٦ أصدرت مدينة لوبيسك أمراً يحتم أن تكون سقوف المنازل وكذلك كل جدار مشترك بين جارين مقاومة للنار . وفي لندن ، عقب الحريق الكبير الذى وقع في سنة ١١٨٩ ، منحت امتيازات خاصة لمن يقيمون مبانيهم بالحجر والقرميد ، على حين أنه في سنة ١٢١٢ صدرت الأوامر بوجوب طلاء السقوف المعروشة بالقش أو « البوص » لتكون أكثر مقاومة للنار .

أما من حيث المسقط الأفقى للمنزل ، فقد كان يختلف باختلاف المنطقة والعصر ، بيد أن معالم معينة بقيت شائعة . ولقد أراينا في -

لو - دوك (Viollet - le - Duc)^(١) المسقط الأفقي لمنزل فرنسي به حانوت في الدور الأرضي يتصل بمطبخ في الخلف عن طريق دهليز مكشوف ، وكان يتألف منهما معاً فناء يشغل البئر زاوية منه . وكانت توجد مدخنة في المطبخ وفي « حجرة الجلوس » أو الردهة الكبرى الواقعة فوق الحانوت ، وكان يمكن الوصول منها إلى حجرات النوم في أعلاها . والمسقط الأفقي الذي رسمه موريتز هين (Moritz Heyne) لمنزل قديم في نورنبرج لا يختلف عن هذا المنزل اختلافاً جوهرياً ؛ بيد أنه - كما هو الشأن في المنازل التي بقيت من القرن السابع عشر - كان يوجد فيه عدد أكبر من الحجرات الداخلية ومطبخ وحجرة أصغر حجماً في الطابق الأرضي ، وحجرة فوق المطبخ يمكن تدفئتها ، وعدد من الحجرات مع دورة مياه في الطابق الثاني ، وكانت هذه الدورة تقع مباشرة فوق تلك الكائنة في الدور الأول .

وأما في إيطاليا ، فإن الرغبة في الاستمتاع بالراحة في الصيف - ولعلها اقترنت بالولع الغريزي بالعظمة أو بحب الرومان للاتساع - كانت سبباً في رفع السقف إلى علو جاوز كل حد معقول في جنوة وفلورنسا . منذ القرن السادس عشر ، بيد أن المباني التي بقيت من القرن الثالث عشر ، مثل مسكن دانتي ، تتكشف عن أبعاد أكثر تواضعاً وأفضل ملائمة للمعيشة على مدار السنة . وفي تطور بناء المنازل تسير زيادة الحرارة التي تولدها يد الإنسان مع زيادة اتساع المساحة الداخلية وارتفاع السقف ، ولكن قلما بلغت التدفئة مستوى يتناسب مع برد الشتاء في إيطاليا . والاتساع « البشع » الذي اتسم به مثل هذا العدد الكبير من قصور القرنين

(١) كان فيولي - لو - دوك (١٨١٤ - ١٨٧٩) معمارياً فرنسياً مشهوراً وكان زعيم حركة إحياء الطراز القوطي في فرنسا وتولى إصلاح كنيسة نوتردام وسانت شابلن في باريس . وكاتدرائيتي اثينا ولاون .

السادس عشر والسابع عشر كان مؤذياً للبدن بقدر ما كان قذى للعين .
ولابد من أن طوابق الخدم ذات السقوف المنخفضة كانت - في الشتاء
على الأقل - أكثر مواتاة للراحة من الأجنحة المخصصة للسادة بما كان
يغشاها من تيارات الهواء .

وكان النمط الوحيد للهو الحديث هو الرواق المكشوف أو السلم
الضيق ، وكان عادة حلزونياً . وكان الرواق من المعالم الشائعة في المنازل ،
وهو ما زال باقياً في تصميم الفنادق القديمة حيث كان وجود وسيلة للمرور
أمراً ضرورياً جداً ، وبسبب انعدام الإضاءة الصناعية لم تكن الردهة
الداخلية حلاً مرغوباً فيه إلى أن تسرع عمر الفناء الداخلى بنور السماء ، كما
هو الشأن في بعض قصور وفنادق القرن التاسع عشر . ولقد ظلت المعالم
الرئيسية لهذا الطراز من المنازل باقية إلى فترة طويلة من القرن السابع عشر ،
بل إلى ما بعدها .

وكلما انخفض المستوى الاقتصادى كان نظام المنازل أقل تفاوتاً
والمساحة أكثر ضيقاً . ولعل المسكن المؤلف من حجرة واحدة لأسرة
بأكملها في مبنى متعدد الطوابق - وهو ما لا يزال شائعاً بين الفقراء في
بيلاد كثيرة - لعله نشأ في المدن التي ازداد اشتغالها بالصناعة في أواخر
العصور الوسطى . وحتى في الريف حيث لم يتعذر وجود الأرض ،
يروى كولدون أن أسرة تتكون من ثلاثة أفراد كانت تعيش في منزل
يبلغ طوله أربعاً وعشرون قدماً ولا يزيد عرضه على إحدى عشرة قدماً .
ومن ثم فإنه ، سواء في المدينة أم في الريف ، لم يكن سبب ضيق المساحة
ذاتها إلا ضيق ذات اليد .

ولما كان منزل ساكن المدينة يستخدم مصنعاً ودكاناً ومكتباً ، فإن
هذه الحقيقة كانت تحول دون قيام البلدية بتخصيص مناطق منفصلة لكل
نوع من هذه الأعمال . ولا مبدل إلى الشك في أن الإحتياج إلى شغل
الحيز الواقع بين أجزاء البيت المخصصة للسكن وتلك المخصصة للعمل ،

كان سبباً في أن الحداثى الخلفية لم تبق على حالتها الأصلية ، بل طغت عليها الحظائر والسقائف ودور التشغيل (الورش) الخاصة . بيد أنه ما زال يوجد فى مدينة بروج مصنع للجنة يشغل الآن جانباً بأسره تقريباً من الميدان المعروف بميدان وال (Walplatz) ، وقد بنى فى حجم ذات المسكن المجاور له ، ويتم الشحن فى الفناء الواقع خلف المبنى ، وهنا يتوافر اتساع كاف للمخزن والسقيفات وحظيرة السيارات - ولكنها ما زالت وفقاً لمقاييس العصور الوسطى : وفيما عدا الحالات التى كانت فيها الصناعة قليلة الشأن شديدة الضوضاء - وعندئذ كانت توضع غالباً فى أطراف المدينة أو خارج أسوارها - فإن هذه الصلة الوثيقة بين الحياة الصناعية والحياة المنزلية ظلت زمناً طويلاً أمراً عادياً مألوفاً ، وهو ما يتناقض تماماً مع الوضع المنزلى ، المعتمد بحكم القانون ، لأحياء السكنى فى الوقت الحاضر .

والواقع أن الإنتاج على نطاق واسع وتجميع الأنوال فى حظائر كبيرة كانا معروفون فى الفلاندر فى القرن الرابع عشر ، وكانت صناعات مثل صناعات الغزل والزجاج والحديد تحتاج إلى طراز من دور التشغيل أكثر انعزالاً ، وكانت تحيط بها فى بعض الأحيان دور للتشغيل ذات صلة بها ، كما هو الشأن فى حالة عددك المنسوجات والصباغة والنسيج والتكشم^(١) . وفى هذه الصناعة حدث أول انفصال بين العمل والحياة المنزلية ، سواء فى المكان أم فى الوظيفة ، إلا أنه فى مبدأ الأمر كان طراز نظام حياة الأسرة يسود نظام الحياة الصناعية ، كما كان يسود نظام أديرة طائفة البندكتين . ولقد بقيت مخلفات هذا النظام قائمة فى كل مدينة أوروبية تاريخية ، فعادة الإقامة فى مكان العمل التى احتفظ بها تجار الأقمشة فى لندن زمناً طويلاً ، مع

(١) إحدى عمليات تجهيز بعض الأقمشة ويراد بها تفادي تكشمها بعد إستخدامها .

تخصيص أماكن منفصلة لمبيت الرجال والنساء ، كانت من المخلفات النمطية الباقية من العصور الوسطى .

ولم تسرب إلا ببطء أساليب الأرستقراطية إلى باقي السكان ، من حيث توزيع الحجرات وتخصيص كل منها لغرض معين . فأسباب الراحة التي كان ينعم بها النبلاء وخدمهم ، رجالا وسيدات ، في القرن الثالث عشر ، لم تصبح شائعة يستمتع بها عامة الناس إلا في القرن السابع عشر . وقد يتبين المرء في ذلك دليلاً آخر على « قانون التسرب الحضارى » ، أى استحداث المبتكرات على يد أقلية ممتازة ، وتسرب هذه المبتكرات ببطء على مر القرون إلى الطبقات الأدنى منها اقتصادياً . وقد كان أول تغيير أساسى من شأنه أن يؤدى إلى تعديل شكل بيت العصور الوسطى هو نمو حب الاختلاء . فقد كان ذلك يعنى فى الواقع اعتكاف المرء حين يشاء عن مشاركة رفاقه فى حياتهم وشواغلهم ، أى الخلوة فى النوم ، والخلوة فى الأكل ، والخلوة فى المراسم الدينية والاجتماعية ، وأخيراً الخلوة فى التفكير . ولقد أفضى ذلك إلى توضيح شامل للوظائف وفصل بعضها عن بعض ، بل لقد امتد ذلك حتى شمل طهى الطعام فى فرنسا فى القرن السابع عشر .

وفى قصور القرن الثالث عشر يلاحظ المرء وجود حجرة نوم خاصة لأصحاب القصر النبلاء ، كما يجد المرء كذلك على مسافة غير بعيدة عنها ، مرحاضاً خاصاً جاثماً فوق الخندق . وهذه أول بادرة من بوادر الترف الذى جاء به القرن التاسع عشر ، وكان من شأنه أن يكون لكل أسرة مرحاض خاص ، أو إسراف الأمريكان فى طلبهم بأنه يكون لكل حجرة نوم مرحاض خاص . وفى سنة ١٣٦٢ نجد أن لانجلاند (Langland) - فى مؤلفته بيرز الجراث (Piers Plowman) - ينحى باللائمة على السيد النبيل والسيدة النبيلة لانسحابهما من الردهة العامة لتناول طعامهما على انفراد وللتسلية فى عزلة : ولابد من أنه كان قد توقع نهاية هذه الصلة الاجتماعية

المتبادلة بين الطبقة العالية والطبقات الدنيا في النظام الإقطاعي ، وهى صلة كانت تخفف مما كان ينطوى عليه هذا النظام من ألوان العنف والإرهاق ؛ إذ كانوا جميعاً يتقاسمون المعيشة في الأماكن ذاتها . ولقد كانت الرغبة في الخلوة أمانة على قيام تلك الحركة الجديدة ، حركة تنظيم صفوف الطبقات ، وهى التى أفضت إلى ما أعقبها فيما بعد من التنافس الطبقي الحاد والتهافت على الصدارة والسيطرة ، فإنه عندما تغفو الضمائر بسهل اقتراف الأعمال المنافية للإنسانية ضد أولئك الذين لا تراهم العين .

ومن المحتمل أن فصل المطبخ عن حجرة الأكل ليس من خواص أغلب المنازل في أى بلد في الوقت الحاضر ، والواقع أنه في أمريكا ، نتيجة لعدم وجود خدام المنازل ، نجد أن الاتجاه يسير بسرعة نحو استعادة الجمع بين هذين الجزأين شكلاً وعملاً . ولقد حدث مثل هذا الانفصال في الدير ، بسبب ضخامة الكميات التى كانت تعد للطعام ، ثم انتقلت المحاكاة إلى القصر الريفى ، والكلية ، ومنزل المدينة الأنيق . بيد أنه كان يتوافر في الأجزاء العامة بهذه المنشآت ما يهيئ أسباب اختلاط الناس بعضهم ببعض ، فقد كانت عادة هى وحدها التى تتوافر فيها التدفئة . ولما كان منزل العصور الوسطى بارداً في الشتاء — ولم يكن على وجه التقريب أقل برودة في الجنوب منه في الشمال — فلعل ذلك كان السبب في إنشاء قبو يوضع فيه الفراش (الميرير) ، أو إسدال الستائر حول الفراش لتمكين الحرارة التى يحتويها الجسم من تدفئة الهواء الراكد .

لكن لا بد من أن البرد كان لا يبلغ حداً لا يطاق ، وإلا لكان الناس قد عمدوا إلى ارتداء ملابس للنوم أو التدثر بقميص بدلا من « الذهاب إلى فراشهم عارين » على نحو ما تمثلهم صور لا عدد لها . ولقد ظهرت الخلوة في الفراش أول ما ظهرت في إيطاليا بين الطبقات الراقية ، وتشهد بذلك صورة « روثيا القديسة أورسولا » — لكارباتشو Carpaccio ، وهى

مصورة في حجرة نوم لا يزال من الممكن اعتبارها اليوم حجرة لائقة وبديعة ، إلا أنه يبدو أن الرغبة فيها تطورت ببطء يكاد يماثل البطء الذى تطورت به وسائل الحصول عليها . ففي بعض المناسبات كان ميكيل انجلو ينام مع عماله ، بمعدل أربعة في فراش واحد ، وإلى عهد متأخر بلغ القرن السابع عشر ، كانت الخادومات كثيراً ما ينامن في فراش ذى عجلات كان يوضع ليلاً عند الطرف الأدنى لفراش سيدهن وسيدتهن ، ويدفع نهائياً تحت هذا الفراش الكبير ، على حين أنه قبل ذلك بثلاثة قرون ، يشير توماس هوكليف (Thomas Hoccleve) في قصيدة له إلى أن نبيلاً إنجليزياً earl وزوجته وابنتهما والمرية كانوا جميعاً ينامون في حجرة واحدة .

وإلى وقت ابتكار السرير ذى الستائر ، لابد من أن الاتصال الجنسي كان يتم في أغلب الأحيان تحت الغطاء وفي الظلام ، سواء أكان الفراش محجوباً أم غير محجوب بالستائر ، ولقد سبق الخلوة في الفراش وجود حجرة خاصة للنوم ، إذ أنه حتى في نقوش القرن للسابع عشر التى تصور حياة عليا أفراد الطبقة الوسطى - وذلك في فرنسا وهى البلاد المعروفة بالذوق المرفه - كثيراً ما نجد أن الفراش لا يزال يحتل مكاناً في حجرة الجلوس . وفى مثل هذه الظروف لابد من أن العملية الجنسية كانت قصيرة المدى ، وتكاد تكون خفية ومقرونة بقدر ضئيل من الإنارة التمهيدية عن طريق العين أو الصوت أو الحركة الطليقة ، بيد أن الغريزة الجنسية كانت لها مواسمها دون شك ولا سيما في فصل الربيع ، فإن تقاويم الطوالع التى ترجع إلى أواخر العصور الوسطى ، فى تصويرها تلك اللقطة ، ترينا العشاق وهم يمارسون المخالطة الجنسية فى العراء وعليهم كمل ثيابهم ، وبالجملة فإن العاطفة الجنسية كانت أشد إغراء فى الحديقة والغابة أو فى كنف سياج ما - على الرغم من الحشرات أو بقايا جذور المزروعات -

مما كانت تبلغه في البيت على حشية لم يكن ما يحشوها من الزغب أو القش القديم ليخلو أبداً من الرطوبة الكريهة الرائحة أو الخوام . ولابد من أن العشاق في بيوت العصور الوسطى كانوا يعتبرون الشتاء ملحفة كبيرة مبتلة ، إلا أنه في مقابل هذا التفسير الذي ينطوى على قدر من الاستنكار فإن واجب الأمانة يقتضينا أن نورد الرأي المضاد له الذي أعرب عنه أحد شعراء العصور الوسطى — وهو فرانسوى فيلون (Francois Villon) — فهو يقول : « إنهم يفاخرون بالنوم في ظل أشجار الغابة ، ولكن عفوا ، أو ليس أفضل من ذلك النوم على فراش تحوطه المقاعد ؟ فإذا تقول أنت في هذا ؟ أحتاج الأمر إلى مزيد من الشرح ؟ فما من كنز يعادل في قيمته المعيشة في راحة وهدوء » .

ولإجمال وصف منزل العصور الوسطى ، يمكن القول بأنه كان يتميز على وجه عام بانعدام الأماكن المخصصة لأغراض متباينة ، ومع ذلك فإن هذا النقص في التخصيص الداخلى كان يعوضه في المدن تقدم المؤسسات العامة التي تؤدي الوظائف المنزلية تقدماً أتم وأوفى بالغرض . فإذا كان المنزل ينقصه فرن خاص للخبز ، فقد كان يوجد فرن عام في حانوت الحلباز أو الطباخ القريب ، وإذا كان يعوزه حمام خاص ، فقد كانت توجد في الحى دار للاستحمام تابعة للبلدية ، وإذا كان يفتقر إلى الوسائل التي من شأنها أن تيسر عزل وتمريض أحد أفراد الأسرة ، فقد كانت توجد مستشفيات عامة عديدة ، مما حل « توماس مور » على أن يتصور في مؤلفه يوتوبيا (Utopia) أن الناس في جمهوريته المثالية سوف يفضلون أن يعهد في العناية بشئونهم إلى مثل هذه المنشآت . وإذا أعوزت العشاق حجرة خاصة للنوم فقد كان بوسعهم « الاضطجاع وسط حقول الحبوب الشاسعة » ، الواقعة خارج أسوار المدينة مباشرة — فيالبيئس ما تصور !

ومن الواضح جلياً أن منزل العصور الوسطى لم يتوافر فيه إلا النزر اليسير من أمرين هامين تستلزمهما المعيشة المنزلية في الوقت الحاضر ، وهما : الخلوة ، والراحة ، وقد كان من شأن الاتجاه في أواخر العصور الوسطى نحو زيادة امتداد المنازل الضيقة نحو الداخل ، تحت ضغط الازدحام ، حرمان أولئك الذين كانوا يقضون أكثر وقتهم بانتظام داخل البيت - وهم الأم والخدم وصغار الأولاد - حرمانهم باطراد الهواء والنور الضروريين ، وهو ما كان ميسوراً لدى أهل الريف المقيمين في أكواخ أكثر بساطة .

ولنتأمل هذا التناقض الذي جاء به الرخاء ، فطالما ظلت ظروف الحياة خشنة - حين كان الناس لا يحجبون أحوال معيشتهم ، يبولون دون حرج في الحديقة أو في الشارع ، ويشترتون ويبيعون في الهواء الطلق ، ويفتحون نوافذهم على مصاريعها ليدخل ضوء الشمس بكامل قوته - كانت عيوب مساكن العصور الوسطى ، من الوجهة البيولوجية ، أقل خطورة بكثير مما كانت عليه بعد ذلك في كنف نظام أوفر حظاً من الرقي والتهديب : أما من حيث مزايا هذا النظام ، فإن البيت لم يكن في أثناء النهار مكاناً معزولاً لإشباع الشهوة الجنسية ؛ إذ كان للنساء دور وثيق الصلة بكل ما يتعلق بشئون الأسرة والعمل ، ولعل دوام وجود المرأة - وإن كان فيه أحياناً ما يلهى كان له تأثير على حياة العمل بحيث جعلها أكثر رقة وإنسانية ، وقد بلغ هذا التأثير مرتبة مثالية من جراء عبادة العذراء التي كلف الناس بها في القرن الثالث عشر .

وقد ترتب على تقدير الأمومة في ذاتها وارتفاع مكانتها ازدياد العناية بالأطفال ، ولم يكن إهمال شأنهم هو الذي أدى إلى ارتفاع نسبة الوفيات بينهم في حقبة العصور الوسطى إلى ذلك الحد المفرز على قدر ما نستطيع تقديره ، فقد وردت بين مطبوعات القرن السادس عشر مطبوعات صور

تبين المهد ، وحصان اللعب ، بل حتى آلة المشى للطفل الذى لم يتعلم بعد المشى وحده ؛ إذ أن هؤلاء الملائكة الصغار كانوا يعاملون بحب وحنو . ولم تكن أعمال النحت الخزفية التى صنعها أندريا ديلاروبيا (Andrea della Robbia) - وهى من أبدع أعماله - إلا من أجل دار للأطفال فى بياتزا انونزياتا (Piazza ss. Annunziata) فى فلورنسا .

ولكن عيوب البيئة المنزلية أخذت تزداد باطراد تحت ضغط تزايد الازدحام وارتفاع أجور المساكن فى أواخر العصور الوسطى ، ولابد من أن الأمراض التى تنتشر عن طريق اللمس أو التنفس كانت تجد الفرصة مهيأة أمامها إلى أبعد مدى لتنشى بين كل أفراد الأسرة فى منزل الحقبة الأخيرة من العصور الوسطى ، فقد كان المسكن الحضرى فى الواقع أضعف حلقة فى سلسلة الأنظمة الصحية فى العصور الوسطى منذ بعدت الأماكن الطبيعية الطليقة الهواء عن المدينة تبعاً لازدياد نموها وشغلت الأبنية والحدائق الداخلية بالمباني . وأما من حيث الاعتبارات الأخرى ، فإن مستواها كان أوفى بكثير بالغرض مما ظن أغلب المعقبين من عهد الملكة فيكتوريا ، وما يظن أولئك الذين ما زالوا يرجعون أصداء آرائهم المشوبة بالتحامل ؛ ويكررون أخطاءهم فى رقة ووداعة .

٢ - الهواء والنقاء والعناية بالشئون الصحية

وحسبنا هذا القدر عن المعيشة المنزلية ، ولكن ماذا عسانا أن نقول عن نظام المدينة فى نطاقه الأوسع مدى ؟ إنى سأبدأ بالمجال الذى شاع فيه الخطأ والتحامل لمدة تزيد على قرنين ، وأعنى به مجال العناية بالشئون الصحية فى العصور الوسطى .

وكما هو الحال فى شأن كل خاصية أخرى من خواص مدينة العصور الوسطى ، فإن موضوع العناية بالشئون الصحية موضوع تصعب معالجته نظراً إلى التباين الكبير فى هذا الصدد ، ليس فيما بين مختلف البلاد فحسب ،

بل فيما بين البلديات التي لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى أكثر من مسيرة يوم على الأقدام . ولا يقتصر الأمر على وجود اختلاف بارز فيما بين المدن بالذات في أثناء فترة بعينها ، بل يوجد هذا الخلاف كذلك في المدينة نفسها في فترات مختلفة . وفضلا عن ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا أن العادات التي تكون مأونة العاقبة تماماً وسط عدد قليل من السكان تحوطهم مساحات وافرة من الأرض الخلاء ، تصبح عادات قلدة حينما يمتد معاً العدد نفسه من الناس في شارع واحد . ولنتظر إلى كبردج مثلاً ، حيث كان يسمح — طبقاً لما يقوله كولتون — بأن تتراكم أكوام الروث والفضلات في الطرق العامة دون أن تنقل من مكانها إلا مرة كل أسبوع ، ولعله لم يكن من قبيل المصادفة أن برلماناً اجتمع في كبردج في سنة ١٣٨٨ وأصدر أول قانون في إنجلترا للعناية بالشئون الصحية في المدن .

ويمحتمل كل الاحتمال أنه في أوائل العصور الوسطى كانت القرية أو المدينة تحظى بأحوال صحية أفضل — على الرغم من بدائية الوسائل الصحية في داخل المنزل وخارجه — مما كانت تحظى به ما أعقبها في القرن السادس عشر من القرى والمدن الأوفر رخاء . وذلك لأن الأمر لم يكن مقصوراً على أن المدينة الواقعة خلف الأسوار كانت صغيرة إلى حد يسمح بسرعة بلوغ الأرض الخلاء ، بل إن قسماً لا يستهان به من السكان كانت لديهم حدائق خاصة خلف منازلهم ، وكانوا يزاولون حرفاً ريفية في داخل المدينة ، وهذا يماثل تماماً ما كان يحدث حتى سنة ١٨٩٠ في المدينة الصغيرة من ذلك النمط الشائع في أمريكا ، وما لا يزال يحدث في أماكن كثيرة .

وفضلاً عن ذلك فإن سكان المدن كان من عادتهم أن تكون لهم في الضواحي بساتين فاخرة وحقول كروم ، كما كان من عادتهم الاحتفاظ بأبقار أو أغنام في الحقول العامة يتولى أمرها رعاة من قبل البلدية ، بل

كانوا يحصلون على بعض ما يحتاجون إليه من الخشب من غابة المدينة . وكان المشتغل بصيد الطيور أو اقتناص الأرانب يستطيع ممارسة عمله على مقربة من المدينة ، ولقد لاحظ ولیم فیتر ستیفن William Fitz Stephen أن مواطني مدينة لندن كان لهم حق الصيد فيما يجاورها من مقاطعتي ميدلسكس وهيرتفوردشير ، وفي تشيلترن هندريدز (Chiltern Hundreds)^(١) وجزء من مقاطعة كنت ، فقد ظلت غابة ايبينج (Epping Forest) زمناً طويلاً مرتاداً محبوباً لديهم . وكذلك كان صيد السمك يجرى بنشاط في جداول الماء القريبة من المدينة ، فأوجسبرج مثلاً ذاعت شهرة سمكها المعروف بسمك أريوان trout^(٢) ، وإلى سنة ١٨٦٣ كان كثير من موظفي المدينة يأخذون مرتباتهم سمكاً من هذا النوع .

ويمكن ملاحظة ما كان للريف من تأثير قوى في تخطيط المدن الباكورة ، فإن المدينة النمطية في العصور الوسطى كانت أقرب إلى ما نسميه اليوم قرية أو مدينة ريفية منها إلى مركز تجارى حديث مزدحم بالسكان . وكثير من مدن العصور الوسطى التي أوقف نموها قبل القرن التاسع عشر لا تزال الحقائق وبساتين الفاكهة ترى في وسطها ، على نحو مماثل ما نراه في نقوش القرن السادس عشر . والمستوى الذي حققته مناطق الإسكان النموذجية في أواخر القرن التاسع عشر ، مثل بورنفيل (Bournville) وبورت صنلايت (Port Sunlight) من حيث وفرة الأماكن الطليقة الهواء ، لم يكن فيما يحتل أكثر سخاء مما كانت تستمتع به الطبقات المتوسطة في بلاد كثيرة ، فجوته في ترجمته الذاتية التي أصدرها بعنوان : « الشعر والحقيقة » (and Wahrheit Dichtung) يصف خديقة خلفية بالغة الأناقة في فرانكفورت القديمة ، وهو ما كان يلائم الحياة العائلية كل الملازمة .

(١) أنسام إدارية في مقاطعة بكنجهامشير .

(٢) يعيش هذا السمك في المناطق الباردة وهو يشبه « السلمون » ومنه نوع مهاجر يسمى في مصر المبروك .

وكان أهل العصور الوسطى يألّفون الحياة خارج المنزل ، فقد كانت لديهم حقول للصيد وساحات للعبة البولنج ^(١)bowling فكانوا يقذفون الكرة ، ويركلون كرة القدم ، ويتسابقون في العدو ، ويزاولون التدريب على رمي السهام . ومن أجل تهيئة الفرص لممارسة كل هذه الألعاب كانت توفر لها مساحات من الأرض الفضاء القريبة . ويلاحظ چوفانى بوتيرو Giovanni Botero أنه عندما شغلت مساحات الأرض الفضاء وفر فرنسيس الأول لطلبة جامعة باريس روضة على مقربة من النهر - وهو ما يدل على أنه فيما بين الجامعة على الضفة اليسرى لنهر السين و « ايل دولا سبتى » Ile de la Cité كانت الأرض إذ ذاك أبعد من أن تكون مشغولة بالمباني . ونذكر عرضاً أن هذه الروح ، روح اللهو الصميم الخالى من الكلفة ، ما زالت حتى اليوم تشيع في حديقة لوكسمبرج التى تبرز كل الحقائق الحضارية الرسمية بأنها أكثرها مرحاً ، ولعلها أيضاً أوفرها جمالاً .

وبالحملة فإنه من حيث مساحات الأرض الفضاء التى يمكن الانتفاع بها ، كانت المدينة النمطية في العصور الوسطى عند إنشائها ، وخلال معظم أدوار حياتها ، توفر لجموع سكانها مستوى أرفع بكثير مما تهيأ لأى نوع تال من المدن ، إلى حين ظهور الضواحي الرومنطيقية في القرن التاسع عشر . وأما في المدن التى احتفظ فيها بالأراضى العامة الفضاء ، كما هو الحال في ليستر Leicester بوجه خاص ، فقد اتخذت أساساً لإنشاء حدائق عامة كانت تنافس ما يقام منها في القصور الملكية .

ولتكوين فكرة عن مدى المستوى الذى بلغته العصور الوسطى من حيث مساحة الأرض التى كانت تترك فضاء في المباني ، يجب أن يتجه

(١) تستخدم في هذه اللعبة كرة خشبية أصغر من كرة القدم ومثبت بأحد جوانبها قطعة من المعدن من شأنها أن تجعل الكرة تميل إلى الانحراف في سارها . ويقذف المتبارون بالتناوب عدداً متساوياً من هذه الكرات لتدنو من نقطة محددة وصاحب أقرب كرة إلى هذه النقطة يكون الفائز .

المرء نحو ما ظل باقياً من المباني الشبيهة بالرسمية ، مثل مباني هيئات الحمامة (Inns of Court)^(١) في لندن والكليات في أوكسفورد وكمبريدج ، أو ما لا يزال موجوداً في هولندا أو بلجيكا وانجلترا من الدور المخصصة للعجزة من كبار السن . ويجب ألا ينظر الإنسان إلى الشوارع الضيقة الكائنة بين المنازل دون أن يتذكر ما كان يمتد عادة خلف هذه المنازل من الأرض الفضاء المكسوة بالحضرة أو الحدائق المنسقة في دقة وعناية .

وإنى لأبرز الصفة الريفية التي لازمت باستمرار مدينة العصور الوسطى ، لأن الصورة الكاذبة المضادة قد استقرت في الأذهان زمناً طويلاً بوصفها فكرة ثابتة ، وتكاد تكون قد استقرت على نحو لا يقره العقل إلى حد أن الإدلاء بالبيانات الواقعية لا يقوى على إزالتها . فما زال الناس يخطئون في توهمهم أن الانقراض المتراكمة ، التي ملأت الأرض الفضاء المكسوة بالحضرة ، كانت المبنى الأصلي ، الذي كان طلقاً وقائماً على أسس سليمة . وطالما بقيت هذه المساحات من الأرض الفضاء فإن الوسائل الصحية البدائية في المدينة الصغيرة في العصور الوسطى لم تكن حتماً مؤذية على نحو ما صورت عليه . فلو أن الروائح الكريهة كانت عامة وموجودة باستمرار لما قدمت شكاوى كذلك التي قدمتها طائفة الإخوة الوعاظ في بيزيه (Beziers) في ١٣٤٥ بسبب الروائح الكريهة التي كانت تنبعث من إحدى المدايق .

وبمرور الزمن عمد السكان المتزايدون — وكثيراً ما كانوا عاجزين عن الانتشار فيما وراء أسوار المدينة — إلى شغل المساحات الفضاء الداخلية ، وإذ ذاك ارتكبت مخالفات صحية خطيرة . وأما كيف وقع ذلك ، فإنه يمكن معرفته من حالة نمطية أوردتها « ستو » ، فقد كانت كنيسة إحدى الأبرشيات ، وهي كنيسة القديسة ماري — لو — بو (St. Mary-le-Bow) ،

(١) في لندن أربع هيئات لها وحلها حق الترخيص بممارسة مهنة الحمامة وهي ترجع إلى القرن الرابع عشر .

في حاجة إلى فناء لدفن الموتى ، بيد أنه عند منتصف القرن الخامس عشر كانت المنازل قد اكتنفتها من كل جانب ، فوهب جون روزام (John Rotham) بموجب وصيته حديقة معينة في حارة هوزير (Hosier's Lane) ، لتكون فناء للكنيسة . وبعد مائة سنة لم تكن حالة العاصمة المكتظة بالسكان تسمح حتى بترك مساحات من الأرض الفضاء لدفن الموتى ، ومن ثم فقد أقيمت المباني على تلك القطعة من الأرض ، أى إنها كانت على التعاقب حديقة ، مقبرة ، فأرضاً للمباني . وأخيراً كان من الممكن في القرن السابع عشر إقامة المباني فوق الفناء الخلفي أيضاً ، فيكون من شأن ما ينجم عن ذلك من خليط منافع للصحة ، تراكت فيه الأقدار على مرّ السنين ، أن يعتبره عندئذ أحد رسل التقدم في القرن التاسع عشر مثالا نمطياً لفرط الازدحام في العصور الوسطى .

ومع ذلك ، فإنه ما من شك في أن الجثث المتحللة ، التي دفنت طبقاً للطقوس المسيحية الصحيحة ، كانت تصبح مصدراً يهدد الصحة العامة في مدينة العصور الوسطى ، حالما يتسنى لها تلويث موارد المياه عن طريق التسرب . ومع تزايد عدد السكان كان تراكم الموتى في قلب المدينة يزيد من خطر هذا التهديد . ومن حيث الدفن وكذلك من حيث القيام بالمزيد مما يقتضيه الوفاء نحو ذكرى الميت ، كان من المريح طبعاً وجود الموتى على مقربة من الأحياء ، قيد مسافة يمكن قطعها سيراً على الأقدام . بيد أن مزاوله تلك العادة في مدينة تعتمد على الآبار والعيون للحصول على مياه الشرب كانت إحدى المخالفات الصحية البالغة الخطورة في مدينة العصور الوسطى .

وأما تصريف المواد البرازية ، فقد كان على الدوام — وما زال إلى الآن — مصدر قلق وإزعاج في مراكز الاستقرار الحضرية المزدهمة . فأغلب المدن الكبرى في جميع أنحاء العالم لم تبد إلى الآن مقدرة كافية في التدابير الفنية التي اتخذتها لمعالجة هذه المشكلة ، فإنها — باعتبارها على

المراحض الذى يطرد ما تجمع فيه بشدة اندفاع المياه - إنما تلوث مجارى مياهها وتبدد المواد النيتروجية الثمينة التى كان من الممكن أن تزيد من خصوبة التربة . وفى العهود السابقة ، حيثما كان أهالى المناطق المجاورة للمدن من الفلاحين وزراة الحضر والفاكهة لتموين السوق المحلية يستغلون قُرب المدينة ، وذلك بجمع المواد البرازية بانتظام لاستخدامها فى أرضهم ، كانت المدينة والأرض تستفيدان فى آن واحد . والواقع أنه كلما كانت المدينة أكبر حجماً ، كانت الأرض الواقعة خارجها أكثر خصوبة ، وكانت ثمرة جهود زراة الحضر والفاكهة أوفر ربحاً .

وعندما نصل إلى الحكم على مدينة العصور الوسطى ، فإن النقطة الجديرة بالذكر والملاحظة هى أن الوسائل الصحية البدائية ليست حتماً وسائل صحية معيبة ، فإن بيتاً ريفياً فى العصور الوسطى لم تكن توجد فيه وسيلة لإزالة ضرورة إلآكوم السماد العام ، لم يكن خطراً يهدد صحة ساكنيه بمثل جسامه الخطر الذى كان يهدد صحة سكان مدينة راقية - فى العهد السابق على ظهور باسبور فى القرن التاسع عشر - كانت تنعم بمراحض أنيقة فى كل مسكن من مساكن الطبقة المتوسطة ، ولكنها كانت تنكب بمياه للشرب مستمدة من النهر عينه الذى كانت تفرغ فيه مجارى المدينة الواقعة أعلاها على مجرى النهر .

ومنذ سنة ١٣٨٨ أصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً يحظر إلقاء القاذورات والقمامة فى الأخاديد والأنهار والمياه ، بل لقد ذهب الشاعر ليدجيت (Lydgate) إلى أبعد من ذلك فى قصيدته « كتاب طروادة » إذ أنه تحدث عن نهر « مملىءً بالسمك الوفير » أعدت التدابير فيه لنقل القاذورات والمواد البرازية عن طريق أنابيب للمجارى ، « وبذلك الوسيلة تؤمن المدينة تماماً من خطر أى تلوث ومن الهواء الفاسد ومن العدوى التى كثيراً مايكون اشتدادها سبباً فى الوفيات وفى الأوبئة الخطيرة » .

وعلى مثال التشريع ، فإن هذه الفقرة تعترف بوجود شر خطير وتصف

العلاج . وبحلول القرن السادس عشر كانت قد انتشرت على نطاق واسع مثل هذه التدابير الخاصة بالإشراف الصحى وآداب السلوك ، ولذلك فإن « ستو » يشير إلى أنه كان يوجد فى لندن أمر يقضى « بأنه لا يسوغ لأى فرد أن يوارى الأرض أى روث أو فضلات داخل نطاق المدينة » ولا « أن ينقل شيئا من المواد البرازية قبل الساعة التاسعة مساء ، « أى إلى ما بعد وقت النوم . ويذكر ولیم ستبز W. Stubbs أن أول مؤسستين عامتين لأعمال المجارى وإمداد المياه كانت تملكهما مدينة بونزلاو Bunzlau فى سيليزيا فى سنة ١٥٤٣ . وإذا كان يذكر كذلك أن المواد البرازية كانت تنقلها الأنايب إلى منطقة مخصصة للصرف ، مما يوحي بوجود مزرعة للمواد البرازية على النمط الحديث ، فإنه لا يوضح كيف أن هذا الابتكار الذى يبعث على الحيرة سبق الابتكار الإنجليزى لدورة المياه فى سنة ١٥٩٦ . بيد أن ألبرتى Alberti فى الفصل الذى كتبه قبل ذلك بقرن كامل عن أنابيب الصرف والمجارى قد فرق بين أنابيب الصرف « التى تنقل الأفضار إلى نهر أو بحيرة أو بحر ما » وتلك التى تنتهى إلى « حفرة عميقة حفرت فى الأرض » . وقد زاد على ذلك أن « الأحواض المعدة لاستقبال البول يجب أن تكون بعيدة عن المنزل بقدر الاستطاعة » .

ولو أنه كان لدينا مزيد من العلم عن حدوث الأمراض المعدية فى العصور السابقة ، لنسنى أن تكون لدينا صورة أوفى عن العناية بالشئون الصحية فى العصور الوسطى ، إلا أنه ليس ثمة ما يدل على أن نكبات الطاعون كانت أشد عنفاً أو أكثر حدوثاً مما بلغته الهجمات المتكررة للتيفود والكوليرا على المدن الأمريكية الأوروبية فى أوائل القرن التاسع عشر ، كما أنه ليس ثمة ما يكفى من الأدلة على أن التدابير الصحية السيئة كانت هى المسؤولة وحدها عن نشأة أو شدة ضراوة الأوبئة فى العصور الوسطى . بيد أنه فى ذلك الحين ، كما هى الحال اليوم ، ربما كان فى الافتقار إلى وسائل تيسير عملية الغسيل ما يعلل الإصابة بالدوسنتاريا عن طريق تلوث

الطعام ، بل حتى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال ، وهو ما لا سيلا إلى الشك فيه . غير أن أكثر الجرائم ذبوعاً ضد الصحة كان مجرد الإهمال في العناية بشئون المنزل ، كالعادة الشائعة بتغطية أرض الحجرات بالسمار دون تغييره في فترات متقاربة ، وهى عادة كانت ذائعة في إنجلترا وانتقدها . « ابراسموس » مر الانتقاد مع الإشارة بعنف إلى تراكم القش والقاذورات والعظام التي علاها العفن ، دون حاجة إلى ذكر القىء والبول وروث الحيوانات الأليفة .

بيد أنه حتى مع العناية بالشئون الصحية في المدن وفي البيت على مستوى أرفع من ذلك بكثير ، فإن المدن الحديثة تجتاحها من حين إلى آخر موجات الانفلونزا وشلل الأطفال ، والوقع أن نسبة الوفيات من جراء الانفلونزا في خلال الوباء الخائل الذي حل في سنة ١٩١٨ كانت تعادل نسبتها في جميع أوبئة العصور الوسطى فيما عدا أسوأ ما عرفته تلك العصور وهو وباء الموت الأسود ذاته . وإذا كانت لدى الطفل في العصور الوسطى فرصة ضئيلة في أن تمتد به الحياة بعد مولده ، فلعل سوء نظام التغذية ، ولا سيما في الشتاء ، يجب ألا يقل نصيبه من التبعة عن نصيب سوء تصريف المواد البرازية ، ومن المحتمل أنه كان للافتقار العام إلى الصابون نصيب أكبر من المسئولية عن وفيات الأطفال .

وكما أوضح الأستاذ لين ثورندايك (Prof. Lynn Thorndike) فإنه فيما يتعلق بهذه الشئون ، تقف أدلة قاطعة في صف الكثير من مدن العصور الوسطى . وهو يستشهد بما كتبه بروني (Bruni) في مديح فلورنسا ، حيث يلاحظ بروني أن « بعض المدن يبلغ من قذارتها أنه مهما تكن القذارة التي تحدث في أثناء الليل ، فإنها توضع عند الصباح أمام أعين الناس لكي تطأها الأقدام ، وهو ما يستحيل على المرء أن يتخيل شيئاً أشد منه نكراً ، لأنه حتى إذا كان يوجد هناك ألوف (من

القصور) ، أو ثروة لا تنفذ ، وجموع من الناس لا حصر لها ، فإني على الرغم من ذلك سوف أؤدد بمدينة بلغت هذا الحد من الدنس ولن تكون لها قيمة كبيرة في نظري . وكذلك فإن ليلاند (Leland) ، وهو شاهد عيان من عصر لاحق ، كان في رحلاته في أرجاء إنجلترا يعنى على وجه خاص بالإشارة إلى القذارة كلما مرّ بها في طريقه ، ومن الواضح أنها كانت نادرة إلى حد يستحق الذكر والتعليق . وقد لاحظ ألبري أن مدينة سينا (Siena) القائمة على جانب التل والمعروفة بانعدام المجارى فيها ، كانت تنبعث منها الروائح الكريهة في جميع أوقات النهار . وجملة القول أن الأدلة لا تكفل إدانة شاملة ولا براءة جامعة .

بيد أنه من المحقق أنه حوالى أواخر العصور الوسطى أصبحت الحالة أسوأ مما كانت عليه ، بالرغم من النظم التي وضعت للعناية بالشئون الصحية ، وكان ذلك راجعاً إلى ظهور العمائر المتعددة الطوابق ، التي كثيراً ما كانت تصل في ارتفاعها إلى أربعة أو خمسة طوابق ، وأحياناً إلى عدة طوابق أعلى من ذلك في مدن مثل أدنبرة . فكانت أمثال هذه المساكن العالية لا تشجع على استخدام وسائل التيسير الخارجية ؛ إذ أن المسافة في ذاتها بين الطوابق العليا والأرض كانت تغرى الناس بالإهمال والقذارة عند تفريغ أواني إزالة الضرورة . وهنا غدا الافتقار إلى وسيلة تقنية وافية بالغرض أمراً مفزعاً إلى الحد الذي بلغه قديماً في حالة « الجزر » الرومانية ، ولكن هذا كان تطوراً متأخراً . نشأ عن الأجور المرتفعة للمساكن وازدحام الناس في المدن . وإلى أن بدأ الازدحام المفرط ، يرجح أن الروائح العادية في إحدى مدن العصور الوسطى لم تكن تبعث على التنفّز أكثر من تلك التي كانت توجد في ساحة مزرعة من المزارع . ولم يكن للقرن التاسع عشر ، بما ارتكب فيه من تصرفات شائنة منافية للتمواعد الصحية السليمة ، أن ينحى باللائمة على العهد السابق ، فإن المجارى المفتوحة في « مركز راق من مراكز الحضارة » مثل برلين - على النحر الذي وجدها عليه الدكتور وليم أوسلر (Oser) في سنة

١٨٧٣ - كانت على ما يرجح لا تقل عن ذلك إزكاما للأنف ، وكما لاحظ ، لم تكن أقل خطراً على الصحة .

وما ينطبق على البراز ينطبق كذلك على القمامة ، وقد كانت الفضلات تأكلها الكلاب والدجاج والخنازير ، فكانت تقوم بعمل الكناسين ، وفي تصوير مصغر (miniature) - رُسم في سنة ١٣١٧ ونشره بويت (Poëte) - نرى خروفا وخنزيراً يعبران قنطرة في باريس التي كانت عندئذ أكبر عاصمة في أوروبا . وعندما أقبل القرن السادس عشر ، نجد أن المدن - التي كانت تدار بحكمة وهيأت التدابير لتنظيف الشوارع - كانت تحظر كذلك تربية الخنازير في أى جزء من أنحاء المدينة ، حتى في الحدائق الواقعة خلف المنازل . بيد أنه في العهود الأولى ، كان الخنزير عضوا عاملا في الهيئة المحلية للصحة ، وعلى مثال الكثير من الأنظمة الأخرى في العصور الوسطى ، ظل باقيا في مراكز أكثر تأخرا إلى منتصف القرن التاسع عشر .

ولا ريب في أن الفضلات غير الصالحة للأكل كانت أشد صعوبة في التخلص منها ، مثل الرماد وفضلات المدابغ والعظام الكبيرة ، ولكن من المحقق أن ما كان يوجد منها أقل بكثير مما يوجد في المدينة الحديثة ، فقد كان يندر ، بل ينعدم ، وجود علب الصفيح والحديد والرخام المكسور والقاذورات والورق ، ففي العصور الوسطى ، كانت الفضلات بصفة رئيسية من المواد العضوية التي كانت تتحلل وتمتزج بالأرض . ويجب ألا نغفل من حسابنا الختامى أعظم وسيلة لدى البلدية لإبادة الجراثيم ، وهي الحرائق ، فقد كان من شأن هذه الأوكار المكونة من مبان خشبية أن تشب فيها الحرائق المعروفة في تاريخ كل مدينة ولاسيما في القرون الأولى ، وبذلك كانت تتعرض شوارع وأحياء بأكملها لتأثير أقوى المطهرات مفعولا . ولم تكن هذه المهمة غير معروفة للناس ، فإن « ستو » يلاحظ أن عادة إشعال الزيران في أيام الأعياد الصيفية لم تكن مجرد مناسبة للمصالحة بين

الخصوم ، بل كان لها من المزايا ما لحريق كبير في تطهير الهواء من جراثيم العدوى . وعلى ذلك فإن إضفاء كساء فاخر من الآجر والحجر على مدن العصور الوسطى هو الذى قضى غدرا على تلك الوسيلة الساذجة ، وسيلة استخدام النيران بمثابة مبيد للجراثيم .

٣ - التطهر والخواص الخمس

ما زال باقياً للمناقشة أمران آخران يرتبطان أشد الارتباط بالصحة ، وهما الحمام وتدبير مياه الشرب .

ظهر الحمام الخاص منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، فإن سيدة من أبطال قصص بوكاتشو أعدت العدة ليستحم عشيقتها في الحوض ، وعندما لم يحضر استحمت هى نفسها من باب الاقتصاد . وأحياناً كان الحمام يأتى فى ركاب حجرة لارتداء الملابس ، ويستفاد ذلك من سجل خاص بإدارة منزل تاجر فى نورمبرج فى القرن السادس عشر ، على حين أنه فى المسكن المؤلف من ثلاث حجرات ، الذى جاء وصفه " مدينة " « يوهان أندرياي » المثالية كريستيانوبوليس (Christianopolis) ، كان الحمام معتبراً لإحدى الحجرات ، شأنه شأن المطبخ وحجرة النوم . والواقع أنه فى سنة ١٤١٧ كانت مدينة لندن ترخص بوجه خاص بإنشاء حمامات ساخنة فى المنازل الخاصة . بيد أنه إذا كانت ثمة حاجة إلى ما يثبت موقف العصور الوسطى من النظافة ، فإن انتشار دور الحمامات العامة خليق بأن يكون فيه ما يكفى .

وقد كانت دور الاستحمام من الخواص التى اتسمت بها كل مدينة فى شمال أوروبا ، وكان من الممكن أن توجد فى كل حى ، بل إن جوارينو نيويس (Guarino Niois) شكاً من أن الأطفال والفتيات الحديثات السن ، ممن يتراوح عمرهن بين العاشرة والثامنة عشرة ، كانوا يجرون عارين فى الشوارع

للذهاب إلى إحدى دور الاستحمام . وكان الاستحمام متعة أسرية ، وأحياناً كان بعض الأفراد يتولون إدارة هذه الحمامات لحسابهم الخاص ، لكن يَحمَل أن ما جرت به العادة أكثر من ذلك هو أن تتولى البلدية إدارتها . وطبقاً لما يقوله فون بيلو (von Below) ، ورد ذكر دور الاستحمام في ريجيا منذ القرن الثالث عشر ، وفي القرن الرابع عشر كانت توجد سبع من أمثال هذه المنشآت في ويرتزبرج (Würzburg) ، وعند نهاية العصور الوسطى كانت توجد إحدى عشرة في أولم (Ulm) ، واثنى عشرة في نورنبرج ، وخمس عشرة في فرنكفورت على نهر الماين ، وسبع عشرة في أوجسبرج ، وتسع وعشرون في فيينا . والواقع أن فرنكفورت كان يوجد بها تسعة وعشرون من مديري دور الاستحمام في وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٣٨٧ . ولقد بلغ من ذبوع الاستحمام في العصور الوسطى أن تلك العادة انتشرت حتى في المناطق الريفية التي كان سكانها موضع تقريع كتاب القصص الفرنسية المنظومة الذين كانوا يشبهونهم بالخنازير القذرة . وحمام العصور الوسطى ، بأخص سماته ، قد ظل باقياً إلى اليوم في القرية الروسية والقرية الفنلندية .

وكان الغرض من الحمامات العامة تصيب العرق والتعرض للبخار ، أى النظافة التي تكاد تبلغ حد التعقيم . وقد جرت العادة بأن يتم تطهير البشرة على هذا النحو مرة على الأقل كل أسبوعين ، وأحياناً في كل أسبوع . وكان التلاقى في دار الاستحمام ، كان هذا الحدث في ذاته ، يساعد على تنمية روح الألفة بين الناس ، على غرار ما كان له من أثر في العصر الروماني دون أى نخرج من جراء الكشف عن الأبدان ، وهو ما أظهره دورر (Dürer) بوضوح في إحدى صوره المطبوعة . فلقد كان الحمام مكاناً يتجاذب الناس فيه أطراف الحديث والأقاويل ويتناولون الطعام ، بل كان بعضهم أحياناً يأتنس في حوض الاستحمام بصحبة من الجنس

الآخر ، وفضلاً عن ذلك فإن الحمام كان يستخدم بمثابة مركز شبه طبي ، حيث كان المرء يوجه عنايته إلى ما هو أخطر من ذلك شأناً ، وهو الاحتجاج للبرء من بعض الآلام أو حالات الالتهاب .

وعندما تكاثرت عدد العزابات في المدينة الآخذة في النمو - وفيما يحتمل تدهورت الحياة العائلية ذاتها - أصبحت دور الاستحمام منتدى للنساء الخليعات الساعيات وراء الصيد ، وكذلك للفاسقين ممن كانوا ينشدون إرضاء شهواتهم . وفي وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٣٨ ، عندما زار النزيل الإسباني تافور (Tafur) مدينة بروج ، أزعجه أن يرى الرجال والنساء يستحمون معا في دور الاستحمام « وهو ما يعتبرونه بريئاً من كل عيب على نحو ما نعتبر نحن ارتياد الكنيسة » ، فقد كان هذا المشهد أحد المناظر المثيرة للمتعة التي كانوا يأخذون الأجانب لرويتها . ونتيجة لذلك فإن اللفظ الذي كان يستعمل في القرون الوسطى للدلالة على دار الاستحمام (stew) انحدر إلينا في اللغة الإنجليزية ، بصفته مرادفاً لكلمة « ماخور » ، وقد استعمل في هذا المعنى منذ كتاب « بيرز الحراث » .

ولعله لم يكن إلا من قبيل العدالة المثالية أن كثيراً من مدن القرن التاسع عشر ، في زهوها بكل وسائل التقدم التي جعلتها تنخطى ما كان مزعوماً وجوده في العصور الوسطى من القذارة وسوء النظام ، كانت أول خطوة خطتها للتعويض عن افتقارها التام إلى وسائل تيسير الاستحمام في الأحياء الفقيرة هي إنشاء دور عامة للاستحمام . وما من شك في أن القائمين على إدارة تلك المدن كانوا خليقين بأن يصدمو لو علموا أنهم إنما كانوا يقتفون أثر سابقة شائعة في العصور الوسطى ، ويفعلون ذلك على نطاق ضيق إلى حد يدعو إلى الرثاء .

وكان تدبير مياه الشرب من المهام الجماعية أيضاً في المدينة ، وذلك أولاً بإحاطة بئر أو ينبوع بسياج ملائم لصيانته ، ثم بإقامة نافورة

فى الميدان العام الرئيسى ، وينابيع ونافورات فى أماكن مجاورة للمساكن ، فكانت توجد أحياناً وسط وحدة من المساكن وأحياناً فى الطريق العام ، ولقد كان من أول الأعمال التى قام بها البابا مارتن الرابع ، عندما استأنف الإقامة فى الفاتكان بعد الانشقاق الأكبر ، أنه أمر بترميم إحدى القناطر المحطمة ، التى كانت تحمل المياه إلى روما لإمداد سكانها المتزايدين بالماء . وكلما ازداد عدد السكان ، كثيراً ما كان يتعين إيجاد موارد جديدة ، فضلاً عن توزيع الموارد القديمة على مناطق أكثر اتساعاً . وفى سنة ١٢٣٦ منح امتياز بمد أنابيب من الرصاص لنقل الماء من مجرى تيبورن (Tyborne Brook) إلى مدينة لندن ، وفى سنة ١٣٧٤ مدت أنابيب المياه فى زيتاو (Zittau) ، وفى سنة ١٤٧٩ كانت مدينة برسلاو تستخدم المضخات لجلب الماء من النهر ثم توزعه فى أرجائها عن طريق الأنابيب . ومن المحتمل أن تلك الأنابيب كانت من نوع الأنابيب الخشبية المتخذة من كتل خشبية بعد تجويفها ، وهى التى نشرت رسومها فى مؤلف الدكتور جورج باور « عن التعدين » (De Re Metallica) وظلت مستعملة فى جزيرة مانهاتان مثلاً حتى القرن التاسع عشر . وحتى القرن الخامس عشر كان تدبير أنابيب المياه فى لندن أمراً من الأمور الإنسانية المتروكة لحجى فعل الخير أسوة بإقامة المستشفيات والملاجئ .

وكما كانت الحال فى شأن الحمامات ، فإن نظام توصيل المياه عن طريق الأنابيب إلى نافورات عامة ثم توزيعها منها على المنازل عن طريق النمل باليد لم يكن فيه من أسباب الراحة ما يوفره اتساع نطاق نظام عام بحيث تصل المياه عن طريقه إلى كل أصحاب المنازل ، بيد أن قيام أسرعات الخاصة بجلب المياه من مسافات بعيدة عن طريق الأنابيب لم يبدأ فى الظهور إلا فى القرن السابع عشر ، وقبلما كانت تجلب كميات كافية من المياه . وكانت النافورة تعوض عما تسببه من متاعب ، بأنها كانت

توحدى وظيفتين هامتين كان مآلهما إلى الزوال مع ازدياد الكفاية في الأساليب التقنية ؛ وذلك أن النافورة العامة كثيراً ما كانت قطعة غنية تسر العين كما تطفئ الظمأ ، ولا سيما في مدن إيطاليا وسويسرا . وفضلا عن ذلك فإنها كانت مركزاً للألفة بين الناس بتوفيرها مناسبة للاجتماع وتبادل الأحاديث والأخبار ، نظراً إلى أن النافورة أو المضخة كانت لا تقل شأنًا عن حجرة الشراب في الحانة من حيث القيام - لقاء قروش معدودة - بدور مركز لنشر الأخبار المحلية . والمهندسون والمتخصصون في العناية بالشئون الصحية ، حين يسعون اليوم إلى أن ينشروا في البلاد المتخلفة ما لديهم من المزايا الآلية المألوفة المتخلفة لإرسال المياه إلى كل بيت في قرى بدائية فيما عدا ذلك ، كثيراً ما يصيرون حياة الأهالي الاجتماعية بتصدع خطير دون أن يقدموا لهم ما فيه العوض الكافي عن ذلك .

ومن إحدى النواحي ، كان القصور الذي اتم به تدبير الماء لمدينة العصور الوسطى - كان هذا القصور في ذاته مصدراً لقوة المدينة في الدفاع ، لأنها في كنف هذا النظام كانت على الأقل تستطيع سد حاجتها بما فيها من موارد الماء . وبعد القرن السابع عشر عند ما اضطرت المدن الآخذة في النمو إلى البحث عن الماء فيما وراء تحصيناتها ، وضعت نفسها تحت رحمة جيش يتمكن من السيطرة على الريف المكشوف ومن قطع موارد المياه عنها ، وبذلك فإن جيوشها أيضاً كانت ترغم على الخروج إلى الأرض المكشوفة . بيد أن المدن الكبرى ظلت تواصل نموها على نحو أسرع مما كانت تنمو به موارد التقنية والمالية على السواء ، وقد أدى ذلك إما إلى القناعة بمورد ضئيل للماء ، وإما إلى الإسراف في الاعتماد على موارد ملوثة بمواد المجارى ، أو مسممة بالمواد الكيميائية . وهذا يعلل إلى حد كبير اختفاء العادات النظيفة للعصور الوسطى في العواصم المتواصلة النمو ، كما يعلل ما وقع فعلا من حوادث شح الماء التي زادت وطأة ضروب

التعاسة الأخرى التي حلت بالمدن الصناعية الجديدة في القرن التاسع عشر .

وعلى نقيض الوهم الذي ما زال شائعا ، فإن كثيراً من مدن العصور الوسطى كانت من حيث إجراءاتها الصحية ، العلاجية والوقائية ، تسبق بشوط كبير المدن التي خلفتها في عصر الملكة فيكتوريا . وعلى وجه قاطع ، كانت المستشفيات العامة إحدى الهبات المسيحية للمدينة . ويروى جيروم أنه في سنة ٣٦٠ ميلادية تخلى فابيولا (Fabiola) عن داره الأنيقة لعلاج المرضى المعوزين الذين كانوا لولا ذلك ، يتركون حتى يموتوا في حالة تعسة في شوارع روما . ومنذ ذلك الحين ، وبسرعة فائقة بعد القرن الحادى عشر ، قامت الطوائف الدينية بإنشاء المستشفيات في كل مدينة تقريباً وطبقاً لما يقوله هايل (Heil) ، كان يوجد عادة مستشفيان على الأقل في أغلب المدن الألمانية ، أحدهما لمرضى الجذام ، والثاني لأنواع الأمراض الأخرى ، على حين أنه في المدن « الكبرى » مثل برسلاو - وكان سكانها يبلغون ٣٠,٠٠٠ في القرن الخامس عشر - كان عدد المستشفيات يبلغ خمسة عشر ، أى مستشفى لكل ألفين من السكان . فأى مدينة حديثة تستطيع أن تهىء مثل هذه الإعدادات الوافية ؟

ولنلاحظ أن هذه كانت أقرب إلى أن تكون القاعدة منها إلى حالات استثنائية ، فمدينة تولوز في سنة ١٢٦٢ كانت توجد بها سبعة مراكز للمجذومين وثلاثة عشر مستشفى ، وكان أحد هذه المستشفيات يحتوى على ثلاثة وخمسين سريراً ، على حين أن فلورنسا في القرن الثالث عشر - طبقاً لما أورده جوفانى فيلانى ، وكان سكانها يبلغون نحو ٩٠,٠٠٠ نسمة - كان بها ثلاثون مستشفى تحتوى على أكثر من ألف سرير . وهنا أيضاً من حيث العدد وكذلك من حيث الانساع المتواضع ، لا يزال لدى مدينة العصور الوسطى ما تلقته لخليفاتها المتضخمة المتجردة من الصفات الإنسانية .

ولقد ظهر إلى الوجود أطباء البلدية الرسميون في القرن الرابع عشر، حتى قبل وباء الموت الأسود، وذلك في مدينة كونستانس في سنة ١٣١٢. ولقد أنشئت في مدينة البندقية هيئة صحية دائمة ذات سلطات قضائية في سنة ١٤٨٥، وأضيف إليها في سنة ١٥٥٦ جهاز إداري للتفتيش والتنفيذ، ظل زمناً طويلاً نموذجاً لباقي بلاد أوروبا. ونذكر عرضاً أن المصابين بالأمراض المعدية كانوا يعزلون عادة خارج أسوار المدينة، وكانت الأديرة الأفضل إعداداً قد أثبتت منذ عهد طويل مزايا أقسام العزل ذات المراحض المنفصلة. وأخيراً فإن فرض الحجر الصحي على القادمين من جهات أجنبية، عند دخول المدن والخروج منها، كان أحد المبتكرات العظمى لطب العصور الوسطى. ومهما يبلغ من بغض المسافرين لهذا النظام فإنه كان قائماً على أسس سديدة من المشاهدات والتجارب الواقعية، ولا عيب فيه إلا من حيث فرط الاحتياط يجعل مدة الحجر تبلغ ثلاثة أضعاف المدة اللازمة لحضانة الميكروب.

ولم يكن كبح جماح الأمراض المعدية واستئصال شأفة الجذام من أوروبا تدريجياً بفضل عين سياسة التشدد في العزل إلا انتصاراً للطب الوقائي. وأطباء أوائل القرن التاسع عشر من أنصار المذهب العقلي - وكانوا يعتبرون في ثقة واطمئنان أن انتقال العدوى والإصابة بالمرض دون ملامسة ليس إلا تصوراً خرافياً وليد خيال العصور الوسطى - لم يبلغوا في الواقع مستوى أسلافهم في العصور الوسطى من حيث دقة الملاحظة للأسباب والنتائج.

فمدينة العصور الوسطى لم تكن في جوهرها إذن مجرد مجتمع معقد يبعث على النشاط والحركة، بل كانت كذلك بيئة بيولوجية أكثر ازدهاراً مما يتسنى للمرء أن يتصوره عندما يرى بقاياها الخربة، فقد كانت هناك غرف مفعمة بالدخان يجب تحملها، ولكن كانت هناك رائحة عطرة في

الحداثك الكائنة خلف بيوت سكان المدينة ؛ إذ أن الأزهار والأعشاب الزكية العبر كانت تزرع على نطاق واسع ، وكانت رائحة فناء المزرعة تنتشر فى الشارع حتى القرن السادس عشر عندما أخذت تتضاءل فيما عدا ما ترتب على ازدياد وجود الخيل وحظائرها . بيد أنه كانت توجد أيضا رائحة بساتين الفاكهة عند إزهارها فى الربيع ، أو رائحة الحبوب التى حصدت حديثا ، وكان الهواء يحملها عبر الحقل فى أوائل الصيف .

وقد يشيح أبناء المدن بأنوفهم إزاء هذا الجمع بين النتن والعبق ، بيد أنه ما من محب للحياة الريفية يمكن أن تنفيه عنها رائحة روث بقرة أو حصان . وهل رائحة الغازات المنبعثة من استهلاك وقود السيارات ، والرائحة الكريهة للحشود التى تزدحم بها المركبات الكهربائية التى تسير فى أنفاق تحت سطح الأرض ، والرائحة النفاذة لأكوام القمامة ، والأدخنة الكبريتية الصادرة من مصنع للمواد الكيميائية ، والنتن الممزج برائحة حامض الفينيك الذى يهب من المراحيض العامة ، بل يمكن أن نتساءل هل رائحة الكلور التى تنبعث من قدح من ماء الشرب العادى أدهى إلى الرضا والارتياح ؟ فحتى فى أمر الروائح لا تنفرد المدينة الحديثة بالجمال كله ، إلا أنه ما دامت الروائح هى روائحنا نحن ، فإن الكثيرين منا يستنشقونها فى دعة وهدوء غافلين عن التنبه إليها .

وأما فيما يتعلق بالعين والأذن ، فإنه لا مجال للشك فى الجانب الذى ترجح كفة مزاياه ، فى هاتين الناحيتين كانت الأغلبية بين مدن العصور الوسطى تفوق بدرجة بالغة المدن التى أنشئت فى خلال القرنين الأخيرين ، أو لا يزال الناس يحجون إليها فى الواقع بسبب جمالها على الأخص ؟ فقد كان الإنسان يستيقظ فى مدينة من مدن العصور الوسطى على صياح ديك أو زقزقة العصافير التى بنت عشها تحت أطراف السقف المائل ، أو على دقات الساعة فى الدير القائم فى مشارف المدينة ، أو ربما على رنين الأجراس

في برجها الحديد بميدان السوق إيزاناً يبدأ ساعات العمل أو بفتح السوق : وكانت الأغاني تخف إلى الشفاه في يسر ، من أناشيد الرهبان البسيطة إلى مقطوعات الأغاني التي يشدو بها المغني في ساحة السوق ، أو تلك التي يترنم بها صبيان الحرف أو خادمة المنزل في أثناء قيامها بعملها ؛ إذ أن الغناء والتثيل والرقص كانت لا تزال من ألوان النشاط التي يمارسها الناس بأنفسهم .

وإلى عهد متأخر بلغ القرن السابع عشر ، كانت القدرة عل المشاركة في أغنية جماعية يؤديها أفراد الأسرة تعتبر في نظر بيبس (Pepys) صفة لا غنى عنها في خادمة جديدة . وكانت موسيقى العصور الوسطى حتى زمنه توضع للأصوات على الأخص ، وتوجه إلى القائمين بالغناء أكثر من توجيهها إلى المستمعين . وكانت الأصوات تتوحد في النغم مع التعدد في الطبقات ، فيحتفظ كل منها بطبقته مردداً النغم نفسه في حدود طاقته ، وذلك بالضبط مثلما كانت كل نقابة وكل حرفة تحتفظ بكيانها في داخل المدينة ؛ فقد كان كل صوت ينضم إلى الآخر ويمضى في متابعة النغم ، مثلما كانت نقابة بعد أخرى تشترك في الموكب بأعلامها وعرباتها الاستعراضية . وكان يتخلل نظام العمل اليومي أغاني العمل ، وكانت لكل حرفة أغانيها الخاصة ، وكثيراً ما كان يوضع اللحن بحيث يتلاءم مع ما يؤديه العامل نفسه من دق ، أو طرق ، أو تمايل .

وكانت أصوات الطبيعة تختلط في كل مكان بأصوات الناس ، ولقد ذكر فيتر ستيفن في القرن الثاني عشر أن صوت طاحونة الماء كان جويلاً وسط حقول لندن الخضراء ، وكان السكون شاملاً في الليل ، فيما خلا حركة الحيوانات ، وهتاف حراس المدينة كل ساعة لإعلان الوقت ، فكان النوم العميق ميسوراً في مدينة العصور الوسطى في مأمن من إنهاك الأعصاب المؤلم الناجم عن ضوضاء الإنسان أو الآلات :

وإذا كانت مدينة العصور الوسطى تشجى الأذن ، فإنها كانت متعة أكبر للعين ؛ إذ أن كل جزء فى المدينة ، ابتداء من الأسوار ذاتها ، كان يُصمم ويُنفذ بوصفه قطعة فنية . وحتى الأجزاء التى يتكون منها مبنى مقدس وقد لا تراها العيون كانت مع ذلك يعنى بإتمام صنعها فى دقة بالغة كما لو كانت ستعرض بأكملها للأنظار ، وهو ما لاحظته رسكن (Ruskin) منذ عهد طويل ، فعلى الأقل سوف يشهد الله بأمانة الصانع فى أداء عمله واغتباطه بإنقائه ، وكان العامل يجوس فى الحقول أو الغابات المجاورة فى يوم عطلته ويعود إلى عمله فى نحت الأحجار أو نقر الخشب أو مزاولة النسيج أو صياغة الذهب بمحصول وفير من الانطباعات فيتولى نقلها إلى ما يصنعه . ولم تكن المباني عفنة الرائحة و « غريبة » فى نوعها ، بل كانت من حيث النظافة والبهاء تضارع أنوار المهرجانات فى العصور الوسطى ، ولو لم يكن ذلك إلا لأنها كانت تطل على عادة بالخير حتى يتسنى لكل ألوان الصور المرسومة على الزجاج أو الخشب المموه بعديد الألوان ، أن تراقص فى انعكاسها على الجدران ، حتى وإن اهتزت الظلال كأغصان الزنبق على الواجهات وزخارف الزينة المتشابكة فى المباني المزدانة بوفرة من أعمال النحت ..

والزعة الجمالية قد تفتقر إلى اسم ينم عنها ، لأنها لم تنفصل إطلاقاً عن الرموز الدينية أو الاحتياجات العملية ، إلا أن ثمارها كانت بادية فى كل مكان ، وكذلك فإن الرغبة فى الجمال لم تكن لا شعورية ؛ إذ أن الشوارع كانوا يعمدون إلى إطالة امتدادها ، كما يلاحظ براونفلز (Braunfels) ، « من أجل جمال المدينة » : ألم يدل المواطنون فى فلورنسا بأصواتهم عن طراز الأعمدة التى تستخدم فى كاتدرائيتهم ؟ فالتمثيل المنحوتة ، والرسوم الحائطية ، والمداميك البارزة (corbels) والصور أو النقوش على ثلاث لوحات متجاورة (trptyches) ، والستائر ، كانت تزين الكنيسة

ودار النقابة ومنزل ساكن المدينة سواء بسواء . وكان تنسيق السلع في السوق المكشوف يزيد في بهجة المنظر العام الذى تقع عليه العين : من أنواع المخمل والديباج والنحاس والصلب المصقول والجلد المزخرف بالضغط والزجاج اللامع ، فضلا عن ألوان الطعام المرتبة في سلالها المفتوحة .

ولنقم بجولة في أرجاء مابقى قائماً إلى اليوم من هذه الأسواق التى ترجع إلى العصور الوسطى ! وسواء أكانت مغبرة كسوق يوم الأحد في هوايت تشابل (Whitechapel) أم فسيحة الأرجاء كتلك الكائنة على بلان باليه (blain balais) في جنيف ، أم كانت تتربع فوق عرش من الجمال مثل سوق القش في فلورنسا ، فإنها جميعاً مازال فيها بعض ما كان في مثيلاتها السابقة في العصور الوسطى من أسباب إشاعة البهجة في النفس : ومجمع السوق الأمريكى بأجهزته الآلية التى يكسوها طلاء من البلاستيك ، وما فيه من إضاءة فلورسنية بشعة ، ومن تغليف براق خلاب المظهر ، ومن شباك سخيفة نُصبت فيها عوامل الإغراء بنحْبث لإثارة الدافع النفساني للثراء ، وما فيه من أنواع التطهير السامة لحفظ المأكولات ، ومن الأغذية المجمدة العديمة الطعم التى أوقف فسادها بوسائل التحايل الصناعية — وهذا المجمع يعطينا صورة تتناقض مع الصورة السابقة وتتكشف عن خسارة جمالية وفسيولوجية في آن واحد ، كما تتكشف كذلك عن خسارة اجتماعية .

وتربية الخواص باستمرار على هذا النحو هو الأساس الأولى لكل أنواع التربية العليا . وعندما توجد هذه التربية في الحياة اليومية ، فإن المجتمع يستطيع أن يعنى نفسه من عبء تنظيم دراسات لتقدير قيمة الفن ، وأما عندما لا يكون لهذه التربية وجود في الحياة اليومية ، فإن أمثال هذه المحاولات تكون إلى حد كبير مبتذلة وتقضى على نفسها بنفسها ، وذلك لأنها تتناول بوجه خاص الآراء السوقية التى تسهوى الناس في ذلك الوقت ، دون أن تعنى بما وراءها من حقائق : وحيثما ينعدم وجود مثل هذه البيئة ،

فحتى عمليات تحكيم العقل تكاد تكون محرومة مما يغذيها ، وذلك لأن براعة القول والدقة العلمية لا تغنيان عن مثل تلك التغذية للحواس . وإذا كان هذا هو مفتاح المراحل الأولى في تربية الطفل - وهو ما كشفت عنه مدام مونتسوري (Mme. Montessori) منذ عهد طويل - فإن ذلك يظل صحيحاً حتى في مرحلة تالية ؛ إذ أن للمدينة تأثيراً أطول مدى من تأثير المدرسة الرسمية .

وإن الحياة لتنتعش بفضل هذا التوسع في طاقة الحواس ، فبدونه يكون النبض أشد بطوياً ، وتكون العضلات أقل صلابة ، وتفتقر أوضاع الجسم إلى الثقة ، كما ينعدم التمييز المرهف بالعين واللمس ، وقد تنهار الرغبة في الحياة نفسها ، وذلك أن حرمان العين والأذن والجلد والأنف غذاءها الروحي من شأنه أن يقضى إلى الموت ، كقطع الطعام عن المعدة . ومع أن الغذاء كثيراً ما كان ضئيلاً في العصور الوسطى ، ومع أن كثيراً من أسباب ترفيه البدن كانت معدومة ، حتى لدى أولئك الذين كانوا لا يفرضون على أنفسهم الحرمان تكفيراً عن ذنوبهم ، فإن أشد الناس عوزاً ، أو أكثرهم زهداً ، لم يكن يستطيع أن يغمض عينيه عن الجمال كلية . ولقد كانت المدينة بذاتها عملاً من أعمال الفن ماثلاً أم الناس على الدوام ، وكانت ملابس المواطنين في أيام الأعياد بمثابة حديقة يانعة الأزهار . وما زال في وسع المرء اليوم أن يحس بعض هذا الإحساس بمتابعة موكب المساء في يوم عيد القديس يوحنا بفلورنسا من كنيسة سننماريا نوفيللا (S. Maria Novella) إلى بياتزا ديللا سنيوريا (Piazza della Signoria) .

٤ - فواعر تخطيط المدن في العصور الوسطى

عندما أقبل القرن الثالث عشر ، كانت الأوضاع الأساسية في مدينة العصور الوسطى قد أصبحت ثابتة ، وأما ما أعقب ذلك فإنه كان إتماماً

للتفاصيل . بيد أن الأنظمة الجديدة التي بدأت تسيطر على المدينة حرمت الدبر والحصن نفوذهما القديم ، ولم يكن الاتجاه في القرون الثلاثة التالية نحو الحرية والتورط والتحدى والمغامرة ، فإن الحروب الصليبية وبعثات التبشير والاستكشاف فتحت آفاق عالم أوسع نطاقا .

ولقد دخلت المدينة عوامل دينامية جديدة فأحدثت من ضروب الضغط والتوتر ما يتمثل على خير وجه في الكاتدرائيات الجديدة التي شيدت على الطراز القوطي ، وضحت بمتانة الجدران في سبيل أن يكون داخلها مفتوحا أمام الضوء الغامر . وكان في وسع المرء أن يشاهد آثار هذه الدينامية على حدود المدن ، في مجموعات الطواحين الهوائية التي كانت تحيط بها ، وكذلك في قلبها ذاته ، عندما اتجه نحو حياة الحضر طوائف الوعظ الجديدة وأتباع المذهب البروتستنتي العلمانيون ، وأخذوا ينشئون دوراً لطوائفهم ومذاهبهم فيما تبقى من الأرض الفضاء .

ولنلق نظرة على المحتويات الجديدة للمدينة ، فإن مثالا هنا ومثالا هناك من شأنه أن يكشف عن التكوين الاجتماعي الجديد والتوزيع الجديد للجماعات الحضرية ، ففي كركاسون في سنة ١٣٠٤ كان عدد السكان يبلغ نحو ٩٥٠٠ نسمة كانوا ينقسمون إلى أهل ٤٣ دارا للتبلاء ، و٤٢ تاجرآ منهم ١٢ من اللومبارديين و ٣٠ من اليهود ، و ٦٣ من كتبة العقود ، و ١٥ من المحامين ، و ٤٠ من الجنود ورجال الشرطة وحلة الرسائل ، و ٩ من الأطباء خريجي الجامعة ، و ٩ من القسس ، و ٢٥٠ من رجال الدين . وفي فلورنسا في القرن الرابع عشر ، كان يوجد بين سكانها البالغ عددهم ٩٠.٠٠٠ نسمة ٢٥.٠٠٠ رجل تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسبعين و« يصلحون لحمل السلاح » ، و ١٥٠٠ من ذوى الجاه ، و ٧٥ من الفرسان النبلاء ، و ١٥٠٠ من الأجانب والتجار والنازلين مؤقتا بالمدينة ، وبين ٨ و ١٠ آلاف من الأولاد والبنات يتعلمون القراءة ، و ١١٠ كنائس ،

و ٢٠٠ حانوت لأشغال الصوف ، و ٣٠٠٠ ر ٣٠٠ من العمال المشتغلين بالنسيج ، و ٨٠ من صيارفة النقود ، و ٦٠٠ من كتبة العقود ، و ٦٠ من الأطباء والجراحين .

وقد كتب الراهب بونفيزين ديلاريفا (Bonvesin della Riva) في سنة ١٢٨٨ مديحا في « روائع مدينة ميلان » وقدر عدد الذين كانوا يقيمون إذ ذاك في المدينة والمنطقة التابعة لها بمائتي ألف نسمة . وكل الأرقام الأخرى التي أوردتها تؤيد وصفه لمجتمع حضري ضخم كان قد تجاوز في كثافته مستوى العصور الوسطى . وكانت المدينة مقسمة إلى نحو مائة وخمس عشرة أبرشية ، كان البعض منها يحتوي على عدد من الأسرات يتراوح بين خمسمائة وألف أسرة . « وفي خارج سور الحندق يوجد عدد من منازل الضواحي يبلغ من الكثرة ما يكفي وحده لتكوين مدينة » . ولعل ضغط ازدحام السكان مع الفقر يعلل ضخامة الخدمات الاجتماعية التي يصفها على النحو التالي :

« يوجد في المدينة بما فيها الضواحي . . . عشرة مستشفيات للمرضى ، وكلها مزودة على الوجه الملائم بموارد دنيوية كافية ، والمستشفى الرئيسي بينها هو مستشفى برولو (Brolo) الذي أنشأه جوفريدو دو بوسيرو (Goffredo de Bosero) في سنة ١١٤٥ . ويوجد أكثر من خمسمائة ممن يلازمون الفراش من المرضى الفقراء وعدد آخر يزيد على ذلك ممن لا يلازمونه ، وهم جميعاً يتناولون الطعام على نفقة المستشفى ذاته ، وإلى جانب هؤلاء ، فإن ما لا يقل عن ٣٥٠ طفلا أو أكثر موضوعين لدى مرضعات خاصة منذ ولادتهم . . . وكذلك فإن الفقراء المحتاجين إلى جراحات يدأب على العناية بهم ثلاثة من الجراحين المخصصين لهذا الواجب بالذات ، وهؤلاء يتناولون مرتباً من القومون .

« وتوجد كذلك ، في المدينة وفي الريف ، دور لأفراد الطبقة الثانية من كلا الجنسين من أتباع مذهب إذلال النفس ، ويبلغ عدد هذه الدور

٢٢٠ داراً يعيش في داخلها عدد كبير من الأشخاص عيشة دينية ويعملون بأيديهم » . وهذه الطوائف العلمانية — التي كانت تستهدف القيام في قلب المدينة بمزاولة حياة تطابق التعاليم المسيحية دون الاعتزال مادياً وروحياً على نحو ما ، كانت تحتمة الأدبرة القديمة — وهذه الطوائف كانت جزءاً من حركة منظمة لبث المبادئ المسيحية في كل ناحية من نواحي الحياة ، إلا أن زعماء الكنيسة ، بدلا من الترحيب بهذه الحركة لتحقيق وجود المدينة المسيحية (كريستيانوبوليس) ، رأوا فيها تحدياً خطراً يمس سلطتهم الدينية ، وبذلك قضى على هذه الحركة وردت إلى حظيرة المنهج القديم الذي كانت تعززه السيطرة والكبرياء .

وكانت أغلب المدن في العصور الوسطى أقرب إلى كركاسون منها إلى ميلان، من حيث الحجم والمستوى والمحتويات ، ولكن سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، فقد كانت تشمل عندئذ على أنظمة عديدة التنوع وتهيئ مجالا واسعا لأنواع كثيرة من المواهب والاستعدادات الخاصة ، ولقد تمثلت هذه الصفات في تخطيطها وفي مبانيها سواء بسواء .

وعلى وجه عام كانت مدينة العصور الوسطى تخطط وفقاً لواحد من ثلاثة نماذج أساسية تطابق نشأتها التاريخية ، وخواصها الجغرافية وأسلوب تطورها . ووراء هذه النماذج الحضرية كانت توجد كذلك نماذج ريفية أقدم عهداً ، كتلك التي نبجدها في قرية الشارع ، وقرية الطرق المتقاطعة ، وقرية الأرض العامة^(١) ، والقرية المستديرة ، ويمكن التمثيل لها في الرسم بهذه الأشكال : = ، + ، # ، ○ .

والمدن التي بقيت من أيام الرومان احتفظت عادة بنظامها من حيث تقسيم الأرض وحدات مستطيلة في وسط المدينة الأصلي ، مع ما طرأ على ذلك من التعديل بإقامة قلعة أو دير ، وهو ما كان جائزاً أن يغير

(١) أي التي نشأت على أرض لا تدخل في حيازة أمير الإقطاع أو غيره .

من نظام التقسيم إلى رقع متساوية : والمدن التي نمت على مراحل بطيئة من قرية أو مجموعة قرى في كنف دبر أو قلعة كانت أشد مطابقة لطبيعة تكوين الأرض ولا تتغير إلا ببطء جيلا بعد جيل ، وكثيراً ما كانت تحتفظ في تخطيطها بمعالم كانت نتيجة لأحداث تاريخية أكثر مما كانت وليدة اختيار مقصود :

وهذا النوع الثاني من المدن كثيراً ما يعتبر النموذج الحقيقي الوحيد لمدن العصور الوسطى ، ويذهب بعض المؤرخين إلى حد القول بأن تكوينها الفعلي غير جدير بأن يسمى تخطيطاً . وأولئك الذين يشيرون إلى الشوارع المتعرجة في مثل هذه المدن كأنها مجرد آثار لطرق سير البقر لا يدركون أن عادة البقرة في متابعة الخطوط الكتتورية تؤدي عادة إلى تخطيط المواقع الجبلية على نحو أقرب إلى العقل وقواعد الاقتصاد من النظام الجامد للشوارع المستقيمة الاتجاه . وأخيراً فإن كثيراً من مدن العصور الوسطى أنشئ طبقاً لخطة موضوعة من قبل بقصد الاستعمار ، وفي كثير من الأحيان وإن لم يكن ذلك دائماً ، كانت هذه المدن تخطط بدقة على نمط رقعة الشطرنج مع ترك مكان فضاء في الوسط لأجل السوق والاجتماعات العامة . وكل هذه النماذج الثلاثة وليدة العصور الوسطى ، وكانت تنشأ عنها في حالي الانفصال أو الامتزاج أشكال متعددة لا تحصى .

والواقع أنه في أول بداية العصور الوسطى يكشف المرء وجود شيء من الإيثار للتخطيط الهندسي المنتظم ، مع اتخاذ المستطيل أساساً للتقسيم الثانوي ، وآية ذلك التخطيط المثالي للدور الأرضي بدير سانت جال (St. Gall) في القرن التاسع . ولقد أوضح كنيث كونانت (Kenneth Conant) أيضاً أن المباني الأصلية في كلوني (Cluny) أقيمت على هيئة مستطيل في داخل مربع يبلغ طول ضلعه ثلثمائة قدم . ومن الواضح أن ما أدلى به أوزلد سبنجلر (Oswald Spengler) من تفسير التخطيط على

نظام رقعة الشطرنج بأنه لم يكن سوى نتيجة للتحجر النهائي للحضارة على هيئة مدنية ، من الواضح أن هذا التفسير ضرب من التعميم لا يمكن الدفاع عنه . وعلى الرغم من أن التخطيط الهندسى كان مما تتصف به المدن المنشأة حديثاً أكثر من سواها ، فإن ذلك لم يكن يستتبع على الدوام أن يكون مقترناً بشكل مستطيل للمدينة بأجمعها ، كما كان الشأن في حالة المدينة المثالية الحصينة مونتبازييه (Montpazier) ، ففي بعض الأحيان كانت المستطيلات توضع في داخل سور مستطيل يحدها ، وفي البعض الآخر كما هي الحال في مونسيجور (Montségur) أو كورد (Cordes) بفرنسا ، كان يلاءم بذلك بين تخطيط مستطيل في أساسه وبين الخطوط الكثورية والحدود الطبيعية للموقع .

ولإن أبرز أهمية هذه النقط لأن التخطيط على نمط رقعة الشطرنج أو التخطيط الشبكي كان موضوعاً لسلسلة متواصلة من الآراء والتفسيرات المضللة . فأحياناً تعتبر مثل هذه التخطيطات أنها من النمط الخاص بأمريكا أو الدنيا الجديدة ، وأحياناً تعتبر مرادفة للكآبة برغم ما كانت عليه مدينة بينج (Peiping) من طلاوة في العهد السابق للشيوعية . وحتى علماء من أصحاب النظريات في تخطيط المدن ارتكبوا مثل هذه الأخطاء ؛ وذلك إلى حد كبير بسبب عجزهم عن إدراك الفارق المألوف لدى طلبة علم الأحياء بين ما هو مضاه (homologous) وما هو موازن (analogous)^(١) . فإن شكلاً مشابهاً لا يستلزم حتماً أن تكون له دلالة مشابهة في حضارة مختلفة كل الاختلاف ، فكما رأينا كان الشكل المستطيل يعنى شيئاً لدى رجل من رجال الدين في أثرويا ، ويعنى شيئاً آخر لدى هيوداموس ، وشيئاً ثالثاً لدى أحد جنود الفرق الرومانية وهو يضرب بمعهوله لإقامة معسكره ، وشيئاً رابعاً لدى أعضاء لجنة تخطيط مدينة نيويورك في سنة

(١) الموازنة عند علماء الأحياء تعنى التشابه في الوظيفة وليس حتماً في الأصل أو التركيب ، وأما المضادة فتعنى التشابه في الأصل أو التركيب .

١٨١١ ، حين كانوا يجدون مقدما في توفير أقصى عدد من رقعات أراضي البناء . فقد كان الشكل المستطيل في نظر الأول رمزا لقانون الكون بأسره ، ولم يكن يعنى في نظر الآخرين سوى أقصى ما يمكن من الاحتمالات الملائمة للمضاربة في أسعار أراضي البناء ٥

وثمة في الواقع سبب صحيح للاعتقاد بأن تخطيط المدن في العصور الوسطى كان عادة أقرب إلى عدم الانتظام منه إلى اتباع نظام معين ؛ وذلك لأن المواقع الصخرية الوعرة كانت تستخدم أكثر من سواها بسبب ما كان لها من مزايا حاسمة في أغراض الدفاع إلى أن أصبحت لئيران المدافع قوة فعالة في القرن السادس عشر . ولما كانت الشوارع تُهيأ لوسائل النقل ذات العجلات ، ولم تكن هناك حاجة إلى مراعاة مقتضيات أنابيب المياه أو المجارى ، فقد كان أدعى إلى الاقتصاد مجازاة خطوط الطبيعة الكتتورية بدلا من محاولة تهذيبها ، ولاحظ مثلا الانحدار الموجود في ساحة السوق العريضة بمدينة سينا . وعلاوة على ذلك ، فإن المواطنين المتصدين بإقامتهم المباني على المواقع الجبلية القاحلة كانوا لا يغيرون على ما هو أوفر خصبا من الأرض الزراعية الواقعة عند السفح :

وفي التخطيط العضوى نجد أن شيئا يسوق إلى شيء ، وأن ما كان في البداية بمثابة اغتنام مزية عارضة قد يوحى بعنصر قوى في التصميم ، ربما يتعذر على تخطيط مستنبت أن يأتي به سلفا ، وأغلب الظن أن هذا التخطيط خليق بأن يغفل أمر ذلك العنصر أو أن يستبعده . وكثير مما لا يزال باقيا من مظاهر عدم الانتظام في مدن العصور الوسطى إنما يرجع إلى جداول ماء ردمت ، وإلى أشجار قطعت فيما بعد ، وإلى شقق ضيقة من الأرض كانت تترك قديما دون زرع بين الحقول لتعيين حدودها . وإنه لمن العسير إزالة ما تنقضى به العادة أو حقوق الملكية إذا ما استقر ذلك على هيئة أراض مجزأة أو حدود أو حقوق ارتفاق دائمة لاستخدام الطريق :

والتخطيط العضوى لا يبدأ باستهداف غرض عقدت عليه النية من قبل ، بل إنه ينتقل من حاجة إلى حاجة ومن فرصة إلى فرصة في سلسلة متواصلة من ضروب الملاءمة التى تغدو هى ذاتها فى اطراد متزايد أشد تماسكا وأحفل أغراضا ، فيتمخض عنها تخطيط نهائى معقد « يكاد يكون أقل ترابطا من تخطيط أعد من الأصل ليكون هندسى الشكلى ، وأن مدنا مثل سينا لتوضح هذه العملية أكمل توضيح . وعلى الرغم من أن أهل المرحلة الأخيرة فى مثل هذه العملية لا تظهر معالمها بوضوح فى البداية مثلما تظهر فى نظام أقرب إلى العقل وغير من بالروابط التاريخية ، فإن هذا لا يعنى أن اعتبارات لها وزنها أمام العقل والتبصر القائم على الروية ، لم تسيطر على وضع كل جزء من أجزاء التخطيط ، أو أنه كان لا يتسنى أن ينشأ عن ذلك عمدا تخطيط مترابط متكامل .

والذين يعتبرون مشروعات التخطيط العضوى غير جديرة بأن تسمى تخطيطا إنما يخلطون بين مجرد الانتظام والتمسك بقواعد تقليدية وبين استهداف غرض معين ، كما يخلطون بين عدم الانتظام وبين الارتباك ذهنى أو عدم الكفاية التقنية ، وإن مدن العصور الوسطى لتدحض هذا الوهم ، وهم التمسك بالقواعد التقليدية ، فإنها مع كل ما فيها من ألوان التباين يتمثل فيها طراز عام واحد ، وإن ذات ما فيها من ضروب عدم الانتظام والخروج على المألوف ليست فى العادة سليمة فحسب ، بل إنها كثيراً ما تنطوى على سعة الحيلة بمزجها بين دوافع الحاجة العملية ومقتضيات الذوق الفنى .

وكل مدينة من مدن العصور الوسطى نشأت عن ظروف فريدة ، واشتملت مجموعة فريدة من القوى المترابطة ، وأوجدت فى تخطيطها حلا فريداً . ولقد كان الاتفاق فى رأى فيما يتعلق بأهداف حياة المدينة ، اتفاقاً تاماً إلى حد أنه ليس من شأن الاختلاف فى التفاصيل إلا تأييد للقاعدة . وعندما يستعرض المرء على التعاقب مائة تخطيط لمدن العصور

الوسطى ، فإن هذا الاتفاق فى الرأى يجعل المسألة تبدو كما لو كان الناس يعترفون نظرية هى التى كانت توجه هذا التخطيط للمدن : ولقد كان الاتفاق أعمق غوراً من ذلك ، بيد أنه قبيل نهاية العصور الوسطى تولى ليونى باتيستا ألبيرتى (Leone Battista Alberti) بذكائه الثاقب مهمة الإعراب عن الأساس المنطقى لهذا التخطيط ، وذلك فى مؤلفه « عن العمارة » (De Re Edilicatori) .

واند كان ألبيرتى من نواح عديدة ، مثالا نمطياً لرجال العصور الوسطى المعنيين بالدراسات الحضرية ، وهو عند ما عنى بالبحث فى تحديد المواقع لمزاولة الأعمال وفى الشوارع المتعرجة ، « لم يفعل » ، كما يلاحظ لافدان (Lavedan) ، « أكثر من تسجيل استحسانه لكل ما وقعت عليه عيناه » . وحتى عند ما يسوغ ألبيرتى وجود الشارع الذى يتعرج باستمرار بما فيه من مناظر تتغير على الدوام لأن المباني تحول فى دوادة دون امتدادها ، فإنه إنما يعرب عن شعوره تجاه شىء كان أسلافه قد أدركوا كنهه وقدروا قيمته كذلك . فالانحناء الوثيد هو خط السير الطبيعى لمن يمشى على قدميه ، ويتسنى لأى فرد أن يلاحظ ذلك إذا تطلع خلفه إلى آثار قدميه على الثلج عند اختراق ساحة خلاء ، إلا إذا حاول عامداً أن يقاوم هذا الميل . والسرور الذى يبعثه هذا الانحناء — الذى حلده السائر على قدميه — هو ما يضىء صفة خاصة على مباني العصور الوسطى الواقعة فى « هاى ستريت » (High Street) بأوكسفورد ، وهو مثال مكتمل لما أنشئ فى الحقبة الأخيرة للعصور الوسطى وفى عصر النهضة . وفى هذا الشارع شجرة وحيدة تمتد فروعها إلى ما يجاوز خط المباني ، وهى تكسب الصورة من الجمال ما تعجز عنه مجموعة بأكملها من الشوارع .

ولقد كانت الرغبة فى إبراز أهمية قلب المدينة هى المصدر الآخر لوجود المنحنيات الأساسية فى مدينة العصور الوسطى . ويذهب لافدان

إلى حد القول بأن « الحقيقة الجوهرية في فن إنشاء المدن في العصور الوسطى هي تكوين المدينة ، بحيث إن جميع الخطوط تتجه نحو مركز تتلاقى فيه ، وأن محيطها الخارجى يكون عادة مستديرا ، وهو ما يسميه المعاصرون من أصحاب النظريات نظام أنصاف الأقطار المتلاقية في مركز واحد » : ول سوء الحظ أن تعبير « أنصاف الأقطار المتلاقية في مركز واحد » يوحي إلى الذهن بصورة نسيج العنكبوت . وعلى الأصح أن ما يجده المرء في أغلب المدن هو حى مركزى أو القلب ، محوطاً بسلسلة من الحلقات غير المنتظمة ، التى ينشأ عنها اكتناف القلب وحمايته ، على حين أنها تجعل الوصول إليه أقرب منالا عن طريق ممرات ملتوية . وحيثما يوجد ما يشبه عن قرب شارعاً متواصلاً الدوران ، فإن ذلك يكاد يكون دليلاً محققاً على أن سوراً قد تم هدمه وإزالته . وحتى في مدينة صغيرة مثل بيرج Bergues — على نحو ما نراها في مصور بلايو (Blaeu) العظيم فإنها برغم ما في قلبها المركزى من دقة تكاد تكون هندسية ، لا توجد بها إلا ثلاثة شوارع تتلاقى عند المركز : والتخطيط الناجم عن ذلك قد تولد عن القوتين المتعارضتين للجاذبية والوقاية ، فالمباني العامة والأماكن المطلقة تجد الأمان وراء تيه من الشوارع التى يستطيع مع ذلك أن يجوس خلالها من يعرفها . ولم يتم امتداد الطريق رأساً إلى قلب المدينة — كما هو الشأن في التخطيط على هيئة النجمة — إلا على يد واضعى التخطيط على الطراز الباروكى ، فقد عملوا على القضاء على نموذج العصور الوسطى — ولو أن ألبيرتى نفسه ، كما حدث مصادفة — توقع هذا النظام الجديد الذى كان يرمز إلى جمع السلطات العامة في يد هيئة مركزية أو حاكم مستبد .

والعوامل الحاسمة في تخطيط المدن في العصور الوسطى تصلح في آن واحد لمدينة قديمة قائمة على أسس رومانية ، مثل كولونيا ، أو لمدينة حديثة مثل ساليزبورى ، فالسور والبوابات والنواة الحضرية هى التى كانت تحدد

الخطوط الرئيسية لحركة المرور في المدينة . وأما من ناحية السور ، فإنه بما كان يرجد خارجه من خندق أو قناة أو نهر كان يجعل من المدينة جزيرة . وكان للسور من القيمة كرمز ما كان لأبراج الكنائس المدنية الأطراف ، أى إن أهميته لم تكن تقتصر على فائدته العسكرية . وكان العقل في العصور الوسطى يجد راحة في عالم حافل بالتعاريف القاطعة والأسوار المتينة والآراء المحدودة ، فحتى الجنة والجحيم كانت لهما حدودهما المستديرة . وكانت أسوار العادات تقيم حدوداً حول الطبقات الاقتصادية وتبقى كلا منها في مكانها . ولقد كان التعريف والتصنيف هما جوهر التفكير في العصور الوسطى ، حتى إن النزعة الاسمية الفلسفية التي تحدث القول بالوجود الموضوعي للأصناف ، وقدمت صورة عالم يتألف من ذرات لا ترابط بينها وأحداث لا آصرة تجمعها ، كان لها من الأثر في هدم أسلوب الحياة في العصور الوسطى مثلما كان لقنابل المدافع من الأثر في هدم أسوار المدينة .

ومجب ألا تغيب عن البال الأهمية النفسانية للسور ، فعند ما كان يتم إنزال الحاجز الحديدي وإغلاق أبواب المدينة في وقت الغروب ، كانت المدينة تسمى في عزلة محكمة عن العالم الخارجى ، وكان مثل هذا الانعزال يساعد على خلق إحساس بالوحدة والأمان على السواء وأن مما له دلالة — وبشر شيئاً من القلق — أنه في إحدى المدن الحديثة النادرة المثال ، حيث كان يعيش الناس تحت ظروف مماثلة ، ونعني بذلك مدينة أولك ريدج (Oak Ridge) التي كان يوجد فيها مركز للبحوث الذرية ، ازداد الإحساس تدريجياً بين سكان المدينة المحروسين بقيمة الحياة « الآمنة » في الداخل ، التي كانت في مأمن من أى غزو خارجى أو حتى من اقتراب أى شخص غير مرخص له بذلك — ولو أن ذلك كان يعنى أن يجيئهم وذهابهم هم أنفسهم كانوا باستمرار تحت رقابة وإشراف عسكريين .

بيد أنه من ناحية أخرى ، كان السور يثبت في مجتمع العصور الوسطى

إحساساً قاتلاً بالعزلة ، كان يضاعف من شأنه أن سوء حالة طرق النقل كان يزيد من مصاعب المواصلات بين المدن . وكما حدث مراراً في تاريخ المدن من قبل ، فإن الاتحاد والأمان لأغراض دفاعية كانا يعكسان اتجاههما ويتحولان إلى قلق وخوف وعداء وعدوان ، ولا سيما حينما كان يبدو أن مدينة مجاورة قد تزدهر على حساب منافستها . ولنستعد إلى الخاطر ذكرى اعتداءات فلورنسا على بيزا وسبنا دون حياء ولا خجل ! وقد كان ذلك الانعزال ينطوى في الواقع على عوامل ذاتية هدامة إلى حد أنه أجاز وجود قوى للاستغلال والعدوان في الكنيسة وفي الدولة في آن واحد . وقد سعت هذه القوى على الأقل وراء إقامة وحدة أوسع ! اشتتالاً بتحويل السور الذي كان يتجاوز الحد في صلابته إلى خطوط حدود أثرية تمتد حول منطقة أوسع نطاقاً بكثير .

ولا نستطيع أن نترك السور دون أن نشير إلى ما كان لبوابة المدينة من مهمة خاصة ؛ فقد كانت أبعد عن أن تكون مجرد ثغرة ، إذ كانت « مكان اللقاء بين عالمين » الحضري والريفي ، الداخلي والخارجي . وكانت البوابة الرئيسية أول ما يقدم التحية للتاجر ، أو الحاج ، أو عابر السبيل العادي ، وكانت في آن واحد مقراً للجمرك ، ومكتباً للجوازات ومركزاً لمراقبة الهجرة ، وقوس نصر كثيراً ما كان ينافس بأبراجه - كما هو الحال في لوبيك - أبراج الكاتدرائية أو دار البلدية . وحينما يبطل سير حركة النقل يشتد الميل إلى إلقاء الأحمال ، ومن ثم فإنه على مقربة من البوابات كانت تبنى عادة دور التخزين ، كما كانت تكثر الفنادق والحانات ، وكذلك كان الصناع والتجار يقيمون حوانيتهم في الشوارع المجاورة .

وهكذا فإن البوابة أوجدت الأحياء الاقتصادية للمدينة ، دون وجود أنظمة خاصة لتحديد المناطق ، ولما كانت توجد أكثر من بوابة واحدة ، فإن طبيعة حركة النقل ذاتها من مختلف الأقاليم كان من شأنها أن تؤدي

إلى توزيع وتنويع مناطق العمل والتجارة . ونتيجة لهذا التوزيع المنسق للوظائف ، فإن المنطقة الداخلية في المدينة لم تكن مثقلة بعبء أى حركة مرور فيما عدا ما كان يتولد عن حاجاتها الذاتية . والمعنى الأصلي للفظ ثغر (باللغة الإنجليزية ، port) مشتق من هذه « الثغرة » (portal) ، كما أن التجار الذين استقروا عند هذا الثغر كان يطلق عليهم بالإنجليزية في وقت ما اسم (porters) ظلوا يعرفون به إلى أن خلعه على مساعدتهم من الأجراء^(١) .

وأخيراً يجب ألا ننسى مهمة قديمة للسور عادت للظهور في العصور الوسطى ، فقد كان يستخدم بمثابة متنزه طلق للتريض ولا سيما في الصيف : والأسوار — حتى عند ما كان ارتفاعها لا يعلو عن عشرين قدماً — كانت تهيئ موقعا ممتازا يطل على الريف الواقع حولها ويسمح بالاستمتاع بنسائم الصيف التي قد لا تنفلت في أرجاء المدينة .

٥ — النواة الحضرية ووحدة الجوار

لا يمكن وصف تخطيط أى مدينة وصفاً وافياً إذا اكتفى بالكلام عن بعدى مسقطها المسطح ؛ لأن الحياة لا تدب فيما ينطوى عليه تكوينها من العلاقات الوظيفية والجمالية إلا في البعد الثالث عن طريق ارتفاع المباني في الفضاء : وفي البعد الرابع عن طريق التطور الزمني . وهذا ينطبق بوجه خاص على مدينة العصور الوسطى ، فإن الحركة التي ولدتها لم تؤد إلى اختراق الفضاء أفقياً فحسب بل عمودياً ، ولفهم تخطيطها يجب أن يعى المرء منشأتها الرئيسية من حيث تكرينها وشكلها الخارجى ، وبوجه خاص توزيع مواقع عناصرها الأساسية كالقلعة والدير أو صوامع الرهبان

(١) أى إن الكلمة الإنجليزية (Porters) التي معناها اليوم (حاملون) كان معناها الأصل (رجال الثغر) . (المشرّف)

الفقراء ، والكاتدرائية ، ودار البلدية ، ودار النقابة . بيد أنه إذا كان يمكن اعتبار مبنى واحد بمثابة المنشأة الأساسية في تخطيط المدينة في العصور الوسطى فإنه مبنى الكاتدرائية ، وإنه ليلبغ من مكانتها أن « براونفلز » يذهب إلى حد القول بأن كبار البنائين الذين أوكل إليهم أمر بناء الكاتدرائيات قد تغلغل في الواقع أثرهم في المباني العامة الأخرى أيضاً .

وباستثناء حالات بارزة معينة ، لم تكن المباني الرئيسية في العصور الوسطى مقامة في أماكن خالية ، وكان أقل من ذلك حدوثاً أن يكون الوصول إليها بطريق مستقيم غير متعرج . فهذا النوع من الأماكن لم يظهر إلا مع القرن السادس عشر ، كما هو الشأن في حالة الساحة المؤدية إلى كاتدرائية سانت كروتشي (Santa Croce) في فلورنسا . ولم يحدث إلا عندما حل القرن التاسع عشر أن دعاة التحسين من رجال تخطيط المدن - الذين عجزوا عن تقدير نظام تخطيط المدن في العصور الوسطى - قاموا بإزالة المباني الصغيرة التي كانت محتشدة حول الكاتدرائيات العظمى لإنشاء ساحة فسيحة أشبه ما تكون بساحة انتظار السيارات ، كذلك الكاتنة أمام كاتدرائية نوتردام في باريس ، وهي عبارة عن فراغ كثيب يحملق في الوجوه . وفي هذا ما يقضى على ذات الروح الكامنة في طريق الوصول في العصور الوسطى ، أى الكتمان والمباغلة ، أو بعبارة أخرى الانفراج المفاجئ والتطلع إلى أعلى ، ووفرة التفاصيل المنحوتة التي قصد ألا تُرى عن قرب .

وأما من حيث الجمال الفني ، فإن مدينة من مدن العصور الوسطى تشبه قطعة قماش مزركشة من ذلك العصر ، والعين إذ يهرها ما يزرع به النقش من تشابك وتعقيد ، تحوم إلى الخلف وإلى الأمام فوق القطعة بأكملها ، مأخوذة بجمال زهرة أو حيوان أو رأس ، وتتوقف حينها يروق لها ذلك ، ثم تعود أدراجها فتستوعب النقش بأسره بتمثل أجزائه ، وليس

باستجماعه في نظرة واحدة . وفي نظر أهل الطراز الباروكي يبدو ذلك الطراز الذي نشأ في العصور الوسطى ملتوياً ، كما أن المجهود الذي ينفق للإحاطة به يبدو طويلاً مملاً ، ومن الناحية الأخرى فإن الطراز الباروكي كان خليقاً بأن يبدو في نظر أبناء العصور الوسطى صارخاً في صراحته مفرطاً في ترابطه . وليست ثمة طريق واحدة تفضل سواها للشخص نحو أحد مباني العصور الوسطى ، وإن كان أجمل واجهات كاتدرائية شارتر هي الواجهة الجنوبية ، ويحتمل أن أبداع منظر لكاتدرائية نوتردام هو من ناحية الخلف عبر السين ، ومع ذلك فإن ذلك المنظر بما يطوقه من خضرة لم يتم إفساح السبيل إليه إلا في القرن التاسع عشر .

يبد أن هناك حالات شاذة ؛ إذ يوجد عدد من الكاتدرائيات — فضلاً عن عدد لا يحصى من كنائس القرى — تقف وحدها حرة طليقة ، وقابعة وسط خضرة مترامية الأطراف ، بمعزل تام عن مشاغل حياة المدينة . وكاتدرائية سالزبورى وكانتربرى تكادان تكونان قائمتين في الضواحي من حيث ارتفاعهما المطلق بالفضاء والخضرة ؛ وكذلك يتوافر لكاتدرائية كامبو سانتو في بيزا ما يضارع ذلك من العزلة والاتساع . وكثيراً ما يكون مرد مثل هذا الاتساع إلى وجود ساحة كانت في الأصل جبانة .

وفي أغلب الحالات كانت الكنيسة الكبرى مركز المدينة من كل وجهة إلا من وجهة الموقع ، ولما كانت الكنيسة تجتذب إليها جماهير حاشدة ، فقد كانت تحتاج إلى فناء خارجي لتسهيل دخول المصلين وخروجهم . وإذا كانت أصول الدين تقتضى إقامة الكنيسة بحيث يكون اتجاه المذبح نحو الشرق ، فإنه كثيراً ما كانت الكنيسة تتخذ وضعاً لا يتلاءم مع اتجاه الشوارع المقامة على نمط أكثر انتظاماً عن المألوف . وعندما نجد أن ساحة السوق تنبسط أمام الكاتدرائية ، أو أنها تفسح لنفسها مكاناً أو ميداناً بالقرب منها فإنه يجب ألا نغزو إلى السوق القيم ذاتها التي يتمتع بها اليوم ، فإن السوق

هو الذى كان يقام بدون انتظام كلما سنحت الفرصة لذلك ، على حين أن الكنيسة هى التى كانت تؤدى خدماتها بانتظام وعلى الدوام . وكما كان الشأن عند نشأة المدينة أصلاً ، اتخذ السوق مقامه على مقربة من الكنيسة ، لأنها هى المكان الذى كان السكان يتجمعون فيه أكثر من سواه .

وفى الحقيقة يجب أن نتصور الكنيسة كما عسانا أن نتصور الآن « مركزاً اجتماعياً » ، أى بوصفها مكاناً لم تبلغ قداسته حداً يحول دون استخدامه قاعة للطعام فى مناسبة عيد كبير ، أو مسرحاً لتمثيل رواية دينية . أو منتدى حيث كان يتسنى لطلبة المعاهد الدينية أن يقيموا مباريات خطابية ومساجلات علمية فى يوم عطلة ، أو حتى فى الأيام الأولى قبواً لخزائن الإيداع ؛ إذ كان من الميسور إيداع العقود والأشياء النفيسة خلف المذبح العالى للكنيسة حيث كانت تظل فى أمان ، إلا من الأشرار الذين لا سبيل لتقويمهم .

وعلى وجه أو آخر ، فإن موكباً متواصلاً من الناس ومولفاً من آحاد أو عشرات أو ألوف كان يخترق الشوارع قاصداً أبواب الكنيسة ، فهنا كان المكان الذى يخرج منه الإنسان إلى رحلته ، وهنا كان المكان الذى يعود إليه ، ولذا كان الأمر غير ذلك ، فكيف نعلل الأموال الطائلة التى أغدقت على بناء كاتدرائيات مثل تلك الموجودة فى بامبرج (Bumberg) أو درهام (Durham) أو أميان (Amiens) أو بوفيه (Beauvais) ، أو أسيسى (Assisi) ، حيث كانت توجد مجتمعات تتألف من عشرة آلاف من السكان أو أقل من هذا العدد . ومثل هذه المجتمعات اليوم - مع كل ما أوتينا من الوسائل الآلية والأموال المكدسة - خابئة أن تجدد من المتعذر عليها جمع المال اللازم لإقامة دار للعجزة فى الأبرشية ، ولو كانت من نوع المباني السابقة التجهيز مع شراؤها بثمن مخفض .

وأما من حيث الأماكن الفضاء فى مدينة العصور الوسطى - بما فى ذلك الساحات الكبيرة للأسواق والساحات أمام الكاتدرائيات - فإنه

يمكن أن يقال في وصفها أى شىء إلا أنها ميادين بالمعنى المتعارف عليه .
 وفى المدن التى نمت بحكم نمو عناصرها الذاتية ، كثيراً ما كانت فيها السوق ذات شكل غير منتظم ، فهى أحياناً مثلثة الشكل ، وأحياناً ذات شكل متعدد الجوانب أو بيضاوى ، وتارة على هيئة أسنان المنشار ، وتارة ذات شكل مقوس ، ولذلك يبدو أن السوق كانت تتخذ شكلها قسراً لا اختياراً ، لأن حاجات المباني المجاورة هى التى كان لها الاعتبار الأول ، وهى التى كانت تحدد توزيع الأرض الفضاء . وعلى الرغم من أن السوق لم تكن أحياناً سوى شارع زيد فى اتساعه ، فإن هناك أمثلة أخرى فى بروكسل أو برلين ، وفى بروجيا أو سينا ، حيث يبلغ المكان من الاتساع ما لا يكفى لإقامة منصات عديدة للسلع فحسب ، بل لإقامة اجتماعات ومهرجانات عامة ، فساحة السوق فى الواقع تولت من جديد أداء المهمة التى كان الفوروم أو الاجورا يؤديها فى أقدم عهوده .

وفى ساحة السوق كانت النقابات تقيم مسارحها لتمثيل مسرحيات « الأسرار أو المعجزات » (mystery plays) ، وهناك كان ينزل العقاب الوحشى بالمجرمين أو الخارجين على الدين ، فيلقون حتفهم شتقاً أو حرقاً ، وهناك كانت تقام المباريات الكبرى فى المبارزة ، عندما تحول فى أواخر العصور الوسطى ما كان يعتبر من شواغل الإقطاعيين الجلدية إلى ضرب من الألعاب الرياضية الحضرية . وكثيراً ما كانت ساحة السوق تؤدى إلى ساحة أصغر منها عن طريق ممر ضيق ، وكانت سوق بارما مثلاً واحداً من أمثلة عديدة ، وكانت سوق الأقمشة والساع المصنوعة من المعادن منفصلة عن سوق المواد الغذائية لأسباب بالغة الوضوح بطبيعتها . وكثير من الميادين التى نعجب بها الآن لمجرد رونق إظهارها المعماري ، مثل بياترينا - سان ماركو فى مدينة البندقية ، كانت قد أنشئت أصلاً لتحقيق أغراض عملية - وقد كان الغرض منها فى البندقية أن تكون سوقاً للحوم .

وفما عدا الكاتدرائية ، ودار البلدية أحياناً ، حيث كان الحجم والارتفاع يعتبران من الصفات الرمزية الهامة ، فإن القائمين على أمر البناء في العصور الوسطى كانوا ينزعون إلى التزام أبعاد معقولة متواضعة ، فيبوت الصدقة كانت تنشأ لإيواء أفراد يتراوح عددهم بين السبعة والعشرة . وكان من الممكن ألا تضم الأديرة في بداية أمرها عدداً يزيد على عدد الحوارين الاثني عشر ، وبدلاً من تشييد مستشفى واحد للمدينة بأسرها ، فإنه طبقاً للعادة الأكثر شيوعاً كان يهيا مستشفى صغير لكل ألفين أو ثلاثة آلاف من السكان . وكذلك أيضاً فإنه تضاعف عدد كنائس الأبرشيات في أنحاء المدينة الآخذة في النمو ، بدلاً من إقامة بضعة مبان كبيرة في وسط المدينة . وطبقاً لما يقوله فيتز ستيفن ، كان يوجد في مدينة لندن في القرن الثاني عشر ١٣ من كنائس الأديرة و ١٢٦ كنيسة أصغر منها ، لعدد من السكان ربما كانوا يبلغون ٢٥ر٠٠٠ نسمة ، وبعد ذلك بنحو ثلاثة قرون يلاحظ ستو وجود عدد يتراوح بين كنيستين وسبع كنائس في كل حي من أحياء المدينة البالغ عددها سبعة وعشرين حياً .

وقد حال توزيع الوظائف الاجتماعية الأساسية في المدينة على هذا النحو دون مجاوزة الحد في ازدحام المنشآت وكذلك دون ما لا حاجة إليه من حركة المرور ، وأبقى على التوازن بين أرجاء المدينة كلها ، وقد كان عدم وجود هذا التوازن فيما جاوز حجمه الحد من بيوت سكان المدن في الشمال ، أو في التنافس الجنوبي بين أبراج الحصون في بولونيا أو سان جيمينيانو (San Gimignano) ، قد كان ذلك أعراض مرض اجتماعي . والصفات التي اتسمت بها القرون الوسطى ، أي المنشآت الصغيرة ، والأعداد القليلة ، والصلات الوثيقة — على تقيض الأعداد الكبيرة والتنظيمات الضخمة — أكسبت المدينة صفات ذات مزايا خاصة قد تعين على تعليل قدرتها على الابتداع .

وكان للشارع في مدينة العصور الوسطى مكانة تختلف كل الاختلاف عنها في عصر النقل بالوسائل ذات العجلات . وإنما نتصور عادة منازل المدن على أنها مصطفة على جانبي شوارع تقرر تخطيطها من قبل ، ولكن الأمر كان على نقيض ذلك في مدن العصور الوسطى بمواقعها التي كانت أقل انتظاماً من مواقع مدننا ، وذلك أن مجموعات من المباني الخاصة بالحرف أو المنظمات كانت تؤلف أحياء قائمة بذاتها أو « جزراً » لم يراع في توزيع مبانيها صلتها بالطرق العامة خارجها . وكانت دروب السير على الأقدام في داخل هذه الجزر ، وفي أحيان كثيرة في خارجها ، هي التي يسلكها السكان في غدوهم وفي رواحهم يومياً . وكانت فكرة « شبكة طرق لحركة المرور » معدومة انعدام حركة مرور دائبة بالوسائل ذات العجلات . وقد كان من شأن « الجزر » التي كانت تتألف من القلاع أو الأديرة أو الكليات وما كان يوجد في المدن البالغة التقدم من أحياء تقوم فيها صناعة متخصصة مثل دار الصناعة البحرية (الترسانة) في البندقية — كان من شأن هذا أن يعوق اطراد النسق الأكثر تواضعاً ؛ نسق الوحدات السكنية الصغيرة الحجم .

وبراءات المدن الجديدة في العصور الوسطى كثيراً ما كانت تفرق بين الشوارع التي بها حركة مرور — وكانت عربات النقل العنصر الرئيسي في حركة المرور — والشوارع الأقل منها شأناً . وفي مدينة مونبازيه الموحدة النظام — كما كان الشأن في فيلادلفيا بعد ذلك بقرون — كانت للمنازل واجهتان تطلان على شارعين : إحداهما تطل على شارع عريض يبلغ اتساعه أربعاً وعشرين قدماً ، والأخرى تطل على زقاق يبلغ عرضه سبع أقدام . بيد أنه بوجه عام كان الشارع طريقاً لانتقالات السائرين على أقدامهم . وأما استخدام العربات فكان أمراً ثانوياً . ولم تكن الشوارع ضيقة ، وفي حالات كثيرة غير منتظمة ، فحسب ، بل كانت تكثر بها المنحنيات

الحادة والسدات . وعندما كان الشارع ضيقاً ومتعرجاً ، أو كان مسدوداً ، فإنه كان من شأن هذا التخطيط أن يجد من قوة الريح ويقلل من مساحة الأوحال .

ولم يكن من قبيل المصادفة أن ساكن المدينة في العصور الوسطى ، وكان يذشد الرقاية من ربح الشتاء ، قد تجنب إنشاء أنفاق للرياح العاصفة مثل الشارع المريض المستقيم . وقد كان من شأن ضيق الشوارع ذاته في العصور الوسطى توفير المزيد من أسباب الراحة للناس أثناء مزاوله ضروب نشاطهم خارج بيوتهم في الشتاء . وكذلك فإنه في الجنوب كان الشارع الضيق ، بمبانيه ذات الأجزاء العريضة البارزة ، يبقى السائر على قدميه من المطر ومن وهج الشمس على السواء . وكان كل شارع يستمد الملامح الخاصة التي تميزه من وجوه التباين الصغيرة بين مبانيه من حيث الارتفاع ومواد البناء ، والمظهر الجانبي للسطح العلوى ، والاختلاف في فتحات النوافذ والأبواب الخارجية .

وعلى الرغم من أن البيرقى كان يفضل للمدن العظيمة القوية أن تكون الشوارع فيها مستقيمة وعريضة لتزيد من عظمتها وجلالها ، فقد كتب في تقرير الطراز القديم من الشوارع المتعرجة في العصور الوسطى ما يدل على أقصى درجات الفهم والإدراك . وذلك أنه أبدى « أنه يكون من الأجمل في قلب المدينة ألا تكون الشوارع مستقيمة ، بل أن تتعرج وتنتهي في اتجاهات عديدة إلى الخلف وإلى الأمام مثل مجرى النهر . فإنها بذلك ، فضلاً عن أنها تبدو أكثر طولا ، تزيد من الإيحاء بعظمة المدينة ، كما أنها تكون وسيلة كبرى للأمان حيال الحوادث والطوارئ المفاجئة . وزد على ذلك أن تعرج الشوارع على هذا النحو من شأنه أن يجعل الزائر يكتشف عند كل خطوة مبنى جديداً ، وأن يكون الباب الخارجى لكل بيت مواجهها لوسط الشارع مباشرة . وعلى حين أن الإفراط في الاتساع - كما يحدث في المدن

الكبرى - يكون خالياً من الجمال ومنافياً للصحة ، فإنه في المدن الصغرى يكون مما يفيد الصحة ويسر العين في آن واحد ، أن يتوافر لكل منزل وجود مثل هذا المنظر المكشوف بفضل منحرج الشارع . ولم يأت أحد بأفضل من هذا ، حتى ولا كاميللو سيتي (Camillo Sitte) ، في إنصافه تخطيط مدينة العصور الوسطى من الناحية الجمالية .

وعلى هذا فإن الأحياء السكنية في مدينة العصور الوسطى كانت تبنى عليها طابعاً خاصاً كان يعزز مثلاً على وجه التحقيق الجدران الصماء في مدينة إغريقية كلاسيكية . بيد أن المدينة كانت تتمتع فضلاً عن ذلك بظاهرة موفقة أخرى ، ولعلها كانت مما تخلف عن المدينة القديمة ؛ وذلك أنه كثيراً ما كان يحف بالشارع على الجانبين « بوائك » كانت تؤلف الجانب المفتوح لبعض الحوانيت . وكانت هذه الظاهرة وقاية أفضل مما كان يوفرها شارع ضيق مكشوف ، ولا يقتصر وجودها على فرنسا وإيطاليا - حيث يحتمل أن تكون في الواقع استمراراً ، عن وعى وإدراك ، أو استثناءً لرواق الأعمدة الكلاسيكية - بل توجد كذلك في مدن مثل أنسبروك في النمسا ، في الشارع المؤدى إلى المنزل ذى السقف الذهبي (Das Goldene Dachl) . ويجب ألا ننسى مدى الأهمية لوقاية البدن من الطقس ، لأن حوانيت الصناعات والتجار لم تقم لها بصفة عامة واجهات من الزجاج إلا في القرن السابع عشر ، والواقع أن الشطر الأعظم من شئون الحياة ، حتى طهى الطعام ، كان يمارس إلى حد كبير أو صغير خارج المنازل ، فالشارع الضيق المغلق ، والواجهة ذات « البوائك » ، والحانات المكشوفة ، كانت جميعاً من الأمور المكتملة للمدينة ، وإلى أن أقيمت للحوانيت واجهات من الزجاج الرخيص ، لم يتسن للأفكار الجديدة الخاصة بتخطيط المدن أن تجعل الشوارع أكثر رحابة .

ويجب أن نشير إلى ناحية أخرى من ملامح للشارع ، وهى ناحية

الرصف ، فقبل أن يتم استخدام العربات بنحو ثلاثة قرون كانت قد توارت عن الأنظار الطبقة السطحية الطبيعية لمواطني الأقدام في الشارع . وذلك أن رصف الشارع للسائر على قدميه قد أدخل في باريس منذ سنة ١١٨٥ ، وفي فلورنسا في سنة ١٢٣٥ ، وفي لوبيك في سنة ١٣١٠ . والواقع أنه في سنة ١٣٣٩ كانت فلورنسا قد رصفت بأكملها ، على حين أنه عند أواخر القرن الرابع عشر - حتى في بلاد كانت متأخرة إلى حد ما مثل إنجلترا - كان في وسع وليم لانجلاند أن يستخدم مثل هذا التشبيه : « عادى مأوف كالطريق المرصوف لدى كل من يسير على قدميه » . . . وكثيراً ما كانت هذه التحسينات المبكرة لا تطبق إلا في شارع واحد . هام ، وقد انتشرت هذه الحركة ببطء بالغ حتى إنها لم تصل إلى لاندسهوت (Landshut) في بافاريا إلا في سنة ١٤٩٤ ، ولو أن ذلك الابتكار الفنى العظيم الآخر ، ونعنى به زجاج النوافذ ، كان يستعمله الفلاحون البافاريون في القرن الثالث عشر ، طبقاً لما يقوله هين (Heyne) . ولقد غدا رصف الشوارع فناً على أيدي الرافضين في العصور الوسطى ، وكثيراً ما كانوا يماكون في الحجر شكل منجل الحصاد ، على حين أنه في مدينة البندقية تزيد ألوان الرصف وأشكاله من رونق ميدان سان مارك ذاته .

وتزويد الشوارع بالرصف والعناية بأمره يذكرنا بخاصية أخرى تتعلق بكيفية إدارة شئون المدينة في العصور الوسطى . وفي هذا المجال أيضاً كان الترابط يقوم على أساس من الصالح العام ، على حين أن التنظيم المادى كان يقوم في أكثر الحالات ، على أساس من الصالح الخاص ، ومن المحقق أن ذلك ينطبق على الرصف والإضاءة وتوفير المياه بالأنابيب . ولم يحل القرن السادس عشر حتى كان الرصف والإضاءة قد أصبحتا عادة أمرين لا بد منهما ، بيد أنه كان من شأن ملاك البيوت القيام بهما أمام ملكهم الخاص .

«وكذلك فإن تنظيف الشوارع ظل زمناً طويلاً من شئون الأفراد ، وهى عادة بقيت قائمة فى لندن إلى ما بعد القرن التاسع عشر فى نظام الكناس الذى يقوم بكنس الشارع ، منتقلاً من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، ولم يختلف هذا الكناس إلا مع اختفاء الحصان . (وهذه العادة من عادات القرون الوسطى ، لكن من الغريب أنها ما زالت تطبق عادة فى حالة إنشاء وصيانة الطوارى) . وبمقتضى قانون الرصف الذى كان معمولاً به فى نورثمبتون فى سنة ١٤٣١ ، كان من حق رجال البلدية أن يأمرؤا أصحاب الأملاك برصف وإصلاح الشوارع الواقعة أمام منازلهم والأرض المجاورة لها ، ولكن « لم يكن يتحتم على أحد من أصحاب الأملاك أن يمد الرصف فى داخل الشارع إلى أكثر من ثلاثين قدماً ، وبذلك أصبح من واجب المدينة أن تقوم برصف السوق وما يماثلها من الأماكن الواسعة » .

ولنتأمل ظاهرة أخرى من ظواهر المدينة ، ونعنى بها انقسامها إلى وحدات للجوار وخطط^(١) وظيفية (functional precincts) . فإلى حد ما ، كانت المدينة فى العصور الوسطى عبارة عن مجموعة مدن صغيرة ، كل منها على قسط معين من الاستقلال الذاتى ، والاكتفاء الذاتى ، وكل منها تكونت على وجه طبيعى نتيجة للحاجات وأهداف مشتركة كان من شأنها أن تعود بالخير على المجموعة وتكملها . فقد كان من الظواهر التى اتسمت بها المدينة تقسيمها إلى وحدات تبلغ مساحة كل منها ربع المدينة وكانت لكل منها كنيستها أو كنائسها ، وكثيراً ما كانت لها سوق محلية للحاجات الغذائية ، وكان لها دائماً موردها المحلى للمياه ، كبر أو نافورة ، بيد أنه عندما كانت المدينة تزداد نمواً ، كان عدد الوحدات يزيد وتبلغ مساحة كل منها سدس المدينة كلها أو أقل من ذلك ، ولكن دون أن تذوب

(١) مفرداً خطة بمعنى حى أو مجموعة مبان تتوسطها ساحة مكشوفة . (المشرف)

في كتبها . وكما هي الحال في البندقية ، كثيراً ما كانت وحدة الجوار تعتبر هي والأبرشية شيئاً واحداً وتستمد اسمها من اسم كنيسة الأبرشية : وهذا النظام في التقسيم ما زال متبعاً إلى اليوم :

وهذا الإدماج في وحدات أولية للإقامة ، مؤلفة من أسرات وجيران ، قد استكمل بنوع آخر من التقسيم إلى خطط على أساس الحرفة والمصلحة ، وبذلك فإن كلا من المجاميع الأولية والثانوية ، أى الأمة والجماعة (Gemeinschaft and Gesellschaft) اتخذت الوضع الحضري نفسه ، ففي رجنزبرج (Regensburg) قسمت المدينة منذ القرن الحادى عشر إلى خطة لرجال الدين ، وخطة للقصر الملكى ، وخطة للتجار ، وبذلك كانت مناطق المدينة تقابل المهن الرئيسية فيها ، ولابد من أن الصناع والفلاحين كانوا يشغلون ما تبقى من المدينة . وكانت مدن الجامعات ، مثل تولوز ، وأوكسفورد ، تضيف إلى هذه المجموعة من المناطق ، ما فيها من خطط خاصة بالكليات ، كانت كل منها مكنتية بذاتها نسبياً ، على حين أنه - تبعاً لاندماج أديرة الرهبان والراهبات في المدن ، وهى حركة ظلت تواصل سيرها منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر - كانت متناثر بالمثل خطط خاصة بالأديرة ، مختلفة عن خطة الكاتدرائية ، كانت حدائقها وعروضاتها الطلقة - مهما تكن خاصة - تزيد المجموع الكلى لما في المدينة من الأماكن الفضاء . وفي لندن ، كانت مباني هيئات المحاماة (Inns of Court) - مثل التمبل (The Temple) - تؤلف نوعاً آخر من الخطط المحوطة بالمباني .

وإن ما للخطة الوظيفية من دلالة لم يتم إدراكها إلا بعد فوات الأوان ، حتى لدى علماء من أصحاب النظريات في تخطيط المدن . والواقع أنه لعل من بين المحدثين المشتغلين بتخطيط المدن ، كان أول من أدرك القيمة الصحيحة للخطة الوظيفية ، سواء من حيث شكلها التاريخى أم من حيث وجوه

تنوعها الحديثة ، هما هنرى رايت (Henry Wright) وكلارنس ستين (Clarence Stein) : بيد أن هذه الخطط كانت أول مظهر حضري استخدم فى شئون الحياة اليومية الصفات المكانية التى انسم بها الحرم المقدس فى المدينة الأصلية . وفى الوقت الحاضر — حين أصبح كيان المدينة ذاته يتهدده ازدياد حركة النقل بالوسائل ذات العجلات ازدياداً جاوز الحد — فإن ما كان سائداً فى العصور الوسطى من تقاليد الخطة المتحررة من حركة المرور فى الشوارع والطرق الكبرى ، قد عاد إلى الظهور بوصفه شكلاً جديداً يحتل مكاناً رفيعاً فى معارج التقدم .

ولا نستطيع أن نترك مدينة العصور الوسطى ، بما فيها من ألوان الوحدة والتباين ، دون أن نوجه سؤالاً ختامياً عن تخطيطها وهو : إلى أى مدى اتبع بوصفه محاولة واعية لتحقيق النظام والجمال ؟ وعند إعداد الجواب يسهل المبالغة فى تقدير جمال المنظر من حيث ما فيه من جمال تلقائى ومن جمال عرضى ، كما يسهل إغفال التشدد والنظام اللذين كانا من الصفات الأساسية فى تنشئة كل من العالم والصانع . والواقع أن ما فى مدينة العصور الوسطى من وحدة جمالية لم تتحقق — كشأن باقى منظماتها الأخرى — دون مجهود ونضال وإشراف ومراقبة .

ولاشك أن أغلب هذا الإشراف كان شخصياً ، ومن المرجح أن أغلب الاتفاقات كانت تتم عن طريق المناقشة وجهاً لوجه بين الأطراف المعنية بالأمر دون أن يتخلف عنها أى أثر مدون . بيد أننا نعلم أنه عندما شيدت دار البلدية فى سيينا فى القرن الرابع عشر ، أصدرت إدارة البلدية أمراً بأن المباني الجديدة التى تقام على بيانزا ديل كامبو (Piazza del Campo) يجب أن تكون نوافذها من ذلك الطراز بعينه ، وعلى الرغم من أنه ما زال يوجد الكثير مما يجب إتمامه عن أعمال البحث فى سجلات العصور الوسطى لاستجلاء جميع مهام مهندس مباني المدينة ، فإننا

نعلم أيضاً أن تلك الوظيفة كانت قديمة العهد في إيطاليا . ولا حاجة بنا إلى الشك في ديكارت (Descartes) عندما يلاحظ في مؤلفه « المقال في المنهج » أنه « كان يوجد في كل الأزمنة موظفون كانت مهمتهم أن يراعوا أن المباني الخاصة تسهم في زيادة الرونق العام » .

وإن ما كان أبناء القرن التاسع عشر المعجبون بفن العصور الوسطى يعتبرونه بمثابة نتيجة جاءت من تلقاء نفسها دون مجهود وعن غير وعى ولا غاية ، كان قد تم عمله في الواقع طبقاً لمنهج وغاية مقصودة في تخطيط المدن ، كما هو الشأن تماماً في أداء أى عمل فني آخر . حقاً إن « لافدان » في إعرابه — على نحو يدعو إلى الإعجاب — عن تقديره لمدينة العصور الوسطى ، يميل إلى اعتبار جمالها مجرد نتيجة فرعية لمظاهر العناية بما فيها من النواحي العملية والرمزية ، إلا أن المدينة لم تكن أكثر افتقاراً إلى النظام الجمالي المقصود منها إلى النظام الهندسى وإن كان في نظامها من المرونة ما كان يسمح بتقبل الحديد والتلقائي والمغاير من المظاهر .

ونتيجة لذلك فإن عين تخطيط مدينة « العصور الوسطى » قد تيسر له في القرن الثامن عشر أن يحتوى معاً منشآت من الطراز الرومانسكى ، والطراز القوطى المتقدم ، والطراز الزاخر بالزخرفة ، وطراز عصر النهضة ، والطراز الباروكى . وكثيراً ما كانت هذه المنشآت تتزاحم في الشارع عينه دون أن يكون في ذلك ما يقلل من قيمتها الجمالية ، بل إنه في الواقع كان يحدث عكس ذلك الأثر . فقد كان هذا المزيج الجمالى يقابل تعقد المجتمع التاريخى . وقد كان ذلك طريقة للتخطيط تنى بحاجات الحياة وتتقبل التغيير والابتكار دون أن يكون ذلك سبباً في إفسادها . فقد كانت في آن واحد قادرة على أداء وظيفتها وتحقيق الغرض منها بكل ما تحتمله هذه الكلمات من معنى ، لأن الوظائف التى كانت أجل خطراً من سواها ، كانت تلك التى لها قيمتها بالنسبة للنواحي الرفيعة في حياة الإنسان .

وفى كنف قواعد كهذه للتخطيط لم يكن ثمة ما يغرى أحداً بالانقاص من قدر الشكل القديم - الذى كان لا يزال يجيد أداء مهمته - أو الشكل الجديد ، الذى كان يمثل هدفاً جديداً . وبدلاً من إزالة مبان مختلفة الطراز لكى تعاد إقامتها جملة طبقاً للنموذج الثابت الشائع فى حينها ، فإن بنائى العصور الوسطى اصطنعوا من القديم والجديد نموذجاً ازداد على الأيام غنى وكالاً . والجمال المزيّف الذى يتسم به طراز واحد متطابق يُتبع فى تخطيط صلب جامد ، ويكون من شأن هذا الطراز أن يوقف على نحو تعسفى سير العملية التاريخية عند نقطة معينة - لم يُنشُد هذا اللون من الجمال إلا فى عهد تال كان يقدر التطابق أكثر مما يقدر الانتشار والتعميم ، ويفضل القوة الظاهرة للعيان على ما فى الحياة من عمليات خفية ٥

٦ - التحكم فى النمو والتوسع

يتصور كثير من الناس أن الحياة فى العصور الوسطى كانت كسلة خاملة ، وأن مدينة العصور الوسطى كانت جامدة ساكنة ، ولكن على الرغم من أن سرعة الحركة كانت تختلف عما هى عليه فى القرن العشرين الذى كثيراً ما تكون ديناميته هدامة وتقضى على نفسها بنفسها ، فإن العصور الوسطى كانت عهد تغير متواصل بل عنيف فى بعض الأحيان . فقد تكاثرت المدن ونمت من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر ، ولهذا يجب أن نتساءل : كيف كانت مدينة العصور الوسطى تجد مأوى لسكانها المتزايدين؟ وماذا كانت حدود نموها ، إن وجدت؟

والسور هو الحد الذى كان يحدد فى الأصل التكوين المادى للمدينة ، ولكن طالما ظل سور بسيط من الخشب ، أو جدار من المبانى كافياً لأغراض الدفاع العسكرية ، فإن السور لم يكن عقبة حقيقية دون اتساع المدينة ، وكان

من اليسير ، من الناحية التقنية ، هدم السور وإطالة امتداد حدود المدينة لزيادة المساحة الداخلية . والشوارع الدائرية في كثير من مدن العصور الوسطى تنهض دليلاً - شأنها شأن الحلقات السنوية للأشجار - على الفترات المتعاقبة في النمو ، وهي التي يشهد بها تعدد عمليات إطالة السور . فمدينة فلورنسا مثلاً وسعت دائرة سورها للمرة الثانية في سنة ١١٧٢ ، وبعد ذلك بمدة لا تزيد على قرن أقامت دائرة ثالثة تطوق مساحة أكبر اتساعاً ، وعندما أصبح ضغط البطن المتختم مزعجاً فإن بلدية فلورنسا - على حد ما يقال - أرخت حزامها .

وكلما امتدت الضواحي كان السور يمتد ويطوقها ، وكان هذا من الإجراءات المألوفة في المدن الآخذة في النمو حتى القرن السادس عشر ، عندما أصبح مثل هذا الأسلوب من أساليب توسع المدينة مستحيلاً بسبب النظام الجديد للاستحكامات الذي استلزمته الدقة في تصويب نيران المدفعية . بيد أن مدينة العصور الوسطى ، حتى في أقصى حالات اتساعها ، لم تكن عادة تتجاوز في امتدادها نصف ميل من منتصف المدينة ، أى إن كل منشأة ضرورية ، وكل صديق أو قريب ، أو شريك ، كان في الواقع من الجيران القريبين ، على قيد مسافة يمكن قطعها على الأقدام بسهولة . فكان لا مناص من أن يلتقي الإنسان في كل يوم عن طريق المصادفة بكثير من الناس الذين كان لا يتيسر له مقابلتهم في مدينة أوسع نطاقاً إلا بجهد وترتيب سابق . وإن ما يعرف في أدنبرة بالميسل التاريخي ، كان يمتد من أقصى أطراف قبة الحصن إلى دير هوليرود (Holyrood Abbey) على حدود المدينة . وعند تجاوز هذه الحدود ، فإن مدينة العصور الوسطى ، بوصفها جهازاً يؤدي عمله كان لا يعود لها وجود تقريباً بحكم هذا التعريف ، وذلك لأن تكوين مجتمع المدينة بأسره كان عبارة عن نظام يتألف من قيود وحدود ، فكان انهيار هذه القيود والحدود في المدينة يتكشف عن تصدع أوسع نطاقاً في الحضارة بأسرها .

وكانت القيود التي تحد من نمو المدينة في العصور الوسطى ترجع في جانب منها بطبيعة الحال إلى الظروف الطبيعية والاجتماعية أكثر منها إلى تطويق السور ، فقد كانت هناك قيود تفرضها موارد المياه وما ينتج محليا من مواد الغذاء ، وقيود تملأها البلدية وأنظمة النفايات التي كانت تحول دون استقرار الغرباء بلا قيد ولا شرط ، وقيود تنشأ عن صعوبات النقل والمواصلات التي لم يتيسر التغلب عليها إلا في المدن المتقدمة ، مثل مدن الأقاليم الواطئة التي كانت توجد لديها طرق مائية بدلا من الطرق البرية لوسائل النقل الثقيلة . ومن ثم فإنه لأسباب عملية ليس غير ، بلغ التوسع الأفقي غاية حدوده سريعا . ونتيجة لذلك فإنه في القرون الأولى لتطور المدينة في العصور الوسطى ، كان يدبر أمر الزائدين من السكان بإقامة مراكز استقرار جديدة لهم ، في مواقع قريبة أحيانا ، ولكنها كانت على الرغم من ذلك وحدات مستقلة مكنتية بذاتها . ولقد اتبع هذا الإجراء في نيولانجلند إلى عهد متأخر وصل إلى القرن السابع عشر ، وعلى هذا النحو تولدت عن مدينة تشارلستون ثلاثة من هذه المراكز وهي ووبرن (Wopurn) وديدهام ميدفيلد (Dedham Medfield) وكبريدج بلماونت (Cambridge Belmont). ولم يكن كل منها عبارة عن مجرد مجموعة من البيوت المتناثرة ، بل كان مجتمعا مدنيا ودينيا ، له نظام محلي للحكم ، وبه دار مركزية للاجتماع من أجل الشؤون الدينية . وحتى في القرن التاسع عشر أنشأت مدينة ابسوتش (Ipswich) مركز مارييتا (Marietta) في ولاية أوهايو .

وجملة القول أن القيود على المساحة وعدد السكان لم تؤد إلى بقاء مدينة العصور الوسطى جامدة ساكنة ، فهذا وهم باطل ، إذ أن الأمر لم يقتصر على إقامة ألوف من المراكز الحضرية الجديدة في صدر العصور الوسطى بل إن مدنا مستقرة ، عندما ألفت نفسها مكينة بالعوائق الطبيعية أو أنها تقوم في موقع غير ملائم ، أقدمت بشجاعة على الانتقال إلى أماكن أفضل

موقعا ، وعلى هذا النحو غيرت مدينة لوبيك موقعها الأصلي لتحسين وسائلها التجارية والدفاعية ، وكذلك هجرت أولد ساروم (Old Sarum) موقعها على التل ، لعدم ملاءمته وتعرضه لضربات الرياح ، واستقرت في ساليزبورى إلى جانب النهر . وبوجه عام أنشئت المدن وسط جو من الهمة الدافقة والتحمس البناء ، مما لا نظير له في العهد الحديث إلا القليل في غير حالات المناطق المنكوبة . بيد أن هذه الحركة الحضرية الواسعة لم تكن واقعة تحت تأثير جشع المحدثين من المضاربين في أسعار الأملاك ، الذين يسعون وراء الربح العاجل المفرط . وحتى في حالات توظيف المال في الشئون العمرانية كان الناس يعنون بالاستثمار لأجل طويل أكثر من عنايتهم بالاستثمار لأجل قصير ، فالمفهوم الإقطاعى للأرض بأنها بمثابة منحة ووديعة تنتمى إلى نوع يختلف عن أنواع الممتلكات المنقولة - هذا المفهوم بلغ من عمق تغلغله في النفوس أنه لم يختلف كلية من أوروبا على الإطلاق .

فالنسق العام لنمو مدينة العصور الوسطى كان إذن يختلف اختلافا أساسياً عما أعقبه مباشرة في فترة التجمع والتماusk حول عواصم سياسية كبرى ، فقد كان نسق العصور الوسطى عبارة عن عدد وفير من المدن الصغيرة والقرى التابعة لها على اتصال لا ينقطع بالمدن المجاورة لها والموزعة في أرجاء الإقليم على نطاق واسع ، والواقع أن إليزيه ركلبس (Elisée Reclus) وجد أنه يمكن تحديد مواقع قرى ومدن فرنسا بدقة تدعو إلى الدهشة ، حيث إنها منسقة في وضع يجعلها على مسيرة يوم على الأقدام ، من أقصى نقطة إلى السوق ، ذهابا وإيابا . وبعبارة أخرى فإن حاجات السائر على قدميه كانت مقدمة على ما عداها ، أى إن من كان يستطيع استخدام قدميه كان في وسعه أن يصل إلى المدينة . وقد كان النسق الحضرى مطابقا للنسق الاقتصادى ، وكان كلاهما يتلاءم مع الوحدة الصغيرة والاتصال المباشر وجهها لوجه .

وأما من حيث توزيع السكان فإن الحقائق واضحة ، فقد كان عدد السكان في مدينة العصور الوسطى يتراوح بين بضعة آلاف وأربعين ألفاً ،

وهو ما كانت عليه لندن في القرن الخامس عشر . وحتى القرن السابع عشر ، كان من الخارج على المألوف إلى حد بعيد أن يتجاوز عدد السكان مائة ألف ، وهو ما بلغته من قبل باريس والبندقية وميلان وفلورنسا . وحوالي أواخر العصر ، كانت مدينة نورنبرج المزدهرة تشتمل على عشرين ألفاً من السكان ، على حين أن مدينة لبست قليلة الشأن مثل بازل (Basel) كانت تضم حوالى ثمانية آلاف نسمة . وكان هذا التحديد سائداً حتى في الأقاليم الواطئة ، حيث كان إنتاج الأرض وفيراً وتعززه صناعات النسيج التي بلغت مستوى رفيعاً من التنظيم في ظل نظام صارم للاستغلال الرأسمالى . ففي سنة ١٤١٢ كان عدد سكان إيبير (Ypres) لا يزيد على ١٠٣٧٦ ، وفي منتصف القرن بعينه كان عدد سكان أوفان وبروكسل يتراوح بين ٢٥٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ نسمة . ومن المحتمل أن بروج ، وهى أكبرها ، كانت تضم ٧٠٠٠٠ نسمة . وأما عن ألمانيا فإن حياة المدن فيها كانت مركزة في نحو ١٥٠ مدينة كبيرة ، ولم تكن أكبرها تشتمل على أكثر من ٣٥٠٠٠ من السكان .

حقاً إن كل هذه الإحصاءات ترجع إلى القرن التالى لحداث وباء الموت الأسود ، الذى قضى على نصف السكان في بعض المناطق . بيد أنه حتى إذا رفعنا إلى الضعف الأرقام الخاصة بالمدن ذاتها ، فإنها سوف تظل قليلة ومتناثرة بالقياس إلى تكتل السكان في العهد الحديث ، وإنما ينبغي التوسع في هذه الأرقام فيما يتعلق بإيطاليا وحدها ، وذلك من ناحية بسبب المنشآت الرومانية القديمة ، ومن ناحية أخرى لأن قيام الرأسمالية هناك كان أسبق منه في البلاد الأخرى . والإفراط في الازدحام ، والإفراط في البناء مع اطراد الزيادة في الأجور الباهظة ، واطراد الزيادة في ضيق مساحة المساكن — وكذلك اتساع الضواحي وتناثرها — كل هذا لم يصبح شائعاً إلا عندما ضعفت القدرة على تشييد مدن جديدة ضعفاً شديداً . ولسوف أتناول بالبحث في فصل تال الأسباب التى أدت إلى هذا التدهور الذى أصاب قوة النشاط الحضري .

آيات انهيار العصور الوسطى وبواكير العصور الحديثة

١ — كريستيانوبوليس (المدينة المسيحية) — فبال ومقفية

كان الدبر والنقابة والكنيسة هى العناصر التى أسهمت فى تكوين مدينة العصور الوسطى ، ولما كانت هذه العناصر أفعال أثراً فى مدينة العصور الوسطى مما كانت كوس ودلفى وأولمبيا فى بلاد اليونان ، فإنها صاغت شكل كل حى من أحياء المدينة وأقامت لونا عاما من الحياة يبشر بالتغلب على النظم العقيمة التى رسخت أقدامها أصلا فى القلعة القديمة . وإلى حد ما حل التعاون الاختيارى والتزامات التعاقد والواجبات المتبادلة مكان الطاعة العمياء والإكراه الشديد . ويتسنى للمرء أن يقول إن النموذج الأصيل لمدينة العصور الوسطى قد تم تكوينه فى اللحظة التى ظهرت فيها هذه الأنظمة الجديدة وأخذت تزاوّل عملها جنباً إلى جنب . وهذا لا يستتبع أن كل هذه الأنظمة كانت موجودة فى كل مدينة بذاتها ، أو أنه كان لها شأن مماثل فى كل مكان ، إذ أن الروح التجارية كانت قطعاً معادية للجامعة ، ولذا فإن بعض مدن العصور الوسطى مثل بروج ولوبيك لم يكن لها إطلاقاً فخر وجود مثل هذا المركز الفكرى فيها ، على حين أن مدناً أخرى مثل البندقية وبريستول قاومت هذه البدعة زمناً طويلاً .

ومع ذلك فإنه فى أوائل العصور الوسطى كانت تقوم بين الدين والأعمال التجارية صلة وثيقة إلى حد أن الهيئات التجارية كانت تحاكي المنظمات

الدينية في تنظيم قواعدها التجارية ، فراكز عصابة هانزا التجارية مثلاً كانت قائمة على أسس ديرية ، وكانت تقتضى ذات الانقطاع الشديد ، لا للعبادة ابتغاء للمثوبة السماوية ، وإنما للعمل ابتغاء للربح المالى ، على حين أن إحدى المهام الرئيسية التى كان يضطلع بها فرسان المعبد^(١) (Knights Templar) هى أن يؤدوا عمل وكلاء النقل ورجال المصارف . بيد أنه في نهاية العصور الوسطى - وهذه هى إحدى الدلالات الحاسمة على النهاية - حتى شئون الدين اصطبغت بصبغة دنيوية ، وتحاذل الدين أمام التجارة ، « والإيمان » أمام « الائتمان » .

وحتى إقامة ضروب النشاط التجارى على أساس رأسمالى ، كان لها أصل ديني ؛ إذ أن عقيدة « كنز الخلاص » ، كما وضعها اللاهوتيون في العصور الوسطى ، كانت إرهاباً لنظرية المدخرات الرأسمالية أملاً في جزاء آجل ، فقد كانت هذه العقيدة تبشر بالحصول في النهاية على ثمار جزيلة وأرباح طائلة ، أما تبرير الربح ذاته - مع ما في ذلك من تناقض مع مبدأ تبادل شيء لقاء شيء آخر - فقد تولى أمره الراهب فنسان من بوثيه^(٢) :

فهل يستطيع الإنسان إذن أن يعتبر مدينة العصور الوسطى مدينة مسيحية ، أى صورة مجسمة لطريقة الحياة المسيحية - مجسمة في المباني وفي نظام تكافل سياسى ؟ وهل كانت ملجأ حقيقياً - أى ملاذاً من ضروب التناقض والحياة التى شاهدها في كل حضارات المدن التى سبقها ؟ لسوء الحظ أن مدينة العصور الوسطى لم تكن رمز النجاح في تحقيق الآمال المسيحية - كما بدت أحياناً في نظر بعض الأنصار الأتقياء في القرن الثالث عشر - أكثر مما كانت مزيجاً فاسداً من الجهل والقدارة والقسوة الوحشية والمعتقدات الخرافية ، كما بدت في نظر الكثيرين من الناقدين بعد العصور الوسطى .

(١) كانوا أعضاء طائفة دينية عسكرية لحماية الحجاج إلى الأراضي المقدسة .

(٢) كان فنسان (حوالى ١١٩٠ - ١٢٦٤) راهباً فرنسياً من طائفة الدومينكان ، كتب ثلاثة أرباع موسوعة لاتينية لحصت ألوان المعرفة في القرن الثالث عشر .

ويجدر بنا أن نتجنب كلا الخطأين عند تقدير قيمة مدينة العصور الوسطى ، كما يجب علينا طبعاً أن نستبعد الصورة المزخرفة الرائعة التي دمجها عن العصور الوسطى بيوجين (Pugin) ورسكين وموريس وأصراهم من الكتاب ، إذ أنهم كثيراً ما تناولوا الأغراض كما لو كانت مشروعات نفذت ، والأهداف المثالية كما لو كانت أمور تحققت ، فقد كانوا لا يترددون في أن يعزوا إلى ما كانت حياة العصور الوسطى تنطوى عليه من المحتويات الجليشة ، كل الجمال الذي كان لا يزال يشاهد في الوعاء . بيد أننا إذا نبذنا حضارة العصور الوسطى في جملتها بسبب غرفة التعذيب ، وإحراق المارقين من الدين ، والمجرمين ، إحراقهم علناً على رؤوس الأشهاد ، فينبغي كذلك أن نمحو تماماً كل أدعاء المدنية في عصرنا الحاضر . ألم يستعد عصرنا المستنير التعذيب المدني والعسكري ، ويتكرر معسكرات الإبادة ، ويحرق أو ينسف سكان مدن بأسرها ؟ ألا لقد كانت ألوان التناقض في حياة العصور الوسطى ضئيلة بالقياس إلى تلك التي نخفيها بين جوانحنا :

لقد نجحت مدينة العصور الوسطى في نواح معينة إلى حد لم تبلغه حضارة أى مدينة سابقة ، فلأول مرة كان أغلب « سكان المدينة » أحراراً ، وفيما عدا طوائف خاصة مثل اليهود ، أصبح الآن التعبيران « ساكن المدينة » و « مواطن » مترادفين . وبعد أن كانت السلطة تنبعث من مصدر خارجي ، أصبحت الآن تنبعث من مصدر داخلي ، وتستوجب ضبط النفس وترويضها على النظام ، على نحو ما كانت تمارس بين أعضاء نقابة واحدة ومواطني مدينة تدبير شئونها ، فأداة الحكم والمجتمع ، أو بعبارة أخرى التنظيم والتكافل ، اندمج كل منهما في الآخر . ولم يحدث إطلاقاً منذ عهد الأسرات المصرية العظيمة أن وجدت مثل هذه الوحدة المقدسة في الهدف في ظل مثل هذا التباين في المصالح والمشروعات المحلية . وعلى الرغم من أن البناء الاجتماعي للمدينة ظل قائماً على أساس تفاوت الطبقات ، فإن مجرد إمكان الفن أن يغدو

مواطننا حراً قضى على كل تفرقة بيولوجية بين الطبقات وأحدث قدراً متزايداً من التطور الاجتماعى . .

ولقد كانت هذه مآثر جليلة ، ولكن الإيمان والمذاهب التى جعلت تحقيقها أمراً ميسوراً ، حالت دون المضى فى التطورات التى كانت تتحدى فى سلطتها ومطامعها الدنيوية الواسعة . وحقيقة الأمر أنه فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة تسيطر على كل ناحية من نواحي الحياة فى العصور الوسطى ، بفضل وجودها ورسالتها فى كل مكان ، كان من شأن نجاحها فى ذاته أن تنغمس فى شئون هذا العالم ؛ إذ أن الكنيسة ، فى مقابل استمرار سيطرتها ، قبلت الاضطلاع بنفس الأعباء التى أودت فى النهاية بكل حضارة قامت فى المدن من قبل ، سواء أكان يتولى قيادها رجل مثل آشور بانينال أم مثل بريكليس . واهتمام الكنيسة المثالى بشئون العالم الآخر — وهو المجال الوحيد الذى كانت تدعى لنفسها السيادة المطلقة عليه — قد حط من شأنه ذات تمديدها لأنه حدا بها إلى العمل على أن يكون مظهرها مضارعاً لمكانتها المقدسة السامية ، أى أن يكون مظهرها أعظم رواء مما يتسنى لأى منافس دنيوى . وقد هاجم هذا الافتضاح واحد بعد آخر من آباء الكنيسة فى العصور الوسطى من برنارد من كليرفو إلى فرنسيس من أسيسى ، وأوضح أكثر من واحد من القديسين ، أنه كان من اليسير جداً أن يطفى البناء على الروح التى كان مفروضاً أنها تكن فيه ، وعندما بنيت كنيسة نوتردام دوبارى حوالى سنة ١١٨٠ كتب بيار شانتير فى مؤلفه « سيادة الكنيسة » (Summa Ecclesiastica) : « يجب أن تكون المحاريب فى كنائسنا أشد تواضعاً من أجسامها نظراً إلى السر الذى ترمز إليه ، فإن المسيح الذى يقف على رأسنا — رأس كنيسته — أشد تواضعاً من كنيسته » . ويلاحظ هذا الكاتب أنه بدلا من ذلك فإن المحاريب « تبنى على نسق يزداد ارتفاعاً باطراد » :

وماذا كان ينطوى عليه وجود مدينة مسيحية ؟ إنى أقرر بأن ذلك لم يكن ينطوى على ما هو أقل من أن تنبذ نبذاً تاماً الأسس الأصلية التي أقيمت عليها المدينة ، أى نبذ ما طال عليه العهد من احتكار السلطة والمعرفة ، وإعادة تنظيم القوانين وحقوق الملكية بما يكفل العدالة فى مآمن من الإكراه ، وإلغاء الرق والعمل الإجبارى لصالح أقلية حاكمة ، وإزالة الضروب البشعة لعدم المساواة الاقتصادية فيما بين طبقة وأخرى . وعلى هذه الأسس كان من الممكن أن يجد المواطنون الدنيا قسطاً على الأقل مما كانوا يوعدون به من العدل والإحسان فى الآخرة لوتابوا وأنابوا . وإنه لخليق أن يفترض الإنسان أن تتاح للمواطنين فى المدينة المسيحية الفرصة لكى يعيشوا معاً فى إخاء ومعونة متبادلة دون النكوص وجلا أمام سلطة متحكمة ، أو العيش دائماً فى فرع من توقع عدوان خارجى وموت مفاجئ ، فنبد النظام القديم الذى فرضته القلعة فى الأصل ، كان الأساس الأدنى لبسط الأمن والنظام وفقاً للتعالم المسيحية .

ومنذ ذات اللحظة التى أصبحت فيها المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية فى سنة ٣١٣ ميلادية كانت المخاطر تهدد هذا النهج ، وكانت « مدينة الله » تزداد عنه ابتعاداً باطراد . وقد بقيت واضحة فى الدير بعض مظاهر الأمن والنظام وفقاً للتعالم المسيحية ، وتطرق إلى المدينة قدر غير قليل من تلك الروح عن طريق الخدمات الأخوية التى كانت النقابات تقوم بها ، ولكن الفكرة المسيحية بلغت أوج الازدهار فى وقت الحن ، ولقيت مع النجاح سلسلة من ضروب الفشل بلغت ذروتها فى القرن الثالث عشر . وطيلة الوقت الذى كانت فيه قبلة الحياة ذاتها الموت والألم ، كان قدر غير ضئيل من المقاصد المسيحية يجد مجالا له فى أعمال البر والرحمة التى اتخذت فى المدينة شكل منظمات ملائمة . ولم يحدث إطلاقاً أن وجد فى حضارة أية مدينة سابقة شىء مماثل لما كان موجوداً فى مدينة العصور

الوسطى من تدابير واسعة النطاق للعناية بأمر المرضى والمسنين والمكروبين والمعوزين : وقد كانت هذه المآثر من أعمال البر والإنسانية تشبه إلى حد ما المآثر الفكرية التي حققها اللاهوتيون في العصور الوسطى ، ونعني بذلك أن البناء كان يبدو ثابتاً لا يتزعزع بشرط ألا يدقق المرء النظر في فحص الأساس :

وبأسرع مما ينبغي ، لم تكتف الكنيسة بإعطاء ما لقيصر لقيصر ، بل أعطته أيضاً ما لله ، إذ أن الكنيسة لم تكتف بمجرد تحاشي المساس بالأسس القديمة للسلطة السياسية والعسكرية والملكية الخاصة ، والاحتكار الفكرى ، بل إن الكنيسة بدلا من أن تنبذ هذه الدعاوى التي تتناقض مع الحياة الروحية الرفيعة ، باركتها وتبنتها لنفسها ، وعند الضرورة كانت تحاول أن تحقق بالتهديد والقوة ما كانت تعجز عن إدراكه بالولاء الصادر عن رغبة . وبالمنحة الناشئة عن إرادة حرة . وفي العهد المفروض أنه يمثل أوج التركيبات المذهبية في العصور الوسطى ، كان دانتي يحلم بإمبراطور يتولى حكم العالم المسيحى ، بحيث يكون في وسعه إنقاذ الدنيا من براثن « بابا » جائر جشع :

ولما كانت الكنيسة تتوقع آلام البشر وتألفها جيداً ، فإن القسس كانوا يواجهون بلا تردد ولا وجل ما تأتى به الحياة من ألوان الحرمان والحياة وضروب الفشل والمآسى ، بيد أنه عند ما دبت الحياة من جديد في هذه الحضارة بأسرها ، تبعاً لازدهار التجارة وتكدس الثروات ، أخذت الكنيسة ، في سبيل مجدها وقوتها الذاتيين ، تستخدم بازدياد مطرد كل الأساليب السائدة سواء أكانت غير مسيحية أم مناهضة للمسيحية ، ومضت في ذلك إلى حد أنه حتى أرفع عقائدها ذكراً كثيراً ما كانت تتخذ شكلاً خرافياً ، وإذا كانت الكنيسة قد حمت الجثث البشرية من أن يتهلك حرمتها الأطباء الذين كانوا يسعون وراء إدراك معلومات طبية عن جسم الإنسان

عن طريق التشريح العلمى ، فإنها كانت تسمح عن طيب خاطر بأن تشوه أجسام الأحياء بطريقة جهنمية عقاباً لهم ، وذلك تنفيذاً لأحكامها هي ذاتها على المراطقة . ومنذ أنشئت محكمة التفتيش فى القرن الثالث عشر ، ذهبت الكنيسة إلى حد أنها هي نفسها ابتدعت وسائل آلية بارعة لتعذيب المتهمين بالمراطقة لحملهم على الاعتراف .

وعند حلول القرن الثالث عشر كان ما تزخر به المدن الرئيسية فى العصور الوسطى من ثروة وترف وسلطة دنيوية قد قوض دعائم المبادئ الأساسية التى قامت عليها المسيحية ، ونعنى بها الفقر والعفة ، وعدم المقاومة ، والتواضع ، والطاعة لأمر سماوى يعلو على كل اعتبارات السلامة البدنية أو المتعة المادية . والكنيسة ذاتها بوصفها أوفر المنظمات ثروة فى العالم المسيحى ، كانت المسرح ذاته الذى وقع فيه هذا الانقلاب الوضع . فهما يبلغ عدد أفراد القديسين الذين كان فى وسعها أن تستمر إنجابهم ، فإنه لم يكن من شأن المثل الدنيوى الذى ضربته أن يطهر أولئك الذين يسعون فى ساحة السوق وراء زيادة ثروتهم باطراد ، أو يسعون فى ساحة القتال وراء القوة ، أو يسعون فى مدينة تم فتحها وراء الأسلاب والغنائم . ولعل هذا يفسر السبب فى أن المسيحية لم تنشئ مدينة مسيحية (كريستيانوبوليس) .

وفى القرن الثالث عشر بلغت الذروة كل من العمارة القوطية وحضارة العصور الوسطى ، وفى القرن التالى أصبح من الواضح أن القوى التى كان فى وسعها إصلاح حال مدينة العصور الوسطى وردها إلى نهج الحياة المسيحية — أصبح من الواضح أن هذه القوى سوف تلقى أعنف ضروب المقاومة بادئ ذى بدء ، ليس فى ساحة السوق بل فى داخل الكنيسة نفسها .

ويعتبر فرنسيس^(١) رمزا مجيدا للمجهود الذى بذل لاستعادة الروح المسيحية الأصيلة - وكذلك لفشل ذلك المجهود فشلا ذريعا .

ومع أن فرنسيس نفسه كان ابن تاجر ، إلا أنه هو الذى سعى إلى إحلال الخدمة المسيحية الاختيارية ، وتبادل المنح فى حرية مطلقة ، مكان ما ألفه الناس من أساليب البيع واستخدام الأجراء . وكان فرنسيس يرى أن أولئك الذين يودون محاكاة المسيحيين الأوائل فى معيشتهم ، يجدر بهم ألا يعيشوا ثانية فى عزلة على غرار الرهبان الأوائل ، بل أن يختلطوا بالناس ويضربوا مثلا مشرقا للمحبة المسيحية ، ويعطوا بأعمالهم كما يعطون بأقوالهم ، وأن يعملوا من أجل الآخرين ويعيشوا فقراء ليس لهم مأوى مستديم ، وألا يفكروا فى شأن الغد . فقد كان هدفه أن تصبح المحبة سدى ولحمة كل أنواع العمل ، وأن تصبح الحياة أنشودة الطريق المفتوح ، بدلا من أن تبقى حيصة داخل المباني والأسوار ، وأن تسد حاجاتها المادية حيثما انفق ، على نحو ما فعل هو حينما أقام ، دون إغداد سابق ، ذلك الاجتماع العظيم للإخوة والأخوات المسيحيين والمسيحيات فى بورتونكولا (Portiuncula) حيث نجح التطوع بتقديم الأغذية نجاحا أذهل منافسه دومينيك .

وكان فرنسيس يعلم بأن هذه الطائفة الجديدة من الإخوة والأخوات ينبغي ألا يكون لها مبنى خاص بها ، ولا ممتلكات دائمة تربط الروح بالتملك فى ذاته ، فكانت هذه محاولة أخرى ، وفقا لمبادئ لاو - تسي والسيد المسيح ، لتحطيم جدران الذات التى تحركها شهوة السلطة وتلتحف بكساء الثروة ، وكذلك لهدم المدينة ذات الأسوار فى النهاية بوصفها أعظم مظهر جماعى يعبر عن تلك الذات . ومجمل القول أن هذه المحاولة

(١) اسمه الحقيقى جونانى دى برناردوني (١١٨٢ - ١٢٢٦) وعرف باسم فرنسيسكو (أى الفرنسى) بسبب أسفار أبيه فى فرنسا ، وهو مؤسس طائفة الفرنسيسكان .

كانت تنشد الفكاك من الوعاء المغلق ، أو عبارة أخرى التحرر من المادية
تحرراً صحيحاً كاملاً ،

ولقد أخذت البابوية هذه المهرطقة بنفس الشدة التي قعّت بها حركة
بيتر والدو (Peter Waldo) (حوالي سنة ١١٧٠) ، ذلك التاجر الورع الذي
أنشأ من أجل غرض مماثل أولى الطوائف البروتستنتية العظيمة ، وبدءاً
لم يكن يخلو من دهاء رجال السياسة ، أضر البابا على جعل طائفة الفرنسيسكان
أداة في يد السلطة البابوية ، وقد ضمن خضوعها ، وفي الواقع هدمها
داخلياً ، بالعمل على تشجيع استخدام أموال طائلة في إقامة مبان لائقة
للدبر في المكان ذاته الذي ظهرت فيه الطائفة الجديدة إلى عالم الوجود ،
وذلك أنه ما من وسيلة أسرع في القضاء على فكرة ما من التعجيل ، قبل
الأوان ، بإبرازها في صورة مادية ، وإن روعة لوحات جوتو (Giotto) ،
التي تزدان بها الكنيسة العظمى في أسيسى ، لتخفي وراءها الغدر للذي
حاق بفرنسيس ، وهو الذي كان خليقاً بالأنايس إلا بوجوده في الكنيسة
الصغرى . وبعد ذلك بفترة وجيزة أصدر البابا يوحنا الثاني والعشرون
مرسوماً اعتبر من قبيل المهرطقة التي تستوجب اللعنة ذلك الاعتقاد في
الاشتراكية المسيحية الذي بعث من جديد استناداً إلى أن الحوار بين الأوائل
كانوا يمارسون نوعاً من المشاركة في الممتلكات ووسائل الحياة ، على
نحو ما ورد في إنجيل العهد الجديد .

بيد أن الرغبة في إنشاء مدينة مسيحية ظلت زمناً طويلاً تراود العقول
في العصور الوسطى ، من عهد والدو ولايجلاند ، إلى عهد جون بنيان
(John Bunyan) ويوهان أندرياي . ويجب أن نتذكر أن اللجنة نفسها
كانت صورة حضرية من صنع العقل البشري ، أي مدينة تلتقي فيها
الأرواح الخالدة بعضها مع بعض ، وتشاهد إلى الأبد جلال الخالق الذي
يعز على الوصف . وعلى الرغم من أمارات الإمتعاض البابوي ، فإن الحنين

إلى مدينة مسيحية ظل يبدو على استحياء بين طوائف العلمانيين الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الدين ؛ مثل طائفة البيجين (Beguines)^(١). وقد رُسخت أقدم هذه الطوائف في الأقاليم الواطئة بوجه خاص ، وكثيراً ما احتدم هذا الحنين بين طائفة الأنابابتيست (Anabaptists)^(٢) في مدينة مينستر (Münster) وسواها إلى درجة القيام بمحاولة ثورية . ولكن الكنيسة ذاتها ، أى القوة الوحيدة التى كان فى وسعها أن تجعل من المدينة المسيحية (كريستيانوبوليس) أكثر من مجرد حلم طوباوى ، كانت مصممة على مناهضتها .

وإذا كانت مدينة العصور الوسطى قد اتخذت حقاً فى البداية شكلاً أملتته الاحتياجات والمصالح المسيحية ، فإن انتفاض التعاليم المسيحية عليها لم يؤد إطلاقاً إلى تغييرها تغييراً شاملاً ، لأن السلطات والإمارات القديمة كانت أعز منالاً وأشد منعة فى تحصنها خلف أسوارها ، فالآلهة الحسود التى أشرفت على مولد المدينة فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر ، كانت أشد إلحاحاً وأقوى إغراء من المادى الجديد الذى وفد من فلسطين وعمد — مثل بوذا — إلى الازورار عن كل ما يرمز إلى الدوام المادى ، وعن جميع المظاهر الشكلية التى تنطوى على التباعد . فبقيت فى صميم قلب مدينة العصور الوسطى أنظمة طقوس المعبد القديم بأسلوبها المتكرر ، ووسائل القلعة القديمة للإخضاع والتهر بالقوة والعنف ، وألوان الحواجز والعزلة العدائية التى أكسبت الانحرافات السحرية القديمة وضعاً مستديماً . وعلى الرغم من التعرض مرات متتالية للغزو الخارجى على أيدي الهون والعرب والمغول والأتراك ، فإن أفدح الأضرار التى نزلت بمدن العصور الوسطى كانت تلك التى ارتكبها مجتمع مسيحي ضد آخر ، فى جولة لا نهاية لها

(١) طائفة أسسها فى القرن الثالث عشر تيسين بلجيكي يدعى اوبيج (Le Bègue) .

(٢) أتباع مذهب بروتستنتى ظهر فى القرن السادس عشر ، وكانوا يرون أن تعمد الطفل لا يكتفى ، ولذا يجب تجديد التعميد عند الانضمام إليهم .

من الحروب الوحشية الحالية من كل رحمة بين المدن . ولم يرتفع صوت الكنيسة مرة للتذيد بهذه الفضائح والمخازى . وكيف كان يتسنى أن يكون الأمر غير ذلك ؟ إن أعمال روما ذاتها كانت خليقة بأن تجعلها تغص بكلمات زجرها .

ولقد كان لدى الفهم المسيحي تعليل لفشل مدينة العصور الوسطى على هذا النحو ، وهو يتمثل في عقيدة الخطيئة الأولى ، وفحواها وجود عيب جوهرى في تكوين الإنسان نتيجة لعصيان آدم ، مما أدى إلى تحويل خطيئته الأصلية إلى علة جوهرية وراثية ، هي الميل المنحرف إلى تجاهل المقاصد الإلهية بإقدام الفرد على تقديم ما توحى به طبيعته الأنانية على ما عداه . ويبلغ من نأصل هذا الميل أنه - طبقاً للفقهاء المسيحيين - في أثناء العمل على كبح هذا الميل ، قد يرتكب المرء ما هو ساع لتفاديه ، ولذلك فإن طريق الخلاص الوحيد هو الاعتراف بالانشغال المزمن ، والأمل في التوبة والغفران .

والواقع هو أن الخطيئة غدت المصدر الرئيسى لدخول الكنيسة الديوى ، ولم يكن ثمة سبيل غير توسيع نطاق هذا المجال ، والتهويل من شأن هذه الخطايا لكى يتسنى للكنيسة أن تستدر ما يكفيها من الأرباح عن طريق احتكارها وسائل الخلاص ، وعلى هذا فإنه عندما توافرت مظاهر المدنية من جديد منذ القرن العاشر ، أعادت مساوئ المدينة بنسبة معادلة ذات الهيئة التى كان يجب أن توجه همها إلى الإنقاص من تلك المساوئ . وفى القرن السادس عشر نرى مكيا فيلى يلاحظ فى مؤلفه « أحاديث » (Discourses) - دون أن يجانب الحق - أنه « كلما كان الناس أقرب إلى كنيسة روما ، التى تحتل مكان الصدارة فى ديانتنا ، كانوا أكثر بعداً عن الدين » : وعندما وجه مجمع ترنت (Council of Trent) عنايته

نحو هذه الحالة ، كان الألوان قد فات لوقف تصدع المجتمع الحضري في العصور الوسطى .

فهما يكن من شأن مدينة العصور الوسطى إذن فإنها ظلت مجرد صورة ياهنة للمدينة المسيحية (كريستيانوبوليس) . ولقد كانت معالمها قوية إلى حد بعث الأمل في قيام نظام حضري جديد على أساس من المبادئ الدينية والاجتماعية لأوسع الأديان القويمة انتشاراً . بيد أنه في أثناء نمو المدينة ذاتها ، جنحت العناصر الروحية نحو التلاشي ، وهكذا نعود إلى مواجهة التناقض ذاته الذي سبق أن تناولناه بالبحث في حالة نمو المدينة الإغريقية ، من حيث اتخاذ صورة مادية ذات جانب واحد لا يتغير .

٢ — البندقية والمدينة الطوباوية

وفي نهاية العصور الوسطى كانت مدينة واحدة في أوروبا تبرز كل ما عداها بسبب ما أوتيت من جمال و ثراء ، فإن سينتا الحمراء ، وجنوة ذات اللونين الأسود والأبيض ، وباريس القائمة ، وفلورنسا المتعددة الألوان ، قد تدعى جميعاً أنها نماذج أصلية لمدن العصور الوسطى . ومن المحقق أن فلورنسا فاقت جميع مدن أوروبا من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر بسبب ما في فنها من روعة جليلة ، وما في حياتها الفكرية من حيوية دافقة . بيد أن البندقية الذهبية لما علينا حق خاص يستدعى منا العناية والاهتمام ، فما من مدينة أخرى تريتنا — على نحو أكثر إيضاحاً — العناصر المثالية لتكوين المدن في العصور الوسطى . وفضلاً عن ذلك فإنه ما من مدينة واحدة أقامت دليلاً يفضل ما قدمته في تطورها الداخلي من الدلالة على نشوء مجموعة حضرية جديدة تبشر بتجاوز أوضاع الوعاء المطوق بالأسوار ؛ تلك الأوضاع التي ظلت باقية منذ آخر العصر الحجري الحديث .

ولم يحدث إطلاقاً أن كانت أبحاث البندقية الجمالية نهياً للنسيان أو الاستخفاف إلا - فيما يحتمل - من جانب سكانها عندما حلت بهم الفاقة في تلك الفترة المحزنة التي تقوضت فيها دعائم بنية البندقية الاقتصادية ، وأخذ البنيان بأسره في الانهيار . بيد أن المثال الجديد الذي جاءت به البندقية في مجال تخطيط المدن لم تعه المدن الأخرى ، ومن باب أولى لم تقدم على الاقتداء به . وإذا كان الناس يدركون أن تخطيط البندقية فذ في بابه ، فإنهم كانوا يعتبرونه مجرد حدث من أحداث الطبيعة ، وليس سلسلة من المحاولات الجريئة للتلاؤم مع البيئة ، ومع أن هذه المحاولات كانت تقوم على أساس من الظواهر الطبيعية الفريدة ، إلا أنه كان يمكن تطبيقها في كل مكان . ومن أجل هذا فإنني أعزم القيام هنا بدراسة تخطيط البندقية ، لأن البندقية ذهبت أبعد مما ذهبت إليه المدن الأخرى - حتى في عصرنا الحاضر - في التنظيم على أساس الخطط ووحدات الحوار ، وهو الذي تعتبر العودة إليه اليوم - بوصفه عنصراً جوهرياً في التخطيط - خطوة من الخطوات الأساسية في سبيل إعادة إنشاء وضع حضري جديد :

وقد أنشأ البندقية - في القرن الخامس للميلاد - جماعة من اللاجئين من بادوا ، فروا عبر الخلجان الضحلة لشرا الغزاة ؛ فكانت مياه البحر الادرياتي القليلة الغور تقوم مقام السور الحجري في الوقاية ، كما أن المستنقعات والجزر - التي لم يوجد اتصال بينها إلا عن طريق الماء - أوحى بفكرة تطهير القنوات وتعميقها لردم الأراضي المجاورة ، ولإيجاد طرق للنقل . وكان قارب « الجنديول » (الذي ورد ذكره منذ سنة ١٠٩٤) ابتكاراً يتلاءم كل الملاءمة مع هذه الطرق المائية الضيقة الضحلة . وعلى الرغم من أن البندقية اضطرت إلى التقنن في إقامة صهاريج لجمع مياه المطر ، استكمالاً لحاجتها إلى الماء الذي كان يوثق به من البر عن طريق السفن ، فإنها وجدت حلاً لمشكلة المحافظة على الصحة العامة - وهي مشكلة مقلقة على الدوام -

على وجه أيسر مما تسنى لمنافساتها على البر (mainland) ، وذلك بأنه كان في وسعها تصريف مواد المجارى في البحر مباشرة حيث يبدو أن في استطاعة مفعول الملح وضوء الشمس - إلى جانب حركات المد - أن تجعل تجمع كميات معقولة من البكتيريا عديدة الأثر .

ويقع ميدان سان ماركو في قلب البندقية ؛ وهو عبارة عن ساحة فضاء أمام كنيسها البيزنطية ، وكان أصلاً بساطين فاكهة سان مارك ، وفي سنة ٩٧٦ شيد 'نزل' لحجاج الأراضى المقدسة بالقرب من المكان الذى أقيم فيه برج الأجراس لأول مرة في القرن الثانى عشر ، وكان ذلك منشأ حتى الفنادق الذى ظهر فيما بعد . ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثانى عشر أخذ يتكون في هذا الموقع ميدان يمتلئ بمنصات الباعة ؛ إذ أنه في سنة ١١٧٢ تم توسيع الموقع ، والمباني التى تقوم اليوم حول الميدان تسجل تطويراً متواصلاً بدأ بإعادة بناء كنيسة سان مارك نفسها في سنة ١١٧٦ ، وتشيد برج الأجراس القديم في سنة ١١٨٠ ، والشروع في إقامة قصر الدوق Ducal Palace في سنة ١٣٠٠ ، والدار القديمة للقضاء في سنة ١٥٢٠ . ولقد تلا ذلك تشييد المبنى الذى يسد أحد جوانب الميدان الصغير ، وهو مبنى المكتبة الذى وضع تصميمه سانسوفينو Sansovino في سنة ١٥٣٦ ، وأقيم في مكان المخازن القديمة . ولكن لنلاحظ أن آخر إضافة إلى الميدان الحالى - وهى التى جعلت منه وحدة جمالية كاملة باستكمال الطرف المواجه للكاتدرائية - لم تتم إلا في سنة ١٨٠٥ .

وجملة القول أن كلا من شكل الميدان ومحتوياته قد نشأ عن تجمع أغراض حضرية وتناولها التعديل الذى قضت به الظروف والمهمة المنشودة ومرور الزمن ، ومن ثم فإنها نتائج عضوية ليس في وسع أى عبقرية بشرية أن تحققها في بضعة شهور فوق لوحة رسم . وتدرجياً أخذت المهام السياسية والاجتماعية المنشودة من الميدان تحتل مكان الصادرة بدلاً من المهام الأصلية ،

سواء أكانت ريفية أم سوقية ، وشيئاً فشيئاً انتقلت هذه المهام الأخيرة إلى أحياء أخرى من المدينة دون أن تخلف وراءها غير المطاعم والمقاهي والحوانيت والفنادق على مقربة من موقع الزل الأول للحجاج .

وموجز القول أن تخطيط البندقية لم يكن تخطيطاً جامداً لا يسمح بتغيير بحيث يشتمل على حاجات جيل واحد ويحول بطريقة تعسفية دون احتمالات النمو والتوسع وإعادة النظر في مقتضيات التلاؤم والتغيير ، فعلى الأصح ، هذا مثال للاستمرار المستمد من التغيير ، وللوحدة المنبثقة من نظام معقد . ومما له دلالة أن في مدينة تحكمها طبقة أرستقراطية ذات قبضة من حديد لا تعرف الرحمة في سبيل تركيز السلطة والمسئولية في يدها ، كان أعضاء المجلس المؤلف من ٤٨٠ عضواً لا يقيمون في حي واحد ، وذلك لأنهم كانوا ملزمين بالإقامة في الأبرشيات التي كانوا يمثلونها . وتأييداً لهذا فإن المشرفين على دار الصناعة البحرية كانوا يقيمون في ذلك الحي من المدينة المتخصص في تلك الصناعة ، وقد حال هذا دون تجاوز الحد في تجمع مساكن الطبقة العليا ، وهو ما يؤدي في كثير من الأحيان إلى التسامح في شأن سوء النظام العمراني في الأحياء المنطرفة في المدينة . وإذا كانت القصور العظيمة تشغل المواقع المطلقة الهواء على القناة الكبرى ، فإنها على اتصال أيضاً بالحي الواقع خلفها .

وإن ما يحدث كثيراً هو أن السائح العابر لا يدرك دائماً أن نموذج ميدان سان مارك يتكرر وجوده على نطاق أضيق في كل أبرشية من أبرشيات البندقية ؛ فكل منها لها ميدانها (أو كامبو campo) ، وكثيراً ما يكون شكله غريباً غير منتظم ، ومع ذلك فإن له نافورته ، وكنيسته ، ومدرسته ، وفي أحيان كثيرة داره الخاصة بتقابته ، وذلك لأن المدينة كانت أصلاً مقسمة إلى ست وحدات جوار ، كانت كل منها تضم نقابة من النقابات الست في المدينة : وكانت القنوات - ويبلغ عددها الكلي الآن نحو ١٧٧ قناة - تؤدي غرضين : أحدهما بيان الحدود بين هذه الوحدات ،

والآخر توفير حلقات الاتصال بينها ، أى إنها أشرطة مائية ، وفى الوقت ذاته طرق كبرى للمواصلات تؤدى وظيفتها على منوال ما فى مدينة حديثة خططت بعناية من طرق وأشرطة خضراء (شوارع عريضة بها مزارعات) ، ولو أنها لا تصل إلى ما يوجد كثيراً من حالات عدم المبالاة بمساحة أرض المدينة ، كما هو شأن الطرق الرئيسية الأمريكية ، أو الأشرطة الخضراء فى أحياء « المدن الإنجليزية الحديثة » . وحول المدينة تقوم الحلجان العظيمة فى آن واحد بمهمة حديقة ، وباعث على التنزه على صفحة الماء ، حيث يحل منظر المدينة والماء محل المنظر الخلوى على الأرض . وما من مدينة أخرى منذ القرن الخامس عشر إلى اليوم أغرت عددا من المصورين أكثر من أغرتهم البندقية على تصوير مناظرها .

وكثير من هذه الصفات التى تتصف بها البندقية يمكن أن نجد لها مثيلا فى مدن أخرى من العصور الوسطى ، بيد أن ما لم يتحقق إطلاقا فى أى مدينة أخرى يمثل هذا الجلاء والوضوح كان نظام التقسيم إلى مناطق وظيفية ، وقد كانت إقامة هذا النظام هنا أيسر منه فى المدن الأخرى بسبب ترتيب وضع الجزر الكبرى والصغرى حول المدينة المركزية ، فإن البندقية حولت هذه العقبة الظاهرية إلى فرصة مواتية :

ولقد خصصت لكل جزيرة من جزر البندقية الوظيفة الملائمة لها ، تبعا لموقعها وحجمها ، ولم تكن أقلها شأنًا تلك التى خصصت لدير سان جورجو على مقربة من ميدان سان مارك . وكانت أول خطة (precinct) تخصص لأداء وظيفة معينة هى خطة تورشيللو (Torcello) التى خصصت لدفن الموتى ، وكانت هذه الخطة عبارة عن كنيسة وجبانة فى جزيرة صغيرة على بعد سبعة أميال ، وكانت الخطة التالية جيا صناعيا ، وهو حى دار الصناعة البحرية . وقد أنشئ هذا الحى فى سنة ١١٠٤ ، وتم توسيعه مرة فى سنة ١٤٧٣ ، ومرة أخرى فى القرن السادس عشر ، وهو عبارة عن

جوض لبناء السفن وإصلاحها ، ومركز لتكوين السفن ، ومصنع للذخائر .
وفي القرن الخامس عشر كان ١٦ر٠٠٠ صانع يعملون في هذا الحى الذى .
كان يؤوى أيضا ٣٦ر٠٠٠ من البحارة . وكانت توجد في البندقية صناعة .
أخرى رئيسية وهى صناعة الزجاج ، وقد أنشئت بموجب قرار من المجلس .
الأعظم في سنة ١٢٥٥ على جزيرة مورانو المنعزلة .

ولقد كانت هذه المرة الأولى التى أقيمت فيها مناطق صناعية على .
نطاق واسع بمعزل عن الوظائف المتباينة التى كانت تختلط بعضها مع بعض .
في مدينة العصور الوسطى . ولو أنه كانت هناك عيون ترى وعقول .
تقدر ، لاتخذت البندقية نموذجا لتطور الصناعات الثقيلة في المراكز
الحضرية التى كانت آخذة في النمو بعد القرن السادس عشر ، وتبعا لازدياد .
وسائل النقل السريع ، فإن تخطيط مدينة البندقية - الذى يتسم بالانفراج .
مع بقائه متجمعا حول نواة مركزية - لو أن محاكاته انتشرت ، لتغلب .
على الميل إلى تدبير التوسع عن طريق تكتيل المباني ، والإفراط في الازدحام ، .
والامتداد كيفما اتفق ، على النحو الذى تتبعه مدن أخرى آخذة في التوسع .

وبعبارة أخرى فإن أهل البندقية باستغلالهم الفرصة المهيأة أمامهم إلى .
أقصى حد استطاع ، ابتدعوا - عفواً ولا شك - طرازاً جديداً من المدن .
يقوم على أساس التفرقة بين مختلف الوظائف الحضرية وتحديد مناطق خاصة .
لكل منها ، تفصل بينها طرق المواصلات والساحات الفضاء . وقد كان .
هذا تحديداً للمناطق في أحسن صورة ، وطبق على وجه معقول روعيت .
فيه المحافظة على وحدة الحوار متكاملة ، والاقتصاد إلى أبعد حد في مسافة .
الانتقال إلى العمل وما تسببه من ضياع الوقت . ولقد بلغ من تغلغل هذا .
النظام البندقية ، أن العمل به قد ظل جارياً في القرن التاسع عشر عند ما .
غدت جزيرة ليدو مرتعاً للهو على شاطئ البحر ، أى منطقة للترفيه .

ولم تؤد وحدات الحوار والمناطق الصناعية في البندقية إلى القضاء على .

موحدة المدينة ، بل إنه كان من شأنها صون الحى المركزى فى المدينة من «الازدحام بلا موجب . بيد أنه فى أيام الأعياد العامة - مثل المهرجان المائى الرائع للاحتفال باقتران المدينة بالبحر الأدرياتي - كان أهل المدينة يأسرها يتجمعون فى ميدان سان ماركو والميدان الصغير « والأرصفة » المجاورة ، على حين أن قصر الدوق ذاته - ولعله أجمل مثال فى العالم لعمارة دور البلديات - كان يؤلف الخلفية الرئيسية لهذه الطقوس الجماعية .

وكان النظام السياسى للبندقية يقوم على العنف والعمل فى الخفاء ، وكان من شأن ذلك أن يؤدى فى النهاية إلى الانحلال الخلقى ؛ فقد كان استخدام العيون الخاصة والقتل سرا الوسيلة المألوفة التى عمد إليها حكام البندقية لبسط سلطتهم . ولا بد من أنه كان من شأن هذا النظام أن يعوق كل ضرب من ضروب العمل النزيه ، والرأى الصريح ، والتعاون القائم على الثقة ، وأن يؤدى كذلك إلى الزرابة بالقائمين بالأمر ، بحكم ما يدور فى خلدهم هم أنفسهم من تخيلات وأوهام عليلة ، شأنهم فى ذلك شأن أولى الأمر فى أى نظام استبدادى اليوم . ولقد رأينا - حتى فى أمريكا تحت ظل حكومتنا الديمقراطية قانونا - أن أى جماعة تعمل فى الخفاء ، سواء أكانت لجنة للطاقة الذرية ، أم مجلساً للأمن القومى ، أم إدارة مركزية للمخابرات ، إنما تفقد صلتها بالواقع بحكم ذات القواعد التى تعمل بموجبها ، فإن ما يبدأ على هيئة إخماد معارضة محرجة لينتهى إلى إزهاق الحق واستبعاد أى بديل عن السياسة المقررة مهما تكن أخطاؤها واضحة للعيان ، ومهما تكن مشروعا يتسم بالخبيل ، ومهما تكن التزاماتها تجر إلى الهلاك .

والواقع أن البندقية كانت من الناحية السياسية أقل نجاحاً مما كان يظن منشئوها ، على الرغم من رخائها واستمرار بقائها . بيد أن أهل المدينة زودوا بما هباً لهم قدرا من التوازن فى حياتهم ، وذلك لأن الطائفة الحاكمة دفعت ثمن نظامها ، على نحو ما تفعل الدول المطلقة النصرف اليوم ، بتوفير اللطمأينة للمواطنين عوضاً عن حريتهم المساوية . وهكذا قامت خلال قرون

عدة بتدبير الوسائل لتشغيل العمال في الصناعة على وجه متواصل ، وتهيئة خدمات اجتماعية من أنواع مختلفة ، وإقامة أعياد ومهرجانات عامة تخلب الألباب ، ومن ثم فإنه على النحو المألوف في مثل هذه الحالة ، لم يكن العمال بل المتنافسون من أفراد الطبقات الحاكمة هم الذين كانوا عادة ممكن الخطر لوقوع خيانة أو قيام ثورة .

بيد أن النظام المادى الذى أنشأته مدينة البندقية كان أفضل حتى مما كان يعتقده منشئوها ، ذلك أنهم في الواقع — دون أى إدراك واضح لما حققوه — أوجدوا طرازاً جديداً من الوعاء الحضري يتسم بتحرره من ربقة السور . وحتى بقاياها المتهمة المفترطة في الازدحام تشير إلى نظام حضري يختلف اختلافاً جوهرياً عن شكل وطراز العصر الحجري العتيق اللذين ما زالا باقين في المدن الأخرى . وإن ما تسنى للبندقية أن تحققه في مدينة لم يتجاوز عدد سكانها إطلاقاً مائتي ألف نسمة في أزهى أيامها ، قد تستطيع بلدية حديثة أن تقوم به من أجل مجتمع يبلغ عشرة أضعاف ذلك العدد ، بفضل ما لدينا من الوسائل السريعة للمواصلات والانتقال . ومن الغريب أن الأمر كان في حاجة إلى ابتكار تخطيط رادبرن (Radburn)^(١) في سنة ١٩٢٨ قبل أن تتفتح عينا أحد المشتغلين من حين إلى آخر بتخطيط المدن إلى القدر الكافي لاستيعاب الابتكارات التي كانت البندقية قد استوفتها على أكمل وجه قبل ذلك بخمسة قرون . غير أن ما يسترعى النظر من التشابه بين البندقية ورادبرن من حيث فصل السائرين على الأقدام عن وسائل النقل والانتقال الأخرى — ويلاحظ أن ذلك تم في البندقية زمناً طويلاً قبل أن يتقدم ليوناردو دافنشى بنفس المشروع لمعالجة ازدحام حركة النقل في ميلان — ليس إلا جزءاً يسيراً مما أسهمت به البندقية في فن تخطيط المدن .

وقد نشأت البندقية من أحداث قاسية كانت هي الهجرة الاضطرابية

(١) إحدى ضواحي فيرلون (Fair Lawn) في ولاية نيوجرسي بأمريكا .

والحرب والمنازعات والقرصنة والتجارة ، وعلى الرغم من أنها - على مر الزمن - اكتسبت الولاء لها والتعلق بها ، بفضل ما توافر لها من بهاء ونظام ، فإنها لم تزعم أنها كانت مدينة مثالية ، فهي لم تكن إلا أفضل ما تسنى أن يصل إليه تفكير طائفة متعاقبة من التجار ورجال الصناعة ذوى الهمة والنشاط الذين كانوا يسعون وراء المال والسلطة وألوان الترف التى يمكن الحصول عليها عن طريق المال والنفوذ . ولنتقارن إذن بينها وبين مدينة كان مبتدعها يريد فى الواقع أن يجعل منها نموذجاً مثالياً ، ونعنى بها أموروت (Amaurote) عاصمة الدولة الطوبابوية التى ابتكرها خيال سير توماس مور فى كتابه الذى نشر فى سنة ١٥١٦ ؛ أى فى الوقت الذى أخذ فيه نجم البندقية فى الأفول .

وأموروت الواقعة فى وسط جزيرة يوتوبيا هى واحدة من ٥٤ مدينة أو بلدة ريفية لا يقل بُعد إحداها عن الأخرى عن ٢٤ ميلاً ، ولو أنه « ما من واحدة منها معزولة إلى حد أنه يتعذر عليك أن تذهب من مدينة إلى أخرى سيراً على الأقدام فى يوم واحد » . وعاصمة الجزيرة - أى أموروت ذاتها - رقعتها مربعة الشكل ، وتقع مثل لندن على نهر تدخله أمواج المد فتحمل إليها السفن من البحر ، ويبلغ اتساع الشوارع عشرين قدماً . « وقد خططت تخطيطاً جيداً يبنى بأغراض حركة النقل ويكفل تجنب هبوب الرياح » ، ولكل منزل بابان ، أحدهما على الشارع والآخر على الحديقة . والواقع أن شدة تحمس الأهالى للعناية بالحدائق « لا يزيد منها مجرد المتعة التى يلقونها ، بل التنافس الحاد بين الشوارع لتتوافر لديها أفضل الحدائق المعنى بها » . ومما يدعم هذا الإطار الخارجى الأخضر وهذا الاتساع الداخلى ، أن القانون يحتم على كل ساكن أن يعيش فى الريف لمدة سنتين ، وعلى هذا النحو يوفر « موز » أسباب الاطمئنان لبقاء مدينته ذات الحدائق ، بتنشئة مواطنين ملمين بشئون الحدائق .

« وكل مدينة في يوتوبيا مقسمة إلى أربعة أحياء ، وفي وسط كل حي توجد ساحة للسوق تقوم حولها الجوانيت والمخازن ، بيد أن النظام الداخلي الأعمق من ذلك ، نظام وحدة الحوار ، يقوم على أساس الأسرة ، فكل ثلاثين أسرة تختار حاكماً ، وهيئة الحكام بأسرها تختار العمدة ، وترسل كل المدن نواباً يمثلونها في المجلس التشريعي للدولة الطوباوية ؛ فالأساس الذي يقوم عليه كل هذا النظام للحكم النيابي هو وحدة الحوار الموثقة من ثلاثين أسرة ، والتي كان أفرادها يتناولون طعام العشاء معاً بانتظام في إحدى قاعات الأكل التسيحة التي تملأ الشارع . وهناك يأخذ كبير الحكام وزوجته مكانهما على المائدة الرئيسة ويتصدران الاجتماع .

ولعل هذه الفكرة التي ابتدعها مور لم يُمنح أثرها كلية ؛ فقد كانت نموذجاً لما ابتدعته مجتمعات طائفة أمانا (Amana)^(١) في ولاية أيوا (Iowa) من قاعات مشتركة للطعام تستخدم اليوم مطاعم عامة ، وإلى جانب ما قام به « مور » من تجميع أفراد الأسر أوجد داراً مشتركة للحضانة ، فحتى في الوقت الذي كان وجود الخدم فيه أمراً مألوفاً ؛ فإن « مور » لم يجهل مزايا الإعفاء أحياناً من هم العناية بشئون الأسرة ، وعلى هذا فإن الشكل الأولي للنظام لم يكن النقابة ، بل الأسرة ووحدة الحوار ، أو على وجه أصح ما دعاه مهندس التخطيط الفرنسي جاستون بارديه (Gaston Bardet) « النظام الأبوي » (patriarchal echelon) . ولقد أعاد « مور » إلى منظمات مجتمعاته المشاركة والسخاء اللذين كانا مألوفين في المجتمعات البسيطة قبل ظهور نظام اقتصادي يقوم على العملة .

ولعل أعظم ما ابتدعه « مور » هو أنه جعل الأنظمة تساند حب سكان المدن في العصور الوسطى لحياة الريف والألعاب الرياضية ؛ إذ أنه

(١) كانت هذه الطائفة تتألف من أهل سبع قرى تقع حول نهر ايوا في وسط تلك الولاية .

استوجب بحكم القانون أن تكون الزراعة العمل الوحيد المشترك لكل الناس. رجالاً ونساء ، وكلهم يتعلمونها منذ سن مبكرة ، فيتلقون جانباً منها عن طريق الدراسة النظامية في المدرسة ، وجانباً آخر عن طريق الخروج بهم إلى الأرض المجاورة للمدينة كما أو كان ذلك للترفيه عنهم . وهناك لا يقتصر الأمر على مجرد مشاهدة النشاط الريفي ، بل يقومون فعلاً بالعمل عندما تسنح الفرصة .

ولما كانت المشاركة في العمل واجبة ، فإن أهل الدولة الطوبارية لا يعملون إلا ست ساعات في اليوم ، وهذا يهيء لهم في آن واحد وفرة في الإنتاج وفيضاً من الفراغ ، يكرسونه بوجه خاص لتحصيل العلم عن طريق الدراسة الخاصة والمحاضرات العامة . ولا يوجد في دولة « مور » الطوبارية مكان للأثرياء العاطلين ، ولا الأتباع المتبعجين ، ولا المتسولين الجشعين ، لا ولا « للطائفة العظيمة العاطلة من القسوس ومن يقال عنهم أهل الدين » ، فإن « مور » — وقد كان هو نفسه رجلاً تقياً على استعداد للملاقاة الموت حرقاً في سبيل شرفه وكنيسته — كان يعلم جيداً زيف الكثير من مظاهر الولاء الديني في مدينة أواخر العصور الوسطى .

وقد يبدو من بعض النواحي أن مدينة « مور » الخيالية ليست مجرد مرحلة عظيمة من التقدم تفوق ما بلغته البندقية ، بل إنها إزاء رغبتها في تحقيق المساواة ، وإزاء محاولتها توفير الإنتاج والفراغ في وقت واحد ، وإزاء تحويلها العمل إلى نوع من اللهو وفي الوقت بعينه إلى وسيلة لتغذية الذهن — إنها إزاء هذا كله سبقت المشروعات الاجتماعية التي شرع عصرنا الحاضر في تخطيطها . وفي أموروت يخفف العمل الجماعي والصلوات الودية من صلابة أوضاع الحكم ، وإذا كنا نجد هنا على الأقل صورة باهتة لمعالم الناحية الاجتماعية في مدينة المستقبل ، فإن البندقية — فيما يحتمل — تمثل سلفاً صورة أشد جرأة وأكثر وضوحاً للناحية المادية في مدينة المستقبل.

وما زال أمام المدن العظمى في العالم شروط بعيد لا مناص من قطعه قبل الوصول إلى كلا الهدفين .

يبد أنه بالضبط عند النقطة التي كان يتحتم فيها على « مور » أن يحول إصلاحاته الاجتماعية إلى أوضاع مادية تعثر خياله كما تعثر خيال أفلاطون من قبله ، أو على الأصح تبلرت تصورات « مور » في أوضاع عصره التي كانت آخذة عندئذ في الابتعاد عن نظام العصور الوسطى . ولذلك فإن معايير لم تعد معايير العصور الوسطى التي كانت تتناسب مع السير على الأقدام ؛ فالمدينة مربعة الشكل تقريباً ، ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعها نحو ميلين ، وتوزيع السكان على أساس عشرة إلى ستة عشر من البالغين في الأسرة الواحدة ، على حين أن عددها جميعاً ستة آلاف أسرة ، مما يجعل المجموع الكلي للسكان يزيد كثيراً على مائة ألف نفس ، ولا جدال في أن « مور » يضع الحد عند هذا المستوى ، إذ أنه بعد سد النقص في المدن التي يهبط عدد سكانها عن ذلك الحد ، يتخذ العدة للاستعمار خارج البلاد .

ويقترب بهذا المعيار الجديد للانساع نوع جديد من الاطراد ، أجل ، ونمط جديد من الكلاحة والرثابة ، فإنه يلاحظ « أن من يعرف مدينة واحدة من المدن فإنه سوف يعرفها جميعاً لما بينها من التشابه التام ، إلا حينما تحول طبيعة الأرض دون ذلك . وذلك أنه تسود فيها جميعاً عين اللغة ، وعين آداب السلوك والتقاليد والقوانين ، وعين التشابه في المظهر دون أي تنوع في شكل المدن ، ولا في الملابس ، ولا في الألوان . تلك كانت النغمة الجديدة ، نغمة توحيد المستوى والتنظيم على وتيرة واحدة والتحكم الجماعي ، فما أشبه ذلك بكلاحة المتزمتين ، أو كلاحة « سجون . فهل هذه هي الدواة الطوباوية ، المكان الذي يطيب العيش فيه ؟ » .

فهل أعد « مور » نفسه سلفاً للانسجام مع العهد المقتبل للحكام ؟

المستبدين مع أنه كان على استعداد لأن يتحدى بنفسه أقرب حاكم مستبد ؟ .. ماذا دعاه إلى اعتبار انعدام التنوع والاختيار ضرورة مثالية على أى وجه من الوجوه ؟ هل ساورته الظنون ، ولو بالسابقة ، حول الثمن الذى سوف يتحتم على عصرنا الحاضر أن يدفعه فى النهاية لقاء إنتاجه الآلى ونظامه الاقتصادى القائم على الوفرة ؟ وهل كان بناء على ذلك مستعدا ، باسم العدالة المجردة ، أن يدفع ذلك الثمن ، مهما يكن باهظاً ، على هيئة التضحية بقيمة أخرى لا تقل ضرورة للحياة البشرية ؟ لقد تركنا دون أى هاد نستشف منه الإجابة ..

وسوف يلاحظ القارئ أن دولة « مور » الطوباوية قد عاجلت ، من بعض النواحي ، العيوب ووجوه النقص الأساسية فى مدينة العصور الوسطى ، مثل رجحان كفة أصحاب الثروات الخاصة ، وتجاوز الحد فى التخصص الحرفى والمهني حتى غدا له نظام دقيق تتفاوت فيه الطبقات ، وكثيراً ما كانت تتبادل العداء وينعدم بينها الاتصال . فبزويد أبناء المدن بربحية ريفية وقضاء فترة فى الخدمة الزراعية الإجبارية ، حاول القضاء على ألوان التفاوت وضروب العداء الخفى التى كانت قائمة بين الريف والحضر ، ولذلك أيضاً أعاد ووسع نطاق الحديقة الحضرية بوصفها جزءاً أساسياً فى تخطيط المدينة ، وذلك عندما كانت قد بدأت تنكمش ، بل كانت قد تلاشت فعلاً فى بعض الأماكن .

وإن رغبة « مور » فى الاتساع الداخلى قد تكررت ظهورها عرضاً فى الوحدات الكبيرة التى أعدها وليم بين (W. Penn) فى التخطيط الذى وضعه فى فيلادلفيا سنة ١٦٨٨ ، ولكن عندما حل القرن الثامن عشر كانت الوحدات الأصلية السخية قد أعيد تقسيمها بشق شوارع وأزقة فيها — ولا يزال يذكرنا بذلك زقاق إيلفريث (Elfreth's Alley) وكثير غيره من الأزقة المائلة — بوقد ترتب على ذلك انكماش المساحات المخصصة للمنازل إلى حجم منازل «الدى» وتقلص ساحات الفضاء بالمعدل نفسه إلى حجم المهد أو حجرة

الباخرة . ويبدو فوق كل شيء أن « مور » حاول عامدا أن : « يقتصد أقصى ما يستطيع من الوقت الذي يصرف في خدمة البدن ، وأن يخصصه لتحرير العقل وتنقيته » ، على ألا يكون ذلك مقصوراً على طبقة واحدة ، بل يتناول المجتمع بأكمله . ومع ذلك فإنه — حتى في أحلام هذا الرجل الإنساني التي تبدو كأنها متحررة من القيود — تراه لا يزال مشدود الوثاق إلى الأسوار الغثيقة في القلعة ، فالأرقاء كانوا يقومون بأخط أعمال المجتمع عقاباً لهم على جرائمهم ، والحرب ، ولو أنها كانت كرهية إلى الطوباويين ، ظلت جزءاً أساسياً من أنظمة حياتهم ، والواقع أن الطوباويين كانوا خبراء في الدعاية والتخريب بوصف ذلك من وسائل الحرب ، وكانوا لا يلجأون إلى القتال الفعلي إلا للإجهاز على الخصم ، فمرة أخرى : أهذه هي الدولة الطوباوية ؟

وإذا كانت البندقية أرقى ما أنتجته تجارب العصور الوسطى ، فلعن الدولة الطوباوية كانت أكمل . مثال للتفكير في أواخر العصور الوسطى من حيث تكوين المجتمعات الحضرية وتنظيمها . ولكن من ذا الذي يجب أن يستبدل بالبندقية تلك الوحشة المقبضة التي تبعثها أمورات في النفس بتأثيرها المطرد بتنظيمها على نسق واحد ؟ ومع ذلك فمن ذا الذي يجب أن يستبدل بكياسة نظم الحكم في أمورات ما كان في البندقية من طغيان مستر ، وضروب من المظان والبغضاء كانت تملأ بئر أنها الصدور ، فضلاً عن مذابح الأخلاق وضروب الاعتداء والقتل الإجرامي التي كانت تكمن وراء تجارتها المزدهرة وفنها الباعث على المرح والابتهاج ؟ إن العيب الذي انتقل من حضارة إلى حضارة عن طريق الوعاء الحضري ، كان لا يزال واضحاً للعيان في كلتا المدينتين ، فعندما نعجب بالمظهر الخارجي المتبقى يجب ألا يغيب عن بالنا استمرار بقاء القرع الداخلي — قرع الحضارة ذاتها الذي يتمثل في اقتران السيادة بالعبودية والقوة بالضحايا البشرية .

٣ - مخلفات وطفرة^(١) من العصور الوسطى

إن أفضل الأمثلة التي تنم عن حضارة ما ليست دائماً أكثرها انساماً بصفاتها المميزة ، لأن ما يكون أكبر مثال نمطى يكون أضيق الأمثلة نطاقاً وأشدّها ارتباطاً بالعصر ، فكلّا ديكر (Dekker) وتشابمان (Chapman)^(٢) جزء لا يتجزأ من لندن في أواخر العصور الوسطى ، على حين أن شكسبير - مع أنه شاركهما في تلك البيئة - قد تخطاها في مائة ناحية . وهذا ينطبق كذلك على حضارة المدن ؛ ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر ظهرت إلى الوجود بعض أوضاع حضرية جديدة ، كانت لا تمثل العصور الوسطى الراحلة ولا نظم الاقتصاد التجارى وأساليب الحكم المطلق المقبلة ، ولم تكن هذه الأوضاع الحضرية « انتقالية » وذلك لأنها لم تؤد إلا إلى اتجاهها نحو ما هو أبعد من ذلك من الأهداف المتعلقة بها . بيد أن لها عندنا اليوم دلالة أعظم شأنًا من النماذج السائدة في ذلك العصر ، وهي التي سوف أتناولها بالبحث تحت عنوان شامل هو : « النظام الباروكى » .

وفي الوقت الذى انقطعت فيه تجارة ما وراء البحار عن الكثير من أقدم مراكز التجارة في العصور الوسطى ، فأخذت مياه الحياة تفيض في هذه المراكز كما تفيض مياه النهر وقت الجفاف فلا يتبقى منه إلا المجرى الذى حفرتة المياه المتدفقة في وقت من الأوقات ، وحين كانت الزراعات العسكرية والتجارية تفرض نموذجاً لعمز أكثر انساماً بالآلية ، كانت نواحي الريف تمر بفترة تقدم وانتعاش جوهريين . فإن فيض أنظمة المدينة في العصور الوسطى ارتد أخيراً إلى نواحي الريف فأنتج قرى ومدناً ريفية

(١) المفرد ظاهرة ، وهي عند علماء الأحياء ظهور صفات جديدة في الكائن الحي نتيجة لحوث تغير أساسى في الكروموزوم .

(٢) مؤلفان مسرحيان إنجليزيان عاشا أولاً من سنة ١٥٧٢ إلى ١٦٣٢ ، وثانيهما من سنة ١٥٥٩ إلى سنة ١٦٣٤ وبذلك كانا يعاصران شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) .

أبرزت بيئتها الريفية طابعها الحضري . ولقد تمثل هذا التقدم على خير صورة في قرى وسط وشمال أوروبا ، ابتداء من بافاريا إلى الأقاليم الواطئة ، ومن ثم إلى إنجلترا حيث امتد إلى قرى المقاطعات الغربية .

ولقد نشأ عن ذلك أن ما كان قائماً في العصور الوسطى من مراكز الاستقرار الصغيرة العفنة - وكثيراً ما كانت عبارة عن مجموعة من الأكواخ الضئيلة الحجم التي صنعت من النفايات ، وهي ما زالت تشاهد في كثير من صور القرن السابع عشر المطبوعة - قد تحولت إلى مراكز مجتمعات صغيرة أنيقة الشكل ، محكمة الوضع ، حسنة التنسيق ، مبنية من الحجر أو الآجر ، تزدهر دارها الصغيرة المخصصة لتقاربها أو سوقها بلوحات مصورة بالألوان أو قطع نحت لا تقل كثيراً عما يوجد في المراكز الحضرية الكبرى ، فكل مركز من هذه المراكز صورة مصغرة من مدينة العصور الوسطى ، حيث ترى ثانية حدائق فسيحة خلف صفوف المنازل .

وإن بعضاً من أجمل القرى في إنجلترا - بيرفورد (Burford) وبابري (Bybury) وتشيبينج كامدن (Chipping Camden) - ليرجع تاريخ ظهورها في شكلها النهائي إلى الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ، وهو عهد يجب أن يعتبر بوجه خاص عهد انحلال في داخل المدن الكبرى ذات البلديات . وربما كان انتعاش القرى على هذا النحو يرجع في أساسه إلى سبب اقتصادي ، وهو فرار أهل الحرف تدريجاً مما كان يوجد في المدن ذات البلديات من فرط الحماية وفرط الإشراف ، والتكافؤ المتزايد بين الصانع الريفي ، الذي كانت لديه حديقة تكمل ثمارها أجره ، وبين العامل الحضري ، الذي كان يعيش في مسكن مكتظ ، ويدفع إيجاراً مرتفعاً ، ولا يحظى من النظافة إلا بالقليل من الحماية الفعالة ولا سيما في الصناعات الجديدة . ولا شك في أن ازدياد الكفاية في الإنتاج الزراعي منذ القرن السادس عشر كان له أيضاً نصيب في هذا الانتعاش ، ولا سيما في

الأقاليم الواطئة حيث تسنى للزراعة - وكان يمارسها الرجال والنساء على السواء وتمدها البقر والحيل والخنازير بما يلزمها من السماد الطبيعي - أن ترفع فلاحه البسانين إلى مستوى لعله لم يتيسر بلوغه إلا في الصين .

وكان اختفاء نظام الحقول الثلاثة^(١) وتوحيد القطع الصغيرة المتناثرة في أقسام أكبر مساحة ، يسيران جنباً إلى جنب مع اندماج الإقطاعيين في وحدات قومية كبرى . وقد نشأ عن ذلك أن المنظر الطبيعي لأوروبا بعد العصور الوسطى أصبح أكثر توحداً ، وأحياناً كانت توجد فيه حدود ثابتة من العلامات والأسيجة ، كما هو الشأن في إنجلترا ، وأحياناً أخرى كانت تقوم فيه الأوضاع القديمة المفتوحة ، كما هي الحال في بافاريا وسويسرا وهولندا . والقرية التي كانت ترزح في وقت ما تحت النير الإقطاعي ، انتعشت بفضل ما أدخل فيها من الصناعة اليدوية ، وما توافر لديها من مقادير أكبر من الغذاء ، فتهيات أمامها لأول مرة تقريباً الفرصة لأن تتاجر مع المدينة على قدم المساواة ، ولأن تطلب تبعاً لذلك سلعاً من العالم الخارج عن دائرتها .

ويستطيع المرء أن يستمد من هذه القرى الباقية إلى اليوم خير فكرة عن توزيع الأبنية أصلاً في مدن العصور الوسطى التي أصبحت الآن شديدة الاضطراب في تكوينها بسبب أنقاض ما تعاقب عليها من العهود الحضارية المختلفة . وفي قرى مثل بايبري يعثر المرء حتى على حالات للعرُوف عن نظام إقامة المنازل في صف واحد ، ففي هذه الحالات تؤلف المنازل تجمعات صغيرة سبقت - وفي الحقيقة عاونت على تكوين - أفضل المحاولات

(١) يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور في كتابه « أوروبا العصور الوسطى » ج ٢ ص ٨١ إن أوروبا العصور الوسطى اتبعت هذا النظام لعدم إجهاد الأرض : والحصول على محصول طيب ، فقد كانت جميع الأرض الصالحة للزراعة في الضيقة تقسم إلى ثلاثة أقسام يزرع أحدها في الربيع ، والثاني في الخريف ، ويترك الثالث مراحاً بغير زرع ، وفي كل سنة كان يحدث تبادل بين هذه الأقسام .

التي بذلها ريموند أونوين (Raymond Unwin) وبارى باركر (Barry Parker) ولم يؤد الإنتاج الآلى إلى قلب أوضاع هذا النظام الجديد ، بل الأصح أنه دعمه ؛ إذ أن التوسع فى استخدام طاحون الماء وطاحون الهواء زود القرية بمصدر القوة المحركة التي كثيراً ما أصبحت لا تفي بالحاجة فى المركز المزدهم بحكم النمو الحضري ذاته .

ومن بين هذه الألوان الجديدة للغزوف عن المؤلف ، التي انسمت بطابع قويم ، كانت النماذج الهولندية ذات أهمية خاصة ؛ فقد كان لها تأثير محسوس على أوروبا بأسرها مثل تأثير المتفوقين فى فلاحه البساتين بفضل بيوتهم الزجاجية ، وذلك لأن المزرعة الهولندية والحديقة الهولندية أصبحتا نموذجين للزراعة المتقدمة . كما أن التحكم فى الماء - وقد تم تحقيقه على السواء فى داخل المدينة وفى الأراضى الواطئة التي استصلحت بحجز مياه البحر عنها ، فقد كان كلاهما على اتصال مستمر - أكسب المدينة الرفية العادية فى هولندا أو القرية الواقعة على القناة ما لا يقل عما فى امستردام من واجهة نظيفة وإطار من الخضرة ، وليس هذا فحسب ، بل نظافة ممتازة فى الداخل كذلك التي عساها أن تتحقق على ظهر أكثر السفن نظافة بفضل الاستعانة بالرمل ، وحجر مالطة^(١) ، ومياه البحر . وإن النوافذ الكبيرة التي زود بها المنزل الصغير فى هولندا فى القرن السابع عشر - وهى التي أعيدت بعد ذلك بأكثر من مائتى سنة ، سواء فى مباني أوت (Oud)^(٢) التقدمى أم فى مباني جرانبريه - مولير (Grandprè-Molière) المحافظ - قد أدخلت فى المسكن قادراً من ضوء الشمس والهواء النقي يضارع ذلك الذى كان قد صوره يوهان أندرياي فى مدينته المثالية كريستيانوبوليس ، وهى ذاتها لم تكن أكبر من قرية .

(١) حجر مالطة (holystone) حجر رملى رخو لتنظيف ظهر السفينة .

(٢) معمارى هولندى شهير ولد فى أواخر القرن الماضى .

وبالجملة فإن المرافق وتوزيع العناصر في الكوخ الهولندي المبني من الآجر في هذا العهد لم تقتصر على أنها كانت أرقى في مستواها عن معاصراتها في مساكن الطبقة الراقية في بلاد أخرى ، بل إنها ما زالت فوق المستوى الذي بلغه إلى الآن في أغلب الأماكن رجال العصر الحاضر القائمون على إصلاح أساليب الإسكان . ولم تكن النتيجة مثالية من كل الوجوه ، كما سوف نرى حينما نناقش حالة امستردام ، ولكن لإدخال الروح الديمقراطية في مدينة العصور الوسطى وتوزيع مراكز الصناعة كان كلاهما يسير في الاتجاه الصحيح نحو تشجيع الفصل في الأمور محلياً ، وكان من شأن ذلك انسام الأداة الحاكمة بالرحمة والتزام المعيار الإنساني في الحكم على الأمور .

ولقد حدث تغير مماثل في العالم الجديد حيث بدأ نظام العصور الوسطى ، وكأنه قد بعث من جديد عن طريق الاستعمار ، ففي أمريكا الجنوبية كانت المدن الاستعمارية الجديدة تخطط مقدماً وفق المبادئ التي تقررت في قوانين جزر الهند الغربية التي صدرت في سنة ١٥٢٣ عند فتح المكسيك . بيد أن هذه المدن الجديدة كانت تتطلع إلى الخلف وليس إلى الأمام ، لأنها اتبعت نموذج المدن الحصينة القياسي ومضت في التقييس إلى أبعد من ذلك بتهيئة الأسباب لإنشاء « فوروم » أو ميدان (بلازا) في وسط المدينة ، مع إقامة كنيسة تشرف على أحد الجوانب وترك الميدان (البلازا) ذاته خالياً ، وكان النسق المثالي للميدان يبلغ ٦٠٠ قدم في الطول و ٤٠٠ قدم في العرض . وقد روعيت الدقة التامة في أن تكون وحدات المباني مستطيلة الشكل ، والشوارع فسيحة إلى حد أنه — طبقاً لما يقوله روبرت سميث — عند وصول الأسقف الإيطالي جارديني إلى سان دومينجو في سنة ١٥٢٠ امتدح الشوارع ، وقال إنها أكثر اتساعاً واستقامة من شوارع موطنه الأصلي ، فلورنسا . وعلى الرغم من أن المدن الاستعمارية البرتغالية كثيراً ما كانت تشاد على نحو أقل

انتظاماً ، وكانت أقرب شها إلى أكثر نماذج العصور الوسطى تناسقا ، فإننا لا نجد إلا في « بالمانوفا » (Palma Nova) ما يضارع مثل هذا التخطيط المثالي من الطراز الباروكي .

وإذا كانت المدينة الاستعمارية الإسبانية من مخلفات المنشآت الاستعمارية العسكرية ، فإن القرية في نيو إنجلند كانت طفرة^(١) مباركة ، وذلك أنه عند ما استقر المغامرون من طائفة البيوريتان في مستعمرة باك باي (Back Bay) قاوموا بسهولة بواعث الإغراء على تركيز الإقامة في ميناء بوستن ، وذلك بالرغم من أنهم كانوا يألّفون التجارة والصناعة اليدوية أكثر من الزراعة ، ولحسن الحظ أنهم كانوا في البداية يعتمدون على الزراعة ، وهو ما أرغمهم على المخاطرة بأن يعيش عدد قليل من السكان في مزارع واسعة ليتسنى لهم احتلال الأرض . وكان مركز القلب من مدنها وقراهم الجديدة منطقة عامة ، هي مساحة من الأرض الخلاء كثيرا ما كانت أكبر اتساعا من البلازا الإسباني ، وهناك كانت تستطيع الأغنام والمواشي أن ترعى في أمان تحت إشراف حارس الماشية ، وكان أحد موظفي البلدية . وحول المنطقة العامة كانت تشيد منذ البداية المباني العامة — أي دار الاجتماعات ، ودار البلدية ، والمدرسة فيما بعد . وإذا كانت هذه المنشآت تؤدي وظيفة مركز احتشاد المجتمع ، فإن المنظمة العامة كانت تقوم مقام ساحة تدريب للحرس المحلي ، وهذا نظام آخر من أنظمة العصور الوسطى . والمثل الأعلى للحكم الذاتي في العصور الوسطى — وهو الذي لم يتحقق في أوروبا إلا على نحو شديد القصور بسبب المناهضة المستمرة من جانب النبلاء والأساقفة وأقطاب الطبقة المتوسطة — ازدهر هنا على أكمل وجه ، لأن أتباع المذهب البروتستنتي كانوا يسيطرون على الكنيسة والمدينة سواء بسواء .

وفي مبدأ الأمر أعطى كل فرد في المجتمع حصته من الأرض ، وكانت

(١) انظر الحاشية ص ٦٠٢ بأول القسم ٣ من هذا الفصل .

تراوح عادة بين نصف فدان وفدان في داخل القرية ، ولو أنه كان في وسع القس أن يحصل على ما قد يبلغ عشرة فدادين ، أما الحصص المخصصة للزراعة فإنها كانت تقع في الضواحي ، خارج نطاق حواجز الدفاع التي كانت تقام في أول العهد ، وفي بعض الأحيان كانت مواقع هذه الحصص تبعد عن القرية إلى حد يبرر إقامة منزل صيفي هناك على نحو ما كان يحدث في مدينة العصور الوسطى . وطبقا لما يقوله وليم ويدن (Weeden) فإنه بموجب الأنظمة التي سنت في البداية ، لم يكن مباحا لأي فرد أن يقيم في مكان يبعد أكثر من نصف ميل عن دار الاجتماعات لئلا تكون قسوة الشتاء في نيوانجلاند ذريعة لتهربه من التزاماته الاجتماعية بوصفه من أعضاء الكنيسة .

وفي بعض الأحيان كانت المنطقة العامة عبارة عن شريط عريض يبلغ اتساعه مائة وخمسين قدما أو مائتي قدم ، ويمتد على طول القرية ، كما هي الحال في شارون (Sharon) بولاية كونكتيكت (Connecticut) ، وفي بعض الأحيان كانت تتخذ شكل مستطيل أو مربع . ومنذ القرن الثامن عشر ، كانت تقام حول هذه المنطقة ، المنازل المنفصلة بعضها عن بعض بمجدرانها الخارجية ذات الألواح الخشبية البيضاء ونوافذها ذات المصاريع الخضراء ، وكان كل منزل منها قائما بذاته ، على بعد مناسب من المنازل المجاورة ، وتوجد خلفه حديقة فسيحة إلى حد يسمح بغرس بستان صغير للفاكهة وإقامة حظيرة للحيوانات وتخصيص رقعة لزراعة الخضراوات ، وكانت أشجار الغرغاج والاسفندان السامقة على جانبي الطريق تقي السائرين حرارة الشمس اللافحة في الصيف ، وتؤلف حاجزا جزئيا يخفف من قوة هبوب الريح في الشتاء ، وكانت عقود أغصانها المورقة تربط بين المنازل المتناثرة ، وياله من مظهر للانسجام التام بين الإنسان والطبيعة . ولقد احتفظ بهذه المعالم التي تدعو إلى الإعجاب حتى القرن التاسع عشر ، على نحو ما نرى في تخطيط بعض القرى الباكورة في أوهيو مثل جاليبوليس (Gallipolis) . ولم يتحقق أى شيء يداني ما في هذا التخطيط الطلق من نظام وجمال إلا

في ضواحي الشق الأعلى من الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر .

وفي الوقت الذي كانت الاستحكامات تطوق فيه مدينة المصور الوسطى ، عندما كان الناس يحتشدون خلف تحصينات ضخمة ، راضين بمدينة خلت من الأشجار أو الحدائق ، أو حتى من المساكن المعدة لأسر بمفردها ؛ بوصف ذلك البيئة العادية لحياة المدينة ، في هذا الوقت أبقى هنا في أمريكا على نظام مدينة المصور الوسطى الأكثر رحباً ، بل إنه في الواقع ازداد رحباً ونفاسة ، وغدا اتساعاً فخماً جليلاً من أجل أغراض ديمقراطية ، ولقد قام هذا النظام على أساس أن المدينة في نيويورك لنجدت كانت تأتي عامدة أن تتجاوز في نموها الحد الذي تستطيع في نطاقه توفير التجانس بين أبنائها وتوثيق الروابط الاجتماعية بينهم ، وبذلك أوجدت ما ظل قائماً في جهات كثيرة مدى قرنين من الزمان ؛ أوجدت توازناً بين المهن الريفية والحضرية ، وكذلك توازناً داخلياً بين السكان والأرض التي يمكن الانتفاع بها .

وعندما كانت المساحة المخصصة لمجتمع من المجتمعات يتم شغلها بأكملها وتبدأ نذر الازدحام ، كان من يفيضون عن الحاجة من أفراد المجتمع يعمدون إلى اختيار قس جديد ويرحلون إلى مزرعة جديدة لينشئوا داراً جديدة للاجتماعات ، ويحددوا منطقة عامة جديدة ، وينشئوا قرية جديدة ، ويخططوا حقولاً جديدة . فكان التجمع في مراكز جديدة يحول دون التكديس في المراكز القديمة ، وكان من شأن تقسيم الأرض في المجتمعات الجديدة بين كل أفرادها ، على أساس حاجة الأسرة ، وكذلك حسب المركز والثروة ، أن يوفر للأفراد قدرًا من المساواة أو يكفل على الأقل للمجد والمقتصد مستوى أساسياً أدنى للمعيشة ، وكان لكل أسرة حقوقها في الأرض العامة ، كما كان لكل أسرة حقول في الضواحي ، وكذلك حدائق في مواقع أقرب من ذلك إلى منازلها . وكان من واجب كل رجل

المشاركة في الشؤون السياسية للمدينة عن طريق الاجتماع السنوى لأهل المدينة ، وهذا نظام ديمقراطى للحكم ، كما أن هذه أكثر البيئات توافراً لشروط الصحة والملاحة - ما دامت صغيرة النطاق . ولم يكن هذا الوضع المجدد المنحدر من العصور الوسطى متناقضاً في كل دقائقه مع ماضيه الجبار فحسب ، بل كان متناقضاً كذلك مع جميع مزاعم النظام الباروكى الجديد المناهية للديمقراطية .

وانمو المتواصل للمدينة في نيو إنجلند عن طريق انقسام النواة الاجتماعية المركزية إلى خلايا جديدة لكل منها كيان مستقل خاص بها ، استوحى النمط الإغريقى الأقدم عهداً . بيد أن مدن نيوإنجلند أضافت ظاهرة جديدة لم تنل إطلافاً ما بقى بحتمها من التقدير ولا ما تستحقه من انتشار محركاتها على نطاق واسع ، ونعنى بذلك مجمع المدن (town ship) . ومجمع المدن عبارة عن تنظيم سياسى يشمل مجموعة من المدن والقرى والكفور مع منطقة من أرض الريف الخلاء تحوطها جميعاً ، ويؤدى مهام الحكم المحلى بما في ذلك تدبير المدارس والعناية بالطرق المحلية ، دون التسليم بما استقر عليه الوضع زمنياً طويلاً من التفرقة بين المدينة والريف . وفى داخل نطاق مجمع المدن - وكان أحياناً يشمل مساحة تمتد إلى اثني عشر ميلاً في كل اتجاه - كان السكان يعترفون بالحاجة إلى وسائل التيسير اللامركزية ، ويتمثل ذلك في دار المدرسة الابتدائية التى كانت تتكون من حجرة واحدة ، أو في الحانوت الرقيق الذى كان يحتوى على مختلف السلع ، وفى نمط مجمع المدن لم يقتصر نمو السكان ولا المساعدات الاجتماعية على مركز واحد ، فقد تحقق ما يشبه التوازن المحلى في داخل نمط إقليمي يعادله في التوازن .

ويجب ألا يستهان بالقيمة السياسية لهذا الوضع الجديد ؛ فقد كان العجز عن فهمه وعن الإبقاء عليه - بل عن إدماجه في الدستور القيدى إلى

وفى دساتير الولايات — من الأمثلة المحزنة للغفلة فى التطور السياسى بعد الثورة . وعلى هذا فإن القواعد النظرية للنظام السياسى الديمقراطى كانت تعوزها أجهزة واقعية ، وما من أحد قدر قيمة نظام مجمع المدن خيراً من ايمرسون ، فقد كتب فى يومياته فى سنة ١٨٥٣ : « المدينة هى وحدة الجمهورية ، ولقد أقامت ولايات نيوانجلند نظمها الدستورية على أساس المدن ، وليس على أساس المجتمعات ؛ وهو ما يفضى بنا إليه نظام التقسيم إلى دوائر . وعندما تتخذ المدن أساساً تكون الشئون السياسية بمثابة مدرسة الشعب ، واللعبة التى يتعلم كل فرد مزاوتها . ولذلك فإن كل من فى كاليفورنيا وجزيرة روبنسن كروزو لديهم من المهارة ما يمكنهم من أن يقيموا فوراً حكومة تستطيع مباشرة عملها ، على حين أن الفرنسيين أو الألمان يعجزون عن ذلك . وفى الولايات الغربية وفى نيويورك وبنسلفانيا لا يقوم الوضع على أساس نظام المدينة ، ولذلك فإن مصروفات الهيئة التشريعية لا تتسم بالاعتصام بل بالتبذير . وفى نظام الدوائر أو أى نظام يضع الانتخاب فى قبضة لجان ، يعاد انتخاب رجال ما كانوا ليحصلوا على أصوات من يعرفونهم » .

بيد أن هذا المثال لم يفقد أثره تماماً عند تكوين مجتمعات تالية ؛ إذ أن انتشار السكان فى قرى ومدن متناثرة فى أرجاء الريف الطلق ظل باقياً فى أوهميو ويسكونسين على نحو يشبه إلى حد كبير النمط عينه المتبع فى نيوانجلند . وقد كان من أثر هذا الانتشار الواسع النطاق لإضعاف الميل إلى تركيز السكان فى بضعة مراكز كبرى ، كما هى الحال اليوم فى استراليا والبلجيات الشمالية الغربية فى المحيط الهادى .

والمزايا الاجتماعية المتوافرة فى القرية والمدينة الصناعية فى نيوانجلند لم يتكرر وجودها بعد القرن الثامن عشر إلا فى مجتمعات طوباوية ، كان أبرزها بوجه خاص مجتمع قرى طائفة أمانا فى أيوا ، فقد كان صاهرا عن

إلهام صادق ، وظل مزدهرا لمدة قرن تقريباً . وكان مجتمع طائفة أمانا يضم نحو خمسة وعشرين ألف فدان ، ويتكون من سبع قرى زراعية لكل منها كنيسة ، ومدرستها ، ومخبزها ، ومصنع ألبانها ، وقبو خورها ، ومكتب بريدها ، وحاناتها لبيع مختلف السلع . وكان كل مجتمع منها يبعد عن الآخر مسافة تتراوح بين ميل ونصف ميل وأربعة أميال ، ولكنها كانت جميعاً تقع في دائرة نصف قطرها ستة أميال ومركزها « أمانا القديمة » .

وأما القرى ذاتها فإنها كانت تتألف من مجموعة من المنازل يتراوح عددها بين أربعين منزلاً ومائة منزل ، وكانت منظمة على غرار القرية الألمانية ذات الشارع الواحد ، أى إلى بها شارع واحد طويل يمتد على غير هدى . وتخرج منه فروع عديدة غير منتظمة ، وكانت توجد المخازن والحظائر في أحد طرفي القرية ، والمصانع ودور التشغيل في الطرف الآخر ، وعلى كلا الجانبين كانت تقع بساتين الفاكهة والكروم والحدائق ، على حين أن الغابات المزروعة بعناية في المناطق الواقعة بين مراكز المجتمعات كانت تزودهم بشطر كبير من الخشب اللازم لصناعاتهم الخاصة بعمل الأثاث ، وقد كان لها في وقت ما من ذبوع الصيت ما كان للملاحف أمانا وقديد خنزير أمانا . وفخذه ومقرار (Freezer) أمانا . وكانت مباني هذه القرى وتنسيقها العام على طراز بديع صريح قوامه استخدام الآجر المصنوع محلياً . وكان هذا الطراز يفوق الطراز العادى الذى شاع في مباني النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بل كان ينافس طراز مباني مجتمعات شيكر (Shaker)^(١) . الأقدم عهداً - كان ينافس في كل شيء إلا في الابتكار المعماري .

وبالرغم من أن هذه الألوان من التقدم في التطور الحضري على وجه عملي معقول كانت على مستوى القرية ، فإنها في الواقع كان لها من الأهمية ،

(١) قامت هذه المجتمعات في ولايات نيويورك ونيو إنجلاند وكنتيكي وأوهايو

من حيث ما كان يمكن أن تسهم به في بناء المدينة ، بقدر ما كان لها من الأهمية من حيث نجاحها الفعلي في بيئتها الريفية ؛ إذ أنها ضربت مثلاً رائعاً بنموها النورى في نطاق تخطيط طلق ولكنه مترابط ، فقد كانا كلاهما جزءاً من حضارة عامة استطاعت أن تقيم نظاماً اقتصادياً متوازناً ، وذلك من ناحية بفضل حسن الحظ وسلسلة من الظروف المواتية ، ومن ناحية أخرى بفضل تخطيط واع .

وهذه الحضارة المنسمة بأساليب تقنية مبكرة (eotechnic) تغلغت في عديد من المدن الصغيرة والتقرى التى كانت تربطها شبكة من القنوات والطرق غير الممهدة . وقد عززت هذه الشبكة بعد منتصف القرن التاسع عشر بخطوط قصيرة من السكك الحديدية لم تكن قد أدمجت بعد في شبكة من الخطوط الرئيسية القليلة ، فهذه كانت لا تنشأ إلا لتعزيز قوة المدن الكبرى . وكان من شأن توليد القوة المحركة من الهواء والماء لسد حاجات الإنتاج المحلى ، قيام لون من النظام الاقتصادى المتوازن ، ولو أنه احتفظ بما فيه من التوازن ، وكان التوازن حقاً غاية منشودة عن وعى وإدراك لكان من المحتمل أن يظهر نموذج عام جديد للتطور الحضرى . ولكن هذا الاحتمال قضت عليه الاتجاهات الفكرية السائدة التى كانت تجذب الإمعان في التخصص وتركيز القوة الاقتصادية في عدد قليل من المراكز الكبيرة تخضع لها الوحدات الحضرية الصغيرة .

ولقد بينت في كتابي « التقنيات والمدنية » (Technics and civilization) كيف أن ما سبق ابتكاره من محركات أساسية على قسط أكبر من الكفاية ، مثل « التوربين » المائى الذى ابتكره فورنيرون (Fourneyron) وتوربين طاحون الهواء ، كان من الممكن أن تنشأ عنها منافسة خطيرة لمناجم الفحم ومناجم الحديد ، مما كان يحتمل أن يقضى إلى بقاء هذا النظام اللامركزى في عالم الوجود حتى يفيد من كشف الكهرباء وإنتاج المعادن الخفيفة الوزن . وإزاء

تطور العلم في مختلف نواحيه كان من المحتمل أن يؤدي ذلك رأساً إلى إدماج « الحقول والمصانع ودور التشغيل » معا في وحدة متكاملة أكثر اتساقاً بالرحمة ، على النحو الذى رسم خطوطه الرئيسية بيتر كروبوتكين (Peter Kropotkin) مرة أخرى في تسعينيات القرن التاسع عشر . وإذا كان من العبث الوقوف عند هذه الاحتمالات التى تلاشت ، فإن من الغفلة تجاهل أنها كانت موجودة في وقت ما ، وأنها ظلت متاحة لمدة أطول بكثير مما يدرك أغلب الناس . ولا تزال الفرصة سانحة أمام البلاد المتخلفة صناعياً لتنفيذ هذا الطراز الممتاز ، بيد أنه لسوء الحظ أن المستشارين الغربيين لتلك البلاد - سواء أكانوا من الرأسماليين أم من الشيوعيين - شديداً التمسك بالإنتاج عن طريق التنظيم المركزى على نطاق واسع ، وينقصهم في آن واحد الاستبصار التقنى وإدراك الجذور التاريخية للأوضاع القائمة ، فلا غرو أنه ليس في وسعهم إيجاد نظام اقتصادى أكثر ملاءمة لأحوال البلاد من الناحية الإنسانية .

وإن الإنسان لينظر اليه م بعين جديدة إلى كل هذه الطفرات ، ولا سيما قرية القرن السابع عشر في هولندا وفي نيوجانلند ، فإن كلا منهما تعبر عن نوع جديد من التوازن الدينامى بين البيئة وسكانها ، وهو أفضل مما كان يوجد في العصور الوسطى من ألوان الاحتكار الحضري ، وبما أعقبها من التوسع الصناعى وانتشار الضواحي بغير نظام ولا ضابط . وكما نجد في الدراسات النفسانية العميقة التى قام بها سپينوزا أو مبراندت - كما نجد فيها روحاً أجدى نفعا للمستقبل مما يوجد في التحليل الآلى الخاف لديكارت ، أو في أكثر صور الأشخاص التزاما للنمط المألوف التى كان يرسمها مصورو البلاط مثل فان ديك (Van Dyke) ؛ فإننا نجد كذلك في هذه الأوضاع الحضرية بشيراً مبكراً تجريبياً لنموذج بيئة حضرية وريفية متوازنة توازن دينامياً يماثل ذلك الذى لا مناص لنا من إيجادها في النهاية وفقاً لمفهوم حضاراتنا ، من أجل المدنية جمعاء .

أليس من الواضح أن معمارى المدينة الهولندية وأعضاء مجلدى القرية ، مثلهم مثل الحكام ورجال الوعظ فى نيوإنجلند ، كانوا يفهمون حياة الناس فى المدن فهما أعمق بكثير مما كان يفهمه أمراء العهد الباروكى الذين كانوا لا ينشدون إلا مرآة لغرورهم وخيالاتهم ؟ لقد كانت نظرهم أوسع أفقا وأكثر اتساقا من نظرة أولئك الأمراء ، وطبقا لواقع الحياة ، فإن لويس الرابع عشر ولو نوتر^(١) (Le Notre) هما اللذان يجب أن نعتبرهما الآن من الريفيين ؛ فقد كانت فرساي فى جوهرها لعبة ضخمة لطفل مدلل مثلما كانت تماما سياسة حكام ذلك العصر لهو أطفال ، إذا نظرنا إليها من الناحية الواقعية . وولع لويس الرابع عشر باللعب بالجنود — فقد اعترف فى شيخوخته ، مع قدر من الاعتذار ، بولعه المفرط بالحروب — كان حريا أن يكون أكرم له لو أنه انهمك فى اللعب بجنود من الرصاص ، بدلا من جنود من اللحم والدم . فهل كان هذا الضرب من سياسة الدولة سوى طفولية شباب تتظاهر بأنها تخدم الصالح الوطنى وتتنكر فى زى معمارى فخم ؟ إن المهندسين الذين استصلحوا زويدز زى (Zuyder Zee) وبسطوا رقعة امستردام وأعادوا بناء روتردام ، والمعماريين الذين أنشأوا العديد من المجتمعات الحديثة المحكّمة الترابط على سطح تلك الحديقة العظيمة التى هى هولندا ، كانوا يتبعون تقليدا أبى وأكثر رسوخا .

٤ — تفكك ونحجر

إذا كانت فكرة القرن التاسع عشر — فكرة التغيير المتواصل « والتقدم » المستمر — تثير بين ظهرائنا اليوم مشكلة الاستقرار والتوازن ، فإن فكرة العصور الوسطى — فكرة الأمن والطمأنينة —

(١) كان أندريه لو نوتر (١٦١٣ - ١٧٠٠) مهندسا فرنسيا للمناظر الطبيعية . وهو الذى وضع تخطيط حدائق فرساي وفونتنبلو التى كان لما أثر بعيد المدى فى تخطيط حدائق قصور أخرى .

أثارت ، منذ القرن الرابع عشر ، مشكلة كيفية الحياة والنمو والحركة في عالم كانت تسوده أفكار منبثقة من تقاليد راسخة وامتيازات موروثية . أكان يجب هدم السور ؟ أكان يجب إزالة وسائل الوقاية ؟ أو هل كانت هذه المدينة تستطيع المضي في النمو من مركزها ذاته حتى تصل دون تفكك إلى تكوين أوسع نطاقاً ؟ لقد واجهت هذه المشكلة في آن واحد كل من مدينة العصور الوسطى ، ومنظمتها الرئيسية — الكنيسة — بيد أنه ما كان يتسنى لإحدهما أن تحل هذه المشكلة دون التغلب على ما فيها من أسباب العجز الموروثية .

وليس هناك مجال للجدل حول ما نجم عن ذلك من الحقائق ، فقد فشلت المنظمتان كلتاهما ، ودفعت المدينة الحديثة ثمن ذلك الفشل . فبعد القرن السادس عشر أخذت مدينة العصور الوسطى تتحول إلى قوقعة ، وكلما ازدادت العناية بصيانة القوقعة ، قلَّ ما تبقى فيها من الحياة ، وهذه هي قصة كركاسون (Carcassonne) أو روتنبرج على نهر التاوبر (Ruthenberg - am - der - Tauber) وغيرهما من المدن ، فحيثما كان الوضع الخارجى يتغير على عجل بتأثير ازدهار السكان والتدابير الجديدة للمشروعات الاقتصادية ، كانت الروح الداخلية تتغير كذلك ، وأحياناً كانت المدينة القديمة تحاول أن تكون مرآة تنعكس فيها صورة الحياة الجديدة ، وذلك عن طريق التلاؤم الخارجى البحت ، أى بتغير المظهر الخارجى ، ففي خلال القرن الثامن عشر بأكمله كثيراً ما كانت الدور القديمة لسكان المدن تتشح برداء من الحصص ، تكسو به سقوفها الخارجية المائلة ، وكذلك واجهاتها المبنية بالآجر على نحو بالغ الروتق ، وأحياناً كان يصحب ذلك توسيع فتحات نوافذها ، أو مسحة من الزخارف الكلاسيكية على هيئة طُف (كورنيش) أو عتب ، أو مدخل . وحي ريدرسرات (Ridderstraat) الأنيق الذى يوجد في مدينة بروج (Bruges) — ويدل اسمه وحده على طبيعته الأرستقراطية — لا يزال يبدو

على هذا النحو ، ولكن الأوضاع القديمة - حتى مع ما طرأ عليها من تغييرات داخلية طفيفة - لم تكن تعبر عن الحياة الجديدة ، ولذلك فإن مدينة العصور الوسطى غدت في الواقع متحفاً للماضي ، وإذا كان سكانها لم يصل بهم الأمر إلى أن يصبحوا أمناء هذا المتحف ، فإنه لم يعد لهم إلا دور محدود يقومون به في المدينة الجديدة ، وأمثال هذه البرك - وهي برك من حياة العصور الوسطى - لا تزال متناثرة في أرجاء أوروبا ، وقد غاص ماؤها في بعض الأحيان ، وتنبعث منها زهمة التعفن في أحيان أخرى ؛

والنظام الاقتصادي في بلدات العصور الوسطى ، كان نظاماً مغلقاً يقوم في الأصل على أساس أن المدينة ذات الأسوار - بوصفها وحدة متكاملة - كانت أسمى وأفضل من الحياة المحمية الخالية من الأمان في الريف الطلق ، وقد كان يتوافر للمدينة من المزايا العظيمة في تدريب الناس على بذل الجهود الاقتصادية المنظمة وتنمية الخدق والمهارة بمختلف ضروب التنافس ومجالات الربح ما جعل الصناع يبقون أمدأ طويلاً دون أن يجدوا ما يغريهم بالسعي وراء الأجور المنخفضة في الريف أو الرضا بالمستوى المنخفض للصانع الريفي وما لديه من المعدات التقنية الفجة ، وربما كانت القيود البلدية مرهقة للذين كانوا شديدي الاندفاع في المغامرة ، ولكن هذه القيود كانت أخف وطأة من ألوان الاغتصاب الإقطاعي ، ونظراً إلى أنها كانت تقوم على أساس موافقة عامة صيغت في قالب قانون ، فقد كانت أقل تعرضاً لتحكم الأهواء . وحتى طبقة النبلاء كانت تقدر قيمة هذه المزايا الحضرية ؛ فقد كانت تتركز في المدن أسباب الحياة ومتاع الدنيا بكل ما في ذلك من تنوع صنوف الإثارة وما تنطوي عليه المفاجآت من التحدي :

وعندما أقبل القرن السادس عشر ، كان التفاوت بين المدينة والريف ،

من الناحية السياسية ، قد تلاشى إلى حد ما ، فإن التحسينات التي أدخلت على وسائل النقل المائي قربت الشقة بين المدينة ونواحي الريف . ولما كانت القروض الإقطاعية — حتى في المناطق الريفية — قد حولت إلى دفع مبالغ نقدية في كثير من الأقاليم ، فقد أصبح في وسع الناس أن يظلوا مقيمين في الريف ، أو أن يروحوا ويغدوا دون الاستهداف لخطر الإنزال إلى مصاف الأقتان أو الأتباع ، ومما ينهض دليلا على هذا التساوى ، عدد المحاورات التي كتبها بعض السادة في القرن السادس عشر للموازنة بين مزايا كل من البيتين ، وهو ما يدل على أن كليهما كانا على الأقل متقاربتين إلى حد يسمح بالمقارنة والاختيار بينها .

وقد عاون على تحقيق هذه الظاهرة الجديدة — ظاهرة التساوى بين الريف والمدينة — أن الأمن أخذ يستتب تدريجياً في الريف الطلق نتيجة لظهور سلطة مركزية في الدول التي توحدت منذ عهد قريب .. فعندما قضى الملوك على قوة الأمراء المولعين بشن الحروب ، تسنى للصناعة أن تزدهر خارج نطاق البلديات القائمة ، وفي ظل الحماية الرمزية لقوة الحكومة القومية استطاعت الصناعة أن تقوم حتى في القرى التي لم تحصل على حقها في الحكم الذاتي ، وكانت تقع خارج نطاق أي إدارة بلدية قائمة . والتجار الذين كان لديهم من رأس المال ما يكفي لشراء المواد الخام ومعدات الإنتاج — كمكينات الحياكة مثلا — كانوا يستطيعون استئجار اليد العاملة وممارسة أعمالهم في نواحي الريف فلا يدفعون إلا أجر الكفاف بدلا من معدل الأجور في المدينة ، وبذلك كانوا يتفادون قيود الأنظمة التي وضعتها النقابات فيما يتعلق باستخدام العمال ومستوى العمل ويهيئون بمستوى المعيشة الحضرية ، وبالحملة كانوا ينشرون الاضطراب في الأسواق المستتبّة النظام . وقد وفد تشغيل الأطفال في ظل هذا النظام ، فنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن السابع عشر ، لاحظ جون إيفلين (John Evelyn) في الأقاليم الواطئة

« التقدمة » أن أطفالاً في سن الخامسة كانوا يستخدمون في أداء عمل مفيد ، ولم يكن في استطاعة اقتصاد المدينة أن يصمد أمام هذه المنافسة القاتلة .

وفضلاً عن ذلك فإنه حوالى أواخر العصور الوسطى كانت صناعتنا التعدين والزجاج تقومان بدور أكبر مما كانتا تقومان به في مبدأ الأمر ، وكانت هاتان الصناعتان تقامان عادة خارج حدود مراكز الاستقرار الباكرة نظراً إلى مخلفاتهما وأقذارهما وما كانتا تتطلبانه من الأخشاب والانتساع الكافى للتخزين . ومنذ البداية اتسمنا بأغلب الصفات التى عرفت عن الصناعات الرأسمالية التى تلها ، للأسباب ذاتها التى كانت حاسمة فيما بعد ، وذلك أن آلات الإنتاج كانت أغلى ثمناً من أن يستطيع شراءها فرد واحد ، أو أن تتولى إدارتها وحدة أسرية . وكانت ذات الطرق المتبعة تستدعى استئجار وتنظيم زمر بأكملها من العمال الذين كانوا يستخدمون عادة كأجراء ، ولم يكن يقوى على استئجارهم إلا صاحب عمل لديه من رأس المال ما يكفى لمواجهة نفقاته حتى يبيع إنتاجه . وقد صاحب ذلك أن شطراً أكبر من المشتغلين بالصناعة أصبحوا يتكسبون أود معيشتهم خارج نطاق المدن المتمتع بحقوقها البلدية . وحتى إذا كانت هذه الصناعات قد أدت إلى ظهور مراكز جديدة للاستقرار الحضرى ، فإنها لم تفض إلى تمتع تلك المراكز بالحقوق البلدية ، وظلت تنافس المراكز التى كانت النقابات تظلمها بحمايتها .

ولقد تحققت الاحتكارات القديمة بتعاون جهود المواطنين من أجل صالح المدينة . أما منذ القرن السادس عشر فإن الاحتكارات الجديدة التى ظهرت فى إنجلترا وفرنسا لم تكن احتكارات خاصة بالمدين ، بل احتكارات تجارية ، فقد كانت من أجل صالح أفراد يتمتعون بامتيازات ويتحكمون فى التجارة مهما تفرق الجهات التى كانوا يعيشون فيها . وفى نظر تلك الاحتكارات الإنتاجية كانت البلاد بأسرها تعتبر منطقة

نشاطها ، وكان منشئوها — مثل السير ريتشارد مونسل Sir Richard Maunsell صاحب مصانع الزجاج الإنجليزي — ينتمون إلى طبقة النبلاء أو يرفعون إليها على عجل ، ولم تكن الصناعات الكبرى ومصارف الاستثمار وتجارة الجملة تقوم على أساس ممارسة نشاطها في مدينة واحدة ، فقد كان نشاطها يمتد إلى كل مكان عن طريق المصاهرات والمشاركات والوكلاء . وحتى في المدن المتمتعة بكامل حقوقها البلدية ، انهارت النقابات والهيئات الاتحادية القديمة — في إيطاليا أولاً ، ثم في غيرها من البلاد — تحت وطأة هجوم الجماعات الأقوى منها مالياً ، وهي التي كثيراً ما كانت تختصب مهام الحكم في المدينة وتنحى عنها الحكام المنتخبين وذلك بفضل مقدرتها على استخدام الأجورين .

وقد أفادت التجارة الدولية ، التي أخذت أهميتها في الازدياد منذ القرن الخامس عشر ، أفادت من مواطن الضعف الكامنة في نقابات الحرف والمدن ذات الأسوار . وأول هذه المواطن هو أن هذه النقابات والمدن كانت تقوم على أساس محلي بحت ، ولكي تمارس المدينة التحكم الاحتكاري في داخل نطاق أسوارها ، كان من الضروري أن تكون قادرة على التحكم في المنطقة الواقعة خارجها أيضاً ، وكان هذا يستتبع انتهاج سياسة تستهدف التنسيق بين صوالحها الذاتية وصوالح نواحي الريف ، وفي النهاية إقامة نظام فيديرالى لأقاليم المدينة :

ولكن ضروب السياسة التي اتبعتها فعلاً أكثر مدن العصور الوسطى مقدرة وأعظمها دينامية قامت على أساس عدواني اتخذ انجهاً مضاداً لذلك ، فمدينة البندقية أرغمت سكان البر الأصلي حتى برجامو (Bergamo) — وهم الذين كانت تعتمد عليهم في الحصول على الطعام — أرغمتهم على ألا يزودا بما لديهم سوى سوق البندقية وحدها . وإذا كانت فلورنسا قد عاملت بيستويا (Pistoia) بطريقة معقولة واكتسبت صداقتها ، فإنها

هاجمت لوكا وبيزا وسيننا بأقصى ضروب الوحشية وحولتها إلى أعداء ألداء لها على الدوام . وكان يحدث بين حين وآخر أن تقدم نقابات إحدى المدن يد المعونة إلى نقابات مدينة أخرى ، على نحو ما حدث من أن النقابات المجاورة لمدينة كولمار (Colmar) عاونت نقابة خبازي كولمار على الإضراب لمدة عشر سنوات . بيد أنه بوجه عام كانت النقابات لا تستطيع ممارسة سلطتها إلا على الذين كانوا يزاولون عملهم فعلا في داخل أسوار المدينة . أما المدن ذاتها فقد كان يسيطر على علاقات بعضها عاملان ؛ وهما قصر النظر ، والغيرة المزمنة .

ووراء نواحي الضعف في النقابات كان يكمن في السياسة التي اتبعتها مدن العصور الوسطى هذا العيب الأبعد غورا ؛ وهو أن مدينة العصور الوسطى كانت حصناً لساكن المدينة . وعلى الرغم من أنها تكونت أصلاً من الفلاحين والصناع الذين فروا من الريف ، فقد شاء القدر في مخبرته أن تتحول إلى جهاز استبدادي لاستغلال أولئك الذين بقوا في المزارع وفي القرى ، فكان سكان المدن يبحثون الأرض - بالمعنى الحرفي - من تحت أقدامهم ؛ إذ أنه من حيث العلاقة بين الكائن الحي والوسط الذي يحيط به ، فإن المدينة والريف يكونان وحدة واحدة . وإذا كان في وسع أحد الطرفين أن يعيش بدون الآخر ، فإنه الريف وليست المدينة - أي الفلاح وليس الساكن المدينة ؛

ولكن الانتصارات التي أحرزتها المدينة في مجال الفن والابتكار ضاعفت من احتقارها لجيرانها الريفيين المتخلفين ؛ فكان الريف يعامل معاملة التابع الغبي ، أو معاملة أنكى وأسوأ من ذلك ، معاملة الأجنبي . ففي إيطاليا كانت البلديات تنكر على الفلاحين حتى التمتع بامتيازات المواطنين ، وفي ألمانيا كان حق حدود المدينة (Bannmeilenrecht) يحتم على الفلاحين المجاورين أن يزودوا المدينة بالطعام واحتياجات الصناعة ، وهكذا فإن

المدن بدلا من أن توجد لها حلفاء في الريف الطلق يستطيعون مساعدتها على اجتثاث السلطة الإقطاعية من جذورها ، أقامت حولها سياجا من الأعداء الناقمين ، ولعله لم يكن من شأن مسلك جيوشها في أثناء الحملات التي كانت توجهها ضد مدن أخرى أن يجعلها أكثر أهلا للترحيب بها .

وكل هذه الحقائق تشير إلى القضاء على اقتصاد المدينة المغلق بكل ما فيه من طمأنينة وقيود اقتصادية مقبولة ، وإقامة نظام اقتصادى متوسع ركز الامتيازات وعاد بالخير على الذين لم يحفلوا كثيراً بالطمأنينة ، وأحال التوتر الناشئ عن تفاوت الطبقات إلى حرب سافرة بين الطبقات . وبطبيعة الحال لما كان نظام العصور الوسطى يقوم على أساس تفاوت المراتب الاجتماعية ، فإنه لم يعرف المساواة الاقتصادية ، بيد أنه في أوائل العصور الوسطى عندما كانت أرض المدينة تقسم على قدم المساواة تقريبا ، وكانت وسائل الإنتاج تعتمد - إلى حد كبير - على ما لدى الفرد من آلات ومهارة ، كانت قدرة العامل المدرب على التنقل - عند انتهاء مدة تدريبه - تؤمنه من الذل والفاقة ، فما دامت آلاته ملكاً له ، فإنه كان يستطيع أن يتكسب ما يقوم بأوده ، وقد كان ذلك من أهم الضمانات التي كانت تكفل الحرية والاستقلال الذاتي في العصور الوسطى ، إذ أن هذه القدرة على الكسب حالت دون ازدياد التفاوت بين المراتب العليا والدنيا إلى حد بالغ ما دام عدد العمال المهرة لم يبلغ حداً يزيد على الحاجة .

وفي صناعة النسيج في الفلاندر وشمال إيطاليا ظهر النزاع النخلى بين العمال وأصحاب العمل منذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر ، فإن ما أدخل حديثاً من استخدام عجلة الغزل ونول السحب كان له أثر يضارع ما كان لاستخدام آلة الغزل والنول الآلى بعد ذلك بخمسة قرون . وفي مدينة كولونيا نجح عمال النسيج نجاحاً وقتياً في القضاء على سيطرة الطبقات العليا في سنة ١٣٧٠ - ١٣٧١ وحدث ما يماثل ذلك في غنت بزعامة أرتفلد (Artevelde)

ولكن الظروف لم تكن مواتية للتقابات ، ولذا فإن انتصاراتها كانت قصيرة الأمد . فعلى حين أنها كانت تعمل على أساس محلي ، كان خصومها يعملون متصافرين في كل أرجاء أوروبا ، بفضل المصاهرات والمحالفات مع الأمراء والملوك والأساقفة ، ومن ثم فإن الطبقات الحاكمة كان في وسعها أن توجه ألواناً جديدة من الضغط والسلطان نحو نقطة واحدة .

ونتيجة لذلك فإنه على الرغم من التحدى الذى قام في وجه سلطة الطبقات الأرستقراطية الإقطاعية وأسر الأمراء ، فإنه لم يتيسر إطلاقاً لأى مجموعة متحالفة من المدن في أوروبا أن تنجح في القضاء على تلك السلطة لأى فترة طويلة من الزمن ، وعندما كانت المدن تتحالف مع الملك لكي تخفف مما كان يفرضه عليها النبلاء أو رجال الدين ، فإنها لم تكن تفلح إلا في أن تستبدل بحاكم محلي مستبد ، حاكماً مستبدّاً أكثر نشاطاً وأظهر وجوداً في كل مكان ، ولو أنه كثيراً ما كان ألين جانباً ، وأكثر تسامحاً ، وسرعان ما وجدت المدن نفسها تابعة للدولة صاحبة الحول والقوة التي عاونت هي على قيامها . وإنما أمثال لندن من المدن العظيمة الثرية هي وحدها التي كان في استطاعتها أن تواجه سيدها الملكي على نحو يدنو من المساواة ، بل إنها في الواقع ، في حالة الاضطراب ، كانت تستطيع خلعها . وقد كانت الصعوبة الكبرى هي أن الوحدة السياسية ، والوحدة الاقتصادية ، والوحدة الدينية في مجتمع العصور الوسطى ، لم تقم بينها صلات متائلة ، ولم توجد بينها أية رابطة مشتركة سوى الدولة التي كانت على رأسها أسرة حاكمة :

ولقد كان من شأن القوة والامتيازات والتقاليد القديمة أن جعلت خريطة أوروبا السياسية تبدو كثوب صنع من قطع غير منتظمة ، بسبب ما كان فيها من السلطات المتعارضة ، وروابط الولاء المتباينة ، وضروب التحزب التي لا معنى لها . وعلى الرغم من أنه ، كما أشار جيرك (Gierke) ،

كانت النظريات السياسية في العصور الوسطى تتضمن فكرة وجود رابطة ظاهرة بين بني الإنسان تتمثل في الكنيسة والإمبراطورية ، فإن هذه الرابطة لم تكن مطلقة ولا مقصورة على جماعة بعينها ، بل كانت على الأصح « نظاماً متشعباً متعدد الدرجات يتألف من هيئات جزئية كانت كل منها وحدة كاملة في ذاتها ، إلا أنها بحكم الضرورة كانت تنشد الارتباط بوحدة أكبر منها » .

ولسوء الحظ أنه عند إخراج هذه النظرية إلى حيز التنفيذ لم يحافظ دائماً على بقاء الأجزاء — بعد ربطها — وحدات لها كيائها واستقلالها الذاتي ، ومن ثم فإنه كما يشير جيرك مرة أخرى : « نرى على مرور الزمن أن هذا البناء الإقطاعي للكيان الاجتماعي هو الذي كان هدفاً لهجمات ازدادت باطراد وانبعثت من الاتجاه نحو المركزية . وإننا لنستطيع أن نتبين حدوث ذلك في النطاق الديني أولاً ، ثم في النطاق الديوي » وعندما فرضت هذه العملية المركزية نموذجاً جديداً ، قضى على ما اتسمت به العصور الوسطى من أوضاع محلية واستقلال ذاتي . وعندما أعيد من جديد الاقتصاد المكفول بأنظمة تحميهِ ، نفذ على هيئة استغلال تجارى مارسه الملكيات المطلقة بإنشاء احتكارات حكومية لكي تغذى الخزانة العامة .

والواقع أنه بذلت محاولات عديدة للرباط بين مدن كانت تقوم بينها صلات ، فإنه فضلاً عن اتحاد مدن عصبية هانزا — وكان اتحاداً طويلاً البقاء نسبياً ويتصف بالنشاط والإقدام — أنشئت عصبية مدن سوابيا في سنة ١٣٧٦ ، وعصبية الراين في سنة ١٣٨١ ، على حين أنه كان يوجد في إنجلترا اتحاد الموانئ الخمس . ولكن ضعف هذه العصب ، كضعف عصب المدن الإغريقية ، كان بمثابة تحذير وعاء الكتاب الأذكىاء الذين ألفوا

« البحوث الفيدرالية »^(١) (Federalist Papers) وجملة القول أن الانحياز نحو الاتحاد لم يصدر عن المدن الحرة ، كما أنه لم يبلغ من قوة العزم ونزاهة القصد مبلغاً يكفل ذبوعه . وفي إيطاليا في خلال القرن الرابع عشر قسمت أقاليم لومبارديا ورومانا وتسكانيا وامبيريا والماريكات^(٢) إلى ثمانين مدينة حرة تؤلف كل منها دولة ، أو على حد ما يقوله توينبي ، كان يوجد في شطر واحد من إيطاليا في سنة ١٣٠٠ عدد من الدول التي تتولى حكم نفسها أكبر مما كان يوجد في العالم بأجمعه سنة ١٩٣٣ ، ولكن « الذات » التي كانت تباشر الحكم كانت ضيقة الأفق شديدة العزلة إلى حد بالغ . وفي خلال القرنين التاليين أدى التوحيد إلى خفض عدد هذه البلديات الإيطالية إلى عشر وحدات سياسية ، ونظراً إلى أن المدن ذاتها لم تقدم على إقامة اتحاد فيديري إلى فإن هذه العملية الضرورية اقترنت بفقد الحرية والحكم الذاتي والقوة .

وقد كانت سويسرا وهولندا هما البلدين اللذين تم فيهما فعلاً حل مشكلة الاتحاد الفيدرالي بين الريف والمدن المتمتع بالحقوق البلدية ، دون المساس بالكيان السياسي للوحدة الحضرية . ويجب أن نتجه إلى المدن السويسرية والهولندية للعثور على ما لعلها أنجح الأمثلة للانتقال من نظام العصور الوسطى إلى النظام الحديث . وإن نجاح السويسريين في تحقيق الاتحاد ، دون استبداد أو خضوع لسلطة مركزية تفرض عليهم أوضاعاً تعسفية ، ليقوم دليلاً على أن هذا العمل كان ميسوراً من الناحية التنظيمية . وفضلاً عن ذلك فإنه يؤيد

(١) « البحوث الفيدرالية » سلسلة من ٨٥ بحثاً كتبها اسكندر هاميلتون وجيمس ماديسون وجون جاي (John Jay) في سنة ١٧٨٨ لشرح الدستور الفيدرالي وحث الأمريكيين على الموافقة عليه ، وقد أسهمت هذه البحوث إسهاماً كبيراً في إقرار هذا الدستور .

(٢) كانت الماريكات وحدات إدارية على الحدود ، ويحمل حاكم كل منها لقب « ماركيز » .

الفكرة القائلة بأن هذا العمل كان في وسع البشر تنفيذه عملياً على أساس أوروبي أوسع نطاقاً ، نظراً إلى أن سويسرا — بمجتمعاتها ذات اللغات الثلاث وحواجزها الجبلية التي تعوق النقل والاختلاط قد توافر فيها من العقبات العديدة في سبل اتحاد البلاد ما يكاد يماثل ما يوجد بين أشد الأقاليم اختلافاً في أوروبا بأسرها . ولقد كان البرهان صحيحاً ، ولكن القدوة لم تكن فعالة التأثير ، فسارت الحياة الواقعية في المناطق الأخرى في اتجاه سياسى مختلف .

ولا أن الوحدة الإقليمية والسلام الداخلى وحرية الانتقال كانت جميعاً بالغة الضرورة عندئذ للنظام الحديد للصناعة الرأسمالية : وفي دول مثل إنجلترا وفرنسا لقي تطور السلطات المركزية — على الأقل — توطؤاً سلبياً من البلديات والمجتمعات القائمة هناك ، بسبب المزايا الملموسة التي أخذت تتدفق من وراء إقامة الأمن الملكى والعدل الملكى والحماية الملكية التي كانت تكفل السفر الآمن على الطريق الملكى . أما من وجهة نظر التجارة والنقل والسفر فإن الأحوال كانت في الواقع تسير من سيئ إلى أسوأ منذ القرن الثانى عشر ، وهي حقيقة تتناقض مع المزاعم التي كان الناس يتشدقون بها في عصر الملكة فكتوريا عن اطراد سير التقدم ، فعلى ضفاف الراين مثلاً ، كان لا يوجد إلا تسعة عشر مركزاً لجباية رسوم المرور في آخر القرن الثانى عشر ، فزيد عليها خمسة وعشرون مركزاً آخر في القرن الثالث عشر ، وعشرون أخرى في القرن الرابع عشر ، حتى إنه عند نهاية العصور الوسطى كان المجموع الكلى يبلغ نيفا وستين مركزاً ، فكان الأمر يصل إلى حد الوقوف ودفع الرسوم الباهظة مرة في كل ستة أميال ، وهي حالة لا نطاق .

فرسوم الطرق ، ورسوم القناطر ، ورسوم الأنهار ، ورسوم المدن — هذه الضرائب الاقتصادية الثقيلة الوطأة كانت تضاعف في عين الوقت الذى أخذت تمتد فيه الطرق التجارية ، ويصبح استمرار تدفق السلع أمراً

أعظم أهمية لثبات حالة السوق الاقتصادية . وفضلاً عن ذلك فإنه كان من شأن عدم وجود عملة موحدة بالإضافة إلى أساليب التضخم المالى الجديدة التى كان يعتمد إليها هذا أو ذاك المعوز من الحكام أو المدن — كان من شأن ذلك إقامة عقبة أخرى فى سبيل التجارة . وفيما عدا الأقاليم التى ذكرناها فإن مدن أوروبا أثبتت أنها أكثر تماسكاً فى تعصبها الإقليمى الضيق الألفى ، وفى غيرها على امتيازاتها الخاصة من أن تستطيع حل هذه المسائل بوسائل مشتركة . وهنا تدخل امثال المدن للأوامر — وهو ما فرضته عليها القوة العسكرية للدولة — تدخل للقيام بالعمل الذى لم تجرب فيه الوسائل التعاونية أو جربت على مضض بصورة جزئية وفشلت . وكثيراً ما كان الحكم الذاتى العاجز والأساليب المالية القصيرة النظر والمؤدية إلى الإفلاس ، كثيراً ما كان كل ذلك يهيئ الفرصة أمام السلطة المركزية لى تتدخل وتضع الأمور فى نصابها على حساب حريات المدن كما حدث فى فرنسا .

ونحن الذين نعيش فى عالم ما زالت تنخر فى كيانه حماقة مماثلة يتناول تأثيرها الآن كوكب الأرض بأسره ، وليست قارة أوروبا فحسب ، نستطيع أن ندرك ماهية هذا المأزق القاتل دون أن نخامرنا سخرية الشعور بتفوقنا . ولقد حاولت عبثاً الهيئات البلدية فى العصور الوسطى أن تحل فى داخل أسوار المدينة مشكلات كانت لا تتسنى معالجتها إلا بتحطيم الأسوار وانتظام سيادتها بإشرافها فى وحدة مشتركة أوسع نطاقاً . وقد كان اتخاذ هذا الاتجاه يمس كل مظهر من مظاهر الحياة فى أوروبا ؛ إذ أن الأمر لم يكن — كما كان يظن دانتى — مجرد وضع بابا أو إمبراطور على رأس دولة دنيوية . ولما كانت مدينة العصور الوسطى قد سبقت الحكومة القومية ذات السيادة فى ممارسة كثير من النواحي السياسية ، فإنها خلفت للدولة كل ما كان فيها من وجوه القصور مضاعفة مرات عديدة ، ولقد ساعدت الدولة على إضعاف الحكم المحلى وإفساده بحلولها محل المدن وعزوفها عن الاستفادة من وظائفها البلدية .

ولقد أثبت الوعاء الحضري المحكم الإغلاق أن من المستحيل مواجهة الموقف عن طريق القيام بتعديلات محلية غايتها الوصول إلى الاكتفاء الذاتي ، وهو ما لا بد من أن تثبته كذلك الدول القومية في عصرنا . الحاضر مهما تبلغ من كبر الحجم ، ودول اليوم ذات الأسوار تسعى إلى الفوضى والحراب الشاملين لعين الأسباب التي أطاحت بمدينة العصور الوسطى ، فالجماعات المستقلة لا يمكن أن تزدهر بدون تعهد عمليات التوحيد في كل مكان والمشاركة فيها مشاركة فعالة .

وكانت توجد في العصور الوسطى منظمة واحدة فقط هي التي كانت قادرة على التغلب على هذا التعصب الإقليمي الضيق الأفق ، وهذه الجهود الاحتكارية العقيمة . وكانت تلك المنظمة هي كنيسة روما ، بيد أن تقلص نفوذها ، وانجهاها نحو الانكماش في داخل قوقعتها الرومانية القديمة ، وتأكيد انفرادها بالسلطة وسيادتها المطلقة ، وما جرت به عاداتها من إسناد أغلبية مناصبها الكبرى إلى الإيطاليين بوجه خاص - وهي عادة كانت تلقى تحميذاً لدى بابوات عصر النهضة وما عرف عنهم من الولع الشديد بإيثار ذوى القربى - بيد أن كل هذا كان في أساسه من أعراض الداء الذي أودى بمدينة العصور الوسطى . وإذا كانت سلطة الكنيسة الروحية لم تنكمش في الحال ، فإن مواردها الدنيوية أخذت تزداد منذ القرن الثالث عشر - وهذا هو أضمن سبيل إلى انهيار السلطة الروحية . وإذا كان أقطاب الكنيسة الأثرياء قد بزوا مكانة الأمراء الدنيويين في البذخ والإسراف ، فإنهم كسفوا ضياء مولاهاهم وسخروا منه ؛ إذ أن متاع هذه الدنيا لا يدخل في نطاق ملكه . وعند حلول القرن الخامس عشر ، كثيراً ما كان يوجد في دور الأعمال من مظاهر الزهد والتششف قدر أكبر مما كان يوجد في الأديار ، وكذلك مستوى أرفع من حيث المسلك الشخصي والنزاهة .

ولو أن الكنيسة بقيت بمنأى عن الشواغل الاقتصادية ، فلربما تسنى لها

أن تقف إلى جانب المدن وتبني "إطاراً لاتحادها". بيد أنه على الرغم من أن طوائف الدومنيكان والفرنسيسكان ظهرت في القرن الثالث عشر، وشقت طريقها سريعاً إلى داخل المدن فإن الكنيسة نفسها ظلت مستمسكة بأساليب الماضي الإقطاعية ولم تتخل عنها إلا لتتولى سلطة القياصرة الجدد، وعندما تركت الأساليب الإقطاعية، خضعت لذات عوامل وأساليب الحياة التي كانت تعاليمها الأساسية تحرمها. ولذلك فإنه عند حلول القرن السادس عشر، بل في الواقع منذ القرن الرابع عشر، كانت سلطة الكنيسة قد أصيبت بتصدع خطير في داخلها، فلم تعد حكماً سامياً ولا قوة عالمية تسعى لإحقاق الحق، ولقد استشرى الفساد في روما إلى حد لم يقل عما كانت عليه الحال في البلديات والإمارات الاستبدادية. وفي القرن السادس عشر كانت ذات بركات الكنيسة - صكوك الغفران - تباع على أساس المشاركة، عن طريق يعقوب فوجر (Jacob Fugger)، وكان أكبر المصرفيين المشتغلين بتوظيف الأموال في ذلك العهد.

ولإصدار حكم نهائي على هذا النظام بأكمله - الذي كانت الكنيسة تتصل به اتصالاً وثيقاً ألجأ إلى شهادة أحد المعاصرين؛ وهو توماس مور الذي رُفِعَ الآن إلى مصاف القديسين في هذه الكنيسة بعينها، فهو يقول: «حينما أتأمل وأجبل في خاطري حالة كل الأمم المزدهرة اليوم، فإنني - وأسأل الله العون فهذه هي الحقيقة - لا أستطيع أن أرى إلا تأمراً من جانب الأغنياء الذين يرمون إلى نفعهم الذاتي باسم الأمة ذاتها، فهم يبتكرون ويدبرون الطرق والوسائل التي تمكنهم من الاحتفاظ - دون خوف من الضياع - بكل ما كدسوه باتباع أساليب مرذولة، وتمكنهم بعد ذلك من أن يشتروا بأرخص الأسعار ويستغلوا عمل الفقراء وكدهم».

وإذا كان النظام الديني الدولي للعالم المسيحي قد عجز عن الإبقاء على نظام العصور الوسطى عن طريق التجديد الداخلي، فإن البروتستنتية - وقد قامت

على أساس قومي وظهرت في كنيسة تؤيدها الدولة — كانت أشد عجزاً عن الوفاء بمحاجات المدن ، وبظهور البروتستنتية في ذلك الوقت المتأخر ، ضعفت روح الزمالة القديمة ، فإن ضروب الشقاق الديني زادت في شدة التصدع الاقتصادي كما زادت في ضعف الاحتمال في إمكان إعادة إيجاد هدف عام مشترك ولا سيما في الشمال . وحتى في المجتمعات البروتستنتية كان التكاثر المستمر للطوائف المنشقة — من أصحاب (Quakers) والموحدين (Unitarians) واللامعبدانيين (Anabaptists) — يخلق مزيداً من المبرطقات ومزيداً من الانشقاق في صفوف المنشقين ، وقد كان في وسع المرء أن يجد خلف الواجهات المماثلة للمنازل في المدن القديمة ، أعداء دينيين ألداء ، كانوا وهم يعيشون متجاورين جنباً إلى جنب على هذا النحو ، أشد عداء مما كانوا وهم يعيشون بعيدين بعضهم عن بعض بمسافات شاسعة ، وعندئذ لم يعد التجاور وضعاً موائماً للألفة بين الناس ، ومن ثم لم تزدهر إلا حياتهم الخاصة فحسب .

وفي النهاية ، بعد تحدى سلامة موقف الكنيسة العالمية ، وإنكار حقيقة وجود الجماعة ، لم يبق إلا ذلك الجزء الضئيل من المجتمع ، ونعني به الفرد الذي أخذ يسعى بجهوده الفردية ، إما وراء الخلاص وإما وراء الربح ، أو وراء قدر يسير من كلا الاثنين معاً إن أمكن ، وذلك على حساب إخوانه المواطنين ، إذا اقتضى الأمر ذلك .

ولقد أوجز روبرت كرولى وصف هذا الانهيار في عدد من الأبيات اللاذعة كتبها في القرن السادس عشر إذ قال : وهذه مدينة اسما ، ولكنها فعلا قطيع من الناس يسعون وراء النفع ، لأن الموظفين وكل من عداهم يحرون وراء صالحهم الذاتي ، وأما مصالح الشعب ، فما من أحد يكلف نفسه عناء التفكير فيها ، وإنني لأستطيع القول بحق إنها جحيم بلا نظام ، حيث يقصر كل فرد همه على نفسه ، وما من فرد يهب نفسه لخدمة الكل :

وإن ما تنبأ به لانجلاند في القرن الرابع عشر في خطابه الطويل عن ألوان الخديعة والانحراف التي اتصفت بها ليدى ميد (Lady Meed) السعى وراء المصلحة الذاتية قد انتهى بها الأمر إلى التغلغل في مدى قرنين في جميع أرجاء المجتمع الأوروبي، فلم تكمد المدينة تكون منظمة عامة من أجل الصالح العام، ولم تكن السلطة المحلية للهيئة البلدية ولا السلطة العامة للكنيسة بكافية لتوجيه القوى الجديدة نحو بخير المجتمع، تلك القوى التي كانت آخذة في السير قدماً في جميع نواحي الحضارة الأوروبية.

وعند الشروع في بناء مدن جديدة في القرن التاسع عشر، كانت سابقة مدينة العصور الوسطى آخر ما يمكن أن يتجه إليه تفكير أي فرد، فنضرب معين الحياة في المدن القديمة على مهل، وأصبحت أسوارها أصدافاً جوفاء تحتوي منظمات أصبحت كذلك أصدافاً جوفاء. واليوم إذا عمد الإنسان إلى وضع الصدفة على أذنه في هدوء — لو أن ذلك كان ممكناً على نحو ما يفعل بصدفة بحرية — فإنه عندئذ فقط، في فترة الهدوء التي تعقب ذلك، يستطيع سماع صدى خافت لمدير الحياة القديمة التي قامت يوماً بين جدرانها حافلة بالأهداف الجديدة، عامرة بالإيمان العميق بحققها في الوجود:

الفصل الثاني عشر

بناء القوة الباروكية

١ - انحلال العصور الوسطى

إن الحضارات البشرية لا تموت في ظروف لحظة معينة كالكاثانات الحية ، فعلى الرغم مما يبدو كثيراً أنه يتألف منها كيان موحد ، فإنه لا يستبعد أنه كان لأجزائها وجود مستقل قبل اندماجها في الكيان الكلى ، ومن ثم لا يستبعد كذلك أنها تستطيع الاستمرار في الوجود بعد أن يتلاشى الكيان الكلى الذى ازدهرت فيه وقتاً ما . وقد كان هذا هو الشأن في حالة مدينة العصور الوسطى ، فإن عادات الحياة وأوضاعها في تلك العصور ظلت قائمة لمدة ثلاثة قرون على الأقل بعد انتهاء العصور الوسطى - إذا اعتبرنا القرن السادس عشر الحد الفاصل لتلك العصور . وحتى اليوم نرى كنيسة روما التى سيطرت ألف عام على غرب أوروبا ، مع ما ساد تلك الفترة من مزيج غريب في بابه يجمع بين المركزية المطلقة ، والحكم الرومانى الاستبدادى ، والحكم الذاتى المحلى ، والمرونة السياسية والاستقامة الخلقية النظرية ، نراها لا تزال تمارس نشاطها على الأساس التوكيدى لمذهب توماس أكويناس Thomas Aquinas في اللاهوت ، مع التزام حدود الإطار السياسى الذى أقامه جريجورى الأكبر ، فهى لا تزال تعتبر نفسها المستودع الوحيد لحقيقة وعقيدة لا غنى عنهما لخلاص البشر .

والواقع أن بعض منظمات العصور الوسطى جددت نفسها في القرن السادس عشر بمسيرة أسلوب عصرها ؛ وعلى هذا نرى أن الرهينة قد سلكت حياة جديدة بإعادة تنظيمها على نمط عسكري يتسم بالخضوع المطلق في

جمعية يسوع لرئيس الطائفة الذى أطلق عليه اسم ملائم ، وهو « المدير العام » . ولما كانت هذه الجمعية لم تعد تنفع بأن تكون قدوة فى التقوى ، أو بأن تقوم بالوعظ ، فإنها عملت على سد الحاجات الجديدة فى التعليم بإنشاء نوع جديد من المدارس ، وهو المدرسة الثانوية ، وكانت مرحلة متوسطة بين مرحلتى المدرسة الابتدائية والجامعة . وأما من الناحية المعمارية فإنه لم يكن هناك انقصاص حقيقى بين الطراز القوطى والطراز الحديث فى المباني . ولقد واصل البناءون الإنجليز فى الأقاليم عملهم حتى فى خلال القرن الثامن عشر وفقاً للأساليب التقليدية فى البناء ، وهى التى أخذ السادة المتعلمون ، فى جهلهم بالحياة خارج نطاق الدوائر التى كانوا يعيشون فيها ، يُحيُونها من جديد على سبيل الزخرفة والمتعة ، كما حدث فى بيت والبول (Walpole) المعروف باسم تل ستروبرى (Strawberry Hill) . وهل البرج الذى شاده المعماري رن (Wren) فى أوكسفورد - ويعرف باسم برج توم (Tom Tower) - من الطراز القوطى أم الطراز القوطى الحديث ؟ إن فى وسع المرء أن يجد من الأسباب ما يبرر إطلاق أى الوصفين عليه .

ويمكن أن يشاهد هذا المزج بين القديم والحديث فى كل مكان بأوروبا ، فإن شطراً لا يستهان به من المباني الحديثة ، حتى تلك التى شيدت فى القرن السابع عشر ، وفى الواقع كل ما بنى بطراز عصر النهضة قبل هذا القرن ، قد بنى على تخطيط شوارع العصور الوسطى فى داخل أسوار مدن كانت أساساً من مدن العصور الوسطى ، وأقيم بفضل حرف ونقابات كانت لاتزال منظمة على قواعد العصور الوسطى .

ونجد فى المدينة ما يقابل دير رابليه - الذى يدعى دير تيليميا (Rabelais' Abbey of Thelema) - بما فيه من مزيج بين الدير القديم والمنزل الربنى الأرستقراطى الحديث . وحتى فى العالم الجديد نجد أن قوانين العصور الوسطى - تلك القوانين البالغة فى القدم والخاصة بالأسواق - قد

ظلت سارية في المدينة في خلال القرن الثامن عشر ، ولذلك فإن المدن التي أنشئت حديثاً لتكون مقراً يليق بإقامة الأمراء أو من أجل أغراض استعمارية ، هي وحدها التي أوجدت فيها منظمات ما بعد العصور الوسطى نظاماً منطقياً دقيقاً يرجع بخلافه إليها وحدها .

٢ — النعقد الحضري الجديد

تكون في أوروبا فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ، تعقد جديد من الخصائص الحضارية ، وتبعاً لذلك فإن كلا من شكل الحياة الحضرية ومشتملاتها تغير تغيراً أساسياً : وقد انبثق النموذج الجديد للحياة من نظام اقتصادي جديد ، هو نظام الرأسمالية التجارية — ومن نظام سياسي جديد ، قوامه في الغالب سلطة مركزية مطلقة أو أقلية حاكمة مستبدة تتولى عادة شئون دولة قومية — ومن إيديولوجيا جديدة مستمدة من الفيزياء الميكانيكية التي تقوم على مسلمات تقررت قبل ذلك بزمان طويل في الجيش وفي الدبر .

وحق القرن السابع عشر كانت كل هذه التغيرات مضطربة تمر بدور التجربة ومقصورة على عدد قليل من المجتمعات ، ولم يكن لها أثر فعال إلا في نواح محدودة متفرقة . وعلى حين فجأة تبلورت وتبينت بوضوح تام في القرن السابع عشر ، وعندئذ أخذ نظام العصور الوسطى في الانهيار بتأثير الفساد الداخلي البحت ، ومنذ ذلك الحين سلك كل من الدين والتجارة والسياسة طريقه على حدة .

ولكى ندرك حقيقة مدينة ما بعد العصور الوسطى ، يجب أن نكون على حذر من التفسير الذي ما زال شائعاً عن النهضة بأنها كانت حركة تستهدف حرية الإنسان واستعادة كرامته ، وذلك لأن النهضة الحقيقية للحضارة الأوروبية — ذلك العصر العظيم الذي شهد إنشاء المدن والانتصار

الفكرى - كانت تلك النهضة التى بدأت فى القرن الثالث عشر وبلغت ذروة الكمال فى أعمال رجال مثل أكويناس أو ألبرتس ماجنوس (Albertus Magnus) أو دانتي أوجوتو ، وفى خلال الفترة بين هذه النهضة والنهضة الكلاسيكية فى القرن الخامس عشر ، وقعت كارثة طبيعية عظمى ، وهى كارثة وباء الموت الأسود التى وقعت فى القرن الرابع عشر ، وقضت على ما يراوح بين الثلث والنصف من عدد السكان ، طبقاً لأكثر التقديرات تحفظاً . وعندما أقبل القرن السادس عشر كانت هذه الخسارة قد عوضت ، ولكن الفجوة التى أحدثها الوباء فى طريق الاستمرار قد زادها اتساعاً ما أصاب القوة الحيوية للمجتمع من ضعف على غرار ما يحدث فى أعقاب حرب مضمّنة .

وفى أثناء الاضطراب الاجتماعى الذى تلا ذلك ، وقعت السلطة فى قبضة أولئك الذين كانوا يتحكمون فى الجيوش وفى الطرق التجارية وفى رؤوس الأموال العظيمة التى تكدست . ولقد صحب ظهور ضروب الحكم العسكرى المستبد إخماد حرية البحث العلمى فى الجامعات ، والقضاء دون هوادة على استقلال السلطات الروحية ، خدمة لصوالح الحكام الدينيين . وإننا لنجد لكل هذا رنيناً مألوفاً لدينا اليوم ، فهو يضارع ما حدث فى روسيا وألمانيا وإيطاليا وجهات أخرى عديدة فى أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى ، وماجرى بعد الحرب العالمية الثانية حتى فى الولايات المتحدة البعيدة بحكم موقعها الطبيعى . ولقد سار العمل قدماً بانتظام لتحويل جامعات العصور الوسطى من هيئات دولية للطلاب والباحثين إلى منظمات قومية ، تخضع فى ذلة للحكام الجدد المستبدين ، صامة آذانها عن « الأفكار الخطرة » ، مقيدة بأيمان الإخلاص والولاء ، وكان لهذا ما يناظره فى الكنيسة وفى المدينة .

وفى خلال بضعة قرون ، تكشفنا منظمات العصور الوسطى الأقدم عهداً من سواها ، عن دلائل تغفل الفساد فيها ، ولقد أتى هوبز بنجا

(Huizinga) في مؤلفه « تدهور العصور الوسطى » The Waning of the Middle Ages بذخيرة من الأمثلة التي تدعم حدوث هذا التغير، وطبقاً لما يقوله فون بيلو (Von Below) فقد بدأ في القرن الخامس عشر وجود لعب القمار المنظم في ألمانيا في دور أعدتها البلدية . وظهرت هذه الاتجاهات بعينها في الكنيسة ، فإن الأمر لم يقتصر على شراء المناصب الدينية وبيع بركات الكنيسة ، بل إن المعتقدات الخرافية ذاعت من جديد على نطاق عام ؛ فالاعتقاد في قوة السحر - وهو ما أبى القديس بونيفاس (St. Boniface) أن يسلم به في القرن الثامن - نال مصادقة تامة من الكنيسة في سنة ١٤٨٤ . ولعل ذلك يرجع إلى ما حدث من عودة ذبوع سالف المذاهب الوثنية الأرضية التي قلبت المبادئ الخلقية المسيحية رأساً على عقب . ولم يصبح اضطهاد السحرة من الأمور المألوفة إلا في القرن السابع عشر الذي امتاز بظهور المناهج الدقيقة للعلوم الطبيعية ، وقد كان من بين أشد المسيئين أذى في هذه الناحية المحدثون من علماء الطبيعة والفلاسفة أنفسهم ؛ قوم من أمثال يوسف جلانفيل (Joseph Glanvill) الذين تنبأوا في وقت واحد تقريباً بأن العلم والتقنيات ستحدث تغييراً شاملاً في العالم المادى .

بيد أن ذات الصدمة التي أحدثها وباء الموت الأسود أفضت كذلك إلى رد فعل مختلف جداً ، وهو حشد الجهود على نطاقى هائل ليس من أجل الموت أو الخلود أو الطمأنينة أو الاستقرار ، بل من أجل كل ما تستطيع الجرأة البشرية أن تستحوذ عليه وتتحكم فيه في مدى حياة فرد من الأفراد . وبين عشية وضحاها انقلبت ست من الخطايا المهلكة إلى فضائل أساسية ، وأصبحت أقبح خطيئة منها ، خطيئة الكبرياء ، هى السمة التي يأسى بها القادة الجدد للمجتمع ، سواء في مضمار الأعمال أو في ميدان القتال ، وأصبحت الدوافع التي تسيطر على الناس في كل مكان هى

الحصول على الثروة وعرض مظاهرها ، والاستحواذ على السلطة وبسط نطاقها . ولقد كان الخضوع لهذه الدوافع سارياً منذ أمد بعيد ، ولكن اعترف الآن صراحة بأنها مبادئ يستهدى بها المجتمع بأسره .

ولقد استغرق الانتقال من الوضع القديم إلى الوضع الجديد أربعة أو خمسة قرون ، أى الانتقال من نزعة الشمول التى سادت فى العصور الوسطى إلى نزعة الانتظام المطرد التى شاعت فى العصر الباروكى ، ومن النزعة المحلية فى العصور الوسطى إلى النزعة المركزية فى العصر الباروكى ، ومن الخضوع للسلطان المطلق لرب العالمين وللكنيسة الكاثوليكية المقدسة ، إلى الخضوع للسلطان المطلق للعاهل الدنيوى والدولة القومية ، من حيث إن كلاهما كان مصدراً للسلطة وموضعاً للتقديس الجماعى . ولنحذر حجب الصفة الجوهرية لهذا التغيير بالاعتصار على الرجوع إلى ما صاحبه من المظاهر الجمالية ، فإن الكشف عن الآثار القديمة وتسجيل مقاييسها ، والكشف عن قدر أفلاطون وفيتروفيوس ، واحترام الطرز الخمسة فى العمارة ، والإغراق فى الابتهاج بالزخارف العتيقة وبالتماثيل التى يكشف عنها حديثاً - إن كل هذا أسدل ستاراً من الوقار الجمالى على ألوان المظالم والتهتك التى ارتكبتها السلطات الحاكمة . وقد كان بوسع الخبيرين من أمثال هيبوليتو فيتيليسكو (Hippolito Vitellesco) - على حد ما روى جون إيفلين - أن يعانقوا التماثيل العتيقة وأن يتحدثوا إليها كما لو كانت على قيد الحياة ، ولكن الأحياء من الناس كانوا فى سبيل التحول إلى آلات لا مشيئة لها ولا إرادة ، فلا تفعل إلا ما تؤمر به ، وقد كان ذلك بمثابة العودة إلى أقدم الأساليب التى كانت تمارس فى المدن التى كان الملوك يقبضون على زمام السلطة فيها :

والانجاء الذى انطوى عليه هذا النظام الجديد لم يصبح واضحاً على أتم وجه إلا فى القرن السابع عشر ، فعندئذ ابتعدت كل مظاهر الحياة عن اتجاه العصور الوسطى لتتصوى تحت شارة جديدة وهى شارة الأمير ، وإن كتاب

« الأمير » الذى وضعه مكيا فيلى ليمدنا بالكثير مما يهديننا إلى تبين تخطيط المدينة الجديدة وأحوالها السياسية ، كما أن ديكارت ، الذى جاء فيما بعد ، سيعيد تفسير دنيا العلم بلغة النظام الموحد للمدينة الباروكية . وإن ما تفتقت عنه بديهية الرجال السالفين من أمثال ألبيرتى ، قد تحقق أخيراً فى القرن السابع عشر فى النهج الباروكى للحياة ، وفى التخطيط الباروكى ، والحديقة الباروكية ، والمدينة الباروكية . وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، كان تخطيط الأحياء الجديدة فى المدن لسكنى الطبقات المتوسطة يوضع على نسق سقيم الأناقة ، وفقاً للنموذج الباروكى الأرسقراطى ، وحى سوٲ كنسنگتون (South Kensington) فى لندن ، الذى يعتبر الآن الحى الرئيسى للفنادق والمنازل المعدة لاستقبال النزلاء (boarding houses) ، ليس إلا زفرة الاحتضار التى لفظها عهد الملكة فكتوريا مما استنشقه من تلك النسمة الجديدة من القوة والنظام .

٣ — طوفة وتنقية

قبل أن تتم للنظام الباروكى السيطرة على كل نواحى الموقف تقريباً ، كانت هناك مرحلة متوسطة امتزج فيها الحديد بالقديم وأفاداً فائدة متبادلة ، نتيجة لذات ما بينهما من تناقض وتعارض ، ولسوء الحظ أنه لا يزال يطلق على هذه المرحلة « الـ » نهضة ، وهو تعبير أصبح راسخاً إلى حد لا يمكن معه نبذه بسهولة ، إلا أن مدلوله يكاد يكون مضللاً ، كمدلول « الـ » انقلاب الصناعى ، وفى هذه المرحلة من مراحل بناء المدن ، أصبح مما لا يطاق بقاء السور الذى بات الآن بلا معنى ، وكذلك بقاء القوضى وسوء النظام ، وهو كثيراً ما انصفت به المدن فى أواخر العصور الوسطى ، وحتى من الناحية العملية أصبحت تساور الناس الظنون بأن الشوارع المتعرجة ، والأزقة المظلمة ، تساعد على ارتكاب الجرائم . بل إنه فى سنة ١٤٧٥ وصف فيرانتى (Ferrante) ملك نابولى الشوارع الضيقة بأنها خطر على الدولة .

ولكى يجد الناس مجالا للتنفس من جديد ، عمد المشتغلون بالحدد بالتخطيط والبناء إلى إزالة الجدران المتزاحمة ، وهدم الحظائر والحوانيت الخشبية والمنازل القديمة ، وإلى اختراق الأزقة المتعرجة لإنشاء شارع مستقيم أو ميدان مستطيل طلق . ولا بد من أنه في مدن كثيرة أحس الناس وكأن مصاريع النوافذ قد فتحت على حين فجأة ، في حجرة حبيسة الهواء تعلو جدرانها بيوت العنكبوت .

بيد أن إطلاق تعبير « مولد جديد » على هذه التغيرات التي تمت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر إنما ينم عن إساءة فهم للدافع والنتيجة في آن واحد ، فإننا على الأصح بصدد نوع من التنقية الهندسية للروح التي كانت سارية على مدى عدة أجيال ، والتي كانت لا تسعى وراء تغيير المدينة التاريخية على نطاق واسع ، بل وراء تعديلها جزءاً جزءاً . ففي مدن مثل فلورنسا وتورين - وكانت معالهما الرومانية الأصلية لا تزال واضحة للعيان - كان الطراز الجديد وثيق الصلة ببيئته إلى حد يبدو معه أنه استمرار للماضى أكثر مما يبدو أنه إنكار له . فمثلا « البوائك » المعروفة باللوجيا دى لانزى (Loggia dei Lanzi) في فلورنسا قد تمت في سنة ١٣٨٧ ، ومن ثم فإنها تنتمي إلى العصور الوسطى من حيث التاريخ ، إلا أنها تنتمي قطعاً إلى عصر النهضة من حيث الشكل - إذ أنها طلقة رصينة بأقواسها الثلاث المستديرة ، وأعمدتها الكلاسيكية ، فهل هذا مولد جديد ؟ كلا إنه تصفية ، محاولة للعودة إلى نقطة الابتداء ، على نحو ما قد يصنعه المصور عندما يقوم بالتصوير فوق الألوان الملطخة والأشكال المضطربة على لوحه ليستعيد معالم تخطيطه الأصلي .

وإذا أردنا استعمال التعبير بدقة فإنه لا توجد مدينة نهضة ، وإنما توجد قطع من طراز النهضة ، وهي عبارة عن فتحات وتنقيات عدلت من تكوين مدينة العصور الوسطى على نحو جميل ، وإذا كانت المباني الجديدة - بما اتسمت

به من وقار مبهم وانتظام رصين - أفسدت ما في طراز العصور الوسطى من تناسق ، فإنها أوجدت علاقة الطباق التي أظهرت ، عن طريق المفارقة ، ما في الشوارع والمباني من الصفات الجمالية التي بدونها كانت تبقى غير لافتة للأنظار ، وفي الغالب خافية . فلقد ظل اللحن ذاته من ألحان العصور الوسطى ، وإنما أضيفت آلات أخرى إلى فرقة العازفين فتغيرت سرعة إيقاع لحن المدينة وصيغته .

وأمارات هذا الطراز الجديد هي الشارع المستقيم ، والخط الأفقي المتواصل للسقوف ، والقوس المستديرة ، وتكرار عناصر متجانسة على واجهة المبنى ، كالطنف (الكورنيش) ، والعتب ، والنافذة ، والعمود ، ولقد ألمع ألبيرتي إلى أن الشوارع « سوف تكون أجل مظهراً بكثير إذا بنيت الأبواب جميعاً طبقاً لنموذج واحد ، وأقيمت المنازل على الجانبين على مستوى خط واحد بحيث لا يعلو واحد منها الآخر » . ولقد عزز هذا النقاء ، وهذه البساطة ، مظهر الواجهة ذات البعدين والمنظر الأمامي الذي يواجه القادم ، ولكن الطراز الجديد ، في الفترة التي كان ما زال حياً فيها ، لم يُنابر إطلاقاً على تعميم تنفيذه مثابرة طاغية تماثل ما أتى به القرن السابع عشر في ركاب قواعده الدقيقة التكوين ، وشوارعه العريضة التي لانهاية لها ، وأنظمتها القانونية المتجانسة . والواقع أنه بهذه المرونة في ذاتها ، وهذا الابتعاد عن التنظيم على وتيرة واحدة ، دلت البناء المحدثون في عهد النهضة على مدى ما يدينون به لطراز العصور الوسطى . ونجد أن ارتفاع المكتبة الحديثة التي شيدها سانسوفينو (Sansovino) في بياتزا سان ماركو لا يصل تماماً إلى مستوى ارتفاع القصر الدوقي ، وكذلك أيضاً نجد أن المباني القائمة حول بياتزا سانتيسما أنونزياتا (Piazza Santissima Annunziata) في فلورنسا لا تتساوى في الارتفاع إلا على وجه التقريب ، ومهما يبلغ من دقة نظام شارع عصر النهضة فإنه لا يتجاذى إلى الحد الذي يجعله صلباً أو مرهقاً .

ولقد أطلق فعلا اسم الشارع الحديد (Strada Nuova) ، على أحد هذه الشوارع الأولى الجديدة ، وهو الشارع الذى أنشأه الأقطاب الأربعة فى جنوة . و يروى لنا فازارى (Vasari) أن جالباتزو أليسى (Galeazzo Alessi) من بروجيا هو الذى وضع تصميمه ليكون أفخم شارع فى إيطاليا . ولقد أقيمت على جانبيه قصور ضخمة منفصلة بعضها عن بعض تولى هو تصميمها أيضاً ، وكانت تقوم من ورائها على سفح التل . حداثى كان اتساعها يكفى لإيواء جيش خاص ، كما كانت الغرف تناسب مع ذلك فى ارتفاعها ، بيد أن هذا الشارع الحديد الجرىء ، وإن كان أوسع من الأزقة والطرقات القديمة ، فإن عرضه مازال لا يزيد على عشرين قدماً وطوله يقل عن سبعمائة قدم . وهكذا فإنه فى مبدأ الأمر لم يطرأ تغيير جوهرى على نموذج المدينة القديمة ، حتى عند تنفيذ إرادة من لا يعبأون بشئ من ذوى الجاه والنفوذ . ولقد شيدت أغلب قصور عصر النهضة فى فلورنسا على جوانب شوارع ضيقة ترجع إلى عهد الرومان أو العصور الوسطى ، ومن أعظم الأمثلة التى تستثنى من ذلك قصر بيتى pilli على الضفة الأخرى للنهر — وهو يقع فى الضواحي إلا أنه مع ذلك قريب من شارع رومانو القديم .

ولم يحدث فقط أن أهداف المحدثين من المشتغلين بتخطيط المدن فى القرن السادس عشر كانت محدودة ومتواضعة ، بل إن هذا التواضع كان فى ذاته سبباً فى إبراز أفضل ما فى الطرازين القديم والحديد على السواء . ولم يبذل القائمون الجدد بالتخطيط أية محاولة للتنسيق بين تصميماتهم والنماذج القديمة للعصور الوسطى ، فإن ذلك كان من شأنه إحباط مقاصدهم ، ولكن لما كان الكثير من المباني القديمة لا يزال قائماً ، فإن المباني الحديثة خلقت طرازاً دسماً معقداً فى تكوينه ، وكثيراً ما كان أبعد على الارتياح مما جاء فى حقبة تالية من التكوينات الموحدة التنسيق والهدف . والنموذج المثالى لما

التحقق على هذا الوجه الظاهر للعيان هو الشارع المستقيم الضيق الذى يتألف بجانبه من مباني دواوين الحكومة (أوفيتسى Uffizi) فى فلورنسا فى عصر النهضة ، فإن هذه المباني بمثابة أشكال هندسية لتوضيح الطراز الجديد : وإن التكوين الكلاسيكى لهذه المباني ، بما فيها من عناصر زخرفية متكررة وخطوط أفقية متلاقية ، خلّيق أن يبعث سريعاً على الملل لولا أنها تكشف على الفور عن نوع آخر من المباني ، وهو برج القصر القديم للسادة الحكام القائم فى الميدان الواقع عند نهاية المباني .

وعندما أتيج للمشتغل بالتخطيط أن يكون حراً فى وضع تصميم لمدينة بأكملها وفقاً للمبادئ عينها التى أنشئ عليها الشارع الجديد (سترادا نوفا) أو مباني الدواوين الحكومية (أوفيتسى) ، انكشفت وجوه النقص من الناحية الجمالية ، فى هذا الاطراد فى تنظيم الأرض الفضاء على نطاق واسع ، وفى هذا الإغفال ، على نطاق واسع كذلك ، لتنوع الوظائف البشرية وتعددتها . فى الحالة الأولى كان النظام لا يزال أداة من أدوات الحياة ، أما فى الحالة الثانية فقد أصبحت الحياة أداة من أدوات النظام . بيد أن هذا الطراز الجديد كثيراً ما أضاف قدراً قليلاً إلى جمال مدينة العصور الوسطى بأن أكسبها — كما هو الشأن فى حالة بياتزا سانتيسيمو افونزيانا — قسماً مما يتوافر فى رواق الدبر من هدوء الفضاء الداخلى . وسوف نتولى فى مرحلة قادمة دراسة امتداد استخدام فكرة مثل هذه الساحات الطلقة إلى مباني السكنى ، حيث أضافت عنصراً جديداً إلى فن المشتغل بالتخطيط .

والتقليد الجديد فى البناء باستخدامه النماذج الكلاسيكية ثانية للتعبير عن مشاعر وأحاسيس جديدة ، قد أوجد حتى القرن التاسع عشر معنى جديداً للطلاقة والتنقية والنظام الدقيق . والأماكن التى كان يسمح ببقائها مضطربة المظهر فى المدينة القديمة كسيت برداء قشيب ؛ فالمواقع التى لم تتناولها يد الإنسان بالتهذيب ، ودرست بفعل عوامل التعرية مثل تل الكايتول فى

روما ، رصفت بالحجر ، وتحول طريق الماعز الوعر الانحدار إلى مرتقى فاخر من الدرج . ولم يكن في الواقع أقل الخدمات التي أدتها تقاليد عصر النهضة ما جهز به الشارع من رصف بالحجر وبالأجر ، وتشديد درج حجري ، وإنشاء نافورات مزينة بزخارف منحوتة ، وإقامة تماثيل تذكارية ، وبما في صعود الدرج وحركة تلاعب مياه النافورات من اتجاه إلى أعلى يعبر عن معنى الحركة العمودية أضافت هذه المبتكرات بهجة فضائية إلى الوظائف التي كانت تؤديها . وإن الدرج الإسباني (Spanish steps) في روما الذي كان في آن واحد سوقاً للأزهار ، ومجتلاً ، وطريقاً يكفر عن سيئات الزاهين إلى كنيسة الثالوث المقدس (Trinitá) التي تعلوه — إن هذا الدرج ليؤدي مهمة تنفيس يجب ألا تقاس بالمساحة التي يشغلها ، بل بمدى درجة الانتفاع به .

ولقد ظل قدر من هذه الروح باقياً في أفضل الأعمال التي تمت في العصر الباروكي ، وبخاصة في النافورات المزينة بزخارف منحوتة والميادين التي صممها وزخرفها برنيني (Bernini) في روما . وكانت قيمة هذه البقاع تزداد كثيراً إزاء التباين بين ما فيها من جمال ونظام وما يحيط بها من فوضى واضطراب . وحالما أصبح الطراز الباروكي واسع الانتشار على نسق واحد مطلق ، ولم يعد في الإمكان وجود تباين ولا تجنب مسيطرة ذلك الطراز ، ظهر ما به من وجوه الضعف ، فقد حل التنظيم المطرد مكان التنقية ، والفراغ مكان الطلاقة ، والصفخة مكان العظمة ، وإن التأمم بالتخطيط إذا غنى منفرداً فإن من المحتمل أن يتضاعف ارتفاع صوته لعدة طبقات ، ولكنه لا يتسنى له أبداً أن يحل مكان كل المغنين المشتركين في فرقة الإنشاد بالمدينة ، فإن لكل منهم دوراً يؤديه مع متابعته النص المدون لأنغام اللحن :

وفي الأبراج العاجية التي يعيش فيها المتخصصون في نقد الفن ، بل المتخصصون في نقد تخطيط المدن ، كثيراً ما تفسر هذه التغيرات من

طراز النهضة إلى الطراز الباروكى بأنها ليست إلا تغييرات فى الذوق أو استبصاراً جمالياً . بيد أن التأثير الذى أحدثته فعلاً فى تخطيط المدن يرجع إلى أنه كان يعزّزها فى كل ناحية تغييرات سياسية واقتصادية بعيدة الغور ، فالعوامل التى تمخضت عنها أصلاً مدن الملوك فى العالم القديم ، عادت إلى الظهور من جديد دون أى تغيير تقريباً ، فيما عدا ما يحتمل من أن الأجهزة الجديدة للقوة كانت أكثر فاعلية ، وأن تخطيطات المدن التى نشأت عن تلك العوامل كانت تبرز تخطيطات المدن القديمة فى صرامتها وانصرافها إلى اتجاه بعينه ، وبُعدها عن روح التعاون ، بل إنها كانت تفوقها فى عدم الاكتراث بألوان التفاعل المتبادل المعتمد البطيء وضروب التلاؤم والتعديل التى تتم على مهل نتيجة للتجارب والاختبار ، وهى التى تتميز بها أكثر أساليب تطور المدينة انتظاماً . ولفهم التخطيط الباروكى ، الذى استقر شكله فى النهاية قبيل آخر القرن السابع عشر ، وتمخضت عنه أحياء جديدة فى المدن ، بل مدن جديدة لإقامة الأسر المالكة ، يجب أن يتبع المرء ما طرأ من الانتقال والتبديل على النفوذ والسلطة عند ختام العصور الوسطى .

وبما أن كل هذه الاتجاهات برزت فى النهاية فى المدينة الباروكية فقد راقى إلى منذ عهد طويل استخدام هذا التعبير — على سبيل الزرابة أصلاً — فى مجال الوصف الاجتماعى دون قصره على الناحية المعمارية . والمفهوم الباروكى على النحو الذى تبدى فيه فى القرن السابع عشر يمتاز بميزة خاصة ، إذ أنه ينطوى فى ذاته على العنصرين المتعارضين فى ذلك العصر ، فأولاً من الناحية المجردة الرياضية والمنهجية ، تم التعبير عنه إلى درجة الكمال فى التخطيط الصارم للشوارع ، والتوزيع الدقيق لأجزاء المدينة ، وفى الأسس الهندسية لنظام حدائقها ، وفى منظرها العام . وفى الوقت ذاته نرى أنه فى فى التصوير والنحت لذلك العصر ، يسلم المفهوم الباروكى بالنوازع الشهوانية المتمردة ، المسرقة ، المتنافية للنزعة الكلاسيكية ، والنزعة الميكانيكية ، وقد

تم التعبير عن هذه النوازع في ملابس العصر وحياته الجنسية وأساليبه السياسية الموجهاء . ولقد كان هذان العنصران موجودين معا فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، وتارة كان كل منهما يعمل على حدة منفصلا عن الآخر ، وتارة كانت تسودهما حالة من التوتر في داخل كيان كل أوسع نطاقا .

وإزاء ذلك يمكن اعتبار نماذج أوائل عهد النهضة - في صفاتها - بواكير الطراز الباروكي واعتبار النماذج الكلاسيكية الحديثة - من فرساي إلى سنت بطرسبرج - الطراز الباروكي المتأخر ، على حين أن الرومنطيقية بالخاصة المستهرة ، التي اتسمت بها مبتكرات العاملين على إحياء الطراز القوطي في القرن الثامن عشر ، يمكن اعتبارها طورا من أطوار الأهواء الباروكية . ولا يكون لشيء من هذا كله معنى إذا اعتبرنا الطراز الباروكي طراز فترة بذاتها في تطور العبارة ، بيد أن التوسع في مدلول كلمة باروكي قد سار قدما باطراد في خلال الجيل الأخير ، وإن ما تنطوي عليه أصلا هذه الكلمة من الغموض والتناقض يسوغ استعمالها على هذا الوجه الأعم . وأما من حيث المدينة ، فإن نماذج النهضة هي المتغيرة ، والنماذج الباروكية هي البارزة ، والنماذج الكلاسيكية الحديثة هي الثابتة في هذا التحول الحضاري المعقد .

٤ - العلم والمدينة

منذ بداية العصور الوسطى كانت سلطتان تتسابقان في سبيل الفوز بالسيطرة في أوروبا الغربية : وكانت إحداهما ملكية والأخرى بلدية . وحتى بقي أزهى أيام المدن الحرة ، كانت توجد في أوروبا جهات دعمت فيها السلطة الملكية مركزها على وجه أسرع من سواها ، وأنزلت المدن إلى مصاف أنصار الإقطاعيين ، وكانت تلك الجهات هي إنجلترا واكويتانيا

وصقلية والنمسا : وأما حينما كانت السلطة الملكية والإمبراطورية في أضعف حالاتها ، كما كان الشأن في شمال إيطاليا ، فإن المدينة حققت استقلالها على أكمل وجه بوصفها وحدة سياسية متكاملة ، بيد أنه - حتى في الجهات التي كانت فيها السلطة الملكية قوية ، كأراجون مثلاً - كانت هذه السلطة أبعد من أن تكون مطلقة ، وآية ذلك القسم الذي كان يؤديه رعايا ملك أراجون ، فقد كان نصه : « نحن الذين لا نقل عنك ، نقسم لك أنت الذي لست أفضل منا ، بأننا نقبلك ملكنا ومولانا على شريطة أن ترعى كل حرياتنا وشرائعنا ، وإلا فلا » . وقد كان توحيد الضياع الإقطاعية المتفرقة وإنشاء مناطق متصلة للإدارة السياسية في داخل إطار واضح المعالم أمرين هامين لخير المجتمعات التي كان هذا التنظيم يتناولها . وقد كانت المشكلة الحقيقية هي هل هذا التوحيد يجب أن يتم لصالح طبقة صغيرة ممتازة أو يجب أن يتم عن طريق اتحاد حربيين المدن والأقاليم ؟ والسوء الحظ أن المدن ذاتها - على نحو ما رأينا - لم تكن لديها مناعة تقيا عوامل الإغراء بمتابعة حياة السطو والتطفل التي غدت ميسورة بفضل ما توافرها من أسلحة عسكرية ، فكانت تستخدم القوة لتحقيق مآربها الاستغلالية في مناطق محلية ، وفي مغامرات استعمارية أكثر بعدا من ذلك ، وكررت على التناوب الأخطاء السياسية التي ارتكبتها الإسبرطيون والأثينيون وإن لم تكرر أخطاء الرومان .

وكثيراً ما كانت المدن الأقوى تسعى إلى غزو جاراتها الأضعف منها ، ولو لم يكن ذلك من أجل هدف أكبر من القضاء على سوق منافسة . وفي أوقات الحرب ، كانوا في إيطاليا - منذ أواخر القرن الثاني عشر - ينقلون قدراً كبيراً من السلطة التنفيذية إلى موظف خاص يدعى البودستا (Podesta) كان يتحرر عند الضرورة من قيود القانون ، وأحياناً كانت المدن تستخدم الجند المرتزقة المحترفين لدهم سيادتها على منافساتها ، وكان

أهل بيزا من أوائل من استأجر الجنود المحترفين في الحرب مع فلورنسا ، ولقد كان نجاحهم مذكراً إلى حد أن هذه المدينة الأخيرة بدأت تفقد ثقمتها بجيش مواطنيها الذي كانت تفاخر به . ولقد كانت فلورنسا مدينة حرة ، ولكنها تعاقبت في سنة ١٣٢٢ على أن تتنازل عن حريتها مرة ثانية للملك نابولي في مقابل حمايته إياها .

وحال الشدائد الحربية ، كانت بلديات المدن الإيطالية أول من قلب عملية الحصول على الحرية رأساً على عقب . وعلى الرغم مما كان يحدوها من أمل في اعتبار استخدام المحترفين من الإقطاعيين أو المأجورين تدبيراً مؤقتاً ، فإنها كثيراً ما وجدت أن القائد الجديد الأجير (الكوندوتيري Condottiere) يصبح ، في مقابل انتصاره ، حاكماً للمدينة التي كان قد استوًجر للدفاع عن حريتها . وسرعان ما أصبح يقف فريداً بلا شريك في ساحة السوق ، تمثال رجل على صهوة جواده ، كان صاحب الأمر الجديد المطلق السلطان ، ورمزا للأساليب الجديدة والقوة الجديدة — ولو أنه — فيما عدا الجواد — يكاد يكون قديماً قدم المدينة ذاتها .

وكان يوجد ضعف آخر في نظام الحكم الديمقراطي في العصور الوسطى. لا يختلف عما كان يوجد في أئتنا ، فإن التوزيع الواسع النطاق للسلطة والمسئولية كان يستنفد قدراً كبيراً من وقت كل مواطن . وإذا كانت الدورة السريعة للتناوب في شغل الوظائف — فستة من أصحاب المراكز الرئيسية في فلورنسا كانوا يؤدون فترة خدمة لمدة شهرين والآخرون لمدة سنة فحسب — قد حالت دون استئراء الفساد ، فإنها قضت على الكفاية ، ووقفت عقبة دون اتباع سياسة طويلة المدى . وفي تقدير « براونفلز » كانت فلورنسا تقتضى خدمات نحو ألف مواطن في كل سنة طبقاً للنظام الثنائي والحزبي ، وفي المدن الأقل سكاناً مثل سينا وبيزا (٢٠.٠٠٠) أو بيسنويا وأريزنو (١٠.٠٠٠) كانت الحاجة تدعو إلى استخدام عدد

أكبر من ذلك نسبيًا . وفي القرن الثالث عشر كان المجلس الأكبر في لوكا يتألف من ٥٥٠ عضواً ، مع أن سكانها كانوا يبلغون خمسة عشر ألف نسمة . وما دام عدد السكان محدوداً ، كان العمل بالنظام الديمقراطي ميسوراً ، ولكن صاحب نمو المدن انعدام المسئولية ، وعدم الكفاية وتشعب الصوالم ، والحمول السياسي - وقد مهد كل ذلك السبيل أمام ديكتاتور طاغية يجمع السلطة بأسرها في قبضة يديه ، فإنه عند ما يتمرد « الهاوى » على العمل يحل مكانه « المحترف » .

ومجمل القول أن المدن في سبيل بسط سلطة غاشمة على جيرانها ، رضية شيئاً فشيئاً بفقدان ما كانت هي ذاتها تستمتع به من حرية داخلية ، وأُنكى من ذلك أنها خسرت دعواها الأدبية حيال الأوضاع الأخرى للاستبداد . والجهات الوحيدة في أوروبا التي تم فيها الاتحاد بين المدن المتمتعة بالحقوق البلدية والدولة المؤلفة من أقاليم دون أن تفقد المدن حريتها ، كانت - كما أوضحت - الاتحاد الكونفيديرالى للمقاطعات السويسرية والأقاليم الواطئة .

وفي أوائل العصور الوسطى لم ينجح كبار النبلاء الإقطاعيين في إطعام أتباعهم ، وجمع إيجاراتهم ، ونشر قدر يسير من الأمن والنظام في أملاكهم إلا بالتنقل المستمر من ضيعة إلى أخرى من ضياعهم . وكان « البلاط » عبارة عن معسكر متنقل ؛ فقد كانت اليقظة والحركة ثمناً للسلطة ، وكان هذا ينطبق على الملوك وكذلك على من دونهم من النبلاء . وكان الوزراء الملكيون ، والقضاة الملكيون ، والجهاز الحكومى بأسره ، والرقابة المالية ، كان كل أولئك جهازاً متحركاً في جوهره ، فقد كان يحفظ بالسلطة عن طريق الإشراف الشخصى . وفي خلال القرن الرابع عشر بطل العمل على هذا المنوال في أرجاء المملكتين العظيمتين : إنجلترا وفرنسا ، وذلك لأن مدونات المحاكم ، والقوائم ، والسجلات ، والمحفوظات ، والمراسلات

— فضلا عن الموظفين أنفسهم — كانت قد بلغت من الكثرة والضخامة حداً لا يسمح بنقلها . وتبعاً لازدياد عدد السكان واتساع المساحة غدا الإشراف الشخصي مستحيلاً ، ومن ثم بات لا مناص من الإدارة عن طريق الغير ، ومن مباشرة السلطة عن طريق الإنابة .

وعلى الرغم من أن الحركة الشعبية للحصول على الرقابة البرلمانية لم تصادف نجاحاً كبيراً في متابعة نشاطها إلا في إنجلترا ، فإن الدولة الحديثة أخذت تتكون في القرن الرابع عشر ، وكانت إماراتها جهازاً من الموظفين ، ومحاكم دائمة لتصريف العدالة ، ومحفوظات ومدونات دائمة ، ومباني دائمة في مواقع مركزية على قدر الاستطاعة لمباشرة الأعمال الرسمية . ولقد أجاد تاوت (Taut) في وصف هذه العملية ، فهو يلاحظ أنه « عند ما أقبل حكم هنرى الثانى كان الملك الإنجليزي قد ذهب في تركيز السلطة في شخصه إلى حد جعل كل ذوى الثروة والجاه يكثرون من التردد على البلاط سعياً وراء العدالة أو التماساً للرعاية » . وهذه الحركة ، أو على الأصح هذا الوضع استقر أولاً في الإدارة المالية ، التي كان لها مقر خاص في وستمينستر ، ثم امتد تدريجاً حتى تناول جميع مرافق الدولة . وكانت العملية في ذاتها عملية متبادلة ؛ إذ أن تركيز السلطة استوجب إنشاء المدينة العاصمة ، على حين أن المدينة العاصمة بسيطرتها على الطرق الرئيسية للتجارة وتنقلات الجيش ، كانت عوناً قوياً على توحيد الدولة .

وكان هذا الانتقال للسلطة مصحوباً بظهور هيئة موظفين حكومية ، فإن الحاكم المتجول الذى عرف في أوائل العصور الوسطى ، وكان يتغيب كثيراً عن قلعه أو عاصمته للقيام بحملاته أو للاشتراك في الحملات الصليبية ، قد ألقى الآن عصا الترحال واستقر ، وبلغ من القوة قدراً يكفى لإرغام أقوى أتباعه على السمع إليه . ولقد صحب وضع المحفوظات والعقود وسجلات الضرائب في المدينة العاصمة بحىء ججافل من الكتبة والموظفين

الدائمين - ولم يكن موظفو « أداة التعطيل » الجديدة تحت رحمة الانتخابات البلدية .

وفي كنف النظام الاستبدادى لم يكن ميسورا القيام بأى عمل فى داخل نطاق المدينة دون ترخيص خاص ، وكان وضع الأنظمة ونقضها مصدر نفع للأمير . فقد كان جمع الضرائب ، وفرض الغرامات ، وسن القوانين والأنظمة وما لا يقل عن ذلك شأنًا من إصدار جوازات السفر - كان كل هذا بمثابة الحبوب التى تدور عليها رضى الأداة الحكومية . وعند ما حل القرن السابع عشر ، كان قد وضع فى مدينة بادوا نظام لجوازات السفر ، وفى مدينة فيرارا كان الدوق يفحص بنفسه القائمة اليومية للمسافرين وهى التى كان أصحاب الفنادق يكلفون بتقديمها . وسرعان ما أصبح هذا النظام البيزنطى عاماً ، وكان فى الواقع قد نشأ أصلاً فى مدينة القسطنطينية . والعقاب نفسه - ذلك السلاح الذى لا بد منه للسلطة الاستبدادية - أصبح مصدراً للإيراد ، وطبقاً لما أورده يعقوب بورخارد (Jacob Burckhardt) فإن أميراً إيطالياً قال إن مشاجرات رعاياه كانت تدر عليه من الغرامات ما ينوف عن اثني عشر ألفاً من الدوكات .

ولإيواء هذه الإدارات الحكومية الجديدة ، كان لابد من إنشاء نوع جديد من المباني ، وهومباني الدواوين . والنموذج الأصيل لهذا الطراز من المباني هو ذلك الذى وضع تصميمه فازارى فى فلورنسا للأوفتسى (الدواوين) ، وكانت تتوج الجزء الداخلى فيها وقتاً ما شرفة مكشوفة فى الدور العلوى . فهنا القلب الأصيل للدواوين الحكومة فى أحسن صورة ، وهو لحسن الحظ متواضع فى نطاقه ، كئيب فى شكله ، ولكن دون أن يكون مخيفاً ، وقد قدر له أن يحاكى ، مع تعديلات ضئيلة وعلى نطاق ضخم ووتيرة واحدة مرهقة ، فى الأحياء القمبئة المخصصة للدواوين الحكومية فى باريس وسانت بطرسبرج وبرلين وواشنطن والمدن التى تدأب على تقليدها . وإن ما ينطوى عليه

النظام البروقراطي من ألوان التكرار والتنظيم على نسق واحد ، خلق في المدينة أثراً أعمق مما خلطه الجيش الجديد . وفي كنف هذا النظام إذاً كان كثيراً ما تحقق ، فيما يبدو ، كسب عاجل من ناحية الكفاية في إدارة الشؤون البلدية ، فإنه كانت تحدث على وجه الدوام خسارة من ناحية الحكم الذاتي . واليوم بعد استتباب الأمر للسلطة الإدارية ، أصبح كيان النظام الإداري والمهمة التي يؤديها يتسمان كلاهما بالصفة المفزعة التي صورها كافكا (Kafka) في مؤلفه « المحاكمة » (The Trial) .

ولنتنبه إلى أن المدينة العاصمة كان عليها أن تقوم بدور اجتماعي ودور سياسي على حد سواء ، ففيها كانت العادات والتقاليد واللهجات الريفية تذاب وتعاد صياغتها على نمط يحاكي ما كان متبعاً في البلاط الملكي ، وهذا هو ما أصبح يعرف باسم النمط القوي ، وهو قوي على الأصح عن طريق الفرض والمحاكاة أكثر منه عن طريق الأصل والنشأة . وكان لابد من انقضاء قرون لتحقيق التوحيد ، حتى فيما هو خارج عن نطاق الشؤون الشخصية كنظام الموازين والمقاييس ، فإنه لم يحدث إلا في سنة ١٦٦٥ أن اقترح كولبير (Colbert) « تطبيق نفس القوانين واستعمال نفس النظام للموازين والمقاييس في جميع أرجاء مملكة صاحب الجلالة » . وحتى الأمن على الحياة والممتلكات لم يأت عاجلاً على الأثر في كل أركان المملكة القومية الجديدة ، فإنه حتى وقت متأخر يصل إلى سنة ١٥٥٣ كانت توجد في « دليل الطرق في فرنسا » ملاحظات فحواها وجود « قطاع طرق » ، أو « غابة خطيرة » في الأماكن الحالية فيما بين المدن .

وكان تركيز السلطة في العاصمة السياسية مصحوباً بفقدان المدن الأخرى السلطة والمبادأة ، فكانت المكانة القومية تعني اختناق الحرية البلدية المحلية . وأصبح الإقليم القوي ذاته الحلقة التي تربط بين مختلف أنواع الجماعات والهيئات والمدن ، فقد كانت الأمة عبارة عن مجتمع يشمل كل ذلك وينتمي

إليه الفرد منذ ولادته . وكما أوضح جيرك (Gierke) اضطر فقهاء القانون الجدد إلى إنكار أنه كان للمجتمعات المحلية والهيئات البلدية كيان مستقل ، فالأسرة كانت الجماعة الوحيدة - فيما عدا الدولة - التي كان ينظر إلى وجودها على أنه ينطوي على مبررات ذاتية ، كما أن الأسرة كانت الجماعة الوحيدة التي لم تكن بها حاجة إلى الإذن الكريم من الملك لمباشرة مهامها الطبيعية .

وعند ما تم تركيز السلطة السياسية على هذا الوجه ، كان الأفراد يحصلون على امتيازات اقتصادية من الأمير وليس من المدينة ، وكان يتسنى عادة ممارسة هذه الامتيازات في أى مكان من أنحاء المملكة . وتبعاً لذلك فإنه بعد القرن السادس عشر كانت أعظم المدن حظاً من الزيادة السريعة في عدد السكان فيوفى المساحة وفي الثروة ، هي تلك التي كانت تأوى بلاطاً ملكياً ؛ فقد كان المصدر الرئيسى الذى تنبع منه القوة الاقتصادية ، وسرعان ما بلغت نحو اثنتى عشرة مدينة حجماً لم يصل إليه في العصور الوسطى ، حتى ولا عدد من المدن يعدّ على أصابع اليد الواحدة ، في فترة قصيرة كانت لندن تضم ٢٥٠.٠٠٠ و نابولى ٢٤٠.٠٠٠ وميلان أكثر من ٢٠٠.٠٠٠ ، وباليرمو وروما ١٠٠.٠٠٠ ولشبونة بوصفها ثغراً لمملكة عظمى ما يزيد على ١٠٠.٠٠٠ ، وكذلك أشيلية وأنتورب وأمستردام ، على حين أن عدد سكان باريس كان يبلغ ١٨٠.٠٠٠ في سنة ١٥٩٤ .

وعند ما استقرت أوضاع الدول العظمى في العالم الحديث ، واصلت العواصم انفرادها بالزيادة في عدد السكان ؛ ففي القرن الثامن عشر ، كانت المدن التي بها ما يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نسمة تشمل موسكو و فيينا و سانت بطرسبرج وباليرمو ، على حين كان عدد سكان نابولى ٤٣٣.٩٣٠ ، وعدد سكان باريس حوالى ٦٧٠.٠٠٠ ، وعدد سكان لندن يزيد على ٨٠٠.٠٠٠ ، على حين أن المدن التجارية مثل بريستول ونوريتش ، أو المدن

الصناعية ، مثل ليدز ومنشستر وايزرلوهن (Iserlohn) وبادربرون (Paderborn) بقيت في أغلب الأحوال مدناً صغيرة ، أى إن عدد سكان كل منها كان يقل عن ٥٠.٠٠٠ نسمة .

وأما مدينة هامبورج التجارية ، ومدينة ليون الصناعية — وقد كانت كلتاهما ذات أسس راسخة من العصور الوسطى ، وحياة اقتصادية متواصلة النشاط — فلنهما الاستثناءان الرئيسيان ؛ فقد كان عدد السكان في كل منهما يزيد على ١٠٠.٠٠٠ نسمة في أوائل القرن التاسع عشر ، ولكنهما إلى ذلك الحين لم تكونا تمثلان الأوضاع السائدة للقوة السياسية والمالية . وقد امتدت إلى نواح أخرى زيادة الحجم والمدى في العمليات المالية والسياسية ، فإن روما كانت تزدهر بمستشفى مجهز بمعدات لإيواء ٤٥٠ لقيطا ، ٥٠٠ بنت ، وبألف سرير للمرضى في جناح واحد ، وهذا ينطوى على فقدان كلي للمعيار البشرى مع ما يقابل ذلك من تحويل العلاقات الشخصية إلى صلات آلية :

وعلى النقيض من نظام العصور الوسطى ، فإنه لم يعد هناك توزيع ولا لامركزية من حيث السلطة والسكان ، وإنما البلاد الألمانية وحدها هي التي ظل فيها الطراز الأقدم عهداً لنظام البلديات الاقتصادية باقيا على نحو فعال لمدة طويلة ، على أن توحيد براندنبرج وبروسيا في القرن السابع عشر غير وجه الأمور حتى في تلك البلاد . ولقد نمت الدولة على حساب أجزائها ، فالمدينة العاصمة تجاوزت في نموها كل الحدود بالقياس إلى المدن الريفية ، وعلى حسابها إلى حد ليس بالقليل . وعند ما أصبح للبلديات شأن هام ، غدا الإشراف المحلي في حاجة إلى تعزيزه بتشريع قومي ، وفي النهاية لم يعد يتسنى القيام بأى عمل دون معاونة السلطة المركزية ومصادقتها .

وعلى الرغم من أن العواصم الطبيعية كانت تقوم عادة في مواقع تتوافر فيها مزايا خاصة للتجارة أو لأغراض الدفاع الحربى — ولقد كانت هذه المزايا من العوامل التي أسهمت أصلا في اختيارها — فإن حكام العصر

الباروكى استعانوا بكل سلطات الدولة لدعم هذه المزاي . وحيثما كان يتعذر وجود الموقع الطبيعى ، كانوا يعمدون إلى محاكاة بطرس الأكبر - عن بعد - فى إرادته الجبارة التى تمثلت فى إنشاء مدينة سانت بطرسبرج .

وموجز القول أن تكاثر المدن توقّف ، أو على الأقل أن الجانب الأكبر من النشاط فى هذه الناحية انتقل إلى العالم الجديد فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، فإن إنشاء المدن لم يعد فى نظر طبقة ناشئة من صغار الصناع والتجار وسيلة لتحقيق الحرية والأمان ، بل غدا على الأصح وسيلة لتركيز السلطة السياسية فى مركز قوى واحد تحت عين الملك مباشرة ، وللحيلولة دون أن يظهر ذلك التحدى للسلطة المركزية فى مراكز متفرقة فيكون أشد صعوبة فى وقفه عند حده . ومن ثم انقضى عهد المدن الحرة بحضارتها الواسعة الانتشار ، وأساليب حياتها الديمقراطية نسبيا ، وحل مكانه عهد المدن المحكومة حكما مطلقا ، وكانت بضع مدن قد تجاوزت الحد فى نموها تاركة المدن الأخرى تواجه أحد أمرين : فلما أن تقبل الركود ، وإما أن تريق ماء وجهها فى القيام بمحاولات يائسة من التقليد الدليل .

٥ - وسائل الإكراه

تقوم الرأسمالية وفنون الصناعة والحرب بدور حاسم فى نمو الدولة الحديثة ، ولكن من المستحيل تخصيص دور رئيسى لواحد من هذه العوامل فكل منها نما تبعاً لمؤثرات داخلية واستجابة لهيئة مشتركة ، ونمت الدولة منها جميعاً ، جنباً إلى جنب .

وكيف نشأت النظريات الحديثة الخاصة بالسلطات السياسية المطلقة ؟ ولماذا ظهر الحاكم السياسى المستبد بهذه السهولة نتيجة لما حدث فى تركيز رأس المال الاقتصادى والسلطة السياسية فى المدينة الإيطالية فى القرن الرابع عشر مع وجود أكثر من نقابة واحدة وأكثر من أسرة واحدة تتنازع على

إحراز ذلك المركز؟ وكيف انتشرت في أوروبا بدعة الحكم الاستبدادى ، فخلقت طغاة عمالقة مثل ملوك أسرة تيودور ، وطغاة أقزاما مثل صغار الحكام في ألمانيا - طغاة كان لهم نظراؤهم بين الفئة الجديدة من رجال المال والأعمال التى نشأ منها بعضهم ؟ إن هناك اسما آخر لهذا الإيمان المتزايد بالسلطة المطلقة ، ففى وسعنا أن ندعوه أوهام البارود .

إن القول القديم المأثور بأن البارود قضى على النظام الإقطاعى زعم بعيد عن الحقيقة ، فعلى الرغم من أن الاستقلال الإقطاعى لم يقو على مقاومة تركيز السلطة فى ملكيات قومية ، فقد كان من أثر البارود أنه أتاح للنبل الإقطاعيين فرصة جديدة للبقاء بإنقاذهم من ضغط المدن المحصنة عليهم ، وذلك أن البارود وسّع دائرة نشاط الجنود المحترفين وقوتهم وقدرتهم على التنقل ، ولا يفوتنا أن حل السلاح كان الحرفة الأزلية للزعم الإقطاعى . ومع ذلك فلا مراء فى أن إدخال استعمال البارود فى أوروبا^(١) فى أوائل القرن الرابع عشر - ذلك القرن الذى انهار فيه عدد كبير جداً من أنظمة العصور الوسطى - دق الناقوس الذى آذن بمغيب شمس المدن الحرة .

وإلى ذلك الحين كانت الطمأنينة تعتمد أساسا على الخندق البسيط والسور ، وكان ذلك كافيا للدفاع فى وجه المغيرين من المحاربين الذين كانوا لا يحملون معدات ثقيلة للهجوم ، فالمدينة التى أحكم تحصينها ، كانت منيعة فى الواقع ، وقد بقيت الحال كذلك حتى إلى عهد مكيا فيلى ، فإنه لاحظ أن « مدن ألمانيا ... محصنة على وجه ... يجعل إخضاعها أمراً عسيراً طويل المدى ، إذ أنها جميعاً مجهزة بما يلزم من الخنادق

(١) كان يظن إلى عهد قريب أن روجر بيكون (Roger Bacon) أوبرتولد شفارتز (Berthold Schwartz) هو الذى اخترع البارود ، ولكن رأى السائد اليوم هو أن البارود اخترع فى آسيا (ويحتمل أن ذلك كان فى الصين فى القرن التاسع) وأدخل استعماله فى أوروبا فى القرن الرابع عشر .

والأبراج ، وبما يكفي من المدفعية وهي تحتفظ على الدوام في مخازنها العامة بالطعام والشراب والوقود لسد الحاجة لمدة سنة » .

وإلى القرن الخامس عشر ، كانت للدفاع الغلبة على الهجوم ، وإن رسالة ألبيرتى عن تخطيط المدن (سنة ١٤٨٥) - وكانت رسالة متقدمة - لم تدخل المدفع في حسابها ، ولم يحظ فن التحصين بالحديد إلا بقدر يسير من عنايتها ، والواقع أن المدفعية بلغت من القصور كما بلغت من قلة المهارة في استعمالها في أول الأمر ما جعل جويتشاردينى ^(١) (Guicciardini) يلاحظ أن حصار المدن كان بطيئاً وغير محقق النتيجة ، وإلى أن غزا الفرنسيون إيطاليا في عهد شارل الثامن بعدد من الجنود لم يسبق له مثيل ، وكان ٦٠.٠٠٠ مقاتل ، وبقنابل للمدافع من الحديد بدلا من الحجر ، وكان الجيش جميعه يتحرك بسرعة لم يسمع بها إلى ذلك الحين - إلى أن حدث ذلك ، كانت كفة المدن تتعادل مع كفة مهاجمها أو على الأصح كانت هي الأرجح ، ولكن بعد ذلك الحين انعكست الآية ؛ فعلى حين أن القنبلة التي لا تنفجر - سواء أكانت من الحجر أم من الحديد ، وهي التي كان المدافع يستطيع استخدامها في مدفعه - كانت لا تحدث إلا ضرراً يسيراً عند سقوطها وسط فصائل من الرجال ، كان يتسنى لها أن تحدث ضرراً بالغاً عند استخدامها في الهجوم لفتح ثغرة في سور أو عند اختراقها أجد السقوف . وقد كان من جراء استخدام المدفعية الجديدة في أواخر القرن الخامس عشر ، القضاء على مناعة المدن ، ولم يكن من شأن وضعها الدفاعي القديم على تل وعرة المرتقى ، أو قبة صخرة شائخة ؛ إلا أنه جعل منها هدفاً أشد وضوحاً ، وبذا غدت المدينة - التي كانت « منيعة » في أوائل العصور الوسطى - أيسر منالاً من المدينة المحصنة التي خلفتها .

وفي سبيل محاولة التكافؤ مع الظروف الحربية ، اضطرت المدن منذ

(١) كان فرنشكو جويتشاردينى (١٤٨٣ - ١٥٤٠) مؤرخاً إيطاليا مرموقاً .

هذه اللحظة إلى التخلي عن نظامها القديم القائم على أسوار بسيطة يتولى الشطر الأكبر من الدفاع عنها جنود من المواطنين ، كما اضطرت إلى استئجار جنود لكي يستطيعوا الخروج والاشتباك مع العدو في معركة في العراء . وعلى أثر النجاح في الدفاع عن ميلان على يد بروسيرو كولونا (Prospero Colonna) في سنة ١٥٢١ ، اضطرت المدن إلى اتباع طرق التحصين الجديدة التي كان قد قام بوضعها المهندسون العسكريون الإيطاليون . وطبقاً لما يقوله ألبيرتي فإن مدينة بيروجيا ، بأبراجها البارزة منها « على نحو ما تبرز الأصابع من يد الإنسان » كانت القدوة التي اقتدت بها المدن الأخرى .

وكانت هذه التحصينات الجديدة أحكم إعداداً بكثير من الأسوار القديمة ، فقد كانت لها معازل أمامية ، واستحكامات نائنة منها ، وأبراج انتظمت على هيئة رعوس الحراب ، بحيث كانت تسمح في آن واحد للمدفعية وللمشاة المسلحين أن يحصدوا صفوف القوات المهاجمة أتي كانت الناحية التي تتقدم منها ، وبفضل بنادق المدافعين في أقصى المواقع الخارجية ، كان في الاستطاعة نظرياً جعل المدينة — وقد أصبح محيطها تبعاً لذلك على بعد مئات من الياردات إلى الخلف — في مأمن من أن تصل إليها قنابل أقوى المدافع لدى العدو ، ولمدة لا تزيد على قرنين اثنين ، كان يبدو أن هذه التحصينات الباهرة تبعث على الأمل في الأمان ، إلا أنها على غرار سواها من الأساليب العديدة للحماية العسكرية ، ألقت عبثاً اجتماعياً مخيفاً على عاتق السكان الذين كانت تحميهم ، وكانت هي المسئولة آخر الأمر عن تلك الأحوال الوييلة للازدحام ، التي كثيراً ما أوخذت عليها مدينة العصور الوسطى .

وبدلاً من السور البسيط المبني من أحجار — وهو ما كان في استطاعة أى بناء عاды للمنازل أن يقوم بتصميمه أو بنائه — كان لا بد الآن.

من إنشاء نظام معقد للدفاع كان يستدعى إلاما هندسيا واسعا ، وإنفاق مبالغ طائلة من المال . وهذه التحصينات على صعوبتها في التشييد ، كانت أشد من ذلك صعوبة في التعديل إلا أن يكون ذلك نظير تكاليف مانهة . ولقد كان من الميسور مد الأسوار القديمة لكي تشتمل إحدى الضواحي ، أى إنها لم تكن عقبة في سبيل النمو الطبيعي والتلاؤم ، ولكن التحصينات الجديدة حالت دون الانساع الأفقى ، ولا يد من أن يكون التحصين قد أحدث في الحالة المالية لمدن القرنين السادس عشر والسابع عشر عى الأثر الذى كثيراً ما أحدثه في الحالة المالية للعواصم الحديثة إنشاء الطرق السريعة وأنفاق المركبات الكهربائية التى تسير تحت الأرض ، فإنها ألقت على كاهل البلديات عبئاً لا يطاق وعرضها لاستمداد المعونة الباهظة من رجال المال .

وحق في ظل نظام مركزى ، كما كانت الحال في فرنسا ، قدم سكان مميزات خدماتهم دون أجر ، لكي يستطيعوا بإنفاق ٢٥٠٠٠ جنيه أن ينفذوا مشروعا كان لولا ذلك يكلفهم ٥٠٠٠٠ ر. جنيه ، أى إنه كان تطوعاً بالجهود للتخلص من فرض أعباء مالية باهظة . وعلى الرغم من كثرة استخدام العمل الإجبارى في فرنسا ، فإن الأعباء الاجتماعية لم تكن يسيرة ؛ إذ أن إنفاق رؤس المال في مشروعات غير إنتاجية وصرف الجهود عن إنتاج سلع استهلاكية ، يستنزف موارد الشعب ، حتى لو لم يترتب على ذلك تحميله أعباء مالية . ولعل إحدى المزايا العظمى التى تمتعت بها المدن الإنجليزية بعد القرن السادس عشر ، وساعدت إنجلترا في تسابقها من أجل السيادة التجارية ، أنها هى وحدها التى لم يُهَيَّظ كاهل مواردها بفرض هذه الأعباء عليها .

ولم تكن النتائج المباشرة أقل فداحة في وقوعها على السكان أنفسهم من التكاليف المالية للإنشاء ، فعلى حين أن المدينة القديمة الطراز كانت تُقسم إلى وحدات للمباني وميادين ثم يقام سور حولها ، فإن المدينة الحديثة

التحصين كان يوضع تخطيطها أساساً على أنها حصن ، ثم تحشر المدينة في داخل هذا النطاق المحكم المحدود . وعادة كان الحيز الذى تشغله هذه التحصينات أكبر مما تشغله المدينة بأسرها ، وطبقاً لما يقوله ايرستات (Eberstadt) فإن مدينة ستراسبورج تم توسيع نطاق سورها أربع مرات على الأقل في خلال العصور الوسطى فيما بين سنة ١٢٠٠ وسنة ١٤٥٠ ، ولكن عدد السكان تضاعف ثلاث مرات فيما بين سنتي ١٥٨٠ ، ١٨٧٠ دون أن يطرأ أى تغيير على نطاقها ، وسواء أكانت المدينة قديمة أم حديثة ، فإن فرص الاتساع قد واثت من أمامها ، ولم يصبح هناك مجال للنمو الجديد إلا في الاتجاه الرأسى : فما من رجل فطن من سكان المدن كان يقدم على تشييد منزله خارج الأسوار في أرض كان يحتمل أن تغدو ميدان قتال . والواقع أن حكاماً مثل ريشليو أمروا بهدم كل ما يوجد من المباني في المنطقة المحيطة بمدينة محصنة ، أى إن المدينة كانت تقف — مثل باريس إلى عهد لا يزال قريباً — وسط أرض بلقع خالية من المباني ، معرضة لنيران المدفعية .

ولذلك فإن أثر التحصينات الحديثة لم يقتصر على إقصاء الضواحي بالحدائق وبساتين الفاخرة عن المدينة بحيث أصبح لا يتيسر الوصول إليها على نحو مريح إلا للطبقات الفائقة الثراء التى كانت تستطيع اقتناء الخيول ، بل إن الأماكن الخلاء في الداخل شغلت بالمباني على عجل تبعاً لاضطرار السكان إلى النزوح عن أطراف المدينة مدفوعين بعوامل الخوف والتكبات ، أو تحت ضغط إقامة الأسوار واحتكار الأرض . ولقد أدى هذا الازدحام الجديد إلى القضاء على معايير العصور الوسطى من حيث الحيز المخصص للمباني ، وذلك حتى في بعض المدن التى احتفظت بطابع العصور الوسطى وحافظت على تلك المعايير زمناً أطول مدى من سواها . والواقع أن فرط الازدحام بدأ في المدن العواصم قبل القرن السابع عشر ، ويذكر « ستو » أنه في لندن كان يستبدل بالمباني الحجرية مباني ذات هياكل

خشبية اقتصاداً للحيز الذي كانت تشغله الحوائط الحجرية الأضخم حجماً ، وأن مباني تتألف من أربعة أو خمسة طوابق كانت تحل مكان مباني من طابقين ، (ولهذا السبب بعينه حدث التحول من استخدام الأحجار إلى إنشاء هياكل من الصلب في المدينة الأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر) . بيد أن اتباع هذه الأساليب أصبح أمراً عاماً في القرن السابع عشر ، فقد أخذ الناس عندئذ يقيمون بطريقة منتظمة مباني عالية للسكنى - كانت تتألف من خمسة أو ستة طوابق في مدينة جنيف القديمة أو في باريس ، وأحياناً كانت تصل إلى ثمانية أو عشرة طوابق أو أكثر في أدنبره .

وقد أفضت شدة التنافس على هذا الوجه في سبيل الحصول على الأرض . القضاء إلى نتيجة محتومة ، وهي رفع قيمة الأرض في العواصم السياسية . وترتب على ارتفاع قيمة الأرض - كما حدث في برلين منذ عهد فردريك الأكبر - ظهور نموذج سيئ للإسكان ، يتسم بالإفراط في شغل الأرض ، وانعدام المناطق المخصصة للعب الأطفال ، والافتقار إلى النور والهواء والاتساع الكفيل بالراحة في داخل المنازل ، فضلاً عن ارتفاع الأجور . ولقد أصبحت الصفة الغالبة على أسلوب المعيشة في مدينة القرن السابع عشر الآخذة في النمو ، هي سكنى شطركبير من السكان في دور فقيرة ، ولم يكن ذلك مقصوداً على المتسولين والصوص والعمال المؤقتين وغيرهم من المنبوذين . وكان يدنس المبادئ الجمالية الرفيعة لدى معشر الممارين والبناء وجود مثل هذه الدور الفقيرة على نحو ما كان يدنس النعرات الجمالية المنطرقة لدى بلاط قصر فرساي . كثرة استخدام طرقات ذلك القصر كمباول عامة .

وبحلول القرن السادس عشر ، كانت أساليب المهندسين الإيطاليين ، قد أصبحت هي السائدة في إنشاء المدن ، فإن رسالة دورر (Dürer) عن تحصين المدن لا تولى المدينة ذاتها إلا عناية ضئيلة ، وفي أغلب الكتب والخطط الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع ينظر إلى المدينة بوصفها مجرد جزء ملحق.

بالتقاليد العسكرية ، أى إنها بمثابة الحيز الذى ترك « شاغراً » : وليوناردو دافنشى ، مثله مثل بالاديو ، عالج فى مذكراته موضوع المدينة ذاتها ، واقترح عزل الطرق الخاصة بالسائرين على الأقدام عن الطرق التى تشتد فيها حركة المرور ، ومضى فى بحثه إلى حد أنه استحث دوق ميلان على إقامة منازل للعمال على نطاق واسع وفقاً لنمط قياسى موحد . ولكن على الرغم من هذه المقترحات الحافلة فإن الخدمات التى أسداها لفن إنشاء المدن ظلت ضئيلة وعرضية بالقياس إلى ما بذله من جهود خارقة للمألوف فى سبيل رفع مستوى فن التحصين والهجوم . ومن اليسير أن نرى أين كانت توجد فى آن واحد الفرصة والطاقة الخلاقة .

وفى النهاية بلغت الحركة الجديدة ذروتها فى أنواع التحصينات التى وضع نصميمها فى القرن السابع عشر تحت إشراف المهندس العظيم سيستيان فوبان (Sébastien Vauban) — وقد بلغ من جسامه هذه التحصينات أن تقويض أركانها وهدمها كانا فى حاجة إلى إنشاء كتية جديدة فى الجيش ممن يحفرون الأنفاق ويثبون الألغام ، وهو ما قام فوبان بتنظيمه أيضاً . وعلى الرغم من أن فن التحصين اقتضى بذل تضحيات لاحد لها ، فإنه سرعان ما انهار بعد ما أوجد هذا الشكل النهائى ، ولقد أحدث « منظار الميدان » الجديد تحسناً فى إحكام نيران المدفعية ، وكان من شأن زيادة سرعة تحرك الإمدادات عن طريق القنوات والطرق ، وتنظيم إدارة مسئولة عنها ، تزويد الجيش المتنقل بقوة دافعة . وفى الوقت عينه أصبحت ذات الدولة المؤلفة من أقاليم هى « المدينة » التى كان يتحتم الدفاع عنها ، وإن ما فى هذا الانحراف العسكرى من تبديد للوقت والجهد والمال ، ظل بلا مثيل إلى حين القيام بالبحوث الحمقاء الخاصة بتطور القنبلة الذرية والصواريخ فى عهدنا الحاضر .

٦ — الحرب ودورها في إنساء المدن

أفضى تقدم فن التحصين إلى تحويل الاهتمام في البناء من فن العمارة إلى فن الهندسة ، من التصميم المتسم بالصفات الجمالية إلى التقديرات المادية للوزن والعدد والموقع ، وكان ذلك تمهيداً لما هو أوسع نطاقاً من تقنيات المكنات ؛ ولكن ذلك التقدم أحدث تغييراً على وجه الخصوص في صورة العمران الحضري بالانتقال من العالم الضيق النطاق لمدينة العصور الوسطى بأبعادها التي يمكن قطعها على الأقدام ، ومناظرها المغلقة ، وحيزها المكون من بقاع غير منتظمة إلى عالم الأساليب السياسية الباروكية الواسع النطاق ، بما فيه من مدافع بعيدة المدى ، ووسائل النقل ذات العجلات ، والرغبة المتزايدة في غزو الأماكن الفضاء وفي جعل الناحية الأخرى من العالم تحس بوجوده .

وطبقاً للنمط القديم في العصور الوسطى ، كان نمو المدينة أفقياً ، وكانت التحصينات عمودية ، وأما في النظام الباروكي فإن المدينة — نظراً إلى أنها كانت محصورة بين تحصيناتها — لم يكن في وسعها أن تنمو إلا عمودياً في مساكن مرتفعة ، بعد شغل حدائقها الخلفية ، وإنما الحصون وحدها هي التي ظلت مستمرة في الامتداد ، ولا سيما بعد ما تبينه المهندسون العسكريون من تجارب قليلة من أن نار المدافع ذات القذائف غير المتفجرة يمكن مقاومتها على وجه أفضل ، ليس بالحجر أو الآجر ، وإنما بمادة لينة مثل التراب ، ومن ثم فإنه كان للتحصينات الخارجية شأن أكبر من المتاريس والأبراج والخنادق التقليدية . وعلى حين أنه في تحصينات أوائل العهد الباروكي كانت المسافة بين أسفل الجانب الحجري المنحدر للاستحكامات والطرف الخارجي للمنحدر الترابي الواقع أمامها تبلغ ٢٦٠ قدماً ، فإن هذه المسافة بلغت ٧٠٢ من الأقدام في الحصن المثالي الذي شيده فوبان في نوف — بريزاش (Neuf-Brisach) . وهذا المحيط الذي كان لا يمكن الانتفاع به ، لم يكن

ينطوى على إضاعة جزء ثمين من أرض المدينة فحسب ، بل إنه كان يؤلف عقبة مكانية تحول دون سهولة الوصول إلى خلأ الريف لاستنشاق الهواء النقي . وهكذا فإن الامتداد الأفقى على هذا النحو كان تعبيراً أساسياً عما انصنف به النظام بأكمله من التبديد وعدم الاكتراث بشئون الصحة .

وقد نشأ شطر كبير من الأساليب الجديدة للحياة عن حافز إلى التدمير ، وكان تدميراً بعيد المدى ؛ فلقد تحالف الورع المسيحي مع البلشع الرأسمالى . التطويح بالفاتحين الجدد إلى ما وراء البحار لنهب الهند والمكسيك وپرو ، على حين أن النوع الجديد من التحصين ، والنوع الجديد من الجيش ، والنوع الجديد من دور التشغيل الصناعية - وقد تمثلت على أحسن وجه فى دور الصناعات البحرية الفسيحة ومصانع الأسلحة الهائلة - تأمرت جميعاً على قلب أوضاع المدينة المحصنة من حيث أساليبها التعاونية نسبياً ، وعلى تحطيم معاييرها الأساسية . فقد حل الاستغلال الذى لا يعرف هوادة ولا رحمة محل الحماية والوقاية ، وذلك أن الناس بدلا من أن ينشدوا الأمان أخذوا يسعون وراء مغامرات التوسع والفتح ، وكانت الطبقات الكادحة فى أرض الوطن تحت رحمة أسلوب من الحكم لا يقل عسفاً وخلواً من الشفقة عن ذلك الذى سحق المدنيات المختلفة فى أمريكا الشمالية والجنوبية .

ولقد عجلت الحرب بكل هذه التغيرات ، إذ أنها كانت قدوة لكل نظام آخر ، فالجيوش القائمة الجديدة - بضخامتها وقوتها وما كانت تبعثه من رعب لم يكن ليقبل فى زمن السلم عنه فى زمن الحرب - غيرت طبيعة الحرب ذاتها من حدث يقع بين حين وآخر إلى نشاط مستمر . وقد أفضت الحاجة إلى الباهظ الكلفة من أسباب القوة فى الحرب ، إلى وضع المدن فى قبضة أوليغاركيات من المراهبن الذين كانوا يتولون تمويل مشروعات الحاكم السياسية الشريرة ، ويعيشون فى ترف مما كانوا يحصلون عليه من الأرباح والغنائم . ولذلك كانوا يعملون على تعزيز مراكزهم بمساندة الحكم المطلق .

الذى أعقب ذلك . وفي حالة وقوع أزمة اقتصادية ، كان يتسنى عند ظهور أولى نذر الثورة استخدام بنادق الجنود المأجورين ضد الرعايا التاعسين . وقد تخلص الإنجليز - شأنهم شأن الهولنديين - من أسلوب الحكم الباروكي قبل البلاد الأخرى بفضل قيامهم بالثورة في وجه حاكمهم المستبد .

ولقد كان جندي العصور الوسطى مرغماً على أن يشرك في قوته الصانع والتاجر والقسيس ، وأما الآن في ظل الأحوال السياسية في الدول ذات الحكم المطلق ، فإن كل قانون قد أصبح في الواقع قانوناً عسكرياً ، وكل من تسنى له تمويل الجيش ودار الصناعة الحربية كان في وسعه أن يصبح سيداً للمدينة . ولقد سهل الرمي بالرصاص فن إدارة الحكم ؛ إذ أنه كان وسيلة سريعة لإنهاء أى مناقشة تسبب حرجاً . وبدلاً من قبول الحلول الوسط العادية التي من شأنها أن تكفل التعبير السليم عن ألوان متنوعة من الميول والصوالم والمعتقدات ، فإن الطبقات الحاكمة كانت في غنى عن أمثال هذه الأساليب التي كان قوامها الأخذ والعطاء ؛ وذلك لأن مفهومها كان لا يعترف إلا « بالأخذ » دون سواه .

ولقد عاون وجود البندقية والمدفع والجيش القائم ، على ظهور سلالة من الحكام كانوا لا يعترفون بأى قانون سوى قانون إرادتهم وأهوائهم الذاتية . ولقد رفعت تلك السلالة الرفيعة من الطغاة - وكانوا تارة من الأغنياء ، وتارة من ذوى المواهب - رفعت الظنون والأوهام التي تلازم جنون الهذاء إلى مرتبة طقوس للإخضاع والإكراه ، وإن من يقومون اليوم بتقليدهم من الحكام المطلقين التصرف وأشباههم ، ويساورهم ما لا يقل عن ذلك من الأوهام ، وتتوافر لديهم مقدرة أعظم على التدمير ، ليهددون الآن كيان الجنس البشرى ذاته .

ولقد هيا تغيير فن الحرب للحكام القوميين ميزة كبيرة على الاتحادات والجماعات الحقيقية التي يتألف منها أى مجتمع ، وكان لذلك من الأثر

أكبرهما كان لأى عامل من العوامل بمفرده فى تغيير تكوين المدينة ، فقد أصبحت القوة مرادفة لعدد السكان ، ولقد لاحظ بوتيرو (Botero) أنه « يقال إن عظمة المدينة لا تقاس باتساع موقعها ولا محيط أسوارها ، بل بكثرة سكانها وعددهم وما لديهم من قوة » : ولما كان الجيش يجند لممارسة الحرب باستمرار فإنه أصبح عاملاً جديداً فى الدولة وفى حياة المدينة العاصمة . وفى باريس وبرلين وغيرها من المراكز التى كانت تقل عنهما ، تطلبت هذه الجيوش القائمة إنشاء أنواع خاصة من المساكن نظراً إلى أنه لم يكن يتسنى لإيواء الجنود لدى السكان بصفة مستديمة دون إثارة روح التذمر :

وإن ثكنات الجيش ليكاد يكون لها فى النظام الباروكى المكانة عينها التى كانت للدير فى نظام العصور الوسطى ، وساحات التدريب — مثل ساحة شان دى مارس (Champs de Mars) الجديدة فى باريس — كانت بارزة فى المدن الجديدة بروز الإله مارس نفسه فى فن التصوير فى عهد النهضة . وقد أصبح خروج الحرس بالسلاح لتأدية التحية ، وتدريب الجنود ، واستعراض الجيش ، أصبح كل ذلك من المشاهد الجماعية العظيمة لدى سكان كانوا يزدادون باطراد ذلة وخضوعاً ، فدوى الأبواق والطبول كان الصوت المميز لهذا الدور فى الحياة الحضرية على نحو ما كان رنين الأجراس الصوت المميز لمدينة العصور الوسطى ، وتخطيط طرق النصر العظيمة (Viae Triamphales) — وهى شوارع فسيحة كان يتسنى لموكب جيش ظافر أن يسير فيها محدثاً أقصى التأثير فى نفس المشاهدين — كان خطوة لا مفر منها فى إعادة تخطيط العواصم الجديدة ، ولا سيما فى باريس وبرلين . ومن كلتا الناحيتين الرمزية والعملية ، أثبت التخطيط أنه قد « تم القبض على ناصية الحال » فى جميع الأمور :

وإن ما ينطبق على الثكنات وساحات التدريب — وكانت تشغل

مواقع فسيحة جدا في العواصم الكبرى - ينطبق كذلك على دور الصناعة الحربية ، ففي القرن السادس عشر أقيم عدد خارق للعادة من هذه المباني ، وعندما حل عام ١٥٤٠ كان فرنسيس الأول قد شيد إحدى عشرة داراً للصناعة الحربية وللمخازن ، وقد كان ذلك يجري في جميع العواصم الأخرى بمعدل يزيد على ذلك أو يقل عنه . وكما أوضح سومبرت (Sombart) فإن الجنود ليسوا سوى مستهلكين بقدر ما هم سلبيون في إنتاجهم ، حتى حين يشتركون في القتال . وكان ما يتطلبونه من أماكن لسكنائهم يقترن بما يتناسب مع ذلك من احتياجات إلى الغذاء والشراب والملبس ، ومن ثم نشأت حول أحياء الثكنات صفوف الخوانيت والحانات وجيش من الحائكين : والواقع أنه نشأ جيش قائم آخر من أصحاب الخوانيت والحائكين وأصحاب المشارب والمقاهي والمهارات - ولعل الحالة التي كان عليها أشدهم بؤساً تعزى إلى تأثير المعارك الحربية التي توالى بلا نهاية وهزت أركان أوروبا وبلغت حدها الأقصى في القرن الثامن عشر (انظر الموجز الإحصائي التقدير الذي أعده بيتريم سوروكين (Pitirim Sorokin) في مؤلفه « العوامل الدينامية الاجتماعية والثقافية » .

ولنحذر التهور من شأن وجود حامية عسكرية بوصفها عاملاً في بناء المدينة ، فها الجيش القائم إلا هيئة من المستهلكين ذات حاجات واسعة النطاق ، وفي سنة ١٧٤٠ كان عدد السكان العسكريين في برلين يبلغ حوالي ٢٠١٣٠٩ من بين مجموع كلى للسكان يبلغ حوالي ٩٠٠٠٠ نسمة ، أى الربع تقريباً . ولا بد من أن وجود هذا الحشد من المخلوقات البشرية التي حولت إلى آلات وروضت على الطاعة كان له تأثير يمس كل مظهر آخر من مظاهر الحياة ، فقد هيأ نظام الجيش نموذجاً لألوان أخرى من الإكراه السياسى ؛ وذلك أن الناس أخذوا يألفون تقبل ما كان يصدر من جاويز التدريب من أوامر صاخبة وما كان يبدو من

أفراد الطبقات العليا من مسلك فظ متعال . ولقد عمد أساطين الصناعة الجدد إلى محاسنهم فكانوا يتولون إدارة مصانعهم على غرار الطغاة المطلقى السلطان . ويروى هتون (Hutton) فى مؤلفه عن تاريخ مدينة برمنجهام كيف أن النبيل سيد الضيعة « فى سنة ١٧٢٨ » وضع يده على مبنى عام يعرف باسم دار الجلود وحوّله إلى منفعة الخاصة . . . ولقد دعا ضابط الشرطة السكان لإثبات حقوقهم ، ولكن أحداً منهم لم يحضر ، فابتسم اللورد ساخرا من نكوصهم واحتفظ بالمبنى « . فتحت الطلاء السطحى لآداب الطبقة العليا الباروكية كان يكمن على الدوام جور لنظام تعسفى بشع ، وقد تغلغت هاتان الصفتان فى كل نواحي الحياة الباروكية حتى فى ترفها ومجونها :

٧ — ابريلولوجية القوة

كان سلاحا النظام الجديد هما الجيش والأداة الحكومية ، فهما الدعامتان الزمنية والروحية لكل نظام مركزى مستبد . وكان كلا العاملين يدينان بقدر غير يسير من نفوذهما إلى سلطة أكبر وأوسع انتشارا وهى سلطة الصناعة والمالية الرأسماليتين ، ويجب أن نذكر مع ماكس وبر أن إدارة شئون الضرائب على وجه معقول كانت مما حققته المدن الإيطالية فى العصر التالى لفقدائها حريتها ، فإن الأوليجاركيات الإيطالية الجديدة كانت أول قوة سياسية نظمت شئونها المالية وفقاً لمبادئ المحاسبة التجارية ، وسرعان ما أصبحت كل عاصمة أوروبية تستخدم الإيطاليين الخبراء فى شئون الضرائب والإدارة المالية .

وقد كان من جراء الانتقال من نظام الاقتصاد القائم على السلع إلى نظام الاقتصاد القائم على العملة ، اتساع نطاق موارد الدولة اتساعاً عظيماً . وقد كان احتكار الإيجار وأسلاب القرصنة وقطع الطرق ، وغنائم الفتوح ،

واحتكار امتيازات خاصة في الإنتاج ، وفي البيع عن طريق تراخيص صادرة من الحكومة ، وتطبيق هذا النظام الأخير على المخترعات التقنية - كانت كل هذه الموارد تزيد خزائن الملك امتلاء . وكان معنى زيادة امتداد حدود الدولة زيادة عدد السكان الذين تفرض عليهم الضرائب ، وكان معنى زيادة عدد السكان في المدينة العاصمة زيادة إيجار الأرض ، وكلا النوعين من الزيادة كان يتسنى الإعراب عنه في النهاية بما يدره من المال على الخزانة المركزية للدولة : ولم يقف الأمر بالحكومات الملكية عند مجرد أنها أصبحت رأسمالية في تصرفاتها بإنشائها صناعات خاصة بها للأسلحة والصننى والقماش المزركش ، بل إنها اتخذت من فكرة تحقيق « ميزان تجارى فى صالحها » ، وسيلة لتخلق نظاما للاستغلال تحصل بموجبه كل دولة ذات سيادة ، عن طريق التبادل ، على ما يزيد بمقياس الذهب عما كانت تعطيه ، وهو نموذج مثالى للنظام الاقتصادى الاستعمارى .

وأصبحت الرأسمالية بدورها عسكرية النزعة ؛ فقد كانت تعتمد على أسلحة الدولة عند ما كان يصبح متعلدا عليها أن تفيد من المساومة بدونها ، وتلك هى أسس الاستعمار والاستغلال الاستعمارى . وفوق كل شىء فإن نمو النظام الرأسمالى بث فى كل ناحية عادات دنيوية من حيث التفكير وتقدير الأمور تقديراً واقعياً ، وكانت هذه هى خيوط السداة المحكمة ، المنظمة ، ذات الكفاية السطحية التى نسجت عليها نماذج الحياة الباروكية المشرقة المعقدة . ولقد تولت الطبقات الجديدة من التجار والمصرفيين دعم الأسلوب ، والنظام ، والمنهج الرتيب ، والسلطة ، والقدرة على التنقل ، وكلها عادات كان من شأنها أن تزيد التحكم العملى الفعال ، بل إن يعقوب فوجر الأكبر جهز نفسه بمعدات كاملة للسفر صنعت له طبقاً لتصميم خاص ، وكانت تشتمل على معدات وافية للأكل فى حيز محكم دقيق الترتيب ، أى إنه لم يترك شيئاً تحت رحمة الظروف .

وأصبح القالب الموحد لسك العملة في الدور القومية للسكة رمزاً لهذه الصفات التي أخذ يتسم بها النظام الجديد . ولقد اكتسبت فلورنسا شهرة دولية ومكانة تجارية خاصة بسك عملتها من الفلورين الذهبي على نسق مستظم من حيث الأمانة في الوزن . وبعض الاتجاهات التي احتلت فيما بعد مكاناً أرفع ، وبجلاً أوسع ، في محيط علم الطبيعة ، تكشف لأول مرة بين جدران دور الأعمال ، وذلك أن اهتمام التاجر بالإلام بالرياضيات والقراءة والكتابة - وقد كان كلاهما أمراً لا بد منه للتجارة مع جهات نائية عن طريق وكلاء يعملون طبقاً لتعليمات مكتوبة - ذلك أن هذا الاهتمام أصبح العنصر الأساسي في التعليم الحديث في المدارس الثانوية . ولم يكن من قبيل المصادفة أن نيوتن عالم الطبيعة غداً رئيساً لدار سك العملة ، ولا أن تاجر لندن عاونوا على إنشاء الجمعية الملكية وكانوا يتولون أمر القيام بتجارب في علوم الطبيعة . والواقع أن هذه الأنظمة الآلية كانت قابلة للتبادل .

وقد استتبعت المصالح المباشرة للرأسمالية الجديدة ، بما كانت تتسم به من حب خالص للمال والسلطة ، حدوث تغيير في محيط التفكير بأكمله ، وظهرت في الطليعة فكرة جديدة عن الاتساع ، فقد كان من أكبر الانتصارات التي حققها الفكر الباروكي ، تنظيم الاتساع وإكسابه صفة الاستمرار ، وإخضاعه للقياس والنظام ، وبسط حدوده بحيث تشمل ما هو متناه في البعد وبالع في دقة الحجم ، وفي النهاية الربط بين الاتساع والحركة والزمن .

ولقد تم الإعراب بوضوح عن هذه التغييرات لأول مرة على أيدي المصورين والمعماريين ومصوري المناظر ، وكان في طليعتهم ألبرتي وبرونيليسكي (Brunelleschi) وأوشيلو (Uccello) وسيرليو (Serlio) . وإذا كان قد توافر لدى الفلمنكيين الواقعيين إدراك صحيح للاتساع بحكم

ممارستهم عملهم وسط صناعات الغزل المتقدمة ، فإن الإيطاليين هم الذين قاموا في القرن الخامس عشر بتنظيم الاتساع على قواعد رياضية في داخل نطاق مستويين ، وهما مستوى الأمامية ومستوى الأفق . ولم يقتصروا على الربط بين المسافة وقوة اللون وحالة الضوء ، بل ربطوا بينها وبين حركة الأجسام في البعد الثالث المبين في الصورة . وهذا الجمع بين خطوط وأجسام صلبة (لم تكن بينها صلة حتى ذلك الوقت) في داخل الإطار الباروكي المستطيل - وهو ما يميز التصوير الباروكي عن تصوير العصور الوسطى بمحدوده غير المنتظمة في أغاب الأحيان - كان معاصرا للتوحيد السياسي للأقاليم في داخل الإطار المتناسك للدولة . بيد أن التطور نحو الخط المستقيم وخط المباني المنتظم ، بوصف ذلك وسيلة للتعبير عن الحركة المنتظمة ، استغرق مدة قرن من الزمان على الأقل قبل أن تبنى فعلا واجهات على طول شوارع عريضة تبدو للعين أنها بلا نهاية .

وكذلك فإن دراسة المنظور قضت على المناظر المحدودة الضيقة النطاق ، وأطالت المسافة في اتجاه الأفق ، وركزت الاهتمام في المستويات الخلفية . وقد حدث ذلك زمناً طويلاً قبل إزالة السور ، بوصفه عنصراً من عناصر تخطيط المدينة . وكان هذا تمهيداً جمالياً لمقدم الشوارع العريضة العظيمة التي جاء بها التخطيط الباروكي ، وكان أقصى ما يوجد بها مسلة ، أو قوس ، أو مبنى منفرد تنتهي إليه وتلتقي عنده مسارات خطوط الكرانيش والطوارات ، ولقد كان المصور أول من كشف عن المسالك الطويلة والمناظر الممتدة إلى ما يبدو كأنه اتساع غير محدود - وهي الأمارات النمطية للتخطيط الباروكي . والمسالك في ذاتها أخطر شأنًا من الهدف الذي يراد بلوغه ؛ إذ أن أمامية قصر فارينزي تسترعى من الانتباه أكثر مما تسترعيه الواجهة الخالية من الجمال القائمة على قبة التل : وإن النافذة الجديدة من طراز عصر النهضة لم تقطع إطاراً لصورة ، والتصوير في عصر

النهضة عبارة عن نافذة وهمية تجعل الإنسان في المدينة يتناسى وجود ذلك الفناء الكثيب الذى قد تكشف عنه فتحة فعلية .

وإذا كان المصورون المبكرون قد أثبتوا — بنظام الإحداثيات الذى كانوا يتبعونه — صحة الرياضيات الديكارتية قبل ظهور ديكارت ، فإن التقدير العام للزمن أصبح كذلك أكثر خضوعاً للتواءم الرياضية ، ولذلك انتشرت الساعة المنزلية في دور أفراد الطبقة الراقية منذ القرن السادس عشر . بيد أنه إذا كان الاتساع الباروكي يبعث على السرعة في الحركة والسفر والفتوحات — وآية ذلك العربات الباكورة التي كانت تسير بقوة الشراع ، أو بمحركات تدفعها الأقدام ، وما تلاها من ألعاب « الزهات الجوية » و « الانزلاق في قارب على منحدر خشبي إلى بركة ضحلة » — فإن الزمان الباروكي كان يفتقر إلى الأبعاد ، فقد كان متواصل الاستمرار من لحظة إلى أخرى . ولم يعد الزمان ينظر إليه على أنه المدة المتصلة المتجمعة ، بل على أنه كمام من الثواني والدقائق ، أى إنه لم يعد يشمل حياة بأكملها . وقد كان المظهر الاجتماعي للزمان في العصر الباروكي يتمثل في الزى الشائع (الموضة) الذى يتغير كل سنة ، وابتدعت خطيئة جديدة في عالم الأزياء الشائعة (الموضة) وهى أن يكون الشيء متخلفاً عن زمنه . وكانت الأداة العملية لذلك هى الصحف اليومية ، وكانت تتناول من يوم إلى يوم حوادث متفرقة بلا رابطة منطقية بينها ، فهى لم تكن تنطوى على أى صلة فيما بينها سوى وقوعها في وقت واحد . وإذا كان تكرار النماذج في الترتيب المكاني يكتسب معنى جديداً ، كالأعمدة على واجهات المباني ، و صفوف الرجال في حفلات العرض ، فإن الاهتمام من حيث الزمان كان بالجلد الذى لا يتكرر . وأما من حيث عبادة الماضي التي تمثلت في العناية بالآثار ، فمن الواضح أنها لم تكن استعادة للتاريخ بل إنكاراً له ؛ إذ أن التاريخ الحقيقي لا تتسنى استعادته إلا بالتخاذه وضماً جديداً في حياة جديدة .

والمال بوصفه مجرد رمز ثم المنظور المكاني والزمن الآلى ، كل أولئك زود الحياة الجديدة بإطارها الشامل . وأخذ يزداد باطراد قصر مجال التجارب على مجرد العناصر التى كان من الميسور فصلها عن المجموع الكلى وقياس كل منها على حدة ، فقد حلت المعايير التقليدية مكان الكائنات الحية ، إذ كان الشيء الحقيقى هو ذلك الجزء من التجارب الذى لا يختلف رواسب غامضة ، وكل شىء لم يكن يتسنى التعبير عنه على نحو محسوس تراه العين وعلى نمط آلى ، فإنه لم يكن يستحق عناء التعبير . وإليك الأوضاع الجديدة : فى الفن ، المنظور والتشريح ، وفى الأخلاق ، فتاوى الجزويت الرتيبة ، وفى العمارة ، التماثل المحورى والتكرار الظاهرى ، والنسب الثابتة للطرز الخمسة (Five Orders) ، وفى بناء المدن ، التخطيط الهندسى البالغ الدقة .

ولا نسيثوا فهمى ، فإن عصر التحليل المجرد كان عصر تنقية فكرية باهرة . والطريقة الجديدة ، طريقة تناول الأجزاء القابلة للتحليل رياضياً بدلا من تناول كليات برمتها ، أوجدت أول وسيلة جماعية مفهومة للوصول إلى تلك الكليات ، وهى أداة نظامية لها من الفائدة ما لقيد الحسابات التجارية قيدا مزدوجاً . ففى العلوم الطبيعية أفضت طريقة التحليل المجرد إلى الكشف عن وحدات أمكن فحصها على وجه السرعة والدقة « لسبب واحد » وهو أنها كانت مبتورة جزئية وغير مكتملة . والمكسب الذى نحقق فى القدرة على التفكير المنهجى وفى التنبؤ الدقيق بأحداث طبيعية وجد ما يسوغه فى القرن التاسع عشر فى سلسلة من خطوات التقدم الجبارة التى خطتها الفنون الصناعية .

يبد أنه فى المجتمع ، كان لعادة التفكير بواسطة المجردات عواقب وخيمة ، فإن النظام الجديد الذى استقر فى العلوم الطبيعية كان أضيق نطاقاً من أن يسمح بوصف الحقائق الاجتماعية أو تفسيرها . وإلى القرن التاسع عشر لم يكن حتى للتقدم المشروع فى نواحي التحليل الإحصائى إلا دور يسير فى

انجاء التفكير الاجتماعى ، فإن رجالا ونساء ذوى كيان حقيقى ، ومدنا وبلديات ذات كيان حقيقى ، اعتبرت فى نظر القانون ونظام الحكم كما لو كانت عناصر خيالية ، على حين أن ذرائع العمل المصطنعة ، مثل الحق الإلهى ، والحكم المطلق ، والدولة ، والسيادة ، اعتبرت كما لو كانت حقائق ثابتة . وبعد التحرر من إحساس التبعية والاعتماد على البلدية ومنطقة الجوار ، غشى « الفرد الحر » إحساس بأنه لم تعد له روابط تربطه بأحد ولا بمكان ، وكأنه أصبح ذرة من القوة تسعى بلا هوادة وراء كل ما تستطيع القوة السيطرة عليه . وقد صاحب السعى وراء القوة المالية والسياسية اختفاء كل فكرة عن وجود حدود - حدود للأرقام ، وحدود للثروة ، وحدود لزيادة السكان ، وحدود لانساع المدن - بل على النقيض من ذلك سيطرت على الناس فكرة التوسع الكمى ، فلم يعد ممكناً وضع حد لما قد يبلغه التاجر من الثراء ، أو قد تمتلكه الدولة من الأقاليم ، أو قد تصل إليه المدينة من التوسع ، وذلك أن التوسع أصبح صنو النجاح فى الحياة ، وما زالت هذه الخرافة محتفظة بمكانتها متمثلة فى فكرة التوسع الاقتصادى إلى غير حد .

وقد كان بوترو معاصراً لهذا التطور ، ولاحظ ما انطوى عليه فقال : « إن مؤسسى المدن - وقد وضعوا فى اعتبارهم أن القوانين والأنظمة المدنية لا يمكن الاحتفاظ بها وصيانتها بسهولة حيث تحتاج جموع كثيفة من الناس (لأن الجموع تولد وتسبب الاضطراب) - عمدوا إلى وقف عدد المواطنين عند الحد الذى قدروا أنه فى حالة مجاوزته لا يتسنى الإبقاء على شكل ونظام الحكم الذى كانوا ينشدون إقامته فى مدنهم . بيد أن الرومان - وقد جربوا أن القوة (التى لا يمكن بدونها الاحتفاظ طويلاً بمدينة ما) يتألف أغلبها من احتشاد جموع الناس - حاولوا بكل ما فى وسعهم من الطرق والوسائل أن يجعلوا بلادهم عظيمة » . وإن هذه العبارات لتفصح عن كل شئ :

وفى الرغبة للحصول على المزيد من الرعايا ، أى المزيد من الرجال الذين يلقى بهم فى أتون الحرب ، والمزيد من الرجال الذين يؤدون الضرائب ويدفعون الإيجارات - انفتحت رغبات الأمير ورغبات الرأسماليين الذين كانوا يبحثون عن أسواق أكبر اتساعاً وأكثر تركيزاً وتعج بالمشتريين الذين لا تنفذ لهم حاجة ، فالأساليب السياسية التى تنشُد القوة ، والنظم الاقتصادية التى تستهدف القوة ، كانت تساند بعضها بعضاً ، ومن ثم اتسعت المدن ، وتضاعف المستهلكون ، وارتفعت الإيجارات ، وازدادت الضرائب ، ولم تحدث نتيجة من هذه النتائج مصادفة وانفاقاً .

فالقانون والنظام والتجانس كانت جميعها إذن منتجات خاصة للعاصمة الباروكية ، بيد أن القانون لم يوجد إلا لتثبيت الأوضاع ودعم مركز الطبقات الممتازة ، وكان النظام نظاماً آلياً لا يستند إلى صلة الدم أو الجوار أو الأغراض والميول المتماثلة ، بل إلى الخضوع للأمير . وأما التجانس فإنه كان عبارة عن تجانس موظفى الحكومة ، بطاقاتهم (Pigeonholes) التى يرتبون أوراقهم فيها ، وملفاتهم وإجراءاتهم المعقدة ، وأساليبهم العديدة لتنظيم وترتيب جمع الضرائب . وقد كان الجيش هو أداة تنفيذ هذا الطراز من الحياة ، وكانت السياسة التجارية الرأسمالية هى سلاحه الاقتصادى ، وكانت أكثر أنظمتها دلالة عليه هى الجيش القائم ، وسوق الأوراق المالية ، والبروقراطية ، والبلاط .

وهكذا فإن حكام العهد الباروكى ، أرجعوا جميع الأنظمة الأصلية للتجمع الحضرى ، بل إنهم فى بعض الأحوال أعادوا الجمع بين السلطات الدينية والدنيوية فى دولة يقوم على رأس كنيسها ملك أسند إليه منصبه بإرادة سماوية . والآن أصبح الإله القديم للمدينة إلهاً قومياً ، كما أن الأسوار القديمة للمدينة غدت « الحدود القومية » ، ولقد جدد ذلك الإله مطالبه الأصلية من القرابين والفداء بالدم البشرى ، وكان « الملك الشمس » أدنى ما سمحت به التعاليم المسيحية إلى أن يكون حقيقة إله الشمس :

٨ — الحركة والشارع العريض

لما كنت أتناول بالبحث عصر التجريد فإنني أعزم اتباع منهجه ،
ولذلك فإنني أتناول الجزء قبل أن أناقش الكل ، فأبدأ أولاً بالشارع
العريض ، ثم بالأنظمة والمباني كلا على حدة ، وبعدها فقط سأتناول
المدينة بوصفها وحدة جمالية ، إن لم تكن وحدة اجتماعية كاملة .

إن الشارع العريض هو أهم رمز للمدينة الباروكية ؛ وهو الحقيقة
الرئيسية فيها ؛ إذ لم يكن من الميسور دائماً وضع تصميم لمدينة جديدة
بأكملها طبقاً للطراز الباروكي ، بيد أنه عند تخطيط بضعة شوارع جديدة
عريضة ، أو عند إنشاء حي جديد ، كان يتسنى إعادة تحديد طابع المدينة .
ولقد كان لحركة وسائل النقل ذات العجلات ، دور خطير في تطور
تخطيط المدينة من حيث أطوال الشوارع واستقامتها . وقد كان تقسيم
الأرض، الفضاء تقسيماً هندسياً عاماً — وهو ما يتميز به هذا العهد بنوع
خاص — كان خليقاً بأن يكون عديم الفائدة بالكلية لو لم يؤد إلى تسهيل
حركة المرور والنقل ، في الوقت عينه الذي كان فيه مظهرها معبراً عن روح
الحياة السائدة ، ولم يصبح استخدام عربات النقل — صغيرها وكبيرها —
أكثر انتشاراً بوجه عام في داخل المدن إلا في القرن السادس عشر ، وكان
ذلك إلى حد ما نتيجة لتحسينات التقنية التي استبدلت بالعجلة المصمتة
العتيقة الطراز ، عجلة مصنوعة من أجزاء منفصلة — وهي الصرة والطقوق
والبرامق — وأضافت عجلة خامسة لتسهيل حركة الدوران ؛

ولقد صادف استخدام وسائل النقل ذات العجلات من المقاومة
ما يماثل تماماً المقاومة التي صادفها تسيير قطارات السكك الحديدية بعد
ذلك بثلاثة قرون . ومن الواضح أن شوارع المدينة في العصور الوسطى لم
تكن ملائمة لمثل هذا النوع من حركة المرور ، سواء من حيث الحجم

أم اتصال بعضها ببعض . و يروى لنا توماس أنه في إنجلترا قدم الناس احتجاجات شديدة ، وأكدوا أنه إذا سمح لعربات نقل الخمر بالمرور في الشوارع ، فإنه لن تتسنى المحافظة على رصفها ، على حين أنه في فرنسا: التمس البرلمان من الملك في سنة ١٥٦٣ أن يحظر مرور عربات النقل في شوارع باريس — بل إن هذا الدافع بعينه ظهر مرة أخرى في القرن الثامن عشر. وعلى الرغم من ذلك فإن الروح الجديدة في المجتمع كانت في صف وسائل النقل السريعة ، فإن سرعة الحركة وغزو الأماكن الفضاء والرغبة المحمومة « للوصول إلى مكان ما » كانت مظاهر تعبر عن الرغبة السائدة في الوصول إلى السلطة ، فقد كان « العالم يجري على عجل » — كما لاحظ ستو عندما شاعت هذه « الموضة » واستبدت بألباب الناس في إنجلترا . فالكثلة ، والسرعة ، والزمن ، كانت من مراتب الجهود الاجتماعية قبل أن يضع نيوتن قانونه بزم من طويل .

ولم يكن التحرك في اتجاه مستقيم على طول شارع عريض مدعاة للاقتصاد فحسب ، بل كان مبعثاً لسرور خاص ، فإنه حمل إلى المدينة ما في الحركة السريعة من أسباب الانتعاش والابتهاج التي لم تكن معروفة إلى ذلك الحين سوى لدى الفارس حين يعدو على ظهر جواده في الحقول أو الغابات . وقد كان من الميسور زيادة هذه البهجة من الناحية الجمالية عن طريق الوضع الرتيب للمباني بواجهاتها المنتظمة و« كرائيشها » المستوية ، وكانت خطوطها الأفقية تتجه نحو عين نقطة الانتهاء التي كانت العربية ذاتها تسمع نحوها . وفي السير على القدمين تنشأ العين تنوع المناظر ، وأما في حالة ما يجاوز ذلك من سرعة السير ، فإن من شأن الحركة تكرار ما يرى من الوحدات ، وعلى هذا النحو فقط تتسنى استعادة وتجميع كل جزء بمفرده في أثناء مروره الخاطف . ومن ثم فإن ما يعتبر تكراراً على وتيرة واحدة إذا كان في وضع

ثابت ، أوحى في موكب ، يصبح ضرورة لا بد منها للتعاقد مع سرعة خيول تنهب الأرض نهبا .

وإني - في إبراز مقتضيات حركة المرور لوسائل النقل ذات العجلات ، وهو ما أصبح ضرورة ملحة في القرن السابع عشر - لأود إغفال حاجة ذات صفة خاصة أفصحت عن نفسها حتى في عهد سابق ، وهي الحاجة إلى شوارع عريضة من أجل التحركات العسكرية . وإني لأستشهد ، باليرقي من جديد ، فقد فرق بين الشوارع الرئيسية والشوارع الفرعية ، وأطلق على الأولى - وللأسم أهميته - : (Viae militares) أى الشوارع العسكرية ، وقد حتم أن تكون هذه الشوارع مستقيمة . وإن أى شخص تولى قيادة فصيلة من الجنود في أثناء اجتياز مدينة غير منتظمة التخطيط ليدرك مدى صعوبة قيادتهم وهم يسرون بنظام عسكري ويحترقون منحنياتها وتعرجاتها ، وبخاصة عندما تكون الشوارع ذاتها غير مستوية ، فلا مناص إذ ذاك من أن يتخلف بعض الأفراد عن صفوفهم ، ومن أن يتسم مظهر الفصيلة بالاضطراب . ولكي يتحقق أقصى مظهر من النظام والقوة في أثناء العرض ، لا بد من أن يهيا لأى قوة عسكرية ميدان متسع ، أو شارع عريض طويل الامتداد :

ولقد كانت حاجات الجيش على الدوام في خاطر الجدد من المشتغلين بتخطيط المدن ، فترى بالاديو (Palladio) يوبد ألييرتي ؛ إذ أن بالاديو لم يكتف بملاحظته أن الطرق ستكون قصيرة وملائمة في حالة تخطيطها في اتجاه مستقيم ، كما أنها ستكون عريضة بحيث لا تعوق الخيول والعربات بعضها بعضاً عندما تتلاقى ، بل إنه يقول أيضاً : « سوف تكون الطرق أوفر للراحة إذا ما روعي في إنشائها أن تكون على نسق واحد في كل مكان ، بمعنى أنه لا يوجد فيها موضع لا تستطيع الجيوش أن تسير فيه بسهولة » . فهذه الشوارع المتجانسة ، المبالغ في اتساعها ، والتي كان

مقدراً لها أن تغدو نقمة شديدة الوطأة على نمو مناطق الحوار في المدن الحديثة ، وأن تكون سبباً في زيادة النفقات زيادة كبيرة ، قد قامت على أساس عسكري بحث :

ومما يعادل ذلك في دلالة تعريف بالاديو للشارع العسكري الجديد ، فإنه فرق بينه وبين الشارع الذي ليست له صفة عسكرية ، بما يبينه من أن الشوارع العسكرية تمر في وسط المدينة وتؤدي من مدينة إلى أخرى ، وأن « جميع المسافرين يفيدون من استخدامها ، فهي تصلح لسير العربات وزحف الجيوش سواء بسواء » ؛ وعلى ذلك فإن بالاديو قصر بحثه على الشوارع العسكرية وحدها ، لأن الشوارع التي ليست لها صفة عسكرية ينبغي أن تنظم طبقاً للقاعدة ذاتها كالشوارع العسكرية ، وكلما زاد تماثلها « كانت أكثر جدارة بالثناء » . ونظراً إلى ما كان للجيش من شأن لدى الطبقات الحاكمة ، فإنه لا عجب أن كانت حركة النقل العسكري هي العامل الفاصل في التخطيط الجديد للمدينة ، منذ البادرة الأولى للتغيير التي أوحى بها ألبيرتي إلى الخلفاء الأخيرة الواضحة في تخطيط هوسمان (Haussmann) لشوارع باريس العريضة .

وإن انتظام الشارع العريض ليزيد من الأثر الجمالي الذي يتركه في النفس انتظام الصفوف واستقامة خط سير الجنود ، وإن خط السير الذي لا يشوبه انحراف ليعاون على إظهار القوة ، فإن كتيبة تتحرك على هذا النحو تحمل على الاعتقاد بأنها خليقة بأن تخترق سورا متينا دون أن تحيد قيد أنملة عن نظام سيرها . وهذا ، بطبيعة الحال ، هو عين الاعتقاد الذي كان كل من الجندي والأمير بروم إلقاءه في روع أفراد الشعب ، إذ كان يعين على خضوعهم للنظام دون الالتجاء إلى الاشتباك معهم فعلا ، وهو ما ينطوي على مجرد الاحتمال بأن يسفر عن هزيمة الجيش . وفضلا عن ذلك فإنه في الشوارع الجديدة الانتظام ، السينة الرصف ، حيث تكثر

أحجار الرصف المخلخلة وأماكن الاختباء ، تكون للتجمعات التلقائية من أفراد غير مدربين ميزة على جماعات من الجنود المدربين ، فإن الجنود لا يستطيعون إطلاق النار على المختبئين خلف نواصي الشوارع ، كما أنه لا يتسنى لهم حماية أنفسهم من الطوب الذي ينهال من قم المداخل القائمة فوق رؤوسهم مباشرة ، فهم يحتاجون إلى مكان متسع للقيام بمناوراتهم ، ألم تكن شوارع باريس القديمة التي ترجع إلى العصور الوسطى من أخريات ملاذات الحريات الحضرية ؟ لا عجب أن نابليون الثالث أقر اجتياح الشوارع الضيقة والشوارع المسدودة وهدم أحياء بأكملها لإنشاء شوارع عظيمة الانساع ؛ فقد كانت تلك أفضل وسيلة لاتقاء الهجوم من الداخل ، وذلك لأن الحكم عن طريق القهر دون رضا صادر عن عطف ومودة ، لا بد له من خلفية حضرية ملائمة .

وفي المدينة الحديثة أو في الإضافات المنتظمة التي أدخلت على المراكز القديمة ، تولف المباني خلفية الشارع العريض ، والشارع العريض في جوهره ساحة للعرض ، أى مكان يتسنى فيه للنظارة أن يتجمعوا على الطوارات الجانبية أو في النوافذ ، ليروا تشكيلات الجيش وتدريباته ومواكبه الظافرة ، ويستقر في نفوسهم قدر كاف من الخوف والرهبة . وتقف المباني على كلا الجانبين ، جامدة منتظمة ، شأنها شأن الجنود وهم وقوف في حالة انتباه ، ويسير الجنود بزيهم الموحد في الشارع العريض منتصبين القائمة ، جامدى المظهر ، وعلى وتيرة واحدة متكررة ، وكأنهم مبنى كلاسيكى متحرك ، وأما المشاهد فيظل ثابتا في مكانه ، بينما الحياة تسير أمامه دون استئذانه ودون عون منه ، وفي وسعه أن يفتح عينيه ، ولكنه إذا أراد أن يفتح فيه أو أن يغادر مكانه ، فخير له أن يلتمس الإذن بذلك أولا .

وفي مدينة العصور الوسطى كانت الطبقات العليا والطبقات الدنيا تزاخم بعضها بعضاً بالمناكب في الشارع وفي ساحة السوق ، وكذلك في الكاندرائية ،

ولإذا كان في وسع الغنى أن يمتطي صهوة جواده ، فإنه كان يتعين عليه أن ينتظر الرجل الفقير المشغل بما يحمل ، أو المتسول الأعشى الذى يتلمس سبيله بعصاه حتى يخلو له الطريق . وأما الآن ، بعد التطور الذى حدث بظهور الشارع العريض ، فإن الانفصال بين الطبقات العليا والسفلى اتخذ مظهره فى المدينة ذاتها ، فقد كان الأغنياء يستقلون مركباتهم ، والفقراء يسيرون على أقدامهم ، وكانت مركبات الأغنياء تجرى بهم فى منتصف الشارع العريض العظيم الرواء ، وأما الفقراء فكانوا يبتعدون عن وسط الشارع ويلتزمون جانبه حيث تمتد المجارى ، وفى النهاية هبت شقة خاصة للسائر العادى على قدميه وهى الطوار . وكان الأغنياء يحدقون والفقراء يفغرون أفواههم ، فالواقحة تترعرع على التذلل .

وكان العرض اليومى الذى يقوم به الأغنياء يؤلف أحد المشاهد الرئيسية فى مسرحية حياة المدينة الباروكية ، فإن حياة سداها المظاهر المتكلفة ولحمها الاندفاع والتألق والإنفاق ، كانت تبسط رواقها أمام مبنى الجزار وهو يحمل سلته على رأسه ، وأمام ربة الأسرة الأنيقة وهى تجول بين الحوانيت تنشد فرص الشراء بأسعار مخفضة ، والمستحدث من الأزياء ، وكذلك أمام جمهور العاطلين من الفضولين على اختلاف مراتبهم ، من ذوى المظهر الرث بعد نعمة إلى ذوى البؤس المدقع - وهم يقابلون الأنباع فى روما فى عهد الإمبراطورية :

« احترس من العربات ! » تلك كانت صيحة مرسيه (Mercier) فى مؤلفه « صورة باريس » الذى كتبه فى القرن الثامن عشر ، فهو يقول : « هاهو ذا الطبيب بجلته السوداء قادم فى مركبته الكبيرة (chariot) ، ومعلم الرقص فى عربته ذات المظلة والعجلتين (cabriolet) ، ومعلم السلاح فى عربته الصغيرة الوثيرة (diable) - والأمير خلف جياده الستة التى تنطلق فى عدوها كما لو كانت تركض فى خلاء الريف : : . إن عجلات الأغنياء

المتغطسين تنذر بالشر وهي تكرر بأقصى سرعة فوق الأحجار المخضبة بدماء ضحاياها المنكودي الحظ : ولا يتصور القارىء أن الخطر كان مبالغاً فيه ؛ ففي فرنسا كانت مركبات السفر ، التي أدخلت إليها في القرن السابع عشر ، تقتل سنوياً أكثر من كانت تقتلهم السكة الحديدية التي أعقبتها : وهذا الازدياد في معدل سرعة الحياة ، وهذه الحركة السريعة ، وهذه المخاطر وأسباب الإثارة السطحية ، كانت العناصر النفسانية التي جعلت النظام السياسى الاستبدادى المرير ، حلو المذاق ، ففي المدينة الباروكية كان في وسع المرء أن يقول : « إن العربات تتحرك بسرعة » على نحو ما قال الناس يوماً تبريراً للفاشية في إيطاليا : « إن القطارات تسير في مواعيدها » :

وفي ظل هذا النظام الاستبدادى لم توجد سوى مكانة واحدة كانت النفوس تهفو إليها ، وهي مكانة الأغنياء ، فمن أجلهم أنشئ الشارع العريض ، وأدخل التحسين على « رصف » الطرق ، وزودت العربات بالوسائد وبموانع الاهتزاز ، كما أنه من أجل حمايتهم كانت تسير مواكب الجنود : وكان اقتناء جواد ومركبة أماراة لا بد منها للدلالة على النجاح التجارى والاجتماعى ، وأما اقتناء حظيرة عامرة بالخيول فكان دليلاً على وفرة الثراء : وفي القرن الثامن عشر زحفت حظائر الملك والأفراد إلى الأحياء الوضيعة في العواصم فيما وراء الشوارع العريضة والميادين الأنيقة ، حاملة إليها نسمات من رائحة الريف ، رائحة القش والسماد : وإذا كان لم يعد يسمع في المدينة صياح الدجاج عند بزوغ الفجر ، فإنه كان من الممكن أن يسمع من النوافذ الخلفية في أثناء الليل أصوات حركات التلمل الصادرة عن الجياد الكريمة ؛ ذلك أن الرجل الممتطي صهوة جواده قد امتلك زمام المدينة .

٩ - البرج الجريد

أفضى انحلال كنيسة العصور الوسطى إلى إطلاق سراح « الأيونات » وإعادة تحديد اتجاهها في المدينة الباروكية . وفي وسع المرء أن يلم على وجه محسوس بما حدث إذا وضع في اعتباره كيف أن كل عنصر من عناصر البناء القديم استأثرت به منظمة أو طائفة أو جماعة خاصة . وإذا تتبعنا عملية التفكك فإننا نرى أن البروتستانت استولوا على منبر الوعظ واتخذوا منه نواة لبناكلهم حيث لم توجد تماثيل تزاخم وجه الخطيب ، ولا طقوس حافلة تصرف الأذهان عن الاستماع إلى صوته الملح في دعواه : وكانت الطبقة الراقية تسيطر على المصورين والمعماريين ، فنقل الفن إلى أروقة وردحات خاصة ، ولكي تكون العملية أسهل تنفيذاً حلت الصور التي كانت تعلق مكان الصور التي كانت ترسم على الجدران ، واستبدلت بالأشكال التي كانت تمثل الملائكة والقديسين أشكال تصوره إليه الخمر وربات الجمال والرشاقة عند الإغريق . وفي بادئ الأمر كانت صور الوجوه الدنيوية ، صور البابوات ورجال الحاشية ورجال الأعمال تحيط بصورة السيد المسيح ، وفي النهاية حلت مكانها .

وكذلك كانت الحال في شأن أجزاء البناء الأخرى ، فإن طائفة المنشدين ، الذين كانوا يترنمون في وقت ما بأناشيد التسبيح لله ، نقلت إلى قاعة الحفلات الموسيقية أو إلى شرفة تطل على قاعة الرقص ، فقد تحول الحفل الديني إلى حفل سمر في البلاط للاحتفاء بمناسبات دنيوية من عيد ميلاد أو زواج ، على حين أن المسرحية انتقلت من بهو الكنيسة ، حيث كان رجال الدين وأعضاء النقابة يقومون في وقت ما بتمثيل القصص التي تدور حول المعجزات وتحث على الفضيلة ، وترك أمرها للممثلين المحترفين تحت رعاية طبقة النبلاء ، وفي مبدأ الأمر كانت مساكنهم السيئة السمعة تقع في أطراف المدينة . ومنتدى رجال الكنيسة - وكان قوامه رجالها الذين كانوا ، رسمياً على الأقل ، غير

متزوجين — تحول إلى ما عرف في القرن التاسع عشر من أندية لرجال الطبقة العليا ، وكانت عضويتها مقصورة على أفراد تلك الطبقة ، وكان يسودها جو من الهدوء والعزلة كجوا الأديرة ، وإن كانت تتجلى فيها مظاهر الترف ، ومثال ذلك أندية الكارلتون والريفورم والجوكني كلوب والمهرنكلوب (Herrenclub) وما شاكلها .

وأخيراً فإن صحن الكنيسة ، وهو المكان الخالي من الزخرف والمخصص فيها للاجتماع ، تحول إلى سوق الأوراق المالية ، ولا تتخيلوا أن هذه الموازنة الأخيرة مزيفة ، فإنه في القرن السابع عشر كان السامرة يمارسون حرقهم في صحن كنيسة سانت بول ، ولم يبق أمام صيارفة النقود سوى أن يطردوا ممثلي السيد المسيح من المعبد — إلى أن تفاقمت الحالة في النهاية وبلغ الفساد حداً تجاوز ما تطبق احتماله كنيسة فاسدة . وإن التخطيط الذي وضعه رين (Wren) — ولم يؤخذ به — لإعادة بناء لندن بعد الحريق ، اعترف إلى حد كبير بهذا الوضع الجديد للحياة ؛ ذلك أنه لم يخصص لكنيسة سانت بول الموقع الممتاز ، بل إنه وضع تخطيط الشوارع الكبرى الجديدة بحيث يكون هذا الشرف من نصيب السوق الملكية للأوراق المالية .

وإن ما أصاب الكنيسة من الانحلال على هذا النحو الشامل ، هياً لكل منظمة فرصة خاصة للازدهار حسبما ترى ويحق لها . ومن الناحية الإيجابية كان هذا دليلاً آخر على ما اتسم به النظام الباروكي من تنقية النواظر وتخصيص في الوظائف قائم على الوعي والإدراك ؛ فإن كل هذه المنظمات انفصلت عن الكنيسة لأنها أخذت كل جديد من مظاهر الحياة والنمو . ولو أن الكنيسة ظلت قابضة على زمام المسرحيات ، لما ظهرت عبقرية شيكسبير ، ولو أن رمبراندت ظل مستمراً في تصوير لوحات تمثل الطائفة الرئيسية من أساطين النقابة الراضين عن أنفسهم ، لما وجدت لوحاته العظيمة . بيد أن هذه الأجزاء المتنوعة من الفن والثقافة قد تشتتت بالنسبة إلى السكان في

مجموعهم ، تشتت وبعدت عن تناول أيديهم ، وإنما « بلاط » الأمير وحده كان المكان الذي تجمعت فيه هذه الأجزاء مرة أخرى لتؤلف وحدة كاملة جديدة يستأثر بالإفادة منها أولئك الذين كانوا يقبضون على زمام السلطة :

لقد رأينا ما حل بكاتدرائية العصور الوسطى ، ولكن ماذا كان مصير ربها ؟ هنا لا يتسنى تسجيل ما حدث من التغيير إلا بعبارات تنم عن الكفر والإلحاد ، فإن الحاكم المطلق بموجب الحق الإلهي ، اغتصب مكان الله وادعى لنفسه ما لله من مراسم الإجلال ، بل كان في وسعه أن يدعو نفسه : « الملك الشمس » ، متحلاً لذاته ، دون أساس ، الصفة الخرافية التي انسم بها الفراعنة والإسكندر الأكبر : وفي العبادة الجديدة ، قامت عشيقة الملك بدور السيدة مريم الممراء ، بوصفها أقوى شفيع لدى عرش السماء : وأما السلطات والإمارات في السماء الجديدة ، وهي التي لم يكن لنظامها غنى عنها ، فإنها تمثلت فيمن كانوا يتزاحمون حول عرش الملك ويتنادون بما له من مجد : ولم تغب هذه الموازنة حتى عن أذهان الأتقياء في القرن السابع عشر ، فقد قال لابرويير (LaBruyere) : « كل من يعتبر أن وجه الملك هو مصدر السعادة القصوى لرجل الحاشية ، وأنه يقضى حياته متطلعاً إليه ، وعلى مرأى منه ، سوف يلترك إلى حد ما كيف أن رؤية الله هي مصدر سعادة للقديسين وهالة الجلال التي تحيط برؤسهم » :

ولقد قام بعض المتزلفين من العلماء بكتابة الرسائل لإقامة الدليل على وجود صلة مباشرة بين العاهل المستبد وبين السماء ، ولتأييد سلطته الشاملة ، والحث على الخضوع لأوامره المقدسة : وحينما كانت تبريراتهم تقصرون ، الوفاء بمطالبه الفادحة ، كان في وسعه ، مثل جيمس الأول ملك إنجلترا ، أن يذهب إلى حد الاشتراك شخصياً في تدبير ما يلزم من المديح : وطبقاً لما يقوله كاستيجليونى (Castiglione) الذي كتب رسالة نموذجية عن « رجل

الحاشية « (The Courtier) فإنه كان » يتعين على الأمير أن يكون بالغ السخاء والعظمة ، وأن يجزل العطاء لجميع الناس بلا حساب ، إذ أن الله — على حد القول الشائع — هو الذى يدبر المال لذوى الجود من الأمراء » : ووفقاً للمعدل الذى كان البلاط يستنزف به المال ، لا بد من أن معين الثروة كان حقيقة لا ينضب ، فإن أفينيل (Avenel) يروى أن نفقات حفلة من الحفلات الراقصة الكبرى فى فرساي ، وكان يشترك فيها مائة وخمسون شخصاً ، كانت تبلغ مائة وخمسين ألفاً من الفرنكات ، ولم يكن فى هذا شيء خارق للعادة ، فإن الأرديس نيكول (Allardyce Nicoll) يلاحظ فى الدراسة التى قام بها عن التمثيليات الغنائية الراقصة فى عهد النهضة ، أنه « لمواجهة نفقات لإخراج تمثيلية واحدة من هذه التمثيليات فى سنة ١٦١٨ خصص الملك جيمس — وهولم يكن على الإطلاق أشد الملوك تهوراً من الناحية المالية — مبلغ أربعة آلاف جنيه — وتقدر قيمة هذا المبلغ الآن بأربعين ألفاً — على حين أنه فى سنة ١٦٣٣ — من أجل إعداد حفلة سمر كبرى — أنفقت هيئة المحامين فى لندن (Inns of Court) ما يزيد على اثنين وعشرين ألف جنيه أو مائتين وعشرين ألف جنيه بعملتنا الحالية » . فقد كان أكفأ رجال العصر الموهوبين من المصورين والمهندسين المعاريين يكدون وينصبون لإنتاج أعمال خليقة بالأناقة ، مع أن مصيرها كان الزوال بعد حفلة واحدة .

ولقد امتد الترف من الملابس وأسباب اللهو إلى المأكل ، ومن المأكل فى القصر إلى المأكل على النسق نفسه فى ميدان القتال . فقد لاحظ الدوق دوسان سيمون (Duc de Saint-Simon) فى مذكراته ، « وبمناسبة الكلام عن مآدب العشاء ، فإن ترف البلاط والمدينة قد امتد إلى الجيش إلى درجة بلغ من شأنها أنه كانت توجد هناك لذائذ الأطعمة المختارة التى كانت قبلاً غير معروفة حتى فى أوفر الأماكن حظاً من الأمن والسلام : وكانت وجبات الطعام الساخنة تقدم كلما أوقف السير لأخذ قسط من الراحة ، وكانت

الأطعمة التي تنقل إلى الخنادق في أثناء حصارها ، أشبه بالمآذب لما كانت تشتمل عليه من عديد ألوان الطعام والفاكهة والمثلوجات . كما كانت جميع ألوان النيذ موفورة بكميات كبيرة » . ولقد كان لهذه التفاحة البالغة تأثير يؤسف له في العقول المفكرة ، وذلك أن فرنسيس سيكون في تصويره الخيالي للعالم الجديد للعلوم ، لم يستطع مقاومة نزعة رجال البلاط ، فوصف الملابس الأنيقة التي كان يرتديها القائمون بالتجارب في « اتلانتا الجديدة » في أثناء تأدية أعمالهم العلمية .

ولقد استشرت عدوى المطالبة بأموال لا حد لها ، وكان ذلك حجر الزاوية لخطط السياسة الاقتصادية في الدولة المطلقة السلطان ؛ فعند ما كانت الضرائب لا توفر الموارد الكافية لحاجات الأمير وذوى الخطوة لديه ، كان يعتمد إلى النهب ، نهب ممالك نائية في حالة فيليب ملك إسبانيا ، أو نهب أديرة أقرب منالاً في حالة هنرى الثامن . وعند ما كان ذلك لا يكفي ، كان يسلب الرجل الفقير دراهمه لكي يصدق الذهب على من كانوا أثرياء فعلاً . ومن ثم نشأت كل سياسة الرخص وبراءات الامتياز ، فتمد كان الإنسان يحتاج إلى ترخيص - وذلك لقاء ثمن معين - حتى للقيام ببناء منزل .

ولقد كان من شأن اطراد النمو في هيئة الموظفين للإشراف على هذه الضروب من وسائل الابتزاز والتوسع في توزيع الامتيازات ، ازدياد الأعباء التي أقيمت على كاهل المجتمع ، فلقد كانت الدواوين الحكومية المعطلة موثلاً ملائماً يحشد فيه الأتباع وأبنائهم الصغار ، وكانت هذه الدواوين من سانت بطرسبرج إلى هويتبول بمثابة إقطاع لا بد منه لهيئة الطبقة العليا . ولقد ورد فيما كتبه ميرسييه « لم يصل إطلاقاً أمر هيئة الموظفين إلى مثل هذا من المبالغة والإصراف والمضايقة ، ولم يحدث إطلاقاً أن كانت الأعمال تسير بمثل هذا البطء منذ إنشاء هذا الجيش من الموظفين الذين

بلغ شأنهم في العمل شأن الخدم في المنزل : وقد تضاعفت الاستشهادات واللوائح والتسجيلات والإجراءات الشكلية بجميع أنواعها على نحو بالغ من الوفرة مع قدر ضئيل جداً من التمييز والإدراك :

ولقد انتهت الحالة إلى هذا الوضع التالي ، فإن بلاداً بأسرها كانت تدار لصالح بضع عشرات من الأسر أو بضع مئات كانت تملك قسماً كبيراً من الأرض - بلغ النصف تقريباً في فرنسا في القرن الثامن عشر - وتتختم على ما لم تبذل جهداً لكسبه من الزيادة في أرباح الصناعة والتجارة ، وفي أجور المساكن في المدن :

الفصل الثالث عشر

البلاط والمظاهر والعاصمة

١ - مركز القصر

كانت مباني المدينة الباروكية من حيث الشكل ، صورة مجسمة لما كان يسود المجتمع من نهج للحياة ومراسم اتخذت أوضاعها في البلاط ، والواقع أنها كانت مجموعة من الزخارف لأساليب القصر وحركاته : وكان القصر يطل على ناحيتين : فن ناحية المدينة كان يستمتع بالإيجارات والخراج والضرائب والسيطرة على الجيش والتحكم في أجهزة الدولة ، ومن ناحية الريف كان يفد الرجال والنساء الذين عنوا بتكوين أجسامهم وتدريبها وتغذيتها ، وكانوا يفيضون بالميول الجنسية ، وهم الذين كانوا يؤلفون أفراد الحاشية ويتلقون الإنعامات والمرتبات والمنح التي كان الملك يقدحها بهسخاء : والقبطان اللذان كانت هذه الحياة تنتج نحوهما هما السلطة والمتعة ؛ أى ناحية معنوية جافة وناحية شهوانية تطفح بشرا ؛ وقد كانت السيطرة للارسل (إله الحرب) ، وفينوس (إلهة الحب) إلى أن قام فولكان (إله النار والمعادن) في النهاية بطرح شبكته الحديدية الماكرة ، شبكة المرامي النفعية ، فوق شخصيهما المشيعين بالنزوات الحيوانية .

ولقد كان « البلاط » عالما قائما بذاته ، ولكنه كان عالما تبدو فيه الحقائق القاسية للحياة في صورة مصغرة ، وكل تفاهاتها في صورة مجسمة ، فقد كان اللهو يعتبر واجبا ، والهطالة وظيفة ، والعمل الزهيد أدنى درجات الانحطاط ؛ ولكي يصادف أى شيء أو عمل قبولا لدى « البلاط » الباروكي ، كان لا بد من أن يتسم بالآمارات الدالة على إغراقه في التفاهة ، فأقوى

« السواقي » التي عرفت في القرن السابع عشر — وهي توجد عند مارلى وما زالت تعمل إلى الآن — والمضخات المائية العظيمة التي اعتبرت من أهم ضروب التقدم التقني في ذلك العصر ، كانت تستخدم لمجرد تشغيل النافورات في حدائق فرساي ، كما أن المضخة البخارية التي صنعها فيشر فون ارلاخ (Fischer von Erlach) — وكانت أول ما استخدم من نوعها في النمسا — لم تستخدم في منجم وإنما في إدارة نافورات قصر بلفيديد في فيينا ، والمكنات الأتوماتية — وهي تلك الوسيلة الهامة في الإنتاج — حققت أول نجاح كبير لها عند استخدامها في صنع الأزرار (مكنة الكبس) وفي صنع الأشرطة (النول الأوتوماتي الضيق) وفي صنع الملابس الرسمية للجيش (أول مكنة للخياطة) .

وكانت مراسم البلاط عبارة عن محاولة لتأييد مزاعم السلطة المطلقة بتمثيل مسرحية خاصة ، ولست أعرف صورة لتلك البيئة خيراً من المديح الذي ديجيه يراغ نيكولاس برتون (Nicolas Breton) ولا عرضاً لأوهامها المخدرة أفضل من هذا المديح الذي جاء فيه : « يا لروعة الحياة في البلاط ، حيث تتوافر وتتعدد أسباب الغبطة والسعادة كما لو كانت جنة الدنيا على ظهر البسيطة ، فهناك جلال الملك وحكمة المجلس ، ونبل الأشراف ، وجمال السيدات ، واهتمام الضباط ، ورقة شمائل السادة المهذبين ، والصلوات الدينية في الصباح وفي المساء ، والأحاديث الشائقة التي تدور طوال النهار بفيض من سرعة الخاطر والعلم والنبل . وهناك أنواع متباينة من الذكاء ، فضلاً عن المقدرة على وزن الأمور وتقديرها بحكمة ، وهناك أيضاً الطعام الفاخر الذي يطهى بعناية ويقدم بأناقة ، وهناك الخمر الراقية والفواكه النادرة ، مصحوبة بموسيقى ممتازة وأصوات بديعة ومشاهد غنائية راقصة ، وتمثيليات ورقص وركوب خيل ، وهناك أنواع عديدة من الألعاب تسر خاطر من يريد المقامرة ، وأحاجي وأسئلة وأجوبة ، وقصائد وقصص .

تاريخية ، ومبتكرات ذهنية مدهشة تحير ألباب ذوى الفهم الرصين ، وحلل نفيسه ، ومجوهرات ثمينة ، وتناسق بديع ، وروح عالية ، ومركبات فاخرة ، وجياد مطهمة ، ومبان ملكية ، وفن معمارى نادر المثال ، ومخلوقات محببة ، ولهو مهذب . ويبلغ من شأن ما تنطوى عليه التصرفات فى مجال الحب أنها تآتى بالروح فى أحضان الهجة والسرور ، مما لو حاولت التحدث عنه والإطناب فيه طوال النهار ، لوجدت أنى عند حلول الليل قد عجزت عن إيفائه ما يستحقه » :

ولست فى حاجة إلى إبراز ما كان للواقع من جانب آخر يختلف عن هذه الصورة ، كالحديث التافه الذى كان يؤخذ على أنه دليل الذكاء وسرعة الخاطر ، والأطفال غير المرغوبين الذين أفلتوا من الوسائل السائدة لمنع الحمل — وهى التى عرفت منذ القرن السادس عشر لدى الطبقات العليا فى فرنسا وإيطاليا — والتنافس المذهب وإنما دون رحمة ولا هوادة من أجل المكانة والأسبقية ؛ فقد كان لحن البلاط العذب لا يزال ينطوى على ما يوفر له قدرا كافيا من القبول ، وإن لم يفت الناس ما فيه من أنغام ناشزة . ولقد كان الشعار المدون على باب دير رابليه فى تيلما هو « اصنع ما يحلو لك ، وأما فوق أبواب القصر فقد كان هناك شرط إضافى وهو « ما دام ذلك يحلو للأمير » . على أنه يجب أن نضيف حقيقة واحدة كثيرا جدأ ما أغفلت من تصور هذه الحياة الباروكية الحافلة بضروب المراسم والنزعات الشهوانية ، فقد كان يبلغ من ثقل ظل مراسمها أنها حقا تبعث على الملل إلى حد تشتت الذهن ، فقد كان نظام الحياة اليومية الرتيبة للأمير وبطائه مما تمكن مقارنته بنظام حياة عامل فى مصنع لتجميع أجزاء السيارات ، من حيث إن كل تفصيل فيها كان مرسوما ومحددأ سواء للملك أم لحاشيته على السواء ، فنذ اللحظة التى كان الأمير يفتح فيها

عينه ، إلى اللحظة الأخيرة التي كانت عشيقته تغادر فيها حجرة نومه ، كان الأمير ، على حد القول ، في مكانه من خط التجميع .

ولعل تفشى الملل على هذا الوجه لا يقتصر على تعليل هذه السخافات التي كانت تستنفذ جهداً كبيراً ، بل يفسر عنصر العبث البحث الذي كان يغشى سياسة الدولة الباروكية ، على نحو اندفاع تلاميذ المدارس بعد أن يكرنوا قد ضيق عليهم الخناق إلى ما يفوق حد الاحتمال ، فكثير من خطط الدسائس والخطط المقاومة لها - كثير من هذه الخطط المعقدة كانت من صنع أساطين السياسة الذين أصابهم الملل ولم يكن أحب إليهم من إطالة أمد المباراة ذاتها . ومن المحقق أن الاستمرار دوماً بين وقوف ، وانتظار ، وانحناء ، وأداء مراسم الإجلال والتعظيم - وهو ما أعطانا عنه تين (Taine) صورة لا تنسى فيما كتبه في وصف « النظام القديم » - لا بد من أنه كان يجافى طبيعة رجال ونساء مكتنزي الأجسام ، فلا مجال للعجب من أن ألوان التسلية الاستعراضية كانت تشغل مثل هذا الحيز الكبير في حياتهم .

ولسوء الحظ أن ضروب التسلية ذاتها أصبحت ' القصر واجبات . وقد كان « قضاء واجبات الفراغ » يفرض على الناس تضحيات جديدة ، فإن مأدبة العشاء ، والحفلة الراقصة ، والزيارة الرسمية طبقاً للأسلوب الذي جرت عليه الطبقة الأرستقراطية ، وسار عليه أولئك الذين أخذوا يحاكونها بعد القرن السابع عشر ، لم تكن مدعاة للمتعة إلا لمن كان المظهر يعينهم أكثر من الجوهر . وقد كانت أسمى الواجبات الاجتماعية ، بل في الواقع الشغل الشاغل للحياة بأكملها « ظهور » الشخص أمام الناس « وتعرفهم » عليه و« قبول » الأوساط الراقية اندماجه فيها . وأحط درجات الابتذال التي انحدر إليها قضاء واجبات الفراغ - وهو ما يتردد صداه في أعمدة أخبار المجتمع في الصحف المعاصرة - يتمثل اليوم في التردد على أندية الليل وحضور حفلات افتتاح المسرحيات الجديدة ؛ وإن شطراً غير قليل من

الحياة التي نقرأ وصفها في روايتي « سهق الخيلا » "Vanity Fair" ، و« الأحمر والأسود » اللتين ترجعان إلى مطلع القرن التاسع عشر ، وفيما كتبه بروس (Proust) في أواخر ذلك القرن ، كان يتألف من القيام بالزيارات و« مطارحة الغرام » - أي من أمور تافهة : ولقد لاحظ بروس أنه في عهد لويس الرابع عشر طرأ تغيير خطير على حياة الطبقة الأرستقراطية التي كانت عليها في وقت من الأوقات مسئوليات جدية ، وواجبات خطيرة ، ومشغل ذات بال ، فإن المسائل الوحيدة التي أصبحت تعتبر جدية ، كانت تلك المتعلقة بآداب السلوك .

وفي هذه الناحية ، كما في غيرها من النواحي الكثيرة للحياة ، كان البلاط الباروكي مسرحا لبوادر ما ظهر في عواصم القرن العشرين من مراسم ورد فعل نفساني ، فهناك ضنى مماثل ، وملل مماثل ، ومحاولة مماثلة للاستجارة « بضروب اللهو » من الظلم الجارف الذي أصبح نظاما ثابتا مستمرا ، ومن النظام الثابت المستمر الذي أصبح ظلما جارفا .

٢ - تأثير القصر على المدينة

كان للبلاط الباروكي تأثير مباشر على المدينة في كل مظهر من مظاهر الحياة تقريبا ، بل إنه الأب الذي أنجب الكثير من الأنظمة التي ادعتها لنفسها الديمقراطية فيما بعد : فلم يكن هناك ما يقابل سيادة القلعة حتى في المدينة الإيطالية في العصور الوسطى ، وإن كان ثمة شيء فهو أن القوى كانت تسير في اتجاه عكسي ، وأصبحت طبقة السادة الإقطاعيين أكثر دماثة وظرفا : وبمرور الزمن وعلى عدة مراحل ، كان مآل المثل العليا الديمقراطية أن تنحرف جميعا في ظل رأسمالية تعمل على تعميم نهج الحياة في البلاط بوصفه أقصى ما يرجوه الإنسان في الوجود ، والطابع النهائي

للنجاح : فمن ثم كان ترف موبق ، ونفقات تلفت الأنظار ، وإسراف في التبديد ، ونهم في المستحدثات وأسباب الإثارة ، التي انتظمت جميعا في موكب النفاهة من أجل غرض واحد وهو الحفاظ على نشاط نظام اقتصادى يتجه نحو التوسع :

وإن الثمن النهائى لمثل هذا النظام الاقتصادى المتجه نحو التوسع — وهو ثمن اقتضى من البلاط ، وممن يقبلون على التهام السلع من أرباب المنازل في نظامنا الديمقراطى المعاصر — إن هذا الثمن هو حياة متقلصة ، حياة الحشرة الطفيلية المنتفخة ، العديمة الحيلة ، التابعة ، والمستعبدة لمن تعيش على بره :

ويجب ألا يفكر المرء في سيطرة القصر من حيث إنه مبنى قائم بذاته له وظائفه الرفيعة ، فقد انتشر نهج حياة القصر في كل مكان ، والواقع أن كلمة قصر "palazzo" كانت تعنى في إيطاليا في مبدأ الأمر أى مبنى فخم على مثال كان يمكن أن يشغله أحد النبلاء أو أمراء التجارة ، والنسبة إلى القصر في العرف الباروكى كناية عن الانساع والقوة المستكفية بذاتها ، والواقع أن الرغبة في الاكتفاء الذاتى كانت قد تجلت في مظهر آخر في القرن الرابع عشر ، في الأبراج العديدة المتنافسة في أشكالها المربعة والسحوية التي جعلت معالم مدن إكابولونيا وسان جيمينيانو تبدو على صفحة السماء كما لو كانت عدة من الوسائد غرست فيها « دبائيس ». وهناك اتخذت الروح الجديدة وضعا من صميم العصور الوسطى للإعراب عن السيطرة ، بيد أنه منذ القرن الخامس عشر أخذ الانساع الأفقى يزداد بروزا ، فإن القوة أخذت توسع كيانه . وعندما كان يعوزها المكان في المدينة ، كانت تلجأ إلى الضواحي ، كما فعل لويس الرابع عشر ، فإنه وقد ذكر كيف أنه في صباه أرغم على الفرار من باريس هرباً من فتنة شعبية ، لجأ إلى فرساي وجعل منها عاصمة في الضواحي :

وقد بلغ من شأن رحابة القصور الجديدة وتوافر وسائل الراحة في داخلها أن نظاماً جديداً خاصاً كذلك بالطبقة الراقية - وهو نظام الفندق - لا يستمد اسمه فحسب من اسم القصر الحضري في فرنسا ، بل إنه يؤدي لإحدى مهامه الرئيسية ، وهي تقديم ضيافة لاحتضانها ظاهرياً - وإن كانت لقاء أجر - وإن مجرد صلاحية تصميم القصر وعدم اتساعه بطابع معين ، هياً للقصر قسطاً من المرونة في القدرة على استقبال وإيواء الوافدين عليه ، فقد ساعده على ذلك أن تصميمه وضع على أساس إيواء عدد كبير من الخدم والأتباع : وكثير من أرقى فنادق الترف في روما إلى اليوم هي قصور قديمة ، والواقع أن روما وبادوا كانتا أولى المدن التي قامت ببناء فنادق جديدة على طراز القصور لأغراض تجارية . وقد كان الفندق الذي أقيم في بادوا (حوالي سنة ١٤٥٠) يحتوي على حظائر تتسع لمائتي جواد . وإن استخدام هذه القصور القديمة فيما بعد كدور لعرض أعمال الفن ومتاحف ومجامع علمية ومبان للمكاتب ، ليدل على الصلة الجوهرية بين الطراز الباروكي للحياة ومنظاته النمطية :

وبفضل رعاية الطبقة الأرستقراطية بوجه خاص ، اتخذ المسرح شكله الحديث في لندن وباريس ، وفي مدن أقل منهما شأنًا ، وهذا الشكل عبارة عن النموذج الإغريقي والروماني القديم بعد إدخال بعض التعديلات عليه . واقتداء بمسرح أولمبيكو (Olimpico) الذي شيده بالاديو في فيشنزا ، أصبح المسرح عندئذ عبارة عن قاعة مسقوفة يجلس النظارة فيها تبعاً لمراتبهم وقدرتهم على دفع الأجر ، وأمسوا في أماكنهم الثابتة مجرد متفرجين على مشاهد تمثيلية تبدو كما لو كانوا برونها من خلل نافذة مكشوفة للعرض ، ولقد بلغ من تغلغل روح المسرح في أسلوب حياة العصر أن عمليات التشريح كانت مشاهد عامة سنوية تجرى في «مسارح» ، وهو الاسم الذي ما زال يطلق أحياناً على مثل هذه القاعات :

ولم يظهر المنظور المكاني الجديد للطراز الباروكي في المدينة ذاتها ، بل في منظر المسرح (في سيرليو Serlio) بصور شكل شارع ، ولم يكن من قبيل المصادفة أن الحديثين من المشتغلين بتخطيط المدن ، مثل سيرفاندوني (Servandoni) وانيجو جونز (Inigo Jones) وبرنيي ، كانوا كذلك من مصممي مناظر المسرح . والواقع أن المدينة الجديدة ذاتها كانت محاولة لتصميم المناظر الرسمية ، أى بمثابة الستار الخلفي في مسرح السلطة المطلقة . وعندما كانت الموارد المالية الملكية تعجز عن القيام بتشييد مباني من الرخام على قدر كاف من العظمة والرواء ، كان المظهر الخارجي يزيف بالخص والألوان ، أو كانت تقام واجهة رائعة المظهر لإخفاء ما وراءها من المباني النافثة .

وقد كان تأثير القصر أقوى ما يكون شأنًا بوجه خاص في نواحي اللهو والترفيه والمشاهد التمثيلية والاستعراضية ، فحدائق الملاهي كحدائق راتيليو (Ranelagh) مثلاً في لندن في القرن السابع عشر ، وحدائق فوكسهول (Vauxhall) وكريمورن (Cremorne) في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، كانت محاولات لتزويد جمهور الشعب - نظير أجر معقول من الفرد الواحد - بملاهي أقل خلاعة من ملاهي « البلاط » . وكان يقابل ذلك فيما بعد لدى الفرنسيين الحفلات الراقصة التنكرية ، ولدى الألمان حديقة البيرة بجوها الأكثر اتساماً بجو الأسرة وروح النظام : وحدائق الملاهي التي من هذا القبيل كانت محبوبة لدى الجماهير حينما كانت حياة البلاط تجري على مرأى ومسمع من الناس ، وإن حدائق تيفولي الذائعة الصيت في كوبنهاجن ما زالت تقوم شاهداً على ذلك ، وإن كانت حدائق البيرة ، التي ظلت نيويورك تفاخر بها طيلة نصف قرن بعد انتهاء الحرب الأهلية ، قد اختفت الآن . وكانت هذه الحدائق تتألف من مبنى رئيسي كبير ، وكثيراً ما كانت تزينه زخارف زاهية الألوان ، حيث كانت تنسني إقامة الحفلات الراقصة

وتجتمع السامرين ، وكذلك إقامة المآدب الكبرى ، وكانت تحيط بالمبنى حدائق ذات غابات ومماشٍ منعزلة تظلّلها وتحوطها الأشجار حيث كان الناس يستطيعون في الليالي الصافية أن يتجولوا ويأكلوا ويشربوا ويتغازلوا ويتضاجعوا ويشاهدوا الألعاب النارية أو لوحات الفانوس السحري ، أى أنه كان سهياً للناس يوماً ما في أعياد المسامر من مرح ومجون ؛ ولقد خلف أوليفر جولدسميث (Oliver Goldsmith) في مؤلفه « حفلة في حدائق فوكسهول » وصفاً وافياً لكل من المنظر والروح التي كانت تسوده :

ولقد ظهرت الأراجيح التي تتحرك في دوائر رأسية وأفقية في حدائق الملاهي المذكورة ، وكذلك فإنه في أوائل القرن التاسع عشر تولد عن ولع الطبقة الأرستقراطية بالسرعة ظهور لعبة الانزلاق في قارب على منحدر خشبي إلى بركة ضحلة (Chute - the - chutes) ، وكان الجمهور أشد إقبالا على هذه اللعبة . وأما لعبة الدوران المرح ، فإنها بنحوها الخشبية التي تلف في حركة دائرية سريعة ، وباسمها الفرنسي كاروسيل (Carrousel) (لعبة الهوارة) تدل بجلاء على منشأ الأرستقراطي ؛ وقد كانت هذه اللعبة بمثابة عرض يومي للخيول الحية والعربات ، وهي التي من أجلها أنشئت أصلاً الأماكن والميادين والمستديرة ، أو الساحات الواسعة ، فعن طريق الخيول الخشبية كان يتسنى لكل من هب ودب أن يتذوق المتعة بعينها . وفي خلال القرن التاسع عشر ، اختفت الأناقة الباروكية الأقدم عهداً ، فلقد أخذت تظهر - ولعل ذلك كان في المعارض الدولية - ضروب من التسلية أشد صخباً ، وأنواع من الألعاب أكثر إثارة للدهشة مثل عجلة فيريس^(١) (Ferris Wheel) ، ولم تلبث أن احتلت مكان الصدارة ؛ وفي النهاية لم تبق

(١) عجلة ضخمة تدور رأسياً وقد تدلت منها مركبات يجلس فيها الناس . ابتكر هذه العجلة مهندس أمريكي في سنة ١٨٩٣ بمناسبة معرض كواومبيا الدولي .

إلا الألعاب البراقة المنظر السقيمة الذوق ، كما هو الشأن في ملاهى جزيرة
كونى (Coney Island) . وإنه ليحسن بنا أن نستعيد ملاحظات رينر
ماريا ريلكى (Rainer Maria Rilke) عن جزيرة كابرى : « هل رأيت أبداً
أن الناس يصلون إلى أى نتيجة تسر الحاطر عندما يعثون أو يطلقون لأنفسهم
العنان فى مجال اللهو والاستمتاع والتحلل من القيود ؟ » .

ومنشأ حضارة المدينة الباروكية واضح وضوح طريق التدهور ذاته ،
فاللهو الذى تمارسه الجماهير فى كل مدينة كبيرة أو فى أقصى حاناتها
أو مراقصها ، مازال لهوا باروكى الطراز ، أى عبارة عن مناظر استعراضية
وبريق وبذخ ومشاهد مثيرة تصحبها اتصالات جنسية أو ما يدانها - لقاء
أجر معلوم - فضلاً عما يقترن بذلك كله من مأكول ومشرب فى مطاعم
ومقاه من المحتم أنها باهظة النفقات . وعندما اختفت حديقة الملاهى بذاتها ،
تبعا لما حدث فى المدينة من التوسع والازدحام ، فإن ذلك المنصر بعينه
تغاد إلى ولوج المدينة والنزول فى الأحياء الملائمة مثل برودواى وبينكاديلى
وسوهو ومونمارتر ورمبرانتبلين (Rembrandtplein) .

وإذا كانت حديقة الملاهى قد نمت على إحدى سيقان شجرة حياة
التصور الباروكية ، فإن المتحف قد نما فى موضع أشد قربا إلى الجذع
الرئيسى . وإذا كان المتحف وليد نظام اقتصادى يستهدف الامتلاك بلا حد ،
فإن حديقة الملاهى كانت وليدة استهلاك بلا حد . ولا شك فى أن المتحف
نشأ فى مبدأ الأمر بدافع من حب الاستطلاع العلمى ، شأنه فى ذلك شأن
مجموعات أرسطو ، على حين أنه فى فترة العصور الوسطى ، تحت تأثير
التعاليم المسيحية اتخذ المتحف شكل مجموعة من الذخائر الدينية - سن قديس
أو قارورة صغيرة من الدم ، أو شظية من الصليب الحقيقى ، وكانت بطبيعة

الحال يحتفظ بها في الكنائس . بيد أن المتحف بمعناه الحديث بدأ من جديد بجمع العملات والنقوش ، وهو نهج عم اتباعه في إيطاليا منذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الخامس عشر : ولقد سبقت هذه المجموعات بوضع سنين مجموعات التاريخ الطبيعي التي قام بجمعها أمثال فون نيتسهين (von Netteshyn) أو بركلسوس (Parcelsus) أو جورج اجريكولا (Agricola) : والواقع أن كتابات هذا العالم هي التي حثت بأغسطس أمير سكسونيا الناخب^(١) (Elector Augustus of Saxony) إلى تكوين المجموعات التي نمت وتطورت منذ ذلك الحين حتى غدت متاحف درسدن :

وبمرور الزمن اتسع نطاق الغرض المنشود مما في المتحف من المجموعات ، وعندما وصف ميرسييه (١٧٧٠) صورة خيالية مثالية للمستقبل ، تنبأ بأنه في سنة ٢٠٠٠ سيوجد متحف يضم بين جوانبه « جميع الأنواع المختلفة للحيوانات والنباتات والمعادن بحيث تراها العين بمجرد نظرة واحدة » ، ويكون مكتوباً على الواجهة « موجز لمشتملات العالم » . وقد كان هذا المطمح جذيراً بالإعجاب ، بيد أن النتيجة ، كما تبيننا مع الأسف ، قد تكون مدعاة للإنتحام مادام الناس يرعون المعايير الباروكية من حيث انعدام الحدود في الامتلاك والاستهلاك والعرض .

وفي مبدأ الأمر كان الولع بالفن القديم يبدو معادلاً للشغف بما وجدته حديثاً من التحف الغريبة أو الفريدة في شذوذها ، ولقد وصف ليفلين قصرآ في البندقية حافلاً بالتمائيل الرومانية ، ولكنه كان يحتوي كذلك على

(١) أي الذي كان يحق له المشاركة في انتخاب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

« أشياء متحجرة كالجوز والبيض الذى يُسمع عند هزه صوت خشخشة معه المتيس ، وثمره كثرى ، وقطعة من اللحم وفيها العظام ، وقنفذ برمته » : ولقد كان هذا أيضاً هو الأسلوب الذى جرى به عرف العصر ، ففى كل مكان كان يجرى البحث على غير هدى عن تحف فنية مدفونة وعجائب من صنع الطبيعة ، ولم يكن ذلك إلا ضرباً من انصراف العقل إلى نظام بدائى « للاقتصاد القائم على الجمع » قبل بلوغ الإنسان مرحلة الزراعة المنظمة .

ونتيجة لرغبة الملك فى أن يوثق إلى الوطن بالغنائم من الفتوحات الأجنبية ، وفى الحصول عن طريق الشراء أو الرعاية على ما لا يتيسر إحرازه عن طريق التفوق فى قوة السلاح ، تكونت مجموعات الفن العظيمة التى تتألف منها متاحف الفاتيكان والوثر والمعروض القومى للفن (National Gallery) والمتحف البريطانى وما شاكلها من المنشآت . وهنا أيضاً لعب البلاط والطبقة الأرستقراطية دوراً رئيسياً ، بيد أن افتتاح المتحف البريطانى فى سنة ١٧٥٩ عقب التركة التى خلفها السير هانز سلون (Hans Sloane) ، كان من المعالم البارزة فى توفير وسائل الثقافة الشعبية ، لأنه عندما لم يعد العرض متعة خاصة للمالك ؛ تهيأت الفرصة لأن يغدو ذلك وسيلة لتثقيف جمهور الشعب ، وكان نمو المجموعة فى ذاته مما عجل بهذا التحول .

وأما فيما يخص معرض الفن ، فإن القصر — بحكم طبيعته ذاتها — كانت تتوافر فيه أسباب الصلاحية لعرض آثار الفن ، فلم يكن تحويل القصر إلى معرض للفن يستوجب أكثر من إزالة ما فيه من عناصر التخدير وتعيين أحد الموظفين أميناً له . وأحياناً كان هذا التغيير يحدث بباعث من محض الدفاع عن النفس ، فثلا لوحة رافائيل المعروفة باسم جالاتيو (Galateo) قد صورت لتوضع فى قاعة الطعام بدار المصرفى أجوستينو تشيجي

(Agostino Chigi) ، بيد أنه قد بلغ من كثرة الناس الذين كانوا يتوافدون لمشاهدة الصورة أنه تحت هذا الضغط الشديد خولت القاعة في أثناء حياة صاحبها إلى معرض للفن . وفي أواخر القرن التاسع عشر عندما شيد لنفسه كل من منسز جاك جاردنر في بوسطن أو مستر هنرى فريك (Frick) في نيويورك دارا عظيمة منيفة ؛ توقعوا ما سوف يؤول إليه في النهاية أمر مجموعتهما ، فاقصرا منذ البداية على القيام بدور أمين مؤقت لمبنى عام .

وفي الوسط فيما بين اللهر وحب الاستطلاع تقف آخر مخلفات القصر ، ونعني بها حديقة الحيوان ، فإن الاحتفاظ بالحيوانات المتوحشة ، ولا سيما أشدها ضراوة أو غرابة ، كان لا يزال من خصائص الملوك في العصور الوسطى ، ولو أن هذه العادة ترجع إلى أقدم عهود الملكية . وقد كان التوسع في هذه المجموعات المؤلفة من الحيوانات الحية مع إعداد أماكن دائمة لإيوائها وأماكن لعرضها - وقد كان ذلك جزءا من الاتجاه نفسه الذى تمخض عنه المتحف . وعلى غرار المتحف كانت حديقة الحيوانات تهيئ وجهة ملائمة تنتهى إليها التحف التى يعثر عليها الرحالة أو أمارات الظفر التى يعود بها الصيادون . فالملك المعين بموجب الحق الإلهى ظل يقوم بالدور الأصيل الذى كان يقوم به الصائد وخالفه له أسلافه من العصر الحجري المتأخر .

وهنا أسديت خدمة جديدة للمدينة ، وهى التذكير بحالة الوحشية التى ينساها الإنسان المتحضر فى يسر بالغ وسط أوهامه بأنه نجح فى قهر الطبيعة . وإذا لم يكن من شأن ألعاب القرد البهلوانية ، وثبات جأش فرس النهر ، وحركات عجل البحر التى تتم عن المرح والمزونة - وكلها أمثلة لما للطبيعة من قدرة خلاقة لا ينضب معينها - إذا لم يكن من شأنها

أنها جعلت ساكن المدينة على اتصال بالطبيعة ، فإنه كان لها على الأقل من الأثر ما يريح أعصابه المكدودة ؛ فهي لم تكن باعثاً على السرور لدى الأطفال فحسب ، بل كانت تبقى على روح الطفولة حية في نفوس الكبار : وحتى تلك المخلفات الباروكية التي أكل عليها الدهر وشرب ، مثل الدب الراقص ، أو فرد الرجل المتجول صاحب الأرغول الآلى ، كثيراً ما كانت تجلب قديراً من الرح الحيواني إلى الأركان الكثيرة في شوارع القرن التاسع عشر . وهل هو من قبيل المصادفة أن هذه البقية الباقية من الامارات المتخلفة عن حياة القصور الباروكية كان يتولاها عادة أحد الإيطاليين ؟ .

وواحدة إثر أخرى من هذه المنشآت المتفرعة عن القصر سجلت وجودها في التخطيط الجديد للمدينة ، وكانت تنشأ أحياناً بفضل جهود خاصة ، وأحياناً بفضل معونة الملك أو البلدية ، ولكنها كانت تبدو على الدوام في صورة مموهة بالذهب ، الطابع الأصلي للبلاط والقصر . وقد احتفظتُ بأجل خدمة للقصور إلى النهاية ، وهي الحديقة الملكية الفسيحة وقد اشتدت الحاجة إليها بسبب ما حدث من إقامة المباني فوق ما هو دونها من ساحات الملاهي وميادين الألعاب التي كانت تطوق مدينة العصور الوسطى في يوم من الأيام . ولعل إعادة تنظيم وتوسيع نطاق الحديقة الفسيحة بمنظرها التي تحاكي الطبيعة في قلب المدينة كانت أجل الخدمات الموفقة التي أداها القصر للحياة الحضرية ، فما من شيء كان أعظم أثراً في وقاية الأحياء الواقعة في وسط لندن وباريس وبرلين من الازدحام الخائق والانحلال الكامل ، من حدائق سنت جيمس وجرين بارك ، والتويلري ، والتيرجارتن . وعلى الرغم من أن الحيز الذي تشغله هذه الحدائق كان من المحتمل أن يوزع على وجه أفضل بين أنحاء المدينة بأسرها ، لو أنه لم يقصد بها الترفيه عن الملك ، بل عامة الشعب ، فإنها على الأقل قد أبقت دوماً أمام الأنظار مفهوم الطبقة الأرستقراطية للخلاء والحضرة بوصفهما

جزءاً أساسياً من الحياة الحضرية ، لا يمكن حجبه دون أن تترتب على ذلك نتائج ضارة من الناحية البيولوجية فضلاً عن الكآبة والانقباض من الناحية الجمالية .

يبد أنه - حتى في شأن إقامة الحدائق - أكدت روح العصر وجودها في النهاية ، فإنه عندما وضع التاج مشروع حديقة ريجنت في لندن ، كانت الحديقة ذاتها في نظر الناس وسيلة لزيادة قيمة ممتلكات التاج المجاورة لها . يبد أنه حتى ذلك الدرس ضاع مغراه عن بال تجار المضاربة الذين كانوا يسيطرون إلى حد كبير جداً على إنشاء المباني في القرن التاسع عشر ، وذلك أنهم استبقوا الرغبة الباروكية في الريح دون أن يقيموا وزناً للشغف الباروكي باللهو والجمال ، وهو ما كان يحتمل أن يؤدي في آن واحد إلى التخفيف من حدة جشعهم وإلى إكساب أموالهم المستثمرة مزيداً من الضمان والبقاء . وعلى طول المدى أثبت أصحاب الأملاك المسرفون من أفراد الطبقة الأرستقراطية أنهم رجال أعمال أفضل - بل مواطنون أفضل من أولئك المضاربين .

٣ - غرف النوم وغرفة الاستقبال

إذا كان للبلاط أثر فعال في المدينة بوجه عام ، فإنه لم يكن أقل أثراً في داخل المنازل ، وعلى أى حال في منازل الطبقات المتوسطة وما يعلوها اقتصادياً . فهنا سادت في النهاية عادات البلاط وأفضت إلى نتائج كانت مزيجاً من الخير والشر على السواء ، وأما من حيث الشر فقد ظهر نوع جديد من السلطة المطلقة في المنازل كان مصدره وجود عدد ضخم من المحرومين من حقوق المواطنة الذين كانوا يحتشدون في العواصم لعرض خدماتهم لقاء أى عطاء . وأما من حيث الخير فإنه كان يتمثل فيما حدث من رقى آداب السلوك - ولعله قد أسهم في ذلك الإلزام المتزايد بأوضاع

الحضارة الصينية وما فيها من كمال وتهذيب - وفوق كل شيء فيما حدث من انتشار توافر العزلة في داخل المنزل . وقد ترتب على ذلك ظهور قواعد جديدة لآداب السلوك في المسائل الجنسية ، كان من شأنها توشية حواشي مقدمات المضاجعة ، والانجاء نحو إطالة شباب الحب لكل من الجنسين . وكلمة « إبداء الحب » (وهى بالإنجليزية Courtship) التى ابتكرت في القرن السادس عشر وتطلى على تلك المداعبة التمهيدية ، التى تنطوى على إظهار سرعة الخاطر والحاذية فضلاً عن شهوة الجسد ، تدل على مدى ما تدين به حياتنا الغرامية إلى ما جرت به العادة في البلاط .

ولقد تجلّى - في نواح عدة - التغيير الذى طرأ على تكوين المنزل ، فظهر أولاً في فصل المنزل تدريجياً عن مكان العمل ؛ إذ أصبح المنزل منذ ذلك الحين مكاناً للأكل وللإحتفاء بالضيوف ، وفي المرتبة الثانية لتربية الأطفال ، وأصبحت مهام الإنتاج والبيع والاستهلاك مهمات تمارسها ثلاث فئات منفصلة من المنظمات تقوم في ثلاث مجموعات مختلفة من المباني توجد في ثلاثة أجزاء متفرقة في المدينة . وفي مبدأ الأمر كان استخدام وسائل النقل للذهاب إلى مكان العمل والعودة منه امتيازاً يتمتع به الأثرياء من التجار في المدن الكبرى ، ولم يصبح ميسوراً للطبقات الأخرى في المدينة إلا في القرن التاسع عشر ، وبدلاً من أن يكون امتيازاً أصبح عبئاً ثقیلاً الوطأة . ونتيجة لما حدث من تحول المنزل إلى مجرد منظمة استهلاكية ، فقدت ربة البيت اتصالها بشئون العالم الخارجى ، وتحولت إلى « متخصصة » إما في شئون التدبير المنزلى وإما في شئون الجنس ، أى إنها انصرفت إلى لون من حياة الكدح ، أو إلى لون من حياة الغواني ، ولعلها في أغلب الأحيان كانت تجمع بين قدر من اللونين . ولقد صحب ذلك ظهور « المنزل الخاص » ، أى المنزل الذى لا يمارس فيه عمل ولا يتصل بأى وسيلة من وسائل إقامة أود الحياة ؛ فقد عمدت كل ناحية من نواحي الحياة إلى الأخذ بنصيب متزايد من هذه العزلة .

وقد كان نمو الحياة المنزلية على هذا النحو يتم إلى حد ما عن تناقص الاهتمام بالشئون العامة بين المواطنين من أبناء الطبقة المتوسطة . وكانت توجد نزعة طبيعية لاستبدال الحياة الخاصة بالشئون العامة ، وذلك بوجه خاص بين الطوائف الدينية التي طردت من الكنيسة وصدرت ضدها عقوبة الحرمان الاجتماعي . وقد كان من الطبيعي أن يتحول اهتمام المواطن إلى مخض شئونه الذاتية ما دام قد حرم حرياته القديمة ، وكان في أحيان كثيرة عاجزا حتى عن الإدلاء بصوته في شأن ممثليه في البلدية أو الاشتراك في الأعمال الرسمية لمدينته إلا إذا عينه الأمير . وإذا كان ينتسب إلى طائفة دينية صدرت ضدها عقوبة الحرمان ، كما كان شأن الكثيرين من أفراد طبقات التجار ، فإن الحافز كان أقوى وأشد . وعلى حد قول ذاع في عصر الملكة فيكتوريا ، أخذت الطبقات المتوسطة تنطوى على نفسها ، وأخذت صلات المواطنة والحوار تخرج نحو الزوال ، ولم تعد شئون المدينة موضع اهتمام من أحد .

ولسد الفراغ الناشئ من عدم وجود عمل منزلي مشمر ، ابتكر نوع جديد من العمل المنزلي ملأ حياة الكسل وزاد من مظاهر عملية الاستهلاك ، وأعنى بذلك العناية بالأثاث ، فقد كانت المشتريات الثابتة للمنازل في العصور الوسطى عبارة عن معدات تتألف من مقاعد للجلوس ، وأسرّة للنوم ، وأيقونات للصلاة أمامها ولا شيء أكثر من ذلك ، فالأثاث في الحقيقة ابتكار أحياء العهد الباروكي من جديد ؛ إذ أننا نعنى بالأثاث المعدات التي لا فائدة منها أو الممتازة في صنعها إلى حد بالغ ، مثل « الفازات » الرقيقة التي تستوجب العناية بإزالة الغبار عنها ، والأخشاب الثمينة والقطع المكشوفة التي تستدعى الاهتمام بلمعانها ، والمصنوعات المعدنية التي تستلزم الإبقاء على بريقها ، والستائر التي تحتاج إلى نفثها وتنظيفها ، والتحف والقطع الغريبة التي توضع للزينة وتتطلب الغسيل والتنظيف .

ولقد تفوق غرض العرض على غرض المنفعة ، واستلزمت العناية بالأثاث الوقت الذى كان يصرف فى وقت ما فى نسج الأقمشة المزركشة ، وتطريز الملابس ، وصنع ما يفيد أهل البيت من المأكولات التى يمكن حفظها ، والعطور والعقاقير البسيطة . ولقد ألفت هذه الأعباء الجديدة على كاهل ربات البيوت والخدم فى عين الوقت الذى تغير فيه شكل البيت ذاته ، مما أدى إلى تضاعف عدد الغرف التى يجب تزويدها بالخشب والقلم والماء ، وإلى زيادة ارتفاع المساكن ، فبدلاً من طبقتين من الدرج ، أصبح فيها خمس طبقات كانت إحداها تحت الأرض .

وإلى حلول القرن السابع عشر - فى الشمال على الأقل - لم يكن قد طرأ على المباني ووسائل التدفئة من التقدم ما يسمح بإعداد غرف خاصة متعددة فى المسكن ، بيد أنه قد حدث الآن فصل بين الوظائف فى داخل المنزل وفى داخل المدينة ، مجموعها سواء بسواء . فقد أصبح لكل حيز فى البيت ، أى لكل غرفة ، اختصاص معين ، ففى إنجلترا - جريباً على نمط الدور الكبيرة - عزل المطبخ عن مكان غسل الأواني ، حيث كان يؤدي كل عمل فيه قذارة ، وأما الوظائف الاجتماعية المختلفة التى كان المطبخ يؤديها فقد آلت إلى غرفة الجلوس وغرفة الاستقبال . ويروى لنا هولم أن « استخدام مائدة الأكل العامة لجميع أهل المنزل قد زال فى السنين الأولى من القرن السابع عشر ، ومنذ ذلك الحين كان الخدم يتناولون وجباتهم فى البدروم » .

وقد بلغ ما وصل إليه اتساع الفجوة بين الطبقات أنه حتى عندما حاول الرجل الإنسانى إيمرسون أن يعيد هذا الوضع الديمقراطي ، قوبل بثورة من جانب خدمه ، وأرغم على العدول عن هذه المحاولة . ولم يعد يتسنى استخدام حجرة الطعام كحجرة للنوم أيضاً ، وعلى الرغم من أنه فى القرن السابع عشر كانت حجرة نوم السيدة ما زالت تستعمل حجرة لاستقبال

ضيوفها - سواء أكان سرير النوم موضوعاً في فجوة غائرة في الحائط أم لم يكن - فإنه في القرن الثامن عشر ظهرت إلى الوجود حجرة خاصة للاجتماع وتبادل الأحاديث ، وهي حجرة الاستقبال (الصالون) . ولم تعد الغرف تؤدي إلى بعضها بعضاً ، بل كانت تجمع على جانبي الدهليز ، شأنها في ذلك شأن المنازل المقامة على جانبي ما يقابل الدهليز في المدينة ، وهو الشارع الجديد للمرور ، فقد كانت الحاجة إلى العزلة سبباً في ظهور هذه الوسيلة الخاصة لحركة المرور العامة .

وكانت العزلة هي اللون الجديد من الترف لذوى اليسار ؛ ولم يتسن للخدم وعمال المتاجر ودور الصناعة ، أن يحصلوا على قدر طفيف منها إلا شيئاً فشيئاً . وحتى في المنازل الأنيقة في القرن التاسع عشر ، كثيراً ما كان الخدم ينامون في المطبخ أو على سرير ضيق في مكان يجاوره ، أو في غرفة للنوم يتشاركونها جميعاً . ولقد كانت العزلة في العصور الوسطى مقصورة على النساك ، أى على ذوى التقوى الذين كانوا ينشدون ملاذاً من خطايا العالم الخارجى وشواغله ، وفيما عدا ذلك لم يكن ميسوراً لغير السادة النبلاء من رجال وسيدات أن يحلموا بالاستمتاع بالعزلة . وفي القرن السابع عشر كان في العزلة ما يشبع ذات الفرد ؛ إذ أصبحت غرفة السيدة خلوتها (boudoir) ، وهي كلمة معناها الحرفى « مكان العبوس » ، وأما السيد فقد أصبح له مكتبة أو مكتبته ، وكانت هذه القاعة كذلك مكاناً مصوناً من الفضول . وكان في وسعه في باريس أن تكون له أيضاً حجرة نوم خاصة به ، نظراً إلى أن كلا من الزوج والزوجة كان يتابع مغامراته الغرامية على حدة . وللمرة الأولى لم يكن يفصل بين كل فرد وآخر من أهل المنزل مجرد ستار ، بل باب .

فالعزلة والمرايا والغرف المدفأة ، هي الأشياء التى حولت ذروة الصلات الغرامية من عملية لا تتم إلا في أوقات معينة إلى عملية تجرى على مدار السنة ،

وهو مثال آخر للانتظام الباروكى ، فى الغرفة المدفأة لا يكون الجسم فى حاجة إلى الانكماش تحت الغطاء ؛ فقد كانت الإثارة الناجمة عما تراه العين تزيد من الإثارة المترتبة على الملامسة ، وكانت متعة الجسم العارى - وهى التى رمز إليها تيشان (Titian) وروبنز (Rubens) ، وفراجونار (Fragonard) - جزءاً من ذلك الانبساط فى الحواس الذى كان يصحب تناول الأطعمة الفاخرة ، والإكثار من تعاطى الخمر والمشروبات الروحية القوية ، ويقترن بما هو بالغ الإسراف من الملابس والعلطور المعروفة فى ذلك العصر .

وكانت المغازلة وإبداء الحب يتسريان فى صدور تلك الحركات التى تنم عن القلق والحيرة ، وعن الإغراء والعزوف ، وهى التى تكون بمثابة عوامل الوقاية من إشباع الرغبة ، وتنطوى على ما يوازن تحكم العادة : وهؤلاء الرجال والنساء ، الذين كانت تستبد بهم الشهوات ، كانوا لا يشعرون فى أى مكان بأنهم على سجيتهم بقدر ما كانوا يشعرون به عندما يكونون فى فراشهم ، فالسيدات كن يستقبلن الزوار وهن فى الفراش ، ورجال الدولة كانوا يملون رسائلهم وهم فى الفراش ، وهكذا كان تيار خفى من الشواغل الشبقية يسرى بين أهل المنزل ، وكان يبدو أحياناً بمظهر فاجر ، وأحياناً بمظهر وحشى ، وأنا بلون شاعرى ، وآونة بلون رقيق - أى على كل لون ، ابتداء من حجرة نوم جوليت إلى الحجرة التى كاد جوزيف أندروز يفقد فيها عقله . ولقد بلغ من شأن الاحتياجات الخاصة بحجرة النوم ، أنها امتدت كذلك إلى الحديقة ، حيث الدار الصيفية ، أو معبد الحب ، أو ما هو أرقى مثلاً وأكثر أرستقراطية ، ونعنى به ذلك التيه الذى كان يتكون من أسيجة مرتفعة من شجيرات البقس ، ويتألف من أماكن بعيدة عن عيون الفضوليين . ووقع الأقدام المنثرة بالاقتراب منها حتى ولو كانت أقدام الخدم .

٢ - زوال الحمام

وفي خلال ذلك دخلت - على استحياء - تغييرات تقنية أخرى منازل السكنى ، فإن ما قام به السيرجون هارينجتون من ابتكار المرحاض في سنة ١٥٩٦ أوجد في المنزل تحسناً هاماً من الناحية الصحية ، ولكن هذه البدعة لم تنتشر بسرعة ، فحتى المرحاض الداخلى الجاف لم يدخل فرنسا إلا في القرن الثامن عشر بوصفه من المستحدثات الإنجليزية ، على حين أن قصر فرساي ، الذى شيد دون مراعاة للنفقات ، لم يكن يحتوى حتى على وسائل الراحة التى كانت موجودة في قلاع العصور الوسطى ، فقد كانت تستخدم فيه كراسى جهزت بوعاء لإزالة الضرورة كما جهزت بعجلات ليتيسر نقلها من مكان إلى آخر . وقبل ابتكار الأنبوبة المنحنية (الكوع - trap) وماسورة التهوية لاستخدامهما في المرحاض ، كان ارتداد غازات المجارى إلى المسكن يكاد يتعادل مع مزايا التحسين الجديد ، ولندكر انشغال بال الإنجليز طوال القرن التاسع عشر بأمر « المجارى السيئة » . ولقد صعب ظهور المرحاض - وكان من الأساليب التقنية المبكرة - عادة أخرى مستمدة من الصين رأساً ، وهى عادة استخدام ورق المرحاض ، وكان أجل شأناً للصحة المنزلية من ورق الحيطان الذى ظهر في الوقت عينه تقريباً .

والمدينة الباروكية ، مع كل ما فيها من مظاهر الترف ، لا تقوى على الصمود أمام الفحص الدقيق في أمر مستوى الصحة العامة والوسائل الصحية ، فإن المدينة الخطية للعصور الوسطى كانت أكثر توافراً للشرائط الصحية . وعلى الرغم من كثرة الإشادة بالجسم عندئذ في الشعر والتصوير ، أو فرط الاهتمام بدراسته من الناحية الفسيولوجية ، فإن أهل ذلك العصر كانوا يهملون تنظيفه بمثل العناية التامة التى كان يبذلها أبناء الحضارة السابقة ، ومن المحتمل أنه من أجل الإقلال من خطر التعرض للإصابة بمرض الزهري عن طريق الاختلاط ، أخذ الناس في القرن السادس عشر ينقطعون عن التردد على

حمام العصور الوسطى : وحتى فيما بين اليهود ، الذين كان في وسع المرء أن يتوقع أنهم احتفظوا في الأحياء الخاصة بسكنائهم بعبادات العصور الوسطى التي كانت شديدة التوافق مع التعاليم الموسوية فيما يتعلق بالشئون الصحية ، نجد أن الاستحمام الذي كانت تقضى به الطقوس ، وكان يتم عادة في الكنيس - التطهر "Mikveh" - قد أغفل في خلال عصر النهضة . وإذا كان الأتباع الجدد لطائفة البابتست يصرون على وجوب التعميد بغمر الجسم بأكمله في الماء ، فإن مرورهم بهذه التجربة مرة واحدة كان يغنيهم فيما يبدو عن الاستحمام طوال الحياة .

ولا شك أن ارتفاع ثمن الماء الساخن كان له بعض الشأن في هذا الازورار عن الاستحمام بين عامة الشعب على الأقل ، ولعل سبب هذا الارتفاع كان قلة وجود خشب الوقود في الأماكن المجاورة للمدن الكبرى مباشرة ، إلا أن الشك لا يرقى إلى الواقعة في ذاتها . ففي سنة ١٣٨٧ كان يوجد في فرانكفورت ٢٩ من فئة أصحاب الحمامات ، أما في سنة ١٥٣٠ فإنه لم يكن يوجد أحد من هذه الفئة : وفي القرن السابع عشر ، أي بعد فترة انقطاع ، عاد الحمام إلى الظهور - بوصفه بدعة أجنبية مستوردة ، ولوناً من الترف ، ووسيلة لإنعاش البدن بعد نزوة فيجور - فقد ظهر عندئذ ما يسمى بالحمام التركي أو الروسي : بيد أنه في الوقت عينه تقريباً ، أصبحت هذه الحمامات مباءات للهو ودوراً للتلاقق وضرب المواعيد ، وعادت كلمة حمام (bagnio) من جديد تعني ماخوراً . وفي هذه الفترة تفشت الأمراض الناشئة عن القذارة كالجدرى ، وتبعاً لازدحام المدن فإن كمية المياه التي كانت وافية بالحاجة عندما مدت الأنابيب في القرن السادس عشر ، ثبت أنها لا تنى بالغرض على الإطلاق : ولما كان لم يطرأ تجديد ولا امتداد على هذه الأنابيب في أحوال كثيرة ، فإن نصيب كل فرد من الماء في القرن الثامن عشر كان أقل بكثير من نصيب الفرد قبل ذلك بقرون أو ثلاثة قرون .

وعندما شق الحمام طريقه أخيراً إلى داخل المنزل في القرن التاسع عشر على أنغام التقدم الميكانيكي الذي ظهر في ذلك الحين ، فإن الآثارى الذى تخلف عن ركب الزمن هو وحده الذى قد يسلم بأن يوهان أندرياي قد سبق له أن خصص مثل هذه الحجرة لكل مسكن يتألف من ثلاث حجرات في مدينته المثالية كريستيا نوبوليس ، وبأن مثل هذه الحجرات كانت مألوفة في المنازل الأفضل حالاً في مدن ألمانيا في العصور الوسطى .

٥ — السيطرة والمظاهر الباروكية

إذا تركنا جانباً نشاط الاستعمار فيما وراء البحار ، فإن المدن الرئيسية الجسيمة التى بنيت فيما بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر كانت إما « مدن إقامة » للملوك والأمراء مثل فرساي ، وكارلسروه ، وبوتسدام ، وإما مدن حاميات ، أى مقرات للسلطات الملكية « في أثناء غيابها » ، مثل لندنرى وفيليبيل وكريستيانسند . وإنما في مثل هذه المدن وحدها كان يتسنى تنفيذ النظرية الباروكية في التخطيط تنفيذاً كاملاً في كل ناحية من النواحي ، وعندما حاول كريستوفر رين (Wren) أن يفعل ذلك في لندن بعد الحريق الكبير في سنة ١٦٧٠ حبطت محاولته بسبب العادات التجارية الراسخة والغيرة على حقوق الملكية :

وكانت المدينة الباروكية في الواقع بمثابة « عمل ينفذ بالأمر السامى » سواء أكانت بوصفها مقراً دائماً للأمير « وبلاطه » أم بوصفها حصناً لجيشه . وكان توسيع المدينة طبقاً لقواعد جديدة يجرى عادة في مدن العواصم مثل نابولى أو ميونيخ ، أو في مدن أرستقراطية مثل نانسى (١٥٨٨) أو أدنبره (١٧٦٥) . وفي مدن مثل لندن وأدنبره كان أفراد الطبقة البورجوازية الجديدة أنفسهم قد بلغوا في ادعاءاتهم ومدى نفوذهم مستوى الطبقة الأرستقراطية تقريباً :

وهذه الرعاية الأصلية ربطت بين تخطيط المدينة ذاته وبين السلطة الاستبدادية ، مما قد يعلل إلى حد ما نظرة الشك التي تقابل بها عملية التخطيط بأكملها في الأوساط الديمقراطية خلال القرن التاسع عشر ، فإن مذهب « حرية العمل » لم يكن يعنى التحرر من قواعد نظام التقابة ومن الاحتكار فحسب ، بل التحرر كذلك من الأنظمة المركزية ومن التحكم أياً كان لونه بما في ذلك تحكم واضع تخطيط المدينة . وكانت أساليب تخطيط المدينة ، على النحو الذى كان يتبعه ممثلو الأمير المتغطرسون ، هى المسئولة عن قدر غير قليل من هذا العداء : ففي سنة ١٤٩٢ مثلاً أمر لودفيكو المغربي (Ludovico the Moor) سكان فيجيفانو (Vigevano) أن يهدموا سوقهم القديم ويعيدوا بناءه طبقاً للتخطيط الذى وضعه مهندسهم أمبروجيو دوكيرتيس (Ambrogio de Curtis) . وفيما عدا الكاتدرائية ، أنجز العمل بأسره في بحر سنتين في عجلة لا تعرف هوادة ولا راحة مما كان خليقاً أن يعود بالفخر على رجل مثل البارون هوسمان . ولقد كانت سمات المهندس العسكرى واضحة في كل من الخطط والأساليب في آن واحد ، ولذلك فإنه لا حاجة بالمرء إلى الدهشة إذا وجد أن أهم الرسائل الباروكية عن تخطيط المدن قام بوضعها أمثال هؤلاء المهندسين : مارتيني (Martini) وبيريه (Perret) وسيكل (Speckle) . ولذلك أيضاً فإن أكثر مقترحات التخطيط أصالة — وهى تلك التى كانت ترمى إلى فصل شوارع حركة المرور عن طرق السائرين على أقدامهم ، وإلى تقسيم المدن التى تجاوزت الحد فى نموها إلى وحدات أقل حجماً تتألف من ٣٠٠٠٠ من السكان — قد صدرت كذلك عن عبقرى كان يزاول أيضاً الهندسة العسكرية وهو ليوناردو دافنشى .

وقبل ابتكار الجحارات الثقيلة بزم طويل ، نجد أن المهندس العسكرى الإيطالى ، عن طريق تخصصه فى الهدم بحكم مهنته ، قد اكتسب عادة التفكير الهدام الذى ينشد إزالة ما فى الأرض من عوائق حتى يتيسر له أن

يبدأ الإنشاء من جديد طبقاً لقواعده الرياضية الصلبة . وكثيراً ما كانت هذه «العوائق» عبارة عن مساكن بشر ، وحوانيت ، وكنائس ، وأحياء جوار ، وآثار تذكارية لها نفاسها وقدرها — أى إنها كانت سدى ولحمة نسيج كامل من العادات والاتصالات الاجتماعية ، فكان من شأن الإزالة الشاملة للمباني التي تتجسم فيها هذه الأوضاع من الحياة ، القضاء على ضروب الترابط والولاء التي قامت على مدى عمر بأكمله ، وكثيراً ما كان ذلك على مدى أجيال عديدة . أما أنه في سبيل القيام « بعمل كامل » كان لابد لواضع التخطيط من أن يهدم أجهزة اجتماعية لم يكن يتسنى استبدالها بمثل السهولة التي كان يتيسر بها رصف الشوارع وبناء المنازل ، فذلك ما لم يكن يبدو أمراً خطيراً الشأن في نظر المهندس العسكري المبكر أكثر مما يبدو في نظر خلفائه في القرن العشرين الذين يتولون أمر « مشروعات إزالة الأحياء الفقيرة » أو وضع تصميم الطرق الرئيسية .

وفي سبيل مراعاة مقتضيات الكفاية المكنية والتناسق الجمالي الظاهري ، أغفل المهندس التكوين الاجتماعي للمدينة ، وفي محاولته العمل على زيادة سرعة حركة المرور ، أقام العراقيل دون الاجتماع والتعاون بين أولئك الذين كان مفروضاً أن يقوم نظام المرور لخدمتهم . وعلى هذا الوجه فلن يبارون هوسمان لكي ينشئ بولفارسان ميشيل ، ذلك الطريق الكئيب الحافل بالضوضاء ، شق قلب الحي اللاتيني القديم الذي كان وحدة قائمة بذاتها تقريباً منذ العصور الوسطى ، وعمد إلى أبسط الوسائل جميعاً لتحسين جزء منه بأن أزاله تماماً . ولم يقتصر على إزالة المباني القائمة في المنطقة المحيطة بالمعاهد الدراسية ، بل إنه انحرف جانباً في عملياته واقطع كذلك جزءاً من حديقة لوكسمبورج ، وبذلك فإنه في سبيل الخطوط المستقيمة والشوارع العريضة ومرور العربات بلا عائق ، ضحى بالطابع التاريخي المميز للحي وبكل ما كان يكفله من احتياجات الناس وأغراضهم .

ولقد بقيت إلى ضميم القرن العشرين هذه الرواسم الباروكية الثابتة التي تم
عن القوة والبطش - بقيت سافرة لا تسترها ولو غلالة من مظاهر الاستحياء ،
وآية ذلك ما حدث عند إطالة سمث أفنيو (Seventh Avenue) من اجتياح
الحى التاريخى الوحيد فى نيويورك الذى كانت له وحدته المتأسكة وطابعه
الخاص ، أو ما يماثل ذلك ، بل ما يفوقه : المحو والإزالة من جراء إنشاء
شارع كان ثمرة التصور السقيم ، ذلك هو شارع بنيامين فرانكلين فى
فيلادلفيا ، الذى ما زال بمثابة جرح عميق بالغ الوحشية لم تبرا منه المدينة
بعد على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين سنة على إصابتها به . ولعله لايزال
يوجد لهذا الخط من التخطيط بعض ما يسوغه حيثما تكون الأوضاع الباروكية
الأصلية ما زالت سائدة ، وعلى هذا فإن شارعاً عريضاً قصيراً وملائماً ،
من الناحية الرمزية ، يصل بين قوس الأميرالية وقصر بكنجهام فى لندن ،
وتصطف دور سفارات أجنبية على الشط الذى يعلوه ، بيد أنه فى جهات
أخرى ، لا يكون من شأن مثل هذه الخطط - التى ما زال يسود الاعتقاد
الساذج بأن واضعها « عصريون » - إلا أن تكرر بأمانة وعلى ذات المنوال ،
ما كانت ترتكبه سلطة الأمراء من حماقات اجتماعية . وتغلغل هذه الأخطاء
بين طيات الماضى حتى عهد برامانتى^(١) (Bramante) ، فإن رسالة من
عصره تهمة بنشر الخراب وإثارة الرعب فى روما ، وتغزو إليه أنه اقترح
على القديس بطرس أن يستبدل بالطريق الضيق الشاق المؤدى إلى الجنة -
الذى جرت بذكره الأمثال - شارعاً عريضاً مستقيماً مرصوفاً رصفاً جيداً .
ولما كان التخطيط الجديد ربيب السلطة العسكرية المستبدة ، فإنه يميز عن
التخطيط القديم المتحرر الذى كان متبعاً فى العصور الوسطى باستخدام الخطوط
المنتظمة ووحدات للمباني منتظمة فى شكلها متماثلة قدر الاستطاعة فى
مساختها ، إلا حيثما كان انحراف اتجاه الشوارع سبباً فى جعل أشكال

(١) كان برامانتى معارفاً إيطالياً (حوالى ١٤٤٠ - ١٥١٤)

الوحدات متعددة الأضلاع والزوايا . ولقد كان النظام الحديد يمنح على وجه قاطع نحو الانبساط ، فكان يتميز بالساحات المفتوحة أو الميادين المستديرة وما يتفرع منها من شوارع وطرق عريضة تشق اتجاهها سواء بسواء وسط أحياء قديمة معقدة التخطيط أو أحياء جديدة قائمة على التخطيط الشبكي ، ونمضى قدماً نحو الأفق الذى لا حد له ، فلا مكان هناك للفضاء الداخلى ! والواقع أن التخطيط على هيئة النجمة كان من الابتكارات الباروكية الأصلية ، ولو أنه ، كما أوضحت من قبل ، قد ورد ذكره لأول مرة فى صورة اقترح أدلى به أريستوفان فى مسرحياته على سبيل السخرية ، إلا أن القائم بتخطيط المدينة فى العهد الباروكى حول ذلك الضرب المنسى من الزهو إلى حقيقة واقعة . بيد أنه كانت لديه دوافع أملت عليه طبيعة حرفته ، فإنه من مثل ذلك المركز المتوسط كان يتسنى للمدفعية أن تسيطر على كل طريق يؤدى إليه . ولقد كان النموذج المثالى للتخطيط الحديد قائماً على اعتبارات عسكرية يرجع تاريخها البعيد إلى عهد فرانسيسكو مارتينى الذى وضع حوالى سنة ١٥٠٠ التخطيط المثلث الشكل مع تفرع الشوارع من المركز . ولقد أنشأت جمهورية البندقية فى سنة ١٥٩٣ مدينة جديدة على هذا النسق هى بالمانوفا (Palma Nuova) كما أن أحد الهولنديين المشتغلين بالتخطيط شيد ما يقابلها فى كويوردين (Creworden) بعد ذلك بأربع سنوات ، وقامت على أثرها جليكستات (Glückstadt) على نهر الألب ، فى سنة ١٦١٦ ، على بعد أربعين ميلاً تقريباً من مدينة هامبورج .

بيد أن مشروعات التخطيط المثالية للمدن الصغيرة والأوضاع الواقعية التى استمدت منها وطبقت فى مشروعات أكثر اتساعاً يجب أن تعتبر بصفة أساسية تدريبات عسكرية فى مجال علم الجمال العسكرى ، أى نماذج صغيرة لعرض القوة . وعلى الرغم من أن المدن الصغيرة التى كانت تبنى برمتها طبقاً لمثل تلك النماذج المغلقة ، كانت بطبيعة تحديدها المادى عاجزة عن النمو ،

فإنها أوجدت طرازاً من التفكير كان له تأثير واسع المدى . فالشوارع الثلاثة الكبرى التى تتفرع من ميدان الشعب (بياترا ديل بوبولو) فى روما وتعزى فكرتها إلى البابا سكسنس الخامس قد صممت لتيسر على الحجاج سبل الوصول إلى مختلف الكنائس والأماكن المقدسة ، إلا أن تصميمها وضع على ذات النمط العسكرى الذى لا يثنى ولا يلتوى ، وليس من قبيل المصادفة أن أحدهما وهو شارع كورسو (Corso) أصبح الشارع الرئيسى لحركة البيع والشراء فى روما ، ويموج بعربات الباعة .

وكما قد يتوقع المرء من طبقة أرستقراطية مولعة بالصيد ، كان النموذج السابق لتخطيط الشوارع طبقاً للنمط النجمى ، هو ذات الحديقة الملكية للصيد . فهنا كانت الدروب الطويلة ، التى شقت بين الأشجار ، تمكن الصيادين الفرسان من التجمع فى نقطة مركزية والانطلاق فى شتى الاتجاهات : والصيد وما يقترن به من ركوب الخيل بسرعة تدق الأعناق ، ما زال إلى اليوم الرياضة التى تستمتع بممارستها البقية الباقية من الطبقة الأرستقراطية فى كل بلد ، ونقطة التجمع الرئيسية ، الساحة المستديرة ، كانت أصلاً موقع بيت الصيد الذى كان الصيادون ينزلون فيه عند ممارستهم رياضتهم . وعندما وضع مشروع تخطيط فرساي ، أقيم القصر الجديد فى الموقع الذى كان يقوم عليه بيت الصيد القديم الذى كاشف فيه لويس الرابع عشر بحبه لأول مرة عشيقته مدام دولافالير (Mme de la Vallière) . بيد أنه فى تخطيط عاصمة ملكية ، أصبح مكان التجمع يؤدى الآن غرضاً آخر ؛ إذ أن القصر جمع نحوه كل الشوارع العريضة الجديدة ، على غرار ما قام به الحاكم نفسه من جمع السلطة السياسية التى كانت فى وقت ما موزعة بين عدد كبير من الأسر الإقطاعية والهيئات البلدية ، فكانت الشوارع العريضة كلها تؤدى إلى القصر . وعندما كان السائر فى الطريق يرفع عينيه كان القصر فى أغلب

الأحيان هو الذى ينتهى إليه المنظر ، فكان محور الاتجاه يؤدى وظيفة الضوء القوى الموجه لتركيز الانتباه على الأمير .

وفى البلاد اللاتينية بوجه خاص ، ظل التخطيط طبقاً للنمط النجمى ، لمدة ثلاثة قرون ، بمثابة الأمانة المميزة للتخطيط الحضرى الأنيق ، ولم يترك هذا الطراز طابعه فى قرساي وخدها ، بل فيما يماثلها من الضواحي مثل جارش (Garches) وميدون (Meudon) ، وإلى عهد متأخر حتى سنة ١٨٥٩ . منحت الجائزة الأولى فى مسابقة لوضع مشروع لتوسيع برشلونة ، إلى مشروع تتجه أقطاره نحو المركز التاريخى للمدينة القديمة . بل إنه بعد ذلك ، فى سنة ١٩١١ على وجه التحديد ، وضع تخطيط لحي سكنى جديد فى روما بتوسطه ميدان رئيسى - على سبيل التقليد ، وإنما دون هدف له الآن - ليكون بمثابة مركز فسيح تنسحب منه الشوارع .

وكذلك فى منطقة الحدود (الإنجليزية) اكندا العليا ، وضع فى سنة ١٨٢٩ مشروع تخطيط لمدينة جودرينش (Goderich) الصغيرة وفيه جعلت ساحة السوق - وقد غرست الآن بالأشجار على نسق جميل - كالصخرة التى تتوسط العجلة وتخرج منها ثمانية برايق لها من الاتساع ما يكفى لسد حاجة حركة المرور فى الوقت الحاضر . والواقع أن هذا النوع من التخطيط قد قلده على نطاق يبلغ من الاتساع ما بلغته الحضارة الغربية ذاتها ، فظهر فى أماكن متباعدة بعضها عن بعض بعد سمرقند عن واشنطن . وتخطيط سمرقند ، الذى يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر ، كان فى الحقيقة نمطاً من كل الوجوه ، بل مثالا للنموذج الأصيل للطراز الباروكى . فى الوسط قلعة ، وإلى الشرق منها كانت تمتد المدينة القديمة ، ومن القلعة كانت الشوارع العادية والعريضة للمدينة الجديدة تتفرع صوب الخارج فى اتجاه غربى . وهل كان من قبيل المصادفة أن هذه الشوارع العريضة كانت تنتهى شمالاً وجنوباً عند ثكنة عسكرية ومستشفى عسكري ؟ .

بيد أنه كان للتخطيط النجمي منشأ آخر يوازي ما تقدم ، ففي المشروعات المبكرة لإقامة التحصينات على هيئة النجمة ، أصبحت المدينة القائمة في داخلها ذات شكل منتظم يتألف من ثمانية أضلاع ، وكانت الشوارع الرئيسية إما متقاطعة على هيئة صليب ، وإما منسقة بحيث تبدأ من كل زاوية من زوايا الشكل الثماني الأضلاع وتتجه نحو المركز . وعندما فقد هذا النوع من التحصينات قيمته ، كانت النتيجة الرئيسية التي نشأت عن هذا النموذج الجديد ، هي أنه جعل المدينة ذاتها ، أو الحى ، قطاعاً من التخطيط الأصلي المشابه لبيت العنكبوت ، مع تفرع الشوارع الأخرى العريضة واتجاهها نحو إحدى الحداثق ، أو نحو الريف الطلق ، كما هو الشأن في مدينة كارلسروه الملكية . وسنعود فيما بعد إلى دراسة تطبيق هذا التخطيط تطبيقاً مشمراً في أجل مدن القرن السابع عشر قاطبة وأشدها حيوية وهي امستردام التي يحتمل أنها ما كانت لتبلغ إطلاقاً ما بلغته من الكمال الأصيل لولا تلك الفكرة الهندسية بالذات .

وإن خطة إنشاء ميدان مركزي - سواء أكان دائري الشكل أم مربعه ، وتشرف عليه نصب تذكارية ، وتقوم مبان عامة على جوانبه بشكل متماثل ، وتفرع منه شوارع عريضة - إن هذه الخطة أحدثت تأثيراً بعيد المدى في جميع المباني صغيرها وكبيرها . وعلى النقيض مما كانت عليه مدينة العصور الوسطى ، حيث كان يتحتم على المرء أن يجوس خلالها على مهل لكي (يقدر) قيمة ما يصادفه من تغيرات لا نهاية لها من حيث الحجم والمنظر ، وما بها من تفصيلات معقدة تدعو إلى الدهشة ، فإنه في وسع المرء أن يلم بالمدينة الباروكية في نظرة واحدة تقريباً ، عندما تستقر خطوطها الأساسية في ذهنه ، بل إن ما لا تراه العين منها يسهل على المرء أن يتمثله في مخيلته . والآن أصبح الشارع العريض ، على وجه قاطع الإطار الأفقي للمباني الرئيسية التي تحدد معالم المدينة : وإذا كانت هذه

المباني تعلوها قباب أو أبراج تنتهى بقباب ، فإن الأثر الرئيسى لهذا التخطيط فى ذاته ، كان إبراز أهمية الخطوط الأفقية التى تنتظمها المباني وتتكون من خطوط العتب وأحزمة الواجهة والكرانشس ، فلأول مرة اجتمعت هذه الأجزاء جميعا فى شكل منظور واحد ، كان مما يزيد من شدة وقعه فى النفس امتداد الشارع العريض امتداداً لا نهاية له .

ولم يقتصر الأمر على أن قباب المباني الرئيسية كانت تبدو كأنها طافية ، بل إن المباني ذاتها عندما كانت تشيد بمفردها فى نهاية شارع عريض الاتساع كانت تطفو كذلك فى الفضاء ، بل كانت فى بعض الأحيان تكاد تتلاشى فيه ، كالمباني التى تقوم حول ميدان كونكورد . وإذا كان من المحتمل أن مدينة العصور الوسطى بإصرارها على إقامة الأسوار حولها كانت فى أسوأ الأحوال تحدث شعوراً قاتلاً بالخوف من الأماكن المغلقة ، فإن المدينة فى عهد السلطان المطلق كانت تحدث عكس ذلك التأثير تماماً ، وهو الشعور بالخوف المميت من الأماكن الطلقة ، أى الفزع من الفراغ الذى لم يخفف من وطأته إلا أن الحركة الدائبة للعربات كانت تبعد شمل الفضاء .

والواقع أن محرك المتفرج بسرعة فى خلال هذا الفضاء - سواء فى عربة أو على ظهر جواد - كان عاملاً أساسياً للتخفيف من وطأة السمات الجمالية المملة لهذه الشوارع العريضة المتجانسة بمبانيها المتجانسة ، وأخيراً بتجانسها الذى يتجاوز الحد فى استخدام الطرز الكلاسيكية . فقد كان لا يتسنى التغلب على ذلك القدر من الحمود الذى كانت العمارة تنسم به إلا بالربط ربطاً وثيقاً بين الحديقة والطريق المحفوف بالأشجار وبين شكل الشارع الحضرى الجديد . وبفضل استخدام مثل هذه الحضرة ، توافر لشارع الأوبزرفاتوار وللشانزليزه طابع رشيق لم يكن معدوماً مطلقاً ، حتى فى شوارع المضاربة التجارية التى عرفتها باريس كما خططها هوسمان .

وأياً كانت الأغراض الأخرى التي كان التخطيط الباروكي يمثلها ، فإنه يدل على الغزو العسكري للأرض الفضاء . أما النتائج التي عادت على الناس فإنه لم يكن لها أى اعتبار إلا من حيث إنها أسهمت في خدمة صوالح الطبقات العليا ، بيد أنه عندما زال التحصين الرادع تبين أن الشارع العريض الحديد ، بطوله الذى لا ينتهى ، كان ممكن ضعيف ؛ إذ أنه انتقص من قدر الملك ورعاياه على السواء .

وهنا موطن ما تنطوى عليه السلطة من تناقض ، فإن السلطة السياسية المركزية تستمد نشأتها من محض ما لشخصية بارزة متسلطة من قوة وكفافية ، ولكنها تصبح سلبية عندما تؤول جميع هذه الصفات ووجوه النشاط إلى جهاز رسمى ينقل السلطة الأصلية إلى نقطة بعيدة عن طريق هيئة من الموظفين والعسكريين . وإذا كان الطغيان يقوم نتيجة لما يحدث من الارتباك والعجز فى ظل النظم الديمقراطية ، فإنه من الصحيح كذلك أن النظم الديمقراطية المبتدلة نتيجة محتومة للمرحلة الأخيرة للطغيان ، حين تتوافر الكفافية ونختل الإنية ، وبعد فترة من الزمن يغدو أعظم الأباطرة ، أو أقطاب المال ، أو الديكتاتوريين ، ولا وزن له أكثر من رجل الشارع ، فكلاهما باتا من أسنان عجلة مثبتة فى الجهاز الآلى عينه . وإذا كان قصر بيتى (Pitti) لا يزال يبدو رهيباً عندما ننظر إليه عبر فناءه ، فإن قصر فرساي عندما ننظر إليه عن بعد شاسع ، لا يبدو أكثر رهبة من وحدة أفقية فى مصنع للدمى بنيت لينتظم فيها العمال فى خط مستقيم للقيام بعملية جمع أجزاء الدمى . وقد كان شأن الشوارع العريضة الطويلة الامتداد شأن مرآة يتناقص فيها حجم انعكاس المنظور كلما بعد عنها ، فى الشكل المنظور لفرساي أو سانت بطرسبرج أخذت الشخصية الرئيسية هناك - سواء أكانت للملك أم لقيصر - أخذت تتضاءل باطراد وسرعان ما بلغت نقطة التلاشى السياسى .

٦ - الوظائف الحضرية بوصفها بقايا فائضة

لقد ضحى بالمدينة في التخطيط الجديد - كما أوضحت - من أجل أغراض حركة المرور ، فأصبحت الوحدة في التخطيط هي الشارع وليست منطقة الجوار ولا الحى . ولقد جلب الشارع العريض المتجانس الحركة والاضطراب إلى أحياء من المدينة كانت من قبل هادئة مكثفة بذاتها ، وكان من شأنه الاتجاه نحو بسط نطاق السوق على امتداد خطوط حركة المرور ، بدلاً من توفير مواقع محلية يتركز فيها الجيران حيث يتلاقون ويتجمعون - ولو أنه في مدن مثل لندن ، أقل تأثيراً بنفوذ الآراء الباروكية من أغلب العواصم الكبرى ، كان لا يزال يسود احتشاد أهل الجيرة في عدد قليل من الشوارع القصيرة حيث كانت تقوم السوق . وأما حيز السكنى فإن التخطيط الباروكى كان يعتبره البقية التى تبقت بعد ما حذرت الشوارع العريضة بذاتها شكل رقاع المنازل ومدى عرض الوجدات السكنية .

ولقد صحب هذا الإغفال للوظائف الحضرية - إلا فيما يتعلق بحركة المرور - المغالاة في تقدير قيمة الشكل الهندسى ، ومن ثم وجد شكل مربع مثل فرويدنشتات (Freudenstadt) الجديدة ، أو شكل ذو تسع أضلاع تشقه شوارع تتفرع من مركز واحد ، مثل بالمانوفا ، أو شكل على هيئة نجم غير كامل مثل كارلسروه . فما معنى هذا ؟ معناه أن الشكل المجرد يحدد نطاق المشتتات الاجتماعية ، بدلاً من أن يكون مستمداً منها وإلى حد ما مطابقاً لها . فلم تعد منظمات المدينة هى التى يتولد عنها التخطيط ، بل إن مهمة التخطيط قد غدت على الأصح تحقيق تطابق المنظمات لإرادة الأمير . حقاً إنه توجد بضع حالات استثنائية ، إلا إنها وبالأأسف ! ظلت حبراً على ورق : وكانت إحدى هذه الحالات الاستثنائية التخطيط المثالى الذى وضعه فيلاريت (Filarète) على هيئة نجم ، وكان الميدان الذى يتوسطه

مستطيل الشكل ، وتقوم الكاندرائية والقصر على ضلعيه القصيرتين ، وأحياء التجار وأسواق الأطعمة على ضلعيه الطويلتين . وينطوى هذا التخطيط على وجه آخر يجارى كذلك العصور الوسطى من حيث إحلال الوظيفة محل الاعتبار ، وذلك أن كل شارع من الشوارع الستة عشر المتفرعة من الميدان الرئيسى كانت تتخللها ميادين ثانوية ، كانت ثمانية منها لكنائس الأبرشيات ، والثمانية الأخرى لأسواق معينة ، مثل الخشب والقش والحبوب والخمور . ومثل هذا التخطيط ، بما ينطوى عليه من عناية بشئون الحياة اليومية فى أبرشيات المدينة ، كان لا يزال ينتمى إلى العصور الوسطى من حيث الروح ، وإن كان ينتمى إلى العهد الباروكى من حيث المظهر . ولست ثمة حاجة إلى القول بأن مدينة فيلاريت المثالية لم تشيد على الإطلاق ، فإن مثل هذا الطراز من التفكير كان يفتقر إلى السلطة والنفوذ ، وكان الأمير وأعوانه فى شغل باعتبارات أخرى تجول فى خواطرهم .

ولقد كان وضع مشتملات الحياة الحضرية فى المقام الثانى بالنسبة للشكل الخارجى مثالا نمطياً للعقلية الباروكية ، بيد أن ما كان ذلك يتكلفه من النفقات الاقتصادية الباهظة كان يكاد يتعادل مع ما كان يترتب عليه من الخسارة الاجتماعية الفادحة . فإذا كانت طبيعة الأرض غير منتظمة ، وجبت تسويتها مهما تبلغ النفقات فى المواد والجهود البشرية لمجرد الوصول إلى إمكان تنفيذ مشروع التخطيط ، فالشارع العريض كان لا يجوز أن ينحرف خط سيره أو يعدل اتساعه بمقدار بضع أقدام من أجل الإبقاء على شجرة جميلة أو عدم المساس بمبنى ثمين ، وفى حالة تعارض التخطيط مع صوالح البشر ، كان لحركة المرور ومقتضيات الهندسة الاعتبار الأول ، وليس أدل على صعوبة تنفيذ تخطيط باروكى من أن أغلب المدن الجديدة أنشئت فى مواقع مستوية السطح . والواقع أنه فى بعض الأحيان كان واضح المشروع يتراجع عن تصميماته الأصلية ، كما حدث فى حالة إنشاء

الشوارع العريضة المتفرعة من ميدان الشعب (بياترا ديل بوبولو) بمدينة روما ، عندما تبين أن أحد التلال كان أشد وعورة من أن يتيسر اختراقه بأحد الشوارع المقترحة (ويبدو في الواقع أنه مما يشك فيه إذا كان قد تسنى لواضع المشروع أن يتنازل بإلقاء نظرة على الموقع عندما خططه على هذا النحو ، وهو إهمال ليس نادراً في مثل هذا النوع من التخطيط) .

حقاً إن فرنسيسكو مارتيني كان ينوع خطط مشروعاته المثالية بالتفنن في تطبيق قواعد الهندسة الفراغية بحيث يجعل تلك الخطوط متلائمة مع سفوح الجبال المنحنية ، وانحدار الشوارع متدرجاً على نحو مقبول ، بيد أنه حتى هذه المحاولة في مجال التفكير الثلاثي الأبعاد كانت تقتضي أن يكون منحني الجسم الصلب - الذي سعى إلى مطابقة خطوطه الكتورية - أكثر انتظاماً فعلاً مما يكون عليه عادة في الطبيعة . وعلى ذلك فإن عدم الاكتراث بطبيعة الأرض في التخطيط الباروكي ، لم تترتب عليه زيادة عظيمة في تنقعات نمو المدينة فحسب ، بل إن ازدياد العربات زاد من التكاليف بما كان يستدعيه من مزيد من الرصف على نمط أشد متانة ، هذا إلى أن توسيع الشوارع وإطالتها أضاف عبثاً جديداً . وقد كان البابا سكستس الرابع حكيماً عندما واجه ذلك في سنة ١٤٨٠ بفرض ضريبة إضافية على أصحاب الأملاك الذين أفادوا من التحسينات التي تمت في مناطق جوارهم . ولسوء الحظ أن هذا الإجراء السديد ، مثل ابتكاره الآخر الذي يلفت النظر - وهو الاستيلاء على الأرض الخاصة من أجل الأغراض العامة كتوسيع الشوارع - لم تأخذ به الهيئات البلدية الأخرى على وجه جدي إلى آخر القرن التاسع عشر .

وليس معنى هذا أن النظام الهندسي لا يمكن أن يقوم بدور مفيد في التخطيط ، فإن الأمر على نقيض ذلك تماماً ، وإن عصراً كعصرنا الحالي الذي استسلم إلى « أوضاع حرة » زاحرة بالنزوات خالية من الأهداف ،

قد لا يرى مناصاً في القريب العاجل من أن يستعيد شيئاً من التقدير لنظام أشد صرامة مع ما يستتبعه من تبسيط وترتيب لا يدقان على الفهم ، ومن ضوابط يقرها العقل ، فإن مهمة المهندسة في التخطيط هي أن توضح وترشد ، ومثلها مثل أى نوع آخر من أنواع التجريد المفيدة ، يجب أن تخضع للظروف المادية في جملتها وتفصيلها ، وأن تفسح الطريق لاحتياجات بعينها عندما يتضح أنها تتعلق ببعض نواحي الحياة التي لا يتضمنها منطق النظريات . وفي وقت كانت تجري فيه التغيرات على عجل ، وعندما لم يعد يتسنى للتقائيد أن تقوم بما يكفي من الإرشاد ، كان في وسع المهندسة أن تقوم بجدارة بدور وسيلة مؤقتة لتحقيق وحدة في التناسق الظاهري على الأقل . ولسوء الحظ أن المشتغلين بوضع التخطيط في العهد الباروكي كانوا يفترضون بداهة أن نظامهم مخلص ، ولم يقتصرُوا على تنظيم الاتساع ، بل حاولوا وقف عجلة الزمن . وإن ما أبدوه من العنف في إزالة القديم لم يكن ليعادله سوى تعنتهم في مقاومة الحديد ، فإن لم يكن يتسنى إلا لنظام واحد أن ينسجم مع نوعهم في التخطيط وهو المزيد من هذا النوع .

وبالإيجاز فإن التخطيط الباروكي كان عملاً بالحملة ، يجب أن يتم دفعة واحدة ويثبت ويجمد إلى الأبد ، كما لو كان قد قام به جن ألف ليلة وليلة بين عشية وضحاها . وإن مثل هذا التخطيط ليتطلب مهندسا مستبداً في شؤون العمارة يعمل لحساب حاكم مطلق السلطان ويعمر زمناً يكفي لإتمام تنفيذ ما لديهما من أفكار . وقد كان تعديل مثل هذا النوع من التخطيط ، وإدخال عناصر جديدة من طراز آخر ، بمثابة قصم ظهره من الناحية الجمالية ، بل إن المشتكلات السطحية في التخطيط الباروكي كان لا يمكن الاحتفاظ بها إلا بأنظمة إدارية صارمة ، وحيثما ظلت هذه الأنظمة قائمة ، كما كانت الحال في باريس ، كان في الإمكان الإبقاء على النظام سطحيًا لعدة أجيال بل لعدة قرون .

ولعل خير ما ينم بإيجاز عن الإحساس السائد في القرن السابع عشر
 حيال الوحدة الظاهرية هو ما جاء على لسان ديكارت ، وكان من أعظم
 المفكرين الذين يمثلون ذلك العصر ، ولا يقلل من شأنه أنه كان جندياً
 كما كان فيلسوفاً رياضياً ، وقد قال ديكارت : « إنه لما يلاحظ أن
 المباني التي قام مهندس معماري واحد بوضع تصميمها والإشراف على
 تنفيذها ، تكون بوجه عام أكثر أناقة وتوفيراً للراحة من تلك التي حاول
 نفر عديد أن يدخلوا التحسين عليها . وهكذا أيضاً فإن المدن القديمة -
 التي كانت في بادئ الأمر مجرد قرى ، وأصبحت بمرور الزمن مدناً
 كبيرة سيئة التخطيط عادة بالقياس إلى المدن التي أنشئت على نحو منظم ،
 وتولى معماري محترف وضع تخطيطها بمطلق الحرية فوق سهل منبسط .
 ولهذا فعلى الرغم من أنه في حالات كثيرة قد تكون المباني المختلفة في المدن
 السابقة معادلة أو متفوقة في الجمال على مباني المدن الأخيرة ، إلا أنه عندما
 يلاحظ المرء تجاوز مباني المدن القديمة بلا تمييز بين مبنى كبير هناك ومبنى
 صغير هنا ، وما ينشأ عن ذلك من تعرج الشوارع وعدم استقامتها ، فإن
 الإنسان يميل إلى الزعم بأنه لا بد على الأصح من أن تكون المصادفة ،
 وليست أى إرادة بشرية يهديها العقل ، هي التي أدت إلى مثل هذا الوضع .
 وإذا أدخلنا في تقديرنا أنه على الرغم من ذلك كان يوجد في كل العصور
 موظفون معينون كانت مهمتهم السهر على أن تسهم المباني الخاصة في
 الزخرفة العامة ، فإننا نقدر على الفور مدى صعوبة الوصول إلى مستوى
 عال من الكمال ، عندما لا يتوافر لممارسة نشاطنا سوى المواد التي
 يملكها الغير » .

وليس من الميسور أن يوجد تناقض أشد مما يوجد هنا بين أسلوب
 التفكير الطبيعي المنسق وأسلوب التفكير الآلي ، فالأسلوب الأول ينبثق من
 الموقف بأكمله ، والآخر يبسط حقائق الحياة من أجل مسيرة نظام خداع

يقوم على تصورات أعز على العقل من الحياة نفسها ، فأحدهما يعمل على أساس تعاوني مستخدماً « مواد الغير » ، وقد يتولى توجيهها ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يسلم بوجودها ويفهم الغرض منها ، وأما الآخر - وهو أسلوب الباروكي المستبد المتشبت بقانونه هو ونظامه هو ، ومجمعه هو - فإنه يفرضه موظف فني بمفرده ممن يعملون تحت إمرته . واقد كان هذا النظام الدقيق نظاماً طبيعياً فعلاً في نظر من كانوا يعيشون في داخل إطار الحياة الباروكية كرجال البلاط ورجال المال ، إذ أنه كان يمثل القيم التي خلقوها لأنفسهم بوصفهم طبقة قائمة بذاتها ، وأما في نظر الذين كانوا خارج ذلك الإطار فإنه كان إنكاراً للحقيقة .

وقد كان جوهر هذا الأسلوب من التفكير وأكبر رمز يمثل التصميم الباروكي في أضعف وأقوى حالاته الخلاقة على السواء ، هو حقيقة القرن السابع عشر المنسقة تنسيقاً هندسياً بحثاً . فقد كانت عبارة عن تنسيق شكل مساحة من الأرض الفضاء تنسيقاً دقيقاً بحيث يصبح النمو والازدهار الطبيعي مجرد أشكال ثانوية في تصميم هندسي ، كما لو كانت قدراً من السجاد وورق الحوائط وزخارف السقف لصطنعت بمهارة من مواد الطبيعة التي لا شأن لها بذلك . والدرب المشذب الجوانب الذي تستحيل فيه الأشجار إلى حائط أخضر أملس - أي السياج المشذب - ذلك التشويه للحياة مراعاة لاعتبارات الشكل الخارجي للنظام ، كان ينطوى على شيء رائع ، وفي الوقت ذاته مجاف للطبيعة كما لو كان بروكرستس^(١) (Procrustes) قد وهب خيال فنان مثل بوسان (Poussin) .

(١) كان بروكرستس شخصية من شخصيات القصص الإغريقية ، ويقال إنه كان لديه سريران أحدهما قصير والآخر طويل وأن الذين كان ينتصر عليهم كان يرغمهم على النوم في أحد السريرين ويوائم بين طول أجسامهم وطول السرير إما بالطرق لإطالتها وإما بالقطع لتقصيرها .

ولكى ندرك أخطر وجوه النقص فى التخطيط الباروكى ، أو بعبارة أخرى قصوره عن تناول أى أسلوب من أساليب الحياة إلا ما كان مستمداً من حياة البلاط ، يجب أن نتساءل : ما هى التدابير التى كانت تتخذ من أجل مركز الخدمات فى المدينة ؟ أما من حيث مناطق الحوار فلا شئ على الإطلاق ، فلا سوق الحى ولا مدرسته كان يخصص لها موقع معين فى التخطيط ، كما أن حديقة الحى القائمة فى الميدان الكبير كانت لا تقوم حتى بدور ساحة ألعاب صغيرة لأطفال الحى ، فيما عدا أولئك الذين كانوا يملكون حق الدخول إلى الميدان بحكم ما لهم فيه من أملاك . وأما من حيث المنظمات المدنية التابعة للبلدية فإنها كانت تحت سلطة قصر الأمير . ولقد أبدع بالاديو فى بسط نظرية مركز الخدمات فى المدينة ، إذ قال :

« ولنعد إلى الميادين الرئيسية ، تلك التى ينبغى أن تكون ملحقة بقصر الأمير أو بالقصر الذى يجتمع فيه ممثلو الأقاليم تبعاً للبلاد ، ملكية كانت أو جمهورية . وينبغى أن يلحق بها أيضاً ، بيت المال أو الخزانة العامة حيث تودع أموال الدولة وكنوزها ، وكذلك السجون . وهذه الأخيرة كانت قديماً من أنواع ثلاثة : أحدها لأمثال من يتبعون سيرة الفجور أو الابتذال . . . وهى التى نخصصها الآن للمعتوهين أو المجانين ، ونوع آخر للمدنيين . . . وأما النوع الثالث فكان للخونة أو للمجرمين » .

القصر ، وبيت المال ، والسجن ، ودار المجانين — ما من أربعة مبان أخرى يتسنى لها أن تجمل وصف النظام الجديد على وجه أوفى من ذلك ، أو أن تفضلها فى تمثيل الظواهر الرئيسية فى حياته السياسية — فلقد كانت هذه المباني أبرز معالم المدينة ، وفيما بينهما كانت تمتد للواجهات التى تتكرر تكراراً لا قيمة له ولا وزن ، وخلف تلك

الواجهات كانت تسير على نحو ما تلك النواحي من الحياة التي أغفل أمرها وأنكر وجودها .

٧ — ساحة المناقبين

هناك ناحية واحدة ، مع ذلك ، ارتفع فيها التخطيط الباروكى إلى ما فوق مستوى مقدماته السياسية والعسكرية ، وفيها نراه قد أنشأ وضعاً مستقلاً عن أغراض القصر . وقد تمثل هذا الوضع في فكرة ميدان المساكن ، فالميدان المفتوح لم يختلف إطلاقاً ، بيد أنه كذلك ، حتى في العصور الوسطى ، لم يحدث على الإطلاق أنه استخدم بأكمله لأغراض سكنية ، ولولم يكن ذلك إلا ليجرد أن المكتب والخانوت كانا جزءاً من المنزل ، ولكنه عاد إلى الظهور في القرن السابع عشر في ثوب جديد ، أو بالأحرى كان يودى عندئذ غرضاً حضرياً جديداً ، وهو الجمع بين طائفة من المساكن ، بعضها على رأى من بعض ، ويشغلها قوم لهم بوجه عام ذات الصفة من حيث الحرفة والمركز . وإن الدكتور ماريو لابو (Mario Labo) لعل صواب فيما يراه من أن سترادا نوفا (الشارع الجديد) في جنوة يعتبر حياً أكثر منه شارعاً ، بيد أن الميادين الجديدة جاءت بتعريف جديد لمثل هذا النوع من تجميع الطبقات .

ففي الطراز الأقدم عهداً للمدن — وبخاصة في القارة الأوروبية — كثيراً ما كان الأغنياء والفقراء ، والعطاء والصعاليك يختلطون معاً في الحى نفسه ، وفي باريس مثلاً ظلوا زمناً طويلاً ينزلون في المبنى عينه ، فكان أوفرهم ثروة يشغلون الطابق الأرضى ، وأشدهم فقراً يسكنون أعلى طابق في المبنى ، فوق الطابق الأرضى بخمسة أو ستة طوابق . إلا أنه قد تكون الآن نوع جديد من الميادين يبدو أنه قد بدأ في الظهور عند إنشاء مبنى هيئة المحامين المعروف باسم جريز إن (Gray's Inn) في لندن في سنة ١٦٠٠ . وهذا النوع الجديد من الميادين عبارة عن قطعة أرض قضاء لا تحوطها إلا المساكن وحدها ،

بلا حوانيت ولا مباني عامة فيما عدا احتمال وجود كنيسة . والواقع أن « جريز إن » كانت بمثابة مرحلة انتقالية بين مبنى العصور الوسطى المطوق بالأسوار والمشتغل على حدائق داخلية ، وكان الغرض منه أن يكون ديراً أو داراً لعظيم من النبلاء ، وبين الميدان الذي لا تطوقه سوى منازل وحدها والذي وضع تصميمه بوصفه جزءاً من الطراز الجديد للشارع .

وأقدم الميادين الفرنسية في باريس : وكان يسمى الميدان الملكي (Place Royale) - ويطلق عليه الآن اسم ميدان الفوج (Place des Vosges) - ترجع الفكرة الأولى فيه إلى هنري الرابع في سنة ١٦٠٤ ، على أن يكون موقع مصنع جديد للسجاد وكان أحد مبانيه قد تم إنشاؤه فعلاً . إلا أنه في سنة ١٦٠٥ اتسع نطاق هذا المشروع لكي يتضمن مساكن على ذات نسق المصنع بحيث يتسنى إيواء العمال فيها ، وهو ما كان يتلو سابقة مشجعة للنظام الصناعي الجديد الذي كان في دور التكوين في المصانع الكبرى للنسيج والفيخار المشمولة بالرعاية الملكية . بيد أنه في السنة بعينها أغفل أمر هذا الاستهلال الموفق للقيام بتجربة من نوع آخر ، وهي الميدان المخصص لغرض واحد دون سواه ، وهو إقامة مساكن للطبقة العليا . وعلى ذلك فإن هذا المكان القضاء بالذات ، ارتد إلى حد ما إلى الحالة الأصلية التي كان يستخدم فيها ، فقد كانت تقوم على أحد جوانب ذلك الموقع الدار الملكية القديمة المعروفة باسم أوتيل دي تورنيل (Hôtel des Tournelles) بساحتها المخصصة للألعاب الفروسية ، ولفترة ما في سنة ١٦١٢ عادت إلى استخدامها في تلك الأغراض البهجة ، ويمكن أن نلاحظ أنه على هذا النسق نفسه استمر الاحتفال بعيد سان أوفيد (St. Ovid) بإقامة مهرجان في ميدان فنلوم (Place Vendôme) ، وهي عادة قديمة ترجع إلى العصور الوسطى .

وفي لندن كانت الأرض اللازمة لإنشاء هذه الميادين الجديدة تقدمها الدوائر الإقطاعية الكبرى التي كانت تملك مساحات كبيرة في المدينة .

وحتى في الأبرشيات - على نحو ما حدث في ضاحية سان جرمان بباريس - أقام النبلاء الإقطاعيون دورا ريفية تقع خلفها حدائق فسيحة مثل تلك التي تمتد خلف متحف رودان (Rodin) ، ويرجع اتساع هذه الحدائق اتساعاً كبيراً إلى الغرض الذي أقيمت من أجله أصلاً . وتذكر سيليا فيين (Celia Fiennes) في مؤلفها « رحلات في إنجلترا » أنه كانت توجد قديماً في وسط لندن منازل عديدة للنبلاء ذات حدائق كبيرة ومبانٍ خارجية ومداخل عظيمة ، ولكنه منذ عهد قريب يجري هدمها وتقام مكانها شوارع وميادين تطلق عليها أسماء النبلاء ، وهذا هو ما يتبعونه جميعاً على وجه التقريب .

والواقع أن الميادين الجديدة أشبعت حاجة جديدة للطبقة العليا ، وأعلى الأصح مجموعة بأكملها من الحاجات . فقد أنشئت هذه الميادين أصلاً من أجل أسر النبلاء أو رجال التجارة الذين بلغوا ذات المستوى في المعيشة ودرجوا على ذات العادات في حياتهم . وإذا كانت الواجهات المتجانسة في الميدان تخفى ضروب الاختلاف في الآراء السياسية والمعتقدات الدينية ، فلعله في القرن السابع عشر كانت الحاجة أشد إلى مثل هذا الستار الطبقي التعسفي لإخفاء ما أخذ يظهر بين الطبقات من ألوان التباين والتنافس والعداء ، فقد كانت الأوساط الراقية تبدو على هيئة جبهة طبقية واحدة تخفى ، في أدب ، ما بينها من خلافات في النزعات الفكرية أو الحزبية . وأولئك الذين كانوا يقيمون في ميدان ، حققوا لأنفسهم - بحكم هذه الحقيقة ذاتها - ميزة إضافية ؛ فمن المسلم به أنه كان من الميسور لهم أن تكون لديهم مركبة وخبول ، وهو ما كان يتكلف نفقات كان ينظر إليها بشيء من الوجل حتى من كان موظفاً حكومياً بارزاً مثل صمويل بيبس (Samuel Pepys) .

وأما من الناحية المعاصرة ، فإن هذه الميادين كانت في البداية على شيء من الكآبة ، فقد كانت أقرب شَبْهاً إلى ساحة التدريب العسكري منها إلى

الحدائق الصغيرة في المدينة وهو ما آل إليه مصير الكثير منها في القرن الثامن عشر عندما عاد الحنين الشاعري إلى المناظر الطبيعية فغشى الفياق الحجرية في المدينة . وحقيقة الأمر أن الأماكن الفضاء في الميادين لم يقصد منها مخطوطها أن تكون أماكن للتجوال والترويح عن النفس في الخلاء على نحو ما تستخدم الآن ، بل كانت على الأصح مواقع مخصصة لوقوف العربات ، أو كما ذكر إيفلين في مؤلفه « لندن تبعث حية » (Londinum Redevivum) أماكن انتظار كان يتسنى للعربات الوقوف فيها ، كما كان يتسنى ولا شك تسير الخيل فيها من وقت إلى آخر حين ينفد صبرها في يوم قارس في أثناء انتظار السائق سيده أو سيديته : وفضلاً عن ذلك فإنه في هذه الميادين المفتوحة كان يتسنى وصول المدعوين بمركباتهم إلى حفل كبير دون أن يحدث ذلك اضطراباً لا موجب له في حركة المرور : وعلى ذلك فإن من سخرية القدر أن أمثال ميدان فندوم (١٦٧٧ - ١٧٠١) - وهو يستخدم الآن مكاناً لوقوف السيارات - إنما تعود على نحو ما إلى تأدية الغرض الأصلي منها ، ولكن مع هذا الفارق - وهو أن العربات القديمة كانت عادة محدودة العدد ، وكان الكثير منها لا يبقى طويلاً في مكانه ، على حين أن السيارات التي تشغل تلك الميادين الآن تؤلف كتلة جامدة لا تتحرك .

وقد طرأ على ميادين المساكن مزيد من التغيير في القرن الثامن عشر ، فإنه عند وضع تخطيط أغلب هذه الميادين لم يراع أن تتوافر فيها مساحات كافية لحدائق خلفية : والواقع أن هذه الحدائق تحولت بأسرع مما ينبغي إلى أفنية مرصوفة للانتفاع بها ، حيث كان يتيسر تنظيف السجاجيد وتجفيف الملابس بعد غسلها : وعند ما اشتد الإحساس بمبلغ هذا النقص ، عمد أصحاب المنازل المطلة على الميدان إلى تحويل الأرض الفضاء الحالية إلى متزه أو بستان عام : وفي المنظور العظيم الذي رسمه تيرجو (Turgot) لتخطيط باريس في سنة ١٧٣٧ ، نرى الميدان الملكي وقد أحيط بسياج ذي أربعة أبواب وتمتد

فيه ثمانية دروب تتجه نحو الوسط ، حيث يقوم تمثال لفارس على صهوة جواده . وفي إنجلترا ، بعد قضاء جيل أو جيلين في العناية بالزراع والغرس أضفت الأشجار والحشائش الخضراء على منظر المدن حلة من الجمال ونشرت في هوائها عيراً منعشاً ، ولكن ضاع ما كان لحدائق العصور الوسطى من ميزة الوجود في الداخل ، فإن النخمة الجديدة كان قوامها المنظر الطلق والعزلة الاجتماعية ؛ إذ أن الحواجز بين الطبقات كانت تصدر عنها الآن أصوات خفية تنم عن النجاح والتوفيق .

وعلى الرغم من أن تطور ميدان المساكن قد استغرق مدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، فإن شكل الميدان وعمارة المباني ومساحة الأرض الفضاء بقيت جميعاً ثابتة في لندن على الأقل . ولعل ميدان بركلي (Berkeley Square) بمساحته التي تبلغ خمسة أفدنة يمثل المتوسط بينها . ولقد أنشئ أكثر من أربعة وعشرين ميداناً في وسط لندن قبل سنة ١٨٢٧ وبخاصة في بلومزبرى (Bloomsbury) وماي فير (Mayfair) وبلجرافيا (Belgravia) ، وكانت تمتد من كوونت جاردن (Covent Garden) ، وليستر سكوير (Leicester Square) (١٦٣٠ و ١٦٣٥) مرة بيجروفر (Grosvenor) (١٦٩٥) وبدفورد (Bedford) (١٧٧٥) إلى بوسطن كريست (Boston Crescent) وبلجريف سكوير (Belgrave Square) (١٨٢٠ و ١٨٢٥) . وبمرور الزمن كانت تمثل أشكالاً بلغت حداً كبيراً من التباين ، منها المستطيل مثل تورينجتون سكوير (Torrington Square) ، ومنها ما هو على شكل نصف دائرة مثل مورنينجتون كريست (Mornington Crescent) ، ومنها المستدير مثل بلاس دى فيكتوار (Place des Victoires) في باريس ، ومنها ما هو على هيئة القطاع الناقص المفتوح مثل بعض تلك الميادين الموجودة في أدنبرة الجديدة . وحتى في بعض الأحياء التي آل بها الأمر في النهاية إلى أن ترزح تحت طائلة تغير

الظروف وغائلة الفقر ، نجد أن هذه الأماكن المفتوحة كان لها فضل الاحتفاظ بمستوى من اللياقة والنظام يميزها عما هو أشد قذارة من الشوارع الجانبية :

وكان المثال الذى ضربته كل من لندن وباريس قدوة أخذت في محاكاتها المدن الصغرى . فالميدان الدوقى (Place Ducale) في مدينة شارليفيل (Charléville) الصغيرة قد أقيم من الناحية المعمارية على ذات المنوال الذى أقيم عليه الميدان الملكى (Place Royale) في باريس . والميادين التى أنشئت على هيئة مربعات ودوائر وأهله في مدينة باث (Bath) ، طبقاً للتخطيط الذى وضعه المعماري جون وود ، بلغت مستوى من الكمال أرفع مما بلغته في أى مكان آخر ، ولعل ذلك يرجع إلى حد ما إلى براعة رائعة حقاً في استغلال ما في الأجزاء الجديدة بالمدينة من مواقع جبلية غير منتظمة . ولسوء الحظ أنه نظراً إلى أن العادة جرت بتصوير المباني الواقعة على الميدان المعروف باسم الهلال الملكى (Royal Crescent) وليس بتصوير المنظر الذى تطل عليه هذه المباني ، فإنه قد لا يتيسر لأولئك الذين لم يزوروا باث أن يدركوا بسهولة أن الامتداد الشاسع لمنحني الهلال ليس شكلاً تعسفياً ، بل إنه استجابة نابعة للامتداد الشاسع للمنظر الطبيعى الذى يطل عليه الموقع ؛ منظر التلال البعيدة الذى لا بد من أنه كان أكثر روعة حتى قبل أن تبلغ الأشجار - التى تفصل بين الهلال والتلال - حداً من النمو يكفى لحجبه . وهنا كان للإسراف الباروكى في استخدام الأرض الفضاء ما يبرره على أكمل وجه من حيث ما أسفرت عنه النتيجة من جمال فنى - وذلك فضلاً عما في مثل هذا التخطيط المفتوح من مزايا صحية . ونقاد الفن المعماري الذين خلطوا حديثاً بين العمران الحضري وبين ارتفاع كثافة السكان وتلاصق المباني . إنما يسفهمون إذ يغفلون ما في باث من رحابة وطلاقة ، وهى التى

ظلت أشد المدن الانجليزية محافظة على صفتها الحضرية ، وكان شأنها في أزهى أيامها شأن أى مدينة ريفية من حيث عدد السكان ، وشأن أى عاصمة من حيث آداب السلوك .

ولقد أظهر التخطيط الذى وضعه كريج (Craig) لمدينة أدنبرة الجديدة فى سنة ١٧٦٧ مدى ما يمكن للنظام الجديد أن يصل إليه لو سار فى اتجاه مغاير كل المغايرة للسوابق الباروكية المستمدة من القصر ، فإن ذلك النظام والتوحيد نجما عن اتخاذ موقف موحد لإزاء الحياة وعن الملكية الموحدة للأرض ، وعن الإشراف الموحد على المهندس المعماري وعلى القائم بعملية البناء . فلو أن الأرض قد قسمت من بادى الأمر إلى قطع متعددة ، وبيعت لأفراد من الملاك الذين كان ينافس بعضهم بعضا ويعتز كل منهم بذوقه الشخصى ، ويحرص على نزواته الشخصية ، ويدافع بوحشية عن آرائه الشخصية ، لكانت النتيجة أن تعم الفوضى التى كثيراً جداً ما سادت فى شارع أواخر القرن التاسع عشر فى المدن وفى الضواحي ، فهنا فى لندن وباث وأدنبرة ، كان النظام الباروكى يتجلى فى أبهى مظاهره أكثر منه فيما هو أبعد من ذلك شهرة من مدن القصور التى اتخذها الملوك مقراً لإقامتهم ، حيث كان التنظيم متكلفاً حتى يمكن القول إنه كان مصحوباً بانحناءة دقيقة وابتسامة هادئة ، وقد كانت عناصر التعمير بسيطة ولا تعتمد فى شيء تقريباً على تقليد الماضى تقليداً أعمى ، فما هى إلا الفضاء المفتوح فى شكل هندسى بسيط — هلال أو دائرة أو شكل بيضى أو مربع — يحده سور من الحديد يطوق الجزء المنزرع ، وشارع على المحيط الخارجى ليكون وسيلة الوصول . وكان الإطار المحيط بجوانب الميدان على نسق واحد منتظم يتألف من مواد واحدة للبناء — الآجر أو الحجر أو الجص — ومن خط واحد للسقوف ، ومن عناصر واحدة متكررة — النوافذ والأبواب والأعمدة .

وليس أدل على أن الاحتياجات التي تطلبها الناس كانت جوهرية ، وعلى أن هذه الاحتياجات توافرت بطريقة مباشرة ، من أن هذه المنازل مازالت صالحة للسكنى بعد انقضاء مدة تتراوح بين قرن وثلاثة قرون على إنشائها ، وفي وسعى أن أشهد بذلك عن تجربة ، فإن اتساعها وما تنسم به من انعدام الطابع المميز في ذاته ، وعدم مطابقتها على وجه دقيق لوظيفة معينة — على حد تعبير ماثيو نويكي (Matthew Nowicki) كل هذا أطال أمد حياتها ، فإنها صالحة على وجه متساو تقريبا لاستخدامها شققاً للسكنى أو فنادق أو مكاتب أو مراسم (studios) ، أى إنها في الواقع صالحة لكل الأغراض تقريباً فيما عدا الغرض الأصلي منها ، وهو أن تكون مسكناً لأسرة واحدة . وفي أحط ما وصلت إليه هذه المنشآت ، تكشفت عن حسن مزايها من حيث العمارة والتخطيط ، وفي أوج ما بلغت ، وفدت بكل ما كانت تتطلبه حياة حافلة بالمظاهر ولكنها متمسكة بالوقار ، عندما كان من الميسور الاحتفاظ بمثل هذه المظاهر عن طريق استخدام حاشية كبيرة مؤلفة من خدم قليلي الأجور . وإن هذه الفترة الطويلة ، التي بقي فيها هذا الطراز سائداً دون تغيير ، لتدل على مدى ما كان ينطوى عليه من مزايا ، وقد كان توماس كييت (Cubitt) لا يزال يقوم بإنشاء منازل وميادين من هذا القبيل في لندن في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وحسبنا هذا القدر من حيث تقدير مزايا هذا الطراز ، بيد أنه يجب ألا يدق المرء النظر فيما وراء الواجهة الأمامية المثالية الجميلة ، حتى في مساكن الطبقة العليا ، فإن لها واجهتين إحداهما أمامية والأخرى خلفية . وقد كانت الواجهة الأمامية — وهي التي كان يراد أن يراها الناس — لا تزال جميلة ، وأما الواجهة الخلفية — وهي التي كان يراد أن تبقى خافية عن العيون — فإنها كانت عادة مزرية ، وفي كثير من الأحيان بالغة القبح . وهنا تنعكس صورة الحياة في العمارة ، وإن مجموعة مقالات هوجارث

(Hogarth) عن سَيرِ المسنهر (The Rake's Progress) مثل يوميات (Diaries) بوزويل (Boswell) لتكشف الكثير مما تخفيه النقوش المعمارية البحت التي ترجع إلى ذلك العصر . وإذا نظرنا إلى ظهور المنازل الأنيقة القائمة في ميدان تشارلوت (Charlotte Square) بأدنبرة ، فإننا نجد أنها كالثكنات . وإذا تابعنا السير في الأزقة التي تخرج من الميدان فإننا نجد أنها تؤدي إلى مساكن زرية فقيرة لا يفصلها عن المنازل الأنيقة سوى حظائر للخيول ، وقيم فيها الخدم وصغار المشتغلين بالتجارة ، وحيثما لم يكن لهذه المساكن الفقيرة وجود قبل ظهور الميدان الكبير إلى عالم الوجود ، وجدت في النهاية كجزء من التطور ؛ فالشوارع الواقعة خلف الواجهات المتسمة بتدبر من الإسراف في رونقها والمظلة على حديقة ريجنت التي وضع ناش (Nash) تصميمها - هذه الشوارع وضع تخطيطها كما لو كان قد قصد أن يكون إنشاء مساكن فقيرة على جوانبها جزءاً أصلياً من التخطيط ، بل إن واضعي التخطيط لم يرغب عن قريحتهم الوقادة أن يوفرُوا حياً صغيراً للمنازل أصغر حجماً أعدت لتكون مركزاً ملائماً تشغله الخليلات وبائعات الهوى .

ولاجدال في أن هذا التخطيط الخاص بالطبقة العليا قد تجرد تقريباً عما يمكن أن يفيد منه النظام في باقي أنحاء المدينة ، حيث كان السكان يعيشون في مستوى أدنى من ذلك اقتصادياً ، وكانوا يسكنون ، كما سوف نرى ، على نهج مختلف لم يكن فيه أى اعتبار للذوق وللصحة وللحياة العائلية . ولقد صورت هذه الحالة على أبلع وجه في محاورة جرت في القرن السادس عشر بين رجل ريفي وآخر من سكان المدينة ؛ فإن الأول يطنب في وصف مزايا الريف والحياة الاجتماعية التي يستمتع بها هناك مع جيرانه الأوفياء من رعاة وجزارين وفلاحين وتجار ماشية ، ونجارين ونقاشين وخباطين وأمثال هؤلاء من الناس ، وهم صحاب على أوفر قسط من الطيبة والاستقامة . وهذه الحياة ، التي كانت توجد في المدينة أيضاً في يوم ما ، قد اختلفت

وزالت عندئذ ، فإن محدثه يرد قائلاً : « وهذا ما أعتقد أنه أيضاً ، ولكن هذه الصحبة ليست أهلاً لك بوصفك سيداً مهذباً » . فيبدى الربى دهشته على هذا النحو : « ماذا تقول ، أتريد منى أن أعيش وحيداً بمعزل عن الناس ؟ إن ذلك يكون أسوأ من الموت » ، وهو ما يجيب عليه السيد ابن المدينة بقوله : « كلا إنى لا أقصد شيئاً من ذلك ، فإنك لو عشت أغلب وقتك في البلاط وفي المدينة بين الأوساط التي تمتاز عن سواها ، لوجدت دائماً هناك الصحبة التي تلائم مركزك ومكانتك » . ولقد ظل التخطيط الباروكى ، حتى في أحسن حالاته ، قائماً على هذا الأساس الضيق ، فإنه كان موجهاً للخدمة الأوساط الممتازة ، وملائماً لحالتها .

٨ — مخلفات باروكية

كانت العبادة الباروكية للقوة أكثر تشبهاً بالبقاء حتى من أيديولوجية العصور الوسطى ، فلقد ظلت قائمة وبسطة سلطاتها على جوانب أخرى من الحياة ، فخلقت أشخاصاً عديدين على شاكلة نابليون ليس في شئون السياسة فحسب ، بل في شئون الأعمال والمال ، ولو أن تنظيماتها أخذت تفقد على توالى الأيام ، ما كان متوافراً لدى كبار القائمين على تنفيذها في مراحلها الأولى من يقظة الإحساس بالجمال الفنى . ولقد كانت الأساليب الديمقراطية ذاتها سبباً في ازدياد سيطرة الاستبداد الباروكى على المجتمع ؛ إذ يجب ألا ننسى أن فرض الخدمة العسكرية على جميع الذكور من السكان لمدة عدة سنين دفعة واحدة ، وليس لفترة بضعة شهور كل عام ، كما كانت الحال في العهد الإقطاعى ، لم يحدث إلا منذ الثورة الفرنسية فحسب . وفي العصور الحديثة لم يجبر أى ملك مطلق السلطة على فرض مثل هذه الخدمة الإجبارية العامة ، والواقع أنها كانت قد غدت أمراً غير ميسور بعد عهد بناء الأهرام .

ولقد تمثلت في الجيوش والحكومات والمشروعات الرأسمالية الدوافع

والأوضاع التي كان يتميز بها هذا النظام في أقصى ما بلغه من الاتساع والتضخم . ولقد ظل الشبح الباروكي مسيطراً على تخطيط المباني الحكومية بوجه خاص ، لأنه إذا كانت دور بلديات المدن الحديثة في أوروبا في القرن التاسع عشر - من فيينا إلى مانشستر - كثيراً ما تقام على نمط العصور الوسطى ، فإن دور البرلمانات (فيما عدا دار البرلمان في وستمنستر) ودور المكاتب الحكومية ، كانت تمثل صورة كثيفة مترفة من الطراز الباروكي ، وإن جردت أحياناً من الزخرف لتبدو في دقة الطراز الكلاسيكي . وحتى داعية النازية المعتوه ، في دعوته المتعمدة إلى العودة إلى آلهة القبائل الجرمانية المتوحشة ، صب أوهامه عن القوة المجردة من الروح الإنسانية في قالب يلائمها من البذخ الكلاسيكي الأجوف .

والطراز الباروكي ، في كل من العمارة والتخطيط ، لم يبق قائماً فحسب ، بل وجد أقصى مجال لتنفيذه على نطاق واسع في باريس ومدريد وسانت بطرسبرج وفيينا وبرلين . فعلى حين أنه في القرن الثامن عشر بطل إنشاء مدن لتكون مقراً لإقامة الملوك ، كانت العواصم الكبرى تنهج في نموها وتوسعها نفس القواعد العامة ، وكثيراً ما كان يقترن ذلك بأسلوب غاشم من حيث عدم الاكتراث بالقيم التاريخية التي قد يتوقع المرء المحافظة عليها والعمل على إبرازها في الهياكل والنصب القومية التذكارية . والواقع أنه كان من نصيب باريس أن تحقق في القرن التاسع عشر بعضاً من أعظم آيات نجاح التخطيط الباروكي ، وهو ما يدل عرضاً على أن ما له صفة تاريخية من جوانب حضارة المدن يخلق طرازاً أصيلاً يقوى على البقاء والاستمرار بحيث لا يتسنى وصفه بدقة في نطاق الحدود الزمنية لأي عصر بمفرده ، وذلك لأسباب سبق لنا أن بحثناها .

ولقد أفاد من الاتجاه الباروكي إمبراطوران ، وهما نابليون الأول ونابليون الثالث ، فإنه من أجل تجميل باريس قام كل من هذين العاهلين

بتنفيذ وتوسيع مشروعات كان أسلافهما الأقل إقداماً قد اقتصروا على مداعتها . وقد احتفظ الطراز نفسه بشئٍ غير قليل من قوته الحيوية القديمة بقدر ما كان هذان العاهلان يباشرانه من السلطة الحقيقية . وعلى حين أن التخطيط الذى وضعه كولبير لباريس فى سنة ١٦٦٥ عنى بوجه خاص بتجديد حجم المباني واتساع المدينة ، فإن هذين الحاكمين الجديدين ، وكانا أكثر تشييعاً للنظام الملكى من الملوك القدماء ، كانا من أنصار النمو والتوسع ، وقد خدمت حوافرهما رجال المصارف والمضاربين الذين أفادوا مما ترتب على ذلك من زيادة فى إيجار الأرض وأرباح المباني .

وإلى صميم القرن العشرين ، كان التخطيط الحضرى فى ذاته يعنى بوجه خاص التخطيط الباروكى ، على الأقل فى الخواضر الكبرى من طوكيو ونيودلهى إلى سان فرانسيسكو ، وكان أضخم هذه المشروعات ذلك التخطيط الذى وضعه برنهام (Burnham) وبنيت (Bennett) لمدينة شيكاغو ، بما فيه من متزهات عامة وطرق بها حدائق ، وشوارع عريضة مائلة الاتجاه ، وما فيه من إقصاء مناطق الصناعة والطرق الحديدية عن وجه النهر . بيد أنه لا مفر من أن نلاحظ هنا - كما نلاحظ فى أماكن أخرى - مواطن الضعف فى التخطيط الباروكى ؛ وهى ألا أثر فيه للاهتمام بمنطقة الجوار بوصفها وحدة متكاملة ، ولا اعتبار لإسكان الأسر ، ولا تصوراً كافياً لتنظيم الأعمال والصناعة فى ذاتها كجزء ضرورى من أى مشروع كبير له صبغة حضرية . وعلى المنوال نفسه وضع تصميم مركز خدمات المدينة فى سان فرانسيسكو ، وكذلك فى كليفلند وسبرنجفيلد ، دون مزيد من التحكم فى منظر المدينة الذى يحيط بذلك الجزء - ويكذب صراحة مزاعمه الجمالية .

وإن بعضاً من أفضل أمثلة التخطيط الباروكى ، وكذلك بعضاً من أسوأها ، لم تنشأ إلا فى وقت لم تعد فيه ملائمة ، بوجه صارخ ، سواء من الناحية الرمزية أم من الناحية العملية ، للعصر الذى أنشئت فيه ، فإنه بدون

توافر سلطة واسعة مطلقة ، وتحكم شديد في المنطقة المحيطة بالموقع ، وتوظيف رغوس أموال كبيرة ، كان لا يتسنى للتخطيط الباروكي أن يناضل المشروعات المتنافسة دون نظام في المدينة الآخذة في الاتساع وفي زيادة ارتفاع المباني ، وذلك لأن نصف رغيف في مجال التخطيط الباروكي يكون في الواقع أسوأ من لاشيء ، فإن ما يتبقى دون إنجاز ، أو دون أن يتأثر بالخطة ، يكون بذاته اعترافاً بضعفها .

وفضلاً عما هنالك من عدم التلاؤم بين الأوضاع الباروكية ، وما لمدينة حديثة من أغراض ومهام ، فقد كانت توجد ناحية ضعف أخرى لم يفتن إليها إطلاقاً أنصار الباروكية المتأخرون ؛ ذلك أن ذات ما فيها من عظمة كان يقوم على عدم احتفالها بالحاجات العملية ، حتى حاجات المرور ، إن لم يتم على احتقار هذه الحاجات ، ولذلك فإن أجل ما أدته من الخدمات ، وهو الشارع الطويل المستقيم المتسع ، قد أفاد حقاً في إيجاد اتصال سريع بين نقطتين متباعدتين ، ولكن اتساع الشارع العريض كان في ذاته عائقاً دون الاتصال بين الجانبين المتقابلين ، وإلى عهد قريب ، عندما أدخل نظام الإشارات الضوئية للمرور ، كان من المجازفة عبور مثل هذا الشارع العريض ، حتى مع استعانة السائرين على أقدامهم « بالجزر » المقامة في الوسط لمساعدتهم على عبوره .

وأما من حيث ارتياد الحوانيت لمشاهدة معروضاتها وانتقاء ما يروق منها — وهو ما أصبح بعد القرن السابع عشر وسيلة عظمى لقضاء أوقات الفراغ — فإن أكثر الشوارع نجاحاً في تحقيق هذا الغرض هي الشوارع الضيقة التي لا تتسع لحركة المرور ، مثل شارع بوند (Bond Street) القديم والجديد في لندن ، وكالفرسترات (Calverstraat) في أمستردام وكالي فلوريدا (Calle Florida) في بيونس إيرز . وإذا كان الشارع العريض يعتبر حائلاً

دون عبوره ، فإذا عسانا أن نقوله عن مثل تلك الميادين الفسيحة العاصفة ، كميدان الأتوال (Place de l'Etoile) الذى لا تقل مشقة الطواف حوله على الأقدام عن مشقة القيام برحلة للحج ؟ إن أمثال هذه الضروب من الإسراف لتقتضى من التضحيات الباهظة يومياً ما لا يتناسب مع الفوائد التى تجنى من ورائها .

فما هو العامل المستول إذن عن استحواذ التخطيط الباروكى استحواذاً فعالاً على عقل المشتغلين بالتخطيط ، كل هذه الحقبة الطويلة ؟ ما هو السبب فى أن مثل هذا العدد الكبير من مشروعات التخطيط ، الحديثة فى ظاهرها ، لا يزال يوضع وينفذ طبقاً للروح الباروكية ، بعين ما فيها من الإسراف العائى والاحتقار العائى للاحتياجات البشرية — على الرغم من أن الشارع العريض العظيم قد تحول إلى « طريق سريع للمرور » (expressway) وأن الميدان العظيم اتخذ شكل ورقة الرسم ؟ إنه لتكمن وراء هذه الأساليب مزاعم وأوهام عن قدرة لا تحد . فالطريقة الباروكية فى معالجة الأمور تحمل فى طياتها ثقة من عين النوع الذى كان الطبيب يتمتع به قديماً عندما كان يصف لمريضه بطريقة آلية أن يتناول مسهلاً قوى المفعول بغض النظر عن أغراض المرض وطبيعته ، فإن ذلك كان يبشر بالحصول على نتائج قاطعة ، عاجلة ، ملموسة ، بل تستوقف النظر .

وإذا ما قارنا بين ما فى أحد المشروعات الباروكية من هندسة أنيقة ، وبين ذلك النوع من العمليات الطويلة الأمد للتبديل والتعديل جزءاً فجزءاً على نحو ما اقترح رولند نيكولاس (Rowland Nicholas) فى المشروعات التى وضعها لإعادة بناء مانشستر ، تجلت المزايا الخداعة لتلك السطحية الإدارية . وإن الأمر ليجتاح إلى دراية وقوة خيال فى آن واحد لإدراك أن العملية التى يريد تنفيذها صاحب مشروع تخطيط مانشستر ، من شأنها أن تؤدى إلى قيام مدينة على أسس أحجى بمراحل من التسرع بإزالة حتى

بأكمله دفعة واحدة ، وشفع ذلك بشق شوارع جديدة عريضة على نطاق واسع ، وإقامة مشروعات ضخمة للمباني ، وما يستتبعه ذلك حتماً من تحويل الأموال والجهود عن نواح أخرى من المدينة هي في حاجة مماثلة إلى الإصلاح على مهل خطوة فخطوة . وإن ما في الأسلوب الباروكي من مظاهر الحسم ليكسبه في البداية غلبة على المشروعات التي توجه عناية أوفى إلى اعتبارات الحقائق البيولوجية والاجتماعية والاقتصادية .

ومع ذلك فإن الملاحظة الشهيرة التي أبداها دانييل برنهام كانت على قسط من الإدراك العميق لطبيعة الإنسان ، فقد قال : « لا تضيع مشروعات صغيرة ، فإنها لا تقوى على إثارة اهتمام الناس » . وهناك أوقات تكون فيها جرأة الذوق الفني الباروكي وما يقترن بها من انتهاك غشوم لحرمة الحقائق التاريخية ، هي التي توفر الجواب عما قد يغدو صعباً لا سبيل إلى التغلب عليها لو حاول المرء إيجاد حل لها واحدة بعد الأخرى . وليس في وسع أحد أن يتهم و . ر . ليثاني (W.R. Lethaby) — وهو من المتشيعين للعصور الوسطى بحكم مهنته ، ومن الداعين إلى استخدام لغة عملية حديثة تكون دارجة في البلاد ومتحررة من قيود الأسلوب — بأنه تبعاً لذلك مولع بالطراز الباروكي ، بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماماً ، وعلى الرغم من هذا فإنه حيال انبطاح الجزء الأوسط من لندن انبطاحاً مائماً ، وما فيه من شوارع متشابكة وضيقة لا سبيل إلى إصلاحها ، وما يتسم به من انعدام أى أثر لنظام مفهوم أو غرض واضح ، مما جعله (كما أبدى) عديم الشكل كضباب لندن ، حيال ذلك تقدم بمشروع التخطيط الذي أسماه « القوس الذهبية » . ويهيئ انحناء نهر التيمز ثنية القوس التي توجد كنيسة سانت بول عند أحد طرفيها ودير وستمنستر عند الطرف الآخر ، وأما السهم فكان عبارة عن شارع عريض جديد يمرق فوق جسر ووترلو (Waterloo) إلى قلب لندن رأساً ، صوب المتحف البريطاني .

فها هنا حل جريء بلغ من حسن التوفيق ما بلغه شارع ريجنت الذى وضع تصميمه وقام بإنشائه ناش (Nash) وجعله يمتدح منطقة مماثلة من حيث التخلف الحضري . ولم يتضمن مشروع القوس الذهبية إنشاء شبكة مترامية الأطراف من الشوارع المتماثلة ، والشوارع العريضة المائلة الاتجاه لخدمة حركة المرور ، على غرار ما قام به هوسمان فى باريس ، إذ أن لثنائى فى الواقع حدد وصف « السهم » بأن يكون من شأنه أن يكشف منظر النهر ، وأنه ينبغي أن يكون طريقاً ظليلاً للمشاة خالياً من العربات . بيد أنه توسل بهذه الطريقة لكى يحدث شقاً جديداً يمتدح الأنقاض الحضرية على نحو يقرب مما يقوم به الجراح عندما يجتث الأنسجة الميتة فى جرح متقيح . وبطبيعة الحال لم يكن هذا سبيل الاتجاه النمطى الباروكى ، بل كان على الأصح سبيل المشتغلين بالتخطيط فى عصر النهضة مع تطبيقه بأسلوب أشد عنفاً وفى نطاق أوسع مدى ، وفقاً للمعيار الكبير الذى راض الأذهان عليه طويلاً واضعو التصميمات فى القرن السابع عشر . بيد أن ما طرأ على التخطيط الباروكى عند تطبيقه برمته فى مدينة حديثة ، يمكن أن ننبئنه عندما نتأمل مثلاً واحداً من أعظم الأمثلة الفريدة للطريقة والطرز ، وهو تخطيط مدينة واشنطن .

٩ — عطات مدينة واشنطن

لا يفصل إلّا قرن واحد أو نحو ذلك بين تخطيط فرساي — وهى أعظم ، إن لم تكن أكبر ، « المدن الجديدة » الفخمة — وبين مشروعات الميجور بيير شارل لانفان (Major Pierre Charles L'Enfant) لإنشاء مدينة واشنطن ، وهى التى قدمت فى سنة ١٧٩١ . وفى تلك الأثناء كان بنيان النظام السياسى فى المجتمع الغربى قد تصدع من أساسه ، فقد قضت ثلاث ثورات — الإنجليزية والأمريكية والفرنسية — على كل نظام السلطة المركزية التى

لا ترد لها كلمة ، والممثلة في شخص ملك مطلق التصرف إلى حد أن تصرفاته ومزاعمه أخذت تنافس ما عرف عن أقدم أسلافه من الفراعنة ٥ ولقد صعب انهيار الحكم المطلق زوال الضياع الإقطاعية ، واصطباغ الدولة بصبغة مدنية ، والقضاء على الأنظمة المقيدة التي كانت تفرضها النقابات والهيئات البلدية ، واقرن ذلك بإلغاء النقابات ذاتها وتحويل المدينة إلى منظمة تابعة للدولة التي منحها بعض السلطات وكان في وسعها أن تعود فتسلبها هذه السلطات .

ولو أنه كان في قدرة شيء تعديل النموذج الباروكي ، لفعلت ذلك — فيما نظن — إعادة تكوين المجتمع السياسي على هذا النطاق الواسع ، وبخاصة في الأيام الأولى للجمهورية الأمريكية عندما كانت سلطات الدولة وما زالت غامضة مبهمة لا تقيدها وتحددها حقوق أنظمة الحكم الإقليمي . ولكن ماذا نجد ؟

عند الاتجاه إلى وضع تصميم للعاصمة الجديدة ، بوصفها مقراً للحكومة الفيدرالية ، عهد إلى مهندس فرنسي القيام بذلك العمل . ولقد كان رجلاً فذاً في كفايته ، بلغ من المقدرة وبعد النظر حداً جاوز أقصى ما وصل إليه إطلاقاً إدراك أولى الأمر وزملائه ، وفي الحقيقة أنه يمكن اعتباره عبقرياً إذا أخذنا في الاعتبار حداثة سنه وخبرته المحدودة . وكان « لانغان » يؤمن على حد عبارته ذاتها ، بأن « كيفية الاستيلاء على المنطقة بأسرها والعمل على تحسينها في بادئ الأمر ، يجب أن تخلف للأجيال القادمة فكرة رائعة عن الدوافع التي حفزت إليها » وعلى ذلك فإنه حتى ميادينها يجب أن يسبغ عليها الجلال والمهابة بإقامة تماثيل فيها « لكي تدعو شباب الأجيال القادمة إلى اقتفاء أثر أولئك الحكماء أو الأبطال الذين استصوبت بلادهم الإرشادة بذكرهم » .

وعلى الرغم من أن « لانفان » كان يؤمن إيماناً راسخاً بالنظام الجمهورى ، فإن المشروع الذى تقدم به لتخطيط العاصمة الجديدة كان يتضمن فى جميع نواحيه الأفكار التى استنبطها أصلاً المعاريون الذين كانوا فى خدمة الحكم المطلق ، فهو لم يستطع أن ينقل إلى العصر الحديث إلا الصورة الثابتة التى سبق أن فرضتها السلطة المركزية القائمة على الإكراه ، وإذا كان لم ينقص هذه الصورة سوى مظهر واحد وهو تحصينات القرن السادس عشر الأصلية ، فإن مرد ذلك إلى أنه لم تكن هناك حاجة ظاهرة إلى دفاع عسكرى . وقد تبين أن ذلك كان تقصيراً معيياً ، فلعل مثل هذه المنشآت هى وحدها التى كان من شأنها أن تنقذ المباني العامة الجديدة فى واشنطن مما أصابها من التدمير على أيدي المغيرين البريطانيين فى حرب سنة ١٨١٢ ، وفيما عدا ذلك كان المشروع مثالا نموذجياً لتطبيق القواعد الباروكية الأساسية على حالة جديدة .

ونرى أن « لانفان » بفضل ما أوتيته من الاستبصار الخليق بمهندس تخطيط جدير بالاسم ، لم يبدأ بنظام شبكة الشوارع ، بل بالمباني والميادين الرئيسية . وفيما بين هذه النقط الأصلية مد « خطوطاً أو شوارع عريضة للاتصال المباشر » لم يكن الغرض منها مجرد تسهيل حركة المرور ، بل « أن تتوافر خلالها جميعاً الرؤية المتبادلة فى عين الوقت » ، مع توجيه عناية خاصة نحو الرحابة والمناظر السارة على طول الطريق ، ومن ثم فإن واشنطن قد خططت على هيئة سلسلة من بيوت العنكبوت المتشابكة ، وتضارع شوارعها العريضة الرئيسية شارع الشاترليزيه فى سخط الاتساع ، إذ أن اتساع هذه الشوارع كان يبلغ ١٦٠ قدماً ، فقد كان يوجد على كل من الجانبين طوار عرضه عشر أقدام ، وممشى عرضه ٣٠ قدماً مرصوف بالحصىاء « ومزروع بالأشجار على امتداد جانبيه » ، وطريق عرضه ثمانون قدماً لمرور العربات فى الوسط ، وحتى الشوارع العريضة الأخرى الأقل من ذلك

اتساعاً ، مثل الشوارع المؤدية إلى المباني العامة أو الأسواق ، كان اتساعها يبلغ ١٣٠ قدماً ، على حين أن الشوارع الباقية ، وكان اتساعها يتراوح بين ١١٠ و ٩٠ قدماً ، كانت تنافس أكبر الشوارع التي تحترق « مانهاتان » من أقصاها إلى أقصاها وفقاً للتخطيط الذي وضع لها في سنة ١٨١١ ، وتفوق في الرحابة كل ما كان موضع التفكير في أي مكان آخر في المدن التاريخية ، ولا جدال في أن انعدام وجود المباني هو الذي جعل « لانفان » يمتد إلى هذا الحد البعيد في إبداء تقديره للشارع العريض . بيد أن الشكل الشبكي الذي وضعه لنظام الشوارع ، كان متنوعاً من حيث الاتساع ، ولا يقوم على أساس واحد منتظم المقاييس على غرار ما فعله بن (Penn) في تخطيط مدينة فيلادلفيا . وإلى جانب عدم انتظام شكل وحدات المباني بسبب الشوارع المتلاقية المائلة الاتجاه ، فإن اختلاف هذه الوحدات في الحجم يطابق حاجة لم يفسرها « لانفان » تفسيراً وافياً ، وإن وجوه التباين في مقاييس وحدات المباني والشوارع في آن واحد ، ليدل على أن ذلك لم يكن مجرد تخطيط وضع على لوحة الرسم ؛ إذ أن « لانفان » استطاع وهو يضع تصميمه أن يربط بين عناصر التخطيط ووجوه النشاط اليومية التي تقوم على خدمتها .

وفي الوقت الذي نعترف فيه بما يستحقه « لانفان » من التقدير لما أوتي من مقدرة على التخيل ، فإنه مما يجب ملاحظته أنه لم يستطع تفادي ما جرت به العادة الباروكية من تضحية كل المهام الأخرى للمدينة في سبيل الأماكن الفضاء وروعة المواقع وحركة التنقل ، فمن بين حوالي ستة آلاف (١) فدان اشتمل عليها مشروعه ، احتاج الأمر إلى ٣,٦٠٦ أفدنة للطرق الرئيسية ، على حين أن مساحة الأرض التي دعت إليها الحاجة للمباني العامة ولساحات أو مناطق خصصت لأغراض معينة اقتصرت على ٥٤١ فداناً فحسب .

(١) جاء في النص الإنجليزي أن المساحة ٦٠,٠٠٠ فدان ، وهو رقم يبدو من ناحية غير معقول لمن زار واشنطن ومن ناحية أخرى لا يتفق مع ما سيأتي في سياق الحديث ، ويتبين منه أن الرقم الصحيح هو ستة آلاف فدان .

ومهما يكن المعيار الذى نتجذه أساساً للحكم، فإن نسبة التوزيع بين المساحة الفضاء المخصصة للحركة، والمساحة الفضاء المخصصة لأغراض ثابتة، أو بعبارة أخرى بين العربات والمباني، نسبة غير معقولة، وما من أحد يستطيع منافسة «لانغان» فى هذا الإهدار الطائش لأرض حضرية ثمينة سوى أحد مهندسى الطرق الحديثين المعروفين بتبديد الأرض فى منشآتهم عند تقاطع الطرق:

وقد كانت النتيجة أنه لم يبق سوى ١٩٦٤ فداناً - أى أقل من ثلثي القدر اللازم للشوارع العادية والعريضة - لتقسيمها إلى قطع للمباني تألفت فى مجملها من ٢٠,٧٧٢ قطعة للبناء. ومع الكرم فى التقدير على أساس إقامة ستة أشخاص فى كل دار للسكنى، فإن هذا القدر لا يكفى لإيواء أكثر من مائة وعشرين ألف نسمة، لو أنه تسنى استخدام كل قطعة فعلاً لأغراض السكنى وحدها، ولا يبرر النظام الذى وضع للشوارع إلا مدينة يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة على الأقل، على حين أن مشروع التخطيط - طبقاً لشروطه الأصلية ذاتها، قام على أساس وجود عدد فى حدود مائة ألف نسمة.

وهذا أيضاً لا يدل على نواحي القصور فى مخيلة «لانغان» بقدر ما يدل على نواحي القصور فى الأيديولوجية التى اعتبرها قضية مسلماً بها، وليس مما يبرر التوزيع الأصلى ما يلاحظ من أن كلا من حركة المرور وكثافة السكان قد أدركت فى النهاية مدى إمكانيات تخطيط «لانغان» وجاوزت ما يكفى لتبرير إسرانه. بيد أنه عند ما حدث ذلك، كان قد أصبح من الواضح أنه متى اعتبرت حركة مرور العربات أهم ما يجب مراعاته فى التخطيط، فإنه لن يوجد إطلاقاً ما يكفى من الاتساع للحيلولة دون اشتداد ازدحامها، ولا ما يكفى من ارتفاع نسبة الكثافة بين السكان للحصول على الضرائب الكافية للوفاء بمطالبها الفادحة.

ولقد كانت واشنطن في ظاهرها تشتمل على كل وجوه تخطيط باروكي ممتاز ، كمواقع المباني ، والشوارع العريضة الفخمة ، والانجاعات المحورية ، والمعابر الضخمة ، والخضرة التي تطوقها ، ومع عدم وجود مدينة واحدة كبيرة - حتى ولا سانت بطرسبرج - ليتخذ منها « لانفان » نموذجاً له ، فإنه نجح ، على الرغم من ذلك ، في أن يتخيل صورة ما يمكن أن تكون عليه عاصمة عظيمة ، وضح تصميمها وفقاً للنمط الباروكي . وقد وضع نصب عينيه قول ألبيرتي المأثور من أن « المدينة أو على الأصح منطقة المدينة هي أعظم وأهم المنشآت العامة » : بل إنه استثمر إلى أقصى حد ما كان قبل أن تمسه يد الإنسان موقعاً يبعث على اليأس ، إذ كان عبارة عن أرض منخفضة ، يحدها مستنقع من ناحية نهر البوتوماك (Potomac) ويشطرها نهر صغير - كان يدعى من باب السخرية نهر التير - سرعان ما أصبح مستودعاً للمجاري : وقد كان الإطار مهياً ، ولكن المشتتات كانت معدومة ؛ إذ كان ينقص شيء واحد وهو المقدرة على تنفيذ المشروع بالإقدام على البناء ، فقد كانت الخطة موجودة على الورق ، ولكنه لم يكن لها وجود على الطبيعة .

ولقد كان إخفاق هذا المشروع باعثاً على مزيد من الأسف والرتاء ، لأنه ما من أحد منذ المشروع الذي اضطلع به المعمارى جون وود في مدينة باث كان أشد لطفة من « لانفان » على قبول تحدى موقع مليء بالصعاب ، وبدلاً من أن يحاول « لانفان » إزالة هذه الصعاب عمد إلى محاولة الانتفاع بها ، ومن ثم فإن مشروعه الخاص بإنشاء شلال صغير تنحدر مياهه على سطح تل الكابيتول مستخدماً في ذلك مياه نهر التير ، كان مشروعاً جديراً ببريقي نفسه . ولقد كان « لانفان » بارعاً حين بدأ بتحديد مواقع المباني العامة الرئيسية لكي تقام مراكز خدمات المدينة ، وهي نقط الجاذبية ، في

في أبرز المواقع ، وحتى فكرته عن الصلة الحيوية بين « المول » (Mall)^(١) وشارع بنسلفانيا كانت - على الرغم من المبالغة المحزنة في تقدير أهميتها - من عين طراز تفكير ليثاني الذي ابتدع مشروع القوس الذهبية ، وعندما انتهى من تحديد مواقع المباني العامة الرئيسية ، وعندها فقط شرع في ملء ما بينها من فرجات بالشوارع ووحدات المساكن : وكان بعض هذه المواقع لمبان فيديرالية - كانت من بينها كنيسة قومية مستقلة عن الطوائف لإقامة الحفلات الدينية العامة - وكان البعض الآخر من المواقع لمبان محلية كالمدارس والكليات . وقد عني « لانفان » بتحديد مواقع جميع هذه المباني بوصفها عناصر تقوم بدور حاسم في مشروعه .

ومن المحقق أن حكومة رشيدة بعيدة النظر ما كانت لتغفل هذه المقترحات التي تدعو إلى الإعجاب ، أو تفرط في هذه المواقع ، بل كانت حريية بأن تعمل على امتلاك جميع مقاطعة كولومبيا^(٢) عن طريق الشراء ، وأن تعتمد على تأجير ، وليس إلى بيع الأرض التي لا غنى عنها لتوسيعها بوصفها عاصمة قومية . وبدون تملك الدولة الأرض ذاتها ، كان مآل مشروع « لانفان » الفشل حتى قبل أن يواجه هجوم خصومه .

وحتى اليوم ، بعد إدراك فكرة « لانفان » جزئياً بفضل حسن تقدير لجنة مكميلان التي شكلت في سنة ١٩٠١ ، فإن البعض من أجل مقترحات « لانفان » لم يتيسر إدراك حقيقة أمرها إلا بصورة جزئية ، على حين أن البعض الآخر مثل « المول » يتكشف عن العقم الذي يتسم به التخطيط القائم على أساس نظري بحث عندما لا يكون له سند من المهام التي يوئديها ، « فالمول » في الواقع عبارة عن شريط من الخضرة ، وهو على أحسن

(١) طريق عريض به مزارعات وأشجار .

(٢) لكيلا تستأثر ولاية بنسلفانيا وحدها العاصمة الفيدرالية فيها ، أنشأت واشنطن في مقاطعة نزلت عن أرضها ولاية ماريلاند وفرجينيا ، واعتبرت منفصلة عن سائر الولايات ، وعرفت باسم مقاطعة كولومبيا (District of Columbia)

الفروض بمثابة حاجز يحول دون امتداد الحريق ، فهو يفصل ويفرق بين مناطق كان يجب في الواقع أن تكون أشد اتصالاً ببعضها ببعض . وفي بادئ الأمر لم يكن في ميسور المدينة الوليدة أن تملأ فراغ هذه الثياب الفضفاضة ، وعندما أصبح في وسعها أن تفعل ذلك كان طراز العصر قد تغير إلى غير رجعة .

وحتى المباني الحكومية ذاتها ، بحكم قيام الفرع التنفيذي والفرع التشريعي عند أقصى الطرفين المتقابلين للمحور الرئيسي ، كانت المسافة التي تفصل بينها أكبر من أن تسمح للعين بالربط بينها على نحو فعال . ومبنى الكابيتول ذو القبة — بحكم شكله وحجمه وموقعه — ينفرد بالإفلات من الثلاثي بتأثير المسافات الهائلة التي تضمنها هذا التخطيط ، فقد مضى « لانغان » إلى حد أبعد مما ينبغي في احترامه ومجاراته للمبدأ الدستوري القائل بالفصل بين السلطات . وحتى لو أن شارع بنسلفانيا كان منذ البداية قد أقيم على جانبيه من أوله إلى آخره صف من المباني الحكومية الموحدة النظام ، على غرار تلك التي أقيمت مؤخراً في « المثلث » ، لكانت النتيجة خليقة بأن تبعث على الأسى والحسرة .

وأما « الماول » — وكان « لانغان » يرى أنه مكان مناسب للسفارات — فإنه قضى على المباني المقترحة بأن يطغى عليها ذات اتساع شريط الحضرة الطويل . ولسوء الحظ أن شكل النمط الباروكي ما زال قوى الأثر حتى في الوقت الحاضر ، إلى درجة أنه ما من أحد يجرؤ على أن يقترح أنه لعل هذا هو الجزء الوحيد في واشنطن الذي يناسب إقامة مبان تتألف من عشرة أو خمسة عشر طابقاً ، وأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ هذا الفضاء الشاسع الموحش ، وادخار باقي نواحي واشنطن لإقامة مبان على نطاق أقرب إلى معايير البشر .

ولقد كانت قوة التخطيط الباروكي في أزهى أيامه تكمن في أن أعمال تخطيط سطح الأرض وبنیان المدينة بأبعاده الثلاثة ، أو على الأقل واجهات

ذلك البنيان ، كانت تخفى قدماً جنباً إلى جنب ، فقد كانت أعمال التخطيط والبناء تسير معاً خطوة بخطوة في كارلسروه وفرساي وسانت بطرسبرج : وأما في ظل الظروف التي سيطرت على عمل « لانغان » ، فإن التخطيط على الورق لم يكن له أى تأثير مطلقاً على المشتملات ؛ إذ أن القوى التي كان بيدها أن تبعث الحياة في المشروع أو أن تقتله لم تكن في يد واضع المشروع ولا في يد عميله ، الحكومة الجديدة للولايات المتحدة ، وكانت هذه الحكومة معدمة مترددة ومشعبة بفلسفة حرية العمل ، وهي فلسفة كان من شأنها إحباط المبادئ السياسية التي كانت تكمن وراء المشروع .

ولا مجال للتساؤل عما حدث في واشنطن ، فإن مشروع « لانغان » الجريء قتل شر قتلة ، وكأن ذلك لم يكن كافياً ، فإنه بمرور الزمن طرأ على منظره التفكك والتشويه ، فقد تناثرت في أرجاء المدينة مبان غير مهذبة الشكل وغير متلائمة مع البيئة التي أقيمت فيها . وحتى إلى يومنا هذا ، نجد أن المنطقة التي تحيط بالكابيتول مباشرة قد طفح عليها ما يشبه الأكزيما الحضرية ، وهو ما كان في وسع مهندس معمارى مشيع بالروح الباروكية أن يقوم على الأقل بحجبه وراء سور ، إذا كانت تعوز عميله السلطة الكافية لهدم المباني ذاتها . ومن الواضح أنه لم يكن يتسنى للتخطيط وحده أن يخلق من العدم ، المدينة ذات الواجهات الحجرية الناصعة البياض والسقوف المنتظمة الخطوط التي لا بد من أن تكون قد راودت أحلام « لانغان » ، وعندما زار ديكنز مدينة واشنطن في سنة ١٨٤٢ ألفاها مدينة « ذات شوارع فسيحة لا تبدأ من معالم معينة ، ولا تؤدي إلى مكان معين ، شوارع طولها ميل ولا تعوزها إلا المنازل والطرق والسكان ، وذات مبان عامة للجمهور ولا ينقصها إلا الجمهور لتكون مستكملة ، وذات زخارف تليق بطرق رئيسية عظيمة ولا تفتقر إلا إلى الطرق الرئيسية العظيمة لتزيينها » .

ولقد أبدى « لانغان » جرأة عظيمة في تصميم المدينة في مجموعها كما

كانت خليفة أن تبدو عليه في وضعها النهائي ، ووضع مشروع تخطيط ممتاز طبقاً للأصول والأغراض الباروكية ؛ مع إضافة رموز ذات دلالة جمهورية ، كما لو كانت صورة رسمها دافيد . بيد أنه نسي حدود مهمته ، فقد أغفل أنه لم يكن في مقدوره هو نفسه أن يقوم ببناء المدينة التي وضع تخطيطها ولا كان ذلك في مقدور القادة السياسيين في عصره مهما يبلغ من استعدادهم لذكرى الشخصيات الكلاسيكية التي أوردتها بلوطارخ . وذلك أن البلاد ذاتها كانت في حاجة إلى نصف قرن على الأقل من النمو والرخاء والاتحاد قبل أن يتسنى لها حتى الشروع في ملء فراغ مثل هذا التخطيط الشامل ، وفي تلك الأثناء فإن المنشآت الأكثر تواضعاً التي كان يمكن البدء بها في نطاق مشروع أكثر تلاؤماً معها من مشروع « لانفان » ، كانت خليفة بالأ تعرقل إقامتها ، بل على الأصح أن تحول دونها عظمة المشروع الضخم الذي وضعه « لانفان » .

والواقع أن « لانفان » نسي أن الزمن كان عقبة خطيرة أمام المفهوم الباروكي للعالم ؛ إذ أن النظام الباروكي نظام آلي لا يقيم وزناً لاعتبارات النمو والتغير والتلاؤم والتجديد الخلاق ، فمثل هذا النوع من العمل بموجب الأمر يجب أن ينفذ بحذافيره دفعة واحدة في حينه . ولو أن « لانفان » راعى هذه الحدود الضيقة فلربما استطاع أن يحقق من النجاح في تحديد مواقع المباني الرئيسية للحكومة ما تيسر لجيفرسون أن يحققه في مباني جامعة فرجينيا ، ولكنه باهتمامه بالأ يترك شيئاً دون أن يدبر أمره أوضاع حتى القليل الذي كان من المحتمل أن يحققه .

ولم ينفذ مشروع « لانفان » من طمس معالمه طمساً كاملاً إلا أمران ، كان أحدهما العمل الذي قام به إسكندر روني شبرد ، وكان عبارة عن سلسلة من الإصلاحات العامة الكبرى قام بها بعد الحرب الأهلية ، وكان هذا الموظف يعرف باسم « المِعَلَم شبرد » (Boss Shepherd) ، فقد كان على شاكلة هوسمان — الذي كان شديد القرب من زمته — يملك الصفات

الدكتاتورية الملائمة لتنفيذ خطة باروكية . ولحسن الحظ أن شبرد أيضاً كان له من قوة الخيال ما جعله يتولى أخيراً غرس الأشجار في الشوارع العريضة على النسق الذى عينه « لانغان » . ولقد أكسبت هذه الأشجار التخطيط السطحي بعداً ثالثاً هياً له الثبات والاستقرار . وإن هذه البوائك الطبيعية ، التى تبقى خضراء شطراً كبيراً من السنة ، لترحم الناس بإخفاء جانب من أسوأ ما فى واشنطون من حالات القبح المعمارى دون أن تحجب إلى حد كبير أوفر المباني نصيباً من الجمال . بيد أنه فى حالة الشوارع العريضة التى تفتقر إلى مثل هذا اللون من التجميل ، كثيراً ما يتعدم وجود ما يخفف من شدة قبحها .

وأما الأمر الآخر الذى أنقذ تخطيط « لانغان » الأصلى ، ولو أنه لم يكسبه شيئاً جديداً من الجمال ، فهو ملء الاتساع الكبير الذى اتسعت به الشوارع العريضة بحركة مرور العربات على نحو يكفى لتسويغ وجودها ، ولم يحدث ذلك إلا على أثر ظهور السيارات . وعلى الرغم من أن حركة السيارات قد وصلت الآن إلى مستوى التخطيط وتسبب انسداد أشد الطرق إسرافاً فى الاتساع وكذلك إخفاء منظر الحضرة وراء سور معدنى من السيارات الواقفة بالانتظار ، فإن واشنطون قد قامت بدور حقل تجارب لدراسة مسألة ما إذا كان يتسنى للمدينة خصصت بأكملها لحركة المرور أن تقوى على البقاء على نحو يكفى لخدمة أغراض أخرى .

وإنه لواضح منذ الآن فى واشنطون — وسوف يصبح ذلك أكثر وضوحاً تبعاً لما تتلقاه المدينة من طوفان الطرق الجديدة السريعة التى لا تكثر بإتلاف وتشويه كل منفذ إلى أفضل مناظرها الحضرية — أنه عندما تتمتع حركة المرور بالأسبقية على كل المهام الحضرية الأخرى ، لا يتسنى للمدينة بعد ذلك أن تقوم بأداء مهمتها وهى تيسيل إجماع الناس واختلاط بعضهم ببعض ، وليس الحق المتبحر للسيارة الخاصة فى أن تذهب

إلى أى مكان فى المدينة وأن تنف للانتظار فى أى مكان ، إلا ترخيصاً
بإتلاف المدينة . وقد أثبت الآن تخطيط « لانغان » بما بنطوى عليه من تشجيع
زيادة حركة المرور ، أنه ألد أعدائه بالذات .

ولكن فلنلاحظ أن الجزء الذى أصبح الآن المنطقة المفضلة للإقامة فى
واشنطن ، ليس المنطقة التى تطل على الشوارع العريضة ذات حركة
المرور الكبرى بوضوئها وغازاتها السامة ، بل على النقيض من ذلك تماماً ،
فإنها منطقة جورجيتاون (Georgetown) ، ذات الشوارع الضيقة والتخطيط
البالغ الاندماج ، التى بلغت من ضعة الشأن فى القرن التاسع عشر ما جعلها
عندئذ مقر مساكن صغيرة للصناع وصغار التجار . وقد حولت هذه المنطقة
فى خلال الجيل الأخير إلى حى لمساكن الطبقة الراقية ، حيث يجد الإنسان
شاكراً أن المقاييس ليست ضخمة بل عادية مألوفة .

وعلى الرغم من كل شيء ، فإنه يجب أن تعتبر واشنطن مثالا
كلاسيكياً للتخطيط الباروكى ، ولو أنه تسنى تشييد واشنطن فى خلال
عشرين سنة ، وبدت مبانيها على نسق ملائم منتظم ، وتم شغلها جميعاً لكانت
آية الإعجاز لفن الرجل الذى وضع التخطيط بمفرده ، وآخر تحفة تمثل
عصرها وتحتتمه . وما دام هذا لم يتحقق ، فإن امتدادها واتساع نطاقها كانا
فى ذاتهما من دواعى سوء النظام ؛ فقد انعدمت فيها على السواء السلطة المطلقة
والروح النظامية الجمهورية وروح المصلحة العامة . ولا يتحمل وزر هذا
العيب « لانغان » وحده ، بل كذلك المسئولون عن تنفيذ تخطيط « لانغان » ،
وأولهم الرئيس واشنطن ، الذى كان أقل مراعاة لسلامة مشروع
« لانغان » من مراعاة صوالح زميله فى امتلاك الأراضى دانييل كارول
(Daniel Carroll) — وكان أكبر ملاك الأراضى فى المنطقة .

وقد كان الاستغناء عن خدمات « لانغان » دليلاً على أن ملاك الأراضى

والمضاربين التجاريين - وليست الحكومة - هم الذين سيارسون أكبر نصيب من الإشراف على نمو العاصمة . وعلى الرغم من أن « لانفان » كان يدرك - طبقاً لنص عباراته ذاتها - « أن المدينة العاصمة ، على خلاف ما سواها من المدن ، تستمد روعاها من مبانيها العامة أكثر مما تستمد من مراكزها التجارية » ، فإن التجار والمضاربين عمدوا في غير اكتراث إلى طمس خير ظواهر مشروع « لانفان » ، ولم يتركوا منه سوى معالمة الباهتة . وفيما عدا عجز « لانفان » عن صد غائلة القوى الفعلية التي كان من شأنها إفساد تخطيطه ، فإنني لا أعرف أحداً سواه من واضعي تخطيط المدن على النمط الباروكي - حتى ولا أولئك الذين كانوا يعملون مع هوسمان - أبدى إدراكاً يفوق ما أبداه « لانفان » نحو الصلة المتبادلة بين الطبوغرافية وحركة المرور والنصب التذكارية والمباني العامة . وأما ما كان مفتقداً فهو لون من الإشراف السياسي الذي يقدر التبعات ليقوم مقام أوامر السلطة الاستبدادية التي كثيراً ما كانت تبلغ حد الإسراف وعدم تقدير المسؤولية . بيد أن هذا بدوره كان خليقاً بأن يغير ذات الطابع الذي انسم به التخطيط .

ومن هذه الناحية ، نجد أن التلطيخ الذي أصاب المشروع العظيم لتخطيط واشنطن يمثل مصير الخطط الباروكية بأكملها ، من حيث تأثيرها في حياة سكان المدن ، فإنه في عصر زاهر بالتغير والتحول كان تشييد الخطط الباروكية بنظام المظهر ووحدة التناسق ، يفرض على الأقل قياساً عاماً ، ويذكر الطبقة الراقية من سكان المدن باعتماد مختلف نواحي الحياة العامة بعضها على البعض الآخر . ولقد وضعت سلسلة من تشريعات المباني في أوروبا معايير للبناء ، وحددت الارتفاعات ، وفرضت قدراً من أصول اللياقة ، كانوا من شأنه وضع حد للتنافس على مستوى أدنى من ذلك . وكانت هذه المعايير تبدو مزعجة لقادة القرن التاسع عشر في إنجلترا ، وإلى مدى أبعد من ذلك في الولايات المتحدة ، ولهذا فإن القانون الإنجليزي الحصري للمباني ،

«لصادر في سنة ١٧٧٤ ، غدا يعرف باسم « القانون الأسود » ومرادفاً للتعنت البيروقراطي والتكرار الكثيب . وحالما تحقق للقادة الجدد في مجال التجارة والصناعة التحرر من قيود الذوق الباروكي ، عمدوا باسم الحرية إلى تشجيع المضاربة غير المأمونة والمنافسة العشواء . وكانت النتيجة أن التيار العظيم لحركة العمران الحضري في القرن التاسع عشر تمخضت عنه ظاهرة غريبة وهي غمر المدينة بالمباني تدريجياً ، فإنه بدلا من التعمير المنتظم ، امتلأت جوانب المنظر العام بما أخذ يتناثر على سطحه من أكداس المواد والحطام الحضري التي طرحت بها سفينة العمران للتخفيف من حملتها ، عندما هبت عليها عاصفة المشروعات الرأسمالية :

الفصل الرابع عشر

التوسع التجارى والاخلاق الحضري

١ - من ساحة السوق إلى اقتصاديات السوق

حتى قبل أن تجد المركزية السياسية في التخطيط الباروكي مظهراً يعبر عنها في أقصى أوضاعها المطلقة ، كان مركز الثقل قد بدأ يتحول خفية إلى مجموعة جديدة من القوى الاقتصادية . وقد تبين أن سياسة الدولة التي كانت تعرف باسم سياسة التجارة ، وترى إلى تحويل ما كانت مدينة العصور الوسطى تمارسه من حماية اقتصادياتها وإشراف على الاحتكارات إلى إشراف مركزي يمارسه التاج - تبين أن هذه السياسة لم تكن إلا حيلة انتقالية . وذلك أن القوى الجديدة كانت تحبذ التوسع والانتشار في كل اتجاه ، من الاستعمار فيما وراء البحار إلى إقامة صناعات جديدة قضت ، بفضل ما جاءت به من ضروب التقدم التكنولوجي ، قضاء تاماً على كل قيود العصور الوسطى ، فكان هدم أسوار مدن تلك العصور هدماً عملياً ورمزياً في آن واحد .

والنظام الذي يمثل تلك القوى يحمل الاسم التقليدي المعروف « بالرأسمالية » ، وإني لأنصدى عامداً إلى معارضة ما جرى به العرف الأمريكي الشائع من إطلاق اسم جديد عليه يبعد عما يرتبط به من الأواصر التاريخية الكريمة . فعند ما وافي القرن السابع عشر ، كانت الرأسمالية قد غيرت ميزان القوى بأسره ، ومنذ ذلك الحين كان الحافز على التوسع الحضري ينبعث على الأخص من التجار ورجال المال وأصحاب الأملاك الذين كانوا يعملون على خدمة مصالحهم . ولم تطرأ على هذه القوى زيادة عظيمة إلا في القرن التاسع عشر بتأثير الابتكارات الميكانيكية والتصنيع على نطاق واسع .

وعلى الرغم من أن هناك صلة وثيقة دائمة بين تقدم التجارة والصناعة ، فإن من الملائم عند البحث في التحول الحضري أن نفصل بين هاتين الناحيتين من نواحي النظام الرأسمالى الجديد . والحقيقة أن هذا ليس ملائماً فحسب ، بل إنه عين الصواب من الناحية التاريخية ، فإن شطراً ليس بالقليل من الابتكرات الفعلية فيما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر كان ثمرة جهود المحدثين من أصحاب المشروعات التجارية أو أتباعهم ، من إمساك الدفاتر بطريقة القيد المزدوج ، والحوالات التجارية ، والشركات المساهمة ، إلى السفن الثلاثية القلوع ، والمنارات ، وأحواض السفن ، والترع . و مدن الموانئ المزدهرة على شاطئ النهر وساحل البحر ، مثل بريستول والمافر وفرانكفورت على نهر الماين وأوجسبرج ولندن وأنتورب وأمستردام ، كان الناس يستهدون بمعايير ومثل عليا جديدة ، فقد أصبحوا يدخلون في الاعتبار عند ممارسة جميع معاملاتهم ما يمكن أن تدره عليهم من ربح وإيجار .

وكان نمو المدينة التجارية عملية بطيئة ؛ إذ أنها كانت تلقى مقاومة من جراء تكوين مدينة العصور الوسطى وتقاليدها ، وعلى الرغم من أنها أفادت من الان نظام الباروكى - والواقع أنها كانت إلى حد ما من أسبابه - فإنها كانت لا تترتاح إلى مظاهر إسراف الأمراء . بيد أن الرأسمالية أدت في النهاية إلى إدخال أساليب ساحة السوق ، على نحو شامل ، إلى كل حى من أحياء المدينة ، فلم يعد أى جزء فيها بمنأى عن التغيير إذا كان ذلك يعود بفائدة . وكما رأينا لقد بدأ هذا التغيير في مدينة العصور الوسطى ، واقرن بنمو التجارة مع الجهات النائية . ولقد بلغ من شدة رسوخ هذا النوع الجديد من التجارة - خارج نطاق القواعد التى كانت كل نقابة تضعها - أنه في سنة ١٢٩٣ كان الوسطاء في مدينة بروج قد أثبتوا حتمهم في القيام بالوساطة في كل صفقة للبيع بالجملة تعقد في بروج . وقد كان هذا الأثر محسوساً إلى حد أنه قبل ظهور توماس أكويناس بمدة قرنين من الزمان ، تسنى لألين

من مدينة ليل (Alain of Lille) أن يقول : « إن المال هو كل شيء الآن ، وليس قيصراً » :

وتبعاً لاتساع نطاق سوق البيع بالجملة - وكانت تراول عمليات التعامل مع الجهات النائية عن طريق النقد والائتمان في آن واحد وتجد في السعي وراء ما تعود به المضاربة من أرباح طائلة - ظهر اتجاه جديد نحو الحياة ، كان يجمع بين ما في الانتظام من تقشف وما في الإقدام من مغامرة ، وبين الجشع المنظم والكبرياء العاتية . . وإذا كان قوام الفكرة الرئيسية في العصور الوسطى الحماية والاطمئنان ، فإن النظام الاقتصادي الجديد قد قام على أساس من المخاطر المدروسة . وفي كنف نظام العصور الوسطى كان التحكم في السوق لصالح كل من المنتج والمستهلك ، وكانت الآثار الناجمة عن الانشغال بالربح أكثر مما ينبغي ، تجد على مر الزمن ما يوازنها في إجزال الهدايا ، والإحسانات ، ورد الحقوق إلى أربابها عند دنو ساعة الموت ، وتقديم المعونة الأخوية لذوى الحاجة . وعلى الرغم من أن الكنيسة كانت تفوق سواها في تلقي أكداش المال ، فإنها كانت تقوم بإعادة توزيع جانب غير قليل مما يتجمع من الأرباح في سبيل العناية بالمرضى وذوى الفاقة . ولكنها لم تبذل أى مجهود في سبيل القيام بأى توزيع آخر على نطاق أعم شمولاً .

ولقد كان أحد وجوه الاعتراض الكبرى لآدم سميث على أمثال أنظمة العصور الوسطى التجارية التي ظلت قائمة إلى القرن الثامن عشر ، هو أن أولئك الذين كانوا ينتمون إلى حرفة واحدة كانوا « يفرضون ضرائب على أنفسهم لتدبير ما يحتاج إليه فقراؤهم ومرضاهم وأيتامهم » .

وقد تولت الرأسمالية إزالة هذا العبء عن كاهل الإنتاج ، فكان لا يتوقف حائلاً بين العامل والموت جوعاً سوى رغبته في العمل - حالما يدعى وإذا ما دعى - على أساس الشروط القاسية التي وضعها المغامرون الجدد ،

وكلما تسنى الهبوط بمعيشة العامل إلى مستوى أشد انخفاضاً ، كانت أرباح الرأسمالى المغامر أشد ارتفاعاً :

وفى عش مدينة العصور الوسطى ، على الرغم من أن بيضة العندليب الرأسمالى كانت أكبر حجماً من البيضة العادية للتاجر المحلى ، فإنها كانت تعتبر من ذات الحظنة ، والواقع أن الرأسمالية اتشحت فى مبدأ الأمر بثياب العصر وتأدبت بأدابه فترنمت بالعزوف عن الربا ، وقبول مبدأ الثمن العادل بغض النظر عن تلهف المشتري أو قلة الإنتاج : ولكن الزمن ألقى زمام القيادة فى قبضة المغامرين الجدد - والواقع أن ذلك حدث على وجه بالغ السرعة بعد القرن الرابع عشر - فقد أصبحوا فى حالات كثيرة على رأس أداة الحكم فى البلديات وما هو أكبر منها من الحكومات . وفضلاً عن ذلك فإن حوافزهم وطرائق حياتهم سرت فى جميع نواحي النظام الاقتصادى : ولكن هؤلاء الأشياء الجدد لميداس^(١) (Midas) لم يعد موضع اهتمامهم للسلع وللناس ، والأسرات والطوائف ، بل المقادير المجردة ، فلقد صرفوا همهم كله تقريباً إلى ما أسماه توماس اكويناس الثروة المصطنعة التى - كما أشار - لم تضع الطبيعة حداً لمدى إحرازها : وانعدام الحدود على هذا الوجه لم يصبح أقل شأنًا من سواه من الأمارات البارزة فى المدينة التجارية ، بل إنه يفسر بعض الشيء ما حدث بعد القرن الثامن عشر من اطراد الخروج على العرف : ولقد اقترن بظهور الطرق الرأسمالية للمحاسبة ، ظهور الحاجة إلى بيروقراطية غير حكومية ، إلى أى جيش من الكتبة والمعاونين المأجورين لقيد الحسابات وتولى أمر المراسلات ، بل لتوفير المعلومات اللازمة لكى تتسنى الإفادة من تغير أحوال السوق قبل أى إنسان آخر لو أمكن ذلك : ولذا فلعل أول دخول سافر للرأسمالية إلى مدينة العصور الوسطى

(١) تروى الأساطير أن ميداس كان ملكاً فريجياً فى آسيا الصغرى ، وأنه كان فاحش الثراء ، حتى إن اسمه لا يزال إلى اليوم علماً على الثراء العريض .

كان عن طريق المدرسة الابتدائية ، حيث كانت مبادئ القراءة والكتابة والحساب هي مواد الدراسة الأساسية . وقد وازن التقدم في هذه الناحية ما أبدته المدن التجارية من المقاومة للنقابة الثقافية الجديدة ، أى الجامعة ، عندما ظهرت بعد تأخير بالغ ، في بروج ولوبيك وليون وAntwerp ولندن وأوجسبرج والبندقية .

وقد أصبح التحكم في الورق — بما تعنيه كلمة تحكم في اللغتين الإنجليزية والفرنسية من « فحص » و « مزاولة السلطة للسيطرة » — علماً على البروقراطية التجارية الجديدة ، وكانت في أول الأمر تستقر متواضعة في المكاتب الموجودة في المنازل والدور الكبيرة بالمدن القديمة في العصور الوسطى . بيد أن المنظمة التي كانت نقطة التحول في تطور المدينة الجديدة وأول مظهر حاسم لها ، كانت « البورصة » ، وقد سميت كذلك تبعاً لاسم أحد البيوت المصرفية الأصلية في بروج وهو دو بورز (De Beurze) ، الذي بدأ في القرن الثالث عشر يقوم بدور مركز لعقد الصفقات التجارية الكبيرة .

وكانت تتم في دور البورصات الجديدة الأعمال الخاصة بتحويل العملة ، والمضاربة بيعاً وشراءً ، وأعمال الوساطة ، وكانت المدن هي التي أنشأت مثل هذه الدور — بروج أولاً ثم أنتورب في القرن السادس عشر ، قبل أن يهدمها الإسبان ، ثم امستردام ولندن في القرن السابع عشر . وقد نمت هذه الدور سريعاً ، وأنشأت الأوضاع الجديدة لحياة أرباب المال ، فأصبحت « بورصة المال » ، والمصرف القوي وبورصة التجارة ، كاتدرائيات النظام الرأسمالي الجديد .

ولم يخل من العوائق تحويل السوق من عنصر يدخل في تكوين مدينة العصور الوسطى وتكلوته بجانيها ولا يتحدى نشاطه حدود نطاقه الخاص ، إلى منظمة آخذة في الاتساع ، تنشر أساليبها وأهدافها في كل ناحية أخرى من أنحاء المدينة وتطالب بحصتها في كل صفقة . فحينما عرض هنرى الثانى

على بلدية باريس اقترحا يرمى إلى إنشاء مصرف غرار النموذج الإيطالى ، اقترح تجار المدينة أنفسهم أن يعرض الأمر على فقهاء الدين ، إذ أن السعر المقترح للفائدة على أساس ثمانية فى المائة لم يكن فى نظرهم إلا نوعا من الربا ينافى شريعة الله ويخجل بأصول الأخلاق القويمه . وكذلك فإن الدولة ذاتها ، بدلا من المبادرة إلى القضاء على ما كان للبلدية من منظمات واقية ، عمدت على الأصح إلى وضعها تحت إشراف قوى أوسع نطاقا . ولقد استمر فى داخل المدينة هذا النضال الدفاعى فى وجه قوى التدمير الرأسمالية ، ولذلك فإن مشروع التخطيط الذى وضعه كولبير لباريس فى سنة ١٦٦٥ شدد القيود والإشراف على المبانى إلى حد يفوق حتى ما اقتضته فى لندن التشريعات التى وضعت فى عهد الملكة إليزابيث قبل ذلك بـ عدة تزيد على جيلين .

بيد أن رأس المال السائل أثبت أنه مذبذب كيميائى ؛ فقد اخترق الطلاء المشتق الذى تولى وقاية مدينة العصور الوسطى زمنا طويلا ، وشق سبيله إلى صلب الجوهر ، مبديا من العنف وعدم الاكتراث فى القضاء على المنظمات التاريخية ومبائنها ، ما جاوز حتى مسلك أشد الحكام المستبدين تهورا . ويمكن وصف هذا التغير الكلى بأنه عبارة عن أن الساحة المادية للسوق فى مدينة العصور الوسطى قد استبدلت بها سوق مجردة كانت تنتشر فى كل أرجاء الدولة ، وتزدهر حيثما كان يتسنى عقد صفقة رابحة . وفى بادئ الأمر كانت الساحة المادية تتبادلها الأيدي فيما بين المشترين والبائعين ، الذين كانوا يرون بعضهم بعضا ويرتضون عين المبادئ الخلقية ويلتقون على قدم المساواة تقريبا ، وعندئذ كان الاطمئنان والعدل والاستقرار أجل شأنا من الربح ، كما أن الصلات الشخصية التى كانت تنشأ على هذا النحو كان من المحتمل أن تدوم طول الحياة ، بل حتى على مدى الأجيال :

، ثم وأما فى السوق المجردة ، فقد كان من الجائز ألا يرى الناس بعضهم

بعضاً على الإطلاق وهم يعتقدون صفقات مالية ، كانت السلع ذاتها تؤدي فيها على الأصح مهمة العدد ، وكان الهدف من هذه الاتفاقات هو الربح وتكديس المزيد من رأس المال لطرحه في مشروعات أخرى متزايدة التضخم . وكانت المبادئ الخلقية المألوفة ، ومعايير الجماعات ، وأسس التقدير التقليدية بمثابة ضوابط تحد من مغامرات المضاربة ، وقد كان ذلك أيضاً شأن استثمار الأموال الكثيرة في المباني القديمة التي أنشئت لتحتمل البقاء أجيالاً طويلاً . ولكي تفوز الرأسمالية بمجال فسيح لخدمة صوالحها النمطية ، اتبعت طريقين فيما يتعلق بالمنشآت الحضرية القائمة ، فكانت تحاول الهروب من المدينة إلى الضواحي الحالية من جميع القبوض البلدية ، أو تعتمد بدلاً من ذلك إما إلى أن تهدم المنشآت القديمة ، وإما إلى أن تشغلها إلى مدى يتجاوز كثيراً من حيث كثافة السكان الحد الذي روعي في تصميمها - وذلك في زمن من المفروض أنه كان أشد فقراً . ولقد أصبح الهدم والاستبدال من أهم مظاهر النظام الاقتصادي الجديد ، وكلما كان الوعاء قصير الأجل ، كان التغيير أكثر سرعة .

ومنذ البداية كانت الرأسمالية معادية للتاريخ من حيث صلتها بالمدينة ، وتبعاً لازدياد دعم قواها على مدى القرون الأربعة الأخيرة ازدادت دينامييتها الهدامة : ولم يكن للثوابت الإنسانية مكان في الخطط الرأسمالية ، فإن عوامل الدوام الوحيدة التي كانت تعترف بها هي الطمع والجشع والكبرياء والرغبة في المال والسلطة .

وكان شرط النجاح المالي أمرين هما : احتقار الماضي لأنه كان حقيقة ثابتة ، والترحيب بالجديد لمجرد أنه كان بداية ، ومن ثم فرصة سانحة لمشروعات تعود بالربح . وفي سبيل التوسع ، كانت الرأسمالية على استعداد لهدم أكثر ألوان التوازن الاجتماعي مدعاة للرضا . وإذا كانت الآراء الجديدة التي انطوت عليها الأعمال التجارية قد أفضت - تدريجاً بعد القرن

السادس عشر ، وعلى عجل بعد الثامن عشر - إلى إلغاء النقابات والقضاء عليها ، فإنها كذلك أدت إلى هدم المباني القديمة وإزالة ساحات الألعاب ومزارع البقول والخضراوات ، وبساتين الفاكهة ، والقرى التى كانت تعترض سبيل المدينة الآخذة فى النمو والانتساع . ومهما يكن لهذه الأوضاع القديمة من مكانة محترمة أو يكن من شأن قيمتها من الوجهة الصحية لكيان المدينة ذاتها ، فإنه كان يضحى بها فى سبيل سرعة حركة المرور أو سبيل الربح المالى .

٢ - الحرب الجديدة

وفى ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر ، توحدت مستحدثات الرأسمالية على هيئة مذهب وقاعدة يجرى العمل بموجبها ، فانتقلت عادات النقشف وإنكار الذات والنظام الرتيب وسنة إرجاء الاستمتاع بمباهج الحاضر من أجل الفوز بجزاء أوفى بكثير فى المستقبل - انتقلت جميعاً من الدين إلى العمل ، حيث نشأت عنها مكاسب عظيمة واضحة الأثر . ولم يكن الأخذ بنظام إقامة الساعات فى المدن ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر إلا إحدى الدلالات على أن العمل لم يعد يخضع فى نظامه لسير الشمس وقوى الإنسان : وفى نهاية العصور الوسطى ، كان العمال فى مصانع النسيج الكبيرة يرغبون على الكد والنشاط عن طريق إشراف أشد دقة ، وأكثر بعداً عن الصلات الشخصية ، مما كان يتسنى ممارسته فى جو النظام اللبن الذى كانت تسوده الألفة فى دور التشغيل الصغرى ، وتتخلله فترات لتجاذب أطراف الحديث فضلاً عن المزاح السمج ، والتلاعب والإهمال فى العمل . وقد ظلت روح النظام القديم باقية فى عهد الملكة إليزابيث ، على الأقل ، فى مسرحية ديكر « Dekker » المسماة « عطلة صانع الأحذية » (The Shoemaker's Holiday) .

وحين أنكرت الرأسمالية على الفقر صفاته الروحية ، وعلى الفن قدرته على تغذية الفكر والخيال ، لم تنشأ إلا زيادة مقادير السلع الاستهلاكية والأرباح المحسوسة . وفي اللحظة الحرجة التي أعقبت وباء الموت الأسود ، عندما بدأ عدد السكان يزداد من جديد بقوة سرعان ما عوضت تلك الخسائر الكبرى ، عملت المشروعات الرأسمالية وسعة الحيلة التكنولوجية الآخذة في النمو على مواجهة تحدى ازدياد عدد السكان ، وذلك بأنها وجهت إلى العوامل الاقتصادية قدراً من الاهتمام المتواصل لم يسبق له مثيل من قبل . وقد تمخض عن نجاح المشروعات الرأسمالية ثقة بالقوى البشرية ، وفي عصر كان يسود فيه الانشقاق الديني والفساد ، بدت الرأسمالية حركة سليمة تؤدى إلى التحرر وتفضى أرباحها الخاصة في النهاية إلى مكاسب عامة . والواقع أن كثيراً من الأساليب التي أوجدتها الرأسمالية كانت سليمة وتعود بالنفع الدائم على أى نظام اقتصادى رحيم . إلا أنه عندما حل القرن السابع عشر كان الأثر العاجل الذى نجم عن هذا النظام الجديد ، هو تغيير ما فى المدينة من نظام اجتماعى معقد إلى ما فى السوق من أساليب رتيبة تجاوزت الحد فى بساطتها . وقد كانت النتيجة النهائية قيام نظام اقتصادى أساسه جمع المال ، وليست له غايات ولا أغراض يمكن تحديدها سوى إكسابه هو ذاته مزيداً من التوسع .

يبد أن هؤلاء المغامرين الجدد من أصحاب المشروعات كانوا فى حاجة إلى المدن القديمة ، ولا سيما مدن المواسم الكبرى أو ما يضارعها من مدن الأقاليم ، حيث كانت أجور المساكن والأرباح فى متناول اليد ، وفرص استثمار الأموال واسعة . فقد كانت تتجمع فى هذه المدن الراسخة القدم طوائف كبيرة من المستهلكين الذين كانوا يجاهدون فى سبيل الفوز بمكانة لهم ، وإحراز الرضا والرعاية عن طريق مظاهر الترف ، محاكين فى ذلك سادتهم الأرستقراطيين . وهناك كانت لا تزال تقوم كذلك منشآت قديمة

تمثل توظيف رؤوس الأموال الضخمة ، وكان فى الاستطاعة تحويل استخدامه إلى طرق جديدة للرفع دون سحب رأس المال والأيدى العامة من مغامرات جديدة أوفر ربحاً بكثير .

وكانت أولى المدن التى أحست بحركة المشروعات الجديدة وعاونت على الاتجاه نحو التركيز الاقتصادى ، هى المدن التى كانت بلدياتها تمنح الامتياز الجديد الخاص بحرية التجارة وحرية إبداع السلع ، دون فرض ضريبة دخول ، لتشجيع المزيد من المعاملات التجارية . وهذا هو السبب فى روعة ازدهار انتورب ولبون فى القرن السادس عشر . وقد كان ما يعنيه الرأسمالى « بالحرية » هو الإفلات من الاقتصاد المغلق والتنظيم وامتيازات الجماعات ، وحدود البلديات ، والقيود القانونية ، والزامات الإحسان . وقد أصبح الآن كل مشروع بمفرده وحدة قائمة بذاتها ، تدعى لنفسها الحق فى أن تكون هى بذاتها ناموسها وشريعته فى تنافسها مع الجزئيات الأخرى المكتفية بذاتها ، وتضع مواصلة السعى وراء الربح فوق كل التزام اجتماعى .

وفى العصور الوسطى ، كانت « الحرية » تعنى التحرر من القيود القطاعية ، أى الحرية لصالح ألوان النشاط الجماعى لهيئة البلدية والنقابة والطائفة الدينية ، وأما فى المدن التجارية الجديدة أو مدن التجارة (Handelsstädte) ، فإن الحرية كانت تعنى التحرر من قيود البلديات ، أى الحرية لصالح الاستثمار الخاص ولصالح النفع الخاص والتكديس الخاص دون أى اهتمام بصالح المجتمع فى جملة والذين قاموا بتبرير هذا النظام - من برنارد ماندفيل (Mandeville) إلى آدم سميث - كانوا يزعمون أنه لما كانت مواصلة الجهود الفردية مستمدة من الطمع والجشع والشهوة ، فقد كان من شأنها توفير أكبر قدر من السلع للمجتمع فى جملة . وفى الحقبة التى كانت فيها هذه العقيدة هى المذهب الصحيح السائد - إلى

حوالى الربع الثالث من القرن التاسع عشر عندما شرعت الأنظمة الصناعية والبلدية تخفف على استحياء مما نجم عن ذلك من عواقب وخيمة ، كان الأثرياء يزدادون ثراء والفقراء يزدادون فقرًا . وكانت هذه الحقيقة تتمثل بوضوح كوضوح الرسم البياني في المفارقة بين الشق الغربى والشق الشرقى فى أكثر من مدينة من المدن الكبرى .

على أنه على غرار ما كان من شأن نمو الدولة القومية ذاتها ، كان تطور الرأسمالية أمراً لا بد منه إلى حد ما للتغلب على وجوه النقص الخطيرة التى كان يتصف بها النظام الاقتصادى فى العصور الوسطى . والهيئات الاتحادية فى العصور الوسطى ، فى محاولتها تحقيق طمأنينة دائمة ، قاومت مبتكرات جديدة وطرقاً جديدة للعمل ، وتشبثت بأسرار مهنها ، أى بصيغها السرية أو بعبارة أخرى بأسرارها الخفية . وقد عمل أعضاؤها أيضاً على الاحتفاظ بالامتيازات النفاية فى داخل نطاق أسر أو طوائف محدودة من تلقاء ذاتها ، فكانوا يقيمون العقبات دون التوسع فى منح حق المواطنة إلى الغرباء ، بل يسعون عن طريق التآمر والحرب إلى القضاء على المنافسة التى كان يمكن أن يلقوها من المدن المجاورة ، وبدلاً من التسليم بأن المنتجات التقليدية للنظام الاقتصادى الإقليمى ذات صفة ثابتة ومحدودة نسبياً ، فإن التجار المغامرين الجدد كانوا يسعون إلى توسيع نطاق الإنتاج وفتح آفاق السوق ، ولذلك كانوا يعملون على تعضيد التحسينات التكنولوجية مثل آلة الغزل ، وكانوا يعتمدون إلى حد كبير على المناطق الواقعة فيما وراء البحار ليحصلوا منها فى آن واحد على المواد الأولية وعلى المنتجات الكاملة الصنع . ولقد كانت عمليات شحن هذه البضائع وتبادلها تؤلف جانباً كبيراً متزايداً من وجوه نشاط المدن المزدهرة ، وتبعاً لذلك أخذت الحياة الاقتصادية تغلت شيئاً فشيئاً من إشراف البلديات .

وعلى ذلك فإن الرأسمالية ، بحكم طبيعتها ذاتها ، قوضت دعائم الحكم الذاتي المحلي ، والاكتفاء الذاتي على حد سواء ، وأقحمت على المدن القائمة عنصراً من عناصر عدم الاستقرار ، بل في الواقع من عناصر التوحات الفعال . فإن الرأسمالية بتوجيه عنايتها إلى المغامرة بدلا من الطمأنينة ، وإلى المبتكرات التي تدر الربح بدلا من التقاليد ووجوه الاستمرار التي من شأنها الاحتفاظ بالقيم ، اتجهت نحو هدم كيان الحياة الحضرية بأسرها ، وأقامتها على أساس جديد مجرد من الصلات الشخصية ، قوامه المال والربح .

وكان لهذا كله أثر مباشر في المنشآت قديمها وجديدها في آن واحد ، فقد أصبحت القديمة قابلة للتوسع ، وصممت الجديدة منذ البداية على أن تكون وقتية . فإن رأس المال — وقد كان يذهب إلى أقصى غايات المغامرة وهوسائل سيار — كان ينظر بعين الريية إلى توظيف أموال ضخمة في معدات ومبان دائمة . وحتى بعد أن اتخذ في الشركة المساهمة وضعاً محكماً أكثر سيلاً وقابلية للتحويل ، كان يميل إلى تفضيل المباني ذات الطابع النفعي ، التي تبنى على وجه السرعة وتستبدل في يسر وسهولة — إلا عندما كانت الحاجة إلى اكتساب ثمة الجمهور في ثروة ومثانة مركز إحدى المؤسسات تسوغ استخدام المال الوفير في مبان فخمة المظهر .

ولقد كان لهذا الحافز نتيجة مزدوجة الأثر في تكوين المدن ، فإن الاعتبار المرتبطة بالمال سيطرت تدريجياً على الاعتبارات المرتبطة بالأرض في تخطيط وإنشاء الأحياء الجديدة في المدينة ، بيد أن ما قد يكون أشد دلالة من ذلك هو أن كل الأراضي التي كانت قد أفلتت من التملك الإقطاعي وكانت عرضة للبيع بلا قيد ، أصبحت تعتبر ، بازدياد اطرديوماً فيوماً ، وسيلة للاستغلال . وقد كانت الأراضي الإقطاعية تؤجر لمدة ٩٩ أو ٩٩٩ سنة ، أي لمدة ثلاثة أجيال على الأقل . وكان هذا النظام يرجح كثرة الاستمرار ،

ويحد من حركة ارتفاع الأسعار ، ولكن عند ما أصبحت الأرض سلعة ولم تعد وديعة ، خرجت عن نطاق أى نوع من أنواع الإشراف الجماعى .

ولقد بذلت جهود كثيرة للحد من نقل أراضى البلديات والأراضى الإقطاعية إلى الملكية الفردية ، ولكن اطرء سير التغيير من الملكيات الإقطاعية ، بما فيها من واجبات متبادلة بين المالك والمستأجر ، إلى ملكيات تجارية خالية من الالتزامات إلا فيما يتعلق بدفع الضرائب . ولقد أعطانا « ستو » وصفاً ناطقاً لهذه العملية إذ قال : « كان يوجد فى شورديتش (Shoreditch) صف من المنازل الصغيرة المناسبة التى كانت بها حدائق ومخصصة لسكنى الفقراء الضعاف الصحة الذين أنزلهم هناك المشرف على ذلك المستشفى (سانت مارى سبيتل ، (St. Mary Spittle) ، وكان كل منهم يدفع إيجاراً قيمته بنس واحد فى السنة عند حلول عيد الميلاد . . . إلا أنه بعد تعطيل المستشفى ، ساءت حالة هذه المنازل فى غضون سنوات قليلة بسبب الحاجة إلى الترميمات إلى حد أنه أطلق عليها اسم الصف العطن . وقد باع جودارد (Goddard) المنازل التسعة البالية . . . لقاء مبلغ يسير من المال إلى تاجر الأقمشة راسل فقام ببنائها من جديد ، وتأجيرها بقيمة كافية ، وتقاضى أيضاً غرامات كبيرة من المستأجرين تكاد تعادل ما كلفته المنازل فى شرائها وبنائها » .

وحالما قُبِلت مبادئ التحول الرأسمالى المجردة من أى معنى من معانى المسئولية الاجتماعية ، كان ذلك ترخيصاً بالسكنى الوضيعة وإقامة مساكن فقيرة . وإن دافينيل (D'Avenel) الذى كتب الرسالة التاريخية المثالية عن « النقود والأسعار » ليعتبر القرن السادس عشر نقطة تحول قاطعة . فنذ ذلك الحين تأخذ أجور المساكن الحضرية فى الارتفاع وتستنزف قدراً لا يتناسب مع دخل العامل الحضرى . ولا بد من أن يكون التغيير الفعلى قد حدث قبل القرن السادس عشر فى عدة أماكن - كانت لندن أحدها -

وإلا فكيف نفسر بغير ذلك تلك العبارات الساخطة التي وردت في قصيدة^(١) . « بيرز الحراث » (piers plowman) : « إنهم يتعاون الدور ويصبحون من أرباب الأملاك ، ولو أنهم كانوا يبيعون بأمانة لما تيسر لهم أن يقيموا مباني هذا الارتفاع » . وعند ما أقبل القرن السادس عشر أيد روبرت كرولى (Robert Crowley) هذه الملاحظة في مقطوعاته الشعرية عن « رافعى قيمة الإيجار » التي يقول فيها : « عاين رجل أرضه وكانت تغل عشرة جنيهات في السنة ، ثم أجراها نظير قيمة غالية وبذلك جعل من الجنيهات العشرة عشرين جنيهاً ، وحصل في السنة على أكثر مما كان يحصل عليه سواه من قبل » .

ولما كان عدد سكان المراكز التجارية الجديدة يزداد باطراد ، فإنها كانت القدوة في شدة استغلال الأراضي ، وكلما كانت الأرض الموجودة محدودة المساحة بسبب الضيق الطبيعي ، كما هو الشأن في جنوة الكثيرة التلال ، أو بسبب الاحتكار الخاص ، كما هو الشأن في فيينا أو لندن ، ازداد ارتفاع الإيجار ، وزادت فرص الربح من وراء استغلال الأراضي على وجه مزمع مناف للروح الاجتماعية . وإن ما اكتشفته شركات الملاحه في القرن التاسع عشر باستغلال الركاب الذين يدفعون أدنى الأسعار ، اكتشفه أصحاب الأراضي قبل ذلك بزمان طويل ، فإن أقصى الأرباح كانت لا تأتي عن طريق توفير وسائل الإقامة الممتازة لأولئك الذين كانوا يستطيعون تحمل نفقاتها عن سعة ودفع أجر كبير لقاءها ، بل عن طريق وسائل الإقامة الفقيرة المكتظة لأولئك الذين كانت دراهمهم أندر من دنائير الأغنياء .

ولقد كانت توجد في لندن ونيويورك وباريس قبل منتصف القرن التاسع عشر أنحاء كثيرة كان يتسنى للمرء أن يقول عنها في ثقة إنه كلما ازدادت

(١) كتبت هذه القصيدة الإنجليزية في القرن الرابع عشر ، ويرجح أن يكون مؤلفها ولیم لانجلاند . وهي تهجم مساوئ رجال الدين والناس عامة وتحتل على التمسك بأهداف المسيحية .

حالة المسكن سوءاً ، ازدادت القيمة الإجمالية لإيجاره ارتفاعاً . ولم يوضع حد لهذا العمل الموفق الذى انطوى على اعتصار الربح من ضرورات حياة الفقراء إلا عندما أخذ يقل صافى الربح من الإيجار ، نتيجة لما كانت تتكلفه الجريمة والرديلة والمرضى فى بيئة المساكن الفقيرة على النحو الذى تبين أثره فى الضرائب العامة والضرائب الخاصة بإعانة الفقراء . ولم يحدث ذلك فى لندن إلا فى عهد الملكة فيكتوريا ، عندما أزيلت المساكن الفقيرة على نطاق واسع ، وكان ذلك إلى حد ما للحصول على حيز جديد للتوسع التجارى ، واكمته كان أيضاً للتخلص من الأعباء المتزايدة المترتبة على القانون الخاص بإعانة فقراء الأبرشية .

وتحويل المنازل الأقدم عهداً والأكثر انساعاً إلى مساكن رخيصة ممسكة بتلابيب بعضها بعضاً ، حيث كان يتيسر حشر أسرة بأكلها - وأحياناً أكثر من أسرة - فى غرفة واحدة ، لم يكن كافياً لإيواء العدد المتزايد من السكان فى المدن التى كانت تفوق غيرها « رخاء » ، فكان لابد من إنشاء أحياء جديدة يكون من شأنها أن تقبل هذه الأوضاع الكئيبة على أنها قياسية فيها منذ البداية .

وطبقاً لما أورده روجر نورث (Roger North) فى مؤلفه عن سيرة حياته ، فإن إقامة المباني لأغراض الاستثمار بدأت تظهر فى لندن على نطاق واسع بالمخامرات التى أقدم عليها الدكتور باربون (Barbone) بعد الحريق الكبير الذى حدث فى سنة ١٦٦٦ ، فقد هيا له نقص المساكن حينئذ فرصة ملائمة ، « فهو الذى ابتكر الطريقة الجديدة للبناء بتحويل الأرض إلى شوارع ومنازل صغيرة ، وبيع الأرض للعمال بمعدل سعر معين للقدم من الأرض المطلة على الشارع ، وكان يتولى بنفسه بناء ما لا يتسنى له أن يبيعه . وكان هذا سبباً فى رفع قيمة إيجار الأرض لصالحيتها للرهن . وقد اقتنى أثره آخرون ، نمّوا طريقتة ، وتفتنوا فيها ، وضربوا حول لندن نطاقاً من

المنازل كان شأنها شأن الجنين الذى يتكون خارج رحم يحمل من قبل جنيناً آخر .

ومالك المساكن الفقيرة ، بدلا من أن يلقي العقاب على استغلاله الأرض على نحو ينجافى الروح الاجتماعية ، لقي جزاء حسناً طبقاً للقواعد الرأسمالية ، فإنه بدلا من أن تصبح أملاكه الخربة عديمة القيمة لقدمها وعدم ترميمها ، أصبحت من العوامل التى كانت تؤثر فى تقدير الضرائب وقيمة الأرض . وإذا اتجهت المدينة إلى الانتفاع بالأرض على وجه آخر ، فإنه لم يكن يتسنى تحقيق ذلك على نحو مربح إلا بالاحتفاظ بمستوى الازدحام الموجود فى المساكن الفقيرة ، أو حتى بالمضى إلى ما هو أكثر من ذلك كثافة فى الازدحام .

وكما ازدادت كثافة شغل المساكن ازداد ارتفاع الدخل ، وكلما ازداد ارتفاع الدخل ، ازدادت القيمة الرأسمالية للأرض . وإذا كانت مدن مثل لندن قد ظلت زمناً طويلاً بمنجاة من أسوأ عواقب هذه الحلقة المفرغة ، فإن مرد ذلك إلى أن قدراً كبيراً من الأرض كان من الممتلكات الإقطاعية الموثجرة لمدة طويلة ، ولكن عندما خرج فردريك الأكبر على التقاليد الجرمانية ، وجعل للأرض وضعاً يقوم على أساس مستمد من القانون الرومانى ، بحيث تكون لها عز الصفة التى للمبنى ، فإنه فتح السبيل أمام استثمار الأملاك العقارية استثماراً جامحاً ، مما أفسد تخطيط برلين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، عندما وضعت البلدية يدها على مساحات كبيرة من الأرض لمشروعات الإسكان .

ولقد كانت هذه العملية تجرى بسرعة مضاعفة فى أطراف المدن التجارية . وبتقسيم أرض المزارع المجاورة إلى قطع للمباني ، تفككت أوصال المدينة المترابطة وتمزقت إرباً . ومنذ بداية القرن التاسع عشر كانت سياسة حرية العمل تعنى فى نظر الباديات « فليضارب من شاء على ارتفاع قيمة الأرض وفئة الإيجار » ، فإنه بهدم السور العسكرى ، زالت الضوابط

الاجتماعية على توسع المدينة وانتشارها دون قيد أو حد . وقد نشأ عن ازدياد سرعة وسائل النقل ، الخاصة أولاً ثم العامة ، ازدياد فرص التحول ، وازدياد سرعة سير التغير الحضري بأكمله ، فالمضاربة التجارية والتفكك الاجتماعى واضطراب النظام الطبيعى ، مضت متلازمة جنباً إلى جنب : وفى عين الوقت الذى كانت تتضاعف فيه المدن عدداً وتزداد حجماً فى جميع مناطق المدينة الغربية ، كانت طبيعة المدينة وأغراضها قد نسيت تماماً ، فأوضاع الحياة الاجتماعية التى لم يعد يدركها أوفر الناس ذكاء ، كان أشدهم جهلاً على استعداد لإنشائها ، أو على الأصح لم يكن لدى الجهلة أى استعداد على الإطلاق ، ولكن ذلك لم يحل دون إقدامهم على الإنشاء .

٣ — تنظيم النقل والمواصلات

كان أعظم ما حققه اقتصاد السوق هو تجميع السلع من أجل سرعة تبادلها وتوزيعها ، ولقد كان ذلك سابقاً لما شهده عصر الفحم والحديد من الأعمال التكنولوجية الباهرة ، وكان له نصيب ملحوظ فى تيسير القيام بها . وفى هذه العملية ، كما كان الشأن أصلاً فى تطور المدينة القديمة ، كانت الطرق المائية الوسيلة الرئيسية للنقل والمواصلات ، ليس فيما يتعلق بالمناطق النائية فحسب ، بل فى داخل المدينة ذاتها . وإلى وقت متأخر — امتد حتى أوائل القرن التاسع عشر — كان لا يزال الألوف من الملاحين فى لندن يقومون بنقل الركاب فى قواربهم على صفحة التيمز .

وحين كانت المدن التجارية الأقدم عهداً ، مثل بروج وفلورنسا : آخذة فى التدهور فى القرن السادس عشر ، كانت الموانئ البحرية والنهرية الواقعة على طرق التجارة الرئيسية تنعم بالازدهار ، وتشهد بذلك نابولى وباليرمو ولشبونة وفرانكفورت على نهر الماين وليفربول . ولقد انتشر إنشاء القنوات من الأقاليم الواطئة إلى سائر أرجاء أوروبا ، وفضلاً عن ذلك فإن مهارة الهولنديين فى التحكم فى الماء وفى ضخه ، انتفع بها فى استخدام أقدم المواصلات

الرئيسية للماء من أجل سد حاجة المدن الآخذة في التوسع . وقد أنشئ في القرن السابع عشر لأول مرة نظام النقل بالقوارب في القنوات بصفة منتظمة في كل ساعة ، وكان ذلك فيما بين ديلفت وروتردام ، وطبقاً لما يقوله بلانشار (Blanchard) كانت توجد وسائل عامة لنقل الركاب والبضائع فيما بين جرينوبل وليون منذ سنة ١٦٢٣ .

وأما المرافئ ومستودعات البضائع ووسائل الشحن ، فإنها أعقبت ذلك على مراحل بطيئة . وعلى الرغم من أن المرفأ الميكانيكى الذى يدبره جهاز على هيئة قنمى السنجاب كان يستخدم في بروج في العصور الوسطى ، فإن آلات الشحن لم تتطور إلا ببطء ، ولعل ذلك يرجع إلى كثرة ما كان يوجد حول الموانئ الكبرى من الطبقة الآخذة في الازدياد ، طبقة العمال العرضيين الذين لم تكن نعيمهم أى نقابة . وكذلك فإن إقامة المنائر جاءت متأخرة ، على حين أن ما في الموانئ من وسائل التسهيل المائلة لما كان يوجد في دار الصناعة البحرية في البندقية ، بما كان فيها من مواد للبناء والترميم وتزويد السفن بحاجاتها للقيام برحلات بعيدة لم ينشأ على أى نطاق إلا في القرن السابع عشر عندما ضربت أمستردام المثل في ذلك المجال ، وتبعها ليفربول في القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من أن مرافئ شركة الهند الشرقية في لندن يرجع تاريخها إلى سنة ١٦٠٠ ، فإن المرفأ الكبير الذى تملأها ، وهو مرفأ شركة الهند الغربية ، لم يتم إنشاؤه إلا في سنة ١٨٠٢ .

وعند الاطلاع على سجلات المدن التجارية قبل القرن التاسع عشر ، يذهل المرء حيال ضروب التقدير والشح في التحسينات التى أدخلت على المدن ذاتها ، فإن روح تدبير الأمور حينئذ اتفق أو جعل الموجود يسد حاجة المطلوب - إن هذه الروح كثيراً جداً ما كانت تسود بالقياس إلى ما كان يتم من المنشآت في عهد أسبق ، عندما كانت التجارة جزءاً لا يتجزأ من ألوان النشاط الحضري الأخرى بدلا من كونها غاية في ذاتها ،

فإن مستودعات الملح التي أقيمت في لوبيك . القرن الثالث عشر ، كانت مازالت قائمة في القرن العشرين ، وقد كان ذلك أيضاً شأن مستودعات مماثلة لها في أمستردام ترجع إلى القرن السابع عشر . بيد أنه في دور تكوين المدن التجارية التي أعقبت ذلك ، لم تستثمر الأموال إلا بقدر قليل نسبياً في إقامة منشآت مستديمة ، وقد ظهرت إحدى الحالات الأولى للخروج على تلك القاعدة في إنشاء المرائئ والمستودعات الكبيرة في ليفربول ، وهي منشآت رائعة استخدمت فيها أعمدة من حديد الزهر ووضع تصميمها على أساس من المقاييس السخية . ولم يتم إلا في القرن التاسع عشر ما أقامته لندن من السلسلة الكبيرة من الموانئ ومستودعات البضائع الممتدة على طول واجهة النهر مما يلي البرج حتى تيلبرى (Tilbury)

وحتى إنشاء طرق وشوارع عريضة تصل بين الميناء والمدينة ، لم يأت في أغلب المدن إلا كفكرة طرأت متأخرة ، ولو أن هذه السبل كثيراً ما تبين أنها مكتظة ويتعذر المرور فيها . وأما فيما يتعلق بتدبير مساكن لائقة لأسر عمال الشحن والتفريغ والبحارة وعمال النقل بالعربات الذين كانوا يعملون في خدمة الميناء ، فقد تركت هذه المسألة تحت رحمة نشاط السوق أسوة بالنزل الوضع والمواخير والحانات التي كانت تحيط بالموانئ . وإن سوء أحوال عمال الشحن والتفريغ والحمالين والعمال غير الفنيين والبحارة لم تنفش عدواها في الحى المجاور للميناء وحده ، بل امتدت إلى أحياء أخرى في المدينة ، وربما زادت من حدوث الأوبئة الفتاكة ، ومن المحقق أنها زادت من انتشار مرض الزهري .

ولقد بلغ من انتشار هذه الأحوال بصفة عامة في مدن الموانئ أنها أصبحت تعتبر مظهراً عادياً من مظاهر الحياة في مدينة بحرية . ولعل أفضل النتائج التي أسفر عنها تخريب المدن على نطاق واسع في أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت الفرصة التي أتاحتها للسلطات اليقظة المختصة

بالتخطيط في مرسيليا وروتردام ولندن للقيام بمشروعات جديدة في المناطق المجاورة للميناء التي طال بها العفن :

وعلى نحو ما سوف نلقاه في نواح أخرى من مظاهر الاقتصاد الحضري الرأسمالى ، فإنه حيثما كان يطرأ على الروح الجديدة تعديل ، تحت تأثير عقيدة فكرية أقدم عهداً وأشد اهتماماً بالمعايير الاجتماعية والجمالية ، كانت النتائج أفضل حالاً بصورة واضحة ، وآية ذلك المافر حيث عهد فرنسيس الأول إلى جويون لوروى (Guyon le Roy) فى تشييد الميناء الذى كان قد أعد له التصميمات . ولقد كان هذا المشروع ضرباً من المغامرة ، وعلى الرغم من أنه كان سبباً فى إفلاس من تولاه أصلاً ، لعدم حصوله على حق صريح فى امتلاك الأرض ، فإنه كان الحلقة الأولى فى سلسلة من الأعمال العامة التى كفلتها الحكومة وأكسبت الموائى الفرنسية ، بحسن رونقها ونظامها ، تفوقاً ظاهراً على منافساتها المضطربة النظام من الموائى الألمانية والإنجليزية . وما زالت منائر شربورج وملاطهما تهض دليلاً ، لا على إقدام رجال الأعمال ، وإنما على ما انسم به مهندسو نابليون بوناپرت من بعد نظر وسعة حيلة :

ولتأمل التناقض العجيب بين ما كان للرأسمالية فى أوائل أيامها من سعة الحيلة فى التجارب - بانباعها مسك الحسابات بالقيد المزدوج ، والكمبيالات والاستثمارات المحدودة المسئولية - وبين ما أحدثته فى الأحياء التجارية الجديدة فى المدينة من التغيرات الإنشائية الضخيلة نسبياً ، ولعل أحد أسباب التخلف فى هذه الناحية ، حتى فى الشئون التى كانت خليقة بأن تخدم أغراضهم ، هو أن المصرفيين والتجار كانوا معنيين بما يعود عليهم بالربح العاجل ؛ إذ يبدو أنهم كانوا يخشون الإقدام على أى مشروع جماعى قد يعود عليهم بالنفع لتلا يكون أكثر نفعاً لمنافسيهم : ولقد كانت المدينة التجارية وسيلة لكسب المال ، ولذلك فإنه - فى سبيل الربح - كان يفض

الطرف عن مظاهر البلى وسوء النظام وعدم وفاء المنشآت بالغرض ، بل الواقع أنه كان يعمل على تشجيعها كوسيلة لتخفيض النفقات العامة . ولقد سبق للبندقية أن أثبتت أن الجمال والنظام لا يتعارضان مع الرخاء المالى ، كما أتيح لأمستردام أن تثبت ذلك من جديد فى القرن السابع عشر . وقد تولى تنظيم كل من هاتين المدينتين جماعة كانوا من أوفر رجال الأعمال نجاحاً ، ويتمتعون بقدر كبير من المهارة والذكاء والجشع ، ولا يراعون مبدأ أو يستشعرون للضمير وخزاً . ومع ذلك فإنه حتى أولئك الذين كانوا يعجبون بأعمالهم لم يحاولوا أن يهجموا على منوالهم .

٤ - التخطيط العام على أساس المضاربة

إن الخصائص الرئيسية للروح التجارية الجديدة - وكانت عبارة عن الاهتمام من ناحية بكل ما هو نظامى وما يمكن وضعه فى ميزان التقدير ، والاهتمام من ناحية أخرى بالتوسع الجرىء والمغامرة القائمة على المضاربة - وجدت ما يعبر عنها تعبيراً مثالياً فى مظاهر التوسع الجديدة فى المدينة . وقد كان الشكل قديماً ومألوفاً ، ولكن الرأسمالية التى انبعثت فى القرن السابع عشر كانت تعتبر كل قطعة أرض ، وكل وحدة مخصصة للمباني ، وكل شارع عادى وشارع عريض ، وحدات مجردة لأغراض البيع والشراء ، دون مراعاة للاعتبارات التاريخية ، أو الظروف الطبوغرافية ، أو الاحتياجات الاجتماعية . وفى عدا الحالات التى كانت فيها الحقوق الإقطاعية أو الامتيازات الملكية تقلل من سرعة السير فى العملية ، فإن البلدية فقدت السيطرة على الأرض اللازمة لتنطورها هى ذاتها .

وإذا كان لا يوجد ارتباط بين تخطيط المدينة وحاجات الإنسان وألوان نشاطه فيما عدا الأعمال التجارية ، فإنه يتسنى تبسيط شكل المدينة ، إذ أن النموذج المثالى لتخطيط المدينة فى نظر رجل الأعمال هو ذلك الذى يمكن

تحويله بأقصى ما يستطيع من السرعة إلى وحدات نقدية قياسية لأغراض البيع والشراء . وعندها لا نطل الوحدة الأساسية هي منطقة الجوار أو الحي ، بل قطعة الأرض المخصصة للبناء التي يمكن تقدير قيمتها على أساس مساحتها المطلقة على الشارع ، وهذا يرجح كفة القطعة المستطيلة الشكل ذات الواجهة الضيقة والامتداد الكبير إلى الداخل ، مما لا يهيئ للمباني إلا أقل قدر من الضوء والهواء ، وبخاصة للمساكن التي تطابق ذلك الوضع . ولقد تبين أن مثل هذه الوحدات كان يفيد منها على السواء ، مساح الأرض ، والمضارب في بيع الأرض ، والتأتم بالبناء للاستغلال التجارى ، والحامى الذى كان يحرر عتد البيع . وكانت قطع الأرض بدورها ترجح كفة إقامة كتل المباني على شكل مستطيل ، وهو ما أصبح بدوره الوحدة القياسية لامتداد المدينة .

وما من أحد تتبع فصول هذا التاريخ سوف يرتكب الخطأ الشائع بأن المصدر الأصلى لمثل هذا النوع من التخطيط هو الولايات المتحدة ، فإن الحقيقة الوحيدة التي تجعله أكثر وضوحاً في أمريكا منه في العالم القديم هو عدم وجود ما هو أسبق منه من أنواع تخطيط المدن إلا في بعض المناطق مثل مراكز الاستقرار الأصلية في بوسطن ونيويورك . ومنذ القرن السابع عشر ، كان التوسع يتم على وتيرة واحدة في المدن الغربية ، كما حدث في ستونجارت وبرلين وفي لندن وأدنبره ، وذلك فيما عدا الحالات التي كانت فيها مجارى المياه القديمة أو الطرق أو حدود الحقول قد وضعت خطوطاً لم يكن ليتسنى الإغضاء عنها دون تروؤ .

وإن جمال هذا النموذج الميكانيكى الجديد كان خليقاً أن يكون واضحاً من وجهة النظر التجارية . ولا يجد المهندس في هذا التخطيط شيئاً من تلك المشكلات الخاصة التي تصادفه في القطع غير المنتظمة الشكل وفي خطوط التحديد المنحنية ، فإن صبيهاً من صبية المكاتب كان بوسعهم أن يقدر عدد الأقدام المربعة التي يقتضيها فتح أحد الشوارع أو عملية بيع قطعة من

الأرض ، وحتى أحد كتبة المحامين كان يتسنى له تحرير مواصفات عقد البيع اللازم ، وذلك بمجرد قيامه بملء الوثيقة القياسية بالأبعاد الصحيحة . وأخيراً فإن مهندس البلدية ، بفضل الاستعانة بزاوية تخطيط قائم (T-square) ومثلث ، ودون أى تدريب يؤهله لأن يكون مهندساً معمارياً أو باحثاً اجتماعياً ، كان يتسنى له أن يضع مشروع تخطيط الحاضرة من الخواضر ، بما فيها من رقع أرض قياسية ، ووحدات قياسية ، وأبعاد قياسية لاتساع شوارعها ، وبالجملة لكل أجزائها التى وحدت مواصفاتها وكان يمكن مضاهاة بعضها ببعض ، وإحلال أحدها مكان الآخر .

ولم تكن مثل هذه المشروعات مواتية لشيء سوى سرعة تقسيم الأرض ، وسرعة تحويل المزارع إلى أرض للمباني ، وسرعة البيع . وقد كان من شأن انعدام التلاؤم على وجه أكثر تحديداً بين مثل هذا التخطيط وصفحة الأرض أو الأغراض البشرية أنه زاد من فائدته بوجه عام لأغراض المبادلة بفضل ما انطوى عليه من انعدام التحديد وانعدام الهدف . فالأرض الحضرية أيضاً أصبحت مجرد سلعة مثل العمال ، وكانت قيمتها فى السوق هى التى تعبر عن قيمتها الوحيدة . ولما كان تخطيط المدينة يوضع على أساس من التصور بأن المدينة ليست إلا عبارة عن كتلة مادية من المباني التى يمكن الانتفاع بتأجيرها ؛ فقد كان من الميسور أن تنتشر فى أى اتجاه دون أن يجد من ذلك سوى عقبات طبيعية ضخمة والافتقار إلى وسائل سريعة للنقل العام . وكان من الممكن أن يصبح كل شارع شارعاً للمرور ، وكل قسم قسماً تجارياً .

وفى نظر رجال الأعمال ، كانت إحدى المزايا الخاصة التى يتسم بها هذا النوع من التخطيط غير العضوى ، هى السماح باطراد التوسع الشديد فى استغلال الأرض ، وما يقابل ذلك من ارتفاع فى معدل الإيجار وفى قيمة أرض المباني . وكان هذا ضرباً جديداً من ضروب النظام الحضرى تمتعت

فيه الأعمال التجارية بالأفضلية على كل أنواع النشاط الأخرى : ولكن حتى من أضيق وجهات النظر النفعية ؛ كانت هذه التخطيطات الشبكية الجديدة تستوقف النظر من حيث عدم الوفاء بالحاجة وتبديد الأرض : وبسبب ما كان يحدث عادة من عدم التفرقة على وجه كاف ، قبل كل شيء ، بين الطرق الرئيسية لحركة المرور والشوارع السكنية ، كانت الأولى لا تنشأ بالانتساع الكافي ، على حين أن الثانية كانت عادة أوسع مما ينبغي لمجرد تأدية الأغراض الخاصة بمنطقة الجوار : وكانت هذه المغالاة تلقى عبء تكاليف الرصف الزائد على الحاجة ، والإفراط في طول امتداد وسائل المنافع العامة والأنابيب الرئيسية للمياه ، على كاهل أهل الشوارع السكنية الذين كان يتعذر عليهم تحملها :

وإن ما تنسم به الشوارع الإنجليزية (التي أنشئت بمقتضى القوانين المحلية بعد سنة ١٨٧٠) ، من ضعة أنيقة لهو حالة استثنائية ، ولكن حتى في هذه الشوارع الحبيسة - وهو ما أوضحه ريموند أنوين (Raymond Unwin) من أن « الإفراط في الازدحام لا يعود بشيء من الربح » - كان يلقى بالمال لشراء مساحات زائدة على الحاجة في الشوارع وللقيام بعمليات رصف بالغة التكاليف ، وهو ما كان يتسنى إنفاقه في سبيل أغراض أجدى نفعاً بتهيئة عين القدر من الأماكن العامة الفضاء لإقامة حدائق عامة وساحات للألعاب .

وواضع التخطيط الشبكي ، بعد مراعاته للطبوغرافية ، فتح المجال لصفقات دسمة من الأعمال البلدية « النزيمية » لتسوية الانحدار الشوارع وردمها ورصفها . وفي المواقع الكائنة على تلال شديدة الانحدار ، مثل موقع سان فرانسيسكو ، ألقى التخطيط المستطيل ، بما صحبه من إهمال لمراعاة الخطوط الكتورية ، عبثاً مستديماً على كاهل السكان من حيث الوقت والجهد ، وأنزل بهم خسائر اقتصادية يومية ، تقدر بأطنان الفحم وجالونات البنزين التي تضيع هباء ، دون أن تذكر شيئاً عن إهدار

الإمكانات الجمالية الكبرى لموقع على التلال يستخدم الذكاء في تنسيقه .
وعلى النقيض من ذلك ، فإن الشوارع المتعرجة في « سيدنا » ، التي
ترجع إلى العصور الوسطى ، قد روعيت فيها الخطوط الكتورية ، وهي
تتقاطع معها على فترات لتكشف عن منظر ما ، وتهبط في انحدار شديد
على هيئة طبقات من الدرج لينتفع بها المشاة في اختصار الطريق . وهذا
يبين على وجه يدعو إلى الإعجاب ناحية التفوق من الوجهة الهندسية
والجمالية في تخطيط عضوى يتم تنفيذه وقد وضعت نصب العينين أغراض
أخرى عدا توفير أقصى عدد من قطع الأرض التي يمكن بيعها ،
واستخدام أقل قدر من قوة الخيال . ومنذ وقت مبكر يرجع إلى
سنة ١٨٦٥ ، أوضح فردريك لو أولمستيد (Frederick Law Olmsted)
أن هذه المزايا تتوافر في سان فرانسيسكو - إلا أنه ضرب بنصيحته
عرض الحائط .

وفي هذا التخطيط العقيم المتكلف ، لم يعن سواء باتجاه الرياح
السائدة ، أم بتحديد المناطق الصناعية ، أم بملاءمة الطبقات الواقعة تحت
سطح الأرض من الناحية الصحية ، أم بأى عامل آخر من العوامل
الحوية التي تحدد مدى الانتفاع الصحيح بموقع حضرى . وأما من ناحية
توجيه المباني بحيث تتعرض إلى أقصى حد لضوء الشمس في الشتاء - وهي
تلك الضرورة القديمة التي عرفها كل من الإغريق والصينيين - فإنها
أغفلت إغفالا تاما إلى أن أعاد تقرير هذا المبدأ عدد من الباحثين ،
كل منهم على حدة ، وبخاصة مهندس التخطيط الفرنسى أوجيستان رى
(Augustin Rey) ، في مطلع القرن العشرين . ولا بد من الإشارة إلى
وجه آخر من وجوه القصور في هذا التخطيط ، وهو عدم وجود أى
فرقة فيه من حيث الوظيفة بين الأحياء السكنية والصناعية والتجارية
والمدينة - إذ أنه لو وضعت احتياجاتها موضع الاعتبار ، لتطلب كل

حتى منها وحدات مختلفة الطول والعرض مع ما يناسبها من الشوارع العادية والعريضة ، لكي تتلاءم مع اختلاف أعباء حركة النقل في كل منها ، ومع اختلاف توزيع مبانيها طبقا للوظائف التي يؤديها كل منها .

وكل هذا يعنى أنه في التخطيط الشبكي ، على نحو ما طبق في المدينة التجارية ، ما من قسم أوحى وضع تخطيطه على أساس ملائم لمهمته الخاصة ، وبدلا من ذلك فإن المهمة الوحيدة التي أخذت في الاعتبار كانت الزيادة المطردة في الارتفاع بالتخطيط من أجل مقابلة حاجات حركة العمل الآخذة في التوسع ، ورفع قيمة الأرض : والواقع أنه في التخطيط الحضري لا يعتبر مثل هذا النظام السطحي العقيم نظاما على الإطلاق ، وأن أى مشروع لتخطيط مدينة لا يكون إلا ذريعة مسطورة على الورق إلى أن ينشأ عنها ، كأدنى مبرر لها ، شغل أقصى مساحة من الأرض ، وتوافر أقصى نسبة من كثافة السكان ، تتلاءم مع الوظائف المراد أدائها ومستويات المعيشة المنشودة ، وإقامة مبان تبلغ أقصى حد من الارتفاع والحجم يتناسب مع الحاجة إلى الأماكن الفضاء والحركة العامة ، وكل هذا في نطاق إطار من التجديدات والاستبدالات المتعاقبة في فترات موقوتة .

ولا بد من التنويه بنتيجة أخرى لنظام التخطيط الشبكي ، وذلك أنه بعد تجزئة الأرض إلى قطع منفصلة حددت مساحة كل منها أصلا وفقا لحجم المسكن التقليدي لأسرة واحدة . فإن تجميع مثل هذه القطع في رقعات مناسبة لإقامة مبان أكبر حجما ، كان يهيئ مجالا للمضاربة الماكرة والسبق الذي لا يتحرج من شيء ، وذلك على حين أن تجميع مساحات أكبر حجما تتألف منها وحدة كاملة للمباني أو منطقة جوار بأكملها في داخل نطاق النواحي المأهولة في مدينة ما ، ظل أمرا يتجاوز أقصى حدود الموارد الخاصة إلا إذا كانت إحدى المنظمات القائمة منذ

أمد طويل تملك الموقع لقطعة واحدة ، كما هو الشأن في حالة مركز روكفلر (Rockefeller Center) ، وحتى عند ما كانت تنشأ حاجة إلى قطعة أرض لأغراض عامة ، فإن شراء حقوق الملاك العديدين ، كلا على حدة ، كان يصبح من أكبر العقبات أمام الإدارة التي تصرف الشئون العامة بنزاهة ، وهي عملية كان من شأنها أن تؤدي في مدن كثيرة إلى ضروب من التأخير ، فضلا عن ألوان متنوعة من الرشوة وابتزاز الأموال :

وإن قانون الضم (Lex Adickes) ، الذي أباح تجميع القطع وإعادة توزيعها على أفراد الملاك وفقا لتخطيط أفضل ، وبنسبة ما يملكه كل منهم ، لم يعمل به حتى في ألمانيا إلا في سنة ١٩٠٢ . وقد اقتضى الأمر نسف وسط روتردام بقنابل النازيين في سنة ١٩٤٠ ليُبعث في المدينة قدر كاف من الشعور بالواجب نحو الصالح العام لتطبيق هذا النظام على نطاق بلغ في اتساعه حدا سمح بتنفيذ ذلك المشروع الجريء - مشروع إعادة تخطيط المدينة - الذي يأخذ مجراه هناك فعلا منذ سنة ١٩٤٥ .

وطبقاً للمبادئ التجارية البحت ، استجاب التخطيط الشبكي إلى ما لم يستجب له أى تخطيط آخر من مقتضيات النظام الرأسمالي مثل تغير القيم ، وسرعة التوسع ، وتضاعف السكان . ولكن المدينة التي كانت تخطط على أساس من هذه المبادئ كانت تعجز عن تحقيق الأغراض الإنسانية الأخرى ، وكان مقضيا بالفشل على كل محاولة تبذل لتحسين حالتها بدون تغيير هذه المبادئ . فالتخطيط ، بحكم طبيعته ، عملية شاملة تنطوي على التفاعل المتبادل بين الكثير من الاحتياجات والأغراض والوظائف ، على حين أن مشروعا للتخطيط على شاكلة ذلك الذي كان يقوم به أحد أصحاب المشروعات بمفرده كان عبارة عن محاولة مفككة العناصر من أجل خدمة أغراضه الخاصة المحدودة . وإلى جانب إطالة امتداد الشوارع ووحدات المباني ، كانت أغراضه لا تحتاج إلا إلى ضرب واحد من

جهود البلدية ، وهو إنشاء خطوط النقل . وفى هذا النطاق ، بلغ التخطيط الشبكى ذروته المثالية فى المشروع الذى وضعه السنيور سوريا اى ماتا (Soria y Mata) « للمدينة الممتدة طوليا » (Linear City) . ولا كان هو نفسه من مهندسى النقل ، فقد اقترح فى جرأة أن يجعل المدينة الجديدة تؤدى مهمة نظام « فقارى » للنقل السريع ، وتؤلف إطاراً حضرياً متصلًا فى موازاة خطوط النقل التى تربط بين المراكز التاريخية الأقدم عهداً ، وهكذا كانت وسائل النقل المجهزة بمحركات هى المتحكمة فى كل شىء .

وقد كان امتداد نطاق التخطيط الشبكى القائم على أساس المضاربة ، واتساع نظام وسائل النقل العامة ، وجهى النشاط الرئيسيين اللذين استمدت منهما الأوضاع الرأسمالية سيطرتها فى المدن الآخذة فى النمو فى القرن التاسع عشر . فحركات السفر على مراحل قد أعقبتها الطرق الحديدية ، والقوارب البخارية ، والقناطر ، والوسائل الكهربائية للتنقل على سطح الأرض ، وفى أنفاق فى باطن الأرض ، وعلى جسور مقامة فوق الأرض ، ولو أنها لم تظهر فى جميع الحالات بنفس الترتيب الزمنى ، وكل اتساع جديد فى نطاق المدينة ، وكل ازدياد جديد فى عدد السكان ، كان يتسنى تسويغه بوصفه وسيلة للتأمين من الإفراط فى توظيف المال . هذه المرافق ومزيدها من الضمان لزيادة قيمة الأرض بوجه عام ، ليس فى داخل حدود المدينة فحسب ، بل فى المناطق الواقعة خارجها التى لم تدمج فيها أو تضم إليها . فالاقتصاد المطرد التوسع كان يتطلب توسعاً مطرداً فى عدد السكان ، كما كان التوسع المطرد فى عدد السكان يتطلب مدينة مطردة التوسع ، ولم توجد لهذا التوسع حدود سوى السماء والأفق . وفى عرف المبادئ التجارية البحتة ، كانت الزيادة العددية مرادفة للتقدم ، فكان إحصاء عدد السكان كافياً لتقرير مكانة المدينة

من حيث الحضارة ، وسنشهد عاجلاً النتائج النهائية لهذه العملية في تكوين المدينة الكبيرة (ميجالوبوليس) .

وعند تقدير مدى الحاجة إلى اتفاق جديدة لوسائل النقل الكهربائية في نيويورك مثلاً منذ نصف قرن تقريباً ، أورد مهندس لجنة الخدمات العامة بيانا مثاليا لهذه الأهداف حيث قال : « يجب بالضرورة أن تمتد جميع الخطوط نحو الغاية المنشودة ، وهي مانهاتان ، فكل خط من خطوط النقل يجلب الناس إلى مانهاتان يؤدي إلى زيادة قيمة أرض المباني فيها . وقيمة الأملاك في جزيرة مانهاتان ، نظرا إلى موقعها الجغرافي والتجاري ، لا بد من أن تزداد كلما ازداد عدد السكان في المناطق المجاورة » . ويبدو أنه لم يدرك في ذلك هذا الموظف الساذج أن هدف أى نظام صالح للنقل قد يكون التوزيع على أساس توفير مزيد من التساوى في الفرص الصناعية والتجارية ، وفي تسهيلات الإسكان ، بل حتى في قيمة الأرض ، بحيث يتسنى أن يكون للعملية كلها هدف آخر سوى إثراء من في حوزتهم الأرض في مانهاتان على حساب الباقين من أفراد المجتمع في الحاضرة .

ولقد أثبت ذلك النظام الشبكي العديم الشخصية أنه نظام عقيم من حيث الإسهام في أداء الخدمات الاجتماعية المستديمة في المدينة ، ففي الولايات المتحدة ، زودت أحيانا بعض المدن الجديدة التي أنشئت في القرن التاسع عشر بمراكز للخدمات المدنية (Civic Centers) ، كما حدث في مشروعات التخطيط التي وضعت لمدن سنسنانى وسانت لويس وشيكاجو ، بيد أنه عندما ارتفعت حمى المضاربة بيعت هذه المواقع التي كانت تملكها البلدية لدفع نفقات التوسع في مد الشوارع ونفقات الرصف ، وحتى مدينة سافانا التي كانت تنمو على مهل ، فقدت تدريجيا المزية التي كان يوفرها لها نظامها القديم بما كان فيه من ميادين ، وحينما كانت تنشأ حاجة إلى

مواقع لإقامة مباني عامة أو حدائق ، كان يتبين أن ملكية القطع الملائمة من الأرض قد سبق وقوعها في يد الأفراد ، وأنها في بعض الأحيان قد سبق البناء عليها ، وأنها دائماً أبداً مرتفعة الثمن ، وتكاد تكون روتشستر الحالة الوحيدة الشاذة التي استطعت أن أعثر عليها ، حيث يوجد عدد من الميادين كان المضاربون قد أنشأوها أصلاً كوسيلة للإعلان في سنة ١٨٢٠ وهى مازالت قائمة كجزء من تخطيط المدينة — ولعل الفضل في ذلك يرجع إلى نمو هذه المدينة الريفية نمواً بطيئاً نسبياً بالقياس إلى المدن الواقعة في نهاية خطوط المواصلات مثل بفلو ونيويورك .

ولم يكن العقل الحضري الجديد قد بدت له فكرة أنه لا يتيسر لمدينة ما أن تتحكم في نموها بدون التحكم في تعمير أرضها ، وأنه لا يتسنى حتى تدبير المساحة اللازمة لمبانيها العامة في المواقع المناسبة مالم يتسن لها على الأقل أن تحوز الأرض وتضع يدها عليها قبل أن تنشأ فعلاً الحاجة إليها بزمان طويل ، وذلك أن فكرة تحكم المجتمع كانت في ذاتها مستبعدة منذ البداية ، فحيثما كان الأمر يتعلق بالأرباح ، كان الصالح الخاص يسمو في الاعتبار على الصالح العام طبقاً للنظرية الرأسمالية الكلاسيكية . والحق أن أصحاب المشروعات الرأسمالية لم يتنكروا إطلاقاً لسلطات الدولة أو البلدية كافة ، فالرأسمالية كانت شرهة في طلب الإعانات والمساعدات المالية ، بل المنح الصريحة ، مثل تلك التي أخذت بيد خطوط السكك الحديدية في غرب الولايات المتحدة ، والآ تقوم الآن — على وجه مماثل من عدم التبصر — بإعانة شركات النقل الجوي والبرى .

وهكذا نرى أنه منذ القرن التاسع عشر كانت المدينة لا تعتبر منظمة عامة ، بل مغامرة تجارية خاصة يجب أن تنها على أى شكل يمكن أن

يزيد من حصيلة الدخل ومن ارتفاع قيمة الأرض ، وأن التحليل الذى وضعه هنرى جورج لهذه الحالة ، وتصحيحها الجرى على النحو الذى قام به ايبنزر هوارد (Ebenezer Howard) فى مشروعه عن مدينة الحدائق الجديدة بحيث تمتلك بلديتها كل أرضها ، ايؤذن بتحول فى أفق تفكير نظامى البلديات الاقتصادى والإدارى .

٥ - نحن التوسع الحضرى

إن قانون النمو الحضرى ، طبقا لما تمليه مبادئ النظام الاقتصادى الرأسمالى ، كان يعنى القضاء بلا هوادة على جميع المعالم الطبيعية التى من شأنها أن ترفع روح الإنسان المعنوية وتدخل عليها البهجة وسط أعبائها اليومية . فالأنهار كان مألها أن تحول إلى مجار للتصريف - انظر وصف ولیم موريس لتدنيس مجرى الواندل (Wandle) - والمواقع المظلة على صفحات الماء قد يجعل الوصول إليها متعذرا على راغبي النزهة والتجوال فيها ، كما أن الأشجار العتيقة قد تجتث من جذورها ، والمبانى التى لها مكانتها وإجلالها قد تهدم خدمة لسرعة المرور ، ولكن ما دامت الطبقات الراقية تستطيع أن تمضى فى مركباتها للطواف فى سنترال بارك^(١) ، أو أن تستمتع بركوب الخيل صباحا والعدو بها خيبا فى روتن رو^(٢) (Rotten Row) ، فإن افتقار المدينة فى جعلها إلى الأماكن الفضاء للنزهة ، وإلى الجمال المنعش للأرواح ، لم يكن ليلفت الأنظار .

ولم يبد المجتمع أى اعتراف جدى بالحاجة إلى ساحات للعب الأطفال إلا بعد سنة ١٨٧٠ ، وعندئذ كان لا يتسنى الحصول على المساحات اللازمة إلا ببذل نفقات طائلة ، ومن ثم نشأت مهمة غريبة للشارع

(١) حديقة عامة كبيرة فى وسط جزيرة مانهاتان بنيويورك .

(٢) طريق غير معبد لركوب الخيل فى وسط حديقة هايدبارك فى لندن .

الذى جاوز استغلاله الحد فى مشروع التخطيط التجارى ، فقد أرغم على أن يؤدى مهمة الحديقة الخلفية والميدان المأمون فى مدينة العصور الوسطى ، أو الميدان الطلق والحديقة العامة فى النظام الباروكى . ومن ثم فإن هذا المكان الموحش المرصوف الذى أعد فى بادئ الأمر لحركة مرور العربات غدا كذلك حديقة عامة ومنتزها وساحة للألعاب ، فكان حديقة عامة كثيفة ، ومنتزها مغبرا ، وساحة خطيرة للألعاب .

وحتى فى الحالات التى لم يبلغ فيها ازدحام الأرض حداً مفرطاً - كما هو الشأن مثلاً فى كثير من المدن الصغرى فى الولايات الوسطى بأمريكا - كان الشارع العريض يعتبر رمزاً للتقدم ، ولذلك فإنه كان ينشأ على قدر من الاتساع لم يكن يتناسب بأى وجه ، من حيث مهمته ، مع استعماله وقتئذ ، ولا مع احتمالات استعماله مستقبلاً ، على الرغم من أثر النفقات الباهظة لرصفه وصيانته فى ازدياد الضرائب على الأملاك المطلة عليه . وتخطيط الشوارع على هذا النحو كانت قيمته إلى حد كبير قيمة زخرفية ، فقد كان أشبه ما يكون بصورة ممسوخة متأخرة الألوان للتوسع الباروكى فى المساحات كظهور للإعراب عن إرادة الأمير ، وكان رمزاً لحركة المرور المحتملة ، والفرص التجارية المحتملة ، والتحول المحتمل من الاستعمال لأغراض سكنية إلى أغراض أوسع مدى فى مجال الأعمال . وبذلك فإن الشارع ذاته كان يهيء مسوغاً إضافياً للأسعار الخيالية التى كانت أحياناً تحدد مقدماً ، بدافع من التفاؤل ، للأملاك الريفية الواقعة فى طريق المدينة الآخذة فى الزحف نحوها . والتقاليد الحضرية الباقية إلى الآن فى نيو إنجلند لم تبد فى مكان ما أشد وضوحاً مما بدت عليه فى أن مبدناً مثل بتسفيلد (Pittsfield) ونيوبدفورد (New Bedford) على الرغم من امتداد التصنيع إليها ظلت مستمسكة بنظام الشوارع الضيقة التى يتراوح عرضها بين ثلاثين وستين قدماً ، وبذلك خففت من عبء الضرائب على المنازل والحدائق المجاورة لها . ولذلك فإن المدينة ، حتى عندما خططت وفقاً

للنظام الشبكي ، ظلت محتفظة ببعض المزايا التي قدر لحيل جديد من مهندسي التخطيط أن يكتشفوها عند تخطيط القرى الصناعية ذات الحداث في نهاية القرن التاسع عشر .

وفي خلال القرن التاسع عشر ، أقيمت في جميع أنحاء العالم الغربي مدن جديدة واتسع نطاق مدن قديمة طبقاً للقواعد التي فرغت الآن من وصفها . وكانت أول أمانة من أمارات الازدهار مد هياكل شوارع لا تتألف إلا من أحجار لأطراف الطوارات ومن أنابيب تغذية لشبكة أنابيب المياه . وكان تضاعف هذه الشوارع يوسع نطاق المدينة قبل الأوان ويزيد من عبء النفقات الباهظة التي كان يتكلفتها الرصف وكذلك المجارى والأنابيب الرئيسية للمياه ، وهو ما كان يستتبع حدوث التوسع بأفدح التكاليف وذلك بتشديد منازل منفردة متناثرة ، تقام حيناً اتفق دون نظام من حيث الموقع أو الزمن ، بدلا من وحدات سكنية متضامة تبنى في خلال فترة محدودة . فن حيناً أى غرض آخر سوى المضاربة ، كان هذا النظام بالغ الإمعان في التبريد ، كما أن عبء تكاليف مثل هذا الاستغلال السابق للأوان كان يقع على كاهل باقى المدينة .

ولقد أدركت منذ عهد مبكر حقيقة هذه المعايير المالية البراقة ، ففي تقرير إلى هيئة المشرفين على الغابات في إنجلترا ، لاحظ چون ناش أن « الأسباب المصطنعة لاتساع المدينة هي مضاربات القائمين بحركة الإنشاء ، الذين يشجعهم ويشد من أزهرهم التجار المشتغلون بتجارة مواد البناء ، والхамون ذوو العملاء من أرباب المال ، فهم يسهلون وفي الواقع يسيرون النظام بأكمله ، وذلك بالتصرف في إيجار الأرض المرتفع ، وبوسائل أخرى عديدة يتسنى بها لعملائهم استخدام أموالهم استخداماً مثمرأ ، وللمحامين أن يهينوا لأنفسهم عملا جزيل الربح » .

وهذا الاعتقاد في النمو الدائم الذي لا يحد ، كان اعتقاداً عاماً شاملاً .

خفى أمريكا كان أصحاب المشروعات العمرانية يقامرون على مثل هذا النمو ثم يعمدون إلى دعم آمالم بتدبير وسائل اجتذاب المتاجر والمصانع والسكان من المدن المنافسة ، وذلك عن طريق منح هبات من الأرض أحياناً ، بل إقامة مبان للمصانع ، دون المطالبة إطلاقاً بأن يتكفل أرباب الصناعة الذين يستقرون فى المدينة بأن يكون مستوى الأجور عالياً إلى حد يكفل الحيلولة دون أن يصبح العمال الجدد عبئاً على كاهل المدينة . والواقع أن نيويورك لم تكتف ببناء قناة إيرى Erie لتضمن وسيلة ممتازة للاتصال بالمناطق الداخلية . بل إنها فيما بعد ، عن طريق فرض أجور لنقل البضائع بحيث تكسبها ميزة على المدن الأخرى ، استطاعت الاحتفاظ باحتكارها لحركة النقل على الخطوط البحرية فى المحيط ، والخطوط البرية فى داخل القارة الأمريكية .

وكانت تسيطر على المالك الرغبة فى الانتفاع بكل قدم مربعة يمكن تأجيرها ، حتى عندما كان الغرض من المبنى استعماله الخاص وليس الاستغلال المالى المحض . وفى مدن كثيرة ، نجم عن ذلك فى خلال القرن التاسع عشر ، تحويل الحديقة الخلفية إلى مجرد فناء خلفى لتجفيف الملابس ، وأدى ذلك بدوره إلى تخفيض هذه المساحة إلى حد أن كثيراً من المساكن الباهظة التكاليف المجاورة للشارع الخامس (Fifth Avenue) فى نيويورك ، بنيت ظهراً لظهر تقريباً ، على غرار مبانى أى حي من أوضاع الأحياء الفقيرة ، وبذلك أعوزها الرونق والتهوية فى آن واحد . ومرة أخرى نجد أن المشروعات الرأسمالية ، وقد سيطر عليها انهماكها الشديد فى السعى وراء الربح ، أساءت إلى نفسها ، فإنه ليس من المحتم أن تخطيظاً يقوم على أساس الازدحام المفرط يعود بأقصى الأرباح فوراً ، كما أنه ليس من المحتمل أن يحتفظ بما فيه من صفات طيبة وجذابة إلى حد يكفل ضمان الاستغلال الحيزى على مدى حقبة طويلة من السنين .

والتصميمات الفسيحة — مثل تلك التى أنشئ وفقاً لها ميدان فندوم (Place Vendome) أو ميدان راسل (Russel Square) ، وكلاهما لا يزال مزدهراً بعد استخدامه عدة قرون — قد تبين أنها ذات مزايا اقتصادية أفضل بكثير من التصميمات التى لم ينشأ من ورائها سوى شغل أقصى قدر من المساحة التى يمكن تأجيرها ، فإن الربح الوفير فى الحالة الأخيرة يتوقف على الدخل العاجل ، أما فى الشئون الاقتصادية للمبانيات — على نقيض شئون الأفراد — فليست النفقات الأولى للمشروع هى التى تكون موضع الاعتبار بل النفقات الأخيرة ، تبعاً لتوزيعها على مدى حياة المشروع بأكملها .

ولم يكن المصدر الرئيسى لهذه المساوىء فى التخطيط والتصميم هو الحصول على الربح فى ذاته من وراء المضاربة بقدر ما كان الانشغال بأمر هذا الربح إلى حد إغفال أى اعتبار إنسانى آخر . وأعمال البناء الواسعة النطاق التى تولى « جون وود » أمرها فى مدينة « باث » أنشئت استجابة لحوافز تجارية ، ولكن ذلك حدث لحسن الحظ فى وقت تيسر فيه لعوامل أخرى — هى مراعاة ما يليق بمركز الفرد ومكانته — أن تخفف من حدة الهدف التجارى . ولهذا فإن جون وود ، على غرار روبرت آدم فى أدنبره ، استطاع أن يعمل وفقاً للقياس الباروكى السخى ، وأن يتصور واجهة الشارع بأكملها كوحدة واحدة ، وأن يعتبر الأماكن الفضاء جزءاً لا يتجزأ من التصميم كله . وعندما صادفت هذه المثل الأرستقراطية الإغفال لدى الطبقة الناشئة من الماديين ذوى الأفق الضيق الذين تولوا بناء مدينة القرن التاسع عشر ، لم يحتفظ إلا بما كان فى التصميم الباروكى من تكرار وتجانس ، وذلك فى صفوف المنازل المقامة على نمط موحد فى نيويورك ولندن ، أو فى عمائر السكنى الموحدة النمط التى أقيمت فى باريس فى عهد نابليون الثالث أو فى برلين فى عهد بسمارك .

٦ - الانحلال في حركة النقل

كانت إحدى السمات الأخرى في التخطيط التجارى هي الشارع العريض على هيئة ممر ؛ إذ كان عبارة عن ممر عام طويل وضع تصميمه أساساً لتيسير حركة مرور العربات : وفي التخطيط الجديد ، قلما كانت توجد أى تفرقة بين الشارع العادى والشارع العريض ، أو بين حركة المرور في منطقة الجوار وحركة المرور بين أنحاء المدينة ، وحتى أولئك الذين كان يتسنى لهم أن يقيموا أروع المساكن ، أقاموها في الشوارع العريضة ، مثل فيث أفينو في نيويورك أو برود ستريت في فيلادلفيا ، مفضلين ذلك على إقامتها في الشوارع الجانبية حيث تتوافر أماكن هادئة في الداخل ، ويبلغ من صعوبة التخلص من هذا الطراز عندما تكون الغلبة للمبادئ التجارية أنه حتى في يومنا هذا ، نجد أن مركزاً تجارياً جديداً على طريق رئيسي كبير في لونغ ايلند يفاخر بحقيقة مريرة ، وهي أن طوله يبلغ ميلاً .

وقد استمرت طوال القرن التاسع عشر بأكله التضحية بمنطقة الجوار من أجل الشارع العريض لحركة المرور : وحتى في ضاحية سكنية مثل حديقة هامبستد في لندن - وهي ذات تخطيط جميل يشتمل على مبتكرات كثيرة تدعو إلى الإعجاب - قام مهندسو التخطيط بوضع منطقة المتاجر على امتداد شارع عريض على هيئة ممر ، وذلك بدلاً من إنشاء مركز تجارى مجمع ، وقد بلغت حركة المرور المتولدة عن المدينة التجارية حداً هائلاً بلغ من شأنه أنه في نيويورك ، منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن التاسع عشر ، كان ازدحام حركة المرور ازدحاماً شديداً قد أصبح أمراً شائعاً ، وازداد البحث عن وسائل عامة للنقل أشد سرعة : وإلى هذا الحين ، كان الشطر الأكبر من السكان في معظم

المدن يتوجهون إلى أعمالهم سيرا على الأقدام ، وكان هذا لايعني حتما أن أعمالهم قد ظلت باقية في منطقة الجوار التي كانوا يعيشون فيها ، بل إنه ، حتى عندما لم يكن الأمر كذلك فإن العامل أو حتى صاحب العمل ، كان يقطع على قدميه مسافة ميلين أو ثلاثة أميال ليصل إلى عمله ، على الرغم من أنه في حالة سوء الطقس كان هذا عبءا كثودا للسائرين على أقدامهم ممن كانت تغذيتهم سيئة وملابسهم غير واقية .

وبابتكار الوسائل الزهيدة الأجر للانتقال بعربات السفر على مراحل (stage coach) والطرق الحديدية ، وأخيرا المركبات الكهربائية ، ظهر نقل الأعداد الكبيرة في الوجود لأول مرة في التاريخ ، فلم تعد المسافة التي يمكن قطعها على القدمين هي التي تحدد مدى نمو المدينة ، وازدادت السرعة التي تقدمت بها حركة اتساع المدينة ؛ إذ أنها لم تعد تتناول شارعاً فشارعاً أو وحدة سكنية فوحدة سكنية ، بل منطقة بعد أخرى من المناطق التي يخدم كلاهما خط حديدي ، وضاحية فضاحية ، وكانت هذه المناطق تنشعب من المنطقة الرئيسية وتنتشر في كل اتجاه . ولما كانت هذه الوسائل التكميلية للنقل تسلك طرقاً لم تكن دائماً مطابقة لتخطيط شبكة الشوارع ، فإنها من بعض النواحي كانت تعوض أسوأ وجوه النقص في نظام حركة المرور في الشوارع ، وفي عهد رخصت فيه أجور النقل ، كانت تهيئ للعامل قليلاً الأجر قسطاً من القدرة على التنقل ، جعلهم على قدم المساواة مع أولئك الذين كان في وسعهم اقتناء المركبات الخاصة .

ولسوء الحظ أن تدبير وسائل النقل العامة مضى في سيرة وقتاً لعين قواعد الريخ القائم على المضاربة ، وهي التي كانت تسيطر على باقى المدينة ؛ فكانت المضاربة في حركة النقل والمضاربة في الأرض تشدان أزر بعضهما بعضاً ، وكثيراً ما كان الشخص نفسه يمارس المضاربة فيهما .

معا . وفي ذات الوقت الذى حدث فيه ذلك ، تسنى لأيمرسون النافذ البصيرة أن يتبين منذ عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٨٣٦ ، مدى الاحتمالات الكبرى للمعيار الجديد للزمان والمكان ، أى إنه سيكون من شأنه أن يحيل الطرق إلى شوارع والأقاليم إلى مناطق جوار ، ولكن تحقيق هذا الاحتمال على وجه مثالى ، باتخاذ الإقليم وحدة للتطور ، ظل غير ناجز ؛ لأن اتساع مدى حركة النقل استخدم وسيطة لتوسيع نطاق المدن التى كانت قد بلغت من قبل حجماً تجاوز حد الفائدة للإنسان ، فإن الوسائل العامة للنقل السريع بدلا من أن تكون سببا فى إنقاص الوقت اللازم للوصول إلى مكان العمل ، كانت سبباً فى الازدياد المستمر فى المسافة والتكاليف دون أى كسب للوقت على الإطلاق .

وإن ما ينطبق على الاتساع الأفقى للمدينة التجارية فى القرن التاسع عشر وما بعده ينطبق كذلك على اتساعها الرأسى عن طريق المصاعد ، وقد كان استخدامها فى مبدأ الأمر مقصورا على المدن الكبرى فى العالم الجديد ، بيد أن الأخطاء الأساسية التى ارتكبت أصلا فى إقامة ناطحات السحاب ، أصبحت الآن عامة شاملة ، وذلك لعدة عوامل : أحدها التخفيف من شدة القيود المفروطة فى صرامتها ، وثانيها الضغط التجارى ، وثالثها محاكاة البدع ، ورابعها رغبة المهندس المعارى فى استغلال أساليب تكنولوجية حديثة . وكل الأخطاء التى ارتكبت أصلا فى المدن الأمريكية يتكرر ارتكابها فى أوروبا وآسيا على ذات النطاق الخفيف . وإذا كان النقل السريع قد جعل الأفق حد امتداد المدينة ، فإن الطرق الجديدة فى الإنشاء جعلت « السماء هى الحد » ، كما كان يحلو للمغامرين أن يقولوا ، وبغض النظر عن أى خدمات يمكن أن تؤدي على وجه أفضل بتكديس الطوابق بعضها فوق بعض ، فإن المبنى الشامخ أصبح قاعدة أساسية ترمز إلى « العصرية » .

والجمع بين هذين الأسلوبين للتوسع والتكديس ، أفقيا وعموديا ، هياً أوسع الفرص لجنى الأرباح ، بل كان فى الواقع القوة الأساسية المدافعة إلى الاستغلال . بيد أن نظام النمو على هذا النمط الآلى البحث يصبح فى النهاية سبباً فى أن يحد نفسه بنفسه ، فإن مساوئ بطء حركة النقل فى اختراقها شوارع المدينة بما يعادل نصف سرعة المركبات التى كانت تجرها الخيل منذ خمسين عاماً ، هى النتيجة المباشرة للزيادات المفرطة فى الكثافة الحضرية من حيث المساكن والأعمال ، وكذلك للزيادة فى عدد السيارات الخاصة . والافتقار إلى المساحة اللازمة للتنقل فى المدينة ليس من شأنه أن يقل بتخصيص مساحات مطردة الزيادة من المدينة للشوارع العريضة الواسعة ، وللطرق السريعة ، والقناطر المرتفعة ، ومساحات انتظار السيارات ، وحظائر إيواء السيارات ، فإن الزمن يقترب فى مدن عديدة عندما تتوافر كل أسباب التيسير للطواف فى أرجاء المدينة دون أن يكون هناك أى داع على الإطلاق للذهاب إليها . وحتى فى الوقت الحاضر ، نجد أن الهواء السام الملوث ، والسكنى المكتظة بمعدل ثلثائة أو أربعائة ساكن فى الفدان الواحد ، والحياة الاجتماعية المنحطة الراخرة بألوان العنف والجرائم — نجد أن كل هذا قد أدى إلى هجرة شاملة من المناطق الواقعة فى وسط المدن . وعلى هذا الاعتبار فإن الداء الدفين فى هذا النمط من النمو يحد منه . وما ذلك إلا لأن الداء لا بد له فى النهاية من أن يفتك بالكائن الذى يأويه :

وهذا النقد لأساليب وأهداف الرأسمالية على النحو الذى بدت عليه فى التوسع الحضرى ، ليس محاولة للتهمين من شأن مشكلات النمو المضخمة التى واجهت القرن التاسع عشر ، بل إن هذا النقد أبعد من أن يعنى عدم إدراك قيمة وسائل التقدم التقنية الجديدة التى أصبحت الآن تحت تصرف المدينة ، وعلى أهبة الاستعداد لتكملة ما تؤديه الطرق البرية والطرق

المائية التى لم تعد تنبى بحاجات الحياة فى المدينة الحديثة وقد أصبحت أساليبها أكثر تنوعاً ودينامية ، فالأمر على التقيض من ذلك تماماً ؛ إذ أن مشكلة النمو يجب أن تعالجها جميع الهيئات والمنظمات الجماعية مثلما يعالجها الأفراد ، ومن ذا الذى يمكن أن يساوره الأمل جدياً فى الوصول إلى حل لأى مشكلة من مشاكلنا الحضرية بالرجوع إلى قاعدة تكنولوجية أو اجتماعية أقل تحضراً ؟

لقد كان خطأ العقلية التجارية التقدمية أنها أولت ما لا موجب له من الاهتمام إلى أساليب التنقل التى كان يرجى من ورائها أكبر قدر من الدخل المالى . ولقد أدى هذا بوضوح التخطيط إلى إغفال شأن السائر على قدميه ، وشأن الحاجة إلى الاحتفاظ بمرونة الحركة للجماهير ؛ وهو ما لا يمكن أن تكفله إلا حركة انتقال السائر على قدميه . وفى الوقت بعينه فرض ذلك على المخطط ، فيما بعد ، حلاً محدوداً لمشكلة النقل الخاص عن طريق السيارة ، كما أدى إلى تقديم النقل على كثير من الوظائف الحضرية الأخرى التى تعادله فى ضرورتها لوجود المدينة .

وعلى ذلك فإن اتساع شبكة طرق النقل اتساعاً مفرطاً ، بدافع الإصرار على زيادة الريح الناجم عن اكتظاظ وسط المدينة ، نشأ عنه فى الواقع ، حتى من الوجهة التقنية ، حل بدائى إلى أقصى حد ، فإن المدينة فيما آلت إليه ، فيما عدا وسطها المكتظ ، افتقرت إلى كثير من أسباب المتعة الرضية فى الحياة الاجتماعية التى كانت لاتزال متوافرة فى مدن أصغر حجماً وأشد تأخراً فى ظاهرها .

٧ - تنظيم الارتفاعات

كثيراً ما اتسم التخطيط العام بالحديد على الورق بمظهر النظام والانتساع ، ولكن نظام البناء بالحديد فى المدينة التجارية قضى على أى

ادعاء لهذه الصفات ، بإيجاد درجات من الاكتظاظ لم يسمع بها إلى ذلك الحين ، وبتعميم أساليب سيئة لم تكن إلا وقتية أو شبه عرضية في أسوأ الحالات في أغلب المدن قبل القرن السابع عشر . وبمرور الزمن أحدث هذا التنظيم أثره في كل جزء من أجزاء المدينة ، ولا سيما في مساكن الفقراء .

ويحدث الاكتظاظ الحضري بطبيعة الحال عند ما يشرع عدد كبير جداً من الناس في التنافس للحصول على عدد محدود من المساكن والحجرات ، ولما كانت طبقة من العمال التجاريين والصناعيين قد أخذت تحتشد في العواصم الكبرى في أوروبا في القرن السادس عشر ، فإن هذه الحالة أصبحت مزمنة . ولم يكن ميسوراً أن تتحسن أحوال المدن إلا بعد التحكم في مصادر العوامل التي كانت تدفع بالناس إلى المدينة .

ولقد كان للتنافس على الأماكن الشاغرة من جانب الفقراء المهاجرين الذين كانت تعوزهم الرعاية ، تأثير على باريس أو أدنبره في القرن السابع عشر ، يماثل ما كان له من التأثير على مانشستر في القرن الثامن عشر ، وعلى ليشربول ونيويورك في القرن التاسع عشر ؛ إذ ارتفعت قيمة إيجار الأرض ، وساءت حالة المساكن . ولقد كان المكتار من الأرض في باريس يساوى ٢٦٠٠ فرنك في القرن الثالث عشر — طبقاً لما يقوله دافينال — وفي القرن العشرين كان المكتار في ذات المنطقة يساوى ١٠٠٠، ٢٩٧ فرنك ، وحتى مع مراعاة الفرق في قيمة العملة نجد أن الارتفاع كان مذهلاً . ومن الذى أفاد من وراء هذا الارتفاع ؟ لم يكن السكان هم الذين أفادوا من هذا الارتفاع . ومن الذين احتفظ دخلهم بذات المعدل في الارتفاع ؟ لم يكن العمال هم الذين ارتفع دخلهم بذات المعدل .

« إن العامل في العصور الوسطى الذى كان يبلغ دخله ألف فرنك سنوياً ، كان يتسنى له أن يدفع دون مشقة أجر منزل يتراوح بين مائة

ومائتي فرنك في السنة ، ولقد تحسن حاله أكثر من ذلك حينما انخفضت قيمة الإيجار انخفاضاً جسيماً في القرن الخامس عشر بسبب كثرة المساكن الخالية ، على حين أن أجور العمال ارتفعت إلى ١٢٠٠ فرنك . ولكن في الوقت الذي كان فيه الصانع الأجير - منذ سنة ١٥٥٠ إلى أواخر القرن الثامن عشر - لا يحصل على أكثر من ٦٧٥ فرنكاً في السنة ، وكان إيجار أحقر المنازل في باريس يبلغ ٣٥٠ فرنكاً ، تبين لماذا لم يكن أمامه مفر عندئذ من أن يتخلى عن الإقامة في مسكن منفصل .

ولقد كانت هذه الحالة سائدة - مع الفوارق المناسبة - في أوروبا بأسرها وفيما تفوق سواها رخاء من الموانئ البحرية في أمريكا الشمالية . ومن جهة نظر الطبقات العاملة ، كان ذلك العصر عصر استغلال متزايد ، وأما فيما يتعلق بمساكنهم فقد كان عصر ازدياد في التصدع وفي التضيق . وإن المرء ليلاحظ المستوى الجديد المنخفض حتى في مؤسسات العصر الحيرية . وعلى الرغم من أنه بالقياس إلى معايير الإسكان الحالية ، تعتبر مجموعة مساكن المسنين في أوجسبرج ، التي قام يعقوب فوجر ببنائها للفقراء ، مجموعة تسترعى النظر بجمالها من الناحية المعمارية ، فإن الصفوف المتوازية للمنازل لا يتوافر فيها إلا أدنى قدر من المكان الفضاء للحدائق ، وذلك بالقياس إلى ما كان يوجد من الأماكن الفضاء في مشروع معاصر لمدينة أوجسبرج ، فحتى أعمال الإحسان أصبحت ضئيلة في استخدامها للأرض ، إذ أن الأرض أصبحت من ذهب ، شأنها في ذلك شأن الوقت .

ولإدراك المصدر الذي ينبع منه هذا الاكتظاظ ، بغض النظر عن الرغبة في اعتصار الربح من ضروريات الفقراء الذين كانوا لا يستطيعون المساومة ولا الامتناع عن الموافقة على غرار الذين كانوا أسعد منهم حظاً من الوجهة الاقتصادية ، يجب أن يدرك المرء أنه بحلول القرن السابع عشر كان قد أصبح من المسلم به أن الفاقة هي النصيب العادي في الحياة لشطر كبير من السكان .

وبدون حافز الفقر والجوع لم يكن من المتوقع أن يقبلوا العمل لقاء أجور لا تسمح إلا بحياة الكفاف ، فكان البؤس بين أدنى الطبقات أساس الترف بين أعلاها . ولقد قدر الباحثون أن ربع السكان الحضريين في المدن الكبرى كان يتألف ممن يعملون بعض الوقت ومن المتسولين ، ولقد كان هذا الفائض في الأيدي العاملة هو الذى هباً ما كانت الرأسمالية الكلاسيكية تعتبره سوقاً ملائمة للعمل ، حيث كان الرأسمالى يستأجر العمال طبقاً لما يفرضه من الشروط ، أوفصل العمال على هواه ، دون إخطار سابق ، ودون أن يشغل باله بما كان يحدث للعامل أو للمدينة من جراء هذه الأحوال المنافية للإنسانية . وفي مذكرة مؤرخة في سنة ١٨٦٤ أشار رئيس الشرطة في باريس إلى « البؤس المروع الذى يعانى به الشطر الأكبر من سكان هذه المدينة العظيمة » ، فإن عدداً يتراوح بين أربعين ألفاً وأربعة وستين ألفاً كانت تنحدر بهم الحال إلى التسول فعلاً . ولم تكن حالة باريس ضرباً من الاستثناء لا مثيل له في مدن أخرى ؛ إذ أنه عندما زار الكاتب الأمريكى هرمان ملثيل (Herman Melville) وهو صبي ، مدينة ليفربول المزدهرة ، في القرن الثامن عشر ، وجد ، على نحو ما يصفه في قصة « ردبرن » (Redburn) ، امرأة وعلى صدرها طفلان وهم يحتضرون جميعاً في مدخل طابق أرضى دون مستوى طوار الشارع ، وعلى الرغم مما بذله من الجهود ليوفر المساعدة اللازمة ، فإن أحداً لم يتقدم لاجدة هذه المخلوقات ، ولم تنقل من مكانها إلا حينما دب التعفن إلى جثتها .

بيد أنه في النهاية نالت الطبقة العاملة ثأرها دون عمد ولا أى تدبير من جانبها ، فإن المعايير التى روعيت في بادئ الأمر في مساكن الفقراء ، كانت عند حلول القرن التاسع عشر تراعى باطراد في بيوت الطبقات المتوسطة والعليا . وقد أقيم في سنة ١٨٣٥ بشارع تشبرى (Cherry) في نيويورك أول مبنى لسكنى أسر عديدة من أقل الفئات أجوراً ، وكان هذا المبنى يشغل تسعين في المائة من رقعة الأرض ، وقد جعل أحوال السكنى المفتقرة إلى

الهواء والشروط الصحية تصبح قاعدة عامة . وفى خلال جيل واحد ، كان هذا لنوع الحديد من المساكن يعرض على الطائفة الميسورة الحال بوصفه أكثر مبتكرات البدع (الموضة) أنيقة ، أو المسكن الباريسى الذوق . ولا شك أنه فى مدينة مثل نيويورك كان ثمة مجال لإقامة مساكن أصغر حجماً — تحت إدارة مشتركة — من أجل الأعزب المقيم بمفرده أو من أجل أسرة صغيرة : والمسكن (الشقة) فى ذاته ، بوجود جميع حجراته فى طابق واحد ، يتوافر فيه نظام مريح لمكان إقامة متواضع ، ولكن المساكن (الشقق) الجديدة لم تنشأ وفقاً للتصميم القديم للمساكن حيث لم يتجاوز الطول انساع حجرتين ، بل أنشئت على غرار مساكن الفقراء ، وكانت تشغل الجزء الأكبر من رقعة الأرض ، وبدلاً من توفير منظر بهيج يتألف من عدد من الحدائق والأماكن الفضاء ، كان لا يتهياً لأغلب الحجرات إلا أن تطل على مسقط للهواء ، أو مع ازدياد حركة المباني فى منطقة الجوار ، على الحائط الخلقى لمسكن (شقة) آخر مماثل من حيث سوء التصميم .

وكان تطور المدينة التجارية يتسم بعدم المبالاة على هذا الوجه بالاحتياجات الأولية من حيث الصحة وجمال المنظر ، ومن ثم جاء هذا التعليق اللاذع على لسان بانريك جيديس عندما أجمل وصف تدهور مستوى حركة البناء والإسكان فى خلال القرن التاسع عشر ، تحت تأثير الانصراف إلى ناحية واحدة ، وهى ناحية الإيجار والربح ، فقال « مساكن فقيرة ، ومساكن شبه فقيرة ، ومساكن فقيرة ممتازة ، هذا هو ما انتهى إليه تطور المدن » . وبمرور الزمن ، كان معدل الدخل ، حتى من مساكن الأغنياء ، يكاد يتساوى فى ربحه من وجهة النظر التجارية مع ما تدره المباني التى حولت إلى بيوت أو عمائر سكنية بائسة للفقراء .

وفى خلال القرن التاسع عشر كانت المؤسسات الخيرية المصدر الذى جاء منه الدليل النهائى على هذا الانحطاط فى مشروعات الإسكان من جراء تطبيق

المقاييس الرأسالية ، وهنا نجد أن التجربة التي حدثت في عهد الماكة فيكتوريا قد أعادت إثبات ما سبق أن أثبتته من قبل تجربة أسرة فوجر^(١) . وعند ما أقام جماعة من أهل البر أول مبنى نموذجي للإسكان بمدينة نيويورك في خمسينيات القرن التاسع عشر ، تضمن التصميم ، كأمر طبيعي ، حجرات داخلية لا يصل إليها الضوء إلا عن طريق نافذة تطل على حجرة خارجية . وحتى على أساس ما كان مألوفاً إذ ذاك من تقديم مساعدات طفيفة إلى العمال القليلي الأجر ، دل هذا المبنى النموذجي للإسكان على أنه بلغ من الانحطاط ما جعله يصبح في وقت سريع الملجأ المفضل لدى اللصوص والعاهرات .

وقد كان من الجائز أن يبدو أن هذه الصورة الممسوخة للإسكان كانت من قبيل ما يقع مصادفة ، لو أن القصة نفسها لم تتكرر على نحو وقور في المساكن النموذجية التي أنشأها جورج بيبودي (Peabody) في لندن على مدى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولولم تقم بمحاكاتها على نطاق واسع طوائف وهيئات عامة أخرى . وكان يتوافر في مباني بيبودي أدنى قدر من الضوء والهواء والقواعد الصحية ، فإن هذه المساكن النموذجية بدلا من أن ترتفع إلى طابقين أو ثلاثة طوابق ، شأنها شأن المسكن المألوف في أفقر أنحاء لندن ، كان ارتفاعها يصل إلى أربعة أو خمسة طوابق ، فكانت تشتمل على قدر من كثافة السكان يتفق ، ليس مع الحاجات البشرية ، بل مع قيمة الأرض . وكان الفناء الواقع بين المباني يرصف من الحائط إلى الحائط ، ولم يكن من شأن ذلك أن يحول دون إنشاء حديقة ولو في أضيق الحدود فحسب ، بل إنه في سبيل المزيد من الوقاية ، كان محظوراً على الأطفال استخدام هذا الحيز الضئيل للعب فيه .

والمحاولات التي قام بها بيبودي عن حسن نية كانت قدوة تعسة للمزيد.

(١) كانت أسرة فوجر غنية من أنطاب التجارة في أوجسبرج وقد بلغ ثراء هذه الأسرة ذروته في عهد فوجر الثاني (١٤٥٩ - ١٥٢٥) وكان يحتكر التعدين والاتجار في النضة والخامس والزئبق .

من مشروعات الإسكان للفئات ذات الدخل القليل . وحتى في الحالات التي تروّد فيها الآن أمثال هذه المشروعات « النموذجية » بمساحات من الأرض. الفضاء بادية للعيان ، ولا تشغل المباني إلا ما يتراوح بين خمسة وعشرين في المائة من مساحة الأرض ، نجد أن كثافة السكنى في مبان يتفاوت ارتفاعها بين عشرة طوابق وخمسة عشر طابقاً ما زالت هي كثافة المساكن الفقيرة ، إذ أنها تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٥٠ نسمة في الفدان . وينشأ عن هذا أنه يندر وجود الأرض التي يمكن استخدامها في منطقة الجوار لإنشاء حدائق وساحات لعب ، وهو ما يكاد يكون معادلاً في خطورته لما كانت عايه الحال في المساكن القذرة الوضيعة التي حلت مكانها المباني الجديدة . أما أن هذه المباني تتحول جميعاً إلى مساكن فقيرة في وقت قصير جداً ، فإنه يجب ألا يثير دهشة أحد سوى واضعى تصميمها الذين لم ينظروا إلى الأمر إلا من وجهة نظر واحدة ، ولم يستبصروا طبيعة أمر البيت أو منطقة الجوار فضلاً عن المدينة .

٨ — ضروب الكسب والرتقاء

لم يقرن بظهور المشروعات الرأسمالية اختفاء الأوضاع القديمة للسوق. اختفاء تاماً في العالم الغربي ، بيد أنها منذ ذلك الحين أصبحت مقصورة إلى حد كبير على تجار المواد الغذائية . وحتى في العالم الجديد ، كثيراً ما كانت مثل هذه الأسواق تجمع معا في مبنى واحد ، كان في بعض الأحيان يحاكي فعلاً دور الأسواق الأوروبية ، كما حدث في نيويورك وفيلادلفيا. وواشنطن وبالتيمور ، على حين أن « دار فانيول » (Faneuil Hall) في بوسطن يمكن اعتبارها امتداداً مباشراً لسوق العالم القديم .

وبوجه عام ، فإن أفقر الأحياء هي وحدها التي كان لا يزال يتيسر فيها شراء ثوب أو سروال (بنطلون) أو موقد من عربة مكشوفة ، ولو أنه في باريس — وهي أشد تشبهاً بعادات العصور الوسطى مما قد يبدو.

فى الظاهر - اضطرت المخازن التجارية الكبرى إلى أن تنشر سلعها على مناضد فى الشارع ، وذلك على الأقل فى أحياء الطبقات المتوسطة الدنيا . ولكن ميادين الأسواق لم يكن لها مكان فى التخطيط الحضرى الجديد ، فإنه لا طرق المرور الدائرية فى التخطيط الباروكى ، ولا الشارع العريض على هيئة ممر لانهائية له فى التخطيط التجارى ، كان مناسباً لمثل هذا النوع من تجمع السائرين على أقدامهم .

والحانات المفتوح للهواء الطلق - وكان منفذ حجرة العمل الواقعة فى الخلف - اتجه أيضاً نحو الاختفاء ، واتخذ الطراز الحديد للحانات وضعه خلف نوافذ من الزجاج زيدت مساحتها إلى حد كبير ، بحيث أصبحت تشغل الواجهة بأكملها وتستخدم مركزاً للعرض . ولم يدخر وسعاً فى تصميم الداخل تصميماً أنيقاً ، وبخاصة فى حوانيت بيع السلع المستحدثة الذوق . ولقد كان تزويد حانات لبيع الفطائر (الجاتو) بنوافذ من ألواح الزجاج ورفوف زجاجية ومصابيح زجاجية ، وخمس وعشرين ذراعاً من المعدن تثبت فى الحائط لحمل الشموع ، وست صحاف كبيرة من الفضة ، وطلاء السقف ، ونحت الأعمدة ، وتمويه المصابيح بالذهب - كان كل هذا يستلزم مبلغاً من المال لا يستهان به . وكما يبدى دانييل ديفو (Defoe) فى مؤلفه (التاجر الإنجليزى الكامل) ، أن من العادات الحديثة « اضطرار التجار إلى إنفاق ثلثى ثروتهم فى إعداد حوانيتهم . . . وإنه لمن هين الأمور إنفاق مائتين أو ثلاثمائة بل خمسمائة جنيه » .

وكانت قد ظهرت إلى الوجود سوق لعرض السلع الجاهزة لالسلع المصنوعة بناء على الطلب وفقاً للنظام القديم ، ومنذ القرن السابع عشر وما بعده ، أخذت هذه السوق تغزو تدريجاً فرعاً بعد آخر من فروع الساع فأحدثت زيادة فى سرعة حركة البيع ؛ واتخذت من المشاهدة بالعين وسيلة لإغراء المشتري . وإذا كان اليوم المخصص للسوق قد ظل

بأقيا فى الربف ، فإنه فى المدينة التجارية كان كل يوم يوم سوق ، ولم تصبح عملية البيع والشراء مجرد عملية اتجار فى نقل السلع بين المنتج والمستهلك ، بل أصبحت أحد الشواغل الرئيسية التى تعنى بها كل الطبقات ، « فالتسوق » كان يقوم على أساس الاحتياجات المنزلية ، وأما « تفقد الحوانيت » فكان شاغلا أقل ضرورة وأكثر اتساما باللهو ، فتفقد الحوانيت كان زائرا بالإثارة ، إذ كان يهين فرصة خاصة لربة المنزل لكى تزين وتخرج لتعرض شخصها ذاته .

ومن الواضح أن « ديفو » كان لا يزال منزعا من هذه العادة عندما قال : « لقد سمعت أن بعض السيدات - وهن ممن يتمتعن بسمعة طيبة - ركن مركباتهن وقضين طول ما بعد الظهر بأكله فى شارع لدجيت أو كوفت جاردن ، لا لغرض سوى تسلية أنفسهن بالذهاب من متجر أقمشة إلى آخر لمشاهدة ما فيها من ألوان الحرير الفاخرة ، والثروة والتفكه مع أصحاب المتاجر دون أن تكون لديهن أقل مناسبة ولا أدنى نية لشراء أى شئ » .

وعندما استقر وضع السوق الدائمة أخذت تختفى باطراد شخصية المنتج والمستهلك ، وقد كان الوسيط هو الذى كوّن لنفسه شهرة بسبق الميول الفطرية للمشتري ، أو معالجة مطالب ذوقه وميوله ببراعة . ولتفادى التخبط فى الظلام تولت التحكم فى السوق راعية ومشتري جديدة هى « صاحبة السيادة الموضوعة » . ولا بد لى من أن أعود إلى الاستشهاد بعبارات ديفو الفائقة القيمة ، فهو يقول : « كل خياط يبتكر « موضات » جديدة ، وتاجر الأقمشة يدرس نماذج جديدة يقوم النساجون بنسجها فى أشكال جميلة بهيجة ، ويزود حانوته بكيات متعددة الأنواع ، تستميل كل الأهواء . وصانع المركبات يستنبط أنواعا جديدة من وسائل الانتقال على هيئة الكراسى والعربات ذات الأربع العجلات وذات

العجلتين . . الخ وكل ذلك لإثارة نزوات الطبقة الراقية وغرورها؛ الجامح ويفعل أرباب صناعة الأثاث مثل ذلك بالأثاث إلى أن يستدرجوا السيدات المرحات إلى التطرف في الحماية إلى حد يحتم عليهن تجديد أثاث منازلهن سنويا ، فكان كل شيء مضى عليه أكثر من عام يجب أن يسمى قديماً ، وكان السماح بأن يرى شخص له أية مكانة أثاثين الأثني أكثر من مرتين يعتبر أمراً مزريراً خليقاً بالعامية .

فالمال كانت له السيادة ، ولم تكن تقاليد السوق مقصورة على الحوانيت ، ومرة أخرى نجد أن الفيكونت دافينال — الذي أورد في كتابه عن تاريخ الممتلكات أسانيد بالغة الأهمية عن السلع والأسعار— قد أجاد الإعراب عن حقيقة الأمر حين قال : « لقد حدث فيما مضى ، أن المال كان يحكم فرنسا ، وذلك في ظل النظام القديم ، منذ العصور الوسطى إلى عهد الثورة ؛ عندما لم يكن للقوة نفوذ كبير ، وعندما لم يكن للرأى العام من الاعتبار سوى القليل . فكل شيء تقريباً كان يتسنى شراؤه : النفوذ والألقاب ، والمناصب المدنية والعسكرية ، وذات مرتبة النبلاء الذين كانت ألقابهم لا تنفصل عن الأرض التي كانوا يعتمدون عليها . وكان لا بد للمرء من أن يكون غنيا ليصبح له شأن ، ولو حدث أن حظوة لدى أمير رفعت أحيانا من مكانة رجل فقير ، فقد كان من شأنها أن تجعله غنيا في الوقت عينه ، نظرا إلى أن الثروات كانت النتيجة الطبيعية للنفوذ » .

وشئون الحياة ، حتى شؤون الحياة الأرستقراطية ، كان يعبر عنها في يسر بالغ بأساليب التجارة والمال . ولتلق بالنا إلى التعبير المجازي الوارد في مطلع عظة خلقية من القرن السادس عشر عن الجارين وراء مصالحهم في هذه « البورصة » أو سوق التعامل في الشؤون البشرية التي قوامها بأسرها (إذا جاز القول) السلع والشراء والبيع ، من الملائم

جددا أن توجد كل ألوان الحالات والحرف . . . وكانت تفرض غرامة قدرها عشرة جنيهات على من يتخلف عن الحضور ومعه دائماً المال والسلع للمحافظة على هذه السوق الدنيوية . ولقد كانت الحياة على هذا المثال ، فكان الفرد يحصل على المال بوسيلة أو بأخرى ، عن طريق التجارة أو السرقة ، أو الرشوة ، أو المشروعات المالية . وكانت ضروب « السلب والجشع والإنفاق » تجمل الحياة « أمراً وضيعاً أعدده الصانع أو الطاهى أو خادم الخيل » . إلا أن منظومة وردزورث Wordsworth لقائمة اتهام محكمة الإيجاز .

وفى مدن العواصم الكبرى ، التى كانت من الضخامة بحيث كان لا يتسنى للناس معرفة جيرانهم ، سادت معايير السوق بوجه عام ، فكان الناس يحاولون عن طريق المظهر الذى يبدون به أمام غيرهم ، أن يتركوا أثراً عميقاً فى النفوس عن مكانتهم فى الحياة ، وعن ذوقهم ، وعما هم عليه من الرخاء . وكان كل فرد يعنى بمظهره الخارجى ، وكذلك كل طبقة ، حتى يمكن القول إن « الموضة » كانت الزى الرسمى للعصر ، وإن كل ميسورى الحال كانوا يرتدون ذلك الزى الرسمى فى المنزل أوفى الشارع ، ملتزمين عين النظام الدقيق الذى كان الجندى يلتزمه فى أثناء سيره فى مواكب العرض العسكرى . وكانت البندقية هى التى أمسكت زمام القيادة فى فرض « موضات » الملابس والزينة بفضل ما كان لغاياتها من سحر نسجت حوله كثير من القصص ، ثم تولت ياريس القيام بهذه المهمة فى القرن السابع عشر ، وبعد ذلك الحين كانت كل عاصمة قومية تتخذ نموذجاً لباقي بلادها . ومن وجهة نظر الوسطاء والمستوردين ، كان بعض ما يفيدهونه من العاصمة اقتصادياً هو الخط من قدر السلع المحلية — وكانت تتباين فى نماذجها وألوانها ومادتها ونسجها وزخرفتها بحجارة للتقاليد المحلية — وترويج السلع التى كانت

تستعمل في العاصمة . ولقد كان من شأن الأساليب التجارية البارعة أنها قوضت أركان الأسس الرصينة التي كانت تقوم عليها الصناعة ، بقدر ما قضت على ما كان للصانع والمستهلك من ميول ونزعات فطرية تقليدية :

وكانت بعض البوادر التي تنم عن هذه الحالة قد ظهرت بوضوح في القرن السادس عشر ، فقد عني « ستو » بالرد على اتهامات أولئك الناس الذين يحملون لندن مسئولية الخسارة والتدهور اللذين حلا بكثير من المدن القديمة (أو بمعظمها) ، والمدن المتمتعة بحقوق البلديات والأسواق في داخل هذه المملكة . . . وأما فيما يتعلق بتجار التجزئة وأصحاب الصناعة اليدوية ، فإنه لا وجه للعجب إذا هجروا مدنها الريفية ولجأوا إلى لندن ، إذ أنها لا تشتمل على البلاط وحده ، وقد أصبح في الوقت الحاضر أعظم بكثير وأشد بهاء مما كان عليه في الأزمان السابقة . . بل إنه لوجود البلاط هناك ، يسارع أصحاب المكانة في جميع المقاطعات بالهجرة إلى المدينة والتجمع فيها ليستمتع شبابهم بالمشاهدة وليعرضوا مظاهر الترف والخيلاء ، ولكي يوفر كبارهم على أنفسهم نفقات الضيافة وأجور الخدم . . وإذا كان تنافس « الموضات » قوام حياة التجارة ، فإنه كان مسئولاً أيضاً إلى حد كبير عن موت الصناعات المألوفة في المدن الريفية ، وقد اضطرت في النهاية إلى الإنتاج لحساب السوق البعيدة المجهولة وإلا فقدت صناعاتها كلية . وقد كانت لهذا نتيجة يمكن تبين أثرها إلى يومنا الحاضر في نظامنا الذي يقوم على أساس المناطق فيما يتعلق بالإنتاج والتوزيع .

وفي هذا النظام الاقتصادي ، أصبح ما في العاصمة الباروكية من تركيز مميزة خاصة ، وإن كان هذا التركيز ينطوي على تكبد خسائر باهظة التكاليف من جراء عمليات النقل ، إذ يقول ديفو : « إن ضخامة مدينة لندن تزيد من التجارة الداخلية إلى حد بالغ جدا ، إذ أنه لما كان

بحى الأعمال والتجارة فيها هو مركز تجارتنا ، فإن كل المصنوعات تجلب إليه ومن ثم توزع ثانية فى جميع أنحاء البلاد : : : » :

ويتساءل ديفو فى موضع آخر : « وكم من ألوف ، بل أستطيع أن أقول ، كم من مئات الألوف من الناس والحيول تستخدم فى نقل وإعادة نقل منتجات إنجلترا والمنتجات المستوردة من البلاد الأجنبية إلى لندن ومنها ، وكم من هؤلاء يكون مصيرهم التعطل والاحتياج إلى عمل . . . لو أن هذه المدينة العظيمة كانت مقسمة إلى خمس عشرة مدينة : : : وكانت هذه المدن واقعة فى مثل هذا العدد من الأماكن المختلفة البعيدة بعضها عن بعض ، وكانت نواحي الريف الممتدة فى نطاق عشرين أو ثلاثين ميلا حولها ، كافية لها وقادرة على تزويدها بحاجاتها ، وكان يتسنى لكل ميناء أن يقوم باستيراد سلعه الخاصة به من الخارج : » :

وتتضمن الفقرة الأخيرة تفسيراً موجزاً للفارق بين النظام الاقتصادى الحضري فى العصور الوسطى والنظام الاقتصادى الحديد ، وليس فى الاستطاعة تقديم ما هو أفضل من ذلك : بيد أنه من حيث قوى النشاط الاجتماعى والحياة الثقافية ، فإن ما اعتبره ديفو مدعاة للثناء كان فى الواقع دليل اتهام يقضى بالإدانة : .

وكان اتساع نطاق السوق من أكبر الخصائص المميزة للنظام التجارى ، فهو وثيق الاتصال بجميع نواحي الخطة القائمة على سد الحاجات عن طريق غير مباشر ، بدلا من سدها عن طريق مباشر ، وعلى إحلال السلع التى تشتري بالمال مكان تجارب الحياة . وعند حلول القرن الثامن عشر ، كان ما فى مدن العصور الوسطى من أسواق عامة ودور للإنتاج فى سبيل التحول إلى دور متخصصة دائبة العمل بصفة مستمرة : وحتى فى ذلك التاريخ المبكر ، فى عهد لويس الخامس عشر ، أنشأ مصرفى يدعى كروم (Kromm) متجراً كبيراً يعمل فيه نحو مائتين أو ثلاثمائة موظف :

وفي سنة ١٨٤٤ فتح في باريس متجر كبير حديث كان يدعى « مدينة فرنسا » (Ville de France) وكانت هيئة مستخدميه تتألف من مائة وخمسين موظفاً .

وإذا كان في الاستطاعة أن تقاس حيوية منشأة من المنشآت بمظهر مبناها ، فإن المتجر الكبير كان من أعظم المنشآت حيوية في هذا النظام التجاري ، وقد كان من أول المباني الكبيرة التي استخدمت فيها الأعمدة الحديدية بدلاً من الجدران الحجرية متجر ا . ت . ستوارت في نيويورك . وإذا كان التصميم الذي وضعه شينكل (Schinkel) في ثلاثينيات القرن التاسع عشر لمتجر كبير في برلين لم ينفذ ، فإنه كان يفضل بمراحل التصميم المحافظ المتكلف الذي وضعه ميسل (Messle) لمتجر فيرثايم (Wertheim) في برلين ولقي من الإطراب أكثر مما يستحقه ، وأخيراً فإن من أعظم ما أقيم في عصرنا من المباني ذات الفائدة العملية ، ويعتبر الآن تحولاً جوهرياً في التصميم ، كان المبنى الذي صممه سليفان (Sullivan) وأقيم بمدينة شيكاغو وكان يعرف بمبنى شلزينجر وماير (Schlesinger and Meyer) (ويعرف الآن بمبنى كارسون وبيري وسكوت وشركاهم) .

والمتجر الكبير ينشر أمام المشتري أكبر عدد ممكن من السلع تحت سقف واحد ويعرض عليه أنواعاً متعددة مما يغريه بالشراء ، ويحكم حوله الشباك لاقتناصه ، وعلى ذلك فإنه أصبح في الواقع ساحة سوق متعددة الطوابق ، بل أكثر من ذلك فإنه كان بمثابة معرض عالمي للفن والصناعة ، كل ما هو معروض فيه مطروح للبيع .

بيد أنه ليس ثمة ما يدعو إلى العجب من أن الأشكال المعمارية الرئيسية التي أوجدتها المدينة التجارية كانت قائمة على أساس وحدات الاتساع المجردة ، أي القدم المسطحة والتقدم المكعبة ، فإنه بدون القيام بتعديل جوهري في تكوين المباني ، كان يمكن تحويل الفندق ، والعمارة السكنية ، والمتجر

الكبير ، والمبنى المخصص للمكاتب ، بحيث يحل أى واحد منها مكان الآخر ،
 وحينما كان يتبين أن فى أرباح المضاربة من وراء بيع المباني ما يكفى من
 عوامل الإغراء ، كان اعتبار التحول يحل مكانه فى النهاية لاعتبار
 الاستبدال ، ولم يكن أى جزء فى المبنى يوضع تصميمه على أساس النظر
 إلى استخدامه زمنياً طويلاً ، بل على أساس النظر إلى هدمه لكى يقام مكانه
 مبنى أكثر ارتفاعاً وأجزل ربحاً فى خلال جيل واحد ، بل حتى فى زمن
 أقصر من ذلك فى بعض الأحيان . وإن الرأسمالية ، من حيث تأثيرها على
 المدن ، لأشبه شئاً بذلك الخلل الذى يطرأ على أعضاء البدن ويعرف فى
 الطب بالمعدة التى تهضم نفسها .

ولقد أوجد النشاط التجارى فى القرن التاسع عشر طرازاً واحداً لم
 يحقق المبدأ الرئيسى لذلك النشاط ، وهو القابلية للتحويل وازدياد القيمة
 ازدياداً مستمراً فى مجال المضاربة ، وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة من أن
 هذا الطراز باء بالفشل ، وبطل منذ زمن طويل العمل على محاكاته
 أو تحسينه ، وكان عبارة عن ممر تجارى يتألف من بوائك مسقوفة بالزجاج ،
 وقد كان محاولة لإيجاد بنية جديدة ينتفع فيه بما هيأته فنون الصناعة الحديثة
 من ثمار جديدة فى مجال الإطارات الحديدية والجدران الزجاجية : وفى
 أوائل القرن التاسع عشر أنشئت نماذج من هذا الطراز من الممرات التجارية
 فى كل مدينة تجارية ، ابتداء مما أقيم منها فى نابولى وجنوة إلى ممر بيرلنجتون
 (Burlington Arcade) الذى شيد فى لندن فى سنة ١٨١٩ . ويعد ممر بروكسل
 التجارى من أطول ما أقيم من هذا النوع من الممرات المولفة من بوائك
 مسقوفة بالزجاج ، أما أفخمها جميعاً فهو ذلك الممر العظيم الذى أنشئ فى
 ميلان على هيئة الصليب ، وهو مجمع رحب يشهد فيه الزحام لما فيه من
 حوانيت ومقاه ومطاعم : ولقد كان لهذه المنشآت الجديدة ميزة خاصة ،
 وهى إبعاد حركة تقدم المتاجر عن الشوارع المزدهرة الزاخرة بأسباب الإزعاج
 من جراء الضوضاء وتدفق العربات ، فهى مثال للتخطيط الوظيفى الذى يدعو

إلى الإعجاب . وفكرة إقامة ممر من هذا الطراز لم يتقدم بها فقط السير جيمس سيلك بكنجهام (Sir James Silk Buckingham) - صاحب مشروع إنشاء مدينة نموذجية من طراز عصر الملكة فكتوريا - بل تقدم بها أيضاً لينزر هوارد في التخطيط الأول الذى وضعه للمدينة الحدائق ، حيث كان يريد أن يجعل منطقة المتاجر بأسرها مسقوفة بالزجاج ، ولقد قام فعلاً واضع تصميم « مدينة نموذجية » - مدينة بولمان (Pullman) بولاية إلينوى - بإنشاء مثل هذا الممر التجارى . ومن الغريب أن ممرا كهذا قد بنى حتى في مدينة هيتشين (Hitchin) الريفية الصغيرة على مقربة من ليتشورت (Letchworth) ، وهى أول مدينة حدائق أنشأها هوارد .

وعلى الرغم من أن أغلب هذه الممرات التجارية ما زالت قائمة تنعم بالازدهار ، فإن محاكاتها لم تنتشر على نطاق واسع ، أو على الأصح فإنه إزاء إنشاء مراكز تجارية منافية للروح الحضرية من أجل استقبال وسائل النقل الآلى ، وإزاء ذلك فقط تيسر لهذه الفكرة أن تعود إلى الظهور فى شكل معدل . وقد كانت نقطة الضعف الحقيقية فى الممر التجارى ذى البوائك المسقوفة بالزجاج ، من وجهة نظر العرف التجارى ، هى ملاءمته النامة لوظيفته ، فإنه كان لا يصلح إلا للغرض الأسمى منه ، ومن ثم فإنه كان ، بحكم طبيعته ذاتها ، غير قابل للتحويل ، وكان فى هذا انتهاك لحرمة القاعدة الأولى فى تصميم المدينة التجارية .

٩ - تباين أمستردام التالى

وتقوم مدينة واحدة شاهداً على الروح التجارية فى أحسن صورها قبل أن تتحلل تماماً من الضوابط المألوفة والالتزامات الجماعية التى كانت تسود نموذجها الأول فى العصور الوسطى ، وهذه المدينة هى أمستردام ، وعدم تقليدها على نطاق واسع ينهض دليلاً على أن ما جعل تلك المدينة مثلاً من

أعظم أمثلة تخطيط المدن لم يكن الرأسمالية وحدها ، بل مزيجاً من الأنظمة والشخصيات والفرص التى تجمعت فى وقت لا نظير له . ومع ذلك فإنها لا تزال العمل البارز الوحيد الذى حققته الرأسمالية فى مجال العمران الحضرى ، والذى لا ينافسه إلا مدينة « بات » الأنيقة .

ولإذا اعتبرنا أمستردام أعظم مثال لمدينة حققت الانتقال من نظام الاقتصاد المغلق إلى نظام التنافس التجارى دون أن تفقد شيئاً من لياقتها ، فإن هذا لا يعنى الخط من قدر القوة الحيوية لبعض منافسات أمستردام مثل ديلفت (Delft) وهارلم (Haarlem) ، بل إنه باتخاذنا أصعب الأمثلة ، نريد أن نبين بالأحرى أنه برغم التوسع التجارى على أسرع وجه ، وازدياد عدد السكان على أسرع منوال ، لم يكن النمو العادى لمدينة ما بعد العصور الوسطى ، يستتبع إقامة عقبات لا يستطيع أن يتغلب عليها تخطيط منظم . وذلك أن أمستردام طوال الفترة الرئيسية لتوسعها ، لم تفقد شيئاً من وحدتها . وعلى الرغم من أن الحى الذى يرجع فيها إلى العصور الوسطى ترك نهبا للاضمحلال ، فإن المدينة فى مجموعها لم تتدهور فيما خلا فترة وجيزة فى القرن التاسع عشر ، عندما تمخض الجشع التجارى والذوق الفاسد عن إنشاء أحياء كانت - بما اتسمت به من كآبة وعجز عن الوفاء بالحاجات البشرية - تنافس أحياء أكثر المدن الصناعية مطابقة للنمط السائد فى القرن التاسع عشر .

وقد كان التقدم التقنى الذى أحرزته المدينة الهولندية يقوم على أساس التحكم فى الماء على وجه يدعو إلى الإعجاب ، وذلك من أجل تسخيرها فى المواصلات والنقل وكذلك فى تشكيل وجه الأرض ، فننذرن طويلاً قبل إتقان صنع الأجهزة الميكانيكية لحفر الأرض ونقل التراب ، كان الهولنديون قد استطاعوا عن طريق دأبهم على العمل اليدوى أن يقيموا الكثير من مدنهم فوق رواب أعلى من مستوى سطح الماء ، كما أن استخدام المجهود

الجماعى عينه مكثهم من وقاية البلاد من غائلة الفيضان : ويروى جيرالد بيرك (Gerald Burke) أن التحكم فى البحر وفى المياه الداخلية بدأ بصورة مصغرة منذ عهد يرجع إلى القرن الثامن ، وعلى الرغم من أن الهولنديين كانوا فى حاجة إلى معاونة طاحونة الهواء لحل مشكلة التحكم فى الماء فى بلادهم ، حيث يقع الكثير من أجزائها تحت مستوى سطح الماء ، فإنه عند حلول القرن الحادى عشر ، أى حتى قبل إدخال هذه الآلة الضاخة ، كان قد أمكن تحسين الوسائل التقنية للصرف وإقامة سدود الماء ، وكانت مساحة كبيرة من الأرض قد استصلحت .

ولما كان هذا العمل يحتاج منذ البداية إلى إدارة تعاونية سواء لبناء السدود أو صيانتها ، فإن هذه الحاجة قد أفضت إلى إنشاء « هيئات إمساك الماء » (Water Catchment Boards) منذ القرن الثالث عشر - وهى هيئات ذات سلطات مستقلة ما زالت قائمة بعملها إلى اليوم . ولما كان مستوى سطح الماء قريباً جداً من سطح الأرض ، فقد كان لابد من أن تبنى منازل المدن الهولندية على ركائز ، وحالت صعوبة إقامة هذه الأساسات دون اتساع المدن الهولندية على غير هدى وفقاً لمشئته مالك الأرض ، فكانت المدينة الآخذة فى النمو تتسع قسماً قسماً وتزود بالخدمات العامة تحت إشراف البلدية وتوجيهها . وفى نطاق هذا النظام القائم على العمل الجماعى والتقييد المنظم ، كانت القوى الرأسمالية الدينامية تعمل ، رغم أنفها تقريباً ، فى سبيل غاية عامة : ولهذا السبب فإنه يمكن اتخاذ أمستردام مثلاً رائعاً لبيان قيمة نظام اقتصادى مختلط ، تقوم فيه المشروعات العامة والخاصة بتكاملة بعضها بعضاً .

وقد بدأ وجود أمستردام على هيئة مجتمع عند إقامة حاجز أو سد على نهر أمستل (Amstel) الصغير : وكانت النواة الأصلية للمدينة تقع داخل هلال القناة التى كانت تحيط بالمدينة القديمة ، وقد بقيت هذه المدينة

بلا أسوار حتى سنة ١٤٨٢ : بيد أنه في المدن الهولندية ، كان حاجز المياه يقوم في الواقع مقام السور في الحث على التماسك والتعاون في بذل الجهود : وعندما تحولت التجارة من بحر البلطيق إلى بحر الشمال ، تبعاً لهجرة شمع الرنجة التي لا يعرف لها تعليل ، فإن أمستردام — وكان يمكن الوصول إليها عن طريق مائي طويل مأمون ؛ إذ أنه لم يكن معرضاً للعواصف ولا للقراصنة — أخذت تتقدم بوصفها ميناء لتبادل نقل البضاعة بين السفن : ومن ثم فإنه عندما شل الإسبان حركة انتورب في القرن السادس عشر ، أصبحت السوق المالية (البورصة) في أمستردام مركز التعامل المالي : ويبدو أنه إلى نهاية ذلك القرن ، كان الصراع مع إسبانيا يحول بانتظام دون نمو أمستردام ، ولكن حوالى آخر ذلك القرن ، وقبل خروج الاسبان من الميدان بيجل كامل ، وجهت أمستردام كفاحها الباسل في ميدان التجارة نحو تقدمها هي ذاتها من الناحية الحضرية :

ومن الجلى أن أمستردام لم تكن لتخرج بلا نتيجة من استيعابها كل الدروس التجارية التي كان في وسع الإيطاليين تلقيها لغيرهم ؛ وعلى ما تحدثنا به فيوليت باربور (Violet Barbour) كان يمكن الاطمئنان عادة إلى أن السلع المرسلة إلى أمستردام سوف تباع سريعاً ويسدد ثمنها دون تأخير ، وتهيئ مجالاً واسعاً من فرص الاختيار لاستثمار حصيلتها . وهنا أيضاً كانت وسائل التخزين موفرة ، والتجار الذين كانوا يريدون تخزين بضاعتهم إلى أن يحصلوا على أثمان أفضل ، كان يتسنى لهم اقتراض المال بضمان إيصال مستودع التخزين . وقد بلغ من حسن إدارة المال أن المستثمرين في أمستردام كانوا يقنعون بقبول عائد يقتصر على اثنين في المائة من رأس المال ، بدلا من الحصول على ما يبلغ أضعاف ذلك القدر عدة مرات في أسواق مالية أخرى كان يحتمل أن يضع فيها رأس المال هباء . ولنتق بالنا إلى النتيجة : أنشئت غرفة للتأمين في سنة ١٦٠٢ ، وبورصة جديدة للأوراق المالية سنة ١٦٠٨ ، وبنك للتسليف في سنة ١٦١٤ ،

وتضاعف عدد السكان إلى حوالى أربعة أمثال ما كان عليه ، فيما بين سنة ١٥٦٧ حين كان يبلغ نحو ٣٠,٠٠٠ وسنة ١٦٣٠ حينما بلغ حوالى ١١٥,٠٠٠ . وتوسيع المدينة الذى لم يكن منه بد ، قد هيا الفرصة لنظام جديد فى التخطيط ، على حين أن رخاء التجار أصحاب السلطان وفر الأموال اللازمة للإنشاء . وحتى الحرب لم تكن عقبة فى سبيل هذا النمو ، إذ أن أمستردام أصبحت السوق الرئيسية للحبوب والمواد اللازمة لتكوين السفن والذخائر ، وهى جميعاً عصب الحرب ، بل إن الرأسماليين من أهلها كانوا يتجرون مع العدو دون قيد ، بحيث إنه أيا كان الخاسر فى ساحة القتال ، فإن الهولنديين كان مآلهم الربح فى سوق التعامل المالى .

وكان تفوق التخطيط الحديد يرجع مباشرة إلى قانون المباني الصادر فى سنة ١٥٦٥ ، وقد بلغ من وفاء نتائجه بالغرض أنه ظل معمولاً به إلى أوائل القرن التاسع عشر ، حينما أفضى التفاوض عنه ، فيما يحتمل ، إلى بعض ما يوجد فى أمستردام من أشد المظاهر كآبة . وقد كان من بين ما اقتضاه هذا القانون أنه يتعين الحصول على موافقة البلدية على ركائز الأساسات قبل الشروع فى البناء ، وأن كل قطعة أرض يجب أن يكون لها مرحاضها الخاص ، وأن الشوارع وطرق السير على الأقدام التى تتولى البلدية إنشاءها ، كان يتعين على أصحاب قطع الأرض أن يقوموا بدفع نفقاتها تبعاً لمقدار عرض الواجهة . وقد كان فى هذا ما يعزز الشروط الصحية التى صدر بها قانون فى سنة ١٥٣٣ حىال فرط ازدحام المساكن بالأسر العديدة ، واقتضت وضع أنابيب الصرف والمجارى بحيث يمكن التفثيش عليها ، وبعبارة أخرى ، فإن هذا التخطيط لم يكن تقدماً سطحياً ، بل كان دليلاً قاطعاً على عناية أوسع مدى بشئون الصحة والحياة الاجتماعية :

- ولقد بدأ تنفيذ التخطيط الحديد فى سنة ١٥٨٥ بإنشاء قناة هيرنجرخت (Heerengracht) على موقع الحصون التى أزيلت فى الناحية الشمالية ،

ولما كانت هذه القناة تقوم في آن واحد بمهمة النقل ومهمة المكان الفضاء ، فقد أوجدت أساساً جديداً للأبعاد في مثل هذا التخطيط ، إذ كان عرضها يبلغ ثمانين قدماً . ولقد اتسعت هذه البداية على يد هندريكجي ستيتس (Hendrikje Staets) في « مشروع القنوات الثلاث » ، وهو مشروع وافقت عليه البلدية في سنة ١٦٠٧ ، ولم تكن القناة الأولى ولا القناة الثانية ، قناة كايزرجرخت (Keisergracht) (١٥٩٣) ، هي التي أوجدت شبكة من القنوات على هيئة بيت العنكبوت وهو ما تم إنشاؤه في النهاية ، بيد أنه لعله في خلال إنشاء هاتين القناتين كان التصميم الهندسي لحصن أمستردام المعروف باسم كووردن (Coeworden) قد ترك أثره لدى واضعي التخطيط . ففي أثناء تقدم السير في العمل ، طرأت الفكرة من تلقاء ذاتها ، بأن ينشئوا شبكة من القنوات الموحدة المركز على أن تتقاطع معها قنوات وشوارع تتجه نحو المركز القديم . وعلى الرغم من أنه في وقت ما قدم مشروع لإنشاء حديقة عامة كان من شأنه الإخلال بهذا الترتيب المتماثل واعتراض شبكة حركة النقل ، فإنه أدرك في النهاية كنه هذا التخطيط على حقيقته ، وهو أنه من حيث الوظيفة والشكل الهندسي يؤلف وحدة واحدة ، وبالتعبير عن هذه الوحدة اتخذت المدينة الداخلية بأكملها شكلها النهائي .

والرجل المسئول إلى حد كبير عن تنفيذ مشروع القنوات الثلاث هو دانييل ستولبيرت (Daniel Stolpaert) ، وكان مهندس مساحة وعمارة (١٦١٥ - ١٦٧٦) ، نقل المشروع من شكل على الورق إلى حقيقة اجتماعية متعددة الجوانب ، فإنه هو الذي تولى توزيع الواجهات الواقعة على طوال القنوات الثلاث العظمى وتخصيصها لدور الأعمال التجارية الكبيرة ولمنازل التجار في المدينة ، وهي مبان كانت عندئذ على مستوى واحد من حيث الحجم والرواء ، كما أنه هو الذي خصص لمساكن الطبقة الوسطى والصناع وحدات المباني الواقعة بين القنوات التي كانت تؤلف أنصاف

أقطار الدائرة ومحيطها : وقد احتفظ كذلك لمستودعات البضائع بالواجهات المطلة على الميناء ذاته وعلى طول قناة برورزجرخت (Browersgracht) ، على حين أن المنطقة الجديدة الواقعة إلى الجنوب ، وهي منطقة جوردان (Jordaan) ، خصصت للصناعة ولبعض المؤسسات الخيرية . وإن ما يميز به هذا المشروع عما تم في القرن الحالى في المدن الأمريكية من تحديد المناطق بالجملة تحديداً سطحياً خطير العواقب ، هو أن كلا من التخطيط والبناء كان جزءاً من عملية واحدة متوافقة :

ولكن فلنلاحظ أن تنفيذ المشروع كان عملاً نهضت به الجهود الخاصة ، فقد تولى أمره أفراد وجماعات صغيرة من أجل الربح ، ولو أنه في بعض الأحيان تولت هيئات دينية إقامة مساكن لكبار السن والمعوزين ، أو منظمات تجارية كبيرة كانت تنشئ توفير مساكن كافية لموظفيها ، وأحياناً ، ولو نادراً ، كانت تتولى العمل جمعيات للإسكان ؛ ولقد كان المضي على هذا النحو المستمر في تنفيذ التخطيط والإنشاء هو الذى صان نمو أمستردام السريع من أن تكون نتيجته كارثة على حصر الإسكان ونظام المدينة مثلما كانت نتيجة النمو السريع لمدينة لندن ، وليست أقل النواحي شأناً في هذا التخطيط - وهو ما يربطه بمشروع « لانغان » لمدينة واشنطن - القيام بحجز المواقع في الألوان المناسب للكائنات وساحات الأسواق المحلية ، ولو أن هذا المثال وحده كان قد اتبع عند وضع مشروعات التخطيط لمدن أخرى فيما بعد ، لكان من شأن ذلك الاقتصاد في النفقات وتحسين طابع المدن الجديدة ، ومناطق التوسع الجديدة في المدن :

ولقد كان مشروع القنوات الثلاث آية في الرحابة والتجمع والنظام الواضح الدلالة : وقد استوعب هذا المشروع كل ما كان سديداً في التخطيط الباروكي ، مع الاقتصاد على إدخال ما يكفي من التنوع في الوحدات

المنفردة ، بالإضافة إلى الزخرفة الوفيرة الناشئة عن منظر الأشجار التي تحف بالقنوات من الجانبين ، وذلك لإزالة الأثر الكريه لطابع التنظيم العسكري الذى اقتضته النظم والقواعد الباروكية : ومن شأن الفواصل المتوالية فى اتجاهات التخطيط القائم على هيئة بيت العنكبوت ، من شأنها أن تحول دون أن تبدو المناظر البعيدة ، التى تنفرج عنها ، خالية موجبة للانتقباض : وكان عرض القنوات ذاتها يتراوح بين ثمانين وثمان مائة قدم ، ويفصلها عن المباني التى تحف بها ، طرق مرصوفة للتنزه ، غرس فيها الأشجار . وكانت تلك المباني تقوم على قطع من الأرض يبلغ متوسط عرضها ستاً وعشرين قدماً ، ومن ثم هيات مجالا لظهور الواجهة الفسيحة ذات ثلاث النوافذ ، أى التى فتحاتها أكبر حجماً بكثير من حجم الحائط مما كان يتيح لضوء الشمس أن يتغلغل إلى أعماق المنزل . وكانت توجد بين ظهور المنازل مسافة تبلغ مائة وستين قدماً فى حدها الأدنى ، ولذلك فإنه كان يوجد فى كل قطعة أرض حيز لحديقة تبلغ مساحتها حوالى ست وعشرين قدماً فى ثمانين قدماً ، وهى مساحة وافية لكل من عشاق الحدائق ، ومن ينشدون الراحة فى الهواء الطلق ، وكان الحد الأقصى لما تشغله المباني من مساحة الأرض ستة وخمسين فى المائة . وقد كان من أثر هذا التخطيط أنه أضفى على أكثر المواقع تغلغلا فى داخل المدينة ، ما الضواحي من ألوان البهجة بأماكنها الخلوية وحدائقها وأشجارها :

فهنا فى الأحياء الجديدة فى أمستردام تمثلت الذروة الجبالية التى توجت جهوداً جماعية بذلت على مدى خمسة قرون فى التحكم فى الماء وتكوين الأرض ، فإن النظام قد امتد إلى المدينة من المناطق التى جففت واستصلحت ، ولم يسبق أن دخل حظرة تخطيط المدن فى أى مكان وعلى ذات النطاق ، ما يماثل أمستردام فى توفيق تخطيطها توفيقاً شاملاً وعلى نسق منتظم ، بل إن الهولنديين أنفسهم لم يثابروا طويلاً على اتباع المثال العظيم القائم أمامهم .

ولقد ظل النظام الذى أوجده مشروع القنوات الثلاث ، على مدى ثلاثة قرون ، متفوقاً على أى مشروع آخر للتخطيط الحضرى فى جملته ، ولم تهدده المخاطر إلا فى الوقت الحاضر بسبب شدة احتفال الناس بالسيارة إلى حد أنهم لا يترددون فى التضحية بما فى حياة المدينة من وجوه النفع والبهجة لتوفير الوسائل التى تسهل الوصول إلى المدينة والخروج منها ، مع ما ينطوى عليه ذلك من التهام مساحات كبيرة من الأرض - ولو أن تعدد هذه الوسائل فى ذاته ، يقلل السرعة الفعلية لحركة النقل وهى التى تمنشد تلك الوسائل زيادتها . وعلى مثال الشوارع العريضة فى باريس ، انتهى الأمر بالطرق الجميلة ، التى تظللها الأشجار وتمتد على طول جوانب القنوات الكبرى ، إلى أن تصبح أماكن لانتظار السيارات ، وهو منظر يبعث على الكآبة .

ويبحث هذه المشكلة الخاصة بصيانة القلب التاريخى ، قد يستدعى فصلاً قائماً بذاته ، ولا بد لى هنا من أن أقرن إعجابى بنجاح تخطيط أمستردام ، يلفت النظر إلى تلك المنطقة حيث كانت المنافع التجارية ، وليست الأهداف الحضرية ، هى التى تتحكم فى تطور أمستردام ، وبذلك أوجدت سابقة ازدادت سوءاً مع تقدم الرأسمالية . وقد كان ذلك فى منطقة جوردان (Jordaan) إلى الجنوب الغربى من المدينة ، فهنا بدلا من إنشاء حى جديد ، على نفس القواعد التى جرى عليها العمل فى المدينة القديمة ، عمد واضعو التخطيط إلى اتباع تخطيط الحقول القديمة ، وهو تخطيط مختلف ، وشقوا فيه مسالك ضيقة منحرفة الانحياز تتقاطع مع الخطوط الجديدة للنمو فى تلك المنطقة . ولما كان مجلس البلدية لم يضع يده على تلك المنطقة ، فقد تولى جماعة من التجار تعميرها من قبيل المضاربة ، بشق قنوات ضيقة ، وشوارع ضيقة ، فهى لا يبلغ عرضها ثمانين قدماً ، بل نحو ثمانى عشرة

قدماً . وأدهى من ذلك أن مستوى سطح الأرض أكثر انخفاضاً من باقى المدينة ، فإن القائمين بعملية التعمير خفضوا نفقاتها بتفريطهم فى إعداد السطح على نحو ما جرت به العادة :

وفى هذه الأحياء المنحصرة ، وعلى قطع من الأرض تماثلها فى الانحصار ، أنشأوا منازل مزدحمة ، حيث كان يتسنى لأفقر العمال أو للمهاجرين من البروتستانتين الفرنسيين ، ولليهود الإسبانين والبرتغاليين ، أن يجدوا أقل قدر من وسائل السكن . وعلى حين أن أدنى مسافة بين ظهور مساكن التجار كانت تبلغ ١٦٠ قدماً ، فإن كامل عرض وحدة مساكن العمال لم يتجاوز ١٢٠ قدماً . ومع أن معدل كثافة الازدحام فى القدان الواحد من صافى المساحة السكنية كان عادة لا يزيد على خمسة منازل فى المدن الهولندية الصغيرة ، أو عشرين منزلاً على أقصى حد فى المدن الكبيرة ، فإن هذا المعدل فى الأحياء السكنية الجديدة للعمال كان يزيد على ذلك أضعافاً مضاعفة : وتوفير حالة أفضل من ذلك لنزلاء تلك المساكن ، كان يقتضى إما نزول الذين تولوا البناء عن أرباحهم ، وإما تقديم إعانة مالية من قبل البلدية ، أى من قبل الذين تولوا البناء ، بوصفهم مواطنين فى المدينة . والرأسمالية - بحكم تعريفها تقريباً - لم يكن لديها من حل لهذه المشكلة ، بل إنها فى الواقع رفضت التسليم بإمكان وجود أى حل ، حتى على أسس غير رأسمالية ، وذلك إلى أن حل النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وإن مثال أمستردام ليغرينى باستخلاص نتيجتين متناقضتين ، إحداهما هذه النتيجة البالغة الوضوح وهى أن مغامم الرأسمالية كانت مقصورة على من يمارسون أساليبها من التجار والمتاجرين ، والماليين والمستثمرين ، وأنه لم يكن من شأن نظام اقتصادى رأسمالى أن يوفر مساكن حضرية للطبقات

العاملة إلا بموجب أوضاع تعود بربح مجز ؛ وهذا معناه ، عن طريق فرض الازدحام ، والتفتير ، والشح في تدبير الوسائل حتى لتوفير الضوء والهواء ، أى ازدياد سوء الحالة العامة في البيئة الحضرية بأسرها : ومع ذلك فإنه حيثما توافر للسكان دخل كاف كانت تهيأ لهم مساكن صالحة إذا لم يكن الريح هو الدافع الوحيد من وراء القيام بالبناء : وإن ما جعل أحياء مساكن التجار في أمستردام على هذا المستوى الممتاز يرجع إلى مواصلة البلدية يقظتها في وضع التخطيط وفي الإشراف على المشروع بأكمله مستهدفة الصالح العام : وقد كان هذا تراثاً موفقاً من مخلفات النظام الاقتصادي للعصور الوسطى فإن التوجيه الحكومي المسئول الذي يستهدف تحقيق غايات عامة وضعت خطتها بإحكام هو أمر جوهرى لإقامة ولتقدم جميع ألوان المجتمعات الحضرية :

وإن أسوأ مظاهر الرأسمالية أثراً في التطور الحضري لم تتكشف إلا عندما انفردت الرأسمالية بالسيادة ، وظهرت حقيقتها الوحشية العارية مجردة من أى نوع من الثياب التاريخية ، فيما عدا أسماً "رثة مهلهلة" : وعند هذا الحد ، كشف النجاح التجارى عن حقيقة ما كان وما لا يزال عليه أمره حتى الآن إلى حد كبير ، وهو فقر مدقع في الشعور بالواجب العام : والواقع أنه من وجهة نظر نظام اقتصادى آخذ في التوسع ، كانت آمال الرأسمالية في الأرباح - وهى تعتمد على استدرار دخل متواصل - تستدعى الاستمرار في هدم المباني الحضرية القديمة من أجل ما تجنيه من وراء إقامة مباني مكانها تدر إيجاراً يزداد ارتفاعاً على الدوام ، وذلك أن استثمار رءوس أموال كبيرة لآجال طويلة في إقامة مباني من شأن اتساع المساحة المحيطة بها أن تكفل استمرار بقائها ، لم يكن لبروق في عين الرأسمالى المستثمر إذا ما طرح جانباً اعتبارات الدخل المأمون : وفي الأحياء الشديدة الفقر كان

الرأسمالى - فى اقتدائه بمثال سلفه الرومانى الكبير ، كراسوس - يمجى حتى إلى حد العمل على تعجيل الهدم ، وذلك بضنه باستخدام المال اللازم للترميم والتجديد . وفى نظر القرن العشرين ، أصبحت النغمة الجديدة لتطور المدينة ، هى هدم المباني وإقامة غيرها مكانها ، فكان الدور الذى قامت به الرأسمالية فى ذلك هو تصفية الوعاء .

يبد أنه فى خلال القرنين أو القرون الثلاثة التى اختلطت فيها الرأسمالية بأنظمة أقدم منها عهداً وتأثرت بها ، تمخضت ديناميتها عن وضع بعض من أسمى مشروعات تخطيط الأحياء السكنية التى ازدهرت بها فخرأ أية مدينة إلى ذلك الحين . وفى مدن مثل باث ، اتسع هذا النظام الجديد فامتد حتى إلى أدنى أحياء الطبقة المتوسطة : والواقع أن جانباً كبيراً من المباني الأنيقة الجديدة فى القرن الثامن عشر ، فى لندن وباث وأدنبرة ، وفى مدن أقل منها شأنًا ، كانت من المباني التى أنشئت لأغراض استغلالية ، ولو أن بعضاً من أفضلها - مثل مباني شرفة أدلنى (Adelphi Terrace) التى أنشأها آدامز فى لندن ، والمباني التى أنشأها بولفنش (Bullfinch) على شرفة مماثلة فى بوسطن - كانت فى مبدأ الأمر فاشلة من الوجهة التجارية .

ولسوء الحظ أن جميع الوظائف الحضرية الأصلية ، لم يعد لها مكان بارز فى المدينة التجارية ، فإن المنظمات القديمة حشرت فى الفُرَج التى خلفتها مشروعات الأعمال التجارية ، أو أرغمت على اتباع الطرق والأساليب التى فطرت عليها تلك المشروعات ، بتحويل بضاعتها التقليدية إلى مناصد مجردة ، وبالاتفاق فى سبيل الدعاية والإعلان والمظاهر الاستعراضية والانتصارات العددية (من حيث الحضور والتسجيل والتبرعات والدخل) ما كان ينفق أصلاً فى سبيل الأغراض التربوية والثقافية التى تشير إليها هذه النتائج الثانوية على وجه غير شاف : والمصير النهائى

للمدينة التجارية في وقتنا الحاضر ، هو أن تغدو بمثابة ستار خلفي للإعلان ، وهو مصير يرمز إليه على خير ما تم حديثا من تحويل محطات من محطات الطرق الحديدية في نيويورك من منشآت عامتين رائعتين إلى ردهتي عرض لأغراض تجارية ، من شأن ما فيها من تألق زائف أن يجعل ما بين الوضعين القديم والحديد من تناقض يسبغ جلالا يكاد يكون ملكية على المالكين الذين وضعوا أصلا مشروع هاتين المحطتين مدفوعين بقدر من الشعور بالواجب نحو الصالح العام ؟

الفصل الخامس عشر

جنة الوسائل التقنية العتيقة

مدينة فحم الكوك

١ - نشأة مدينة الفحم الكوك

إلى أن أقبل القرن التاسع عشر كان يوجد قدر من التوازن بين وجوه النشاط في داخل المدينة . وعلى الرغم من أنه كانت للعمل والتجارة مكانة هامة على الدوام ، فإن الدين والفن واللهو كانت تقتضى نصيبها كاملا من نشاط ساكن المدينة . بيد أنه منذ القرن السادس عشر ، كان الميل يزداد باطراد نحو تركيز الجهود على ألوان النشاط الاقتصادى ، ونحو اعتبار ما يبذل في سبيل الوظائف الأخرى - على الأقل خارج المنزل - بمثابة مضيعة للوقت أو الجهد . وإذا كانت الرأسمالية قد اتجهت نحو توسيع مدى نطاق ساحة السوق ، وتحويل كل جزء من المدينة إلى سلعة قابلة للتداول ، فإن التغيير من الصناعة البدوية الحضرية المنظمة إلى الإنتاج المصنعى على نطاق واسع ، قد حول المدن الصناعة إلى خلايا داكنة لاتنفك تلهث وتدمم وترجرج وتنفث الدخان لمدة اثنتى عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم ، وأحيانا طوال الليل والنهار دون انقطاع ، والنظام الصارم المعتاد للعمل في المناجم - وكان العمل فيها عقابا مقصوراً على المجرمين - أصبح القاعدة العادية للعامل الصناعى الجديد . وما من مدينة من هذه المدن اكرثت بالقول القديم المأثور : « مداومة العمل تصيب العقل بالكلل » ، فإن مدينة الفحم الكوك تخصصت في إنجاب أصحاب العقول الكليلة .

وينهض دليلاً على إنتاج المكثات الهائل ، أن أكاداس الحبث وأكوام القمامة كانت تبلغ حجم الجبال ، على حين أن المخلوقات البشرية ، التي كملت جهودها لتحقيق تلك الأعمال ، كانت تصاب بالعاهات وتلقى الموت - على وجه يكاد يماثل في سرعته ما كانت تلقاه لو أنها كانت في ساحة قتال . ولقد كان لدى المدينة الصناعية دروس كثيرة تلقنها للناس ، ولكن درسها الرئيسي الذي تلقته الباحث في شؤون المدن هو معرفة ما يجب تفاديه . وبفضل رد الفعل الذي نجم عن أخطاء النظام الصناعي ، استطاع الفنانون والمصلحون في القرن التاسع عشر أن يصلوا في النهاية إلى فكرة أفضل تكويناً عن الحاجات الإنسانية والإمكانات الحضرية . وفي خاتمة المطاف ، نهت العلة الأجسام المضادة اللازمة للتغلب عليها .

وكانت العوامل التي تولدت منها المدينة الجديدة ، هي المنجم والمصنع والطريق الحديدى ، ولكن نجاح هذه العوامل في الحلول مكان كل فكرة تقليدية عن المدينة يرجع إلى أن التضامن بين الطبقات العليا كان في طريقه إلى التصدع بشكل واضح ، فقد أخذ الشعور يتزايد بأن الحاجة لاتدعو إلى وجود البلاط ، وحتى المضاربة الرأسمالية تحولت من التجارة إلى الاستغلال الصناعي ، لتحقيق أقصى ما يمكن من التوسع المالى . وفي كل ناحية حل مكان المبادئ القديمة للتربية الأرستقراطية والثقافة الريفية ، انصراف تام إلى السلطة الصناعية والنجاح المالى ، وهو ما يستخفى أحياناً في زى الديمقراطية .

والحلم الباروكى بالسلطة والترف كانت له على الأقل مظاهر إنسانية ، وغايات بشرية . فألوان المتعة المحسوسة في الصيد ، ومائدة الطعام ، والفراش ، كانت على الدوام تلوح أمام العين بمغرياتها . وأما الفكرة الجديدة عن مصير الإنسان ، على نحو ما صورها طلاب الفائدة العملية ، فإنها لم تفسح إلا مجالاً ضيقاً حتى لأسباب المتعة الحسية ؛ إذ كانت

دعائها مذهبا يقوم على الكد المنتج ، والجشع المضنى ، وإنكار الاحتياجات البدنية ، واتخذ ذلك شكل انتقاص شامل من شأن مسرات الحياة ، على غرار ما كانت تستلزمه حالة الحرب فى أثناء وقوع حصار ، ولقد عمد السادة الجدد للمجتمع إلى الانصراف باحتقار عن الماضى وكل ذخائر التاريخ ، ووضعوا نصب أعينهم بناء مستقبل كان مصيره ، طبقا لنظريتهم الخاصة عن التقدم ، أن يغدو كذلك موجبا للاحتقار ، عندما يصبح أيضا فى عداد الماضى - وأن يغدو كذلك موجبا للنبد والإهدار بلا هوادة .

ونجد أن حالة الهدم والاضطراب ، التى غشيت المدن الكبرى فيما بين سنة ١٨٢٠ وسنة ١٩٠٠ ، تشبه الحالة التى تسود ساحة الحرب ، وكانت هذه الحالة تتناسب مع ما توافر للمدن من معدات وللقوى المستخدمة من قدرة ، وفى جميع النواحي الجديدة المتعلقة بحركة الإنشاء فى المدينة يجب ألا يغيب عن البال أرباب المصارف ورجال الصناعة ومبتكرو الآلات ؛ فقد كانوا مسئولين عن أغلب ما كان صالحا ، وعما كان سيئا بأجمعه تقريبا . وقد أنشأوا - طبقا لتصورهم - مدينة من طراز جديد ، وهى التى أطلق عليها « ديكنز » اسم مدينة الفحم الكوك (Coketown) فى قصته « أوقات عصيبة » (Hard Times) ؛ وقد اتسمت كل مدينة فى العالم الغربى - إلى مدى متفاوت - بطابع الصفات الأصلية المميزة لمدينة الفحم الكوك . وحركة التصنيع ، بوصفها القوة الخلاقة الرئيسية فى القرن التاسع عشر ، تمخض عنها أسوأ ما شهده العالم إلى ذلك الحين من حالات انحطاط البيئة الحضرية ؛ إذ أنه حتى أحياء الطبقات الحاكمة كانت معيبة ومفرطة فى ازدحامها ؟

وكان الأساس السياسى لهذا الطراز الجديد من التجمع الحضرى يتركز على ثلاث دعائم رئيسية وهى : أولا إلغاء النقابات وإشاعة

جو مستديم من عدم الاطمئنان تعيش فيه الطبقات العاملة ، وثانياً : إقامة سوق مفتوحة أمام المنافسة في العمل وفي بيع السلع ، وثالثاً الاحتفاظ ببلاد أجنبية تحت سيطرة الدولة لتكون مورداً للمواد الخام اللازمة للصناعات الجديدة ، وسوقاً مستعدة لامتصاص فائض إنتاج الصناعة المجهزة بالمعدات الميكانيكية . أما الأسس الاقتصادية فكانت تقوم على استغلال مناجم الفحم ، والزيادة الهائلة في إنتاج الحديد ، واستخدام مصدر ثابت للقوة الميكانيكية يمكن الاعتماد عليه - وإن كان على قدر كبير من عدم الكفاية - وهو الآلة البخارية .

وفي واقع الأمر ، كانت هذه الوجوه للتقدم التقني تعتمد من الناحية الاجتماعية على ابتكار أوضاع جديدة للتنظيم والإدارة الجماعيين ؛ فالشركة المساهمة ، والاستثمار المحدود المسؤولية ، وإسناد السلطة الإدارية في الشركات المساهمة إلى أعضاء يندبون من مجالسها مباشرة أمورها ، والرقابة عن طريق الميزانية والحساب الختامي ، هذه الشئون جميعها أساليب فنية تعاونية لا يعزى الفضل في نجاحها إلى عبقرية أى فرد معين أو جماعة من الأفراد . وهذا ينطبق أيضاً على التنظيم الآلى للمصانع ، وهو ما كان سبباً في زيادة الكفاية في الإنتاج زيادة عظيمة ، ولكنه وفقاً لأيدولوجية ذلك العصر ، كان الناس يعتقدون أن أساس هذا النظام هو تلك الذرة البشرية : الفرد . وكانوا يرون أن كل واجب الحكومة هو أن تحرس ممتلكاته ، وتحمى حقوقه ، وتؤمن حريته في الاختيار وحريته فيما يقدم عليه من الأعمال .

وهذا الزعم الخرافي بأن الفرد مطلق من كل قيد ، كان في الواقع بمثابة خلع طابع ديمقراطي على الفكرة الباروكية عن الأمير المطلق التصرف ، فقد أخذ كل رجل مقدماً يحاول الآن أن يكون مطلق التصرف في نطاقه الخاص ، فوجد مستبدون عاطفيون مثل الشعراء

الحبالين ، ومستبدون عمليون مثل رجال الأعمال : ومع ذلك فإنه كانت لآدم سميت نظرية جامعة عن المجتمع الساسى فى مؤلفه « ثروة الأمم » ، ولقد كان سديد الرأى فىما يتعلق بالأساس الاقتصادى للمدينة ، وسلم الإدراك فىما يتعلق بالوظائف الاقتصادية التى لا يعود من ورائها نفع ، ولكن عند التطبيق غلبته الرغبة الجارحة فى زيادة ثروة الأفراد ، فقد كانت هى الكل فى الكل فى مذهب مالثوس (Malthus) (١) الحديد عن الصراع من أجل البقاء .

ولعل أضخم حقيقة فى جميع أوار الانتقال الحضرى كان ما حدث فى شتى أنحاء الأرض من تنقل السكان ، وذلك لأنه اقترنت بهذا الانتقال والاستقرار من جديد حقيقة أخرى جسيمة الشأن ، وهى الارتفاع المدهش معدل زيادة السكان . ولقد كان لهذه الزيادة من الأثر فى بلاد كالروسيا ، متخلفة صناعاتياً والأغلبية الساحقة من سكانها ريفيون ، ومعدل المواليد والوفيات مرتفع ، مثل أثرها فى بلاد متقدمة وصبتها الغالبة التجهيز بالمعدات الميكانيكية والتجرد من الطابع الريفى . ولقد صعب الزيادة العامة فى عدد السكان اجتذاب الفائض منهم إلى المدن ، واتساع هائل فى مساحة المدن الكبرى . فقد سار ازدياد العمران الحضرى بمعدل يتناسب تناسباً يكاد يكون مستمراً مع سير حركة التصنيع ، وفى إنجلترا ولايات نيو إنجلند بأمريكا انتهت الحال بأن أصبح ما يزيد على ثمانين فى المائة من مجموع السكان يعيشون فى مدينة يربو عدد سكانها على خمسة وعشرين ألفاً .

ولقد فاضت سيول المهاجرين ، من البلاد التى كانت تعاني الاضطهاد الساسى والفقر الاقتصادى ، على البلاد التى فتحت أبوابها حديثاً فى أنحاء

(١) كان توماس مالثوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) من رجال الاقتصاد الإنجليز .

الأرض ، وكانت أصلاً تغشاها معسكرات حربية ، ومراكز تجارية ، وبعثات دينية ، ومستعمرات زراعية صغيرة . وقد اتخذت هذه الهجرات ، أو بعبارة أخرى هذا الاستعمار ، مظهرين ، وهما : فتح آفاق جديدة في كل من الزراعة والصناعة ؛ وكان من أثر المظهر الأول ملء المناطق التي لم يكن يشغلها من السكان إلا عدد قليل متناثر بين جنباتها ، وذلك في أمريكا وأفريقيا وأستراليا وسيبيريا وبعدها في منشوريا ، وأما المظهر الثاني فإنه أتى بفائض السكان إلى القرى والمدن الصناعية الجديدة . وفي أغلب الحالات حققت المظهرين موجات متتابعة من المهاجرين .

والهجرة إلى أقاليم فسيحة الأرجاء ، ساعدت بدورها على أن تدخل نظام الزراعة في أوروبا موارد أجزاء من العالم لم تكن قد استثمرت حتى ذلك الحين ، وبخاصة مجموعة كاملة من المحصولات الجديدة الباعثة على النشاط ، الذرة والبطاطس ونبات التبغ ، ذلك العامل الحريف من عوامل الترويج عن النفس والحجامة الاجتماعية . وفضلاً عن ذلك فإن استعمار الأراضي الاستوائية والأراضي الواقعة دون خط الاستواء أضاف محصولاً منشطاً آخر أخذت أوروبا الآن تزود به لأول مرة على نطاق واسع ؛ وهو سكر القصب .

ولقد كانت هذه الزيادة العظيمة في المواد الغذائية هي التي جعلت زيادة عدد السكان أمراً ميسوراً ، ومن ثم فإن الاستعمار الخارجي في مناطق ريفية جديدة ساعد على إيجاد العدد الفائض من الرجال والنساء والأطفال الذين اتجهوا نحو الاستعمار الداخلي للمدن الصناعية والمراكز التجارية الجديدة . فانتسعت القرى حتى غدت مدناً ، وأصبحت المدن حواضر ، وتضاعف عدد المراكز الحضرية ، كما ازداد أيضاً عدد المدن التي يربو عدد سكانها على خمسمائة ألف نسمة . وحدثت تغيرات خارقة للعادة في مقاييس كتل المباني والمساحات التي تشغلها ، وأصبحت تقام مبان

ضخمة بين عشية وضحاها تقريباً . وكان الناس يبنون على عجل فلا يكادون يحدون وقتاً للندم على أخطائهم قبل القيام بهدم منشآتهم الأصلية وإعادة البناء على نفس الغرار من عدم الاكتراث . ولما لم يكن في وسع الوافدين الجدد ، سواء من الأطفال أم المهاجرين ، الانتظار لحين إنشاء مساكن جديدة ، فإنهم كانوا يحشرون فيها كان موجوداً مهما يكن شأنه . وقد كانت تلك الفترة فترة ارتجال حضري هائل تراكت فيها على عجل تدابير وقتية فوق تدابير وقتية .

ولنلق بالنا إلى أن النمو السريع للمدن لم يكن مجرد ظاهرة من ظواهر العالم الجديد ؛ ففى الحقيقة كان معدل نمو المدينة أشد سرعة فى ألمانيا بعد سنة ١٨٧٠ - عندما كانت الثورة على الأساليب التقنية العتيقة فى أوجها هناك - منه فى بلاد حديثة مثل الولايات المتحدة ، وهذا على الرغم من أن الولايات المتحدة كانت إذ ذاك تتلقى سيلاً متواصلاً من المهاجرين . ومع أن القرن التاسع عشر كان أول عهد نافس أوائل العصور الوسطى من حيث استعمار الأرض على نطاق واسع ، وإقامة مراكز استقرار على نطاق واسع ، فإن الآراء التى اتبعت فى تنفيذ هذه المشروعات كانت بدائية إلى حد أبعد بمراحل مما اتبع فى القرن الحادى عشر . ولم تعد القاعدة المتبعة أن تقوم بالاستعمار جماعات منظمة - اللهم إلا فى حالة طوائف صغيرة ذات أهداف مثالية كان أوفرها حظاً من النجاح الواسع طائفة المورمون (Mormons)^(١) - فكان كل فرد يسعى وراء صالحه ، وإذا لم يكن الشيطان فى مؤخرة الصفوف فإنه على الأقل يحتفظ لنفسه بحق بناء المدن .

وقد لاحظت هنا فى المراكز الصناعية الجديدة فرصة للبناء على أسس

(١) إحدى الطوائف المسيحية فى الولايات المتحدة وتعتبر ولاية يوطه (Utah)

أكبر مراكزها .

وطيدة والشروع في بداية جديدة ، وكانت فرصة تماثل تلك التي اقتنصتها الديمقراطية في مجال الحكم السياسي في القرن التاسع عشر . ولقد أسئ استخدام هذه الفرصة في كل مكان تقريباً ؛ ففي عصر تقدم تقني كانت المدينة ، بوصفها وحدة اجتماعية وسياسية ، تقع خارج نطاق دائرة الابتكار . وفيما عدا ما يتعلق بالمرافق ، مثل أنابيب الغاز والمياه والمعدات الصحية التي كثيراً ما تأخر إدخالها ، وكثيراً ما كانت في حالة مزرية وكانت على الدوام سيئة التوزيع ، فلمنه لم يكن في وسع المدينة الصناعية أن تدعى أي لون من التحسينات الهامة تتماز به عن مدينة القرن السابع عشر . والواقع أن أوفر الحواضر ثراء و « تقدماً » كثيراً ما كانت تنكر على نفسها الضروريات الأولية للحياة مثل النور والهواء التي كانت حتى القرى المتأخرة لا تزال تنعم بها . وإلى سنة ١٨٣٨ لم تكن مانشستر ولا برمنجهام تمارس حقها السياسي كمدينة تتمتع بالحقوق البلدية ، فكانت هاتان المدينتان عبارة عن كتل بشرية ومستودعات للآلات وليستا من عوامل التعاون الاجتماعي للهوض بمستوى الحياة :

٢ — التجهيز بالممرات الميكانيكية والنضوب

قبل أن نبحت كيف وجد هذا السيل العظيم من الناس مساكن حضرية ، فلنفحص الفروض والاتجاهات التي أقبل بها أولئك الناس على المهمة الجديدة ، مهمة بناء المدينة .

كانت الفلسفة الرئيسية في الحياة وليدة نوعين من التجارب مختلفين كل الاختلاف ، كان أحدهما عبارة عن المفهوم الدقيق للنظام الرياضي ، وهو مفهوم مستمد من تجدد دراسة حركات الأجرام السماوية ، التي تعتبر أسمى نموذج للحركة الميكانيكية المنتظمة . وأما النوع الآخر فكان عبارة عن تلك العملية الفيسيائية ، عملية التفتت والسحق والتكلس والصهر ،

التي كان الكيميائيون - بمعاونة الوسائل الآلية المتقدمة لدى عمال المناجم في العصور الوسطى - قد حولوها من مجرد عملية آلية إلى جزء من النظام المألوف في نطاق البحث العلمي . وهذا النظام الجديد - وفقاً للشكل الذي صاغه فيه الفلاسفة الجدد - لم يكن فيه مجال للكائنات أو الطوائف الاجتماعية ، ولا لشخصية الإنسان من باب أولى . وليس في نماذج المنظمات ولا الأشكال الجمالية ، ولا في التاريخ أو الأساطير ، ما هو مستمد من التحليل الخارجي لـ « عالم الطبيعة » . والمكنة وحدها هي التي كان من الممكن أن يتمثل فيها هذا النظام ، ورأس المال الصناعي وحده هو الذي كان يفخر بأن له وضعاً جماعياً .

وإننا ما زلنا ، حتى في هذا الوقت المتأخر ، غارقين فيما تخلف من بلجج المعتقدات عن الوسائل التقنية الحديثة ، إلى حد أننا لا ندرك الإدراك الكافي ما فيها من شذوذ بعيد . وقليل منا يقدر حق التقدير ما كان للمنجم من أثر هدام في كل ناحية من نواحي النشاط ، بتعزيز ما هو مناف للحياة ونظامها . فقبل القرن التاسع عشر لم يكن للمنجم ، من حيث الكم ، إلا دور ثانوي في حياة الإنسان الصناعية ، وعند منتصف القرن كان قد تغلغل في كل جزء منها . وكان انتشار التعدين مصحوباً بانهيار عام للأوضاع في جميع أنحاء المجتمع - فقد اقترن به تشويه صفحة الأرض ، وما لا يقل عن ذلك قسوة من إشاعة الخلل في البيئة الاجتماعية .

وتهيئ الزراعة توازناً بين الطبيعة الجائعة وحاجة الإنسان الاجتماعية ؛ فهي من ناحية ترد إلى الأرض ، عامدة ، ما يسلبه الإنسان إياها . ومن ناحية أخرى نجد أن الحقل المحروث ، وحديقة الفاكهة المقلمة ، وبستان الكروم المنسق ، والبقول ، والحبوب ، والأزهار ، كلها أمثلة للغاية المنظمة ، والنمو المرتب ، والوضع الجميل . وأما التعدين فإنه عملية هدامة ، كما أن ما ينتج مباشرة من المنجم ليس منظماً ولا عضوياً ، وما يؤخذ

مرة من الحجر أو من فوهة المنجم لا يمكن تعويضه . وأضيف إلى هذا حقيقة أخرى وهى أن الاستمرار فى ممارسة الزراعة يؤدى إلى ازدياد وجوه التحسين فى صفحة الأرض وتكييفها على نحو أكثر انسجاما مع حاجات الإنسان ، على حين أن المناجم تنتقل عادة من الوفرة إلى النضوب ، ومن النضوب إلى تركها وهجرها ، وكثيراً ما يتم ذلك فى خلال بضعة أجيال . وعلى ذلك فإن المناجم تمثل ذات صورة الإنسان فى عدم دوامه على حال واحدة ، فهو اليوم بين ظهرانينا ، وغداً مرتحل عنا ، وهو حيناً منتفخ الأوداج بالأرباح ، وحيناً فارغ خالى الوفاض .

ومنذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، أدت الطرق الحديدية إلى تعميم بيئة المنجم التى كانت يوماً ما مقصورة على موقعه الأصلى ، فحيثما امتدت القضبان الحديدية ، مضى معها المنجم وأنقاضه ، وعلى حين أن قنوات مرحلة الأساليب التقنية المبكرة - بأحواضها لمور السفن وقناطرها ودور جباية المكوس وكذلك بصفافها المهندبة وصنادلها المزلاقة على صفحة الماء - أدخلت على المنظر الربى عنصراً جديداً من عناصر الجمال ، فإن الطرق الحديدية فى مرحلة الوسائل التقنية العتيقة أحدثت شجاعت جسيمة ، والخطر الأكبر من الفتحات والجسور بقيت زماناً طويلاً دون أن تزرع ، كما أن الجروح التى أصابت الأرض لم تندمل . وفى ركاب القطارات البخارية المسرعة جاءت الجلبة والدخان والحصباء إلى قلب المدن ، وتدنس أكثر من موقع حضرى ممتاز مثل حدائق الأمير (Prince's gardens) فى أدنبرة ، من جراء غزو الطرق الحديدية . هذا إلى أن المصانع التى قامت على امتداد الطرق الحديدية الفرعية كانت مرآة تعكس صورة البيئة القلدة للطرق الحديدية ذاتها . وإذا كانت مدينة التعدين هى التى تبدت فيها خصائص عملية استخراج الخامات أو النضوب Abbau فى أجلى صورة ،

فإنه قد كان عن طريق السكك الحديدية ما حدث من أنه عند حلول الربع الثالث من القرن التاسع عشر كانت هذه العملية قد امتدت إلى كل بيئة صناعية تقريبا .

وعملية النضوب - كما أبدى وليم مورتون هويلر - ليست مجهولة في عالم الكائنات الحية ، ففي أثناء النضوب يفقد كائن حي من الكائنات الأسمى مرتبة طابعه المعقد فينشأ عن ذلك انحدار تطوره إلى مستوى كائنات أكثر بساطة وأقل دقة في اكتمالها . وقد لاحظ هويلر أنه « يوجد تطور عن طريق الضمور ، وكذلك عن طريق زيادة التعقيد ، وقد تكون العمليتان ماضيتين في طريقهما في وقت واحد وبسرعتين متفاوتتين في نفس الكائن الحي » :

وإن هذا لينطبق تماما على حالة المجتمع في القرن التاسع عشر ، ولقد ظهر ذلك بوضوح في تنظيم المجتمعات الحضرية ، فقد كانت تجرى عملية بناءة ، مصحوبة بمزيد من التخصيص والاندماج وتهيئة الوضع من الناحية الاجتماعية ، لكي تتلاءم الأجزاء المنفردة من حيث صلتها بالجموع ، إذ كان يجري في داخل المصنع - وفي الواقع في داخل النظام الاقتصادي بأكمله - ترابط في داخل بيئة آخذة في الاتساع باطراد ، فقد أخذت تتكون في جميع أنحاء الأرض مؤسسات لبيع الأغذية ومؤسسات للإنتاج متعددة الفروع ومعتمدة التركيب ، فكانت المثلوجات تسافر من بوسطن إلى كالكتا ، والشاي يرحل من الصين إلى إيرلندا ، على حين أن الآلات والمصنوعات القطنية والأدوات القاطعة المصنوعة في برمنجهام وما نشتر كانت تشق طريقها إلى أقصى أركان الأرض ، كما أن قيام خدمة بريدية عالمية ، والنقل الآلي السريع ، والاتصالات التي تكاد تتم لساعتها عن طريق الأسلاك البرقية البرية والبحرية ، أدى إلى تزامن جهود جماهير كبيرة من الناس كانوا إلى ذلك الحين يفتقرون إلى أبسط الوسائل الأولية

لتنسيق الأعمال الموكولة إليهم . وكان هذا مقرونا باطراد التخصيص في الصناعات والحرف والمنظمات والرابطات ، وكانت غالبيتها هيئات تدبر شئونها بذاتها ، ومكونة طبقا لأحكام القانون . وقد استخفى هذا التطور الهام في حياة المجتمع وراء بدع نظرية الفردية الذرية ، ولذلك قلما تولد عنه بنيان حضري .

بيد أنه في الوقت بعينه كان هناك « Abbau » أو نضوب بأخذ مجرد ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك بمزيد من السرعة في نواح أخرى من البيئة ، فقد كانت أشجار الغابات تجث ، وتربة الأرض تنسف ، وفصائل من الحيوان تباد عن آخرها تقريبا ، مثل كلب الماء والثور البري والحزم البري ، على حين أن الفناء كان يلاحق الحيتان بشكل خطير سواء ما كان يصاد منها لزبوتها أم لعظامها . وإزاء ذلك كله اختل توازن الكائنات الحية من حيث علاقاتها ببيئتها ، وعلى أثر قيام الرجل الغربي باستغلال الطبيعة بلا هوادة من أجل نظامه الاقتصادي المادف إلى الربح ، ذلك النظام المؤقت المحدود الأثر من الناحية الاجتماعية — على أثر ذلك ظهر نظام بيولوجي أدنى مستوى وأكثر بساطة ، كان يتميز أحيانا بالإبادة الشاملة لأوضاع الحياة السائدة .

وفوق كل شيء — كما سنرى — حدث هذا النضوب في البيئة الحضرية .

٣ — ملهات النفعية

حيثما وجد أى تنظيم سياسى واع لحركة نمو المدن وتطورها في خلال فترة استخدام الوسائل التقنية العتيقة ، كان ذلك التنظيم يتم وفقا لمسلات النفعية . وكان حجر الأساس في هذه المسلمات ، فكرة أخذها النفعيون في سداجة واضحة من فقهاء الدين ، وهى الاعتقاد بأن العناية الآلحية تسيطر على النشاط الاقتصادى ، وما دام الإنسان لا يجترئ على التدخل

فإنها تكفل تحقيق أقصى درجات الخير للجميع ، وذلك عن طريق الجهود الموزعة غير المنظمة التي يبذلها كل فرد على حدة يسعى وراء صالحه ، وقد كان الاسم المجرد عن الصبغة الدينية لهذا التناسق الذي قضى به القدر هو حرية العمل .

ولفهم ما كان يغشى المدينة الصناعية من سوء نظام كربه ، يجب أن يعتمد المرء إلى تحليل التصورات الميتافيزيقية القبلية الغربية التي كانت تسيطر في آن واحد على الحياة العلمية والحياة العملية معا ، فقد كانت عبارة « بدون تدبير » تستعمل للمديح في عصر الملكة فيكتوريا . وكما حدث في عهد تدهور بلاد الإغريق ، « رُفِعَ الحظ » إلى مرتبة إله افترض الناس أنه كان لا يتحكم في مصير الإنسان فحسب ، بل في جميع عمليات الطبيعة أيضا . ولقد كتب العالم البيولوجي ارنست هايكل (Ernst Haeckel) فقال : « إن خلاصة نظرية داروين هي هذه الفكرة البسيطة : أن الصراع من أجل البقاء في الطبيعة ينشئ أنواعا جديدة بدون تدبير ، على نحو ما ينتج الإنسان ضروبا جديدة في الزراعة عن طرق التدبير . » وإن رجل الصناعة وموظف البلدية باتباعهما ما افترضا أنه أسلوب الطبيعة ، أنتجا النوع الجديد من المدن ، وهو لم يكن إلا حشداً من الناس عصف بهم ، وحولت صفاتهم الطبيعية ، وهبشوا للتلاؤم لا مع حاجات الحياة بل مع الصراع الخرافي من أجل البقاء . وقد شهدت هذه البيئة ، بذات ما فيها من تدهور ، على مدى ما انطوى عليه ذلك الصراع من شدة وقسوة لا تعرف الرحمة ، ولم يكن هناك مجال للتخطيط في إنشاء هذه المدن ، فالفوضى لا تحتاج إلى تخطيط :

والتبرير الثاني لانتهاج سياسة حرية العمل لا يحتاج الآن إلى إيضاح ، فقد كان ذلك عبارة عن محاولة للفكاك من شبكة الامتيازات والإعفاءات والأنظمة الآسنة التي كانت الدولة المطلقة التصرف قد فرضتها على البناء

الاقتصادى المتداعى والخلق الاجتماعى المتدهور فى مدينة العصور الوسطى ، ولقد كان لدى أصحاب المشروعات الجديدة أسباب وجيهة تدعوهم إلى عدم الثقة بروح الشعور بالواجب لدى بلاط فاسد لازمة له ولا ضمير ، ولا بالكفاية الاجتماعية لمكاتب الحكومة المعطلة للأعمال ، والمؤلفة من موظفى الضرائب الآخذين فى التكاثر : ومن ثم فإن النفعيين كانوا يسعون وراء تخفيض نشاط الحكومة إلى أدنى حد ، إذ كانوا يرغبون فى أن تكون أيديهم مطلقة فى استثمار أموالهم ، وفى إقامة الصناعات ، وفى شراء الأرض ، وفى استخدام العمال وطردهم ، ولسوء الحظ أن التناسق الذى قضى به القدر فى النظام الاقتصادى ، تبين أنه خرافة ، وأن النضال على السلطة ظل نضالا وضيعا ، وأن التنافس الفردى من أجل المزيد من الأرباح باطراد أدى بأوفرهم حظا من النجاح إلى أن يسلكوا سبيلا معوجا ، وهو سبيل الاحتكار على حساب الصالح العام ، ومع ذلك فإنه لم يظهر للتدبير وجود .

ومن الناحية العملية ، كان يوجد تناقض بين المساواة السياسية التى أدخلت رويدا رويدا على أنظمة الحكم فى الغرب منذ سنة ١٧٨٩ ، وبين حرية المبادأة التى كان أرباب الصناعة يطالبون بها . فلتحقيق الحرية السياسية والحرية الشخصية ، كان لابد من فرض قيود اقتصادية قوية ووضع ضوابط سياسية ، ففى البلاد التى نمت فيها تجربة المساواة دون محاولة القيام سنويا بتصحيح آثار قانون الإيجار ، كانت النتيجة مناقضة للغرض الأصل . وفى الولايات المتحدة مثلا ، نجد أن منح الأرض لمن استقر بهم المقام فى مساحات تبلغ ١٦٠ فدان ، طبقا لقانون المزارع ، لم يؤد إلى وضع أساس لنظام حر للحكم ؛ ففى خلال جيل واحد أدى تفاوت خواص الأرض ، وتفاوت مواهب المستفيعين بها إلى ضروب خطيرة من التفاوت الاجتماعى . وبدون المثابرة بانتظام على إزالة عوامل التفاوت الأساسية التى

نشأت عن احتكار الأفراد ملكية الأرض ، ووراثه الثروات الكبيرة ، واحتكار امتيازات الاختراعات ، فإن النتيجة الوحيدة لسياسة حرية العمل كانت إضافة طبقة جديدة إلى الطبقات القديمة الممتازة ؛

والحرية التي كان النفعيون ينادونها كانت في الحقيقة حرية الحصول على أرباح غير مقيدة ، وعلى الاستزادة من النفوذ والمكانة الشخصية ؛ فكان يتعين ألا تقف الأرباح وقيمة الإيجار إلا عند حدود ما تطيقه حركة التجارة ، وأما القيمة اللاتئة المعتادة للإيجار والسعر العادل فكان أمرهما خارجاً عن نطاق التفكير . ولقد لاحظ تونسنـد (Townsend) في تعليقه على التشريعات الإنجليزية الخاصة بالفقراء ، أنه ما من شيء سوى الجوع والبهوس والفاقة كان يتسنى له أن يستحث الطبقات الوضيعة على الرضا بأهوال البحر وميادين القتال ، وما سوى هذه الحوافز بعينها كان من شأنه أن « يوخزها ويهمزها » للإقبال على العمل في المصانع . ومع ذلك فإن الحكام احتفظوا بجهة تكاد تكون متماسكة إزاء أى مسألة تمس ثروتهم كطبقة ، ولم يتورعوا عن العمل متكاتفين عندما كان الأمر يتعلق بإخضاع الطبقات العاملة .

بيد أن هذا الاعتقاد اللاهوتي في التناسق الذي قضى به القدر كانت له نتيجة هامة في تنظيم المدينة التي استخدمت فيها الوسائل التقنية العتيقة ؛ فقد جعل من الطبيعي توقع إتمام المشروع بأسره على أيدي أفراد بصفتهم الشخصية مع أدنى قدر من التدخل من جانب أجهزة الحكم المحلي أو القوي ، فتعين مواقع المصانع ، وبناء مساكن العمال ، وحتى إمداد الماء وجمع القمامة ، كان يُقصر القيام بها على أصحاب المشروعات الخاصة بالساعين وراء المنفعة الخاصة . فقد كان يفترض أن المنافسة الحرة تؤدي إلى اختيار الموقع الصحيح ، وتوفير التابع الزمنى الصحيح في تنفيذ المشروع ، وتنشئ من آلاف الجهود غير المتناسقة ، نمطاً اجتماعياً

مناسكاً ، أو على الأصح ، لم يكن شئ من هذه الاحتياجات يعتبر جديراً بالتقدير المنطقي والتنفيذ الرزين .

فسياسة حرية العمل كانت أكبر أثراً حتى من النظام الاستبدادي في القضاء على فكرة نظام تعاوُن للحكم وخطة عامة مشتركة . ألم يكن الشخص النفعي يتوقع أن النشاط المطلق من كل قيد ، نشاط الصوالح الخاصة المتضاربة على غير هدى ، يتمخض عن نتائج التدبير المنطقي ، وأنه بإطلاق العنان للتنافس المطلق من كل قيد ، كان لابد من ظهور العقل والنظام التعاوُن ؟ والواقع أنه كان يُفترض أن التخطيط المنطقي ، بحيلولته دون ضروب التلاؤم التناقضية ، لم يكن من شأنه سوى التدخل في أمر التدابير العليا لعناية إلهية اقتصادية :

والنقطة الرئيسية الجديرة بالملاحظة الآن هي أن هذه المعتقدات قوضت أركان ما عساه أن يكون قد ظل باقياً من ساطة البلدية ، وانتقصت من قدر المدينة ذاتها فلم تر أنها أكثر من « ملتقى عرضي للذرات » - على نحو ما كان علماء الطبيعة في ذلك العصر يصفون العالم خطأ - المتأسكة مؤقتاً بحكم دوافع الأنانية والفائدة الشخصية . وحتى في القرن الثامن عشر ، قبل قيام الثورة الفرنسية وثورة الفحم والحديد ، كان قد أصبح من البدع الشائعة الزراية بالسلطات البلدية والسخرية من الصوالح المحلية : وفي الدول التي أقيمت حديثاً ، وحتى في تلك التي أقيمت على مبادئ جمهورية ، لم يكن هناك اعتبار في آمال الناس وأحلامهم ، إلا للشئون ذات الأهمية القومية التي تتولى تنظيمها الأحزاب السياسية .

وكما قال و. هـ. ريل (W. H. Riehl) في لهجة لاذعة ، إن عهد التنور كان عهداً يتلهف الناس فيه على الحنان والشفقة على حين أنهم كانوا لا يكتنون أى حنان أو شفقة نحو ذويهم ، وكانوا يتأملون في شئون الدولة وينسون شئون المجتمع . « وما من عصر كان أشد فقرّاً من القرن

الثامن عشر في نمو روح الشعور بالواجب العام نحو المجتمع ، فإن مجتمع العصور الوسطى كان قد انحل ، والمجتمع الحديث لم يكن قد تكون بعد وفي الأدب الساخر لذلك العصر ، كان من يريد أن يصور رجلا غيبيا ، كان يمثله في شكل عمدة ، وإن أراد أن يقدم وصفا لاجتماع طائفة من البلهاء ، وصف اجتماعا لأعضاء مجلس المدينة .

وكان النمو الحضري قد بدأ في الحقيقة نتيجة لأسباب صناعية وتجارية ، حتى من قبل أن تبدأ بصورة جدية ثورة استخدام الوسائل التقنية العتيقة . وفي سنة ١٦٨٥ كان يبلغ عدد سكان مانشستر نحو ٦٠٠٠ نسمة ، وفي سنة ١٧٦٠ وصل إلى ما يتراوح بين ٣٠.٠٠٠ و ٤٥.٠٠٠ نسمة ، وكان عدد سكان برمنجهام في التاريخ الأول ٤.٠٠٠ نسمة ، وفي التاريخ الثاني ٣٠.٠٠٠ تقريبا ، وعند حلول سنة ١٨٠١ كان سكان مانشستر يبلغون ٧٢.٢٧٥ نسمة ، وفي سنة ١٨٥١ كانوا قد بلغوا ٣٠٣.٣٨٢ نسمة . ولكن عندما ساعد تركيز المصانع على نمو المدن ، بلغت الزيادة في عدد السكان حداً طاعيا . ولما كانت تنشأ عن الزيادة فرص غير عادية لجنى الأرباح ، فإنه لم يوجد في التقاليد السارية في المجتمع ما يحد من هذا النمو ، وعلى الأصح كان هناك ما يدعو إلى تشجيعه .

٤ - تقنيات التجميع

نشأ أصلا المركز الصناعي المتخصص في صناعة معينة على هيئة بوغ ابتعد عن مدينة العصور الوسطى المتمتع بالحقوق البلدية ، إما بسبب طبيعة الصناعة - كالنعددين وصنع الزجاج - وإما لأن أساليب الاحتكار التي اتبعتها النقابات كانت تحول دون أن تظهر هناك صناعة جديدة مثل الغزل بالمكنات . بيد أنه عند حلول القرن السادس عشر ، كانت الصناعة اليدوية أيضا آخذة في الانتشار في الريف ، وبخاصة في إنجلترا ، للإفادة من

الأجر الرخيص للعمل في الأكواخ الذى لم يكن مشمولاً بحماية القانون . ولقد بلغ من اتساع نطاق الأخذ بهذه الوسيلة أنه في سنة ١٥٥٤ صدر تشريع لمعالجة تدهور حالة المدن المتمتعة بالحقوق البلدية ، وذلك بأنه جعل من المحظور على أى فرد مقيم في الريف أن يبيع إنتاجه بالتجزئة إلا في الأسواق :

وعندما أقبل القرن السابع عشر ، أى حتى قبل استخدام المكنتات في صناعة الغزل والنسيج ، كانت الصناعات الإنجليزية الخاصة بالقماش مشتهرة في أرجاء مقاطعتي شروپشير Shropshire وورسترشير (Worcestershire) كما كان كل من أصحاب الأعمال والعمال متناثرين في القرى ومدن الأسواق . وبذلك لم تنج هذه الصناعات من أنظمة المدينة فحسب ، بل أيضاً مما كانت النقابات تتقاضاه من مبالغ طائلة بمثابة رسوم التحاق وفروض لأعمال البر . ولما لم يكن هناك معدل للأجور جرت العادة بمراعاته ، ولا ضمان اجتماعي ، فإنه ، كما أوضح آدم سميث ، كان العامل ، وقد جدع الجوع أنفه ، في خوف من أن يفقد عمله ، وهو يقول : « إذا كنت تود أن ينجز عملك على وجه مقبول ، فلا بد من أن يتم ذلك في الضواحي ، حيث لم يكن لدى العمال ما يعتمدون عليه سوى سلوكهم وأخلاقهم ، نظراً إلى عدم انفرادهم بامتياز خاص مقصور عليهم ، ولا بد لك بعدها من أن تقوم بتهرب الإنتاج إلى داخل المدينة بأفضل ما في وسعك من الوسائل » .

وكان ازدياد الإقبال على استخدام قوة الماء في الإنتاج ، باعثاً على الإفلات إلى مناطق المرتفعات حيث كانت توجد جداول صغيرة سريعة الجريان ، أو أنهار ذات شلالات ، توفر منسوباً عالياً من الماء . ومن ثم فإن صناعة المنسوجات انجذبت نحو الانتشار في أودية يوركشير ، وفيما بعد على طول مجرى نهرى كونيكت ومريماك في نيو إنجلند . ولما كان عدد

المواقع الصالحة - على مدى أى امتداد - محدوداً فى العادة ، فقد صبح
التجهيز بالمعدات الميكانيكية قيام وحدات صناعية كبيرة نسبياً ، ذات
مصانع ترتفع إلى أربعة أو خمسة طوابق . وقد كان يسد حاجات الصناعات
الجديدة ما اجتمع من رخص قيمة أرض الريف ، وسكان طبيعين هذبهم
الجوع ، ومصدر كاف من القوة المحركة المطردة .

بيد أن الأمر اسغرق الشطر الأكبر من مدة قنين ، من القرن السادس
عشر إلى القرن الثامن عشر ، قبل أن تبلغ جميع عوامل التجمع الصناعى
درجة متساوية فى مجال التقدم . وأما قبل أن يحدث هذا ، فإن المزايا
التجارية للمدينة المتمتع بالحقوق البلدية كانت توازى المزايا الصناعية
لرخص القوة المحركة ورخص الأجور فى قرية المصنع . ولقد ظلت
الصناعة إلى القرن التاسع عشر موزعة فى دور صغيرة للتشغيل يتناسب
حجمها مع نطاق الزراعة فى منطقتها ، أى فى مراكز مثل سدبرى
(Sudbury) ومدن ريفية مثل ورسر (Worcester) فى إنجلترا .

ومن الوجهة الإنسانية ، كان بعض من أسوأ سمات نظام العمل فى
المصنع - كساعات العمل الطويلة ، والعمل الملل ، والأجور المنخفضة ،
والدأب بانتظام على إساءة استخدام الأحداث فى العمل - قد استقر من
قبل إبان التنظيم اللامركزى للإنتاج ومرحلة الأساليب التقنية المبكرة . أ
ولقد بدأ الاستغلال محلياً ، ولم يترتب على استخدام القوة المحركة
للماء ، واستخدام القنوات فى النقل ، إلا تشويه يسير فى صفحة الأرض ،
كما أن التعدين وصهر المعادن ، طالما بقيا متناثرين وعلى نطاق صغير ،
كانا يحدثان من التشويه ما كانت آثاره تعالج فى يسر وسهولة . وحتى
فى الوقت الحاضر فى غابة دين (Dean) بالقرب من نهر سيفرن Severn
- حيث يمارس الناس ما جرت به العادات القديمة من استخدام الفحم
النباتى فى الوقود ، جنباً إلى جنب مزاوله التعدين على نطاق صغير -

نجد أن قرى التعدين تروق العين أكثر من قرى المناطق الأوفر « دينامية » ، كما نجد أن كلا من المناجم وأكداس الخبث يسهل حجبتها بالأشجار أو إزالة آثارها تقريبا بأنواع أخرى من المزروعات . ولقد كان تغيير المعيار ، أو بعبارة أخرى تكليس السكان والصناعات بلا قيد ولا حد ، هو الذى أفضى إلى بعض من أكثر النتائج الحضرية مدعاة للفرح .

ولقد تغير كل هذا باستخدام الآلة البخارية - التى ابتكرها وات (Wall) - بوصفها أداة رئيسية للحركة ، فلإنها بوجه خاص غيرت المعيار ، وجعلت من الميسور المضى فى زيادة تركيز كل من الصناعات والعمال إلى حد أشد كثافة بكثير مما كانت عليه الحال ، على حين أنها نقلت العامل نفسه إلى مكان أكثر بعدا عن موطنه الريفي الذى كان يهيم لسكان الكوخ من حديقته مورداً إضافيا للطعام ومسحة من الاستقلال . ولقد زاد الوقود الحديد من أهمية شأن حقول الفحم ، وشجع على إقامة الصناعة هناك أو فى الأماكن التى كان يسهل الوصول إليها عن طريق القنوات أو الطرق الحديدية .

ولقد أدى البخار مهمته على أكمل وجه من الكفاية فى الوحدات الكبرى المركزة ، حيث كانت أجزاء الوحدة لا تبعد عن مركز القوة المحركة أكثر من ربع ميل ، فقد كانت كل مكنة للغزل وكل نول يستمد القوة المحركة من الأشرطة والأعمدة التى تديرها الآلة البخارية الرئيسية . وكلما كثر عدد الوحدات فى داخل نطاق مساحة معينة ، كان مصدر القوة أكثر كفاية فى وفائه بالغرض ، ومن ثم ظهر الاتجاه نحو الضخامة ، فالمصانع الكبرى ، كذلك التى أنشئت فى ما نشستر ونيوها مشير منذ عشرينيات القرن الثامن عشر - وأعيدت إقامة مثيلاتها فى نيو بدفورد (New Bedford) وفول ريفر (Fol River) - كان يتسنى لها أن تستخدم أحدث آلات توليد القوى ، على حين أن المصانع الصغرى كان يعوقها فقرها فى الوسائل

التقنية ، ولما كان فى استطاعة مصنع واحد أن يستخدم مائتين وخمسين عاملا ، فإن اثنى عشر مصنعا من هذا القبيل مع كل ما يلحق بها من الآلات والخدمات ، كان من شأنها بذاتها أن تتألف منها نواة لمدينة لا يستهان بها .

وعندما حاول المصنعون إنتاج سلع من صنع المكثات بأسعار مخفضة من أجل الاستهلاك فى الأسواق العالمية ، عملوا إلى إنقاص التكاليف فى كل ناحية لكى تزداد الأرباح . وقد كانت أجور العمال هى أوضح النواحي أمام الأنظار للبدء فيها بهذه العملية ، عملية التقليم . وفى القرن الثامن عشر ، كما لاحظ روبرت أوين ، كان حتى أوفر المصنعين حظا من التنور ، لا يدخرون وسعا فى الانتفاع بتشغيل الأحداث والمعوزين ؛ وعندما وضعت تشريعات لتحديد سن العمال الأحداث ، وتضاءل العدد المعروض ، أصبح من الضرورى طرق أبواب موارد أخرى . فللحصول على العدد الإضافى اللازم من العمال لمواجهة الحاجة الإضافية فى مواسم ازدحام العمل ، كان من المهم للصناعة أن تقوم على مقربة من مركز كبير للسكان ، إذ أنه فى قرية ريفية قد يقع عبء إعانة المتعطلين على عاتق صاحب المصنع ذاته مباشرة ، فإنه كثيراً ما كان هو الذى يملك الأكواخ ، وكان من الجائز أن يفقد ما له من إيجار فى أثناء فترة تعطل المصنع .

وكان جنون الهوس الذى ينتاب سير حركة التعامل فى السوق ويؤدى إلى نوبات من الانطلاق والركود ، هو الذى جعل المركز الحضرى الكبير بالغ الأهمية بالنسبة للصناعة ، إذ أنه بالإفادة عند الحاجة من طبقه دنيا من العمال الفاضلين ، الذين لا يستأجرون بانتظام ، تيسر للأسماليين الجدد تخفيض الأجور ومواجهة أى طلب فجائى فى مجال الإنتاج ، وبعبارة أخرى فإن الحجم حل مكان سوق للعمل منظمة تنظيماً كفى بحيث تراعى فيها

معايير للأجور أقرتها النقابات وتكون لها مراكز رسمية لاستخدام العمال ، فكان التجمع الطبوغرافى بديلا من اتباع أسلوب فى الإنتاج مشرب بروح إنسانية وتكون أوقات العمل فيه مناسبة ، على غرار ذلك الذى بدأ يظهر فى الوجود فى النصف الأخير من هذا القرن .

وإذا كان المصنع الذى يستمد قوته المحركة من البخار وينتج للسوق العالمية هو العامل الأول فى الاتجاه نحو زيادة نطاق الازدحام الحضرى ، فإن النظام الحديد للنقل بالطرق الحديدية - بعد سنة ١٨٣٠ - قد شجع على ذلك إلى حد كبير .

وقد كان مصدر القوة المحركة مركزا فى حقول الفحم ، فحيثما كان يتسنى استخراج الفحم أو الحصول عليه عن طريق وسائل رخيصة للنقل ، كان يتيسر للصناعة أن تنتج بانتظام على مدار السنة دون فترات توقف بسبب العجز الموسمى فى مصدر القوة . وقد كان لهذا الانتظام أهمية كبرى فى نظام للعمل يقوم على عقود محددة الأجل والتزامات مالية محددة الأجل كذلك . ولهذا كان للفحم والحديد قوة جاذبة على كثير من الصناعات الفرعية والإضافية ، وكان ذلك عن طريق القنوات أولا ثم عن طريق السكك الحديدية الجديدة بعد سنة ١٨٣٠ . وقد كان الاتصال المباشر بمناطق التعدين شرطا أساسيا للتجمع الحضرى ، وقد كانت ولا تزال السلعة الرئيسية التى تنقلها السكك الحديدية هى الفحم للتدفئة وللوقود المحركة .

وقد عاون نظام النقل بالأساليب التقنية المبكرة - الطرق الزراعية والسفن الشراعية والعربات التى تجرها الخيول - على تناثر السكان ، فقد كانت توجد فى داخل المنطقة مواقع عديدة متساوية المزايا ، ولكن ضعف قوى القاطرات البخارية نسبيا - إذ كانت لا تستطيع أن تصعد بسهولة منحدرأ يتجاوز ميلا قدمين فى كل مائة قدم - أدى إلى الاتجاه نحو تركيز المراكز الصناعية الجديدة حول مواقع الفحم وفى الأودية المتصلة بها ،

ومثل ذلك منطقة ليل (Lille) في فرنسا ، ومناطق ميرزبرج (Merseburg) والروور في ألمانيا ، والإقليم الأسود في إنجلترا ، ومنطقة جبال الليجاني Allegheny والبحيرات الكبرى وسهل الشاطئ الشرقي في الولايات المتحدة .

فزيادة نمو السكان في عهد نظام الأساليب التقنية العتيقة ، قد تكشف عن مظهرين نمطيين : تركز عام في مناطق الفحم حيث ازدهرت الصناعات الحديدية الثقيلة ، واستخراج الفحم والحديد ، وصهر المعادن ، وصنع الآلات القاطعة ، والأدوات الحديدية ، والزجاج ، وتكوين الآلات . وفضلا عن ذلك فقد ازدادت كثافة السكان على طول السكك الحديدية الحديدية مع تزايدها تزايداً واضحاً في المراكز الصناعية الواقعة على الخطوط الرئيسية الكبرى ، وتتركز آخر في المدن الواقعة عند المراكز الكبرى لالتقاء خطوط المواصلات وكذلك في مراكز التصدير . ولقد اقترن بذلك تضاول عدد السكان ونمو وجه النشاط في المناطق الداخلية من جراء تناقص العمل في المناجم المحلية والمحاجر وأفران المصانع ، وتناقص استخدام الطرق العامة والقنوات والمصانع الصغيرة ودور الصناعة المحلية .

ولقد شاركت في هذا النمو معظم العواصم السياسية والتجارية الكبرى القديمة ، وذلك في البلاد الشمالية على الأقل ، فإنها كانت عادة تقوم في مواقع استراتيجية من الناحية الجغرافية . فضلاً عن أنه كانت لها وسائلها الخاصة في الاستغلال عن طريق صلاتها الوثيقة برجال السلطة السياسية وعن طريق المصارف والأسواق المالية الرئيسية وهي التي كانت تتحكم في تدفق أموال الاستثمار . وإلى جانب ذلك كانت لها ميزة أخرى من حيث إنها كانت قد جمعت على مدى القرون مورداً ضخماً من التاعسين الذين كانوا يعيشون عبثة الكنفاف ، وهو ما كان يسمى تالظناً مورد العمال . وكون كل عاصمة قومية كبرى تقريباً قد أصبحت بطبيعة وضعها مركزاً صناعياً كبيراً ، كان حافزاً آخر على المضي في سياسة التوسع والازدحام الحضري .

٥ - المصنع والطريق الحديدي والمسكن الفقير

كانت العناصر الأساسية في التركيب المعقد للكيان الحضري الحديد ، هي المصنع والطريق الحديدي والمسكن الفقير ، فقد كانت تؤلف بذاتها المدينة الصناعية ، وهي كلمة كانت لا تدل إلا على أن أكثر من ألفين من الناس اجتمعوا في منطقة كان يتسنى إطلاق اسم علم عليها . وكان من الميسور أن تتسع - وقد اتسعت فعلا - أمثال هذه التجمعات إلى مائة ضعف دون أن تحرز سوى ظل من الأنظمة التي تتميز بها مدينة ما من حيث اكتمال نضجها اجتماعياً ، أي من حيث إنها مكان يتجمع فيه التراث الاجتماعي ، ويكون من شأن ما يتوافر في هذا المكان من فرص الاختلاط بين الناس وتأثير بعضهم في بعض على نحو مستمر أن يحفزهم على بذل قدر أكبر من الجهد في كل نواحي نشاطهم . وحتى الأجهزة المميزة للمدينة في العصر الحجري كانت معدومة في المدينة الصناعية اللهم إلا إذا استثنينا بعض الرواسب الضامرة .

وقد أصبح المصنع نواة الكائن الحضري الحديد ، وكان كل جزء تفصيلي آخر في الحياة ، دونه في الأهمية . وحتى المرافق ، مثل إمداد الماء ، وأدنى قدر من الإدارات الحكومية التي كان لا بد منها لوجود مدينة ما ، كثيراً ما جاءت في وقت متأخر كفكرة طارئة بعد الأوان ، إلا إذا كانت قد أنشئت من قبل على يد جيل سابق . ولم يقتصر الأمر على الفن والهدن من حيث إن النفعي كان يعتبرهما مجرد وسائل للزينة ، بل إن الإدارة السياسية الرشيدة بقيت زمناً طويلاً في ذات المرتبة ؛ ففي المرحلة الأولى للكفاح من أجل الاستغلال لم تتخذ أي تدابير في شأن الشرطة أو الوقاية من الحريق أو فحص الماء والطعام أو العلاج في المستشفيات أو التعليم .

وكان المصنع يدعى الحق عادة في أفضل المواقع ، وبصفة خاصة المواقع القريبة من شاطئ الماء في حالة الصناعة التمتنية والصناعات

الكيميائية والصناعات الحديدية ، فقد كانت الحاجة تدعو إلى استخدام كميات كبيرة من الماء في عمليات الإنتاج لتزويد الغلايات البخارية ، وتبريد المسطحات التي تشتد حرارتها ، وعمل المحاليل والأصبغ الكيميائية اللازمة . وفوق كل شيء كانت للأنهار أو القنوات وظيفة أخرى كبيرة الشأن ، وهي أنها كانت أرخص الأمكنة وأيسرها لإفراغ جميع أنواع المخلفات القابلة للذوبان أو للتلوث بالماء . وكان تحويل الأنهار إلى مجار مفتوحة من الأعمال المميزة للنظام الاقتصادي الحديد ، وكانت النتيجة تسميم الأحياء المائية وإفساد الطعام وتلويث المياه إلى حد أنها أصبحت غير صالحة للاستحمام فيها .

ولمدة أجيال كان أعضاء كل مجتمع حضري « متقدم » مرغمين على احتمال عواقب التصرفات الدنيئة التي كان المصنّع يجدها مريحة له ، فكثيراً ما كان يلتقي في النهر بمنتجاته الثانوية الثمينة لافتقاره إلى المعرفة العلمية أو المهارة التجريبية للإفادة منها . وإذا كان النهر عبارة عن « قلب » جار ، فإن أكواماً هائلة من الرمد والخبث والقاذورات والحديد الصلديء ، بل حتى القمامة ، كانت تمجج الأفق بما تشتمل عليه من المواد التي أسىء اختيار موضعها ولا يمكن استعمالها . وكانت سرعة الإنتاج تقابلها إلى حد ما سرعة الاستهلاك ، وقبل أن يصبح مثمراً اتباع سياسة احتفاظية بالانتفاع بكسّر المعادن ، كانت الأجزاء المشوهة أو التالفة المتبقية في نهاية الإنتاج يطوح بها ظهرياً فوق أديم الأرض . والواقع أنه في « الإقليم الأسود » في إنجلترا ، ما زالت أكداس الخبث الضخمة تبدو كأنها تكوينات جيولوجية ، وكانت سبباً في إنقاص المساحة التي يمكن استخدامها للسكنى كما كانت سبباً في إلقاء ظل من الكآبة على الأرض ، فضلاً عن أنها كانت إلى عهد حديث تؤلف مشكلة لا سبيل إلى حلها من حيث الانتفاع بها أو إزالتها .

والأدلة التي تدعم هذه الصورة موفورة بكثرة ، والواقع أنها ما زالت

مائلة أمام العين في أقدم المدن الصناعية عهداً في العالم الغربي ، على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت لتنظيف مواقعها . ومع ذلك فليسمح لي بأن أستشهد بشاهد عيان في وقت مبكر وهو هيو ميللر (Hugh Miller) مؤلف « صخر رملي أحمر قديم » (Old Red Sandstone) وكان رجلاً على أتم الوفاق مع عصره ، ولكنه لم يكن مجرداً من الإحساس بالصفات الحقيقية للبيئة الجديدة ، وهو يتحدث عن ما نشتر في سنة ١٨٦٢ فيقول :

« ما من شيء يبدو أكثر تمثيلاً لخصائص المدينة الصناعية الكبرى - وإن كان ذلك على نحو كرهه جداً - من نهر إيرويل الذي يخرق المدينة . . وهذا النهر السيّ الحظ - وهو مجرى يتسم ، على بعد بضعة أميال من المدينة ، بقدر كاف من الجمال بفضل ما يطل على ضفتيه من أشجار وما يخف بهما من إطار كثيف من نبات الحلفاء الأخضر اللون - يفقد طابعه عندما يمر بين دور الصناعة والطباعة ؛ إذ أن آلافاً مؤلفة من الأشياء القذرة تقدم إليه ليغسلها ، وما يقدر بحمولة عربات بأكملها من سموم دور الصبغة وتبييض الأقمشة تطرح فيه لينقلها بعيداً ، كما أن الغلايات البخارية تفرغ فيه محتوياتها الشديدة الغليان ، وكذلك فإن المجارى والبالوعات تصرف فيه قاذوراتها الكريهة الرائحة ، إلى أن يجرى في النهاية - هنا بين جدران طويلة مغبرة ، وهناك تحت وهاد من الصخر الرملي الأحمر - وقد أصبح سيلاً من السماد السائل أكثر منه نهراً » .

وانلق بالنّا إلى الأثر الذي أحدثته في البيئة تجميع الصناعات ، وهو ما كان النظام الحديد يميل إلى تعميمه . وقد يكون ميسوراً أن تمتص منطقة ما الأبخرة الكريهة التي تلفظها مدخنة مصنع واحد أو فرن واحد على الحرارة ، أو مصنع واحد للأصبغ ، أما وجود عشرين منها في مساحة ضيقة فإنه يلوّث الهواء والماء على نحو يستعصى علاجه . وعلى ذلك فإن الصناعات التي لا سبيل إلى تفادى ما فيها من قذارة أصبحت ، نتيجة للتجمع الحضري ، أشد خطورة بكثير مما كانت عليه حينما كانت قائمة على

نطاق أصغر وكانت أكثر تآثراً في أرجاء الريف . وفي الوقت عينه فإن الصناعات النظيفة ، مثل صناعة البطاطين ، وهي التي ما زالت قائمة في « ويتنى » (Wilney) بإنجلترا ، حيث تجرى عمليات التبييض والتكش في الهواء الطلق في وسط ريفي ساحر ، أصبح من المستحيل مزاولتها في المراكز الجديدة طبقاً للأساليب الريفية القديمة . فهناك حل الكلورين مكان ضوء الشمس ، وبدلاً من العمل المستكمل أسباب الصحة في الهواء الطلق - وهو ما كان في أحيان كثيرة يقترن غالباً بالطرق القديمة في الصناعة - مع تغيرات في المنظر وفي منوال العمل لإنعاش روح العامل ، جاء الكدح الممل في داخل مبنى قدر تكتنفه مبان أخرى قدرة . ولا يمكن أن تقدر مثل هذه الخسائر بمجرد معايير مالية ، وليست لدينا وسيلة حسابية تقدر بها إلى أي مدى كانت المكاسب في الإنتاج تلقى ما يوازنها في التضحية الوحشية بالحياة وبالبيئة الصالحة للعيشة .

وعلى حين أن المصانع كانت تقام عادة على مقربة من الأنهار أو خطوط السكك الحديدية التي تمتد محاذية الأنهار ، (إلاحيثما كان مستوى سطح الأرض يدعو إلى التشعب) ، فإنه لم تستخدم أي سلطة لتتركز المصانع في منطقة معينة من أجل عزل أشد الصناعات ضرراً أو أكثرها ضجيجاً - وهي التي ينبغي وضعها في مكان بعيد عن مساكن الناس - أو من أجل عزل المناطق المجاورة الملائمة وتخصيصها لأغراض السكنى . « فالتنافس الحر » وحده هو الذي كان يتولى تقرير المواقع دون أي تفكير في إمكان وضع تخطيط وظيفي ، وكذلك ظل الخلط بين الوظائف الصناعية والتجارية والسكنية يسير باطراد في المدن الصناعية .

وفي المناطق التي تنسم طبيعة أرضها بالوعورة ، كما هو الشأن في أودية هضبة الليجاني ، كان من المحتمل أن يوجد قدر معين من التحديد الطبيعي للمناطق نظراً إلى أنه لا يتبهاً إلا على ضفاف الأنهار الفضاء الكافي الذي

يسمح لمصنع كبير بالاتساع ، ولو أن هذا الوضع كان كفيلاً بأن أقصى قدر من الأبخرة الضارة ترتفع وتنتشر فوق المنازل القائمة على جوانب التلال المشرفة على المنطقة . وفيما عدا ذلك ، فإن أحياء السكنى كثيراً ما كانت تحشر في مساحات الفضاء المتبقية فيما بين المصانع والحظائر وساحات تخزين عربات السكة الحديدية . وكان يعتبر من ضروب التشبه بالنساء في الرقة ، أن يلقي المرء باله إلى أمور مثل القذارة أو الضجيج أو الاهتزاز ، فنازل العمال ، وفي أحيان كثيرة منازل الطبقة الوسطى أيضاً ، كانت تبنى ملاصقة لمصنع للصلب أو للأصباغ أو للغاز أو ممر للسكة الحديدية ، وفي أحيان عديدة كانت تبنى فوق أرض ردمت بالرماد والزجاج المكسور والقاذورات حيث لم يكن يتسنى حتى لجنود الحشيش أن تستقر . وكان من المحتمل أن تقوم على حافة مقلب القمامة ، أو كوم ضخّم مستديم من الفحم والخبث . فكانت دورة الأعمال المنزلية المعتادة تتم يوماً بعد يوم مقرونة بالروائح الكريهة المنبعثة من الفضلات ، وبما تقذف به المداخن من أبخرة كثيفة داكنة اللون ، وبما يصدر عن المكائن من ضججة أصوات الطرق أو الدوران .

في هذه الخطة الجديدة ، كانت المدينة ذاتها تتألف من قطع متناثرة من الأرض ذات أشكال غريبة وشوارع عادية وشوارع عريضة بلا قيمة ، تختلف فيما بين المصانع والسكك الحديدية وأفنية البضائع ومتالب القمامة . وبدلاً من أن تتولى البلدية وضع أى نوع من أنواع التخطيط أو التنظيم الشامل ، ترك للسكة الحديدية أمر تحديد طابع المدينة وتخطيط حدودها . وفيما عدا جهات معينة في أوروبا ، حيث حدث لحسن الحظ أن أبقت أنظمة إدارية عتيقة محطات السكة الحديدية في أطراف المدينة التاريخية ، أبيع للسكة الحديدية ، بل الأصح أنها دعيت ، إلى التغلغل حتى قلب المدينة ذاته ، وإلى أن تنشئ في أنفوس الأجزاء الوسطى في المدينة ، بلتعا من

ساحات شحن البضائع وساحات مناورات القاطرات ، مما لا يمكن تبريره اقتصادياً إلا في فضاء الريف . وقد كان من شأن هذه الساحات أنها شطرت طرق المرور الطبيعية في المدينة ، وأوجدت فيما بين أجزاء حضرية كبيرة ، حاجزاً لا سبيل إلى تخطيه ، بل إنها في بعض الأحيان أقامت سوراً صينياً حتمياً ، كما هو الشأن في فيلادلفيا .

وعلى هذا فإن السكة الحديدية لم تحمل إلى قلب المدينة الضجيج والسناج فحسب ، بل المنشآت الصناعية ونظم الإسكان الرضعية التي ما كان يتسنى لغيرها أن تزدهر في البيئة التي أنشأتها . ولم يكن في وسع أي شيء آخر سوى ما لابتكار جديد من سحر وتأثير في عصر أولع بالمبتكرات الجديدة دون تحفظ ولا تمحيص ، أن يغرى بالتصرفات الطائشة التي انطوت على تقديم هذه التمرابين لهذا المعبود اللاهث ، فإن مهندسي السكة الحديدية الجديدة اقترعوا كل ما يمكن اقترافه من الخطأ في مجال التخطيط الحضري ؛ إذ أن حركة القاطرات كانت في نظرهم أخطر شأناً من الغايات البشرية التي كانت نحققها تلك الحركة . ولم يكن من شأن إهدار مساحات من الأرض بإنشاء ساحات السكة الحديدية في قلب المدينة ، إلا أنه ساعد على توسعها نحو مشارفها بنحطى سريعة جداً . ولما كان ذلك قد أدى إلى ازدياد حركة النقل بالسكة الحديدية ، فإن الأرباح التي تحققت هيأت عاملاً إضافياً للمصادقة على ما ارتكب من الأخطاء على هذا الوجه .

ولقد بلغ من انتشار تدهور حالة البيئة على هذا النحو ، وبلغ من تعود الناس في المدن الكبرى احتمال هذه الحال على مدى قرن من الزمان ، أنه حتى الطبقات العريضة الثراء - وهي المفروض أن في طاقتها تحمل نفقات أفضل وسائل المعيشة - مازالت إلى اليوم تقبل على أسوأها في أحيان كثيرة . وأما فيما يخص نظام الإسكان في ذاته فإن وجوه الاختيار كانت بسيطة ، ففي المدن الصناعية التي قامت على أسس أقدم عهداً ، هيئت

مساكن العمال في مبدأ الأمر بتحويل المنازل القديمة التي كانت تأوى أسرة واحدة إلى ثكنات للإيجار . وفي هذه المنازل المعدلة ، كانت كل حجرة على حدة تأوى أسرة بأكملها ، ومن دبلن وجلاسجو إلى بومباي ظلت القاعدة القياسية لمدة طويلة هي حجرة واحدة للأسرة . وكثيراً ما كان فرط ازدحام الفراش ، باشتراك ما يتراوح بين ثلاثة وثمانية أشخاص متبائني السن ، في النوم على فراش واحد من القش ، كثيراً ما كان يزيد من خطورة فرط ازدحام الغرفة في مثل هذه الحظائر البشرية . وطبقاً لما ذكره كاتب يدعى الدكتور ويلان (Dr. Willan) الذي وضع كتاباً عن الأمراض في لندن ، فإنه عند حلول القرن التاسع عشر ، كان ذلك الازدحام المفرط قد أدى إلى حالة لا تصدق من القذارة البدنية بين الفقراء . وأما الطراز الثاني من المساكن الذي كان يقدم للطبقة العاملة ، فكان في جوهره عبارة عن اتخاذ هذه الأوضاع المنحطة قاعدة قياسية ، ولكنه كان يتوافر فيه مزيد من العيب ، وذلك أن تخطيط هذه المنازل ومواد الإنشاء كانت عادة لا يتوافر فيها شيء من وجوه اللياقة التي كانت توجد أصلاً فيها هو أقدم عهداً من منازل سكان المدن ، فقد كانت تبني على نحو حقير من أسفلها إلى أعلاها .

وفي كل من المساكن القديمة والجديدة بلغ الانحدار في القذارة وسوء الحال حداً يندر أن كانت تبلغه حالة كوخ أدنى الأفتان في أوروبا في العصور الوسطى . وإنه ليكاد يكون ضرباً من المحال أن يسرد المرء سرداً موضوعياً التفصيلات المجردة لهذا النوع من الإسكان دون أن يتهم بالمبالغة [بالحاجة . وأولئك الذين يتحدثون بذلاقة عن ألوان التحسينات الحضرية في هذا العصر ، أو ضروب الارتفاع المزعومة في مستويات المعيشة ، إنما يتجنبون الحقائق الواقعية ؛ ذلك أنهم يعزون بسخاء إلى المدينة في مجموعها مزاياء لم تكن تستمتع بها إلا الأقلية الموفرة الحظ المؤلفة من الطبقة الوسطى ،

ويستنبطون الأحوال الأصلية من تلك التحسينات التي أسفرت عنها في النهاية جهود ثلاثة أجيال من التشريعات الجادة وأعمال الهندسة الصحية الضخمة .

وبادئ ذي بدء نجد أن في إنجلترا كانت ألوف من المساكن الجديدة للعمال تبني ظهراً لظهور في مدن مثل برمنجهام وبرادفورد ، (وما زال الكثير منها موجوداً) ، ولذلك فإن حجرتين من بين أربع حجرات في كل طابق ، كانتا محرومتين من ضوء النهار أو التهوية مباشرة ، ولم توجد أماكن فضاء عدا الممرات الجرداء الواقعة بين هذه الصفوف المزدوجة من المساكن . وعلى حين أنه في القرن السادس عشر كان إلقاء القمامة في الشارع يعتبر خروجاً على القانون في كثير من المدن الانجليزية ، فإن ذلك كان الطريقة المألوفة للتخلص من القمامة في هذه المدن الصناعية المبكرة . ومهما تبلغ حالة القمامة من التمدد والندس وقتئذ ، كانت تبقى في مكانها « إلى أن يغري تكديسها أحد الناس بنقلها لاتخاذها سماداً » . وبطبيعة الحال لم تفتقر الأحياء الجديدة المزدحمة في المدينة إلى مثل هذه القمامة . وكانت المراحيض القذرة إلى حد يعجز عنه الوصف توجد عادة في أقبية المنازل تحت مستوى سطح الأرض ، وكان من العادات الشائعة أيضاً وجود حظائر للخنازير في أسفل المنازل ، وعادت الخنازير تهيم على أوجهها في الشوارع مرة أخرى ، وهو ما لم يسبق أن فعلته في المدن الكبرى منذ قرون . وقد كان هناك افتقار مفرغ إلى المراحيض ، إذ ورد في « تقرير عن حالة المدن الكبرى والمناطق المزدحمة بالسكان » (في سنة ١٨٤٥) أنه « في أحد أجزاء مانشستر المزدحمة بالسكان في سنة ١٨٤٣ - ١٨٤٤ كان ما يزيد على ٧٠٠ من السكان يقضون حاجاتهم في ٣٣ مرحاضاً فقط - أي بمعدل مرحاض واحد لكل ٢١٢ من الناس » .

وحتى مع هذا المستوى المنخفض في التصميم ، وحتى مع مثل هذه

الأحوال الشنيعة التي كانت تصاحبه ، فإنه في مدن كثيرة لم يكن يشيد عدد كاف من المنازل ، وعندها كانت تسود أحوال أشد سوءاً من ذلك بكثير ، فكانت الأقيية تستخدم أماكن للسكنى . ففي ليثربول كان سدس عدد السكان يعيشون في « أقيية تحت الأرض » ، ولم تكن أغلب مدن الموانئ الأخرى أحسن حالاً بكثير ، فقد كانت لندن ونيويورك تنافسانها في ذلك منافسة شديدة وحتى في ثلاثينيات القرن العشرين ، كان يوجد في لندن ٢٠,٠٠٠ من مساكن الأقيية (البدروم) التي وصفت طبياً بأنها غير صالحة لسكنى الإنسان . وقد ترتب على هذه القذارة وهذا الازدحام المفرط - وهما بليتان في ذاتهما - قدوم بلابا أخرى ، كالقثران التي كانت تنقل الطاعون الدملى ، والبق الذى كان يغير على الفراش فيقضى مضاجع النائم ، والقمل الذى كان ينشر وباء التيفوس ، والذباب الذى كان يتردد بلا محابة بين مرحاض القبو وغذاء الطفل . وفضلاً عن ذلك فإن اجتماع الحجرات المظلمة والجدران الرطبة كان يهيئ بيئة مثالية لتوالد الجراثيم ، ولا سيما أن الحجرات المكتظة كانت توفر أعظم الفرص لنقل العدوى عن طريق التنفس والملامسة .

وإذا كان الافتقار إلى مراحيض ، وإلى أنظمة بلدية للمحافظة على الصحة العامة ، قد ترتب عليه وجود روائح كريهة مفرزة في هذه الأحياء الحضرية الجديدة ، وإذا كان انتشار وجود البراز مكشوفاً - إلى جانب ما كان ينجم عن ذلك من التسرب إلى الآبار الشطية - معناه انتشار وباء التيفود على نحو يتناسب مع ذلك ، فإن الافتقار إلى الماء كان أشد وبالا في نتائجه ؛ إذ أنه قضى على ذات الوسيلة التي كانت تمكن من النظافة المنزلية أو النظافة البدنية طبقاً لما تقضى به قواعد الصحة . وفي مدن الحواضر الكبرى ، حيث ظلت باقية بعض التقاليد القديمة للبائيات ، لم تتخذ التدابير الكافية لتوفير المياه في كثير من المناطق الجديدة . وفي سنة ١٨٠٩ ،

حينما كان سكان لندن يبلغون المليون ، لم يكن الحصول على الماء ميسوراً في الجانب الأكبر من المدينة إلا في بدرومات المنازل : وفي بعض الأحياء لم تكن المياه لتصل إلا لثلاثة أيام في الأسبوع . وعلى الرغم من أن الأنايب الحديدية ظهرت في الوجود في سنة ١٧٤٦ ، فإنها لم تستخدم على نطاق واسع إلا عندما صدر تشريع خاص في إنجلترا في سنة ١٨١٧ يقضى بأن كل الأنايب الرئيسية الحديدية التي تمتد بعد عشر سنوات من صدور القانون يجب أن تكون مصنوعة من الحديد :

أما في المدن الصناعية الحديدية ، فقد كانت تنعدم أبسط التقاليد الأولية للخدمات البلدية ؛ ففي بعض الأحيان كانت توجد أحياء بأكملها دون مياه حتى ولو من آبار محلية . وعند الضرورة ، كان الفقراء يعمدون إلى طرق أبواب المنازل واحداً بعد الآخر في الأقسام الخاصة بالطبقة الوسطى ، استجداء للماء ، كما قد يستجدون الخبز حين المجاعة ، ومع هذا الافتقار إلى الماء للشرب والاعتسال لا موجب للعجب من أن الأقدار تراكمت . وعلى الرغم من شناعة المجارى المكشوفة ، فإنها كانت تنفض دليلاً على وفرة ثراء البلدية نسبياً . وإذا كانت الأسر تعامل على هذا النحو ، فليس ثمة حاجة للرجوع إلى الوثائق لمعرفة حالة العامل الذي كان لا يجد عملاً بانتظام . وكانت منازل مهجورة ، لا يعرف أصحابها ، تستخدم نزلاً حيث كانت الغرفة الواحدة تأوى خمسة عشرة أو عشرين شخصاً . وطبقاً لإحصاءات الشرطة في سنة ١٨٤١ ، كان يوجد في مانشستر نحو ١٠٩ من النزل حيث كان الرجال والنساء ينامون معاً بلا تمييز أو مراعاة ، وكان يوجد ٩١ نزلاً للمتسولين . « ولقد أبلغ بلايفير (Playfair) لجنة شؤون الصحة في المدن في سنة ١٨٤٢ أنه في مقاطعة لانكشير بأسرها لم تكن توجد سوى مدينة واحدة بها حديقة عامة وهي برستون ، وسوى مدينة واحدة بها حمامات عامة وهي ليشربول » .

وعندما استقرت تماماً أوضاع النظام الصناعي الجديد ، كان الانخفاض على هذا النحو في مستوى حالة المساكن أمراً عاماً تقريباً بين العمال في المدن الصناعية الجديدة ، وإن كانت الظروف المحلية قد سمحت في بعض الأحيان بالنجاة من الحالة البالغة الشناعة التي وصفها . فنظام إسكان عمال المصانع في مانشستر بولاية نيو هامشير مثلاً كان أرقى من ذلك بكثير ، وفي المدن الصناعية التي كانت أكثر توغلاً في الريف الأمريكي ، وبخاصة في المناطق الوسطى الغربية ، كان يتوافر للعمال على الأقل قدر قليل من الانساع ومساحة من الأرض تكفي لإنشاء حديقة . ولكن حينما يجبل المرء بصره يجد أن التحسين كان من حيث تفاوت الدرجة فحسب ، وأما الطراز فقد تغير على وجه قاطع إلى ما هو أسوأ .

ولم يقتصر الأمر على أن المدن الجديدة كانت في جملتها كثيفة وقييحة المنظر ، مما كان يجعل منها بيئة غير مواتية للحياة البشرية في أبسط مستوياتها الأولى من الناحية النفسيةولوجية ، بل إن تقييس الإفراط في الازدحام بين الفقراء امتد إلى مساكن الطبقة المتوسطة وإلى ثكنات الجنود ، وهي فئات كانت لا تستغل على وجه مباشر من أجل الربح . وتستشهد مسز بيل (Mrs Peel) بقصر فاخر من أواسط عهد الملكة فيكتوريا ، حيث كان المطبخ ومخزن المؤن ، وقاعة جلوس الخدم ، وحجرة مديرة المنزل ، وحجرات نوم رئيس الخدم والخدم ، كانت جميعاً في الطابق الواقع تحت مستوى سطح الأرض ، وكانت حجرتان منها في الواجهة الأمامية ، وحجرتان أخريان في الواجهة الخلفية ، وتطلان على « بدروم » خلفي منخفض ، وأما باقي الحجرات فكانت تتلقى « الضوء » و « الهواء » عن طريق ألواح من الزجاج مثبتة على ارتفاع كبير في الجدران الداخلية . ولقد اتبع ما يماثل هذا الضرب المنحط من ضروب الإسكان في برلين ووثينا ونيويورك وباريس في خلال أواسط القرن التاسع عشر ؛ فالعناصر

الجديدة لسكنى الطبقة المتوسطة كانت تطل من الخلف على أفنية عميقة عديمة الهواء وتتوافر فيها أغلب خصائص الطوابق الواقعة تحت سطح الأرض ، حتى ولو كانت من الوجهة الفنية فوق الأرض ، ولم ينح من شر هذه المجازى سوى المدن « المتخلفة » .

وإذا حكمنا بموجب الخطب السوقية ، فإن هذه العيوب كانت ضيقة النطاق ، وإنها على كل حال قد قضى عليها إبان القرن الماضى بفضل تقدم سير العلم والتشريعات الإنسانية . ولسوء الحظ أن خطباء السوق - وحتى المؤرخين ورجال الاقتصاد المفروض أنهم يتناولون بالبحث عين هذه المجموعة من الحقائق - لم تتكون لديهم عادة القيام بأنفسهم باستطلاع أحوال البيئة ، ومن ثم فإنهم يجهلون أن مجموعات من المساكن التى أقيمت على نمط أشد انحطاطاً من النمط الذى اتبعت فيه الوسائل التقنية العتيقة ، ما زالت موجودة فى جميع أنحاء العالم الغربى إلى اليوم دون أن يطرأ عليها سوى تعديل طفيف ، بل إنه لتوجد منازل قائمة ظهراً لظهر : وعمائر سكنية ذات أفنية عديمة الهواء ، ومساكن فى البدروم . وهذه المجموعات من المساكن لا تشمل أغلب مساكن العمال التى بنيت قبل سنة ١٩٠٠ فحسب ، بل إنها لتشمل شطراً كبيراً مما بنى منذ ذلك الحين ، وإن كانت تظهر فيها تحسينات من حيث المرافق الصحية . ومما يجدر بالملاحظة أن القدر الباقى من المساكن التى بنيت فيما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩١٠ ، لم تتمثل فيها حتى قواعد عصرها القياسية للمحافظة على الصحة ، وهى أشد انحطاطاً بكثير من مستوى يقوم على أساس المعرفة السائدة فى الوقت الحاضر عن الأساليب الصحية الوقائية وقواعد المحافظة على الصحة والعناية بالأطفال - فضلاً عن الهناء المنزلية .

« مساكن فقيرة ، ومساكن شبه فقيرة ، ومساكن فقيرة ممتازة ، هذا هو ما انتهى إليه تطور المدن » . أجل إن هذه الكلمات اللاذعة

الصادرة عن باتريك جيديس لتتطبق انطباقاً تاماً على هذه البيئة الجديدة ، وحتى أشد النقاد المعاصرين تطرفاً في الدعوة إلى الثورة على تلك الأوضاع ، كانت تنقصهم معرفة المعايير الحقيقية لمستوى البناء والمعيشة ، فإنه لم تكن لديهم أى فكرة عن مدى الانحدار الذى آلت إليه بيئة الطبقات العليا ذاتها . ولذلك فإن فريدريك إنجلز (Friedrich Engels) - لكى يثير السخط اللازم للثورة - لم يقتصر على معارضة كل التدابير « الملطفة » لتهيئة نظام أرقى في مستواه لإسكان الطبقات العاملة ، بل يبدو أنه كان يعتقد أن مشكلة الطبقات العاملة ستحل في النهاية بالاستيلاء الثورى على المساكن المريحة التى تشغلها الطبقة المتوسطة (البورجوازية) . وهذه الفكرة تنقسم بالعجز والقصور من حيث الإلمام بمستوى مساكن الطبقة المتوسطة ، وتبعث على السخرية من حيث كفاية عدد هذه المساكن لسد حاجة العمال . ومن الوجهة الاجتماعية ، كانت هذه الفكرة لا تعدو الحث على أن تتخذ كإجراء ثورى تلك العملية التعسة التى حدثت فعلاً في المدن الأقدم عهداً ، عندما انتقل أفراد الطبقات الأوفر يساراً من مساكنهم الأصلية وقاموا بتقسيمها لكى يشغلها أفراد الطبقة العاملة . بيد أن الفكرة كانت ساذجة فوق كل شيء لأنها لم تتبين أن المعايير التى كانت تتمثل حتى في أوفر المساكن الجديدة حظاً من مظاهر البهاء ، كانت في أحيان كثيرة أدنى من المعايير المطلوبة للحياة البشرية مهما يكن مستواها الاقتصادي .

وبعبارة أخرى فإنه حتى هذا الناقد الثورى ، كان على ما يظهر لا يدرك أن مساكن الطبقة العليا كانت في أغلب الحالات مساكن فقيرة ممتازة في نوعها ولكنها لا تحتل . وقد كانت الحاجة إلى زيادة عدد المساكن ، وإلى توسيع نطاق مساحتها ، وإلى مضاعفة معداتها ، وإلى تدبير وسائل المعيشة الجماعية ، كانت الحاجة إلى كل ذلك تنطوى ، بحكم مقتضياتها ، على روح ثورية أبعد من أى عمل طفيف الأثر مثل

الاستيلاء على المساكن التي كان الأغنياء يشغلونها . فهذه الفكرة الأخيرة لم تكن إلا تعبيراً عاجزاً عن الانتقام ، وأما الفكرة السابقة فإنها كانت تقتضى العمل بجهد لإعادة بناء البيئة الاجتماعية بأسرها - على مثال إعادة البناء التي قد يكون العالم على أبوابها اليوم ، وإن كانت حتى البلاد المتقدمة ، مثل إنجلترا والسويد والأقاليم الواطئة ، لم تدرك بعد مدى اتساع هذا التغيير الحضري .

٦ - منازل سبيل السوء

لنتعم النظر - على نحو أكثر تدقيقاً - في هذه المنازل الجديدة التي أقيمت للطبقات العاملة . فقد كان لكل بلد ، وكل إقليم ، وكل مجموعة من السكان ، نموذج خاص ، فنجد في جلاسجو وأدنبرة وباريس وبرلين وهامبورج وجنوة عمائر عالية ، ونجد في لندن وبروكلين وفيلادلفيا وشيكاغو مباني من طابقين بها أربع أو خمس وأحياناً ست حجرات ، ونجد في نيو انجلند مباني ضخمة من الخشب سريعة التعرض لشبوب الحرائق ويطلق عليها اسم المباني ذات الطوابق الثلاثة ، وهي لحسن الحظ تنعم بشرفات طلبة الهواء ، ونجد في بليمور صفوفاً من المنازل الضيقة المبنية من الآجر التي بقيت متعلقة بنموذج المداميك الأقدم منها عهداً ، وهو الذي كان شائعاً في العمارة الجورجية^(١) .

يبد أن نظام الإسكان في المدن الصناعية يتسم بخصائص معينة مشتركة ، ذلك أن ذات التكوين يتكرر في وحدة من المباني بعد أخرى ، فتوجد عين الشوارع الكثيرة ، وعين الأزقة المحرومة من الشمس والمفعمة بالفضلات ، وعين انعدام الأماكن الطلقة للعب الأطفال والحدائق ، وعين افتقار منطقة الجوار المحلية إلى التماسك والشخصية : والنوافذ ضيقة

(١) شاع طراز هذه العمارة في عصر الملوك جورج الأول وجورج الثاني وجورج الثالث

فى العادة ، والضوء غير كاف فى الداخل ، فإنه لم تبدل أى محاولة لتحديد اتجاهات الشوارع على نحو تراعى فيه اعتبارات ضوء الشمس وهبوب الرياح ؛ وإن النظافة القائمة المحزنة التى تبدو فى المساكن الأوفر حظاً من مظاهر اللياقة حيث يعيش أصحاب الأجور الممتازة من الصناع أو الموظفين - وقد تكون هذه المنازل قائمة فى صف أو شبه منفصلة بعضها عن بعض ، وقد تنبسط أمامها خضرة صغيرة مغبرة أشبه ما تكون بالمندبل الصغير المتسخ ، أو تقف شجرة فى الفناء الضيق الواقع فى الخلف - أن هذه المظاهر من مظاهر اللياقة تكاد تبعث فى النفس من الانقباض مثل ما تبعثه القذارة الصارخة التى تسود المساكن الأشد فقراً ، بل إنها فى الواقع تبعث مزيداً من الانقباض ، لأن هذه المساكن الأخيرة كثيراً ما يتهاها لها على الأقل قدر من البهجة والحيوية ، بفضل ما يجرى فى الشوارع من مشاهد « القرقوز » ، وبما تطن به السوق من ثرثرة الباعة والمشتريين ، وبما يغشى الحانات من المظاهر الصاخبة لاجتماع الرفاق ، وبالحملة بفضل مظاهر الحياة الأكثر انطباعاً بروح المشاركة وروح الصداقة التى تسرى فى الشوارع الأشد فقراً من سواها .

ولم يكن لعصر الابتكار والإنتاج على نطاق واسع أى أثر تقريباً فى منزل العامل أو فى مرافقه إلى نهاية القرن التاسع عشر ، الذى شهد قدوم نظام الأنابيب الحديدية ، وكذلك قدوم نظام أرفى للمراحيض ، وفى النهاية مصباح الغاز وموقد الغاز ، وحوض الاستحمام الثابت المتصلة به أنابيب للمياه ، ومخارج ثابتة للتصريف ، ونظام جماعى للمياه جعل المياه الجارية فى متناول كل منزل ، وكذلك نظام جماعى للمجارى . وبعد سنة ١٨٣٠ ، أصبحت هذه التحسينات بالتدريج فى متناول الطوائف المتوسطة والعليا من الوجهة الاقتصادية ، وفى خلال جيل من قدومها ، غدت فى الواقع من ضرورات الطبقة المتوسطة . بيد أنه لم يحدث فى أى فترة فى خلال مرحلة استخدام الأساليب التقنية العتيقة أن جمعت هذه التحسينات فى متناول جمهرة السكان ، فقد

كانت المشكلة التي تواجه من يقوم بالبناء هي أن يحقق نزرا يسيرا من التكلفة بدون هذه المرافق الجديدة الباهظة التكاليف .

وقد بقيت هذه المشكلة لا تجد حلا إلا بإتباع نظم البيئة الربحية البدائية ، ولهذا فإن التقسيم الأصلي لمدينة مونسي (Muncie) في ولاية انديانا - وهي « المدينة الوسطى » في بحث روبرت ليند - كانت توجد به ثمانية منازل في كل وحدة للمباني ، وكان كل منزل منها يقوم على قطعة من الأرض يبلغ عرضها اثنتين وستين قدما ونصف قدم ، ويبلغ طول امتدادها إلى الداخل مائة وخمسة وعشرين قدما . ولا جدال في أن هذا كان يوفر للعمال الشديدي الفقر ، ظروفًا أفضل بكثير مما حدث فيها بعد عندما أدى ارتفاع قيمة الأرض إلى ازدحام المنازل وتضييق نطاق الحيز المخصص للحدائق والحيز المخصص للعب ، ومن بين كل أربعة منازل كان هناك منزل واحد ما زالت تعوزه المياه الجارية . وبوجه عام ، فإن اكتظاظ المدينة الصناعية زاد من الصعوبات في سبيل الوصول إلى نظام مرض للإسكان ، كما زاد من تكاليف التغلب على هذه المصاعب .

وأما عن تجهيز داخل المنازل ، فإن الصورة التي عرضها جاسكيل (Gaskell) لمساكن الطبقات العاملة في إنجلترا ، قد بلغت أسفل درك ، ولكن المستوى الوضعي ظل باقيا في القرن التالي ، على الرغم من إدخال بعض وجوه التحسن الطفيف . والواقع أن نتائج الفقر المالي ازدادت خطورة بسبب هبوط عام في مستوى الذوق مما أبرز حالة الفقر السائدة في البيئة ، وقد تمثل ذلك في تغطية الجدران بورق تم زخرفته عن ذوق همجي ، وفي تزيين الغرف بتحف زائفة براقية ، وصور لوحات زيتية ، وفي استخدام أثاث استمد طرازه من أسوأ أمثلة الذوق العقيم في الطبقة المتوسطة ، أي ثمانية المائة .

وقد أبلغني صديق لي أنه رأى في الصين عاملا في المناجم كاسف

البال ، مثقلاً بالتعب ، راح يداعب في رفق وحنان عودا من الزهر في أثناء سيره في الطريق ، غير أنه في العالم الغربي ، إلى القرن العشرين ، حينما أخذ يظهر الأثر الطيب لتخصيص مساحة من الأرض للحديقة ، فإن الميل الغريزي نفسه إلى مظهر يانع من مظاهر الحياة كان مقدراً له ألا يتغذى إلا على ضروب البشاعة المتعمدة التي كان أرباب المصانع يقدمونها للطبقات العاملة تحت ستار الذوق الحديث (الموضة) والفن . وحتى الذخائر الدينية في المجموعات الكاثوليكية بلغت من الانحطاط في مستوى الذوق الفني حداً يكاد يكون انتهاكاً لحرمة الدين . وبمرور الزمن ، أصبحت استساغة القبح متأصلة في النفوس ، فإن العامل كان لا يقبل على الانتقال من مسكنه القديم ما لم يحمل معه شيئاً مما ألفه من القذارة والفوضى والضجيج وفرط الازدحام . وكانت كل حركة في سبيل تحسين مستوى البيئة تلقى تلك المقاومة ، وكانت عقبة حقيقية في وجه القضاء على المركزية .

وإن بضعة منازل من هذا القبيل ، وبضع حالات من الانزلاق إلى القذارة والقبح على هذا المنوال ، كان من شأنها أن تكون وصمة ، ولكن لعله من الممكن أن نجد في كل عصر عدداً معيناً من المنازل تنطبق عليها هذه الصفات . بيد أنه عندئذ كانت أحياء ومدن بأكملها ، ومناطق تبلغ مساحتها القدادين والأميال المربعة ، وأقاليم بأسرها قد امتلأت بمثل هذه المساكن التي تسخر من كل ما يزهى به « قرن التقدم » من مزايع النجاح المادى . وفي هذه الحظائر الحديثة نشأت فصيلة جديدة من المخلوقات المشوهة ، فقد كان الفقر وبيئة الفقر سبباً في حدوث تغيرات عضوية ، كإصابة الأطفال بالكساح نتيجة لانعدام ضوء الشمس ؛ وتشوه تكوين العظام والأعضاء ، واختلال نظام أداء الغدد الصماء أوظيفتها بسبب سوء التغذية ؛ والأمراض الجلدية الناشئة عن الافتقار إلى العامل الأولى للمحافظة على الصحة وهو الماء ؛ والجلدري والتيفود والحمى القرمزية ، والتهاب الحلق

وتتبعه نتيجة لانتشار الأوساخ والبراز ؛ والتلوث الرئوى الذى يساعد على الإصابة به الجمع بين سوء التغذية ونقص ضوء الشمس وفرط الازدحام فى الغرف ، دون أن نذكر شيئاً عن أمراض المهن ، وكانت إلى حد ما ناتجة عن البيئة أيضا .

فالكوليرين ، والأمونيا ، وأول أوكسيد الكربون ، وحامض الفوسفوريك ، والفلورين ، والميثان - دون أن نضيف قائمة طويلة بما يبلغ نحو المائتين من الكيمائيات التى تسبب السرطان - كانت تملأ الجو وتهدم عناصر الحيوية ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك وسط أكداش من المخلوقات البشرية الحاملة فزداد حالات النزلة الشعبية والالتهاب الرئوى ، مما كان ينشأ عنه حصص الأرواح على نطاق واسع . ولم يلبث أن رأى المشرفون على التجنيد أنهم لا يستطيعون الانتفاع بمن ولدوا فى ظل هذا النظام ، حتى بمثابة طعمة لنيران المدافع ؛ ولعله كان لما كشف عنه الفحص الطبى فى إنجلترا - أثناء حرب البوير والحرب العالمية الأولى - من سوء معاملة العمال فيها ، لعله كان له من الأثر قدر ما كان لأى عامل آخر فى العمل على رفع مستوى الإسكان هناك .

والعواقب الوخيمة التى نجمت عن هذه الظروف يمكن متابعتها فى جداول الوفيات بين البالغين ، وفى معدل الإصابة بالأمراض بين العمال الحضريين بالقياس إلى العمال الزراعيين ، وفى متوسط أطوال الأعمار بين أرباب المهن المختلفة . ولعل أكثر المقاييس حساسية من حيث صلاحية البيئة الاجتماعية لحياة الإنسان ، هى جداول وفيات الأطفال .

وحينما عقدت المقارنة بين الريف والمدينة ، بين مساكن الطبقة المتوسطة ومساكن الفقراء ، بين منطقة تنخفض فيها كثافة السكان ومنطقة ترتفع فيها تلك الكثافة ، كان ارتفاع معدل الأمراض والوفيات من نصيب الفئة الأخيرة

عادة . ولو أن العوامل الأخرى ظلت على حالها ، لكان من شأن التحضر في ذاته أن يقطع جزءاً من المكاسب المحتملة في الناحية الحيوية . وعلى الرغم من أن عمال المزارع ظلوا طوال القرن التاسع عشر طبقة مغاوبة على أمرها في إنجلترا ، فإنهم أثبتوا - وما زالوا يثبتون - أنهم يعيشون أمداً أطول كثيراً من عمال المدن المكثين الذين يفوقونهم رقياً ، وذلك حتى بعد إدخال البلديات وسائل الصحة الوقائية ووسائل العناية الطبية . والواقع أن المدن ، بما فيها من مجافاة لأسباب الحياة ، لم يتسن لها أن تظل باقية في الوجود على الإطلاق إلا بفضل عناصر الحياة الجديدة التي تندفق عليها من الريف باستمرار . ولقد تكونت المدن الجديدة في جملتها من الوافدين عليها من خارجها ؛ ففي سنة ١٨٥١ كان عدد السكان الذين يقيمون في لندن وإحدى وستين مدينة أخرى في إنجلترا وويلز - ولهم من العمر عشرون سنة فما فوقها - يبلغ ٣٣٣٦٠٠٠ نسمة ، على حين أنه لم يولد من هؤلاء في المدن التي كانوا يقيمون فيها سوى ١٣٣٧٠٠٠ نسمة .

وإذا أخذنا بمعدل الوفيات بين الأطفال ، فإننا نجد أن ما يسجله أكثر مدعاة للخزي ، ففي نيويورك مثلاً كان معدل الوفيات بين الأطفال في سنة ١٨١٠ يتراوح بين ١٢٠ و ١٤٥ في الألف من المواليد ، وقد ارتفع المعدل إلى ١٨٠ في الألف في سنة ١٨٥٠ ، وإلى ٢٢٠ في سنة ١٨٦٠ ، وإلى ٢٤٠ في سنة ١٨٧٠ . وقد كان هذا الارتفاع مصحوباً بانخفاض متواصل في مستوى أحوال المعيشة ؛ إذ أنه بعد سنة ١٨٣٥ كان فرط الازدحام قد أصبح قياسياً في عمائر السكنى التي بنيت حديثاً . وهذه التقديرات الحديثة تؤيد ما هو معروف عن معدل وفيات الأطفال في إنجلترا في خلال عشرين تلك الفترة ، فهناك ارتفع المعدل بعد سنة ١٨٢٠ وكان أشد وطأة في المدن . ولا شك أنه كانت هناك عوامل أخرى مسئولة عن هذه الاتجاهات الناكسة ، ولكن المدن الجديدة - من حيث إنها كانت تعبر عن

التكوين الاجتماعى المعتمد بأسره الذى كان ينظم شئون الصحة والغذاء وظروف العمل والأجور والعناية بالأطفال والتعليم - قد أسهمت إلى حد كبير فى النتيجة .

وكثيراً ما أشيد دون وجه حق بإدخال تحسينات فى مجال الصحة الحضرية فى عهد حركة التصنيع ، وذلك لأن أولئك الذين كانوا يعتقدون أن التقدم كان يحدث تلقائياً فى جميع نواحي الحياة إبان القرن التاسع عشر ، كانوا يرفضون مواجهة الحقائق القاسية . فهم لم يسمجوا لأنفسهم بالقيام بدراسات للمقارنة بين المدينة والريف ، بين ما جهز بالمعدات الميكانيكية وما لم يجهز بها ، وفضلاً عن ذلك ساعدوا على تشويه الحقائق باستخدام جداول فجأة للوفيات ، لم تصحح طبقاً لفئات السن والجنس ، ومن ثم فإنها لم تدخل فى الاعتبار ازدياد كثافة البالغين فى المدن ، وارتفاع نسبة الموجودين فى الريف من الأطفال وكبار السن ، وهم الأكثر تعرضاً للمرض والموت . وقد كان من شأن هذه الإحصاءات أنها جعلت معدل الوفيات فى المدينة يبدو أفضل مما كان فى حقيقة أمره على أساس التحليل الإحصائى الدقيق . وإلى اليوم الحاضر قلما اتخذت الخطوات التمهيدية فى سبيل القيام بدراسة تحليلية وافية للمواليد والوفيات والصحة والمرضى من حيث علاقتها بالبيئة . وعن طريق إدماج المعدلات الحضرية والريفية معاً فى رقم « قومى » أمكن إخفاء الأدلة على سوء الحالة نسبياً فى المناطق الحضرية والصناعية « المفورة الرخاء » :

وما زالت تجرى دراسات تحليلية مضللة من هذا القبيل ، تحت ستار أنها بحوث موضوعية . وعلى هذا الوجه حاولت مابل بوير (Mabel Buer) أن تبرئ الانقلاب الصناعى من تهمة خلق آفة حضرية ، بالقيام بدراسة ما حدث من نقص فى معدل الوفيات قبل سنة ١٨١٥ ، أى قبل أن يتمخض عن فرط الازدحام ، وسوء الوسائل الصحية الوقائية ، وتعميم

التحضير بين السكان ، قبل أن تتمخض عن كل هذه العوامل نتائجها الممينة لها من حيث إنهاك القوى الحيوية . وليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أمر هذا التحسن الأسبق عهداً ، أكثر مما يدعو إلى اغفال أمر الهبوط المطرد بوجه عام في معدل الوفيات طوال القرن التاسع عشر . ولكن هذا ليس من شأنه أن يمحو الحقيقة التي لا سبيل كذلك إلى الشك في أمرها ؛ وهي تدهور الحالة فيما بعد .

وبدلاً من أن يعزو المرء الفضل في التحسن المبكر إلى استخدام المكنتات في الصناعة ، يجب أن يوجه الفضل إلى ناحية أخرى مختلفة كل الاختلاف - وهي زيادة الطعام - مما هيا غذاء أفضل ، وساعد على رفع قوة المقاومة للأمراض . وهناك عامل آخر ربما كان له أيضاً نصيب في ذلك ، وهو ازدياد الإقبال على استعمال الصابون ، وقد أصبح ذلك ميسوراً نتيجة لازدياد مقدار الدهون التي كان يمكن الحصول عليها . ومن المحتمل أن استعمال الصابون في شئون الصحة الشخصية قد امتد من قيام الأم المرضع بغسل حلمتي ثديها ، إلى القيام بغسل الطفل الذي تعهده ، وانتقل ذلك في النهاية بعامل القدوة من شطر النساء في المجتمع إلى شطر الرجال . وليس من اليسير تقدير مدى الزيادة في استعمال الصابون بالرجوع إلى البيانات التجارية ؛ لأن الصابون كان أصلاً من سلع الاحتكار التجاري ، وعلى هذا الاعتبار كان من سلع الترف ، وأما الصابون العادي فكان غالباً يصنع ويستهلك في داخل المنزل . ولعل انتشار عادة استعمال الماء والصابون يمكن أن يفسر إلى حد كبير انخفاض معدل الوفيات بين الأطفال قبل القرن التاسع عشر ، بقدر ما يمكن أن تفسر بعض الشيء نثرة الماء والصابون بالدرجة المحزنة التي وصل إليها معدل الوفيات بين الأطفال في المدينة التي كانت تستخدم فيها الوسائل التقنية العتيقة .

وبصفة عامة كان العوز منتشرًا من حيث وسائل المحافظة على الصحة .

غالا فتقار إلى ضوء الشمس ، والا فتقار إلى الماء النقى ، والا فتقار إلى الهواء الخالى من التلوث ، والا فتقار إلى الغذاء المتواف من ألوان شتى ، كل هذه «الوحوه» من العوز كانت شائعة إلى حد أنها شكلت حالة من المسغبة المزمنة بين الغالبية العظمى من السكان . وحتى الطبقات الأيسر حالا كانت تزرع تحت نير تلك الحالة ، بل إنها كانت أحياناً تفخر بنواحي النقص الجوى فيها . وهربرت سبنسر ، الذى كان منشقاً حتى عن مذهبه النفعى ، اضطر إلى أن يدعو معاصريه إلى اللعب ، وإراحة البدن . وفى مؤلفه « رسائل فى التربية » ذهب إلى حد توجيه نداء خاص إلى الآباء لكي يسمحوا لأبنائهم بأكل الفاكهة .

٧ - صورة عن قرب لمدينة الفهم الكوك

قد يسلم المرء بأنه خيال معدل السرعة التى أدخل بها التصنيع فى العالم الغربى كانت مشكلة إنشاء مدن ملائمة تكاد تكون عديمة الحل ، فإن المقدمات التى جعلت هذه العمليات ميسورة كانت تجعل نجاحها محدود المدى من الوجهة الإنسانية ، إذ كيف كان يتسنى إنشاء مدينة متأسكة من جهود مئات الأفراد المتنافسين الذين كانوا لا يرعون إلا مصالحهم الذاتية ولا يعرفون شريعة سوى إرادتهم الذاتية العذبة ؟ . وكيف كان يمكن إدماج وظائف ميكانيكية جديدة فى نمط جديد من التخطيط كان يوضع وينفذ على وجه السرعة - إذا كان ذات جوهر ذلك الإدماج بتوقف على الإشراف الحازم من جانب هيئات عامة لم يكن لها وجود فى أغلب الأحيان أو إذا وجدت فعلاً فإنها كانت لا تباشر من السلطة إلا ما كانت الدولة تخولها إياه على وجه التحديد ، واضحة حقوق الملكية الفردية فوق كل اعتبار؟ وكيف كان يمكن تدبير حشد من المرافق والخدمات المستحدثة من أجل عمال لم يكن فى طاقتهم أن يستأجروا سوى أفقر أنواع المساكن ؟ وكيف كان يمكن وضع خطة طبيعية سليمة لوظائف اجتماعية ظلت هى ذاتها جهيضة بلا ثمرة :

إن المدن التي كانت لا تزال تحتوى على بقايا حيوية من تقاليد العصور الوسطى ، مثل مدينة أولم (Ulm) ، استطاعت أحياناً أن تمر بمرحلة الانتقال دون أن تتكبد إلا خسارة يسيرة نسبياً ، وذلك بسبب بطء سير حركة النمو فيها ، وبفضل سياسة جريئة قوامها تملك البلدية للأرض على نطاق واسع . بيد أنه حينما دخلت الصناعة باندفاع شديد ، كما حدث في نورمبرج ، كانت النتائج وبيلة إلى حد يماثل مابلغته في مدن ليس لها أى كيان تاريخي على الإطلاق . وفي العالم الجديد ، كانت المدن تنشأ إلى عهد متأخر امتد إلى سنة ١٩٠٦ (مثل جارى Gary بولاية إنديانا) دون مراعاة لأى سمات طبيعية سوى موقع الوحدة الصناعية . وأما فيما يتعلق بما أنشئ بعد ذلك من المدن الصناعية الكبيرة مثل ديترويت — حاضرة صناعة السيارات — فإنها لم تتعلم شيئاً من أخطاء الماضي ، ألم يؤكده هنرى فورد أن التاريخ هراء ؟ وعلى ذلك فإن الوحدات الصناعية التي أقاموها طبقاً لأرقى ما وصل إليه الفن الهندسى ، وضعت وسط حماة حضرية فكانت بذلك نماذج مثالية لسوء نظام البلديات والعجز الفنى . وإن ذات العصر الذى كان يزهى بانتصاراته الميكانيكية وبصيرته العامية ، ترك عملياته الاجتماعية تحت رحمة المصادفة كما لو أن ملكة العقل العلمية استنفدت قواها في المكينات ولم تعد تقوى على مغالبة الحقائق التي تخص الإنسان . وسيل الطاقة الذى فجّر من طبقات الفحم ، وانحدر إلى سفح التل دون أن يحدث إلا أيسر نصيب من التقدم في حالة البيئة ، فإن قرى المصانع ومدن المصانع كانت ، من الناحية الاجتماعية ، أكثر تخلفاً من القرى الاقطاعية في العصور الوسطى .

وأما الطارئ الحضرى الجديد ، ذلك التجمع حول الفحم ، الذى أطلق عليه باتريك جيديس اسم « التكتل الحضرى conurbation » فإنه لم يكن معزولاً في الريف ولا متصلاً بأى مركز تاريخي قديم ، وكان يمتد على هيئة

كتلة متساوية الكثافة نسبيا على مدى عشرات ، وأحيانا مئات ، من الأميال المربعة . ولم تكن توجد وسط هذا التكتل الحضري مراكز ذات أثر فعال ، ولا منظمات تستطيع جمع شمل أعضائه لمارسوا حياة مدنية دافقة بالنشاط ، ولا هيئة سياسية في وسعها توحيد ضروب النشاط العام فيه . فلم يكن قد بقي سوى الطوائف أو الحطام والانقراض الاجتماعية للمنظمات القديمة ، وقد بقيت على غرار الانقراض الموحلة التي يبعثرها نهر كبير عقب هدوء ثورة الفيضان ، فهي أشبه ما تكون بأرض لا سلطان لأحد عليها في مجال الحياة الاجتماعية . ولم تكن هذه المدن الجديدة في أغلب الأحوال عاجزة عن الإنتاج في مجال الفن أو العلم أو الثقافة فحسب ، بل إنها كانت عاجزة في مبدأ الأمر حتى عن استيرادها من المراكز الأقدم عهداً . وعندما كان يتكون ، محلياً ، فائض من الثروة كان يستنزف على عجل في مكان آخر ، فإن أصحاب الأملاك ورجال المال كانوا يستخدمونه في ألوان الترف الشخصية ، أو في أعمال البر - مثل قاعة كارنيجي للموسيقى في نيويورك - وكثيراً ما كانت العواصم الكبرى تفيد من تلك الأعمال أمداً طويلاً قبل أن يوصى بهيات مماثلة للمناطق التي كانت أصلاً مصدر الحصول على تلك الثروات .

ولنتقدم ونزدد قريباً من مدينة الوسائل التقنية القديمة ، ولنفحصها بالعين ، والأذن ، والأنف ، واللمس ؛ فالمرقبون من أبناء العصر الحاضر يستطيعون - بسبب التباين بينها وبين البيئة الآخذة في الظهور ، بيئة الوسائل التقنية الحديثة - يستطيعون أخيراً أن يروا ما لم يكن يراه منذ مائة عام سوى شعراء مثل هوجو أو رسكين أو موريس *Hugo or Ruskin or Morris* ، وهي حقيقة كان الماديون ، وهم يتخبطون في حبايل أحلامهم النفعية ، تارة ينكرونها كضرب من المبالغة العاطفية ، وتارة أخرى يرجحون بها في تخمس كدليل على « التقدم » لا سبيل إلى النزاع في أمره .

واقعد خيم الظلام فوق مدينة الفحم ، إذ غدا السواد لوناً لها السائد ، فسحب الدخان السوداء كانت تتصاعد من مداخن المصنع ، كما أن أفنية السكة الحديدية التي كثيراً ما كانت تشق قلب المدينة وتمزق أحشاءها ، كانت تذرو السناج والرماد في كل الأرجاء . وكان ابتكار الاستضاءة الصناعية بالغاز معيلاً لاغنى عنه لهذا الازدهار ، وإذا كان ابتكار موردوك Murdock يرجع إلى آخر القرن الثامن عشر ، فإنه في خلال الجيل التالي اتسع مجال استعماله ، في المصانع أولاً ، ثم في المنازل ، وذلك في المدن الكبرى في مبدأ الأمر ثم في المراكز الصغرى فيما بعد ، فإنه لولا معونة هذا الابتكار لتعدد توقف العمل بسبب الدخان والضباب . ولقد أصبح من المعالم الجديدة المميزة للمدن ، صنع غاز الاستضاءة في داخل حدودها ، فصهاريج الغاز الضخمة كانت تطل بضخامتها فوق منظر المدينة ، فقد كانت منشآت كبيرة في حجم الكاندرائيات . والواقع أن منظر شباكها الحديدية فوق صفحة الأفق الخضراء في لون الليمون عندما يتفق صفاء الجو ساعة الشروق ، كان من أبدع ما في النظام الجديد من العناصر الجمالية التي تبعث على السرور والارتياح .

ولم تكن مثل هذه المنشآت بالضرورة كريهة ، ففي الحقيقة لو أنه بذلت العناية الكافية لعزلها عن المناطق السكنية ، لكان من المستطاع أن تكون محبة للنفس ، أما ما كان شنيعاً فهو أنها على غرار كل المباني الأخرى في المدن الجديدة ، كانت تقام تقريباً حيثما اتفق ، فكانت رائحة ما يتسرب من الغاز تعم المناطق التي كان يطلق عليها اسم مناطق بيت الغاز ، فلا عجب أن هذه المناطق كثيراً ما أصبحت من أشد أقسام المدينة تدهوراً ، وقد كانت صهاريج الغاز ، بشموخها فوق المدينة وتلويثها الهواء ، ترمز إلى هيمنة المصالح « العملية » على احتياجات الحياة .

وكان ستار الدخان السام قد حل من قبل في مناطق صناعة الفخار في القرن الثامن عشر ، نتيجة لاستخدام أملاح رخيصة للترجيج ، أما الآن

فقد أطبق على كل مكان ، في شيفياد وبرمنجهام ، وفي بيتسبرج وايسن (Essen) وليل (Lille) . وفي هذه البيئة الحديدية ، لم تكن الملابس السوداء مظهراً للحداد ، بل مجرد وسيلة للوقاية عن طريق اللون ، وتكاد تكون القبعة السوداء الاسطوانية الشكل قد صممت على هذا النحو لأداء مهمة معينة - وهي أن تكون رمزاً يؤكد قوة البخار ، فأصباغ ليدز السوداء مثلاً أحالت نهرها إلى مجرى^(١) داكن سام ، على حين أن بقع الزيت الناشئة عن الفحم التي كانت تتناثر في كل مكان ، وحتى أولئك الذين كانوا يغسلون أيديهم ، كانوا يخلفون حول جوانب إناء الغسيل إطاراً من الشحم الذي لم يذب . أضف إلى هذه البقع المستمرة على البدن والملابس ، جزيئات الحديد المتطايرة من عمليات التجليخ والشحذ ، والكلورين الذي لم يستعمل ويتصاعد من مصانع الصودا ، ثم فيما بعد ، سحب الغبار المهيج للأغشية والمتصاعد من مصانع الأسمنت ، والمنتجات الفرعية المتنوعة للصناعات الأخرى الكيميائية ، فهذه الأشياء كانت تؤلم العينين وتحثش الحلق والرئتين ، وتضعف صحة البنية بوجه عام حتى لو لم تحدث عند الملامسة أى مرض معين . وأما رائحة دخان الفحم ذاتها ، فلعلها ليست كريهة ، إذ أن الإنسان في ماضيه الطويل في حالة البداوة غدا مولعاً بالروائح العفنة ، ولذلك لعل العيب الرئيسي في هذه الحالة هو أنها كانت تغلب على ما هو أذكى منها رائحة أو كانت تجعل الناس لا يقدرّون الروائح الزكية .

فلكى يكون المرء سعيداً في كنف هذه الظروف ، يجب أن تتبدل كل حواسه ، وقبل كل شيء يجب أن يفقد حاسة الذوق . وكان لهذا فقدان لحاسة الذوق تأثير في الغذاء ، فقد أخذ حتى من هم في رغد العيش من

(١) مفرد « مجاز » .

الناس يقبلون على أكل الأطعمة المعلبة ، والأطعمة غير « الطازجة » مع وجود أطعمة « طازجة » في متناول اليد ، وذلك لأنهم باتوا لا يستطيعون التفرقة بينها . ولقد امتد ضعف حاسة التمييز عن طريق الذوق إلى نواح أخرى غير الطعام ، فإن التمييز بين الألوان أصبح ضعيفا أيضا وغدت الدرجات « الأغمق » في التلوين والألوان الأميل إلى الهدوء وتركيبات الألوان الداكنة مفضلة عن الألوان الزاهية الصافية . وكانت الطبقة البورجوازية توجه المطاعن إلى الفنانين المصورين السابقين على رافائيل ، وكذلك إلى الانطباعيين ، لاعتقادها أن ألوان لوحاتهم كانت « غير طبيعية » و« غير فنية » . وإذا تركت أحيانا مسحة من اللون الزاهي ، فإنها كانت لا توجد إلا في لافتات الإعلان عن « مستردة كولمان » أو « زهرة غسيل ريكيت » ، وكانت تبقى زاهية بهيجة لأنه كان يجب تغييرها مرات عديدة .

فهذه البيئة الجديدة كانت قائمة ، مظلمة ، عديمة اللون ، لاذعة المذاق ، كريهة الرائحة ، فهبطت هذه الصفات بمستوى كفاية الإنسان ، وكانت تحتاج إلى وسائل إضافية للتعويض عن ذلك بالغسيل والاغتسال ووسائل الصحة الوقائية - أو في الحالات القصوى الطيبة . وقد كان ما ينفق نقدا في شئون التنظيف وحدها يبلغ قدراً لا يستهان به في مدينة الوسائل التقنية العتيقة ، وذلك على الأقل بعد الاعتراف بالحاجة إلى النظافة . ولتأخذ تكاليف مغالبة جانب واحد من جوانب التلوث بالدخان في مثال نمطي للمدن المتبقية من عهد الوسائل التقنية العتيقة ، وهى مدينة بيتسبرج ، التى بدأت تتلوث بالدخان منذ عهد مبكر ، فإن الدخان يبدو منطقاً على أشده في صورة لها مطبوعة في سنة ١٨٤٩ ، ومنذ جيل مضى قدرت التكاليف السنوية للاحتفاظ بهذه المدينة نظيفة بنحو ١٥٠٠.٠٠٠ دولار لأعمال الغسل والكى الإضافية و٧٥٠.٠٠٠ دولار لأعمال التنظيف

العام الإضافية و ٦٠,٠٠٠ دولار للتنظيف الإضافي للسناثر، وهذا التقدير الذي يبلغ حوالى ٢٣١,٠٠٠ دولار سنوياً لم يدخل فيه حساب الخسائر الناشئة عما يصيب المباني من التلف ، ولا النفقات الزائدة لطلاء أشغال الخشب ، ولا النفقات الإضافية للإضاءة أثناء فترات الضباب الدخاني (smog) .

وحتى بعد الجهود المضنية التى بذلت للإقلال من التلوث بالدخان ، فإن مؤسسة كبيرة لصناعة الصلب فى قلب بيتسبرج ما زالت تسخر من هذه الجهود فى سبيل التحسين - والواقع أنه قد بلغ من شدة سيطرة تقاليد الوسائل التقنية العتيقة ، أن السلطات البلدية ، منذ عهد قريب جداً ، عاونت هذه المؤسسة باغضائها عن توسعها بدلا من الوقوف بحزم والمطالبة بإزالتها . وحسبنا هذا القدر فيما يتعلق بالخسائر المالية ، ولكن ماذا يقال عن الخسائر التى لا تقدر بسبب المرض ، وبسبب اعتلال الصحة ، وبسبب كل ألوان التدهور النفسانى من جراء عدم الاكتراث بالعصاب الصارخ ؟ وإذا لم يكن هناك سبيل إلى تقدير مثل هذه الخسائر تقديراً موضوعياً ، فإن هذا لا ينهض دليلاً على أنه لا وجود لها .

وعدم الانتفات إلى هذه الأوضاع التى كانت تنهك القوة الحيوية فى أثناء عهد الأساليب التقنية العتيقة ، كان يرجع أساساً إلى الجهل المطبق . ولقد اقتطعت فى مؤلفى «التقنيات والمدنية» (Technics and Civilization) عبارات السخط والدهشة التى أبدأها أحد زعماء المدافعين عن هذه المدنية - وهو أندرو أور (Andrew Ure) - بسبب الشهادة التى أدلى بها الأطباء الفطنون الذين دعوا أمام لجنة سادلى للبحث فى شئون المصانع ، فإن هؤلاء الأطباء أشاروا إلى التجارب التى قام بها الدكتور إدواردز من باريس حول نمو صغار الضفادع ، وأثبت أن ضوء الشمس عامل أساسى لتكامل تنوعها ، ومن هذا استنتجوا - ونحن نعلم الآن أن ذلك له ما يسوغه تماماً -

أن ذلك الضوء ضرورى كذلك لنمو الأطفال . وكان رد أورد الشامخ بأنفه أن فى إضاءة المصانع بالغاز البديل الكافى عن الشمس .

وقد بلغ من احتقار هؤلاء النفعيين للطبيعة ولعادات الإنسان المتولدة عن التجارب الطويلة ، أنهم أنشأوا أكثر من جيل واحد على غذاء مجرد من القوة الحيوية ولا يقوم إلا على أساس ما يستهلك من الوحدات الحرارية واتخذ تحسن ذلك الغذاء فى خلال الجيل الأخير بفضل محصول جديد من المعلومات العلمية ، ولكنه لم يلبث أن فسد من جديد نتيجة لانتشار استعمال مواد سامة من مبيدات الحشرات ومبيدات الآفات لحفظ الطعام وإكسابه مزايا إضافية ، دون أن نذكر شيئاً عن سموم لا تقل عن ذلك ضراوة بما لها من نشاط إشعاعى مثل سترونتيوم ٩٠ . وأما فيما يتعلق ببيئة الوسائل التقنية العتيقة ، فإنها ما زالت طويلة الباع فى مقاومة الإصلاح وتنزل نغمتها بعشرات الملايين من الناس .

وكانت المدن الحديثة تفخر بميزة أخرى تلى القذارة وتماثلها فى سوء تأثيرها فى الحواس . ولم تظهر النتائج الضارة لهذه الآفة إلا فى السنين الأخيرة بفضل ما حدث من التقدم فى الوسائل التقنية التى ليست غير مرتبطة بالتليفون ، وهو ذلك الابتكار النموذجى للوسائل التقنية الحيوية ، وإنى لأعنى بذلك الضجيج ، وليسمح لى بالاستشهاد بما رواه شاهد سماع عن برمنجهام فى منتصف القرن التاسع عشر :

« ما من مدينة فى العالم فيها صناعات ميكانيكية أشد ضجيجاً ، فالطرق على السندان لا يتقطع ، وطنين المحركات لا ينتهى ، بينما تسمع دمدمة السنة الملهب وهدير الماء ، وزئير البخار ، ومن حين إلى آخر تدوى أصوات جشة جوفاء صادرة عن بيت التجارب ، حيث تختبر الأسلحة النارية ، فالناس يعيشون فى جو تنجاوب فى أرجائه أصوات الضجيج ، ويبدو كما لو أن ذوهم قد سرى إليه الطابع السائد ، فأصبح صاحباً على شاكلة مبتكراتهم » .

فعدم المبالاة بالرنين والضجيج كان صفة نمطية ، ألم يعتمد أرباب الصناعة في إنجلترا إلى منع وات (Watt) من تقليل الضجة الصادرة عن محركه الترددي (reciprocating engine) لأنهم كانوا يريدون دليلاً على قوته تحس به الأذن ؟

وقد أثبتت تجارب عديدة اليوم أن الضجة تستطيع إحداث تغييرات فسيولوجية بعيدة الأثر ، فالموسيقى تستطيع أن تقلل من خلايا البكتيريا في اللبن ، ويؤيد ذلك ما يبدو من أن علاماً معينة . مثل قرح المعدة ، وارتفاع ضغط الدم ، تشدوطاتها بتأثير معاناة الإقامة مثلاً على مسمع من ميناء جوى ، أو طريق زآخر بحركة المرور . وقد ثبت بجلاء أيضاً أن الضجة تسبب هبوط مستوى الكفاية في العمل ، ولكن لسوء الحظ يظهر أن بيئة الأساليب التقنية العتيقة قد هيئت خصيصاً لتحدث أكبر قدر من الضجة ، فالنبيب المبكر لصفارة المصنع ، وصراخ القاطرة ، وصليل واندفاع المحرك البخارى العتيق الطراز ، ونشيج وأزيز دوران الأعمدة والسيور ، وقرقة التول وحفيفه ، ووقع ضربات المطرقة ، وهمهمة وخنّة الأجهزة الناقلة ، وصيحات العمال الذين عملوا وأخذوا نصيباً من « الراحة » وسط هذه الضجة المختلفة الألوان - كل هذه الأصوات كانت تساعد في الانقضااض الشامل على الحواس .

وعند تقدير الكفاية الحيوية للريف بالقياس إلى المدينة ، أو لمدينة العصور الوسطى بالقياس إلى مدينة الأساليب التقنية العتيقة ، يجب ألا ننسى أثر هذا العامل الهام في الصحة . ولم تؤد ضروب التحسين التي تمت أخيراً في بعض النواحي - مثل استعمال نعال من المطاط وإطارات من المطاط - إلى تخفيف أسباب الشكوى ، لأن الضجة التي تحدث في مدينة مزدحمة بسيارات الركوب وسيارات النقل التي تسير بقوة البنزين ، عند إدارة محركاتها ، أو عند تغيير المسننات (تروس) ، أو عند ما تنطلق مندفعة في

سيرها ، ليست إلا دليلاً على عدم بلوغ درجة الكمال الفني . ولو أن الجهود التي بذلت في سبيل تحسين طراز هيكل السيارات وجهت إلى وضع تصميم لوحدة صامدة تولد الطاقة الحرارية عن طريق الكهرباء ، لما كانت المدينة الحديثة تضارع في التأخر مدينة الوسائل التقنية العتيقة من حيث الضججة والأبجزة . وبدلاً من ذلك فإن الحواضر « المتقدمة » في مضمار استخدام السيارات ، مثل لوس أنجلوس ، تعرض بل تضخم كل المساوئ الحضرية لعهد الوسائل التقنية العتيقة .

وتدل التجارب الخاصة بالصوت التي أجريت في شيكاغو في ثلاثينيات القرن العشرين ، على أنه لو وضع لمقادير الصوت ترتيب يتدرج في وحدات نسبية تصل إلى مائة في المائة — وهو مقدار الصوت ، كصوت قصف المدافع ، الذي من شأنه إذا استمر مدة طويلة أن يدفع بالمرء إلى الجنون ، فإن مقدار الضججة في الريف يتراوح بين ثمان وعشر درجات ومقدارها في الضواحي يبلغ خمس عشرة درجة ، وفي المناطق السكنية في المدينة خمساً وعشرين درجة ، وفي المناطق التجارية ثلاثين في المائة ، وفي المناطق الصناعية خمساً وثلاثين في المائة . ولا شك في أن هذه الخطوط العريضة خليقة أن تنطبق على الحالة في كل مكان تقريباً في خلال القرن ونصف القرن الأخيرين ، ولو أنه من المحتمل أن الحدود القصوى كانت أعلى من ذلك . ويجب أن نذكر أيضاً أن مدن الأساليب التقنية العتيقة لم تقم بأى مجهود لفصل المصانع عن مساكن العمال ، ولذلك فإنه في كثير من المدن كانت الضججة موجودة على الدوام في كل مكان في أثناء النهار وأحياناً كثيرة في أثناء الليل . وعصر النقل الجوي الذي يقضى بضوضاء طائراته على القيمة السكنية للضواحي المجاورة للدوائى الجوية ، ينذر الآن بمزيد من التوسع في نطاق هذا الاعتداء على الحياة والصحة .

وعند التأمل في حالة هذه المدن الصناعية الجديدة على أساس مستواها الأدنى ، من حيث الاعتبارات المادية بغض النظر عن وسائلها الاجتماعية أو حضارتها ، فإنه من الواضح أنه لم يسبق إطلاقاً فيما سجله التاريخ أن عاشت مثل هذه الجموع الهائلة من الناس في بيئة انحدرت إلى هذا الدرك من التدهور الهمجي ، وكانت قبيحة في شكلها ومنحطة في مشتملاتها : فأرقاء السفن القديمة في الشرق ، والأسرى التاعسون الذين كانوا يعملون في مناجم الفضة التابعة لأثينا ، والطبقات العاملة الفقيرة التي كانت تعيش في « جزر » روما - هذه الطبقات قد عانت ولا شك مثل هذه الحالة الكريهة ، بيد أنه لم يحدث إطلاقاً من قبل أن ارتضى الناس في كل مكان بلية بشرية واعتبروها أمراً عادياً - عادياً ومحتوماً .

٨ - الهجوم المضاد

لعل أجل ما قدمته المدينة الصناعية من الخدمات كان ما أحدثته من رد الفعل لإزاء أكبر ما ارتكبته هي ذاتها من أخطاء ، وفي مقدمتها ما يتعلق بالصحة الوقائية أو الصحة العامة . وكانت النماذج الأولى لهذه المساوئ سجون ومستشفيات القرن الثامن عشر التي تفشت فيها الأوبئة ، فكان من شأن تحسين حالتها أنها أصبحت بمثابة منشآت يسترشد بها في مجال إصلاح المدينة الصناعية . وبفضل الأعمال الجلية التي تمت في القرن التاسع عشر ، من صب أنابيب للمجاري من الخزف المصقول ، وسبك أنابيب من الحديد ، تيسرت الاستفادة من موارد بعيدة للماء النقي نسبياً ، وتصريف المواد البرازية في مكان يبعد على الأقل إلى حيث يوجد جدول قريب . وقد كان تكرار تفشي الملاريا والكوليرا والتيفود وسل الكلاب ، حافزاً على استحداث هذه المبتكرات ، نظراً إلى أن واحداً بعد آخر من رجال

الصحة لم يجدوا صعوبة في إثبات الصلة بين هذه الأوبئة والقذارة وفرط الازدحام والماء الملوث والطعام الفاسد .

وفيما يتعلق بالأمر الجوهري في تدهور المدن ، فإن جون رسكين قد تناول صميم الموضوع حين قال : « إن تدبير المساكن من أجل الطبقات العاملة يتطلب قدراً عظيماً من التشريع الحازم ، وتقايم أظافر الصوالح المادية التي تقف في الطريق ، وبعد ذلك ، أو قبل ذلك تبعاً للمدى ما نستطيع الوصول إليه ، عن طريق اتباع الوسائل الصحية الوقائية والعلاجية فيما لدينا من المنازل ، ثم نعمل إلى بناء المزيد منها على نحو متين جميل ، وفي مجموعات محدودة النطاق بما يتناسب وحركة العمران مع إقامة أسوار حولها ، حتى لا تقوم في أى مكان ضاحية يغشاها المرض ويخيم عليها البؤس ، بل توجد شوارع نظيفة تعج بالحركة في الداخل ويكتنفها الريف الطلق الهواء الخارج ، مع إطار من الحدائق وبساتين الفاكهة الجميلة حول الأسوار ، بحيث إذا مضى الإنسان بضع دقائق من أى مكان في المدينة أمكنه بلوغ الهواء النقي الصافي ، والحشيش الينع ، ومنظر الأفق المتراى » . وحتى أصحاب المصانع استرعت انتباههم هذه الرؤيا السعيدة فشرعوا هنا وهناك ، في بورت سانلايت (Port Sunlight) وبورنفيل (Bournville) ، في تشييد قرى صناعية نافست في جمالها أبدع الضواحي التي أنشئت فيما بعد .

ولقد أصبح الهدف الأول للتخطيط السليم هو أن تنعم المدينة من جديد بضوء الشمس ، والهواء العليل والماء النقي والساحة الخضراء الطليقة . وكانت الحاجة ملحة إلى كل ذلك إلى حد أن كاميلو سیتی (Camillo Sitte) — بالرغم من غرامه الشديد بالجمال الحضري — أكد المهمة الصحية للحديقة العامة الحضرية بوصفها خضرة ضرورية للصحة ، أو على حد

تعبيره « رثنى » المدينة ، اللتين أدرك الناس حديثاً أهميتهما عندما افتقدوا وجودهما .

وأصول عبادة النظافة أقدم من عهد الأساليب التقنية العتيقة ، فإنها تدين بالكثير للمدن الهولندية في القرن السابع عشر ، بما كان لديها من الموارد الوفيرة للماء ، وبنوافذها الكبيرة للمنازل التي كانت تكشف عن كل ذرة من الغبار في الداخل ، وبأرضية منازلها المغطاة بالقرميد ، مما جعل ما كانت ربة البيت الهولندية تبذل من جهد في التنظيف بالحك والدعك مضرب الأمثال . ولقد تالقت النظافة عوناً علمياً بعد سنة ١٨٧٠ ، فما دام البدن منفصلاً عن العقل بموجب المذهب الثنوى ، كان في الوسع الاستخفاف بأمر العناية بالبدن على وجه منتظم ، بوصف ذلك الاستخفاف دليلاً - على وجه التقريب - على مزيد من الانشغال الروحاني . بيد أن الفكرة الجديدة عن الكائن الحي - وهي التي نادى بها في القرن التاسع عشر يوهانس ميلر Johannes Müller وكلود برنار Claude Bernard - وحدت بين العمليتين الفسيولوجية والنفسانية ، ومن ثم فإن العناية بالبدن أصبحت من جديد واجباً نظامياً من الناحيتين الخلقية والحيالية . ولقد تسنى لباستور Pasteur ، عن طريق البحوث التي قام بها عن الجراثيم ، أن يعدل الرأي السائد فيما يتعلق بكل من البيئة الخارجية والبيئة الداخلية للكائنات الحية ، فإن كائنات فتاة دقيقة بحيث لا تراها العين المجردة كانت تنمو وتزدهر في البراز والأقذار ، ويبيدها إلى حد كبير الصابون والماء وضوء الشمس . ونتيجة لذلك فإن الفلاح الذي يقوم اليوم بحلب البقرة يتخذ من الاحتياطات الصحية ما كان جراح في لندن في أواسط عهد الملكة فيكتوريا لا يكلف نفسه عناء اتخاذها قبل الشروع في القيام بجراحة كبرى ، إلى أن علمه ليستر (Lister) أن يتصرف على نحو أفضل من ذلك . والمعايير الجديدة التي وضعها فاورنس نيتنجيل Florence

Nightingale للمستشفيات ، من حيث الضوء والهواء والنظافة ، طبقته حتى في غرفة الجلوس بمنزلها ذات الحوائط البيضاء - وكان ذلك تمهيداً حقيقياً « للروح الجديدة » التي بثها لوكوربزييه (Le Corbusier) في فن المعمار الحديث ، وهي روح صحية جذيرة بالإعجاب .

وفي النهاية فإن عدم اكتراث المدينة الصناعية بالظلمة والقذارة قد تكشف عن حقيقة أمره ، وهي أنه كان همجية بشعة . وقد كان من شأن ازدياد التقدم في مضمار العلوم البيولوجية إبراز مساوئ البيئة الجديدة بما فيها من دخان وضباب وأبخرة . وتبعاً لازدياد معلوماتنا الطبية المستمدة من التجارب ، تزداد قائمة هذه المساوئ طولاً ، وهي تشمل اليوم على المائتي المادة التي تسبب السرطان ، وما زالت توجد عادة في هواء أغلب المدن الصناعية ، دون أن نذكر شيئاً عن ألوان الغبار المتطاير من المعادن والصخور والغازات السامة ، وهي التي تزيد في حالات الإصابة بأمراض الجهاز التنفسي وتجعل هذه الأمراض أشد فتكاً بالحياة .

وعلى الرغم من أن دافع المعلومات العلمية أثر على مهل في تحسين الأحوال في المدينة بوجه عام ، فإنه كان أسرع أثراً في الطبقات المتعلمة والميسورة الحال ؛ إذ أنها اتعظت مما عرفته ، وفرت من المدينة إلى بيئة لم تبلغ هذه الدرجة من الخطورة على الصحة . وقد كان أحد أسباب هذا التطبيق المتأخر لقواعد الصحة الحديثة في تصميم المدينة ، أن التحسينات الفردية في الأجهزة الصحية للمساكن كانت تقتضي زيادة جوهرية في النفقات ، وتتضح زيادة التكاليف فيما استخدمته البلدية من أموال أكثر ضخامة في سبيل إنشاء مرافق جماعية ، وفيما فرضته البلدية من ضرائب أشد وطأة لصيانة تلك المرافق .

وعلى نحو ما كان النظام الصناعي الباكر لا يقتصر على اعتصار أرباحه مما اقتصدته المكنتات من تكاليف الإنتاج بل من فاقة العمال ، كانت مدينة

المصنع الفجة تحتفظ بأجورها وضرائبها المنخفضة عن طريق استنزاف ثروة البيئة وإفقارها . وكانت قواعد الصحة تحتاج من المكان والمعدات البلدية والموارد الطبيعية إلى ما كان منعدما حتى ذلك الحين . وبمرور الزمن قصت هذه الحاجة باتباع المبادئ الاشتراكية في الشؤون البلدية بوصفها من المستلزمات العادية لوجوه التحسين في أداء الخدمات العامة ، فلا إمداد الماء النقي ، ولا تصريف القمامة والفضلات ومواد المجارى على نحو جماعى كان يتسنى الاعتماد على ضباط الأفراد لتدبير أمرهما أو مجرد الإشراف عليهما إلا إذا كان يمكن الحصول على ربح من وراء ذلك .

ومن المحتمل أنه في المراكز الصغرى كان يترك للشركات الخاصة حق القيام بأمر واحدة أو أكثر من هذه الخدمات إلى أن يتفشى مرض كبريه فيكون ذلك سبباً في فرض إشراف السلطات العامة . وأما في المدن الكبرى فإن اتباع المبادئ الاشتراكية كان ثمن الأمان ، ولذلك فإنه - على الرغم من المطالبة النظرية بحرية العمل - أصبح القرن التاسع عشر قرن الاشتراكية البلدية ، وهو ما أصاب في إيضاحه بياتريس وسيدنى وب . فكل تحسين على حدته في داخل المبنى ، كان يتطلب أن تكون المرافق التي يفيد منها تحت ملكية وإدارة جماعية ، أى شبكة أنابيب للمياه ، وخزانات للمياه ، وقناطر مرتفعة لحمل قنوات المياه ، ومحطات للصخ ، وكذلك شبكة للمجارى ، ووحدات لصخ المجارى ، ومزارع لمواد المجارى . ولم يكن ينقص سوى الملكية العامة للأرض من أجل اتساع نطاق المدينة ، ووقاية المدينة ، وتعمير المدينة : وهذه الخطوة التقدمية كانت إحدى الخدمات الهامة التي قدمتها مدينة اينزر هوارد ذات الحداث .

وبفضل اتباع المبادئ الاشتراكية الفعالة على نطاق واسع اتجه إلى الهبوط المعدل العام للوفيات ، ومعدل وفيات الأطفال بعد سبعينيات القرن التاسع عشر . وقد بلغ من وضوح أثر هذه التحسينات أن ازداد مقدار

الأموال التي كانت البلديات تنفقها على هذه المرافق طبقاً لمبادئ الاشتراكية . بيد أن الاتجاه الرئيسي ظل سلبياً ، إذ أن الأحياء الجديدة في المدينة لم تعبر بأي وسيلة إيجابية عن إدراك ما جاءت به العلوم البيولوجية عن تبادل التفاعل بين البيئة والكائن الحي في مجموعه . وحتى في وقتنا الحاضر ، إزاء استعمال نوافذ كبيرة من الزجاج مغلقة إغلاقاتاً محكمًا ، جرياً وراء البدع الذي يزعم أنه حديث ، يتعذر علينا أن نقبل أن داوونز (Downes) وبلنت (Blunt) قد أثبتا منذ سنة ١٨٧٧ ما لضوء الشمس المباشر من خواص في إبادة الجراثيم . وأن هذا التصرف المتنافي للعقل ليكشف إلى أي مدى ما زال احترام العلم سطحياً بين الكثير من المفروض فيهم أنهم متعلمون ، بل تقنيون .

ولأول مرة أصبحت الآن في متناول سكان المدينة بأسرها ضروب التحسينات الصحية التي عملت أصلاً في قصور سومر وكريت وامتدت في زمن لاحق إلى قصور النبلاء في روما . وكان هذا نصراً للمبادئ الديمقراطية التي لم يتيسر حتى للأنظمة الدكتاتورية أن تكبتها ، والواقع أن أجل الخدمات العامة التي أسداها الرجل الذي أطاح بالجمهورية الفرنسية الثانية ، كانت تتمثل في تنظيف باريس تنظيفاً هائلاً على يد البارون هوسمان ، وهي خدمة جوهرية بل مبتكرة إلى حد يفوق بكثير أياً من أعماله الأبعد صيتاً في مجال التخطيط بأدق معنى الكلمة .

وكانت نيويورك أول مدينة كبيرة حققت التزود بكميات وافرة من المياه النقية عن طريق تنفيذ مشروع كروتون (Croton) للخزانات والقنوات الذي افتتح في سنة ١٨٤٢ ، ولكن بمرور الزمن اضطرت كل مدينة كبيرة إلى الاقتداء بهذا المثال . وقد ظل تصريف مواد المجارى أمراً عسيراً ، وفيما عدا المدن الصغيرة إلى حد أن ما لديها من مزارع المجارى يستطيع تحويل طبيعة كل هذه الفضلات ، فإن هذه المشكلة لم تحل بعد على وجه

ووافق بالغرض . وعلى الرغم من ذلك فإنه عند نهاية القرن التاسع عشر كانت القاعدة الأساسية التي استقر عليها الوضع هي أن يكون لكل أسرة مرحاض صحي خاص ، أى دورة مياه متصلة بالمجارى العامة فى البيئات المتلاصقة المباني . وأما القمامة ، فإن ما جرت به العادة من إلقاء أو إحراق هذا السماد الزراعى الثمين ، ما زال وجهاً من وجوه الخطأ المستديم فى تدبير شئون البلديات على أساس غير علمي :

وقد ظل تنظيف الشوارع مشكلة أشد صعوبة إلى أن عم استعمال القوالب البلجيكية والأسفلت ، واستبعد استخدام الحصان ، وأصبحت موارد المياه العامة وفيرة ، ومع ذلك فقد ثبت فى النهاية أن هذه المشكلة كانت أيسر علاجاً من تنقية الهواء . وحتى فى يومنا الحاضر ، لا يزال حجب الأشعة فوق البنفسجية ، بسبب فرط الغبار والدخان ، عاملاً من عوامل إضعاف الحيوية التى تنسم بها المراكز الحضرية الشديدة الإفراط فى الازدحام . وقد ازدادت هذه العوامل بدلا من أن تقل باستخدام السيارة الأنيقة من حيث المظهر ولكنها عتيقة من الوجهة التقنية ، بل إنها أضافت سم أول أكسيد الكربون الذى لا تراه العيون . ومن قبيل التعويض الجزئى ، فإن إدخال المياه الجارية والحمامات فى منازل السكنى - والمرحلة الوسطى فى إعادة إنشاء الحمامات العامة التى هجرت منذ العصور الوسطى - لا بد من أن يكون قد ساعد على إنقاص حالات المرض بوجه عام ، ووفيات الأطفال بوجه خاص .

وإذا نظرنا إلى الموضوع برمته ، فإن العمل الذى قام به الداعون إلى إصلاح الوسائل الصحية الوقائية والعمالون بأساليب المحافظة على الصحة - مثل تشادويك Chadwick ، أو فلورنس نيتنجيل ، أو لويس باستور أو بارون هوسمان - قد أزال من الحياة الحضرية فى أحط دركاتها بعضاً من أسوأ ما كان فيها من أسباب الفزع وامتهان البدن . وإذا كانت

النواحي الخلاقة في حياة المدينة قد تناقصت نتيجة للتصنيع ، فإن النتائج السيئة الناشئة عن فضلات الإنتاج وفضلات الإنسان قد تناقصت أيضاً بمرور الزمن . وحتى أجساد الموتى أسهمت في الإصلاح ، فقد تألفت حلقة خضراء من ضواحي المدافن وحدائقها حول المدينة لأخذة في النمو . وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن الطريقة الجريئة الفذة التي عالج بها هوسمان هذه المشكلة ، جذيرة بتحية ملوؤها الاحترام .

ولقد كانت البيئة الجديدة تفتقر إلى الصفات الصحية أفقاراً صارخاً إلى حد أنه لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الدهشة من أن الحركة المضادة التي قامت من أجل الصحة ، قدمت أجل الخدمات الإيجابية لتخطيط المدن في خلال القرن التاسع عشر . ولقد أدبجت المثل العليا الجديدة بصفة . وقتية في مدينة طوباوية (يوتوبيا) أطلق عليها اسم مدينة الصحة (Hygeia) وهي التي دعا إليها الدكتور بنيامين وارد ريتشاردسون "Benjamin Ward Richardson" في سنة ١٨٧٥ .

وهنا يستشف المرء بوادر لاشعورية لرفض درجة فرط الازدحام التي أصبحت أمراً مقبولا ، وذلك لأنه على حين أن اينزر هوارد ، بعد ذلك يزمن يقل عن مدى جيل واحد ، خصص ٦٠٠٠ فدان لتضم وتحتوى ٣٢٠٠٠ نسمة ، فإن ريتشاردسون اقترح في مشروعه وضع ١٠٠٠٠ من السكان في ٤٠٠٠ فدان . وفي المدينة الجديدة ، كان يتعين أن تكون السكة الحديدية تحت سطح الأرض على الرغم من أن القاطرات التي تسير بالبخار كانت هي الشائعة إذ ذاك ، بيد أنه لم يكن ليسمح بوجود طوابق في المنازل تحت سطح الأرض على أى وجه من الوجوه ، وهو حظر لقي تأييداً تشريعياً في إنجلترا . ولكن البناء كان يجب أن يكون من الآجر في الداخل وفي الخارج بحيث يكون قابلاً للغسيل بخراطيم الماء - وهو حلم من أحلام الرجولة التي لا تفتأ تراود الخيلة -

كما أن مداخل المدافئ كان يجب أن تتصل بمجار رئيسية لتنقل الكربون الذى لم يحترق إلى فرن بالغاز حيث يتم استهلاكه .

وإذا كانت بعض هذه المقترحات تبدو عتيقة الآن ، فإن الدكتور ريتشاردسون لم يكن من نواح كثيرة سابقاً لعصره فحسب ، بل إنه كان كذلك سابقاً للعصر الحاضر ؛ فقد اقترح التخلي عن « الفكرة القديمة ، فكرة اختزان المرض على أوسع نطاق » ودعا إلى إقامة مستشفى لكل ١٠٠٠ ره شخص من السكان . وعلى هذا القياس بعينه فإن المعوزين والمسنين والمصابين بنجل فى عقولهم كان يجب إيواؤهم فى مبان متواضعة الحجم . وإذا كانت آراء ريتشاردسون فيما يتعلق بالتكوين المادى للمدينة تعتبر الآن عتيقة ، فإن الآراء التى أسهم بها فيما يتعلق بالعناية الطبية الجماعية لاتزال فيما أرى جذيرة بالأمل ، فإنه استنادا إلى أسباب وفيرة معقولة ، اقترح العودة إلى ما كان يوجد فى مدينة العصور الوسطى من المعايير الطبية والبشرية.

٩ — المربنة القائمة تحت الأرض

أثر نظام الأساليب التقنية العتيقة فى أوضاع المستقبل الحضريه ، وذلك بوجه خاص بما تمخض عنه من حركات مضادة له ، وبما حفز إليه من نزوح عن المدينة الصناعية . ومنذ ثمانينيات القرن التاسع عشر ، كانت هذه الانجذاب المضادة تلقى عوناً وتعصيذا من تغيير كان يجرى فى داخل الصناعة ذاتها ، ويدفعه قداماً تطبيق النظريات العلمية تطبيقاً مباشراً فى الابتكار ؛ إذ أن النظام الحديد كان يقوم أساسه على القوى الكهربائية والمعادن الخفيفة الوزن ، مثل الألومنيوم والمغنسيوم والنحاس ، وعلى مواد جديدة مصطنعة مثل المطاط والبكليت واللدائن (Plastics) . ولقد بدأت الإصلاحات الداخلية فى المدينة الصناعية جزئياً من ناحية هذه الابتكارات التى نقرنها بانتشار عرف الحمامات الخاصة ، والتليفون ، والسيارة ، والمواصلات اللاسلكية .

يبد أن رد الفعل الذى نشأ عن النموذج المثالى لمدينة الفحم الكوك وكان أبعد مدى فى آثاره حتى عما تقدم ، كان ذلك الذى تمثل فى الفكرة التى أخذت تنبت فكرة الدولة التى توفر الخدمات العامة . وما من شاهد على ما أوجدته المدينة الصناعية من أحوال التدهور أو الأحوال السيئة بشكل صارخ أفضل من مجموعة التشريعات التى أخذت تتراكم فى القرن الأخير بغية إصلاح تلك الأحوال ، عن طريق أنظمة صحية وقائية وخدمات للصحة ، ومدارس عامة مجانية ، وتأمين للعمل ، وقواعد للحد الأدنى للأجور ، ونظام لإسكان العمال ، وإزالة المساكن الفقيرة ، إلى جانب إنشاء حدائق عامة وساحات للألعاب ، ومكتبات ومتاحف عامة . وما زالت هذه الإصلاحات فى حاجة إلى الإعراب عنها بأوفى معانيها فى شكل جديد للمدينة . ومع ذلك فإن المدينة الصناعية النمطية خلفت جروحاً عميقة فى البيئة ، وقد ظل باقياً بعض من أسوأ سماتها ، ولم يحدث إلا أنها عولجت علاجاً سطحياً بوسائل تقنية حديثة .

فقد ظلت السيارة سادرة فى تلويث الهواء منذ أكثر من نصف قرن دون أن يبذل مهندسوها أى مجهود جدى لكى يزيلوا من « العادم » أول أكسيد الكربون السام إلى درجة عالية ، وذلك على الرغم من أن استنشاقه بضع مرات فى حالته النقية يودى بالحياة . ولم يصلوا كذلك إلى إزالة المواد الابدروكربونية التى لم تحرق ، وهى التى تساعد على إنتاج الضباب الدخانى الذى ينشر غلالته على حاضرة شديدة الازدحام بالسيارات مثل لوس انجليس ، وكذلك فإن مهندسى النقل والطرق الرئيسية الذين أقدموا بلا اكتراث على أن يمدوا فى قلب المدن طرق انتقل السريع ، التى تتسع لسير عربات عديدة جنباً إلى جنب ، والذين دبوا مواقف تتسع لعدد ضخم من السيارات وحظائر تودع فيها السيارات — إن هؤلاء المهندسين قد كرروا — بطريقة فذة وعلى نطاق أوسع — أنكر الأخطاء التى ارتكبها مهندسو السكة الحديدية . والواقع أنه فى عين الوقت الذى كانت فيه السكة الحديدية

المقامة على قناطر مرتفعة ، والمستخدمة في النقل العام ، تجري إزالتها بوصفها مصدراً خطيراً للإزعاج ، قام هؤلاء المهندسون الغافلون بإعادة إنشاء ذات النوع من المنشآت - التي بطل استعمالها - من أجل راحة السيارات الخاصة . وهكذا فإن كثيراً مما يبدو في مظهر عصرى براق ، إنما يستعيد الوضع الأصلي لمدينة الفحم الكوك تحت طلاء من معدن الكروم .

وهناك ناحية من المدينة الحديثة ما زالت مدينة الفحم الكوك تسيطر عليها إلى مدى أبعد من ذلك ، بل إن النتائج النهائية التي أفضت إليها أشد أذى للحياة ؛ إذ أن حبك الربط بين المرافق الضرورية المنشأة تحت الأرض أسفر عن نتيجة لا مسوغ لها على الإطلاق ، وهي المدينة القائمة تحت الأرض التي ظن أنها مثالية . وكما يجدر بالمرء أن يتوقع من نظام انبثقت مبتكراته الرئيسية من المنجم ، فإن النفق والطريق المار تحت الأرض كانا وحدهما كل ما أسهم به هذا النظام في مجال الأوضاع الحضرية ، وليس مما يتنافى مع طبيعة خواص هذين المرفقين أنهما كليهما استمدا مباشرة من الفنون الحربية التي اتبعت أولاً في المدينة القديمة ، وفيما بعد في العمليات الدقيقة الخاصة بالنسف وبث الألغام التي كان يتطلبها قهر الحصون الباروكية . وإذا كانت وسائل النقل والوقاية ، التي كانت توجد على سطح الأرض في مدينة الفحم الكوك ، قد استبدلت على نطاق واسع ، فإن شبكة المرافق التي كانت تمتد تحت الأرض في تلك المدينة قد نمت وتشعبت ، فالأنابيب الرئيسية للمياه والمجاري والأنابيب الرئيسية للغاز والكهرباء كانت جميعاً تؤدي خدمات جليلة للمدينة القائمة على ظهر الأرض . وفي ظروف معينة محدودة ، يمكن تبرير السكة الحديدية التي تمتد تحت الأرض والنفق الخاص بالسيارات ، والمراحيض المنشأة تحت الأرض . بيد أن هذه المرافق قد تضخمت الآن بما زيد عليها من الحوانيت والمخازن التجارية المنشأة تحت الأرض ، وأخيراً بالمخائلي التي أنشئت تحت الأرض للوقاية من

الغارات الجوية ، كما لو كان نوع البيئة الذى قامت فيه الأجهزة والمرافق المادية للمدينة قد عاد على سكانه بأى فوائد حقيقية . ولسوء الحظ أن المدينة القائمة تحت الأرض تحتاج إلى الإشراف المستمر من جانب أفراد أحياء من البشر يستبقون أيضاً تحت الأرض ، وهذا الإلزام لا يكاد يقل عن الدفن قبل الأوان ، أو هو على الأقل من قبيل الإعداد للمعيشة فى داخل « كبسولات » ، وهو السبيل الوحيد الذى سوف يبقى مفتوحاً أمام أولئك الذين يسمون بأن التقدم الميكانيكى هو المسوغ الرئيسى لكفاح الإنسان فى الحياة .

والمدينة القائمة تحت الأرض نوع جديد من البيئة ، وما هو إلا امتداد لتلك البيئة التى فرضت على عامل المناخ ، وتقيس لهذه البيئة ، وإنما مع فصلها عن ظروفها ووضعها تحت سيطرة التحكم الميكانيكى فى كل ناحية : وهو ما جعلته ميسوراً الإضاءة الصناعية ، والتهوية الصناعية ، والحدود الصناعية . لمدى استجابة الإنسان لتلك الحدود التى يرى المهيمنون على تنظيم البيئة أنها كفيلة بالريح أو الوفاء بالغرض . ولقد تكونت هذه البيئة تدريجياً نتيجة سلسلة من الابتكارات التجريبية ، ومن ثم فإنه — حتى فى أعظم الحواضر طموحاً — قلما نجد أن الشوارع ، أو المرافق الممتدة تحت الأرض (مثل المجارى العظيمة فى باريس) قد روعى فى تصميمها اعتبار الوجهة الاقتصادية عند الترميم والاتصال بالمباني المجاورة ، ولو أنه من الواضح أنه فى أحياء المدينة الشديدة الازدحام ، يكون من شأن نفق واحد ، يمكن بلوغه من عدة أماكن ، أن يقوم بمهمة شريان جماعى وأن يؤدى فى النهاية إلى تحقيق اقتصاد كبير فى الجهد والنفقات .

وعندما قام هنرى رايت بدراسة تحليلية لتكاليف إنشاء المساكن منذ جيل مضى ، تكشف له أن تكاليف حجرة بأكملها ، كانت تنفق فى الشارع ، فى مختلف المنافع الآلية اللازمة لكى يؤدى المنزل مهمته . و منذ ذلك الحين زادت التكاليف النسبية لما يمد تحت الأرض من هذه الأنايب

والأسلاك والمجارى ، على حين أنه - مع كل توسع فى المدينة ومع كل زيادة فى فرط الازدحام الداخلى - تزداد أيضاً تكاليف النظام بأجمعه زيادة لا تتناسب مع ذلك .

وتحت ضغط التوسع فى إغداق المال على المدينة القائمة تحت الأرض يقل المال الذى يصبح فى متناول اليد لتوفير الأماكن الفضاء وفن المعمار الجميل فوق سطح الأرض ، والواقع أن الخطوة التالية فى مراحل تطور المدينة - وقد اتخذت الآن فى كثير من المدن الأمريكية - هى التوسع فى فكرة المدينة القائمة تحت الأرض حتى تمتد إلى تصميم المباني التى تقوم فعلاً فوق سطح الأرض ، وبذلك يقضى على الفن من جميع الوجوه ؛ إذ أنه حيال الاعتماد على الهواء المكيف والإضاءة الفلورية طوال النهار ، فإن المساحات الداخلية فى ناطحات السحاب الأمريكية الجديدة ، لا تختلف إلا قليلاً عما يكون عليه شأنها على عمق مائة قدم تحت سطح الأرض . ومهما يبلغ الإسراف فى الإنفاق على المعدات الميكانيكية ، فإنه لا يعد أكثر مما ينبغى فى سبيل الوصول إلى إيجاد هذه البيئة الداخلية الموحدة النسق ، ولو أن المهارة التقنية التى تبدل فى سبيل صنع مبان محكمة الإغلاق لا تستطيع أن تنشئ ما يعادل خافية عضوية لوظائف الإنسان ووجوه نشاطه .

وكل هذا ليس إلا من قبيل التمهيد ، فإن المدينة التى خلقت مدينة الأساليب التقنية العتيقة قد خلقت من الوسائل والظروف ما يحتمل أن يكون أشد فتكاً من تلك التى أودت بعدد كبير من الأرواح فى مدينة دونورا (Donora) بولاية بنسلفانيا بسبب ما حدث من تجمع غازات سامة ، أو تلك التى قتلت فى أسبوع واحد من ديسمبر عام ١٩٥٢ عدداً إضافياً من سكان لندن يقدر بخمسة آلاف فرد . وذلك أن استخدام البورانيوم للحصول على مواد قابلة للانفجار ، لينذر ، لو استمر ، بتسميم اليابسة والجو والمحيط الحيوى - دون أن نقول شيئاً عن مياه الشرب - على نحو سوف يبرهن أنكر مساوى للمدينة الصناعية الباكورة . فالعمليات

الصناعية السابقة على عهد الذرة كان في الاستطاعة وقفها ، كما أن فضلات الإنتاج كان في الوسع استهلاكها أو ردمها ، دون أن تكون مصدر شر مستديم .

بيد أنه عندما يحدث الانشطار ، فإن الفاعلية الإشعاعية التي تنطلق من عقابها تبعاً لذلك تظل باقية طوال حياة الأجسام الناتجة عن الانشطار ، وهي حياة تقدر أحياناً بقرون عديدة أو حتى بآلاف السنين . ولا يمكن تحويل الأجسام الناتجة عن الانشطار أو التخلص منها دون أن تلوث في النهاية المنطقة التي يلقي بها فيها ، سواء أكانت الطبقات العليا من الفضاء (استراتوسفير) أم في قاع المحيط . ومع ذلك يجري دون هواده صنع هذه المواد الفتاكة ، استعداداً لاعتداءات عسكرية جماعية تستهدف إبادة شعوب بأكملها . ولجعل هذه الاستعدادات الإجرامية الخنوية مستساغة ، دأبت السلطات العامة على تعويد مواطنيها السير وادعين إلى أقيية وطرق تحت سطح الأرض « للوقاية » . والنفقات المذهلة ، التي يستدعيها إنشاء شبكة كاملة من المدن تحت الأرض تكفي لإيواء السكان بأسرهم ، هي وحدها التي تحول الآن دون إساءة استخدام الطاقة البشرية على هذا الوجه الشاذ .

ورجل الصناعة في عهد الملكة فيكتوريا ، حين كان يعرض مواطنيه للسناج والضباب الدخاني ، ومرافق صحينة سيئة ولأمراض ناشئة عن البيئة ، كان يعتقد أن عمله يؤدي في النهاية إلى « السلام والوفرة » بيد أن خلفاءه في المدينة القائمة تحت الأرض لا تساورهم مثل هذه الأوهام ؛ فإنهم فريسة المخاوف للقهرية والخيالات الفاسدة التي قد تكون نتيجتها النهائية إبادة العالم ومحوه من الوجود ، وكلما أوغلوا في تكريس أنفسهم لجعل بيئتهم الحضرية تتلاءم مع هذا الاحتمال ، كان ذلك أدعى إلى الجزم بأنهم سيجلبون الفناء المطلق الشامل للجنس البشري ، وهو ما يسوغه الكثيرون منهم في أذهانهم بوصفه الثمن الضروري للحفاظ على « الحرية » و « المدنية » . وقد ألزم سادة القلعة القائمة تحت الأرض بشن حرب

لا يمكنهم وقفها ، وبشن هذه الحرب بأسلحة لا يمكنهم التحكم في نتائجها
النهائية ، ومن أجل أغراض لا يمكنهم تحقيقها . وتبعاً لذلك فإن المدينة
القائمة تحت الأرض تنذر بأن تغدو المثلوى الأخير لمدينتنا بعد إحراقها .
وليس أمام رجل العصر الحديث سبيل آخر سوى أن يبرز إلى النور من
جديد وأن تكون لديه الشجاعة لا ليفر إلى القمر ، بل ليعود إلى بيئته
البشرية - وأن يسيطر على ما يثير النزاع من العوامل القهرية والأعمال المنافية
للعقل التي يشارك فيها حكامه وناصحيه . ولا يقتصر واجبه على أن ينسى
ما تعلمه من فن الحرب ، بل عليه أن يتعلم فنون الحياة ويحذقها على نحو لم
يصل إليه إطلاقاً من قبل .

الفصل السادس عشر

النضوح وما وراءها

١ - النضامة التاريخية

إن أولئك الذين تولوا قيادة « سير المدنية » منذ القرن الثامن عشر كانوا يجنحون إلى احتقار الريف ، موطن الفلاحين المتأخرين ، والريفيين أصحاب الشعر الكث الغزير ، والأرستقراطيين الذين ينشدون اللهو ويعيشون من دخلهم الإقطاعي وليس على الأرباح التي يعتصرونها من التجارة والصناعة . بيد أنه حتى فيما بين المتفعين وقادة النفعين كان الدافع الذي يحملهم على الفرار من بيئتهم الصناعية دافعاً شائعاً ؛ ففي الواقع كان من أمارات النجاح أن يكون لدى المرء من الثروة ما يكفي للفرار من تلك البيئة .

وقبل أن تنشأ المدينة الصناعية بزمن طويل ، كانت فكرة الابتعاد عن تعقيدات المدنية قد أصبحت جذابة من جديد في نظر العقل الأوروبي ، كما سبق أن حدث إبان تدهور روما . فأمام الضجور والجور ، كان يوجد فتح واستعمار بلاد جديدة وما يقترن بذلك من المشاعر الخيالية التي كانت تثيرها في النفس تلك الفياثى الباقية على طبيعتها ، وأما من كانوا أكثر ميلاً للتأمل والتفكير وولعاً بالبقاء في موطنهم ، فقد كان أمامهم صيد السمك ، أو التجوال حيثما شاءوا ، أو فلاحية البساتين ، أو القيام برحلات للتنزه مع أسرهم ، أو الاستغراق في التأمل على انفراد وسط الغابات . ودون انتظار مجيء روسو ليثبت أن أغلب ما في الحياة من علل كان مرجعه إلى الطقوس العقيمة لمدينة جاوزت الحد في رفاقتها ، فإن

كثيرين من الأوروبيين كانوا قد بدأوا يتصرفون على أساس هذه المقدمات .

وكانت حياة الريف تبدو أفضل حالا ، وكلما ازداد المرء ابتعاداً عن المدينة ، ازداد اكتساباً للصحة والحرية والاستقلال . والواقع أن أغلب المزايا الصحية التي توافرت لضاحية القرن التاسع عشر كان قد سبق إدماجها في المدينة الريفية ، مع مزيد من المراعاة للاختلاط والتعاون الاجتماعي على وجه يفوق ما كان يمكن تحقيقه في مجتمعات الضاحية ذي الطبقة الواحدة . وقد أثبتت جداول التأمين على الحياة تفوق الريف من حيث القوة الحيوية الحيوانية ، ففي إنجلترا كان الفلاح والسيد الريفي أوفر الناس حظاً من حيث طول الأجل .

وعلى الرغم من أن ظهور الضاحية أوجد تغييرات هامة في كل من المشتكلات الاجتماعية والنظام المكاني في المدينة ، فإنه من الغريب أن أغلب من قاموا بتفسير تطور المدينة قد أغضوا عنها حتى عهد قريب ، وحتى القليل من الكتاب الذين تناولوا في إيجاز تخطيط الضاحية - وبخاصة الأستاذ كريستوفر تشارد Professor Christopher Tunnard - اعتبروها ظاهرة حديثة نسبياً . ولكن واقع الأمر هو أن الضاحية ظهرت في الوجود تقريباً في عين الوقت الباكر الذي ظهرت فيه المدينة . ولعل هذا يفسر قدرة المدينة القديمة على البقاء برغم سوء الحالة الصحية التي كانت سائدة في داخل أسوارها . (وقد عثر وولي Woolley على أدلة عن إقامة منشآت في ضواحي « أور العظمى » فيما وراء المنطقة التي أقيمت عليها مباني المدينة ، وهي عبارة عن مبان متناثرة في منطقة تمتد حتى معبد العبيد على بعد أربعة أميال) . وإذا كنا في شك فيما يتعلق بتخطيط المدينة المصرية والجزء الأوسط فيها ، فإن كلا من التصاوير والنماذج الجنائزية تطالعنا « بفيلة » الضاحية ذات الحدائق الفسيحة . وقد ورد في التوراة ذكر أكواخ صغيرة كانت

تبنى في وسط الحقول أو ساحات الكروم المفتوحة ، ولعلها كانت لحراسة المحصولات في أثناء الليل عندما كانت على وشك أن تجمع ، ولكن لا شك في أنها كانت أيضا لإنعاش النفس وقد سئمت الآجر والروائح الكريهة في المدينة ذاتها . وما زال يحتفل بذكرى هذه المأوى الواهية في عيد اليهود بمناسبة محصول الخريف .

وفي جميع عصور التاريخ ، نجد أن أولئك الذين كانوا يملكون أو يستأجرون أرضاً خارج أسوار المدينة ، وحتى إذا كانوا لا يزالون فعلا عملا زراعياً ، كان يعينهم أن يكون لهم في الريف كوخ صغير أو منزل بسيط أو مأوى يتفأ ظلال كرمه ، مما يشيد للإقامة المؤقتة إن لم يكن للإقامة المستديمة . ولم ينتظر سكان المدن الباكورة مجئ وسائل النقل السريعة للانتفاع بهذا الاسترواح الريفى . وطوال الوقت الذى بقيت فيه المدينة نسياً وحدة متماسكة مستقلة بمحتوياتها ، كان من الميسور الاحتفاظ بتوازن بين المهن الريفية والحضرية ، أجل ، وبين ألوان المتعة الريفية والحضرية ، كالمأكل والمشرب والرقص والألعاب الرياضية ومطارحة الغرام ، وكانت كل وسيلة من وسائل الترويح عن النفس تحوطها هالة من جو الأعياد وسط منظر طبيعى تنتشر فيه الخضرة ويسطع فيه ضوء الشمس . وكان من أكبر مساوئ استدرار النوا الحضرى أنه جعل هذا الإطار الباعث على السرور شديد البعد عن المدينة وقصره باطراد على الطبقات الحاكمة .

وقد رأينا في الفترات السابقة أنه لما كانت طوائف ومنظمات جديدة تتطلب حيزاً أوسع مما كان يتسنى للمدينة المكتظة أن توفره ، فإنها استقرت بحكم الضرورة في أطرافها ، في مناطق صغيرة منعزلة . ولم يكن الايسكليبيوم (Aesclepium) بجيزة كوس هو وحده الذى يقع خارج المدينة - على حد ما يروى لنا سارتون - بل إن الجمنازيوم وحتى الأكاديمية كان كثيراً

ما يختار لها موقع في ضواحي المدينة الإغريقية ، على غرار الحديقة التي تقررنا باسم الفيلسوف أبيقور .

وقد رأينا كذلك في العصور الوسطى أن الدير كثيراً ما كان يستقر خارج أسوار المدينة بعد القرن الثاني عشر ، قبل أن تطوقه المدينة نتيجة نموها المتزايد . وفي كل حالة ، كان النموذج المميز للضاحية نموذجاً طلق الهواء ، حيث كانت تقوم جنباً إلى جنب المباني ، حدائق وبساتين للفاكهة ومماشٍ ظليلة وليس فضاء مقفراً . والجامعات العظيمة مثل أوكسفورد وكمبرج ، التي نشأت في مدن ريفية ، نشدت وأوجدت لنفسها بيئة تماثل بيئة الحدائق ، وفي الواقع لعل جهودها من أجل الفوز بترف الرحابة زاد من استعمار العداء بين المدينة والجامعة .

ويشير الظهور الباكر للضاحية إلى حقيقة أخرى أخطر شأنها ، وهي أن وسائل إعالة الحياة - من فلاحه بساتين وزراعة ، ومن رياضة وألعاب ، ومن مصحات ومنتجعات للصحة - تنتمي إلى الريف المجاور للمدينة ، حتى عندما تكون الوظائف التي تنهض بها ناشئة عن احتياجات المدينة . ووجوه النقص فيها .

حقاً إنه عند حلول القرن التاسع عشر كانت الحركة الرومنطيقية قد أوجدت تفسيراً عقلياً جديداً لحركة الهجرة إلى الضواحي ، وكان قد تولد عن اطراد ازدياد الدخان وفرط الازدحام في المدينة حافظ جديد إلى هذه الهجرة ، بيد أنه من الخطأ اعتبار سكنى الضواحي مجرد نتيجة لهذا الرأي الفلسفي ، فإنها كانت ذات جذور أقدم وأعمق من ذلك . وإن ما يحتاج إلى تعليل ليس الهيام بالطبيعة الذي أصبح عاماً شائعاً في القرن الثامن عشر وأحدث تأثيراً في كل شيء من الطب إلى التعليم ، ومن العمارة إلى الطهي ، بل على الأصح أن الناس كثيراً ما تشبثوا مدى قرون ببيئة مزدحمة أنهكت قواها ، وتبدلت طبيعتها ، وضائق الخناق عليها ، وكان أكبر أسباب عزائهم عما كانوا فيه من بؤس صحية أمثالهم من البؤساء .

وعندما ترسم خرائط وتؤخذ مناظر من الجو لمدن العهد الأخير من العصور الوسطى ، سوف نرى أدلة مفصلة عن وجود أكواخ ومنازل صغيرة و « فيلات » مع حدائق فسيحة خارج أسوار المدينة ؛ إذ أنه عند حلول القرن السادس عشر كانت الأرض المستعملة على هذا الوجه تستخدم لأغراض تتجاوز الإقامة في الصيف والتريض . والواقع أن فيلاني^(١) (Villani) يحدثنا منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث عشر بأن الأرض الواقعة حول فلورنسا في دائرة قطرها ثلاثة أميال كانت تشغلها ضياع غنية ذات قصور فاخرة ، ولم تكن أسر البندقية متخلفة عن ذلك بفيلانها القائمة على نهر برنتا . فنجد مبدأ الأمر كانت مزايا ومباهج السكنى في الضواحي مقصورة إلى حد كبير على الطبقة العليا ، ولذلك فإن الضاحية يمكن أن توصف على وجه التقريب بأنها الشكل الحضري الجماعي للمنزل الريفي - المنزل القائم وسط حديقة - نظراً إلى أن أسلوب الحياة في الضواحي مستمد إلى مدى بعيد من الحياة الأرستقراطية الرخية اللاهبة الاستهلاكية التي أسفر عنها التطور من الحياة الحشنة المضنية الحافلة بالقتال في عهد الحصن الإقطاعي .

وبعد فيلاني بيضعة قرون ، لاحظ ستو أن الناس كانوا ينشئون خارج أسوار لندن حدائق صغيرة ومنازل صيفية غريبة الشكل « شبيهة بمناظر مواكب الصيف ، ذات أبراج كبيرة وصغيرة ومداخل » ، وذلك في وقت سبق بمائتي سنة انسياق الناس مع الوجدان ، وشروعهم في إنشاء « فيلات » غريبة الشكل ، وارتكاب ضروب الحماقة التي صيبت لإحياء الطراز القوطي . وتوجد إشارة إلى النوع الجديد من الضاحية في كتاب « رجل البلاط الأنجليزى » (The English Courtier) ، فقد ورد فيه « ومن عادة السادة والنبلاء أيضاً أن يقيموا لأنفسهم مساكن (إذا كان ذلك في مقدورهم) ، في ضواحي المدينة ؛ إذ أنه في أغلب الأحيان يكون الموقع صحيحاً نظراً إلى أن

(١) كان جوفاني فيلاني مؤرخاً إيطالياً من فلورنسا (١٢٧٥ - ١٣٤٨) .

الهواء طلق إلى حد ما ، ولا يكون الضجيج شديداً بسبب البعد عن صميم المدينة ، ونتيجة لذلك يكون الموقع هادئاً . ومن أجل توفير أسباب الراحة أيضاً ، نجد أن كثيراً من المساكن فسيحة وعديدة الغرف ولها حدائق وبساتين للفاكهة تسر الخاطر . ولذلك فإننا بفضل حسن الإدارة نقل لدينا أسباب الخوف من العدوى مثلما نقل في الريف وماؤنا ممتاز ويفضل بكثير أى نوع قد يوجد لديكم ، وينساب فوق أراض وحقول أشد ما تكون إشاعة للبهجة والسرور .

وعلى الرغم من أن تفوق الضاحية من الوجهة الصحية كان أحد العوامل الكبرى في اجتذاب الناس إليها ، مما جعل الأطباء يثابرون على تركيتها ، فإن هناك شيئاً آخر كان يغري الناس بترك المدينة ، وعلى نحو ما يجد المرء أقدم دليل على حركة العودة إلى أحضان الطبيعة ، في اللوحات التي رسمها بيرو دي كوزيمو (Piero di Cosimo) ، فإنه يجد كذلك مسوغاً لتطور الضاحية من الناحيتين الجمالية والنفسانية في الرسالة التي وضعها البيرتي عن البناء ، فقد لاحظ أن « الإنسان يشعر بغبطة كبرى في مأوى ملائم على مقربة من المدينة ، حيث تتوافر له الحرية في أن يفعل ما يشاء » . وهذه هي النغمة الحقيقية لصوت الضاحية ، بل إنها في الواقع إرهاب لما يجري في الوقت الحاضر من الاهتمام « اللاحضري » بعدم الكلفة في اللبس ، فإن البيرتي يصصر على القول : « أما من ناحيتي ، فإني لا أحبذ أن تكون لي [فيلا] في مكان يقع مثل الجهة التي يجب ألا أجد فيها إطلاقاً على الظهور عند باب منزلي دون أن أكون مرتدياً ملابسى بأكملها » .

وأما من حيث صفات كل من المنزل والموقع من الناحية الجمالية ، فإن أولى أحاسيس البيرتي تكاد تكون الكلمة الأخيرة المثالية في هذا الصدد : « إن وجوه الجمال الكبرى في مثل هذا المأوى ، هي أنه قريب من المدينة ، وواقع على طريق طلق الهواء ، وفي بقعة من الأرض تبعث السرور في

النفس ، وإن أعظم ما يزكّيه هو أنه يبدو بهيج المظهر أمام من يخرجون من المدينة لاستنشاق الهواء على بعد مسافة قليلة منها : كما لو بدا أنه يدعو إليه كل من تقع عينه عليه . . . كما ينبغي ألا يوجد أى نقص من حيث المناظر الطبيعية السارة ، والمراعى الحافلة بالأزهار ، والأراضى المنبسطة ، والفيافي الظليلة ، أو الجداول ذات الماء الصافى أو مجارى المياه والبحيرات الصالحة للعوام وكل المباحج الأخرى التى من هذا القبيل وأخيراً . . . سأعنى بأن تكون واجهة المنزل ومبناه بأكمله مغمورين بالضوء على أتم وجهه ، وأن يكون به من الفتحات ما يتيح له الحصول على قدر عظيم من الضوء والشمس وعلى مقدار كاف من الهواء الصحى . وعندما يستطرد إلى الحث على إنشاء حجرات مستديرة وحجرات مربعة ، وبيان الحجرات التى يمكن أن تقام فى طابق واحد : لا مناص من أن يتساءل المرء عما تركه لابتداع المهندس المعمارى فى أوائل القرن العشرين ، فقد أورد المواصفات الكاملة لنظام المنزل فى الضواحي .

وعلى الرغم من أن الابتعاد عن المدينة كان يتضمن مزايا جليلة للصحة وحياة الأسرة ، فإنه كان كذلك محاولة للتحرر مما كان يوجد أحياناً فى المجتمع الحضرى من التقاليد والالتزامات الكثيفة ، فهى محاولة — إذا ما توافرت الوسائل المالية الضرورية — لكى ينظم المرء حياته وفق مشيئته شخصياً ، ولو أدى ذلك إلى أن يعيش بمفرده ، أى فوضوية المال الوفير ، أو مروق الفرد عن العادات والتقاليد ، إذ يحاول أن يؤدى فى داخل حدود أسرة بمفردها مهام مجتمع بأكمله . وهذا ينطبق على كل من ساكن الضاحية ومنزله ، وهنا أيضاً يزودنا البيرقى بالاستشهاد المثالى على الفارق بين الحياة المنزلية فى المدينة وفى الضاحية ، فعنده أن هذا الفارق « عبارة عن أنك فى المدينة تكون مضطراً إلى تحديد مستواك فى عدة نواح طبقاً لما يمتاز به جارك عنك ، على حين أنه فى الريف تكون لديك حرية أوسع نطاقاً من ذلك بكثير » .

وأن تكون على سجيتك الفريدة ، وأن تبني منزلك الفريد وسط منظر طبيعي فريد ، وأن نحيا في هذا الملكوت المطابق لتصورات أرنهيم^(١) Arnheim حياة منطوية على نفسها يُطلق فيها العنان لخيلات النفس وأهوائها الخاصة لتعرب عن ذاتها جهارا ، وجملة القول أن يعتزل المرء الناس كراهب ويعيش كأمر — هذه هي الغاية التي استهدفها من قاموا أصلا بإنشاء الضاحية . فقد قصدوا في الواقع إلى إنشاء ملاذ يتسنى لهم فيه ، بصفتهم أفرادا ، أن يتغلبوا على ما في المدينة من عيوب مزمنة على حين يظل رهن إرادتهم التمتع بما في المجتمع الحضري من مزايا وفوائد . وقد ثبت أن من الممكن تحقيق هذا الحلم الخيالي إلى حد ما ، وبلغ من تأثير سحره في النفوس أن أولئك الذين استنبطوه عجزوا عن إدراك مصيره المشؤم ، وهو الرواج والذبوع ؛ إذ أن إقبال سيل طاغ من الجماهير عليه كان من شأن ضخامته أن تقضى على كل المزايا التي كان كل فرد ينشدها للدائرة المنزلية الخاصة به وحده ، وأسوأ من ذلك أن تستبدل هذه المزايا حياة لم تكن حتى بديلا تافها ، بل نقيضا بشعا .

ولم تظهر النتيجة النهائية لتباعد الضاحية عن المدينة إلا في القرن العشرين ، تبعا لانتشار الأفكار الديمقراطية بفضل كثرة التماثل والإنتاج بالجملة . وقد نشأ عن انتقال الجماهير إلى مناطق الضواحي نوع جديد من المجتمع ، كان صورة ممسوخة لكل من المدينة التاريخية والنموذج الأصلي لماوى الضاحية ، أو كان عبارة عن مجموعة من المنازل المتوافقة الحالية مما يميزها ، التي صفت وفقا لنظام صارم ، على بعد مسافات متوافقة في طرق متوافقة ، في قفر مأهول لا سحر فيه ، يسكنه ناس من عين الطبقة ، لهم عين الدخول ، ومن عين الفتنة في السن ، ويشاهدون عين البرامج

(١) رودلف أرنهيم أستاذ أمريكي من معتق مذهب الجشطلت .

التليفزيونية ، وبأكلون عين الأطعمة المجهزة مقدما والعديمة الطعم ، الآتية من عين الثلاثات ، ويطابقون في كل مظهر خارجي وداخلي لطابع عام مشترك صاغته الحاضرة المركزية . وعلى ذلك فإن النتيجة النهائية للفرار إلى الضواحي في وقتنا الحاضر هي وباللشخيرة وجود بيئات منحطة متوافقة . ولا سبيل إلى الفرار منها . وإن ما آلت إليه الهجرة إلى الضواحي في الولايات المتحدة ليلنذر الآن بأن يكون مآلها في كل مكان آخر على نحو يعادل ذلك . في سرعة وقوعه عن طريق عين الوسائل الميكانيكية التي عاونت على حدوثه . ما لم تتخذ أشد التدابير المضادة .

ولكن قبل أن نواجه هذه الصورة النهائية الممسوخة للحياة في الضواحي . حياة طليقة من كل قيد ، والمعيشة وفق الطبيعة من أجل الصحة وتنشئة الأطفال ، فلتأمل بمزيد من الدقة في التطور الفعلي لوعاء الضاحية . وذلك . لأننا سوف نرى أنه قد نشأ عن هذا التصدع في الأوضاع الحضرية القديمة ، وعمما في مجتمع الضاحية من الحرية المضطربة ومن عدم الترابط المكاني ، أولى التغيرات الجوهرية التي طرأت على التكوين الحضري ، وهي التي كانت تماثل ، دون أن نشعر ، التغيرات التي أخذت تطرأ على تصورنا بأسره للكون . ولا يوجد إلا قدر قليل من الشبه بين الضاحية ، بتكوينها الذي يتخلله كثير من الفجوات المفتوحة على نحو ما يوجد في جوانب السلال ، وبين الوعاء الحجري الصلد ، الذي عرفته حضارة العهد الأخير للعصر الحجري الحديث . وعلى الرغم من أن الضاحية كان ينقصها كثير من صفات المدينة القديمة ، فإنها كانت بمثابة حقل تجارب لنشوء نوع جديد من التخطيط المفتوح ، وتوزيع جديد للوظائف الحضرية .

وعلى هذا فإن الضاحية مهدت السبيل لنوع أرق من التخطيط لم يتم بعد الإعراب عنه ، أو تحقيقه على وجه كامل في أي مكان بحيث نجد كل من الوظائف الثابتة والدينامية — أي وظائف الوعاء والقطب المغنطيسي —

تعبيراً جديداً عنها . وعلى الرغم من أن الضاحية ، بوضعها الراهن ، تنتمي إلى الماضي وقد سبق أن أحيطت بغلاف من التجمع الحضري ، فإن بعضاً من الدروس التي حذقها لأول مرة المحدثون من المخططين في إنشاء الضاحية يجب أن تدمج في المفهوم الجديد للمدينة :

٢ — مراحل نمو الضاحية

منذ القرن الثالث عشر ، كان الخوف من الطاعون يحفز من حين لآخر على الهجرة من المدينة ، وعلى ضوء هذا يمكن القول بأن الضاحية بدأت بمثابة نوع من أماكن العزل الريفية . وحتى في الوقت الحاضر ، نجد في دراسة إحصائية لأسباب الانتقال من مدينة كليفلاند إلى الضواحي أن أكبر نسبة مثوبة بين الأسباب المحبذة لهذه الحركة ، وهي تبلغ ٦١ في المائة ، كانت « للمعيشة في بيئة أنقى وأصح » ، على حين أن ٨ في المائة كانوا ينشدون مدارس أفضل أو فرصة لامتلاك منازلهم . بيد أن ٢٨ في المائة فقط كانوا يرغبون في الحصول على فناء أو حديقة .

ففي كل عصر إذن كان يهيء الدوافع السلبية والإيجابية : الخوف مما في المدينة من أسباب العدوى وما في الريف الطلق من ضروب الجاذبية . ومن الواضح أنه كان لكل هذه الدوافع أثرها في حالة السيدات والسادة التي وصفها بوكاتشو في مؤلفه القصصي (The Decameron) عندما فروا من فلورنسا الموبوءة بالطاعون ، إزاء ما كان يهددهم على السواء من جانب جشث الموتى وأقذار الأحياء ، إلى منزل ريفي على مرتفعات فيسولي (Fiesole) . وطبيعة موقع المنزل تدل في ذاتها على أن الأترورين كانوا أحسن تقديرًا للموقع الصحي من الرومان الذين أنشأوا فلورنسا .

فالهواء النقي ، والماء النقي ، والخلاص من ضوضاء الناس المزعجة ، والحقول المفتوحة لركوب الخيل ، والطراد ، ورمي السهام ، والتجوال

في الريف - هذه هي الصفات التي كان يقدرها على اندوام أفراد الطبقة الأرستقراطية في كل مكان ، ولعلها هي السبب فيما يتسمون به من لياقة بدنية وثقة بالنفس هما على طرفي نقيض من ألوان الضجر والتشويه والعجز التي يُرْزَأُ بها الكادح الحضري المتخصص بسبب البقاء طويلا في المصنع أو المكتب أو المكتبة . وعندما جاء عهد الملكة اليزابيث ، كانت الدور العظيمة للطبقة الأرستقراطية تصطف على امتداد شارع ستراند في لندن وكانت حدائقها تمتد إلى حافة النهر ، على حين أن منطقة من الأراضي الزراعية كانت تفصلها عن « التيمبل » وحركة المدينة في الناحية الشرقية . وكذلك كانت دور الطبقة الراقية في باريس - على الضفة اليسرى لنهر السين - تماثل مساكن الضواحي في اتساعها حتى إن كانت أفنيها وقصورها المحوطة بالأسوار تؤلف واجهة تطل في تواصل على الشارع فتخفي ما وراءها من الحدائق الفسيحة .

وأحب أن أؤكد أهمية تطلب الاتساع ، فهو الذي غير معيار التخطيط الحضري عندما لم يعد بقاء التحصينات الواقية ضرورياً لضمان الأمان . ومهما تكن المظاهر الأخرى التي تمثلت في الضاحية ، فإنها أوحى بضرورة اتساع مساحة المناطق المطلقة الهواء من حدائق وأراض مكسوة بالحشائش بوصفها من الملحقات الحليقة بالمدينة . وما كان في وقت ما لا يتسنى إلا للملوك أن يتطلبوه ، أصبح الآن من حق كل فرد من عامة الشعب يستطيع أن يضع يده على الأرض نفسها . وكلما كانت الأحياء القديمة في المدينة أكثر انحباساً كانت شوارعها ومنازلها أكثر انضغاطاً ، وكان ارتياح العين إلى طلاقة الضاحية أكبر وأعظم . والواقع أن جانباً مهماً للضاحية من قيمة جمالية - وهو يمثل ميزتها الخاصة من الناحية النفسانية - ينبثق من حركة الانتقال اليومية بينها وبين المدينة ذهاباً وإياباً ، وما يقترن ذلك من تناوب بين الطلاقة والإحاطة ، بين الرحابة والضيق ، بين سهولة

التنقل واختناق حركة المرور ، بين الاتساع وفرط الازدحام ، فهذه المفارقات ترهف الإحساس بما للضاحية من مزايا جمالية طبيعية .

وعندما أصبح ازدحام الحواضر الكبرى والمدن الصناعية الآخذة في الانتشار حالة مزمنة في القرن الثامن عشر ، أصبحت تبعاً لذلك الحاجة إلى الابتعاد عن المدينة أمراً لا مناص منه ولا يمكن إغفاله . وإذا لم يغادر الإنسان المدينة نهائياً من تلقاء نفسه فإن أوامر الطبيب كانت تحمله على أن يقيم مؤقتاً في منتجع للصحة ، للاستحمام أو تناول المياه المعدنية ، أو على شاطئ البحر ، أو أن يتخذ له سكناً مستديماً في ضاحية خارج المدينة القذرة . وقد لاحظ سوم جينيز (Soame Jenyns) في سنة ١٧٩٥ أن زوجات التجار اللاتي كن يشعرن بالاختناق من جراء الدخان في لندن ، كان لا بد من أن تكون لهن « فيلات » في كلاهام (Clapham) ، وكانت همستيد (Hampstead) البقعة المفضلة لدى من توافرت لديهم الموارد التي كانت تمكنهم من الإقامة بها ، نظراً إلى أن موقعها المرتفع لا يزال حتى الآن يهيء لها هواء نقياً عندما يكون الضباب الدخاني مطبقاً على بقية لندن ويكاد يكتم أنفاسها . وعند منتصف القرن التاسع عشر أضافت المخاوف من سوء حالة الفقراء حافزاً جديداً إلى الهجرة من المدينة ، فقد لاحظ أحد الكتاب في مجلة كوارترلي (Quarterly Review) في سنة ١٨٥٠ أنه « ما من شيء عاون على ابتعاد الموسرين عن مساكن الفقراء مثل الفرع من سوء حالتهم الصحية وقذارتهم » .

ولقد سارت حركة الهجرة إلى الضواحي على نحو أبطل من ذلك في المناطق الحضرية التي كانت صناعية بحت ، حيث كان النبات المختنق بالدخان ينمو بصعوبة ، وكانت المناطق التي يمكن أن تُنشأ فيها بساتين وحدائق يستولى عليها لاتخاذها مواقع لأكداس القمامة وأكوام الخبث ، وحيث كان تجمع مداخل المصانع ينفث من الحمم ما يكفي في الواقع لتلويث

فاحبة من الريف بأسرها . بيد أن الضاحية ازدهرت حول المدن التي كان سكانها أكثر تنوعاً من سكان المدن الصناعية البحت — ازدهرت الضاحية بما تسرب إليها من الطبقة الأرستقراطية الريفية ومن أرباب الفراغ ، وفي نهاية الأمر ، كما حدث في ادجباستون (Edgbaston) ببرمنجهام ، أصبحت تضم الأصلب عوداً من ضيق الأفق غير المثقفين الذين لم يكن لهم هم إلا جمع المال ، مثل شخصيتي بوندرباي (Bonderby) وجرادجريند (Gradgrind) اللتين صورهما ديكنز في روايته « أوقات عصيبة » . ولا شك أنه في مبدأ الأمر كانت سبل الإقامة في الضواحي مقصورة على أولئك الذين كانوا على شاكلة والدجون رسكين ، أي ممن كان يتوافر لهم من الموارد ما يمكنهم من أن يكون لديهم جواد ومركبة وسائق ، أو كانوا على الأقل يستطيعون تحمل الأجر المرتفع للرحلة اليومية بالمركبة العامة . بيد أنه عند نهاية القرن الثامن عشر ، كانت بيئة جديدة آخذة في التكوين في لندن — وبعد ذلك بطبيعة الحال في أماكن أخرى — حول أطراف المدينة ، بارنز (Barnes) وغابة سانت جونز (St. John's wood) وهمستد ، وفيما بعد بدفورد بارك (Bedford Park) وبتني (Putney) وهمرسميث (Hammersmith) . ولم يكن من شأن الانتقال على نطاق واسع بالسكة الحديدية فوق وتحت سطح الأرض إلا أنه وسع نطاق الأساس الاقتصادي لحركة كانت قد بدأت بين الطبقات العليا قبل ابتكار تلك الوسيلة يزم من طويل .

وقد ظل نموذج الشوارع في هذه المناطق الجديدة للقرن الثامن عشر قائماً زمنياً على نظام رتيب يكاد يتعذر تمييزه عن نظام الشوارع في المدينة الرئيسية . وفيما عدا وفرة اتساع المكان المخصص للحديقة لم يوجد في نظام التنسيق الشكلي إلا القليل من الأمارات المميزة للضاحية في أوائل عهد الملكة فيكتوريا ، وحتى هذا الفارق لم يكن ليختلف عما كان يوجد في الأحياء

الحديدة في مركز مستقل لانتجاع الصحة أو في بلد يعتكف فيه أرباب المعاشات مثل مالفرن الكبرى (Great Malvern) . وكانت المنازل من نوع المنازل الحضرية الفسيحة العادية ، وكان تخطيطها منتظما ، وفي الغالب مربع الشكل . وكانت سقوف الحجرات مرتفعة ، فكانت « فيلات » من الطراز الذي اشتهر به المعماري الإيطالي بالاديو (Palladio) (١) إن لم تكن من الطراز القوطي ، أو - وهذا في أمريكا - الطراز الكاذب للمعابد الإغريقية محاكية روعة المباني المرمية وسط ساحة منبسطة يكسوها عشب سندس لم ينم إطلاقا في بلاد الإغريق . بيد أنه عندما انتصف القرن التاسع عشر كانت النزعة الرومنطيقية في تخطيط المنظر الطبيعي قد بدأ يظهر أثرها في العمارة وتخطيط المدن بترجيح كفة ما هو طبيعي ، أي ما هو طبق من التبود ، وما هو عرضي ، متقلب الأطوار ، خارج عل القواعد . وعدم مخططو المدن الجدد إلى تطبيق مبدأ حرية العمل على البيئة ومباني الإنسان في آن واحد . وقد كان المذهب الرومنطيقى ثورة على النظام ، أو بعبارة أخرى غوثا من الالتزامات المرهقة التي كانت تفرضها الحياة اليومية الرتيبة المنظمة على نسق ممل صارم . وهذه المبالغة التسلية واتباع النزوات ، بما ينطوى عليه ذلك من نبذ ما خلفته التقاليد من قواعد التوجيه ونظم خائقة بإجادة العمل ، تطرقت في النهاية إلى تربية النشء .

وكان الفنان الرومنطيقى يفضل الأصالة الجافية على المطابقة المبهدة ، وكان هذا الجفاء بما لا يمكن استساغته في مجموعته إلا بانقصاله مكانيا انفصالا تاما عن باقي المجتمع . وهذه المبادئ المتعلقة بالمصادفة المدبرة والعبث المتعمد كان لا يتيسر المضي فيها إلى غايتها المثالية إلا في حديقة عامة خلوية ، وعلى ذلك فإن الشكل الجديد للصاحبة أصبح عبارة عن مبان متفرقة .

(١) اشتهر بالاديو (١٥١٨ - ١٥٨٠) بتصميم مبان فخمة مستمدة من

الطراز الروماني .

أرجاء حديقة عامة . ومن كل الوجوه سبقت الحديقة الوضع الحضري الحديد وطبعته بخصائص معينة لم يسبق إطلاقاً أنها كانت موضع رغبة أو تدبير ، فهد هذا الانطلاق السيل إلى مبتكرات جديدة .

وحديقة سنرال بارك كما صممها أولستد وفو (Olmsted and Vaux) ، كانت متفوقة بنظام توزيع شوارعها على كل تخطيط للمدن اتبع فيه النظام التقليدي المستوى ، فإنه باستخدام الممرات العلوية والممرات السفلية ، حيثما كان ذلك ميسوراً ، هيأت الحديقة أربع شبكات مستقلة لحركة المرور فيها ، وهى طرق للمشاة ، ومسالك لراكبي الخيول ، وطرق للتنزه بالعربات ، وطرق رئيسية عبر الحديقة لحركة المرور في المدينة . وهذه الخطة ، بتدبيرها الوسائل لسير حركة المرور دون عائق ولتأمين عبور الشوارع ، قدمت خدمة فريدة لتخطيط المدن .

وباتباع المبادئ الرومنطيقية ، ضرب عن عمد بالتقاليد المألوفة عرض الحائط في منزل الضاحية وأرض المباني والحديقة . وكان الشارع يتجنب اتباع الخطوط المستقيمة حتى عندما كانت الطبيعة لا تهيب منحنيات ؛ فقد كان من الممكن أن ينعطف ، إبقاء على شجرة ، أو حتى يصون الاستدارة القوية لمنحدر تل . وقيل آخر القرن التاسع عشر ، أفضت هذه النزعة ، نزعة احترام الطبيعة ، إلى اتخاذ ما في خطوط الكتور من فروق ضئيلة قواعد حاسمة للاسترشاد بها ، وذلك من أجل ما ينشأ عنها من عدم الانتظام ، وفي هذا تقريع مفرط لما جرت عليه عادة مهندس البلدية من إغفال تلك الفروق إغفالاً تاماً باهظ النفقات .

وكثيراً ما كانت أوضاع طبيعية بسيطة أقل نفقة من بديلاتهما الميكانيكية ، ولم يكن هذا كشفاً قليل الشأن في عصر كان بفضل الأسوار الحديدية على الأسوجة المؤلفة من النباتات ، أو « الرصف » على بساط الحشائش ، أو الأزهار التي كان العمال يكسحون في صنعها من الورق أو الشمع على

الأزهار النابتة من الأرض . وهذه الحقيقة لا تزال جديرة بأن نذكرها في وقتنا الحاضر عندما يقوم المهندسون المعماريون بتصميم المباني دون مراعاة للاتجاه ، أو المنظر ، أو المناخ ، لتسويغ نظام ميكانيكي دقيق لتكييف الهواء ، ويحكمون إغلاق مبانيهم بجوائط زجاجية وستائر معدنية (Venetian blinds) تمنح كل المزايا الصحية التي يمكن أن تستمد من ضوء الشمس الطلق والهواء الطبيعي الذي :

وعلى نقيض رومنتيقية اليوم المزيفة ، رومنتيقية المكنة ، فإن المعماريين والمشتغلين بالتخطيط في عهد الحركة الرومنطيقية الباكورة ، أثبتوا عمليا أن نهجهم كان أكثر انساما بالعلم والعقل . ونظراً إلى أن تخطيط الضاحية كان يقتصد في وسائل الراحة الميكانيكية ، فقد توافر فيه من المكان وأسباب التيسير ما يمكن من أداء وظائف أخرى أكثر ضرورة للحياة ، وكثيراً ما كان منزل الضاحية يوضع عمداً في اتجاه يراعى فيه استقبال ضوء الشمس ، أو نسائم الصيف ، أو منظر طبيعي ، على حين أن زروعا من الأشجار ، أو الأجمات ، كانت تقوم بمهمة حواجز لصد الرياح عن الحديقة والمنزل في آن واحد . فنزل الإقامة في الضاحية ، بمراعاته مجموعة معقدة من الفوائد المنزلية والبيولوجية ، قد حقق وضعاً جديداً أكثر ملاءمة للحياة العائلية في جميع مراحل تطورها .

والواقع أنه انبثق من الضاحية نوع جديد من العمارة المنزلية يطابق في طبيعة تكوينه - من حيث الصورة والوظائف التي يؤديها - الحياة القائمة في الداخل ، والمنظر الطبيعي في الخارج ، فهي منازل وحدات بلغت بما في البيت الريفي من المزايا التقليدية إلى درجة محسوسة من الكمال ، مع توفير منافع جديدة غير ميسورة إلا في عصرنا الحاضر . وعن طريق الاقتصاد في أعمال الرصف ، وإنشاء طوارق للطرق ، وأسوار عالية مبنية من الأحجار ، وما لا ضرورة له من الطرق العريضة والشوارع الفسيحة ،

تيسر لمخطط الضاحية أن يوفر المال للأشجار والحدائق والغابات وساحات الألعاب . وبإقامة المنازل على وحدات من الأرض تبلغ مساحتها عدة فدادين ، أى ما يتراوح بين ضحفين وخمسة أضعاف المساحة القياسية للوحدات فى المدينة ، فإن النسبة الجديدة لكثافة المساكن فى الضواحي ، بمعدل منزل واحد إلى اثنى عشر منزلاً فى الفدان الواحد ، احتفظ بها إلى حد ما بموجب التخطيط ذاته . وفيما بين عهد ه . ه . ريتشاردسون (H. H. Richardson) وعهد فرانك لويد رايت (Frank Lloyd Wright) تحقق فى منزل الضاحية أروع المظاهر الأصلية التى تعبر عن الوضع الجديد .

وفى هذه الضواحي الجديدة ، وفقت الطبقات المتوسطة إلى حل لمشكلة إيجاد بيئة حضرية ملائمة للصحة ولتربية الأطفال على نحو لم يتيسر الوصول إليه إطلاقاً من قبل إلا فى مدينة أوقرية ريفية تكاد تضارع هذه الضواحي من حيث طلاقة الهواء . وقد كان مجرد انفراج الموقع عاملاً أساسياً فى الحل . بيد أن تغيير المقاييس وتأثر المساكن آثار مشكلة ريفية قديمة ، وهى الانعزال ، ولتحقيق أى قدر من الفوائد الاجتماعية ، كان الانعزال سبباً فى مضاعفة الحاجة إلى النقل الخاص بعربات يملكها الأفراد ، نظراً إلى أن تناثر المساكن فى ذاته كان أيضاً يحول دون قيام أى نظام عام فانقل إلى مسافات قصيرة .

وفى النهاية ، عندما أطلق العنان لنمو الضواحي ، كان التخطيط المنفرد سبباً فى أن يصبح من الضرورى توفير وسائل النقل السريع ، والذهاب إلى حد الإسراف فى إنشاء الطرق على حساب أغلب الصفات الأخرى التى كانت أصلاً قد جعلت الضواحي جذابة . وبذلك أثبتت الضاحية أنها حل مؤقت وباهظ التنفقات معاً للتغلب على الصعاب الناشئة عن فرط ازدحام المدينة وفرط اتساعها ، وحالما انتشر نموذج الضاحية وأصبح عاماً ، بدأت تختفى المزايا التى كانت الضاحية تتحلّى بها فى مبدأ الأمر .

وطوال الوقت الذى ظلت فيه الضاحية منطقة ملحمة بالمدينة يسهل الوصول إليها ، فإن الدور الذى كانت تقوم به - ولو بصفة وقتية - كثيراً

ما كان نافعاً مفيداً . بيد أنه حتى في مرحلة باكرة ، كان الإقبال على هذه الوسيلة للفكاك من المدينة سبباً في القضاء على بعض النتائج التي كان يرجى تحقيقها من ورائها ، وبخاصة العزلة والانفراد . وإن ما قاله فرنسيس باركمان (Francis Parkman) عن إقبال الرواد على الأقاليم الغربية (في الولايات المتحدة) ليصدق كذلك على حالة الضاحية ؛ إذ قال : « إن أبناء المدينة - وقد اجتذبهم سحر حياة أكثر طلاوة وأشد جراءة - اندفعوا متزاحمين نحو المفاوز الغربية في حشود بددت السحر الذي كان قد أغراهم » . وهذا النوع من البلاء الذي حل بالضاحية ، كان يشاهد فيها منذ عهد مبكر ؛ فقد ارتفعت قيمة الأرض في المناطق التي أغير عليها حديثاً ، وذلك حالما أصبح الوصول إليها ميسوراً بطريق السكة الحديدية ، وكلما كانت وسائل النقل أفضل تدبيراً ، ازداد ارتفاع القيمة واتسع نطاق دائرة الضاحية . وتبعاً لازدياد زحف المدينة نحو الضواحي ، تلاشى طابعها الريفي ، وفي وقت سريع لم يعد لدى ساكن الضاحية شيء سواء من مزايا الاختلاط أم العزلة . وحتى في القرن التاسع عشر ، كانت نواحي الضعف الاجتماعية في الضاحية ظاهرة بجلاء ، فكان المرء يدفع ثمناً باهظاً من أجل الهواء النقي .

بيد أنه مرت فترة بدا فيها أن التعويض الذي كان المرء يجده فيما توفره الضاحية من ألوان الحرية ، كان الجواب على المشكلات المتزايدة في المدينة الآخذة في النمو ، وذلك أنه إذا لم يكن في وسع المرء أن يقهر المدينة فتمد كان في وسعه على الأقل أن يفر منها . وإذا لم يكن ثمة شيء آخر عدا ذلك ، فإن الضاحية كانت احتجاجاً على حتمية المحتوم . وقد كان ج . م . رينشر دز (J. M. Richards) - في قصته الطريفة « قلاع على سطح الأرض » التي كتبها إبان الحرب وتفيض حناناً للوطن - كان منصفاً في وصفه لمزاج الناس ، وما ترتب عليه مما يبدو في مباني

الضواحي من ظواهر حاملة غير متوقعة ، مثل الارتفاع المفاجيء لسقف هرمى الشكل ، أو بروز شرفة أو درج ، أو انطلاق صوت ثرثرة بلغة أجنبية دون مراعاة قواعدها ، أو انبلاج واحة من الأزهار تكسو كتلة من الصخور وسط بساتين من سندس الحشائش ، فيالها من نزوات قليلة الكلفة فى بلاد نائية أو فى أزمان غابرة من التاريخ . وهل كانت كل هذه الاستعراضات المنزلية البارة سوى ما كانت الضاحية تقدمه من خدمة إلى « كل فرد تبعاً لمزاجه الخاص » ؟ .

ولقد أورد ديكنز صورة ساخرة لهذه النزوات الخاصة فى قصته « آمال كبيرة » (Great Expectations) حين صور الرجل العجوز والد مستر ويميك (Mr Wemmick) فى منزله الذى أضفيت عليه صفة الحصون ، بمخندقه ، وجسره المتحرك ، وتحتته التى يؤيدها ساعة الغروب بإطلاق مدفعه المائل لدى الأطفال . ولكن شيئاً كان قد فقد فى المدينة ، أخذ يعود هنا الآن بصورة بريئة - وهو المقدرة على أن يعيش المرء حياة من ابتداء خياله أشد قرباً إلى نزعته الداخلية مما يفرضه عليه النظام الرتيب لحياته اليومية .

وعلى هذا فإن الضاحية فى أقدم أوضاعها اعترفت بتنوع طباع الناس ومطامعهم ، وبالحاجة إلى التغير ، والتباين والمغامرة ، وفوق كل شئ بالحاجة إلى بيئة تستجيب على وجه ظاهر إلى جهود الإنسان ، ولوعلى النحو الذى تستجيب به أصغر حديقة للأزهار . وهنا ما من شئ كان يعتبر سخيلاً إلى حد يحول دون محاولة تحقيقه سواء فى العارة أو فى فلاحه البساتين ، وقلم كان شئ يعتبر شخصياً أو عصابياً إلى حد يحول دون التعبير عنه على رءوس الأشهاد ، فالنزعات الشخصية كانت تنفيساً عما تعانيه النفس من صرامة العمل وملل الجهد النفسى الرتيب .

والخلاصة هى أن الضاحية الرومنظيقية الباكورة كانت محاولة من

جانب الطبقات المتوسطة لإيجاد حل خاص لما كانوا يعانونه في الحاضرة القدرة من الانقباض وسوء النظام ، فكانت عبارة عن تدفق ميول رومنطيقية ، وكذلك عن تهرب من المسئولية حيال المدينة ومما تستدعيه الشئون البلدية من التدبير في أمورها . ولقد كانت الغرائز التي حفزت إلى هذه الهجرة سليمة ، فإنه عند الوقوع وسط هذا الدمار الحضري الجديد ، كانت الصيحة القديمة للنجاة القائلة : « النساء والأطفال أولاً » صيحة سديدة . والواقع أن الحياة كان يهددها الخطر في هذا الوسط الحضري الجديد - وسط الصناعة والتجارة - وكان أدنى ما تملبه الحكمة هو الفرار - الفرار بكل ما يملك الإنسان ، كما سبق أن فر لوط وأهل بيته من السعير الخائق في سدوم وعمورة ، بيد أنه لسوء الحظ أن هذه الحكمة السديدة لم يعمل بها في حالة نساء وأطفال الطبقات العاملة ، على الرغم من الوعود البارة الكثيرة التي بذلت في منتصف القرن التاسع عشر ، بأنه سيكون من شأن جعل أجور النقل زهيدة وتسيير قطارات خاصة للعالم أن تحل فوراً مشكلة إسكان الفقراء ، وأن يتاح لكل فرد قضاء جزء من يومه في بيئة ريفية . ومما زاد من سوء الحظ أنه بقدر إقدام الطبقات الوسطى الدنيا على اللحاق بهذا الركب ، حملت هذه الطبقات معها بيئتها المغمومة ، وإن كانت محترمة المظهر .

وفي نظر القليلين ممن أسعدهم الحظ ، كانت الضاحية تفي بحاجات الحمل وتربية الأطفال ، وإذا كانت المرأة تتمتع بالسيادة طوال النهار في هذا المجتمع ، فإن ذلك كان نوعاً من الرجوع إلى العهد العتيق لحكم الأم على نحو أكثر مرحاً واسترخاء . وقد بدا لفترة أن سكان الضواحي لهم اليد العليا في تقرير مصيرهم ، فالمرض ، وسوء النظام والبعاء ، والجريمة ، والعنف ، كانت جميعاً بمنأى عنهم في حاضرة تنخر الأوبئة في كيائها ، ولكن جزءاً فقط من الحياة هو الذي كان يسير في مجراه هنا ،

فإن جميع تلك العوامل التي كانت تجند القوى وتثير العزيمة ، وجميع تلك المشادات والمعارك الحدية . التي كانت تجعل الحياة الواقعية في المدينة مثيرة ولها دلالتها وقيمتها ، هذا ، جميعاً لم يعد لها مجال الآن إلا في بطون الروايات . ولم يكن ما تقتضيه الحاجة خطة لتوسيع مدى الابتعاد عن المدينة ، بل للعودة إلى المركز الأصلي بطريقة جديدة لاستيعاب وتوزيع ما فيه من أعداد كبيرة ، بحيث يتسنى الأعمال التي تحققت في الضاحية أن تتخذ في قلب المدينة على وجه أكثر ملاءمة وأطول بقاء .

وإذا نظرنا إلى الضاحية في أرقى ما وصلت إليه ، نجد أنها هيأت إطاراً يشبه الحديقة للمنزل الذي تقيم فيه الأسرة ، ولكل ما يرتبط به من أوان النشاط العائلي . فألوان النشاط التي كانت في وقت ما من ضرورات الحياة الريفية ، أصبح من المسور مزاولتها الآن في المطبخ ، وفي الحديقة ، وفي « الورشة » ، على سبيل الترويح عن النفس من عناء النظام اليومي الجماعي لحياة المدينة الكثيفة وما فيها من ملل واحتباس ، والحقيقة أنه لفترة ما ، نقلت إلى الضاحية بعض عادات ريفية قديمة ، مما جعل رساكين مثلاً يذكر الإطار الريفي لمنزل والديه في « دنمارك هيل » ، فضلاً عن حدائق الخضر الفسيحة ، والجوادر والحظيرة ، وحتى الخنازير والدجاج التي كانت تحفل بها مائدة الغذاء . وكانت هذه الحياة في الواقع عبارة عن نسخة منمقة لصورة حضارة أقدم عهداً — حضارة منزل الريف — مع القيام برحلات يومية إلى المدينة بدلا من الرحلات الموسمية .

وإذا كانت الضاحية قد بدأت بوصفها وسيلة للهروب ، فإنها انقلبت إلى ما يناقض ذلك تماماً ، وكل ما بقي من الحافظ الأصلي نحو الاستقلال والابتداع هو قيادة السيارة الخاصة ، ولكن هذا في ذاته أصبح شرطاً إجبارياً لا مناص منه للحياة في الضاحية ، وهام أولاء بعض المهرة من المهندسين يهددون منذ الآن بابتكار نظام آلي يلغى قيادة الإنسان

للسيارة . والتكاليف الحالية لهذا اللون من « الحرية » في الولايات المتحدة - .
وهي تبلغ سنوياً ٤٠,٠٠٠ وفاة ، وأكثر من مليون شخص يصابون .
بعجز أو تشويه يلازمهم طول الحياة - يجب أن ينحصر جانب منها من رصيدياً .
حسناً حركة الإقامة في الضواحي .

٣ - نهج الحياة في الضواحي

كانت الضاحية في مبدأ الأمر تعبيراً عن نهج جديد للحياة ، أقل مدعاة للجهد ، وأقل تنظيمًا ، وأقل عمقاً ؛ وأقل تقييداً بالمظاهر الشكلية من كل الوجوه من نهج الحياة في المراكز الحضرية التي تسودها روح الإنتاج . وعندما تحول الاهتمام إلى الاستهلاك تبعاً لزيادة الأرباح من الإنتاج ، فإن هذا النهج الجديد للحياة أخذ يزداد انتشاراً ، ولم يعد مجرد تعبير عن السخط على ما في المدينة من خلل وسوء نظام ، لأن كل مدينة تاريخية - وإن بلغت من الضالة ما بلغته فيلنيث ليزافينيون (Villeneuve - les - Avignon) - أصبح يحوطها الآن إطار من الضواحي .

وبحكم طبيعة الابتعاد عن المدينة ، كان يتسنى تعرف الضاحية بعدد من الخصائص الاجتماعية المتصلة بها . فقد كانت قبل كل شيء ، عبارة عن مجتمع منزول لا يمتصه عن المدينة مجرد المسافة بينهما فحسب ، بل انتماء أفراد هذا المجتمع إلى طبقة بعينها ، أي إن القرية كانت أشبه شيء بحى اليهود في إحدى المدن ، لكنها كانت حياً تحف به الحضرة ومخصصاً للصفوة . وإن تلك العبارة التي نتم عن فرط الإعجاب بالنفس ، والتي ترجع إلى عهد الملكة فيكتوريا ، وفحواها « أننا ننفرد بأنفسنا » . لتعرب عن الروح السائدة في الضاحية ، على نقض الروح السائدة في المدينة ؛ إذ أن المدينة بطبيعتها بيئة متعددة الأوضاع والطبقات لا تنعزل فيها فئة عن أخرى . حقاً إن جماعات صغيرة قد تُولف جزراً اجتماعية .

في داخل المدينة ، على نحو ما كانت تميل إلى عمله القبائل المختلفة في مدن صدر الإسلام ، أو أيضاً على نحو ما قد يقوم به أبناء قرية يونانية أو بولندية من تكوين مراكز مؤقتة للإقامة معاً في عين وحدة المباني في شيكاغو أو نيويورك . ولكن الحاضرة كانت عبارة عن خليط من الناس وفدوا من أماكن مختلفة ، وكانوا يزاولون حرفاً مختلفة ، ويلتقون بشخصيات أخرى ، فكانوا يتقابلون ويختلطون ، ويتعاونون ويصطدمون ، الغني مع الفقير ، والعظيم مع الحقير .

وفيما عدا الحالات التي كانت فيها الضاحية تقوم حول النواة الأصلية لمدينة صغيرة ، فإنها كانت تنزع نحو الاحتفاظ بكيانها كمجتمع من طبقة واحدة ، مع مجرد إطار من التجار والخدم الكافين لسير الحياة - وكثيراً ما كان يلزم الخدم بأن يتخذوا مكان مبيتهم في الحاضرة الرئيسية . والانعزال معناه ، من الناحية العملية ، الاختلاط الإجباري أو على الأقل المشاركة في الإقامة ، لأنه إذا وجدت أي سبيل للاختيار ، فإنها توجد خارج نطاق المجتمع ذاته . ومن ثم فإن الحرية الكبرى التي تبقت لساكن الضاحية هي حرية التنقل . وأما من حيث العوامل التي تثير التفكير والإحساس بالجمال الفني ، فإن الضاحية ما زالت تعتمد فيها على المدينة الكبرى ، فالمسرح ، ودار الأوبرا ، وفرقة الموسيقى الوترية ، ودار عرض الفنون ، والجامعة ، والمتحف ، لم تعد جزء من البيئة اليومية . وإن إحدى المشكلات الرئيسية في تخطيط المدن اليوم ، هي مشكلة إعادة إنشاء الروابط على أساس الإقليم أكثر منه على أساس الحاضرة .

ولم يقتصر الأمر على أن الضاحية أبتت بعيداً عنها المشروعات التي تفوق سواها حركة وقذارة وإنتاجاً ، بل إنها أقصت عنها كذلك ما في المدينة من ضروب النشاط الخلاق ، فهنا لم تعد الحياة مسرحية حافلة بألوان التحدى المبالغ والمشادات والمعضلات ، بل أصبحت لوناً هادئاً

من التنافس فى الإنفاق . وفى سنة ١٨٩٦ كتب رديارد كبلنج Rudyard Kipling إلى وليم جيمس William James يقول : « إن نصف متاعك عبارة عن النعمة التى حلت بأمريكا - ملل محض منظم تنظيماً جيداً ولا أمل فى الخلاص منه ، وهو ما سوف يحل بالعالم كله فى يوم ما » . ولقد وضع كبلنج لصبعه - فى ذلك الوقت المبكر - على موطن الضعف فى أسلوب الحياة فى النضاحية .

وهكذا كانت عيوب النضاحية النفسانية والاجتماعية تنسخ فوائدها البيولوجية الحقيقية ، وقد كانت عزلتها الزائفة فى مقدمة تلك العيوب . ففى المدينة كانت تطالعك مظاهر الفقر ، إذ كان المتسولون يمدون أيديهم بالسؤال فى الشوارع ، وكان المرض ينتشر على عجل من أحياء الفقراء إلى مساكن الموسرين ، عن طريق عامل إيصال السلع ، أو النسالة ، أو الخياطة . أو غيرهم من الأجراء الذين لا غنى عنهم . وإذا مشى المرء لمدة خمس دقائق صوب أى اتجاه ، كان خليقاً بأن تقع عينه - إذا لم يحرص على تجنب النظر - على منزل فقير ، أو على الأقل ، على طفل من أبناء المنازل الفقيرة فى ثيابه الرثة المهلهلة .

وحتى عندما كانت مدينة الفحم الكوك فى أوج عزها ، كان ذوو الاحساس المرفه والعقول المفكرة لا يتسنى لهم البقاء طويلاً فى مثل هذه البيئة دون التضافر معاً للقيام بعمل ما حيال تلك الحالة ، فكانوا خليقين بأن يعمدوا إلى استنهاض الهمم وإثارة الخواطر ، وإلى عقد اجتماعات والقيام بمظاهرات ، وإلى كتابة ملتزمات ومقابلة أعضاء الهيئات التشريعية ، وإلى الحصول على المال من الأغنياء وبذل المعونة للفقراء ، وإلى إنشاء مطابخ لتقديم الحساء للفقراء ، وإلى إقامة عمائر نموذجية للسكنى ، وإلى استصدار تشريعات للإسكان والحصول على أراض للحدائق العامة ، وإلى تشييد مستشفيات ومصحات ومكتبات وجامعات ، حيث كان المجتمع بأسره يفيد ويستفيد .

أما في الضاحية ، فقد كان من الممكن أن يعيش المرء ويموت دون تشويه الصورة الماثلة في خاطره عن عالم ظاهر برئ ، إلا عندما تبدو بعض ظلال ما فيه من شر فيما تنشره الصحف اليومية . وعلى هذا الوجه كانت الضاحية بمثابة ملجأ للحفاظ على صورة وهمية . وهنا كان يتسنى للحياة المنزلية الأنيسة أن تزدهر لاهية عن الاستغلال الذي أقيم عليه جانب كبير منها ، وهنا كان يتسنى للفردية أن تنتعش مغضية عن التنظيم الشديد الوطأة السائد فيها وراءها . ولم تكن هذه مجرد بيئة طفل منطو على نفسه ، بل كانت بيئة تقوم على أساس وجهة نظر طفولية عن العالم "ضحى فيها؛ بالحقبة من أجل مبادئ اللهو والمتعة .

ويمكن تبرير الهجرة إلى الضواحي تبريرا كاملا بوصفها محاولة لاستعادة ما كان مفقوداً في المدينة ؛ إذ أنها كانت معنية باحتياجات أولية للإنسان . بيد أنه كان يوجد جانب آخر ، وهو عامل الإغراء على الابتعاد عن الحقائق التي لا تسر ، والتهرب من أداء الواجبات العامة ، والعثور على المعنى الكامل للحياة في أبسط العناصر الأولية للمجتمع وهي الأسرة ، أو حتى فيما هو أكثر عزلة وانطواء على ذاته وهو الفرد . فما كان بداية ، اعتبر غاية .

وفي أماكن كثيرة ، يمكن تحديد الوقت الذي حدث فيه التحول نحو الفراغ اللاهي والتهرب من المسؤولية فيما يتعلق بشئون المدينة . ففي حديث خاص مع القاضي برانديس (Mr. Justice Brandeis) أبدى لي ذات مرة أنه ما زال يذكر الوقت عندما كان أثرياء المواطنين في مدينة بوسطن في أواخر القرن الماضي يقولون لأبنائهم عند بلوغهم سن الرشد : « إن بوسطن لا تحمل لك شيئاً في جعلتها سوى الضرائب الثقيلة وأداة الحكم الفاسدة ، فعندما تتزوج ، اختر لنفسك ضاحية لتبنى لك فيها منزلاً ،

ثم التحق بناديها الرياضى وركز حياتك حول ناديك ، وأسرتك ، ومنزلك ، وأولادك .

ولقد اتبعت هذه النصيحة على نطاق واسع ؛ إذ أنه لم تشهد بها الطبقة العليا فى بوسطون وفيلادلفيا فحسب ، بل كذلك فى كثير من المدن الكبيرة الأخرى فى العالم الغربى . وإذا كان قد نشأ عن ذلك تناثر ضواحي الطبقات الراقية على نطاق واسع فى الموجتين الأولى والثانية للتدفق من المدن الكبرى ، فإن هذه الهجرة أيضاً استحثت خطأ الفساد الداخلى فى المدينة وعاونت على انهيارها .

ولم تثبت الضاحية أنها بيئة أفضل من المدينة إلا فى ناحية واحدة وهى صلاحيتها لتربية الأطفال ، ولا سيما فى الأيام الأولى لعهد الضاحية التى نشأت على إثر مد السكة الحديدية حينما كانت كل ضاحية يحوطها إطار عريض أخضر يتألف من الغابات والحقول ، فهنا كان يتسنى للأطفال أن يلعبوا ويلعبوا فى أمان دون إشراف أحد عليهم . وقد بلغ من وفرة مساحة الأماكن الفضاء المخصصة للألعاب حول مدارس الضواحي ، أن ذلك غدا من المقتنيات المثالية لجميع المدارس فى المستقبل ، ونعنى بذلك مساحات من الأماكن الفضاء لألعاب التنس والكروكيت ، وللكريكت أو البيسبول ، ولكرة القدم أو للبولز (Bowls) . ولقد سجل ايمرسون هذه المزايا بوضوح يومياته عن سنة ١٨٦٥ حيث قال ، « ما من نظام للشرطة أبعد أثراً من وجود تل كبير ومرعى فسيح بجوار قرية حيث يستطيع الأولاد أن يجرؤا ويلعبوا ويستنفدوا الفائض من قوتهم وطاقتهم الحيوية » . فالضاحية هى التى أوجدت مثل هذه الأماكن المخصصة للألعاب بوصفها جزءاً أساسياً فى المدينة ، لا يجوز الزحف والفضاء عليه بسبب ارتفاع قيمة الأرض ، وكانت هذه خدمة دائمة الأثر أسديت إلى المدينة .

بيد أنه بالانفصال عن المدينة ، سرعان ما أصبح الجزء بديلاً عن الكل .

كما لو أن مرحلة واحدة من مراحل الحياة ، وهى مرحلة الطفولة ، أصبحت نموذجاً لجميع المراحل السبع فى حياة الإنسان . وعندما ازداد الفراغ بوجه عام ، أصبح اللهو شغل الحياة الشاغل ، وغدت ساحة الجولف ، والنادى الرياضى ، وبركة السباحة ، وحفلة الكوكيتيل هى البديل التافه المزيف عن نسق للحياه أكثر دلالة وتنوعاً . وعلى هذا الوجه فإن الضاحيه ، فى عملها على مقاومة مساوئ المدينة المزدهمة ، أصبحت هى ذاتها مجتمعاً تتجاوز الحد فى تخصصه ، وازداد باطراد انصرافه إلى الاسترخاء واللهو بوصفهما هدفين فى ذاتهما . وسرعان ما أصبح اللهو الاجبارى البديل المقبول عن العمل الاجبارى ، ولم يعد من وراء ذلك إلا نفع قليل سواء من حيث الحرية أم من حيث الدوافع الحيويه . وتبعاً لذلك فإن كلا النهجين للحياه ، نهج الحياه فى الضاحيه ونهج الحياه فى المدينة الكبيرة ، متشابهان من حيث إن الانتاج على نطاق واسع ، والاستهلاك على نطاق واسع ، والاسترواح على نطاق واسع ، كل ذلك يودى إلى إنتاج ذات النوع من البيئة التى توحد نمطها ، وزالت صفاتها الطبيعية .

وحتى الأطفال قد أضرهم تحول بيئة المجتمع بأسره على هذا الوجه إلى مجرد منطقة للاسترواح ؛ لأن مثل هذا المجتمع المنعزل ، المؤلف من طبقات اقتصادية منزلة لا يربطها بحقائق الحياه المألوفة إلا أدنى قدر من الاتصال اليوى المحسوس ، ألقى ما لا موجب له من عبء التربية على عاتق المدرسة والأسرة . فإن أصغر القرى التى مازال أهلها يقومون بالزراعة وصيد السمك والقنص ، وأحط المدن الصناعية التى مازال أهلها يشتغلون بأعمال إنتاجية بسيطة ، تتوافر لديها من وسائل التعليم ما تفتقر إليه الضاحيه . وفى النهاية نجد أن الفوارق العملية بين الضاحيه المعاصرة والمدينة الكبيرة تتضاءل باطراد إلى أدنى حد ؛ إذ أنه فى هاتين البيئتين

المختلفتين ظاهرياً أخذت الحقيقة تناقص تدريجاً حتى اقتصرت على ما يتسرب من شاشة التليفزيون .

يبد أن كلا من الطفولة والضاحية ليست إلا مرحلة انتقالية ، ولذلك فإن مجتمعاً حضرياً أحسن تخطيطه لابد من أن يكون فيه متسع لمراحل أخرى في الحياة ولأساليب أخرى للمعيشة . وإن إنشاء الضواحي على نسق واحد عام ليكاد يكون من الناحية الانسانية كابوساً مزعجاً ، شأنه شأن إنشاء العواصم الكبيرة على نسق واحد عام . ومع ذلك فإن النمو الحضري السبيء التوجيه ، أو الذى يسير على غير هدى فى وقتنا الحاضر ، أخذ يتجه بانتظام نحو هذا الوضع التافء المتكاثر ، وهو عبارة عن تصميم على نطاق واسع لطرق النقل السريع والمطارات والساحات المترامية الأطراف لانتظار السيارات ولعب الجولف . ولا يهئ هذا التصميم إلا نهجاً للحياة على نطاق ضيق يزداد انكماشاً على الدوام .

على أنه فى أثناء المحاولة الأولى الأصلية ، عندما دنت الضاحية إلى أقرب حد من غايتها الرومنطيقية ، قدمت معونة إيجابية إلى الفكرة البازغة عن المدينة ، بوصفها بيئة مختلطة متشابكة مع الريف فى جوهر تكوينها . وإن كثيراً من وجوه هذه المعونة لجديرة بالأنا تبهذ ، بل بأن تبقى وينتقى الصالح منها لتهيئته وتحسينه .

٤ - فرط الازدحام لا يعود بأى كسب

يحدث كثيراً فى تهجين الذرة أن خلط صنف وقف وه ، وتلوح عليه علامات الضعف ، بصنف آخر أكثر انساما بالخصائص العادية ، يثبت أنه أغزر إنتاجاً من خلط صنفين متعادلين فى اكتمال النمو . ويبدو أن هذا المصدر الغريب لقوة التهجين له مثل هذا الأثر كذلك فى حالة الضاحية ، فإن ما كان فى جوهره نهجاً حضرياً عاجزاً عن التطور ولا يلائم سوى

وظيفة واحدة قد أنتج ، عند اتصاله بالفرص التي هيأها الريف ، مجموعة كاملة من التحسينات في نظام تخطيط المدينة القائمة .

والضاحية بتحررها من القيود في استخدام الأرض الفضاء ، كانت النقيض التام لمعظم المدن التاريخية في الغرب ، ففي هذه المدن ، نجد مساحات متفرقة من الأماكن الفضاء خلف المباني وفيما بينها ، كما نجد في بعض الأحيان مساحات واسعة من الأرض المزروعة في داخل الأسوار . وأما في الضاحية ، فإنه كانت توجد مبان متفرقة وسط مساحات من الأرض الفضاء ، كما أن البستان والحديقة العامة ، وبوائك أغصان الأشجار ، والطريق المؤدى إلى الضاحية ، كان يتألف منها جميعاً وصل جمالي . ولم تعد صفوف المنازل تقوم بمهمة أسوار متواصلة الامتداد تحدد جوانب شوارع تتكون منها دهاليز مغلقة ، إذ أن المبنى - وقد تحرر من صلته الوثيقة بالشارع - أصبح محوطاً بالمنظر الطبيعي ومنمذجاً فيه عن عمد وروية . ومع التخلخل الذي حدث على هذا الوجه في التكوين المحكم للمدينة التقليدية ، ظهر تغير كان لابد منه في وحدة المباني السكنية .

وعند منتصف القرن التاسع عشر ظهرت في الضاحية الوحدة السكنية الكبرى ، وكان حجمها يعادل ضعف الوحدة العادية في المدينة عدة أضعاف . وكان طريق الوصول إلى داخلها عطفة مسدودة أو ممّأ على شكل L أو S من أجل الاستعمال المحلي المحدود النطاق . ولم يكن من شأن هذا الابتكار مجرد تهيئة السبيل لإنشاء حدائق كبيرة والخلاص من إزعاج حركة المرور إلى جهات أخرى ، بل إنه كان كذلك سبباً في الاقتصاد في إنشاء الطرق الباهظة التكاليف : فضلاً عن ذلك ، فإن مخطط الضواحي باتباعه الخطوط الكتورية ، وبتصديق اتساع شوارع المواصلات العادية اقتصد فيما ينفق من أموال في إنشاء الشوارع وفي صيانتها ، على حين أنه احتفظ للبيئة بأسرها بطابعها المشابه لطابع حديقة .

عامة : ويبدو أن هذه الابتكرات ظهرت تلقائياً في أكثر من مكان واحد ، ولكن بلغ من حدوثها لاشعورياً ، ومن قلة ما لقيته فكرتها من التقدير حتى الجليل الماضي ، أنه من العسير تحديد تاريخ ظهورها .

على أنه مامن شيء من التخطيط الذي تم في خلال القرن التاسع عشر ، حتى ولا ذلك الذي تم تحت إشراف هوشمان ، يمكن أن يقارن من حيث النضارة في الشكل والجرأة في التصميم بأفضل ماتم في الضواحي ، من ضاحية ريفرسيد (Riverside) التي وضع تخطيطها أولمستد (Olmsted) بالقرب من شيكاغو ، إلى ضاحية رولاند بارك (Roland Park) التي خططها بالقرب من بلتيمور (Baltimore) ، ومن لولين بارك (Llewellyn Park) في نيوجرسي إلى المشروع الممتاز الذي حققه أونوين وباركر (Unwin and Parker) في ضاحية حديقة هامستد (Hampstead Garden Suburb) حيث كانت المباني جزءاً لا يتجزأ من التصميم بأكمله .

ولقد بلغ من روعة البيئة الطبيعية للضواحي الممتازة ، أنها ظلت مدة طويلة تصرف الأنظار عما فيها من أخطاء ووجوه النقص من الناحية الاجتماعية . وبالاتبعاد عن التخطيط الشبكي القياسي والأجور المرتفعة للأرض ، وبقبول معاونة الطبيعة بدلا من محوكل أثر لطابع البيئة ، وصل المحدثون من واضعي التخطيط والقائمين بالإنشاء إلى استنباط شكل جديد للمدينة ، أو على الأقل ، تخطيط تقريبي لكل جديد . إن هذا العمل الباهر لجدير بكتاب تاريخي يفرد له وحده ، وهو مازال يستوجب أن يكتب ، وإن ما كتبه كلارنس ستين (Clarence Stein) ، بعنوان « مدن جديدة لأمريكا » خلّيق بأن يحتل فصلا في ذلك الكتاب . وسأقتصر هنا على تناول النتائج العامة التي يمكن استخلاصها من أفضل تجارب الضواحي .

لعل ريموند أونوين (Raymond Unwin) كان أول من كشف بطريقة معقولة - في رسالة صغيرة متواضعة بعنوان « فرط الازدحام لا يعود

بأى كسب - كشف عن قوة الإدراك التى يبدو أن أقوى مخططى الضواحي أثراً كانوا يستهدون بها بداهة . ولقد بدأ أونوين بدراسة الشارع النمطى الإنجليزى الذى أنشئ طبقاً للتشريع الحلى وكان وليد أقدم الأنظمة البلدية فى إنجلترا . وكانت هذه الأنظمة تحدد أدنى قدر ممكن لاتساع الشارع ، والفناء الحلقى ، وضوء النهار والمرافق الصحية لكل منزل ، ولكنها - كما تبين فيما بعد - كانت تتضمن تدابير زائدة على الحاجة فيما يتعلق بحركة المرور ، وهو تحيز غير موفق سرت عدواه حتى إلى التصميمات الخاصة بمناطق الجوار فى المدن الإنجليزية الحديثة . ولقد أثبت أونوين أن هذا التخطيط الذى يبدو ظاهرياً أنه قائم على أساس تقعى مقتر ، أسرف فى تهيئة عدد من الشوارع رصفت كما يجب لتتحمل وطأة حركة المرور ، وذلك نظير نفقات باهظة . ونظراً إلى انعدام أى نوع آخر من الأماكن الملائمة ، أصبحت هذه الطرق المعدة للمرور ساحات لعب للأطفال . ولقد أوضح أونوين ، فضلاً عن ذلك ، أنه بالاعتقاد فى عدد الشوارع التى لا حاجة إليها ، وتكريس المساحات المخصصة لها لإنشاء حدائق داخلية ، يتسنى بنفس النفقات توفير عين العدد من المنازل تقريباً ، مع تزويد كل منزل بقطعة أرض لإنشاء حديقة عليها تكون أكثر صلاحية للاستخدام ، وتهيئة منطقة تحيط بالمنزل تكون أكثر جمالا وأناقة :

وذلك فى الواقع ما كان مخطط الضاحية يعمل به فى أحيان كثيرة ، ولكن كان يعزى إلى الثمن الزهيد للأرض أصلاً ضروب من الاقتصاد ترجع فى الواقع إلى انخفاض نفقات التعمير نتيجة للاستغناء عن الطوارىء والشوارع المفرطة الاتساع ومالا حاجة إليه من أعمال الرصف الثقيل ، وكذلك - فى بعض الأحيان - لتجنب استخدام أنظمة المجارى التى تستخدمها البلديات ، وذلك بالاكتفاء بآبار المجارى المنزلية ، وهو ما لا يتسنى إلا فى البيئات الطلقة الهواء التى تقل فيها كثافة السكان : وقد أثبت أونوين أن كتابة

الأحياء المكتظة بالسكان في لندن ومانشستر وفيلادلفيا وشيكاجو ، حتى عندما تكون مولفة من منازل أعدت لسكنى أسرة واحدة في كل منزل ، يمكن تعليله جزئياً بسوء التخطيط مع تبديد المال أحياناً على مرافق يتسنى الاقتصاد فيها عن طريق تخطيط أكثر ابتكاراً يكون هدفه خدمة حاجات الإنسان .

ولقد كان لهذا التحليل ميزة معينة ذات أثر رجعي ، فإنه لم يقتصر على تحليل نجاح المستحدثات المبتكرة في التخطيط مثل الوحدة السكنية الكبرى والممر المسدود ، بل إنه أظهر كذلك سداد التصميمات التي وضعت وفق نموذج العصور الوسطى للأديرة ومقار الجماعات - مثل التيمبل وجريز إن (The Temple and Grays Inn) في لندن ، والكليات القديمة في أوكسفورد وكبريدج - وهيأت أحياء مغلقة على نفس ١ ، في عزلة عن حركة مرور العربات .

وقد كان كشفاً بالغ الأهمية إدراك أونوين أن الأماكن الفضاء والحدائق العامة وساحات الألعاب - وكلها تبعث السرور في النفس - لم تكن من أساليب الترف الخاصة بالطبقة العليا ، بل إنه يمكن إدماجها دون تكاليف إضافية في أبسط مشروعات الإسكان ، بمجرد الاقتصاد في المرافق والشوارع التي لا تدعو الحاجة إليها ، فهنا كانت وسيلة لجعل صحراء الحضر الحجرية يانعة مزدهرة ، على شرط ألا يكون المرء على شاكلة الفنان المصور موندريان (Mondrian) (١) في بغضه لرؤية الأشياء تنمو في المدينة . بيد أن العلاج بالحديد لم يكن مما يباشره المرء بنفسه ، فللاحتفاظ بانخفاض نسبة كثافة السكان في الأراضي الطلقة الهواء كان لابد من وجود إشراف عام

(١) مصور هولندي (١٨٧٢ - ١٩٤٤) تأثر بالمذهب التكميبي وابتدع طرازاً هندسية قوامه خطوط رأسية وأفقية تتلاق في زوايا قائمة .

فعال على استغلال الأرض ، إما بأن تمتلكها الدولة أو البلدية ، وإما بأن يحدد القانون معايير ثابتة لنسبة كثافة السكنى فى مناطق مخصصة لاستخدامها فى السكن ، فضلاً عن إيجاد إشراف قانونى لمنع إقامة مبان خاصة تنقصها المساحات الملائمة من الفضاء .

وفضلاً عن ذلك فإن تيارات حركة المرور الكبرى المارة ببعض المدن فى طريقها إلى مدن أخرى ، يجب أن توجه إلى طرق تمر حول المناطق السكنية ولا تكون لها مهمة محلية تؤدىها . وعلى ذلك فإن الدروس الإيجابية المستفادة من تخطيط الضاحية ، كانت تحتاج - لكى تكون ذات أثر فعال - إلى نوع من حسن الإدارة للشئون البلدية ، وهو ما كان يسير على مهل ، فى طريقه إلى الظهور فى عالم الوجود . وإنه لمن أكبر الأدلة على وجود تلك الإدارة الحسنة هو أن يكون تخطيطها موجهاً نحو إزالة الضاحية ، بوصفها ضاحية ، وإنشاء مجتمعات جديدة من طراز أرق وأكثر تعقيداً .

٥ - الضاحية بوصفها وحدة جوار

وحقيقة أن الضواحي كانت أصلاً مجتمعات صغيرة مستقلة بمحتوياتها ، وهذه الحقيقة كان لها تأثير آخر فى تطورها ، فقد عاونت على إعادة خلق الشعور بشيء كان قد ضاع فى أثناء النمو السريع للمدينة - وهو الإحساس بمعنى الجوار . وعند اقتفاء أثر هذا الإحساس إلى أصل نشأته ، يتبين أنه كان عنصراً فى تكوين القرية القديمة ، وأن له من الضرورة فى حياة حضرية مستقرة ما لمراكز الثقافة العليا فيها والترابط المتبادل .

وفى كثير من مجتمعات الضواحي ، كان انعدام وجود أى كيان لحكومة محلية سبباً فى إقامة نظام أساسه صلات الجوار ، ولذلك فإن روبرت وود (Robert Wood) - فيما قام به من دراسة غربية حافلة بالمتناقضات ،

عن الضاحية في الولايات المتحدة - أوضح بحق أن الضاحية أعادت من بعض الوجوه الآراء القديمة العهد ، الخاصة بالمشاركة الديمقراطية والقدرة المحلية على الابتداع . وعلى الرغم من أن اجتماع المدينة في نيوانجلند كان في وقت ما أداة لمثل هذه المشاركة الواعية في شئون المدينة ، فإنه لم يدمج إطلاقاً في بناء النظام السياسي الأوسع نطاقاً . وتبعاً لنمو المدينة ، أخذ يحدث ، طبقاً لذلك ، تحول مستمر من الوضع الأولي لمجتمع الأسرة والجوار إلى أوضاع ثانوية للترابط كانت أكثر استهدافاً لأغراض معينة ، وأشد تدقيقاً في الاختيار ، وتتولى العناية بأخص نواحي اهتمام المواطن ولكنها لم تتصل بحياته المنزلية .

ومن الواضح أنه في الحواضر الكبرى ، في خلال القرن الأخير ، أصبحت روابط الأسرة والجوار ، إلى حد كبير ، من الخلفات العتيقة ، فإن الزيادة البالغة في عدد السكان ، وتوافد الغرباء باستمرار ، وكثرة تغيير محال الإقامة ، وانعدام الحدود التي يمكن تعرفها ، أو المراكز العامة للاجتماع ، فإن كل هذه العوامل قللت من عمليات الاستقرار في حياة التجاور . بيد أن شومباردو لاوى (Chombart de Lauwe) وزملاءه قد بينوا أنه في مدن بلغت من التوحد ما بلغته باريس ، نجد أن حياة أسرة من الطبقة العامة ، تتركز بأكملها في « الحى » الذي تعيش فيه ، على وجه يكاد يبلغ من الرسوخ ، ويكاد يكون معصوماً من التأثير بالعوامل الخارجية ما تكون عليه الحال لو أن الأسرة كانت تعيش في قرية تبعد مائة ميل عن ميدان لا كونكورد . وعلى الرغم من أن المقيمين في ضاحية قد يقفون بمنأى عن ألوان التحدى السياسية العنيفة التي توجد في مدينة آخذة في النمو ، فإنهم كثيراً ما يأخذون على عاتقهم مسئوليات فعالة في مجتمعهم المحلي ، ولو لمجرد أن يضمّنوا لأنفسهم مورداً وافياً للماء ، أو مدارس حسنة الإدارة .

وطبقاً لمعيار القيم الذي ابتدعه العالم النفساني إدوارد ل. ثورندايك (Edward L. Thorndyke) ، فإن الضواحي في الولايات المتحدة بلغت ، من حيث الصفات المرغوب توافرها ، مرتبة أعلى من المجتمعات الأخرى . وكانت المدن الصغيرة تليها في المرتبة ، أما المدن الصناعية فكانت دون ذلك بمراحل في مؤخرة القائمة . (ومن الغريب أن المدن الكبرى جاءت في الوسط فيما بين الطرفين) . ولا شك أن معيار ثورندايك لا يرجع ، إلى حد ما ، إلا كفة تلك الصفات التي تمتاز بها الضاحية ، ولكن من المحتمل أن الضاحية خليفة بأن تظهر بمرتبة عالية طبقاً لأي معيار يتجاهل ما للمدينة من وظائف ذات صفة خاصة :

ولا شك أن بعضاً من وجوه النشاط في ضاحية الطبقة المتوسطة كانت تعزى إلى ما توافر لأفرادها من التعليم الممتاز ، وإلى ما كانت تستمتع به نساء المجتمع من قدر كبير نسبياً من الفراغ ، وبذلك قاربن - طبقاً للاصطلاح الحديث - من استيفاء الشروط المطلوبة للحصول على حقوق المواطنة في المدينة الاغريقية القديمة ، وهي الفراغ والبعد عن الشواغل الوضيعة والاهتمام بالشئون العامة .

وكما يلاحظ روبرت وود « أن الضاحية تظهر في الوجود وقد توافرت لها دائرة انتخابية محددة ، ووحدة في التجانس ، ونوع معين من الانجاء الحضري ، وقدر من الفراغ ، وهي صفات هيأت السبيل لوضع نظام المدينة الصغيرة الديمقراطية موضع التنفيذ لعدد من الناس والحكومات أكثر مما تسنى حدوثه في مائة سنة ؛ إذ أن الأغلبية الساحقة من الضواحي صغيرة الحجم نسبياً ، وسكانها يبلغون عدداً من الممكن أن يساس » . وهكذا على الرغم من أن الدافع إلى الهجرة إلى الضواحي كان إلى حد كبير ناشئاً عن الرغبة في التهرب من المسئولية ، بحافز مما في المدينة من ضروب الانحلال الخلقى وفساد البيئة ، فإن الربح السياسي لم يكن أقل شأنًا من سائر الأرباح

التي نجمت عن ذلك . ومن الممكن أن توصف الضاحية ، من الوجهة السياسية ، بأنها عبارة عن محاولة لتضييق النطاق ، الذي يؤدي فيه المجتمع الحضري وظيفته ، إلى حد يبلغ من صغر الحجم ما يسمح لأسرة بمفردها أن تتولى أمره .

ولقد أعادت الضاحية ، بشكل سطحي ، الديمقراطية التي كان جيفرسون يحلم بها ، والتي كادت تمحوها الزعزعات الرأسمالية نحو سيادة حكم الأقلية ، كما أن الضاحية هيأت الظروف الضرورية لنجاح تلك الديمقراطية ، وهي المجتمع الصغير الذي يلتقي فيه وجهاً لوجه أفراد متعارفون يشتركون معاً في الحياة العامة على قدم المساواة . فكانت فلاحه البساتين والسياسة من ألوان النشاط التي يؤديها المرء بنفسه في الضاحية ، وطوال الزمن الذي ظل فيه المجتمع محتفظاً بحدوده الطبيعية ، من حيث المساحة وعدد السكان ، ظل يكفل برعايته هذه الحياة القائمة على روابط الحوار . ولذلك فإنه لم يكن من قبيل المصادفات أن كلارنس بيرى (Clarence Perry) قد كوّن فكرته عن وحدة الحوار بعد تجربة المزايا المتوافرة في بيئة ضاحية أحسن تخطيطها ، وذلك في أثناء إقامته في ضاحية أنشئت طبقاً لمشروع نموذجي للإسكان في لونج أبلند ، وهي ضاحية حدائق فورست هيلز (Forest Hills Gardens) . وقد كان ما قام به بيرى هو أنه أوضح خصائص الحياة التي وجد هناك أنها مجزية ، وجعلها أكثر جلاء بشرح تكوينها على نحو أكثر تحديداً .

واهتمام بيرى بمبدأ الحوار نشأ أصلاً من الناحية السياسية ، ولكن كانت قد سبقته إلى ذلك من قبل حركة دار التوفيق (Settlement House) التي هيأت للأحياء الفقيرة في مدن مثل لندن وشيكاجو وبيتسبرج شيئاً كان معدوماً حتى في أرقى أنحائها ، وهو نواة اجتماعية تنظيمية ، وكانت تهيب الوسائل الضرورية للعمل والتعاون في جميع وجوه النشاط التي يقوم بها أهل

الحى الواحد . وقد كان بىرى أحد زعماء الحركة التى بدأت فى المدينة الصناعية الريفية روتشستر (Rochester) بولاية نيويورك ، لتستعيد عن طريق مراكز المجتمعات جانباً من حيوية الحياة السياسية الأمريكية ؛ فكان هو وزملاؤه فى العمل يحدوهم الأمل بأن يدخلوا فى كل مجتمع أمريكى ما بدا بأن دور التوفيق الجديدة كانت على وشك أن تحققة فى خلال الجيل الأول لوجودها . وكان مركز المجتمع عبارة عن مكان لتبادل الرأى والمناقشة والعمل التعاونى فى كل الشئون العامة ، وكان الغرض منه أن يعيد إلى الجماعة المحلية القدرة على المبادرة والاحساس بقدرها والقيام بتوجيه شئونها ، وكان هذا ينطوى على تحدى روابط الولاء الحزبية والقرارات المغرضة والتحكم من بعيد . ومتى أنشئ مركز المجتمع كان من الممكن أن يبسط نشاطه فى اتجاهات عديدة ، على نحو ما قامت به قاعة توينبى (Toynbee Hall) ودار هل (Hull House) ، من تشجيع الإشتراك فى هواية التمثيل والتمرس فى الفنون والصناعات ، وتكوين مركز للحياة الروحية والثقافية لمنطقة الحوار ، كما سبق أن فعلت الكنيسة فى الماضى .

وبعد سنة ١٩٢٠ بدا أن فكرة مركز المجتمع أخذت نهن وتذوى بوصفها حركة إصلاح ، كما أن الآمال التى أنعشتها بدا أنها أخذت تذبل وتخمد ، إلا أن ذلك كان إلى حد ما بسبب ذات النجاح الذى أدرسته ؛ إذ أنه فى السنين التالية أصبح من القواعد الأساسية المتبعة فى الولايات المتحدة ، أن يوضع تخطيط المدارس بحيث تتوافر فيها الوسائل التى تهيئها لأن تكون ، حتى فى أثناء النهار ، مراكز لمن بلغوا أشدهم من أفراد المجتمع . وعلى كل حال فإن بىرى وسع نطاق الفكرة كلها بتصوره تنظيمياً موحداً من شأنه أن يكون أكثر ملاءمة لوجوه نشاط ووظائف منطقة الحوار ، وأن يقوم على الرغم من ذلك بدور فعال ، على نحو لم تقم به الضاحية ، فى حياة المدينة الأوسع نطاقاً ،

وكان مبدأ تنظيم وحدة الجوار يرى إلى أن يجعل كل وسائل التنسيب التي تدعو إليها الحاجة يومياً في البيت وفي المدرسة ، قيد مسافة يمكن قطعها على الأقدام ، وأن يقصى عن هذه المنطقة الخاصة بالسائرين على أقدامهم ، الطرق التي تشتد فيها حركة المرور وتنقل السلع أو الناس الذين لا شأن لهم في منطقة الجوار . ومتى تقرر أن تكون المسافة التي يمكن قطعها سيرا على الأقدام هي المعيار المتبع في المجتمع الذي يلتقي فيه أفرادها وجها لوجه ، فإن ذلك كان يستتبع ألا تبعد أى ساحة ألعاب لأطفال المدارس أكثر من ربع ميل عن المنازل التي تنتفع بها . وقد كان المبدأ ذاته ينطبق ، مع التغيرات الملائمة ، على بعد المدرسة الابتدائية والمنطقة المحلية للبيع والشراء وكان نطاق مثل هذا المجتمع محدودا من حيث عدد السكان ومدى اتساع محيطه ، وكان في الاستطاعة تحديده ماديا ، إما عن طريق تخطيط الطرق ، وإما عن طريق إطار من الخضرة ، أو عن هذين الطريقتين معا . وقد حدد يرى عدد السكان في مثل هذه المنطقة الحضرية للجوار بنحو خمسة آلاف ، وهو عدد يكفي للقيام على أكمل وجه بمختلف الخدمات المحلية وما يتبعها ، ويتيح الفرصة دائماً لحدوم أعداد كبيرة من خارج حدود المنطقة ، لأنه ليس ثمة سوى المتحيزين من خصوم فكرة وحدة الجوار هم الذين يعتبرونها وحدة محكمة الإغلاق تستهدف منع الاختلاط مع باقي المدينة . وحقبة الأمر أن يرى ، في تصوره لمنطقة الجوار ، تعرف حقيقة المحلية الاجتماعية الأساسية في المدينة ووضع قاعدة النمو الحلوى .

والواقع أن كلارنس يرى قد أعاد إلى الوجود عنصراً من أقدم العناصر في تكوين المدينة وهو الحى الذي وجدناه في بلاد ما بين النهرين في تاريخها المبكر ، مع تزويد هذا العنصر بآراء حديثة ووسائل حديثة وقبل كل شيء بمهارة واعية ، ولكن يبرز استبدال بالمعبد أو الكنيسة ، من حيث إنهما النواة التي تهفو إليها النفوس ، المدرسة ، مركز المجتمع ، وأدمج

ساحة الألعاب والحديقة العامة في التصميم بوصفهما جزءاً أساسياً في المشروع بأكمله ، وبذلك أعاد إلى المدينة بعض العناصر الريفية التي كانت قد فرطت فيها بأكثر مما ينبغي من الدعة . وبإعادة مدى الاتساع الذي يمكن قطعه سيراً على الأقدام ، وإنقاص مقدار ما لاحتاجة إليه من وسائل النقل ، كان مشروع منطقة الجوار يرى إلى إطلاق سراح طرق المرور للتوغل ، على وجه أوفى بالغرض ، في مناطق أكبر من ذلك ، دون التعرض إلى ما لا نهاية له من تقاطع الطرق وضياح الوقت ، وهو ما ينشأ عن توزيع وسائل الخدمات الحضرية على غير هدى .

وفي ثلاثة أنواع مختلفة من المجتمعات ، أقيم أحدها طبقاً لنظام الشوارع الشبكية ، والآخر في أرض زراعية منبسطة ، والثالث في موقع يقوم على تل ، تولى هنري رايت (Henry Wright) وكلارنس ستين (Clarence Stein) إثبات قيمة الآراء التي كان يرى قد كونها وأعرب عنها ، وإمكان التطبيق الشامل للتجربة التي كان قد عمد إلى إبرازها في نموذج جديد للمدينة .

وقد نشأ عن هذه التطبيقات العملية ظهور سيمتين جديدتين في التخطيط . أحدهما فصل طرق النقل المارة ببعض المدن في طريقها إلى مدن أخرى ، عن الطرق والشوارع المحلية ، وفقاً لما نادى به بيرى ، وقد نفذت هذه الفكرة إلى نهايتها المنطقية في رادبرن (Radburn) حيث تؤلف طرق السائرين على أقدامهم وطرق العربات شبكتين مستقلتين ، وهو ماسبق أن لاحظناه . والسمة الأخرى هي الحديقة العامة بمنطقة الجوار ، وتقوم فكرتها على أساس أن تكون إما على هيئة إطار من الخضرة حول منطقة الجوار ، كما هو الشأن في كثير من المدن الإنجليزية ، وإما على هيئة شريط من الخضرة الداخلية يربط بين الوحدات السكنية الكبرى ، كما هي الحال في رادبرن ، وعند إنشاء مدينة تشانديجار (Chandigarh) تمسك المعمارى لوكوربوزيه (Le Corbusier) بأهداب الحكمة ، ونفذ - وفقاً لطريقته

التي تقوم على الإحداثيات الكارتيزية الأكثر التزاماً للنظام - مشروع التخطيط الذي كان البرت ماير (Albert Mayer) وماتيو نويكي (Matthew Nowicki) قد وضعاء أصلاً لتلك العاصمة على غط تخطيط رادبرن . وفيما عدا المدن الإنجليزية الجديدة (British New Towns) ، فإن هذه هي أكبر الحالات التي طبقت فيها حتى الآن فكرة النمو الخلوي لمنطقة الجوار في مشروع لتخطيط مدينة على أساس موحد منظم ؟

وعلى هذا فإن ابتكاراً من أعظم الابتكرات التي تستوقف النظر في التخطيط الحديث للمدينة قد استمد مباشرة من الابتكرات المادية والاجتماعية التي أدخلت على التخطيط الأصلي للضاحية الرومنطيقية . وقد ساعد على شدة الإقبال على حركة الهجرة إلى الضواحي ، الرغبة في هذه البيئة الأكثر ملاءمة لألوان النشاط العائلي ، وبخاصة لأسرة آخذة في الازدياد ولها من الميول الشخصية مالا يتيسر مواءمته إلا في مجتمع صغير . ولسوء الحظ أن الضاحية ذاتها فقدت الشرائط التي كانت تصون المنظر الطبيعي المبسط حولها وتهيء السبيل أمام الترابط التلقائي والمشروعات المشتركة . وأما ما تحتفظ به الضاحية اليوم فهو إلى حد كبير يتألف من وجوه الضعف الأصلية الكامنة فيها ، وهي التعاطف ، والنفرة بين الطبقات ، والجري وراء المرتبة الاجتماعية ، وعدم المسئولية السياسية ؟

وفي أثناء دراسة أجريت حديثاً في بوسطن ، أظهر البحث أن فرداً واحداً ليس غير من بين كل ثلاثة من الذكور ، هو الذي يصرف أى قدر من وقته في وجه من وجوه نشاط المجتمع في ضاحيته التي اتخذها مكاناً لنومه ، وأنه يقصر كذلك في المشاركة على وجه فعال في رابطة مهنته أو عمله ، والواقع أن ساكن الضاحية ينبذ التزاماته كمواطن في كلتا الناحيتين ، وكلما ازداد بعداً عن المركز ، ازداد انفصالاً عنه . ولا تستطيع المدينة ولا منطقة الجوار إسباغ التماسك على ضاحية « عصر

الحرك الآلى ، ، وذلك لأن ما فى الضاحية من مراكز تجارية ومصانع ومكاتب أعمال ومعاهد بحوث لا تهيئ إلا أدنى قدر من الوسائل للرباط ، على حين أنها بتفرقها على غير أساس ، تفرض بذل أقصى قدر من الجهد والعناء - سواء أكان تقدير ذلك على أساس الزمن ، أم بعد المسافة ، أم التكاليف .

وهذه الجزئيات السريعة الحركة ما هى إلا الحطام المتناثر من جراء انفجار الحاضرة ، فهى لم تعد تماسك بتأثير قطب المغنطيس الحضرى ولا الوعاء الحضرى ، بل هى على الأصح أمارات على « المدينة الآخذة فى الزوال » . ولكن هذه الحركة الناشئة من المركز لا تحمل ما يبشر أو يبعث على الأمل فى حياة على مستوى أرفع . وكما يقوم عالمنا التكنولوجى المتماهى فى الاتساع بإقصاء حياتنا اليومية إلى مدى يزداد على الدوام بعداً عن مركزها الإنسانى ، يقوم عالمنا الحضرى الآخذ فى الاتساع بإقصاء أجزائه المنفصلة إلى مدى يزداد باطراد بعداً عن المدينة ، تاركاً الفرد أكثر انزالا ووحشة وعجزاً مما يحتمل أن يكون قد وصل إليه على الإطلاق من قبل ، فإن التنقل الإجبارى يهيئ فرصاً للرباط أقل ، وليست أكثر ، مما كان الاستقرار الإجبارى يهيئ فى المدينة المحوطة بالأسوار .

وإن ما بدأ على هيئة فرار من المدينة قامت به الأسر ، أصبح انسحاباً أوسع نطاقاً ، ولم تكن نتيجته ظهور ضواح قائمة بذاتها ، بقدر ما كانت النتيجة ظهور إطار من الضواحي آخذ فى الامتداد . وعندما غدت المؤسسات الكبرى فى الحاضرة أرقى تنظيم ، عن طريق الإشراف الإدارى على نطاق واسع ، والأجهزة الآلية للمحاسبة ، والمراقبة المالية المركزية ، قامت بتوزيع أجزائها - المخازن التجارية الكبرى ، والفنادق ، ومكاتب التأمين ، والمعامل ، والمصارف - فى جميع أنحاء رقعة الحاضرة ، وكان ذلك أحياناً - باعتبارها - تقصيراً للمسافة إلى مكان العمل لصالح أصحابه ومديره . وفى هذا ذاته إقرار بأن الرحلة المضنية فى وسط الحاضرة

أصبحت لا نطاق ولا ضرورة لها . ولسوء الحظ أنه لا تتمخض عن جملة هذه التوزيعات جميعاً كوكبة حضرية جديدة ، وعلى الرغم من أنها ، من حيث الاحتمالات ، قد هيأت العناصر لقيام مدينة من نوع جديد متعدد المراكز ويعمل على مستوى المناطق ، فإن النتيجة التي أفضت إليها إلى الآن ، كانت تهرئة المراكز القديمة وتقويض أركانها دون تكوين نموذج فيه من التماسك ما يكفل القيام بوظائفها الحضارية الأساسية على أى وجه يدانى المستوى القديم . وفى خلال جيل واحد ، حيناً تفقد تلك العناصر طاقة التحرك التي تستمدّها الآن من المدينة التاريخية ، سوف يكون التدهور الناشئ عن ذلك خطير الشأن . وإذا تركت هذه القوى وشأنها ، فإنها سوف تقوم من تلقاء ذاتها بتدمير المدينة ، على نحو ما يتبين الآن بوضوح فى لوس انجليس .

٦ - خط السكة الحديدية ، المطار الأخضر ، زحف السيارة

إن الضواحي التي أنشئت فيها بين سنتي ١٨٥٠ و ١٩٢٠ تدين بوجودها فى المقام الأول للسكة الحديدية ، أما تلك الأقرب منها إلى المدينة الرئيسية فإنها ، بعد سنة ١٨٩٥ ، تدين بوجودها للمركبات الكهربائية (الترام) والسكة الحديدية الممتدة تحت سطح الأرض . وأحياناً كان المضاربون فى تجارة الأرض يشجعون وسائل النقل السريع ، ولكن أقطاب النقل والقوة الكهربائية - مثل فان سويرينجنز (van Sweringens) فى كليفلند (شيكر هايتس ، Shaker Heights) وانسول (Insull) فى شيكاغو (نايلز سنتر ، Niles Center) - كثيراً ما كانوا يشجعون على إنشاء الضواحي . وإن الخطوة الحريثة التي اتخذها فرانك بيك (Frank Pick) ، بوصفه رئيس السكة الحديدية الممتدة تحت الأرض فى لندن ، لعبت دوراً لا يستهان به فى تقدم ضواحي لندن فى القرن العشرين .

والنوع الأسبق من الضواحي ، الذي كان يعتمد إلى أقصى حد على السكة الحديدية ، كانت له ميزة خاصة لم يتسن إيفاؤها حقها من التدبير

إلا بعد مازالت من الوجود . وكانت هذه الضواحي المصطفة على طول خط حديدى ، لا يتواصل امتدادها بغير انقطاع ، بل كانت تفصل بينها مسافات ملائمة ، وكانت محدودة السكان والمساحة على السواء دون عون من التشريع ؛ إذ قلما كان يضل عدد السكان فى أكبرها إلى عشرة آلاف ، على حين أن العدد المألوف فى أكثر الحالات كان أقل من خمسة آلاف . فى سنة ١٩٥٠ نجد مثلاً أن برونكسفيل (Bronxville) بولاية نيويورك ، وهى ضاحية نمطية من ضواحي الطبقة الراقية ، كانت تضم ٦٧٧٨ من السكان ، على حين أن ريفرسيد (Riverside) بولاية النيوى ، وهى التى أنشئت منذ عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٨٦٩ ، كانت لا تضم سوى ٩١٥٣ نسمة .

وإن حالة الضاحية من حيث الحجم وعدد السكان ، وهى عين حالة وحدة الجوار ، لم تنشأ كلية نتيجة للتخطيط المنفرج الذى كان يشجع قلة الازدحام ؛ إذ أنها كانت تعتمد على خط حديدى يتراوح بعد المسافة بين المحطات الواقعة عليه بين ثلاثة وخمسة أميال . ولذلك كان هناك حد طبيعى لمدى امتداد أى مجتمع بالذات ؛ لأن المنازل كانت يجب أن تقام فى موقع « يبعد عن محطة السكة الحديدية مسافة يمكن قطعها بسهولة سيراً على الأقدام » ؛ وهو ما كانت تنوّه به نشرات الإعلان ، ولم يكن ليَجروْا على التغلغل إلى أبعد من ذلك فى الريف الطلق سوى من كانت ثروتهم تمكنهم من اقتناء جواد ومركبة .

وفى مبدأ الأمر ، حال قصر المسافة بين محطات القوف دون امتداد الضاحية المعتمدة على السكة الحديدية ، أو دون ازدياد عدد سكانها زيادة بالغة ؛ إذ أن إطاراً طبيعياً من الخضرة - وكثيراً ما كان لا يزال يزرع مواد لتكوين السوق - بقى قائماً فيما بين الضواحي وكان يزيد فى مساحة المنطقة التى يمكن الانتفاع بها للتنزه : وأحياناً فى مناطق قليلة سعيدة الحظ ،

مثل وستشستر (Westchester) فيما بين سنتي ١٩١٥ و ١٩٣٥ ، كان مما يزيد في كمال نموذج الضاحية بأسره امتداد طريق مزدان بالزروع ، مثل طريق حدائق نهر برونكس (Baonx River Parkway) ، ومصحوب بشرى من الحدائق متواصل الامتداد ليستخدمه السائرون على أقدامهم ، ولم يطف عليه بعد سيل مستديم من جرعة مرور الحاضرة . ومما يكن في وسع المرء أن يقوله عن المساوئ الاجتماعية ، فإن هذه كانت من وجوه عديدة بيئة طبيعية ساحرة في بساطتها ، بيد أنها دامت أقل من جيل واحد .

ومن المحتمل أن مجرد وجود مثل هذه الإطارات الخضراء التي تعزل المجتمعات الصغيرة للضواحي ، المستقلة بمحتوياتها ولكنها وثيقة الاتصال فيما بينها ، من المحتمل أن ذلك هو الذي حفز الاقتصادي الفريد مارشال (Alfred Marshall) إلى أن يقترح في سنة ١٨٩٩ فرض « ضريبة قومية للهواء الطلق » في إنجلترا ، كوسيلة لضمان وجود إطارات خضراء بين المدن بصفة مستديمة . ومما قاله : « نحن في حاجة إلى زيادة عدد ساحات الألعاب في وسط مدننا ، ونحن في حاجة أيضاً إلى الحيلولة دون نمو المدن حتى تمتد مدينة إلى مدينة أخرى أو إلى قرية مجاورة ، كما أننا في حاجة إلى الاحتفاظ بمساحات من الريف تتوسط بينها على هيئة مزارع للألبان أو غيرها وكذلك بمثابة ساحات عامة لأسباب اللهو والترفيه » .

وما كان يتسنى أن تسدى إلى الإدارات البلدية نصيحة أكثر حصافة من ذلك ولا أكثر منها توفيقاً من حيث إسداؤها في أوانها ، وفي الحق أنها بعد ذلك بأكثر من نصف قرن ما زالت في أوانها والحاجة إليها أشد وأعظم إلحاحاً بكثير . أما أن مهندس التخطيط ورجال البلديات لم يأخذوا بها فوراً ، وأنها ما زالت بعيدة عن التقدير والعمل بموجبها في أغلب المراكز الحضرية الآخذة في النمو ، فإنه أمر يشين هذه المهنة ووصمة تدمغ إدراكنا العام .

لواجبنا نحو مدنتنا : (وإن حركة المدن الجديدة فى إنجلترا ، والسياسة البعيدة النظر التى تتبعها بعض المدن الفذة مثل روتردام وأمستردام واستوكهلم لتباین مع عجز نيويورك المحزن عن حماية وستشستر ولونج إيلند ، أو مع عجز سان فرانسيسكو عن حماية خليج ريجون (Region Bay) ومع عجزها الأشد عن حماية حقوق الكروم وبساتين الفاكهة فى وادى سانتا كلارا (Santa Clara Valley) ، وحسبنا قصر الاختيار على مثلين من عشرات الأمثلة المحزنة) .

ولو أن نصيحة مارشال كانت قد لقيت آذاناً صاغية على الفور ، بسن تشريعات تنظم تحديد المناطق ووجوه الانتفاع بالأرض على نحو ملائم ، وبتهيئة الوسائل لوضع اليد على الأرض العامة على نطاق واسع من أجل وضع الأمور فى نصابها عند حدوث كل تطور جديد فى نظام الطرق الرئيسية - لو أن ذلك قد حدث لتسنى إدخال تغيير جوهري فى النموذج الحضري ، فقد كان يتسر عندئذ الحيلولة دون تكتل وامتداد مجموعات هائلة من مساكن الضواحي وأشباه الضواحي ، فضلاً عن اتخاذ خطوات إيجابية لتكوين وضع أكثر حيوية يعمل على مستوى المناطق ، ويتلاءم مع رسائلنا الحديثة للنقل والمواصلات .

وهكذا فإن القوى التى كانت تقذف آلياً بالطرق الرئيسية والسيارات ومشروعات تعمير الأراضى إلى الريف الطلق ، بدلا من أن تنشئ مدينة المناطق ، أفضت إلى التسرب الحضري الذى لا شكل له . فأولئك الذين يستخدمون سحر الألفاظ لتحويل هذا التراكم إلى كيان عضوى ، إنما يخدعون أنفسهم . وإن فى تسمية الكتلة التى نجمت عن ذلك ميجالوبوليس (Megalopolis) أى مدينة عظمى ، أو فى الإيحاء بأن اتساع المساحة مع سرعة وسائل النقل يكفى فى ذاته لإنتاج وضع حضري جديد أرقى فى مستواه ، إن فى هذا تجاهل لما تنسم به طبيعة المدينة من تعقيد . والالتحام

الذى يوجد فعلاً في النسيج الحضري ويعتبره الآن كثير من علماء الاجتماع المرحلة الأخيرة في تطور المدينة ليس في الحقيقة مدينة من نوع جديد، بل نوعاً مضاداً للمدينة . وكما يحدث طبقاً للرأى الخاص بمضادات المادة ، فإن النوع المضاد للمدينة يبني المدينة كلما اصطدم بها .

وإن ما حدث للضاحية قد أصبح الآن في ذمة التاريخ ، فإنه حالما عم استخدام السيارة ، زال من الضاحية معيار السير على الأقدام ، وزال معه الطابع الذاتي للضاحية وما فيها من سحر وجاذبية : ولم تعد الضاحية وحدة للجوار ، بل أصبحت كتلة مشتتة تنخفض فيها نسبة كثافة السكان ويطوقها التجمع الحضري الذى تطوقه بدوره . ولقد كانت الضاحية في حاجة إلى صغر حجمها في ذاته بقدر ما كانت في حاجة إلى خلفيتها الريفية لكي تحقق النوع الخاص بها من الكمال الشبيه بالريفى . وعندما تجاوزت الضاحية ذلك الحد ، لم تعد ملاذاً يلجأ إليه من المدينة ، وأصبحت جزءاً من الحاضرة التى لا سبيل للفكك منها ، « المدينة ذات اللوامس » (La ville tentaculaire) وهى التى كانت الأماكن الفضاء والحدائق العامة الواقعة في أطرافها البعيدة ، تنهض أدلة أخرى على ازدحامها . وهذه الحقيقة ستبقى صحيحة حتى إذا ترتب على النقل بالطائرات النفاثة أن منطقة تبعد ألفاً ومائتى ميل تصبح في قرب منطقة تبعد اليوم ستين ميلاً ؛ إذ أنه عندما يقهر الإنسان الفضاء ، فإنه يزيد كذلك من عدد السكان الذين يكون في وسعهم بلوغ ذلك الفضاء البعيد ، ومن ثم فإن ما يرنجى تحقيقه من الربح الصافى هو دون العدم بمراحل .

ولقد كان للضاحية طابعها طوال خضوع نموها لتحكم محطة السكة الحديدية ومسافات السير على الأقدام . وقد كان تركيز الحوانيت وأماكن انتظار السيارات حول محطة السكة الحديدية في الضواحي الممتازة ، كان في ذاته مما ساعد على وجود منطقة للسوق من نوع جديد أكثر تركيزاً من السوق الممتدة صفاً على طول أحد الشوارع العريضة . وكان هذا

نموذجاً أصيلاً تلقائياً للمركز التجارى الذى نشأ فى الضاحية ، وأكسبته الوسائل المهيأة فيه لتيسير انتظار العربات مزايا جعلته يبرز منشآت حضرية أكثر قرباً من وسط المدينة ، حينما أصبحت السيارة الخاصة الوسيلة الرئيسية للانتقال . بيد أن السيارة قد تمخض عنها ما هو أكثر من تجاوز الحدود الباكورة للضاحية والتضاء على معيار السير على الأقدام ، فإنها استوجبت إما مضاعفة عدد السيارات اللازمة لكل أسرة ، وإما تحويل ربة البيت فى الضواحي إلى سائق ينقطع طول الوقت لقيادة السيارة .

ولقد أصبح هذا الواجب أشد ضرورة ، لأن مجئ السيارة كان مصحوباً بما يُحمد إليه من إبطال نظام النقل الكهربى (على قضبان) . وفى الجهات التى تفوق سواها فى أمريكا من ناحية العمران الحضرى ، كثيراً ما حققت وسائل النقل الكهربى معدلاً من السرعة أكبر بكثير من معدل سرعة السيارات العامة الحالية (الأنوبيس) ، وذلك بفضل استخدامها طرقاً خاصة بها ، شأنها فى ذلك شأن القطارات البخارية .

وبدلاً من أن تكون السيارة الخاصة مكتملة لوسائل النقل بالطرق الحديدية ، أصبحت إلى حد كبير بديلاً أخرق . والطور الجديد لانبطاح الضاحية ؛ بدلاً من أن يحتفظ بنظام للنقل متعدد الأساليب بحيث يهيئ الفرص لاختيار ما يناسب الظروف من السرعة وطريق السير ، أصبح يعتمد فى استكانة على أسلوب واحد وهو السيارة الخاصة التى أدى ذبوعها إلى التهام السلعة الوحيدة التى كانت الضاحية تعز بها وهى المكان الفضاء ، ومن ثم فإنه بدلاً من أن تكون لدينا مبان مقامة فى حديقة ، أصبحت لدينا الآن مبان مقامة فى ساحة لانتظار السيارات .

وعندما كانت الضاحية تنفيذ أقلية محظوظة ، لم تكن سبباً فى إفساد الريف ، ولا تهديد المدينة ، ولكن الآن وقد أصبح الاندفاع نحو الدائرة الخارجية المحيطة بالمدينة حركة عامة واسعة النطاق ، فإنه يتجه نحو القضاء على

ما لكلتا البيئتين من قيمة ، دون أن ينشأ عنه أى شئ سوى بديل موحش مجرد من الشكل بل أكثر تجرداً من القيم الأصلية للضاحية . ومن ثم فإننا نواجه الآن وضعاً متناقضاً ؛ إذ أن الوضع الجديد للضاحية قد أنتج الآن نموذجاً مضاداً للوضع الحضري . ولقد كان القضاء على المسافات التي يمكن قطعها سيراً على الأقدام مصحوباً بالقضاء على السير على الأقدام كوسيلة طبيعية لتقل الإنسان ، فالسيارة جعلت ذلك غير مأمون ، كما أن امتداد الضاحية جعله ضرباً من المحال .

ونتيجة لذلك فإن الإيضاح المفيد الذي أورده أونوين في قوله : « فرط الازدحام لا يعود بأي كسب » يجب أن يقابله تحذير يحدد من معناه وهو : « فرط التغالي في فصل المواقع يعود بقدر من الخسارة » ، وهذا ينطبق على كل سمات التراكم في الضاحية . وإن ما كان يوماً طريقاً رئيسياً متواضعاً - وقد ظل اتساعه الذي كان عليه في عهد الرومان ، وقدره خمس عشرة قدماً ، المعيار السائد تقريباً إلى حين ابتكار طريق الحدائق - ليتطلب الآن ألوف الأقدنة ، وذلك فضلاً عن طرق خاصة للمرور يزيد عرضها على ما كانت تحتاج إليه الخطوط الحديدية الرئيسية في أوج عهد اتساعها .

ولضمان استمرار تدفق حركة المرور ، وحتى في المناطق الريفية ، نوضع تصميمات للطرق على هيئة ورقة البرسيم ، وأيدي الأباريق ، مما يسبب القضاء على المزيد من الأرض الفضاء . وبدلاً من ساحات شحن البضائع ، وساحات مناورات القاطرات ، مما كان يوجد عند المحطات النهائية للخطوط الحديدية ، فإن تشعب حركة النقل بالسيارات يتطلب في ذاته وسائل مماثلة حول كل مبنى يحتشد فيه الناس ، وعلى ذلك فإن كل مصنع أو مكتب جديد وكل متجر كبير أو مركز تجارى جديد ينشأ وسط الريف الطلق ، يتطلب ساحات لا تظار السيارات يبلغ من اتساعها أن أولئك الذين يتركون

سياراتهم عند أطراف تلك الساحات ، يكون عليهم للوصول إلى الحانوت الذى يقصدونه أن يسيروا على أقدامهم مسافة أطول بكثير مما يتعين عليهم سيرها فى مدينة شديدة الازدحام بعد مغادرة سياراتهم العامة أو قطارهم الذى يجرى تحت الأرض ، ومع ذلك فإنهم ما زالوا يحتفظون فى عناد وإصرار بالصورة الوهمية للسيارة الخاصة التى تنقلهم « من الباب إلى الباب » .

وما أبعد الشقة بين هذا كله وبين المتعة الأرستقراطية بالفضاء الواضح للعين الذى كان يهيئ للمدينة فى آخر العهد الباروكى ميادين طليقة ، مربعة ومستديرة ، ومناظر بعيدة المدى فى أثناء التنزه فى شوارع عريضة تحفها الأشجار ، وفى التوزيع الجديد فى الضواحي ، أصبح تبديد الأرض فى الفصل بين المواقع بديلاً عن التخطيط المدنى القطن أو التنظيم البلدى البعيد النظر ، أو الاقتصاد الحكيم . فكل مبنى منفصل ينبطح فى تراخ وفق تصميم لإقامة طبقة واحدة على أقصى مساحة يمكن استخدامها فى البناء ، ويفصل المبنى عما يجاوره — إن وجد — ساحة تزداد اتساعاً باطراد لانتظار السيارات ، وهذه الساحات تعود فتزداد فى الحجم بانتظام كلما ازداد الغزوف عن استخدام الوسائل العادية للنقل ، بيد أنه حينما تطلق المؤسسة الصناعية الكبيرة المشتتة الأجزاء سراح عمالها فى آخر النهار ، فإن ما يحدث عند باب الخروج من الازدحام الشديد المضيق للوقت ، قد يعادل تماماً ما يحدث فى المدينة الكبرى :

وفى كنف النظام المتبع حالياً فى الضواحي ، تقتنى كل وظيفة حضرية أثر طريق السيارات ، فهى تلتهم الفضاء وتستنفد الوقت مع ازدياد حالات تعارض بعضها مع بعض وما يفضى إليه ذلك من خيبة الأمل : على حين أن هذا النظام ، تحت ستار التذرع بالرغبة فى زيادة السرعة وتوسيع نطاق المواصلات ، يقوم فى الواقع بإعاقة ذلك ويحول دون إمكان عقد الاجتماعات

وحدوث المقابلات في يسر وسهولة بسبب نثر أجزاء المدينة على غير هدى في أرجاء منطقة بأكملها .

وترجع حقيقة السبب في هذا الفشل الذي منيت به الوسائل التقنية الحديثة إلى مغالطة تمتد إلى صميم الأيديولوجية بأسرها التي تستند إليها هذه الوسائل ، ونعني بذلك الذهاب في الرأي إلى أن القوة والسرعة أمران مرغوبان لذاتهما ، وأن آخر طراز من العربات السريعة الحركة يجب أن يحل مكان كل نوع آخر من وسائل النقل . والحقيقة هي أن سرعة الحركة يجب أن تكون مهمة تخدم أغراض الإنسان ، فإذا كان المرء يريد أن يقابل الناس للتسامر معهم في نزهة حضرية ، فإن السير بمعدل سرعة ثلاثة أميال في الساعة يكون أسرع مما ينبغي ، أما إذا كان الأمر يتعلق بالإسراع بجراح إلى مريض يوجد على بعد مسافة ألف ميل ، فإن سرعة ثلثائة ميل في الساعة قد تكون أبطأ مما ينبغي . بيد أن الأمر الذي لم يستطع خبراءنا في النقل أن يدركوه بسبب ما اتخذوه لأنفسهم من مبادئ تكشف عن حماقتهم ، هو أنه لا تتسنى إقامة نظام للنقل واف بالغرض على أساس أى وسيلة محدودة منفردة للانتقال مهما تبلغ سرعتها من الوجهة النظرية .

وإن ما نحتاج إليه شبكة فعالة للمواصلات ، هو أقصى عدد من وسائل النقل التي يمكن الاختيار بينها ، وتكون على درجات متفاوتة في السرعة وفي الحجم ، وتصلح لمختلف الشئون والأغراض . وإن أسرع طريقة لنقل مائة ألف شخص في داخل منطقة محدودة في المدينة يبلغ نصف قطرها ميلاً مثلاً ، هي السير على الأقدام ، أما أبطأ طريقة لنقلهم فهي وضعهم جميعاً في سيارات . ولذلك فإن جميع سكان مدينة بوسطن التاريخية في أثناء النهار ، إذا ساروا على الأقدام تسنى لهم التجمع في ساحة بوسطن العامة في بحر مدة قد تقل عن الساعة لو خلت الشوارع من حركة مرور السيارات أما إذا نقلوا بالسيارات فإن ذلك قد يستغرق ساعات ، وهم خليقون

بألا يصلوا إلى وجهتهم ما لم يغادروا سياراتهم التي لا يمكن العثور على مكان لتركها فيه .

وإن متخصصينا في هندسة الطرق ورجال سلطاتنا البلدية - وقد وقعوا تحت تأثير الإقبال الشديد على استعمال السيارة الخاصة ، وشعروا بأن الواجب يقتضيهم معاونة شركة جنرال موتورز (المحركات العامة) على الازدهار حتى لو كانت النتيجة هي « القوضى العامة » - قد تأمروا علنا على تعطيل جميع أساليب النقل المختلفة اللازمة لنظام صالح ، وقصروا وسائلنا على السيارة الخاصة (للمتعة والراحة ونقل البضائع) والطائرة . بل إنهم قاموا بمحاكاة طرق السكك الحديدية ، وأعادوا جميع الأخطاء التي وقع فيها المهندسون الأوائل للسكك الحديدية على حين أنهم كدسوا في المدن الواقعة عند نهاية الطرق الرئيسية سكانا لا تستطيع السيارات الخاصة أن تفي بخدمة ما لم تدبر المدن ذاتها تهئية المجال اللازم لحركة السيارات وتخزينها .

ولو أن الخبراء الفنيين والإداريين كانوا يعرفون واجبههم حق المعرفة لاتخذوا تدابير خاصة تكفل وجود وسائل أكثر كفاية لنقل الأعداد الكبيرة ، وذلك من أجل صيانة كيان المدينة وتيسير استخدام أقل وسائل النقل الأخرى إضاعة للوقت . والواقع أن قيام نظام حضري كامل قادر على أداء وظيفته على أتم وجه ، يستلزم توفير السبل الملائمة لكل أسلوب من أساليب النقل ؛ إذ أنه لا يمكن الوفاء بحاجات مجتمع حديث إلا عن طريق تهئية وسائل حصينة لتتحمل السائر على قدميه في سر ، وتوفير نظام لنقل الأعداد الكبيرة ، والعناية بالشارع العادي ، والشارع العريض ، والطريق المعد للنقل السريع ، والمطار . ولن يتم تحقيق الغاية المنشودة بما هو دون ذلك من الوسائل .

وإننا بتفضيل سيارة النقل على السكة الحديدية فيما يتعلق بنقل البضائع إلى مسافات بعيدة ، قد أحللتنا مكان وسيلة مأمونة تتوافر فيها الكفاية ،

وسيلة أشد خطراً وأقل كفاية . فإذا كنا نريد تحسين نظام الطرق الموجودة لدينا ، فإنه يجب علينا أن نحرص على نقل أكبر قدر ممكن من البضائع عن طريق السكة الحديدية . ومن أهم الأسباب التي تدعو إلى الحفاظ على نظام نقل الركاب والبضائع بالسكة الحديدية وعلى نظام نقل الأعداد الكبيرة ، هو ضمان حرية الحركة للسيارات الخاصة على الطرق الرئيسية . وكذلك إذا كانت طرق النقل السريع التي أنشأناها حول مدنتنا ، يراد لها أن تؤدي وظيفتها على الوجه الذي أنشئت من أجله ، فإنه يجب العمل على تحسين وتوسيع نظام نقل الأعداد الكبيرة بدلاً من أن يترك شأنه ليخفى من الوجود .

والعلاج الوحيد الناجع لفرط الازدحام في المدن ، هو أن تنظم الصلة بين مناطق الصناعة والأعمال من ناحية ، وبين المناطق السكنية من ناحية أخرى بحيث يتسنى لفريق كبير من المشتغلين فيها أن يذهبوا إلى عملهم إما سيراً على أقدامهم أو راكبين دراجاتهم ، وإما باستخدام سيارة عامة أو ركوب قطار السكة الحديدية . وذلك أننا بالدفع بجميع وسائل النقل إلى طرق السيارات المعدة للسرعة العالية ، نحملها عبئاً يفرض على وجه التحقيق إلى تخفيض سرعة المرور في أوج اشتداده إلى مرتبة الزحف . وإذا حاولنا معالجة ذلك بمضاعفة عدد طرق السيارات فإننا بذلك إنما نزيد من جملة ما يصيب المدن من التحطيم بالتطويح بأجزاء منها إلى نواح تزداد بعداً على الدوام وتكون كتلة لا شكل لها مؤلفة من نسيج رفيع شبه حضري . والفرقة المكانية بين الوظائف في الضواحي ، ينشأ عنها إفراط في تخصص كل جزء منها على أفراد ، فننشأ مناطق سكنية منفصلة بدون حوانيت محلية ، ومراكز تجارية منفصلة بدون صناعات ، ومؤسسات صناعية منفصلة بدون وسائل لتيسير تناول الطعام ما لم تقم الإدارة بتدبيرها . وهكذا فإن الضواحي هربوها من ضروب التعاون المعقدة في المدينة لتستعيد المساواة الأصلية للإفراط في التخصص والتحكم الصارم .

أما أن التخطيط الحضري السليم يجب أن يدبر مكانا للسيارة فهو أمر واضح لا يحتاج إلى بيان ، ولكن ذلك لا يعنى على الإطلاق أن السيارة يجب أن يباح لها التغلغل في كل جزء من المدينة وأن تبقى هناك ، حتى لو كان ذلك يفضي إلى قلب كيان جميع ألوان النشاط الأخرى . كما أنه لا يعنى أن تتحكم السيارة في نظام الحياة بأكمله . ولا يعنى فضلا عن ذلك أن يباح لمصنعيها الاستخفاف باحتياجات المدينة بالمضى في تصميم سيارات تزداد على الدوام طولا وعرضا . إن الأمر على التقيض من ذلك ، فقد حان الوقت للفرقة بين وظيفتين للسيارة - التنقل في المدن ، والتنقل في فضاء الريف الواسع ، فللمهمة الأخيرة ليس من شأن سيارة كبيرة يتوافر فيها من الاتساع ما يكفي لنقل أسرة بأمنيتها ، إلا أن تثير الإعجاب بها . بيد أنه يجب تشجيع مثل هذه السيارات على البقاء في أطراف المدينة ، وفرض ضرائب باهظة عليها نظير السماح لها بالانتظار في داخلها ، على حين أنه يجب تقديم مساعدات خاصة لتصميم وتوزيع السيارات الصغيرة ذات المحركات الكهربائية لاستخدامها في التنقلات العادية في داخل المدن لكي تكمل وسائل نقل الأعداد الكبيرة بدلا من أن تحمل مكانها . وذلك أن خصائص عربة المدينة هي السرعة المعتدلة ، والهدوء ، وسهولة العثور على مكان للانتظار فيه ، وصغر الحيز الذي تشغله في أماكن الانتظار . ولا ريب في أن تلك الوسائل التكنولوجية التي لا تجد إلا حلا واحدا لمشكلة النقل ، وسائل مجدبة إلى حد غير معقول ، كما أن ذلك النوع من تخطيط المدن الذي يسمح لذلك الحل بأن يسيطر على منهج كيانه بأسره ، تخطيط معدم .

٧ - الضواحي الواسعة النطاق أوضاع مضادة للمركز

إننا في كنف الأوضاع الحالية قد بغنا حقنا الطبيعي في أن ننعم بحياة حضرية هائلة لقاء سيارات أشاعت اضطراباً مزعجاً بين ظهرائنا ، وهي

صفقة خاسرة كصفقة حساء عيسوه^(١) سواء بسواء . ولعل الأجيال القادمة سوف تدهش حيال ما نبديه من الرغبة ، بل في الحقيقة ، من الלהفة على التضحية بتعليم أولادنا ، والعناية بالمرضى والمستين ، وتقديم الفنون ، دون أن نذكر شيئاً عن سهولة الوصول إلى أحضان الطبيعة ، وكل ذلك من أجل النظام المختل التوازن ، الذى يقوم على وسيلة واحدة للنقل ، تخرق المناطق القليلة السكان بسرعة تبلغ ستين ميلاً فى الساعة ولكنها تنخفض فى المناطق المزدهجة إلى مجرد ستة أميال . ولكن لعل أبناءنا سوف يفهمون سر رغبتنا الغربية لإنفاق ألوف الملايين من الدولارات للقذف بأحد الضحايا إلى مدار الكواكب ، إذا أدركوا أن التخريب يجرى فى مدننا من أجل عين الطقوس الدينية الخرافية ، ونعنى بها عبادة السرعة والفضاء الخالى . ولما كانت البلديات تفتقر إلى اعتمادات مالية كافية للقيام على وجه ملائم بمواجهة جميع مطالب الحياة التى يتسنى تركيزها فى المدينة ، فإننا قد قنعنا باضطلاعها بوظيفة واحدة وهى النقل ، أو على الأصح بجزء واحد من نظام صالح للنقل ، وهو التنقل بالسيارة الخاصة .

ولما كان متخصصونا فى هندسة الطرق وتخطيط المدن قد تركوا وسائل نقل الأعداد الكبيرة تندهور ، واقتطعوا من المدينة أجزاء لإنشاء طرق للتنقل السريع وحظائر لانتظار السيارات فى داخل المدينة ، وكل ذلك من أجل تشجيع استخدام السيارة الخاصة إلى أقصى حد ، فإنهم عاونوا على إبادة الأنسجة الحية فى تكوين المدينة وعلى الحد من الإمكانيات لإقامة كيان حضرى أوسع نطاقاً على مستوى المناطق . ويجب أن يكون السير على الأقدام الوسيلة الرئيسية لانتقال الأعداد الكبيرة مسافات قصيرة تقل عن ميل . بيد أن رجال بلدياتنا ومهندسى طرقنا بتثيبتهم هم السائرين على الأقدام وإسقاطهم من الحساب ، وبفشلهم فى توسيع واستكمال

(١) كان عيسوه الأخ التروام سيدنا يعقوب وقد باعه حقه فى الميراث نظير « صحن » من العدس .

وسائل نقل الأعداد الكبيرة ، قد أوجدوا حالة تستدعى انخفاض نسبة كثافة السكان إلى أقصى حد . وهنا نعود فنجد أن احتكار الأماكن الفضاء الخاصة لا يقتصر على تضيق مجال المساعدات الاجتماعية في المدينة بل يضحى بالمناطق الفضاء العامة لصالح المناطق الخاصة .

وقد روج عملاء الضواحي الواسعة النطاق الاعتقاد الفاسد بأن الاتساع وسرعة التنقل هما العنصران الأساسيان للحياة الرغدة . وما عادة إنشاء مبان قليلة في مساحات واسعة إلا من رواسب التركة التي خلفتها الحركة الرومنطيقية الأصلية ، وقد أصبحت الآن إحدى العقبات الرئيسية التي تحول دون إعادة تجميع أجزاء المدينة وإدماجها في نموذج جديد من شأنه أن يوفر موارد للحياة أغزر خصباً سواء من الحاضرة الرئيسية المفرطة الازدحام والمختلة النظام ، أم من المناطق المتطرفة التي يعتمد في الوصول إليها على طرق النقل السريع . ولوس أنجلوس هي المثال الذي ذاعت شهرته السيئة عما بلغه التماهى في تطبيق تلك الخرافة إلى حد ينافي العقل . فهنا ساد التمسك بمعايير الضاحية فيما يتعلق بالاتساع الطلق ، حيث تقوم المنازل منفصلة عن بعضها بعضاً وبقل عددها إلى حد أنها في أحيان كثيرة لا تزيد على خمسة منازل في الفدان الواحد ، وكذلك نجد أن السيارة الخاصة ، بوصفها الوسيلة العظمى للنقل ، قد حلت مكان النظام الذي كان إلى ما قبل الآن بمدة جيل أو نحوه يعتبر نظاماً على أقصى درجة من الكفاية لأداء مهمة النقل العام .

ولقد أصبحت لوس أنجلوس الآن كتلة خالية من السمات المميزة ، سوى أنها مؤلفة من منازل ومقسمة إلى مناطق تطوقها طرق للنقل السريع ذات مسارات عديدة ومنحدرات وقناطر مرتفعة تخلق بذاتها عدة مواضع تختنق فيها حركة المرور . وهذه الطرق السريعة لا تنقل في الساعة الواحدة إلا جزءاً يسيراً مما كانت تنقله من قبل وسائل النقل العامة ، وبمعدل للسرعة

يقبل كثيراً عن ذى قبل ، وفى بيئة ملوثة بالضباب الدخاني الناجم عن الغازات القاتلة التى تنفثها السيارات المتخلفة من الوجهة التكنولوجية . وإذا كان أكثر من ثلث مساحة لوس أنجلوس يستنفده هذا الضرب من الوسائل الشاذة لتسهيل حركة النقل ، فإن ثلثي مساحة المنطقة الواقعة فى قلب لوس أنجلوس تشغلها الشوارع وطرق النقل السريعة (freeways) وأماكن انتظار السيارات وحظائر السيارات . أليس هذا إسرافاً شديداً فى تبديد الأرض؟! والمرحلة الأخيرة من العملية تتم عن عقول تقدمية حقاً - أليست تنطوى على طرد البقية الباقية من السكان ووضع المنطقة بأسرها تحت إمرة عربات تتحرك آلياً ، وبجردة تماماً من أى هدف إنسانى يسوغه العقل .

وحتى فى مدن تبلغ من الاتساع ما تبلغه واشنطن ، فإن المنطقة المركزية الأصلية وحدها هى التى تبلغ نسبة كثافة السكان فيها عشر أسر أو أكثر فى الفدان الواحد ، وأما فى الأطراف الآخذة فى الامتداد فإن القاعدة هى أن تكون النسبة أقل من عشر أسر ، بل إن تياراً سريع الحركة يطنى على منطقة أكثر اتساعاً بما يجعل نسبة الاستقرار فيها تصل إلى أقل من خمس أسر فى الفدان الواحد . وهذا يلحق ضرراً شديداً بكل من المعيشة فى المدينة والزهرة فى أوقات الفراغ ، لأن محاولة تزويد المناطق النائية بطرق للنقل السريع سوف لا يقتصر أثرها على توالى الزيادة فى مساحة الأرض المجربة ، بل إن ذلك سوف يؤدى إلى تناثر وسائل المساعدات الاجتماعية التى ينبغى أن تركز فى مدن جديدة تنظم على نسق يؤدى إلى نشر وتوسيع وسائل المساعدات المركزية .

وينبغى أن تكون النتيجة قد أصبحت واضحة للعيان ، وهى أن أى محاولة لإيجاد نظام للنقل واف بالغرض دون أن يسبق ذلك تدبير الاحتفاظ بمساحات كافية من الأرض العامة ، ودون وضع قواعد لتحديد نسبة كثافة السكان تكون ملائمة لوضع حضرى متوازن وأعلى من المستوى الحالى

لكثافة السكان في الضواحي ، ودون تدبير شبكة من الطرق الإقليمية تكون إلى حد كبير مستقلة عن شبكة الطرق الكبرى الرئيسية ، بغير هذا كله تؤدي المحاولة إلى انتهاك صفحة الأرض دون أن تعود على السكان الجدد بأى مكاسب مستديمة .

وللاحتفاظ بالمزايا التي توافرت لأول مرة في تكوين الضاحية الرومنطيقية ، يجب أن نعمل على توافرها في تكوين المدن ، وللاحتفاظ بالمزايا التي اكتشفت لأول مرة في المدينة المقفلة ، يجب أن نعمل على إيجاد نموذج يتوافر فيه عدد أكبر من المنافذ ، ويكون أكثر تنوعاً من الناحيتين الاجتماعية والجمالية . ومن شأن نسبة كثافة السكان التي تبلغ في المعدل نحو مائة نسمة في الفدان الواحد من صافي المساحة السكنية - أى دون احتساب مساحة الشوارع والمسالك الجانبية - من شأن هذه النسبة أن تفسح المجال لوجود حدائق خاصة يمكن الانتفاع بها ، وأن تشجع على إنشاء حدائق عامة صغيرة في داخل المدينة للاجتماع والترويح عن النفس . ويمكن تحقيق ذلك بدون تشييد الكتل العقيمة العالية الارتفاع التي تمزق جوانب الفضاء وتزهو في الوقت الحاضر بعرض ما فيها من بشاعة وصرامة في أوروبا وأمريكا معاً ، بوصف ذلك آخر ما وصلت إليه العمارة « الحديثة » . فإذا كانت تهتمنا القيم الإنسانية ، فليس في وسعنا أن نختل بعد الآن الضواحي المتطاولة الامتداد ولا الحواضر المختنقة بالازدحام ، بل إننا أقل احتمالاً لوجود ضاحية مختنقة بالازدحام ، فإن طلاقة منظرها يتوقف على مدى انعزال خلاياها وإحكام تنظيم ما تحتويه من الأسر في مبان كبيرة .

٨ - أسر في الفضاء

وعلى نحو ما حدث تحت تأثير عبادة « المكنة » وخرافتها في الوقت الحاضر ، أطاحت للضواحي الواسعة النطاق بأغلب ضروب الحرية.

وأسباب البهجة التي كان أشباع روسو الأصليون ينشدون العثور عليها عن طريق هجرتهم من المدينة . والآن بدلا من تركيز عنايتنا على الطفل في الحديقة ، تطالعنا صورة « أسر في الفضاء » ، وذلك أنه كلما ازداد تناثر السكان ، ازدادت عزلة أهل كل بيت بمفردهم ، وازداد المجهود اللازم للقيام على انفراد - حتى مع الاستعانة بكثير من الأجهزة الميكانيكية والوسائل الآلية - بما كان يتم القيام به عادة في صحبة آخرين ، وكثيراً ما كان يقترن ذلك بالحديث والغناء والاستمتاع بوجود أشخاص آخرين .

وربة البيت التي كانت منذ نصف قرن تعرف جزاها وبقالها ولبانها وغيرهم من مختلف تجار الحى الذين كانت تعاملهم ، معرفة شخصية كأفراد لهم قصص وسير كان لها أثرها في حياتها نتيجة لتعاملها معهم يومياً ، أصبحت الآن تتمتع بميزة الذهاب مرة واحدة في الأسبوع إلى سوق مجمعة تقوم فيها بخدمة نفسها ، ولا يحتمل أن تلتقى فيها ببعض الجيران إلا عن طريق المصادفة . وإذا كانت ميسورة الحال ، فإنها تكون محوطة بأجهزة كهربية أو إلكترونية تحل مكان صحبة من لحم ودم ، وأما رفاقها الحقيقية وأصدقائوها ، ومرشدها ، وعشاقها ، ومن يملأون عليها حياتها التي لم تستمتع بها ، فهم الأشباح التي تبدو على لوحة التليفزيون ، أو حتى ما هو دون ذلك تجسداً من الأصوات . وقد تستطيع أن ترد عليهم ولكنها لا تستطيع إسماعهم صوته ، فقد تبين بالتجربة أن هذا نظام للاتصال من جانب واحد ، وكلما ازداد نطاق الاتساع ازداد الاعتماد على مركز بعيد للتموين وعلى التحكم من بعيد .

وعند أطراف الضواحي الواسعة النطاق ، تختفى حتى مزايا الجماعة الأولية في وحدة الحوار . وتكاليف هذه العزلة في مساحات شاسعة لا تتناسب مع فوائدها المزعومة ، فإن ما ينشأ عنها في النهاية هو عبارة عن حياة داخل غلاف ، يزداد قضاؤها باطراد؛ إما في سيارة، وإما في مقصورة

من الظلام أمام جهاز تليفزيون . وعاجلاً ، مع توسع قليل في التشغيل الأتوماتي لوسائل الانتقال ، سوف يقضى الجانب الأكبر من هذه الحياة في داخل سيارة تقطع مسافات أطول من ذلك تحت سيطرة تحكم من بعيد ، مما يتيح لمن كان في وقت ما يتولى قيادة السيارة أن ينصرف إلى الانشغال بجهاز التليفزيون ، بعد أن فقد حتى حرية التحكم في عجلة القيادة . والواقع أن كل جزء من أجزاء هذه الحياة سوف يتم بالوسائل الرسمية ويكون خاضعاً للإشراف والتحكم ، دون أن تمسه يد الإنسان في البداية ، ولا روح الإنسان في النهاية . وخلق بمن يرضون بالمعيشة على هذا الوجه أن يرضوا بإيداعهم في صاروخ يمرق بهم في أجواز الفضاء ، فما أضيق مجال الاختيار أمامهم ، وقلة عجز وسائل التجاوب المتاحة لهم ، وهنا نجد حقيقة «الجمع المنقطع وحيداً» .

وقد كان منظمو المدن القديمة في حاجة إلى تلقى بعض الدروس من الحكام المحدثين في مجتمعا ، فإن القدماء كانوا يحشدون رعاياهم في مأوى تحيط به الأسوار تحت رقابة حراس مسلحين يقيمون في داخل القلعة الصغرى ليكونوا أقدر على إحكام السيطرة عليهم . أما الآن فقد بطل أوان العمل بهذه الطريقة ، إذ أنه بفضل وسائل الاتصال الحالية الواسعة النطاق عبر مسافات طويلة ، دلت العزلة في مساحات شاسعة على أنها طريقة أفعال أثراً في إحكام السيطرة على سكان منطقة ما . ولما كان الاتصال المباشر والاختلاط وجهاً لوجه محدودين إلى أقصى ما يستطيع ، فإنه يتسنى أن تحتكر كل ضروب الإعلام والتوجيه هيئات مركزية تتولى نقلها بطرق مأمونة باهظة التكاليف إلى حد لا يسمح بأن تستخدمها طوائف أو أفراد بصفتهم الشخصية . ولكي يمارس المرء حقه في حرية التعبير عن رأيه في مثل هذا المجتمع المنفرد العديم الترابط ، يجب أن يلجأ إلى شراء جزء من وقت برامج محطة إذاعة أو تليفزيون أو «شراء حيز» على صفحة جريدة يومية . وكل فرد من سكان الضواحي

يصبح سجين ذات العزلة التي أولاها تقديرًا عظيمًا ، فهو يتلقى معلوماته عن طريق منفذ صغير ، هو عبارة عن خط تليفوني ، أو موجة إذاعية ، أو قناة تليفزيونية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذه الحالة لم تنشأ نتيجة لتدبير مقصود تأمرت على القيام به أقلية ماكرة ، بل إنه نتيجة فرعية طبيعية لنظام اقتصادي يضحى بالتقدم الإنساني في سبيل التقدم الميكانيكي .

ومن الممكن في مجتمع أحسن تنظيمه ، أن تؤدي كل هذه التحسينات التكنولوجية إلى توسيع مجال الحياة الاجتماعية على نحو باهر ، وأما في مجتمعات اليوم المختلة النظام ، فإنها تؤدي إلى تضيق المجال الذي يكون فيه للإنسان تأثير فعال . وفي مثل هذه الظروف ، لا يتسنى حدوث شيء بملء حرية الفرد أو من تلقاء ذاته — إذ أنه لا يتيسر حدوث شيء دون الاستعانة إلى حد كبير بالأجهزة الميكانيكية . ألا يفسر ذلك — إلى درجة ما — ما غشى حياتنا من سلبية وسهولة في الانقياد ؟ لقد سمعت من شاهد عيان أنه في الثورة التي قامت حديثاً في مدينة كاراكاس وأطاحت بدكتاتورية وحشية في فنزويلا ، كانت شارة البدء عبارة عن نفخ أبواق السيارات ، وأصوات الأبواق ؛ بازدياد ارتفاعها ، واشتداد اقترابها وهي تتجه من جميع أنحاء المدينة نحو ملتقاهما عند القصر ، ألقت الرعب في قلوب الحكام ، فكانت هذه أيضاً ظاهرة حضرية ، وأما الضاحية فإنها لا تسبى إلا فرصاً ضئيلة للاجتماع ، والتحدث ، والمناقشة الجماعية ، والعمل المشترك — فهي تشجع على الامتثال الصامت ، وليس على الثورة أو مقابلة العدوان بالعدوان ، ولذلك غدت الضاحية المثلل المفضل لنوع جديد من الحكم المطلق — نوع مستتر ولكنه قوى مكن .

وقد كان من الممكن أن يساورني شيء من القلق حول صحة هذا التحليل . لو لم يتوقعه منذ زمن طويل العالم بيواطن الغيب دوتوكفيل (De Tocqueville) في مؤلفه « الديمقراطية في أمريكا » . فقد حاول أن يتبين الظواهر الجديدة التي يحتمل أن يظهر في كنفها الحكم المطلق في العالم ، ويقول : « إن أول

ما يلفت النظر هو أن عددا لا يحصى من الناس ، كلهم متساوون متشابهون ، يسعون بلا انقطاع إلى إيجاد ضروب اللهو والوضيع التافهة التي يفعمون بها حياتهم وكل منهم يعيش في عزلة ولا يعرف شيئا من أمر الباقين ، فإن أولاده وأصدقاءه الشخصيين يؤلفون في نظره الجنس البشري بأسره ، وأما فيما يتعلق بباقي رفاقه من المواطنين ، فإنه على مقربة منهم ، ولكنه لا يراهم ، وهو بلا مشهم ولكنه لا يحس بهم ، إذ أنه يعيش في نفسه ولنفسه وحدها . وإذا كان قد بنى له ذوو قريابه ، فإنه يمكن القول على أى حال بأنه قد فقد بلاده .

لقد كان دوتوكفيل يصف مقدما طابع وعادة الحياة في الضاحية ، وهى عادة ارتدت إلى المدينة وجعلت حتى بعض الأمم الديمقراطية تخضع بدون تدمير تقريبا لكل ألوان القهر والفساد ، التي يتصف بها الحكم المستبد . وإن ما أدركه من قبل هذا الفيلسوف السياسى الكبير ، يتسنى الآن لمن هم أقل منه موهبة من المراقبين أن يشاهدوه بأعينهم . وما هذه إلا المرحلة الأخيرة في تصدع المدينة . وليس من شأن اتساع نطاق وسائلنا التكنولوجية إلا التعجيل بحدوث هذا التغيير ، وما لم تحدث حركة مضادة ، فإن ما يتخلف بعدها سوف لا يستحق عناء الإنقاذ . والواقع أنه عند ما يتغير الوعاء بالسرعة التي تتغير بها محتوياته ، لا يتسنى إنقاذ أى شيء .

٩ — التخطيط من أجل النمو الحضري

ولحسن الحظ أن الحركة المضادة بدأت منذ أكثر من نصف قرن ، وكانت موجهة ضد الهجرة إلى الضواحي وضد اكتظاظ الحواضر الذي أفضى إلى ذلك . وأول إيضاح للموقف الحضري بوجه عام — أول إيضاح يتطلع إلى المستقبل في ضوء ما أصبح يشاهد في المدينة من عمليات التطور المستجدة والامكانيات المحتملة التحقيق — قد قام به ، قبل آخر القرن

التاسع عشر ، اثنان من المراقبين الجديدين بالاعتبار . ولقد تناولا العوامل التكوينية في مجموعها واعتبرا الصلة التي تربط المدينة بالريف والإقليم جزءاً لا يتجزأ من حياتها الخاصة وعنصراً جوهرياً في أى خطة أوسع نطاقاً للتقدم الحضري .

وكان البحث الأسبق . هذا المجال هو الذي أسهم به الجغرافي بيتر كروبوتكين (Peter Kropotkin) في كتابه البديع المسمى « حقول ومصانع ودور للتشغيل » . وقد سبق كروبوتكين بنصف قرن تقريباً آراء معاصريه الاقتصادية والتقنية ، فأدرك أن ما في المواصلات الكهربائية والقوة الكهربائية من المرونة وقابلية للنهضة ، إلى جانب إمكانيات الزراعة الضيقة الرقعة الوفيرة الإنتاج ، المعتمدة على القوة الدافعة الحيوية ، قد وضع الأساس لتطور حضري أكثر توزعاً في وحدات صغيرة تستجيب للاتصال الإنساني المباشر ، وتتوافر فيها المزايا الحضرية والريفية في آن واحد . وقد رأى أن الصناعة لم تعد ترتبط بمنجم الفحم حتى في حالة بقاء الفحم مصدراً للقوة المحركة ، ولا ترتبط بالسكة الحديدية والمدينة الكبرى ، لأنه لا يمكن أن يساوى بين الكفاية والعوامل الاقتصادية وبين وحدات الإنتاج الكبرى . فلقد تنبأ كروبوتكين سلفاً بما لم تكنشده مؤسسات كبيرة عديدة إلا خلال الحرب العالمية الثانية ، وهو أنه حتى حين تكون عملية التجميع النهائي عملية كبيرة ، فإن تجزئة بعض العمليات الصناعية وإسناد القيام بها إلى مصانع متعددة ، كثيراً ما ألقي فعلاً ظلالاً من الشك على ما ذاع عن المزايا الاقتصادية للتنظيم المركز الواسع النطاق ، وهو الانحياز الصناعي الذي اتخذ مسوغاً لقيام غيره من الأوضاع الحضرية الضخمة . والواقع أنه كلما ارتفعت الوسائل التكنولوجية ، ازدادت الحاجة إلى مهارة الإنسان وقدرته على الابتكار ، وهو ما زال متوافراً في الورشة الصغيرة . وكثيراً ما كانت

وسائل النقل القادرة على الوفاء بالغرض والتنظيم الراقى أجدى من مجرد التجميع المادى لوحدات المؤسسة الصناعية تحت سقف واحد :

ولقد أدرك كروبوتكين أن الوسائل الجديدة للنقل والمواصلات السريعة ، مع نقل القوة الكهربائية عن طريق شبكة بدلا من نقلها عن طريق خط مفرد ، أدت إلى رفع المجتمع الصغير إلى مستوى المدينة المفرطة الاكتظاظ من حيث التسهيلات التقنية الأساسية . وكذلك فإن الحرف الريفية ، التى كانت يوما ما منعزلة ودون مستوى المدينة الاقتصادى والثقافى ، أصبحت فى وسعها الحصول على مزايا التفكير العلمى والتنظيم الجماعى والأوان النشاط الزاخرة بالحياة ، وهو ما كان أصلا مقصورا على المدن الكبرى . وبهذا تتحطم أيضاً التفرقة الصارمة بين ما هو حضري وما هو ريفى ، وبين العامل والفلاح . ولقد أدرك كروبوتكين كل هذه الدلالات قبل اختراع السيارة ، والمذباغ ، والصور المتحركة ، والتليفزيون ، والتليفون الذى عم أرجاء الأرض - وإن كان تشخيصه الصادر عن بصيرة نافذة ، قد أبدته كل اختراع من هذه المخترعات بما أحدثته من التساوى فى المزايا بين الحاضرة الرئيسية والمجتمعات الصغيرة التى كانت فى وقت ما منزوية فى الأطراف تعتمد على المدينة اعتمادا مطلقا . وقد رأى أنه إذا اتخذت الوحدة الصغيرة أساسا للتنظيم ، فإن الفرصة تسنح لقيام حياة محلية يكون فيها المجتمع أوفر اضطلاعا بالمسئولية ، وأكثر تجاوبا مع ظروف البيئة ، ويكون المجال أكثر اتساعا للعوامل الإنسانية التى أهملت وضيق الخناق عليها فى عملية التنظيم الواسعة النطاق .

ولقد خطت هذه الآراء خطوة واسعة إلى الأمام بفضل إيبنزر هوارد الذى تأثر بآراء كروبوتكين ، على نحو ما تأثر هذا بآراء من سبقوه من الكتاب الطوباويين ، مثل توماس سبنسر وجيمس سيلك بكنجهام (James Silk Buckingham) . وكان هوارد يرى أن الفكرة الجديدة

- فكرة مدينة الحداثق - تنطوى على « الاحتمالات الباهرة لمدينة جديدة تقوم على أساس خدمة المجتمع » وكان يرى كذلك أن نمو المدينة الكبرى يحمل في طياته عوامل الفشل ، إذ أنه مع كل زيادة في عدد السكان ، كانت حركة المرور فيا تصبح أكثر ازدحاما ، ومنظمتها الرئيسية أقل سهولة في الوصول إليها ، كما أن الشطر الأكبر من سكانها كانوا لا يفيدون من منشأتها الثقافية العليا أكثر مما كانوا يفيدونه منها لو أنهم كانوا يقيمون خارج نطاقها كلية . وكان يعتقد أن الوقت قد حان لإقامة نموذج جديد لتقدم المدينة ، يكون من شأنه استخدام الوسائل التقنية الحديثة للقضاء على الفجوة الآخذة في الاتساع بين ناحية الريف التي نضب معين مزاياها الاقتصادية والاجتماعية ، وبين المدينة التي نضب كذلك معين مزاياها البيولوجية والطبيعية . وقد اقترح لعلاج الصدمة الحية التي أصابت المركز الحضري وأدت إلى شلل الأطراف ، إيجاد نموذج جديد لنمو المدن . وعلى نقض دعاة التوسع الحضري المتواصل ، نراه قد نبذ فكرة الضاحية بوصفها حلا وسطا مقبولا ، بل إنه في الحقيقة لم يضعها موضع الاعتبار تقريبا . فقد كان هوارد يرى أن تخفيف الازدحام لا يتحقق إلا بتوسيع المناطق التي يتخذها سكان المدينة أماكن للنوم ، بل بتجزئة كل وظائف المدينة . وهو بنبذه الصفة الانتقالية المؤقتة للضاحية كان يشد إيجاد رابطة شرعية ثابتة بين المدينة والريف ، وليست علاقة غير شرعية لمدة عطلة نهاية الأسبوع .

وفي كتاب « مدن الحداثق في الغد » ، أدخل هوارد من جديد إلى تخطيط المدن الفكرة الإغريقية القديمة - فكرة وجود حد طبيعي لنمو أى كائن أو منظمة - وأعاد المعايير الإنسانية إلى الصورة الجديدة للمدينة . ولتحقيق ذلك أدخل أيضا السنة التي جرى عليها الإغريق ، وأعاد روبرت أوين (Robert Owen) وإدوارد ويكفيلد (Edward Wakefield) الإعراب

عنها على نحو جديد ، وهى سنة التعمير على أيدى طوائف أعدت من بادئ الأمر إعداداً كاملاً للقيام بجميع الوظائف الحضرية الأساسية . ولمواجهة ما فى الحواضر الكبرى من الاحتشاد الواسع المدى بلا غرض ولا غاية ، والمنازل الفقيرة ، والتلوث الناجم عن الصناعة ، والرحلات التى تزداد طولاً إلى مكان العمل ، لمواجهة هذا اقترح هوارد مدينة من نوع أقدر على القيام بوظيفته ، مدينة محدودة النطاق من بادئ الأمر ، من حيث المساحة وعدد السكان وكثافتهم ، ومنظمة على أساس يكفل لها القيام بجميع الوظائف الجوهرية . مجتمع حضري ، من حيث العمل والصناعة والإدارة والتعليم ، ومزودة كذلك بعدد كاف من الحدائق العامة والخاصة لرعاية الصحة وللاحتفاظ للبيئة بأسرها بطابعها الجميل . ولتحقيق الجمع على هذا الوجه بين المدينة والريف وللإعراب عنه ، أحاط هوارد مدينته الجديدة بإطار أخضر مستديم يتألف من المزروعات . وقد كان من شأن هذا السور الأفقى الثنائى البعد ألا يقتصر على مجرد الاحتفاظ بقرب البيئة الريفية ، بل أن يحول دون أن تندمج فيها مراكز حضرية أخرى للاستقرار ، كما أنه كان من شأنه - ولم يكن هذا أقل ما يؤديه - أن يزيد من الإحساس بالوحدة الداخلية على غرار السور العمودى القديم . وبغض النظر عن الفكرة فى مجموعها ، فإن مبدأ إنشاء إطارات خضراء مستديمة حول المجتمعات الحضرية ، كان خدمة جليلة . ولعل أفضل اسم يطلق على مثل هذه المجتمعات هو « مدن الإطارات الخضراء » .

وكانت بعض نواحي هذا الوضع الجديد قد سبق تصورهما فى الضاحية الباكورة - من ريفرسيدي بولاية إلينوى إلى ما شيد بعدها - ولكن أعظم ما أسهم به هوارد لم يكن إعادة تشكيل تكوين المدينة بقدر ما كان إبراز الآراء الأساسية التى يقوم عليها هذا التكوين ، فهو على الرغم من أنه لم يكن من علماء الأحياء ، مثل باتريك جيديس ، فإنه مع ذلك وفر للمدينة المعايير

البيولوجية الأساسية للموازنة الدينامية والتوازن العضوى ، أى إنه كان يرمى إلى تحقيق التوازن بين المدينة والريف - على غرار ما يوجد من التوازن فى نموذج أوسع نطاقا للعلاقات بين الكائن الحى والوسط الذى يحيط به - وكذلك التوازن بين مختلف وظائف المدينة ، وفوق كل شيء ، التوازن عن طريق التحكم القوي فى النمو ، بتحديد المساحة ، وعدد السكان ونسبة كثافتهم ، والالتجاء إلى إنشاء مدن جديدة (الاستعمار) إذا ما تهدد المجتمع بخطر زيادة حجمه زيادة لا موجب لها وليس من شأنها إلا أن تؤدى إلى اختلال فى الوظيفة . فإذا أرادت المدينة أن تحافظ لمواطنيها على وظائفها التى تصون حياتها ، فإنه من حقها أن تمارس ما يمارسه كل كائن آخر حتى من القدرة الأساسية على التحكم فى النفس والسيطرة عليها .

وبعبارة أخرى فإن هوارد كان يريد أن يهيئ للنوع الجديد من المدن جميع المزايا التى كانت تتوافر للمدينة الكبيرة قبل أن يؤدى اتساعها المفرط إلى جعل تلك المزايا عزيزة المنال على سكانها . وكان يرى أنه عند ما تصل المدينة إلى أمثل حجم ، فإن المدينة ذاتها لا تكون فى حاجة إلى الزيادة فى مساحتها وعدد سكانها ، بل إلى أن تكون جزءاً من نظام أوسع نطاقاً تتوافر فيه مزية الأعداد الكبيرة والتسهيلات الوفيرة . ولما كان هوارد قد ولد فى لندن ، فإنه ، على نقىض سواه ممن هجروا المدينة ، لم يغمط قيمة المزايا الحضرية ، كما أنه بحكم دأبه على ابتكار المكائن لم يبخس قيمة ما أحرزته الأساليب التقنية الحديثة من التقدم . وقد نبذ هوارد نموذج الضاحية لأنه كان يؤمن بأن الصناعة ينبغى أن تكون جزءاً لا يتجزأ من المدينة ، وأن الورشة والمصنع - وهو فى هذا لم يدخل فى اعتباره الصناعات الكيماوية ولا الأفران العالية الحرارة ، ولا مناجم الفحم - ينبغى أن يكونا عادة على بعد مسافة معقولة من كل بيت . وقد قدر أنه عندما يتألف السكان من ٣٢٠٠٠ نسمة ويشغل ألفان منهم فى الإطارات الزراعى ، يكون

من شأن المدينة الجديدة أن تهيئ تنوعاً في العمل ، وتعدداً في عناصر السكان بحكم ما يزاوونه من الحرف المختلفة ، وحياة اجتماعية زاهرة .

ولاختبار مدى إمكان إيجاد وضع حضري ملائم للحياة ، اقترح هوارد إقامة نموذج على سبيل التجربة ، بحيث يبلغ من تفوقه في ناحيتي التنظيم الاجتماعي والتخطيط المادي على ما هو قائم من القرى ، أو المدن الريفية ، أو الضواحي ، أو التجمعات الصناعية الحضرية ، أو الحواضر المكتظة ، ما يجعله نموذجاً جديداً لما يقام من المدن في المستقبل ، ويكون من شأن ذلك التوزيع على أساس خطة مرسومة ، بدلا من التجمع على غير هدى ، والتجزئة بدلا من التركيز الاحتكاري ، وضرب أرقى من الوحدة بدلا من النظام المضطرب . وإذا ما ثبت أن رأيه قابل للتنفيذ عمليا ، فإن ضروريا أخرى من التقدم تصبح ميسورة ، إذ أنه بوجود الأرض في حوزة البلدية أو المجتمع ، وهو مالا بد منه عند الشروع في إنشاء مجتمع جديد ، لأن ارتفاع قيمة الأرض نتيجة للنمو - وهو الذي كان إلى هذا الحين يفيد منه أفراد الملاك وكان يؤدي إلى تشجيع الإفراط في النمو لما يعود به من الربح - سيتولد عنه ربح يستخدم في تحسين حال المجتمع ، إما عن طريق خفض الضرائب ، وإما عن طريق خدمات إضافية .

وكان هوارد يعتقد أنه بتحويل التوسع الحضري المستمر عن طريق الإضافات المجزأة إلى توزيع منظم في مدن « مكثفية بذاتها » ، يصبح من الميسور وضع حد لما يوجد في لندن من الازدحام الدائم والتوسع المستمر . ومن ثم فإنه مع مرور الزمن ، تسحب من سكان العاصمة نسبة تكفي لخفض قيمة الأرض ، وتجعل من الميسور إعادة بناء المركز التاريخي على أسس أكثر انفتاحاً وأشد مراعاة للصحة وأسباب الراحة ودواعي الانشراح . ومن شأن نجاح مدينة الحدائق الجديدة ، أن يعيد إلى المركز المكتظ بالسكان ،

الهواء الطلق وضوء الشمس والجمال ، وهى المزايا التى كان نموه المفرط قد حرمه إياها إلى حد كبير .

وكانت مدينة الحدائق فى نظر هوارد ابتكاراً سديداً ، مثل السكة الحديدية ، يقوم على أحكام الربط بين عدد من العوامل المختلفة ، بعضها عملي وبعضها مثالي ، بحيث تكون كلاً واحداً يمكن استخدامه . وبساطة مقدمات هوارد كانت فى ذاتها مما أكسب مقترحاته العملية دقة ووضوحاً ؛ إذ أنه لم يكن فى حاجة إلى الانتظار إلى أن يتم القيام بدراسة شاملة للموقف الحضرى ، على غرار تلك التى كان تشارلز بوث (Charles Booth) ، قد بدأها فى بحثه ، الذى فاق الحد فى استفاضة ، عن مدينة لندن ، أو إلى أن يتم اعتناق الأمة وجهة نظره ، على نحو ما كان ينشده أحد معاصريه ، هنرى جورج ، فى البرنامج الذى وضعه لإصلاح الأراضى ، قبل الشروع فى العمل . وقد كان أقل حاجة إلى انتظار ظهور السيارة لتفتح منفذاً تقنياً للفرار من اكتظاظ المدينة ، فقد عمد هوارد إلى القيام بما يقوم به اليوم مهندس قدير حينما يحاول أن ينشئ طرازاً جديداً من المباني يكون من شأن ما فيه من التعقيد أن يسبب من ألوان الانفعال والإجهاد ما لا يمكن تقديره على أساس التجربة الماضية والأوضاع التقليدية . وذلك أنه أنشأ نموذجاً صغيراً ووضعه موضع الاختبار ، أو على الأصح أفنعه غيره من الناس ممن لديهم ما يكفى من المال والثقة به أن يشتركوا معه فى هذه التجربة بإنشاء أول مدينة للحدائق وهى لينشورث (Leichworth) التى بدأ بناؤها فى سنة ١٩٠٤ . وبعد ذلك بمدة نصف جيل ، شرع فى إقامة مدينة حدائق أخرى وهى ولوين (Welwyn) ، وكان النموذج الجديد للنمو خطوة البداية فيما أصبح الآن حركة تتأثر على السبيل نحو التكامل الحضرى .

وأفضت هذه التجربة إلى قضاء سنتين فى القيام ببحوث إحصائية ووضع

تقارير صُنفت بعناية - وتجنبت ببراءة الإدلاء برأى قاطع وإن استهدفت بمهارة إحباط المشروع . والواقع أن بناء المدينة الجديدة أثبت في النهاية أنه أقل نفقة ، كما أنه أكثر جدوى من ذلك النوع من « الدراسة الحضرية » المستفيضة ، الذي اشتد اليوم الإقبال عليه ، وذلك لأن المدينة الجديدة قامت في خلال مدة معقولة بسد نفقات تكوينها ، وبالإجابة إجابة قاطعة ، أكثر مما كان يتسنى لأى تكوين فرضى بحت أن يجيب به عن السؤال عما إذا كان من المستطاع أن تبقى مثل هذه الوحدة الحضرية الجديدة حتى ولو كانت تسير على قواعد تخالف السنن التي رسخت ، سنن الجرى وراء الربح ، والمضاربة في أسعار الأرض ، وسيادة الحاضرة على ما عداها . وعند ما يضع المرء في اعتباره العقبات الرسمية والنفسانية التي كانت تناهض تجربة هوارد ، فإن هذه التجربة تبرز كضرب من ضروب الحنكة السياسية الكاملة في مستوى إنشاء مجتمعات طائفة المورمون (Mormons) في يوطاه (Utah) أو الجمعية التعاونية للبيع بالجملة في إنجلترا .

وقد التزم هوارد التمسك بالأمور الجوهرية في وضع برنامجه ، ولم يحاول أن يضمنى على التفاصيل الخاصة بالعمارة والتخطيط طابع تصوراته ، فإنه لم يتقدم بتخطيط جديد للمدينة - إذ حرص على تجنب الخلط بين الأهداف الأساسية وأى صورة يمكن تصورها كائنة ما كانت - بل تقدم ببرنامج جديد لتنظيم المدن تنظيمًا متوازنًا ونموها نموًا محدودًا كجزء من خطة عامة يتسنى لها مواجهة زيادة عدد سكان الأمة بدون حد . وقد عبر هوارد عن تشخيصه وبرنامجه بسلسلة من الأشكال الهندسية التوضيحية ، وحتى الشكل الذى يبين نظام ترتيب الأجزاء المادية في تكوين المدينة وضع بعناية تحت عنوان « شكل هندسى ليس غير » والرأى الذى ذهب إليه عن المجتمع المتوازن كان يمكن تطبيقه في أوضاع حضرية متنوعة - من تلك التى دعا

إليها سلفه الطوباوي شارل فوريه^(١) (Charles Fourier) إلى تلك التي صممها لوكوربزييه^(٢). وفي أكثر من مرة ، وفي أحبان كثيرة تحت ستار تنفيذ آراء هوارد أو هدم فكرة مدينة الحدائق ، نجد أن مبادئ التوازن واكتمال الوظائف التي نادى بها هوارد كان يعاد ابتكارها أو تعاد المناداة بها ، دون أن يعزى الفضل إلى هوارد على غرار ما كان هو نفسه يحرص دائماً على ألا يغمط فضل من سبقوه .

وقد كان الكثير من عناصر مشروع هوارد مألوفاً من قبل ، فهو لم يحاول أن يبدأ من لا شيء ، سواء في آرائه أم في ابتكاراته العملية . وكانت مدينته المثالية مزيجاً مما هو ممكن وما هو عملي ، ومثالية إلى حد يثير الرغبة فيها ، وقرية مما هو مألوف في عصره إلى حد يجعلها ميسورة التحقيق . وقد تجلت عبقريته في جمع الموجود من أجهزة المدينة في تكوين أرقى نظاماً يقوم على مبدأ التحديد العضوي وانمو المقيد . ولم يبدأ بالقصور الذاتي لحالة الانحلال ، بل بدأ بتحليل وظائف الإنسان التي تصون الحياة ، من حيث علاقتها بالبيئتين الحضرية والريفية . وعلى الرغم من أن تحليله لم يكن عميقاً ، فقد كان يتميز بالتقدير السليم لتنوع مظاهر النشاط الحضري وما بينها من صلات متبادلة . ولم يكن الأمر الذي له دلالة في مدينة الحدائق هو مجرد وجود حدائق وأماكن فضاء ، بل إن ما كان جديداً في جوهره هو نهج نظامي معقول لمواجهة التعقيد عن طريق تنظيم قادر على تحقيق

(١) كان شارل فوريه فيلسوفاً اجتماعياً فرنسياً (١٧٧٢ - ١٨٣٧) وكان يدعو إلى إنشاء دولة طوباوية تتكون من وحدات اقتصادية صغيرة يتألف كل منها من ١٦٢٠ نسمة .

(٢) لوكوربزييه هو الاسم المستعار لمباري سويسري عالمي ولد في عام ١٨٨٧ ولا يزال على قيد الحياة ويعارس مهنته ، ومن أشهر مبانيه مبنى عصبة الأمم في جنيف ، كما أنه اشترك في تصميم مبنى هيئة الأمم المتحدة في نيويورك ، واسمه الحقيقي شارل إدوار جانبريه (Charles E. Ganneret) .

التوازن والاستقلال الذاتي ، وعلى حفظ النظام بالرغم من قيام الفوارق ، وكذلك على الاحتفاظ بالتماسك والاتحاد بالرغم من الحاجة إلى النمو . وهذه هي الفكرة التي كان من شأنها تغيير الأوضاع .

ولقد ثبت أن هوارد كان غير موفق في الاسم الذي اختاره لهذه الفكرة الحضرية الجديدة ، وليس ذلك لمجرد أنه قبل ذلك بعهد طويل كانت قد سبقت إلى استخدامه مدينة شيكاغو التي هي مركز كبير قدر للسكك الحديدية ، بل أيضاً لأن وجود الحداثق — وإن كان جزءاً لا يتجزأ من المدينة الجديدة — لم يكن سمة خاصة تنفرد بها ، نظراً لأن هذه السمة كانت تتوافر في كثير من الضواحي المعاصرة حتى على نحو أوسع نطاقاً . وكان هوارد قد اقترح في كتابه أن تكون نسبة كثافة السكان بمعدل يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ نسمة في الفدان الواحد ، إذا اعتمدنا في استنتاج هذا العدد على ما اقترحه عن أحجام وحدات المساكن وقطع أراضي البناء . وهذه النسبة في الواقع نسبة حضرية صميمة لكثافة السكان ، وهي على وجه التقريب النسبة التي نجمت عن تخطيط نيويورك في سنة ١٨١١ ، حينما كانت تصطف على جانبي شوارعها الجديدة مباني مؤلفة من طابقين أو ثلاثة طوابق . ومثل هذه النسبة أعلى مما يوجد في الضاحية العادية ، وهي خمسة أمثال ما يوجد في كثير من الأجزاء المعاصرة في لوس أنجلوس . ول سوء الحظ أن الباحثين السطحين الذين يجهلون كل الجهل الكتاب الذي وضعه هوارد ما زالوا يخطئون ويسمون الضواحي « مدن حداثق » أو يسمون تخطيط الضواحي المنفرج « تخطيطاً من طراز مدينة الحداثق » وأنكى من ذلك أن جماعة من النقاد ، وهم الذين كان ينبغي أن يكونوا أكثر دراية ، يشيرون إلى مدينتي الحداثق المثلثتين ، لينشورث وولوين ، أو المدن البريطانية الحديثة التي ظهرت بعدها إلى الوجود ، كما لو كانت مجرد ضواح ، وذلك لأنها جميعاً أقيمت وسط إطار منفرج ، بل لعله منفرج أكثر مما ينبغي .

بيد أن « مدينة الحدائق » كانت في نظر هوارد مدينة قبل كل شيء ،
 موحدة من نوع جديد من شأن نموذجها العضوي أن ينتشر في آخر الأمر من
 نموذج بمفرده إلى كوكبة كاملة عن المدن المتماثلة . ولقد تمثل خروج مدينة
 الحدائق بجرأة على الأسلوب السائد للبناء والتخطيط في طابعها الحضري
 وليس في مظهر حدائقها .

وعند النظر من الوجهة التاريخية إلى مشروع هوارد ، بعد مرور أكثر
 من نصف قرن على البدء فيه ، نجد أنه أكثر واقعية وأجزل فائدة للغاية
 — بالقياس إلى المدينة الممتدة طويلاً (Linear City) التي اقترحها سورياي
 مانا (Soria Y Mata) ، أو أي مدينة من « مدن الطرق » (Roadtowns)
 التي أنشئت فيما بعد وجعلت النقل وحده هو الذي يحدد تخطيط المدينة. وأما
 ما تقدم به لوكوربزييه على أنه من ضروب التحسين ، وهو ما يعرف
 باسم « مدينة الحدائق الرأسية » (Vertical Garden City) ، فإنه ليس
 في الواقع إلا ضاحية رأسية وليس من شأن ما فيها من تعاقب مبان منعزلة
 عالية الارتفاع ومساحات طليقة من الفضاء غير المزروع ، إلا أن يجعل
 تسميتها « مدينة » تسمية باطلة . وفي مدينة الحدائق الإنجليزية توجد الحدائق
 بوفرة فعلاً ، فهي غنية بأشجار الفاكهة والأزهار والخضر ، ولكن الرأي
 الجديد الذي أعرب عنه هوارد امتاز بما عمد إليه من رفض التقيد بصورة
 عادية خاصة للمدينة ، أو بطريقة خاصة للتخطيط ، أو بطراز خاص للمباني ،
 ومن ثم فإن الأوضاع الخاصة لكل هذه المدينة تنشأ نتيجة لشكل المنظر الطبيعي
 وحالة المناخ ، والصناعات والوسائل التقنية الميسورة ، وفوق كل شيء
 تفنن القائمين بالبناء وتفنن السكان ، وأما من حيث العناصر المثالية ، فقد
 أعرب عنها على نحو يقرب من النظريات الرياضية .

وليس معنى هذا أن هوارد كان معصوماً من الخطأ ، ففي الصورة
 الأصلية التي وضعها عن التوزيع المقبل لما يتركز في لندن من صناعات

وسكان ، ، نجد أن هوارد - ولعل ذلك كان من حسن حظ تجربته - قد أساء تقدير قوة الجاذبية التي تتمتع بها حاضرة كبرى ينصرف نظامها الاقتصادي إلى جمع المال ، وحيث تسمو الكفاية في البيع على ما عداها من ضروب الكفاية ، وحيث يتطلب النجاح ضخامة الجموع ، وتكون للإيجارات المرتفعة للمساكن والاكتظاظ الباهظ الكلفة دلالة على الأهمية . ولا جدال في أن هوارد كان محقاً في اعتقاده أن كثيراً من الظواهر والمرافق الأساسية في الحاضرة كانت نتائج متفرعة عن فرط الازدحام ، وأنه من شأنها - مثل الرحلة الطويلة إلى مكان العمل - أن تقل إلى حد كبير أو أن تزول في المدينة الجديدة . ولكن اقتراحه الواقعي القاضي بإنشاء مجتمع مكتف بذاته ، ويتألف من اثنين وثلاثين ألف نسمة بوصفه بديلاً عن الحياة المثقلة بأعبائها في لندن ، هذا الاقتراح لم يكن في ذاته ليبنى وفاء تاماً بحاجة ما في حضارة العصر الحاضر من التعقيدات الاجتماعية والتقنية . وعلى الرغم من ذلك فقد كان على صواب في اعتقاده أن ٣٢٠,٠٠٠ نسمة كانوا يولفون وحدة تجريبية كبيرة إلى حد يكفي لاختيار مدى صلاحية هذه الطريقة الجديدة لنمو المدينة . ومع أن حياته كانت تسيطر عليها ضرورة اتخاذ هذه الخطوة الأولى وتتبعها إلى آخر مداها ، فإن الصورة الماثلة في خياله كانت تتجاوز ذلك المدى العملي .

وإذا كانت هناك حاجة إلى أي شيء لإثبات الصفة الخارقة للعادة لمدي وعمق ما أوتي هوارد من قدرة على التفكير ، فإن الفصل الذي كتبه عن « المدن الاجتماعية » ينبغي أن تكون فيه الكفاية . وفي نظر هوارد ، لم تكن مدينة الحدائق لتعني العزلة أو الاكتفاء الذاتي الضيق الأفق ، على غرار مدينة ريفية غارقة في سباتها في منطقة نائية يتعذر الوصول إليها . ولم يشغل بال هوارد أن أقلية من بين سكان المدينة الجديدة سيضطرون ، لأسباب مهنية ، إلى الذهاب إلى لندن أحياناً بل يومياً ، فقد كان حسبه أن يوجد من تجمع

الفرص الاقتصادية والشواغل الاجتماعية ما يكفي لانصراف أغلبية السكان انصرافاً كلياً إلى الاشتغال بها أغلب الوقت في بيئة يتوافر فيها الكثير من المزايا الحضرية الإيجابية التي لم يعد يتسنى لمدينة لندن أن تهيئها حتى للأغنياء . وكأنما هوارد قد أراد أن يسبق الإغراء الذي يدعو إلى اعتبار أن المدينة ذات الحجم المحدود في وسعها أن تقوم على أتم وجه باحتواء حضارتنا الحالية ، ونقلها إلى الأجيال التالية ، فعمل على إيجاد نموذج مكافئ لهذا الغرض ، لا يقوم على أساس الاكتظاظ ، بل على أساس التنظيم الموزع .

وفي تصوره المدن الاجتماعية ، وحتى قبل أن تنشأ مدينة الحدائق الأولى ، مضى بهذا التطور إلى مرحلته التالية ، فإذا كان لا ينبغي أن تعتمد مدينة الحدائق ، من أجل أداء مهماتها العليا ، على الحاضرة المثقلة بأعبائها - إذ أن هذا الاعتماد كان يؤدي إلى إنزال مدينة الحدائق إلى مرتبة التابع - فقد كان يتحتم إذن عندما يوجد عدد كاف من المدن الصغرى ، أن تنتظم معاً بمحض رغبة في هيئة جديدة ذات صفة سياسية وثقافية ، أطلق عليها اسم « مدينة اجتماعية » - وهي التي سوف يطلق عليها فيما بعد كلارنس ستين وزملاؤه اسم « المدينة الإقليمية » - وذلك لتوحيد مواردها والتزود بالمؤسسات التي لا يتيسر توافرها إلا للأعداد الكبيرة مثل كلية فنية أو جامعة أو مستشفى متخصص في علاج مرض بعينه ، أو فرقة موسيقية سيمفونية من المحترفين . وقد أوضح هوارد أنه يتسنى لعشر مدن يبلغ تعداد كل منها ثلاثين ألفاً من السكان ، وترتبط بينها وسائل عامة سريعة للنقل ، ويؤلف بينها اتحاد سياسي ، وتجتمعها صلات ثقافية - يتسنى لها أن تنعم بجميع المزايا التي يتيسر وجودها باجتماع ثلثمائة ألف من السكان في مدينة واحدة بمفردها ، بل كان يتسنى لها أن تحصل على هذه المزايا دون التعرض لعبوب الوحدة الكبرى ، فإما كان يتم من قبل عن طريق التقارب في البناء ، أصبح الآن

ميسوراً عن طريق التنظيم المحكم ، بفضل النقل السريع والاتصال في لمح البصر .

ولقد استطاع هوارد عن طريق هذه الوسيلة الاتحادية - وهي ناحية من تفكيره أغفل أمرها زمناً طويلاً - أن يدرك بغريزته الوضع الذي يحتمل أن تكون عليه مدينة المستقبل المثالية التي من شأنها أن تربط بين العناصر الحضرية والريفية في تكوين إقليمي معقد التركيب متعدد المنافذ والمراكز ولكنه قادر على أداء وظيفته كوحدة كاملة . وإذا كانت الخطوة الأولى هي إقامة نموذج تجريبي للوحدة الحضرية الجديدة لإثبات أنه من الممكن عملياً تحقيق توزيع السكان والحرف والصناعات والنمو المستقل ، فإن الخطوة الثانية كانت إنشاء نوع جديد من المجتمع الحضري الواسع النطاق الذي تصبح مدينة الحدائق أحد أعضائه العاملين .

وقد صاغ هوارد آراءه فيما اتسم به المذهب العقلي في عهد الملكة فيكتوريا من عبارات بسيطة مشبعة بروح التقوى مع مسحة من عاطفة البر المسيحية . وعلى الرغم من أنه كان داعية يستهوى النفوس بسحر ألفاظه ، ويستل الخصومة بمظهر بساطته الشخصية ، فإن ذلك جعل أعظم آرائه انصافاً بالأصالة وبعد النظر تبدو أقدم طرازاً من حقيقتها . وواقع الأمر أن تصوراته لم تقتصر على أنها كانت تسبق التيار الفكري الساري في عصره عن طبيعة ومستقبل المدن فحسب ، بل إنها تغلغلت إلى مدى أبعد مما ذهب إليه بعض أتباعه المخلصين ، وحتى في الوقت الحاضر يجد كثير من الناس أن رفض كل ما يتضمنه رأيه من اتجاهات ، أيسر من تتبعها إلى آخر مداها . وعلى الرغم من أن القيمة الأساسية لمدينة الحدائق كانت ، في نظر هوارد ، إثبات أن من الميسور إيجاد طريقة لنمو المدن تكون أكثر ملاءمة لوظيفتها الطبيعية ، ومن شأنها ألا تفضي إلى التكاثر على هيئة أجزاء غير مترابطة ذات صبغة حضرية ، بل على هيئة وحدات كاملة مترابطة تجمع بين المزايا الحضرية والريفية ، فإن مدينة الحدائق أدت خدمة أخرى وهي أنها لغت

الأنظار بوجه عام إلى حقيقة طبيعة المدينة ذاتها ، وبعثت على العناية بدراسة عملية تطور المدينة في جميع أدوارها ، وهو ما لم يكن له وجود إلى ذلك الحين :

. وفوق كل شيء فإن هوارد ، بما أبداه من بعد النظر فيما يتعلق بالتكوين الجماعي الموحد للمدينة ، قد لفت النظر إلى أن نمو مدينة ما يجب أن يكون في يد هيئة عامة نيابية ، وأزه لا ينسئ تحقيق أفضل النتائج إلا إذا كانت لدى الهيئة السلطة التي تمكنها من تجميع الأرض وامتلاكها ، ووضع تخطيط المدينة ، وتوقيت إقامة المنشآت المختلفة وفقاً لنظام معين ، وتوفير المرافق والخدمات اللازمة . فإعاد ينبغي أن تترك أهم العوامل الأساسية لتقدم المدينة تحت رحمة الأفراد الذين يستثمرون أموالهم - سواء أكانوا من المضاربين أم الملاك - ويتناولون في تصرفاتهم قطعاً بعينها من الأرض لإقامة المباني ، ومنازل بعينها ، ومواقع بعينها للأعمال التجارية ، إذ أنه ما من تصرف فردي مهما يتسم يبعد النظر أو بمراعاة الصالح العام ، يمكن أن يسفر عنه من النتائج ما يضارع نتائج تصرفات جماعة مترابطة هادقة . وفضلاً عن ذلك فإنه لا ينبغي أن تغفل المدينة مسئوليتها عن السهر على صوالح كل سكانها إلى حد أنها لا تضطلع بأعباء هذه المسئولية إلا بعد أن تكون الجهود الفردية الجاحمة قد أنزلت بالمدينة أقصى قدر من الاضطراب .

وعناية هوارد بإبراز أهمية الوحدة والتوازن والاكتفاء الذاتي ما زالت تؤدي خدمة نافعة لكل نوع من أنواع التجديد الحضري ، وليس من قبيل المصادفة أن أرفع أمثلة تصميم المدن في القرن العشرين كانت في مدن مثل فرانكفورت على نهر الماين وستوكهلم ، حيث لم تندثر كلية تقاليد المسئولية الجماعية التي ترجع إلى العصور الوسطى - لم تندثر كلية تحت تأثير ما ساد في القرن التاسع عشر من التكالب على المضاربة وأيديولوجية حرية العمل : ولعل اقترح إنشاء مدينة جديدة كان السبيل الوحيد الذي يتسنى عن طريقه

الاعتراف بجميع المهمات ووجوه النشاط والأغراض التي تتحقق في مدينة مكتملة التكوين ، نظراً إلى أن الكثير من هذه النواحي كان قد اختفى على حين أن نواحي أخرى أصبحت تتمتع بأهمية مبالغ فيها إلى حد معيب ، وذلك حين كانت المدن القائمة حالياً تنمو دون ضوابط ولا توجيه .

وإن الاتجاه المنسق الذي سلكه هوارد في معالجة حياة المدن ونموها ، ليلبغ من تنافره مع الأيديولوجية والعرف السائدتين في عصرنا الحاضر ، أن كثيرين ممن يتمتعون بقدر كبير من الكفاية في مزاوله تخطيط المدن ، ما زالوا يعتبرون برنامجهم خيالياً جداً ، وأن نصيبه الفشل المحتوم بحكم ذات طبيعة نظامنا الاقتصادي التكنولوجي المتجه إلى التوسع . ويبلغ من كثافة هذه الغشاوة على عيونهم أنهم يرفضون الأخذ بأي بيئة على نجاح البرنامج ويعتبرونها غير صحيحة . ولكن الواقع هو أن مقترحات هوارد « غير العملية » قد أفضت في خلال الجيل الأول من ظهورها إلى إنشاء مدينتي حدائق وهما لينشورث وولوين ، ومع أن هذين البلدين قد بدأ العمل فيهما بوصف أنهما مشروعان خاصان وليسا عامين ، وأن آفاق الربح فيهما محدودة ، فإنه لم يحدث أنهما تقلبا فحسب على ما صادفاه من إغفال ومقاومة ، بل حدث أيضاً أنهما أثرا في نظام الإسكان وإنشاء المدن في مناطق كثيرة تمتد من سكوتلندا إلى الهند . ولقد كان نجاح هاتين المدينتين هو الذي حدا بالجنة البرلمانية التي كان يرأسها سير أنتوني مونتاجيو بارلو (Sir Anthony Montague Barlow) إلى التوصية بعلاج الازدحام المتزايد في لندن ، من طريق توزيع الصناعات المركزة في العاصمة البريطانية - توزيعها في مدن ذات حدائق . وقد أدت هذه التوصية بدورها إلى صدور قانون المدن الجديدة (New Towns Act) في سنة ١٩٤٦ ، وهو الذي قضى بإنشاء حلقة من المدن الجديدة حول لندن وفي عدة جهات أخرى في إنجلترا .

وحقاً إنه « لفشل » فريد نوعه ! فأى فكرة جديدة أخرى عن تحسين حالة المدن أدت إلى تخطيط وإنشاء خمس عشرة لمدينة جديدة في إنجلترا وحدها ، دون أن نذكر شيئاً عن منشآت مماثلة تم إنجازها أو في دور الإنجاز في السويد والأقاليم الواطئة وإيطاليا وروسيا السوفيتية ؟ إن الانتقاص من قدر هذا العمل الفذ بالقول إن ازدحام لندن ما زال شديد الوطأة ، لينطوى على إغفال حقيقة ماثلة ، وهى أنه بفضل فكرة هوارد يوجد الآن في بريطانيا نصف مليون فرد يعيشون في ظروف طبيعية وبيولوجية أرقى بمراحل شاسعة من تلك التى تعيش فيها أغلبية سكان لندن ، وهى ظروف تضارع ، إن لم تكن تسمو على ، تلك التى كانت سائدة في الضواحي الأوفر ثروة في الماضي ، نظراً إلى أنها تشمل على قدر أكبر من العناصر الاجتماعية التى تتكون منها الحياة الحضرية الحقيقية .

أما أن برنامج المدن الجديدة قد أوقف بغتة في اللحظة التى كانت الحاجة تدعو فيها إلى النقد القائم على الفحص الدقيق لما تم تنفيذه وإلى القيام بالمزيد من التجارب في مجال تنظيم أوضاع المدن الجديدة ، فإنه يدل على ضيق أفق السياسة الإنجليزية ، ولا يدل على فشل المدن الجديدة ذاتها ، وهو أقل دلالة على فشل الآراء التى أنشئت هذه المدن على أساسها .

لقد كانت الآراء والبرامج تتطلب إعادة النظر فيها على ضوء المزيد من التجارب ، وما زالت الحاجة قائمة إلى التسليم بضرورة إنشاء مدن جديدة على مستوى إقليمي ، وابتكار نوع جديد من الهيئات الإدارية تتوفر لديها الوسائل للإنشاء والإدارة في آن واحد على مستوى الهيئة الكبرى ، التى تتولى شئون الميناء ومستوى مجلس محافظة لندن . بيد أن أولئك الذين يعمدون عند مطلع أى حركة إلى النصائح بالفشل - ولعل ذلك بدافع من الأمل في أن مناداتهم بالويل والنبور سوف تكون فيها نهاية الحركة - إنما يكشفون في الواقع عن مدى ما في هذا الأسلوب الجديد نمو المدن من تهديد - جوهرى لرضاهم بأحوالهم وللآراء التى يعتنقونها دون فحص ولا تمحيص .

وإن ما أسماه هوارد « عتقودا من المدن » المنضدة في قالب من الحضرة الدائمة بحيث تؤلف وحدة جديدة من الناحية السياسية ومن حيث العلاقة بين الكائن الحى والوسط الذى يحيط به ، لم يكن فى الواقع إلا المرحلة الجينية فى تكوين طراز جديد من المدن يكون من شأنه أن يتجاوز اتساعه النطاق المحدود للمدينة التاريخية ، بل اتساع العاصمة ، إلا أنه رغمًا عن ذلك يتغلب على ما يصحب التجمع الحضرى من التوسع بلاحد والانتشار على غير هدى . وأما الخطوة التالية فى تعريف هذه الوحدة الحضرية الجديدة ، التى كانت الأجزاء الواضحة فيها أمام العين تؤلف كيانا خفيا ولكنه شديد الترابط والتشابك ، فقد تولاها هنرى رايت (Henry Wright) وزملاؤه فى لجنة ولاية نيويورك لشئون الإسكان والتخطيط الإقليمى .

ولقد أوضح رايت فى تحليله للنمو الحضرى فى ولاية نيويورك أن الاستمرار فى نمو الحاضرتين الواقعتين عند طرفيها - وهما مدينتا نيويورك وبفلو - من شأنه أن يزيد فى تراكم ما تكسب فيهما من قبل من وجوه النقص والضعف ، على حين أنه من الميسور الآن تخطيط نوع جديد من الانتشار الحضرى ، يكون مغايرا لما كانت عليه الحالة فى العهد الأول لبناء المجتمع الموزع ، الذى كان مركزه القرية ، ودعامته الأساسية القناة ، أو الخط الحديدى المحلى (الذى لم يكن قد أدمج بعد فى نظام موحد) ، واستخدام قوة اندفاع المياه ، والطريق الرئيسى الصالح لسير العربات التى تجرها الخيل . ومن شأن النموذج الحضرى الجديد أن يكون أضيق نطاقا ، وأن يجتذب من منطقة جبال ادبرونداك (Adirondack Mountains) سكانها المستديمين ، ويردها إلى ما كانت عليه من غابات ومناطق للزراعة ، وأن يقصر المنطقة الجديدة للاستقرار على شريط عريض يمتد بطول وادى نهري هدسون وموهوك ويصعد إلى المنطقة التى تحف ببحيرة ايرى ، وهى منطقة ملائمة للاستقرار وإن كانت فقيرة فى مرافقها . وقد كان هذا الشريط

العريض يؤلف الإقليم الجديد للاستقرار الحضري ، وهو إقليم ملائم لتجديد المجتمعات القديمة التي استنزف دماء حياتها ما حدث من التجمع والتركيز في الحواضر ، كما أنه ملائم لإنشاء مجتمعات جديدة محدودة الحجم ، تقوم وسط أراض زراعية خصبة ، وتتصل فيما بينها بشبكة جديدة من الطرق الرئيسية تنشأ أساسيا لاستخدام السيارات .

ولو أن ولاية نيويورك أوتيت من الإقدام السياسى والاقتصادى قدراً كافياً للأخذ بهذا النموذج الجديد ، لأفادت المدن الكبيرة والصغيرة على السواء من هذا التطور . ولكن بدلا من ذلك سار كل التخطيط منذ ذلك الحين على نحو من شأنه تضخيم نموذج الازدحام في الحواضر . فطريق السيارات الممتد رأساً من نيويورك إلى بفلو ليس إلا صورة أخرى من خط السكة الحديدية ، ويؤثر تأثيراً كبيراً في الخدمات الجوهرية التي تؤدها السكة الحديدية ، على حين أنه طبقاً لمشروع رايت ، فإن الطرق الرئيسية الجديدة ، كما وضع تخطيطها بنتون ماك كاي (Benton MacKaye) في سنة ١٩٢٩ ، كانت لا تمر بالمدن ولا تتبع الخط الداخلى للنقل ، ولذلك فإنه كان يتسنى لها أن تمتد على طول حدود شريط الاستقرار ، وأن تكون بمثابة السلسلة الفقرية في نظام إقليمي للتوزيع . وكان من شأن ذلك أن يهيء أيسر السبل للوصول إلى ما وراء ذلك من مناطق الزهرة الجبلية ، كما يهيء نظاماً مفيداً للنقل العام والخاص على السواء باستخدام القناة ، والنهر ، والسكة الحديدية ، والطريق الرئيسى ، والجو . فإن فكرة المدينة المتوازنة يجب أن تتسع الآن لتشمل الإقليم المتوازن بعد إعادة تكوينه عن عمد وروية بوصفه عملاً من أعمال الفن .

وقد كان من المستطاع إنشاء أربع أو خمس وحدات إقليمية جديدة على هذا الأساس ، بحيث تتركز حول مدن قائمة ، ولكي تمتد في انتشارها إلى نطاق أوسع مدى بكثير وتكون قادرة على توجيه المزيد من النمو نحو

مجتمعات متوازنة ، وكان هذا خليقا بأن يصل بفكرة هوارد عن المدن الاجتماعية إلى نهايتها المنطقية . وبدلا من ذلك فإن الجهود المتضافرة من جانب لجنة الطرق الرئيسية وهيئة ميناء نيويورك اتجهت نحو زيادة الازدحام عند طرفي الولاية وجنى الأرباح من وراء المزيد من سوء النظام .

فحتى الآن إذن أخفقت مقترحات هوارد في وقف ، بل في تأخير ، العمليات التلقائية التي تسير في مجراها في مدينتنا . والسبب الكامن وراء هذا الإخفاق هو أن المدينة الغربية ما زالت مندفعه بتأثير عامل التصور الذاتي لثلاثة قرون من التوسع - توسع في الأرض ، وتوسع في الصناعة ، وتوسع في السكان . وقد حدثت هذه الحركات في سرعة كانت تجعل من العسير على السلطات العامة تنظيمها والتحكم فيها ، حتى إذا كانت تدرك الحاجة إلى حياة اقتصادية أكثر استقراراً . ولقد تكشف جميع الحركات الثلاث من بادئ الأمر عن ظواهر تنافى العقل وتؤدي إلى الانحلال ، وبدلا من أن تتخلص وتنكشف في خلال الجيلين الأخيرين ، ازداد مداها اتساعا . وكلما اتسع نطاق القلق وسوء النظام ، قل احتمال القيام بالتوزيع على أساس خطة مدروسة ، وتحقيق توازن فعال ، ونمو منتظم . وإن انتشار الضواحي في الوقت الحاضر دون خطة مرسومة ، وما يقترن بذلك من ازدحام الحواضر وسوء الحالة فيها ، لحو بديل وضيع عن مدن يسودها النظام وأقاليم تزخر بالعمران القائم على تخطيط مدروس .

وإلى هذا المدى يبلغ قدر ما يجب التسليم به ، بيد أن الرد على التشكك الحالي قد يكون الآن في سبيل الإعداد في طي الخفاء ، على نحو ما ظلت المسيحية مخفية لمدة قرنين كاملين تحت دروع الامبراطورية الرومانية . وإذا ما قدر لعوامل التماسك أن تستعيد قواها ، فإنه ينبغي لكل المجتمعات أن تلحظ النظرية التي نادى بها هوارد من أن : كل مدينة ، وكل جهاز في المجتمع ، وفي الحقيقة كل هيئة ومنظمة ، لها حد من حيث النمو المادي ،

كما يجب على كل المجتمعات أن تعي النتيجة الطبيعية لهذه النظرية ؛ وهي أن كل مشروع يتجاوز ذلك الحد يجب أن يتطابق كالأثر ..

وإن هذا الرأي لينطبق على ما يتجاوز الحد في التركيز من المستشفيات ومعاهد البحوث ، كما سبق أن ثبت انطباقه على المخازن التجارية الكبرى التي بلغت حدا مريعا من الضخامة . وعند تحديد الأبعاد الجديدة ، والأغراض الجديدة للمدينة على وجه فعال ، لا شك أننا سنتجاوز مدى الصورة التي تخيلها هوارد ، بيد أننا سوف نبقى مدينين له بالفضل لأنه كان أول من وضع الخطوط الرئيسية للأساس الذي يقوم عليه هذا النظام الأوسع نطاقا .

الفصل السابع عشر

حرافقة المدينة العظمى

١ — تعدد وجهه ازدياد القوة

إن ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، وتقدم الزراعة ، وانتشار السكان ، وتكاثر المدن ، كانت جميعاً تسير جنباً إلى جنب في كل مراحل التاريخ ، ولم يسبق أن كانت هذه الظواهر أكثر تلازماً بعضها لبعض مما كانت في القرن الأخير . والآن تدخل كثير من البلاد مرحلة سوف لا يقتصر الأمر فيها على أن يكون سكان المدن أكبر عدداً من سكان الريف ، بل سوف تغدو المساحة الفعلية التي يشغلها النمو الحضري ، أو يسيطر عليها حقه في تملكها ، منافسة للمساحة المخصصة للزراعة ، وإحدى الأمارات التي تدل على هذا التغير ، هي ازدياد المدن الكبرى في العدد والمساحة والسكان ، فالمدينة العظمى هي في سبيلها إلى أن تصبح عاجلاً وضعاً عاماً شائعاً ، والنظام الاقتصادي السائد يقوم على أساس نظام الحواضر ، الذي لا يتيسر فيه لأى مشروع أن تكون له قيمة إيجابية إلا إذا كان وثيق الارتباط بالمدينة الكبرى .

فهل يدل ذلك على مرحلة نهائية في التطور الحضري ؟ إن أولئك الذين يعتمدون أنه ليس ثمة من طريق آخر للنمو بديل عن التكاثر الحالى للحواضر ، لعلهم يغفلون ، في يسر وسهولة أكثر مما ينبغي ، النتائج التاريخية التي تنشأ عن مثل هذا التركيز للقوة الحضرية ، فهم ينسون أن هذا قد كان في حالات متكررة دليلاً على حلول المرحلة الأخيرة في الدورة الكلاسيكية للمدينة قبل انهيارها وسقوطها نهائياً . ومن المحقق أنه ليس ثمة

دليل على الاستقرار فى مدينة كابدت فى خلال أربعين عاما حربين عالميتين ، وأودت قبل الأوان بحياة نحو ستين مليوناً من البشر ، وفقاً لأقل تقدير دقيق - مدينة بعثت من جديد أشد ضروب الوحشية فى القهر والتعذيب والإبادة الشاملة ، وتنذر الآن بأنها فى خلال الكفاح مستقبلاً من أجل « نشر الشيوعية » أو « الحفاظ على الحرية » ستفنى سكان قارات بأكملها ، وقد تجعل الكوكب الأرضى بأسره غير صالح للحياة إلى الأبد . فى هذه المدينة - مدينة الحواضر - تكمن القوى المتفجرة التى سوف تمحو كل أثر لوجودها ، ووضع خطط للمستقبل دون جعل هذه الحقيقة فى الاعتبار ، يكشف عن أحد الدلائل النموذجية على ذلك الابتعاد المطلق عن الواقع الذى يتسم به ما هو جار الآن من استغلال الوسائل العلمية للإبادة الشاملة والتدمير الشامل .

وقبل أن يتسنى لنا تقدير قيمة ما يوجد تحت تصرف بنى الإنسان من الموارد الباقية الحيوية ، التى قد تنقذهم فى النهاية من سوء استخدام العلم والابتكارات التكنولوجية على نحو مناف للعقل ، قبل هذا يجب أن ننعم النظر فى العوامل التى نشأ عنها هذا النظام الاقتصادى القائم فى الحواضر ، والتى استفحل أمرها من جراء ما أفادته من النجاح المدمر الذى يفخر به هذا النظام . ولعل إدراك التطور التاريخى للمدن سوف يهين من التبصر - المعلوم إلى الآن - ما يمكن من إدخال وسائل جديدة للتحكم فى نشاط تلك العوامل ، وإلا نل هذا النشاط آلياً لانبثاقه عن غير وعى . بل إن كثيراً من العوامل الحالية ، التى تبدو الآن تلقائية تخبط خبط عشواء ، قد يثبت أنها فى واقع الأمر صادرة عن وعى وتدبير للحث على المضى فى نمو يجب أن يكبح ، أو لتركيز وظائف وسلطات يجب أن توزع .

وكما سبق أن أبدت رأى من قبل ، يحتمل أن أحد أسباب ما يحدث

كثيراً من تكرار الدورة الحضرية للنمو ، والتوسع ، والانحلال ، يمكن في ذات طبيعة المدنية نفسها ، فقد رأينا في حالات كثيرة أن المدينة تمنح نحو تغليف حياة المجتمع - حياته الجوهرية بوجوهها المتعددة - بأوضاع متحجرة تتجاوز الحد في تخصصها وتحقق الاستمرار على حساب التلاؤم والمزيد من النمو . ومن المحتمل أنه في الماضي ، كان تكوين المدينة ذاته ، بما فيه من سيطرة الوعاء الحجري على قطب المغناطيس ، مسئولاً عن هذه المقاومة إلى مدى غير قليل . وكان من جراء ذلك في النهاية أن أصبح الانحلال المادي - عن طريق الحرب أو الحريق أو الاضمحلال الاقتصادي والذبول هو السبيل الوحيد لتنبيه المدينة إلى المطالب الجديدة للحياة :

وإذا صح هذا ، فإن الحاجة الأساسية التي تواجه المدينة اليوم هي زيادة التوسع في معرفة المجتمع نفسه ، وزيادة التعمق في فهم مجرى التاريخ ، وذلك كخطوة أولى نحو النظام والتحكم ، فالمعرفة المنشودة تشبه ما يتحقق لعصابي من معرفة نفسه لكي يواجه جرحاً نفسانياً ظل دفيناً منذ عهد الطفولة ، ذوق حائلاً في طريق نموه وتكامله على نحو طبيعي .

ومدن مثل روما ، شهد التاريخ بلوغها نهاية دورتها بأكملها قبل أن تعاود نموها من جديد عند مرحلة أدنى مما وصلت إليه ، تهيئ قدراً وفيراً من المعلومات لدراسة ارتفاع المدينة العظمى وسقوطها ، إلا أنه لسوء الحظ أن تلك المعلومات تبلغ من التناثر ، والكثير منها يبلغ من الغموض ، حداً يتعذر معه استجلاء كنه الحقائق بوضوح تام ، وعلى الرغم من أنه في وقتنا الحاضر كانت وارسو وبرلين وتوكيو ومدن أخرى كثيرة قاب قوسين أو أدنى من الإبادة المادية ، فإن قدراً كافياً من النسيج الحي للحضرة ظل مصوناً في أنحاء أخرى من أوطان هذه المدن بحيث جعل من الميسور إعادة إنشائها على عجل ، مع إدخال كثير من وجوه التحسين القليلة الشأن : وإن لم يدخل

تعديل حاسم على وظائفها . ومن شأن استمرار بقاء هذه الأوعية التي تجاوزت الحد في نموها أن يدل على أنها مظاهر مميزة للعوامل المسيطرة على مدينتنا الحاضرة ، وحقبة أن عين أمارات الإفراط في النمو وفي التركيز توجد في روسيا السوفيتية « الشيوعية » كما توجد في الولايات المتحدة « الرأسمالية » تنهض دليلاً على أن هذه العوامل عوامل عالمية تفضي في نشاطها دون مراعاة تقريباً للمذاهب الفكرية السائدة أو الأهداف المثالية .

ومع أنه يجب الاعتراف بمثل هذه الحقائق ، إلا أنه من السابق للأوان الاعتماد بأن ماجريات هذا النشاط نهائية ولا سبيل إلى تحويل اتجاهها ، فلقد سبق أن استعرضنا قدراً عظيماً من المعلومات التي تثبت أنه ، حتى في حالة حضارات كانت إلى حد بعيد أقل من حضارتنا التزاماً لخطة النمو المادى ، كان يدركها وقت يقضى فيه على الكائن الحي بتأثير العضو المتورم الذى أفاد منه حتى بلغ حداً كبيراً من الانتفاخ ، وفي خلال ذلك كان من الممكن أن يؤدى التوالد والنمو والتجديد على نحو سوى إلى تغيير الأوضاع في جهة أخرى .

وعلماء الاجتماع والاقتصاد الذين يقيمون مشروعاتهم للتوسع الاقتصادى والحضرى في المستقبل على أساس العوامل ذات الأثر الفعال في الوقت الحاضر فلا يتدبرون إلا أمر تلك التغيرات التي قد تنشأ عن تنشيط تلك العوامل ، إنما يتجهون نحو تعميم وجود مدن عظمى مجهزة بالمعدات الميكانيكية ، وتقوم على نظام موحد ، وتكون في واقع أمرها مجردة من الروح الإنسانية ، بوصف أن ذلك هو الغاية القصوى للتطور الحضرى ، وسواء أكانوا ستنبطون ما ستكون عليه الحال في عام ١٩٦٠ أم يرهصون بالأوضاع في عام ٢٠٦٠ ، فإن هدفهم هو في الواقع عام ١٩٨٤ ، وهؤلاء العلماء ، تحت ستار القيام ببحث إحصائى موضوعى ، نراهم في الواقع يغفلون في تحليلهم

الحقائق المشاهدة في علم الحياة ، أو في علم الإنسان ، أو في التاريخ ، وهي التي من شأنها أن تهدم مقدماتهم أو تصحح استنتاجاتهم . وعلى حين أن هؤلاء المراقبين نبذوا النظرية الكلامية عن الأسباب الغائية . فإنهم حولوا المدينة العظمى ذاتها إلى سبب غائي في تقديرهم .

وكثير من الآراء عن التطور المنتظر اليوم للمدن قد بنيت على أساس الفروض الأيديولوجية الشائعة حول طبيعة الإنسان ومستقبله ، وإنه ليكن تحت ما فيها من مراعاة ظاهرية للحياة والصحة ، احتقار عميق للقدرة البشرية على العمل على وجه يتضمن المحافظة على الصلات الوثيقة بين جميع أساليب العمل التي يسمهم فيها الإنسان في بيئة ملائمة للحياة في كل مظاهرها . وبدلاً من اعتبار الصلة بين الإنسان والهواء والماء والتربة وجميع رفاقه من البشر أقدم صلاته وأعظمها ضرورة له - ومن ثم فإنه يجب ألا يحد منها وألا يعمل على إزالتها ، بل يجب على الأصح تعميق تلك الصلة وتوسيع نطاقها في التفكير وفي العمل معاً - بدلاً من ذلك فإن التكنولوجيا الشائعة في وقتنا الحاضر تنصرف إلى تدبير الوسائل لكي تستبدل بالأساليب العضوية ، أي التي نستخدم فيها القدرة البشرية ، أساليب ميكانيكية بارعة (يمكن التحكم فيها ! ويمكن جني الأرباح من ورائها !) .

وبدلاً من جلب الحياة إلى المدينة ، بحيث يتسنى لأفقر سكانها ألا يقتصر حظه على الحصول على الشمس والهواء فحسب ، بل على فرصة ليلمس الأرض ويحس بها ويقوم بزراعتها ، فإن هؤلاء الرسل السذج الداعين للتقدم فضلوا أن يجلبوا الجذب إلى الريف ، والموت إلى المدينة في آخر الأمر . و«مدينة المستقبل» التي يبشرون بها ما هي إلا مدينة أنزلت إلى أدنى مستوى يمكن الوصول إليه في حياة مستقلة كاملة الوعي ، حافلة بضروب النشاط ، فهي لا تعدو مرتبة الحياة التي توائم احتياجات المكنتات . وكما سوف نرى ، ليس من شأن هذا الوضع إلا أن تحقق العوامل الحالية ، الدائبة على عملها

في المدينة العظمى ، غايتها النهائية — وهي القضاء الشامل على النوع الإنساني . ومن دأب مثل هذه العوامل أنها تحقق غاياتها ، وكلما اتسع نطاق الإيمان بها ، ازداد نشاطها ، بيد أنه جرياً على هذا القياس ، فإنها كلما ازدادت نشاطاً ، ازدادت سرعة احتمال وصولها إلى نهاية مروعة .

وإن نهاية مدينتنا بأسرها ، مدينة المدن العظمى ، لتتجلى اليوم أمام الأنظار بأقصى درجات الوضوح ؛ إذ أن مجموعة من النقاط على شاشة جهاز الرادار يُساء تفسيرها ، قد تشعل نيران حرب ذرية من شأنها أن تطيح بمدينتنا الحضرية بأكملها من الوجود ، ولا تخلف وراءها شيئاً للبدء به من جديد — لا تخلف شيئاً لمن قد ينجو من اللاجئين الناعسين سوى الموت جوعاً ، أو بمرض وبائي ، أو مرض السرطان الذي لا يرحم ، نتيجة لعنصر سترونيوم ٩٠ . وعقد أي آمال للمستقبل على مثل هذا البناء ، لا يتسنى إلا لمن أعدوه من « الخبراء » الذين توافر لهم من التدريب أكثر مما توافر من الصفات الإنسانية . وحتى إذا لم يدركنا هذا المصير ، فإن ألواناً أخرى عديدة من الموت تعد عدتها منذ الآن ، وهي لا نقل بشاعة ، وإن كانت أشد غدرًا وأكثر تمهلاً .

بيد أن عملية الدورة التي توجد في وسطها ليست بالضرورة عملية محتومة لا تقبل التبديل أو التغيير ، فيجب أن تقوم كل الخطط الحكيمة على أساس هذه الحقيقة . وحضارتنا العالمية الحديثة — وهي ذات موارد تاريخية تزداد ثمناً على مدى الأيام ، وانصالات يزداد نطاقها اتساعاً على الدوام — مجرد أنها تشمل العالم بأسره ، يتوافر لها من الإمكانيات التي لم تستخدم إلى الآن ، ثروة أعظم مما اتفق لأي حضارة أخرى سابقة .

والمشكلة التي تواجهنا في كل ناحية هي العمل على تعويق أو وقف سير العوامل التي تهددنا الآن ، وذلك عن طريق اعتراض سير دورة التوسع والانحلال بوضع قواعد جديدة تكون أقرب إلى مطالب الحياة ، فتبني لنا

السبيل إلى تغيير اتجاهنا ، وإلى البدء من جديد في مناطق عديدة . وإن مجرد وجود المدن الجديدة في إنجلترا والسويد - ولو أنها لم تغير إلى الآن نموذج الحواضر السائد - ليقوم دليلاً على إمكان الوصول إلى أسلوب جديد للنمو الحضري . وقد تكون هذه البادرة الصغيرة بشيراً بتحول أوسع مدى .

وفي عزمي أن أقوم في الفصل الحالي بإنعام النظر في بعض النواحي السلبية المريعة^١ مدينة العواصم ، وسوف يكون ذلك بمثابة تمهيد لتحليل لجديد للدور الذي تضطلع به المدينة ، بوصفها قطبا مغنطيسيا ووعاء ومحولاً ، في الحضارة الحديثة .

٢ - انزفاد الأعداد الكبيرة

إن ما حدث من التكدس في الحواضر يرجع أصلاً إلى ما حدث من الزيادة العظيمة في عدد السكان في خلال القرن التاسع عشر ، ويحتمل أن تكون هذه الزيادة فاقت نسبياً ، وعلى وجه الإطلاق أيضاً ، الزيادة التي حدثت في العصر الحجري الحديث وجعلت من الميسور القيام بالفتوحات الأصلية التي تمت . مجال العمران الحضري . فقد تضاعفت الشعوب الأوروبية الجنس من نحو مائتي مليون في أثناء حرب نابليون ، إلى حوالي ستمائة مليون عند نشوب الحرب العالمية الأولى . فهذا الجنس ، الذي كان يبلغ نحو سدس سكان الأرض في عهد مالثوس^(١) (Malthus) ، ارتفع إلى ما يبلغ نحو ثلث سكانها في مدة تزيد قليلاً على قرن واحد ، بالرغم مما حدث في أثناء تلك الحقبة من أن بعض الشعوب الأخرى التي وقعت تحت نفوذ هذا الجنس ، مثل سكان الهند الشرقية الهولندية ، تكاثرت كذلك وطالت الحياة فيها على نحو لم يسبق له مثيل .

(١) توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) عالم اقتصادي إنجليزي صاحب نظرية

التكاثر بنسبة رياضية .

وفي سنة ١٨٠٠ ، لم تكن توجد في العالم الغربي مدينة واحدة تشتمل حتى على مليون واحد من الناس ، فإن لندن وكانت أكبرها لم تكن تحتوى إلا على ٣١٠٩٥٩ من السكان ، على حين أن باريس كانت تحتوى على ما يزيد قليلا على نصف مليون ، أى أقل بكثير مما تحتويه أمستردام اليوم . وعندما أقبل عام ١٨٥٠ ، كانت لندن تضم أكثر من مليونين ، وباريس أكثر من مليون من السكان ، وكانت لا تزالان في مأمن من المنافسة الجدية ، على الرغم من أن عدد السكان كان يتزايد على وجه السرعة في مدن أخرى كذلك . بيد أنه عندما حل عام ١٩٠٠ ، كانت قد ظهرت في الوجود إحدى عشرة حاضرة يزيد عدد سكان كل منها على المليون ، وكانت من بينها برلين وشيكاغو ونيويورك وفيلادلفيا وموسكو وسانت بطرسبرج وفيينا وتوكيو وكلكتا .

وبعد ذلك ثلاثين سنة ، نتيجة لحمل تركيز رأس المال والتوجيه المالى فضلا عن الوسائل الميكانيكية التي ساعدت على اتساع المدن وازدحامها ، كانت توجد سبع وعشرون مدينة يزيد عدد سكان كل منها على المليون : وبترتيب هذه المدن ترتيبا تنازليا ، طبقاً لعدد سكانها ، كانت نيويورك تأتي في المقدمة ، وبرمنجهام بإنجلترا في المؤخرة ، وكانت هذه المدن تشتمل على حواضر في كل قارة ، حتى في أستراليا . وعند منتصف القرن العشرين ، كان يوجد عدد كبير من المناطق الحضرية الجديدة المؤلفة من حلقات من الضواحي تنتشر منبعجة حول المدن ، مما أدخل عدداً من السكان أكبر من ذلك بكثير في الإطار العام للحواضر .

وكان مما لوحظ كذلك ارتفاع عدد المدن التي يزيد سكانها على مائة ألف نسمة ، وهذه المدن الأقل سكانا كانت أيضا محاطة بمحافظات من الضواحي ، وحتى في مناطق مثل كارولينا الشمالية - حيث وجدت فرصة تكاد تكون من تدبير العناية الإلهية لإيجاد توازن إقليمي في مجموعات منفصلة من المدن لم يكن ممكناً أن تزيد أى واحدة منها على مائة ألف في

عدد سكانها - اتجهت الوحدات المنفصلة نحو الاندماج فى كتلة حضرية. أو « تجمع حضرى » (conurbation) ليس له طابع خاص ولا شكل معين . وفى سنة ١٩٣٠ ، كان ما يقرب من نصف سكان الولايات المتحدة يعيشون فى داخل دوائر يتراوح نصف قطرها بين عشرين وخمسين ميلا حول مدن. يزيد عدد سكانها على مائة ألف نسمة ، على حين أنهم فى سنة ١٩٥٠ كانوا يوجدون فى ١٦٨ منطقة حضرية تحتوى على ٥٠٠.٠٠٠ (١) أو أكثر من السكان ، مما كان يبلغ فى مجموعه ٨٦٣ر٩٢٩ر٠٨٣ وكانت نزعات مماثلة تسود فى كل مكان ، وفى سنة ١٩٥٠ كان ١٣ر١ فى المائة من سكان العالم يعيشون فى مدن يبلغ عدد سكانها ١٠٠.٠٠٠ نسمة أو أكثر من ذلك فى مقابل ١ر٧ فى المائة فى سنة ١٨٠٠ .

وهذا التغيير الذى طرأ على الأرقام والمقاييس والمساحة التى غشيها العمران الحضرى ، أحدثت تغييرات من حيث الصفات فى جميع هذه المراكز ، وفضلا عن ذلك ، وسع مجال التأثير الحضرى بما قام به من إحضار سلع المدينة وعاداتها وقيمها الفكرية إلى القرى التى كانت حتى ذلك الحين منطوية على نفسها ، ولا تزال تتبع فى حياتها دورة تماثل فى جوهر محتوياتها ما كانت عليه إبان حضارة العصر الحجري الحديث . وحتى أهم آلات الحياة البدائية فى الغابة ، وهى البلطة والخنجر المعروفان لدى هنود أمريكا الجنوبية لم يعد صنعهما يتم فى مكان قريب ، وإنما فى نيوارك أو شيفيلد . ولقد تركت هذه التغييرات أثرها كذلك فى المدى الطبقي لعدد سكان المدن ، فمن الواضح أن هذا المدى يختلف من حيث العدد والتوزيع على وجه التقريب تبعاً لحجم أكبر المدن فى مجموعتها . وفوق كل شيء ، كان إنشاء المدن وتكاثرها على هذا الوجه سبباً فى تغيير التوازن بأكمله بين السكان الحضريين والزراعيين ، فقد كانت المدن فى وقت ما

(١) لعل المؤلف يقصد ٥٠٠.٠٠٠ وليس ٥٠.٠٠٠ لأن ٥٠.٠٠٠ × ١٦٨

بمثابة جزر متناثرة وسط بحر فسيح من الزراعة ، وأما الآن فإنه فى الجهات التى تفوق ما عداها فى عدد السكان نجد أن المناطق الزراعية الوفيرة الإنتاج قد أصبحت جزرا خضراء منعزلة ، آخذة فى التلاشى رويدا رويدا تحت خضم من الأسفلت والحرسانة والطوب والأحجار ، وهى إما أنها تغطى وجه التربة بأكمله ، وإما أنها تؤدى إلى إنقاص صلاحيتها لأى غرض آخر غير مزيد الرصف ، ومد الأنايب وإقامة المباني .

وتقديم بيان بجميع العوامل التى أدت إلى هذا التغير معناه تقديم صورة أوفى بكثير مما حاولته هنا لتطور مدينتنا الميكانيكية فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، فليكن إذن البيان الذى قدمته فى كتابى « الوسائل التقنية والمدنية » (Technics and Civilization) مكملا للفصول السابقة فى هذا الكتاب .. ولكن يمكن القول فى إيجاز إنه بعملية استبدال ونمو إجبارى ، حلت فى ناحية بعد أخرى عمليات ميكانيكية مكان عمليات عضوية تستخدم فيها القدرة البشرية ، وكانت النتيجة النهائية استبعاد الأوضاع الحية والاقتصار على تشجيع الاحتياجات والرغبات البشرية التى تسنى الإفادة من وراء ربطها بالجهاز الإنتاجى ، سواء أكان ذلك من أجل الربح والسلطة كما حدث فى عهد الرأسمالية الباكرة المغامرة ، أم من أجل الأمن والترف ، كما حدث فى عهد رأسمالية الرفاهية ، أم من أجل الأمن والسلطة معا كما هو الشأن فى كنف نظام الرأسمالية الاحتكارية التى تمارسها الدولة فى البلاد المزعومة أنها شيوعية .

وعلى أية حال فإن النتيجة النهائية كانت واحدة بعينها تقريبا . ولقد صحب هذا التغير تحول إلى موارد للتموين تقع على مسافات أكثر بعدا ، وكذلك التحول من مدن الإنتاج إلى المراكز المالية حيث كانت تدبر شئون السوق وتنفق الأرباح . وشعار « المنافسة الحرة » — ذلك الشعار الذى قضى على الاحتكارات القديمة الإقطاعية منها والبلدية — توارى أمام جهود بذلت

على نطاق واسع لإقامة نظام احتكارى أو شبه احتكارى ، وهو الذى يعرف الآن . باسم « نظام احتكار القلة » (Oligopoly) ، بحيث يتسنى لعدد قليل من المنظمات أن تنجح فى التحكم فى السوق وفى تحديد الأسعار كما لو كانت فى الواقع وحدة واحدة . فكانت الحاضرة الكبيرة فى آن واحد عاملا معينا على إتمام هذه العملية ، ورمزا لنجاحها الجارف .

ولقد أدخلت هذه الحركة العامة مختلف قطاعات المجتمع الحديث فى نطاق نفس الوعاء الحضرى الكبير ، وبذلك فإنها حطمت إلى مدى غير قليل الحواجز القائمة بين مختلف الطوائف والطبقات الحاكمة . فأصحاب الأراضى ، ورجال الصناعة ، وأرباب المال ، ورجال القوات المسلحة ، وهيئة الموظفين ، تحالفوا فى البلاد الغربية الرئيسية لتحقيق أقصى قدر من الاستغلال المالى ، وأقصى ما يمكن مباشرته من التحكم السياسى الفعال . فأخذ موظفون حكوميون من ذوى النفوذ يوجهون « المصالح القومية » نحو خدمة رجال الصناعة والمال لأن « التوسع هو كل شيء » كما لاحظ سيسيل رودس (Cecil Rhodes) .

وعلى هذا فإن العوامل التى تدعو بطبيعتها الخاصة إلى اتساع نطاق الحاضرة ، ازدادت قوة بما حدث من اندفاع عام فى الاتجاه عينه ، كما أن رجل الصناعة ، بتخليه عن عقيدته فى حرية العمل وحرية المغامرة ، انتهى إلى الاعتماد على حلفائه الاستعماريين لحماية الصناعة من تقلبات السوق . ومن ثم نشأ كل لون من ألوان « الحماية » ، من فرض الرسوم الجمركية وتقديم المساعدات المالية ، إلى إنشاء الجيوش والأساطيل التى كانت تفتح أبواب الأسواق المغلقة ، أو تقوم بتحصيل الديون .

وإذا كان الشكل الأصلى للمدينة قد نجم عن الجمع بين الأنظمة الاقتصادية للعصرين الحجري القديم والحجري الحديث ، فإن من شأن الشكل النهائى للحاضرة أن يبدو نتيجة لعاملين انتظم كل منهما فى أوضاع

فصلته عن الآخر بعد القرن السابع عشر يزمن وجيز جداً ، فقد اتخذ أجددهما هيئة اقتصاد إنتاجى (صناعى) يستخدم الطاقات على نطاق لم يسبق الوصول إليه إطلاقاً من قبل ، واتخذ الآخر هيئة اقتصاد استهلاكى (تجارى) كان إلى ذلك الحين مقصوراً على البلاط والأرستقراطية ، فضاعف على عجل ألوان المتعة والترف الميسورة للقليلين ، ووسع تدريجياً نطاق دائرة المستهلكين .

وقد أصبح كلا النظامين الاقتصاديين مغرطى النشاط نتيجة للاختراعات المتواصلة ، فغدت القوة ، والسرعة ، والكمية ، والطرافة ، غايات في ذاتها ، وفيما عدا التوسع في الإنتاج والاستهلاك ، لم تبذل أى محاولة فعالة للتحكم في القوة والكمية من حيث العلاقة بمحاجات الإنسان الأخرى . ومن ثم فإن الحواضر العظمى جمعت في تكوين واحد ضخمة ممتدة ، المدينة الصناعية ، والمدينة التجارية ، والمدينة الملكية والأرستقراطية ، وكل منها تعمل على زيادة نفوذها وبسطه على الأخرى .

وسرعان ما امتدت معايير المصنع والسوق إلى كل منظمة أخرى في الحاضرة ، فالحصول على أكبر متحف ، وأكبر جامعة ، وأكبر مستشفى ، وأكبر مخزن تجارى ، وأكبر مصرف ، وأكبر الشركات المالية ، كان يعنى تحقيق منتهى ما يحتاج إليه التحضر . وإنتاج أقصى عدد من المخترعات ، وأقصى عدد من البحوث العلمية ، وأقصى عدد من الكتب ، أصبح شأنه في الدلالة على مدى نجاح الحاضرة كشأن إنتاج أقصى عدد من أطنان تماسيح الحديد في بيتسبرج أو ايسن . وموجز القول أن كل منظمة ناجحة في الحاضرة ، تكرر في داخل نظامها الخاص ما في التكوين الكلى من ضخامة عديمة الهدف . ونظام الحاضرة الاقتصادية في مكافحته ما كان يسود قديماً من عوز وحرمان ، اتجه إلى أقصى الناحية المضادة ، وركز عنايته حول المقادير دون أن يلتفت إلى ضرورة تنظيم سرعة الإنتاج ، أو توزيع

المقادير ، أو تمثيل الطرافة . ففي كل ناحية من نواحي الإنتاج ، أنزلت العناصر البشرية ، والقيمة النوعية ، والحرية الشخصية ، إلى مرتبة ثانوية ، وإن لم تمنح كلية .

وكان كل من القلعة والسور قد زال من العاصمة منذ عهد طويل ، ولكن في ذات الوقت الذى اختفيا فيه ظهرت إلى الوجود شبكة من أنظمة التحكم التى تركزت في العاصمة المسيطرة ، وتشعبت في كل مكان بفضل الاتصال السريع ، فكانت تؤدي الوظائف عينها على وجه أتم وأجدى ، ولما كانت السلطات الجديدة طيفية أثرية ، ومن العسير حصرها والاشتباك معها ، فإنها كانت أفعل أثرا من السلطات القديمة ؛ إذ كان في الإمكان اختراق سور مدينة أو قتل ملك ، ولكن كيف كان يتسنى لأحد أن يعتدى على اتحاد دولي لأرباب الصناعة ؟ وعند ما تصطدم عاصمة قومية بعاصمة أخرى ، عندئذ فقط كان يتضح أن جميع العوامل العتيقة الهدامة ، التى كانت توجد في القلاع القديمة ، مازالت توالى عملها بنشاط ، بل إنها تضخمت إلى حد معيب ، وازدادت مجافاة للعقل .

وقد كان نمو الحواضر العظمى وتكاثرها الدليل على هذا الاتجاه العام نحو التركيز الاحتكاري ، وكذلك الوسيلة التى تحقق بها هذا التركيز . وحتى في أكثر المدن الريفية رضاً بحالتها ، أصبح نموذج حياتها العامة يزداد اقترابا من نموذج الحاضرة ، فشعارات سياسة القوة ، وموجات التحمس القومى الصاخبة ، وقبول الناس عامة الأساليب التجارية والثقافية السائدة في الحاضرة ، مع ما ينطوى عليه ذلك من استبعاد مخزٍ للمنتجات المحلية ، كل ذلك أصبح شائعا في كل أنحاء الدنيا تقريبا عند ابتداء القرن العشرين .

وقد أفزع هربرت سبنسر وأتباعه — وكانوا يؤمنون في سذاجة أن التصنيع يؤدي إلى السلام — أنه أصبح من الواضح في أواخر القرن التاسع عشر ، أن ما حدث كان على النقيض من ذلك تماما ، إذ أن التصنيع

وسع نطاق الحرب وزاد في قدرتها على التدمير ، بما هيا لها من مزايا الإنتاج واستخدام الوسائل الميكانيكية على نطاق واسع . ومن جديد ظهر الجندي في وسط المدينة ومعه ألوان الحياة المناسبة من بيئة المدينة الصناعية المتبلدة الإحساس ، وقد ارتدت إلى الحاضرة في ثيابا الأزياء الرسمية الزاهية التي كان يرتديها رجال الحرس وسلاح الفرسان . ولم يكن في وسع أى ناحية من نواحي الحياة الإفلات من هذا التنظيم الشامل . ونحت المظاهر السلمية والنظام اليومي الرتيب للحياة في الحاضرة اتسعت فجأة جميع آفاق العنف . وتبعاً لتطور هذه العوامل ، تحولت الحاضرة باطراد إلى وسيلة لزيادة أنواع التمرس بالعنف ، وأصبح كل مواطن خبيراً في فنون الموت .

وأود أن أؤكد أن هذه الصورة السلبية لنظام الحاضرة لا تكشف عن حقيقة الواقع بأكمله ؛ إذ يجب ألا يحكم المرء على ما حدث في خلال القرن الماضي وما يهددنا الآن بكل هذا الشر المستطير ، بموجب ما تم فعلاً من التغييرات فحسب ، بل بمقتضى كثير من الاحتمالات الجريئة التي ، بمرور الزمن ، قد توازنها ، وترفع مستوى الحياة بأكملها إلى مرتبة أرقى . ومما يؤسف له أن بعض هذه الاحتمالات قضى عليها فعلاً ، وعلى ذلك فإن صيانة ونقل الحضارات البدائية — من أجل ما كان يمكن أن تقدمه من معونة في التغلب على ألوان الجذب الواضحة الآن في حضارتنا على هذا الوجه المؤلم — لم يحاول أحد القيام به ، إلا بعد حدوث أضرار لا سبيل إلى إصلاحها . وكذلك أيضاً فإن كثيراً مما في الطب والتعليم من الأساليب والمكتشفات الإنسانية ، التي أفسدتها مدنية الحواضر ، ما زالت تنتظر أن تؤدي واجبها كاملاً في حضارة موجهة نحو أهداف أكثر رعاية للإنسانية . بيد أنه إذا كان تاريخ القرن التاسع عشر تاريخاً مرضياً — على حد ما أجاد في التعبير عنه لافيدان (Lavedan) — فإن تاريخ مدينة القرن العشرين يمكن أن يوصف بأنه قصة من نوع غريب من العناية والعلاج الطبي يسعى نحو تخفيف

الأعراض ، على حين أنه يحرص على إبقاء جميع الأوضاع الضارة التي نشأ عنها المرض - وأحدثت فعلاً مضاعفات جانبية كانت وبيلة كالمرض سواء بسواء .

وفيما عدا بعض حالات استثنائية بارزة ، مثل مؤلفات باتريك جيديس ، وبيتر كروبوتكين ، واينزر هوارد ، وماكس وبر ، ما زال المرء يبحث عبثاً عن إدراك كامل للعمليات الطبيعية العادية التي تكلوها المدينة برعايتها . وعلى الرغم من أنه قد تمت دراسات عديدة عن اختلال وتدهور حالة المدن ، فإن القليل منها ، التي حاولت تناول صحة المدن ووضع قواعد أفضل للنمو والتطور ، ما زالت في معظم الأحوال مثالية ساذجة في إيمانها الذي لا يحد بالمقتضيات المشكوك فيها لنظام اقتصادي يتجه نحو التوسع ، وكذلك في تصورهما أن دور العلم والوسائل التقنية في تطور المدينة مستقبلاً له مطلق الأهمية وفيه مطلق الكفاية .

أجل ، إن المدينة الكبرى الحالية ، حتى في أشد أوضاعها ارتباطاً كما وفساداً ، تتكشف عن اضطلاعها بجهود جديدة في نشر الحضارة الإنسانية على نحو لم يكن له وجود تقريباً في عصور سابقة ، عند ما كانت كل الصفات الرفيعة وفقاً على القلعة والمعبد . وما زال أمام النواة التاريخية للحواضر وظيفة تودبها ، عند ما يدرك أبنائها أنه لا يمكن الاحتفاظ إلى ما لا نهاية بالاحتكار الذي وجد فيها أصلاً ، ولا بالانحلال الذي يسودها حالياً . وإذا جاز لنا أن نستعير اصطلاحاً من علم الطبيعة ، فإن المشكلة الكبرى اليوم هي كيفية تحويل كتلة مادية إلى طاقة نفسية ، إذ يجب أن نبثكر عوامل جديدة من أجل تحويل الازدحام التلقائي إلى تجميع هادف ، ومن أجل جعل الوعاء أثيراً ، ومن أجل ضبط اتجاه قطب المغنطيس وتوسيع مجاله . وقد تصبح هذه الاحتمالات حتمات أكثر وضوحاً ، إذا درسنا ما باءت به الجهود من الإخفاق .

٣ — البيروقراطية ذات اللوامس

إن ما في المدينة الكبيرة من جاذبية ساحرة مستمد من مكانتها الأصلية بوصفها أداة للدولة القومية ، ورمزاً لقوة سيادتها ، وهي وظيفة من أقدم جميع وظائف المدن . وفيما عدا واشنطن وكانبرا ، فإن المدن التي كانت القدوة الأولى للنمو على غير نظام وبلا حدود ، كانت هي العواصم القومية أو الامبراطورية ، وذلك أنها بسبب عظمها وثروتها — اجتذبت إليها السكان ، وكذلك التجارة من المراكز الأصغر منها التي اضطرت إلى التخلي عن أساليبها التقليدية في الحياة إزاء ما كان للملك والبلاط من هبة كبيرة .

ولكن القوتين السياسية والحربية يجب دعمهما بالتنظيم الاقتصادي . وقد كانت الوسائل التي نشأ عنها التكديس الحضري المستمر هي طرق التجارة الممتدة إلى جميع آفاق الأرض التي بدأ فتحها منذ القرن السادس عشر للحصول على موارد المناطق الداخلية عن طريق القنوات والأنهار ، ثم في القرن العشرين عن طريق الخطوط الجوية التي نشأ عن ذات سرعتها في رحلات تقطعها الطائرات بلا توقف ، إغفال التجمعات الحضرية الصغرى وتشجيع المزيد من التكديس في مراكز قليلة واقعة عند نهاية الخطوط .

وقد كانت هذه الوسائل المتنوعة سبباً في تدفق سيل لا ينتهي من قاصي الأغذية والمواد الخام على الحاضرة ، فضلاً عن وفود عمال ومثقفين وتجار وزوار من مناطق نائية . ولما كانت « كل الطرق تؤدي إلى روما » ، فإن خطوط السكك الحديدية ، التي كانت تشجع على الانتشار في الأقاليم ، انصرف الناس عنها أو أهملت حتى أصبحت عتيقة لا تلائم العصر ، ودفعت إلى الإفلاس من أجل تشجيع السفر على الخطوط الرئيسية والازدحام عند نهاية الخطوط . وحتى ما أنشئ فيما بعد من الطرق السريعة للسيارات ،

وهى من الممكن أن تكون وسائل مدهشة للانتشار ، قد وضع تخطيطها ، أو على الأصح أسس تخطيطها بمهارة ، خدمة لهذا الغرض .

وكان العامل الذى دفع عجلة هذا التركيز وأوجده كذلك فى مراكز فرعية ، هو الأهمية المتزايدة التى اكتسبتها العملية الإدارية ذاتها فى كل نوع من أنواع المشروعات ، فى الصناعة والأعمال التجارية وأعمال البر والتعلم . وقد كان نمو المدينة الكبيرة فى مراحلها المتأخرة نتيجة فرعية لنمو واتساع نفوذ البيروقراطية التى زجت فى كل مجال بألوان التحكم والتنظيم التى خبرناها من قبل فى المدينة الباروكية .

وعندما أصبحت وسائل الاتصال السريع ميسورة ، وجد حافز جديد لتركيز الأجهزة الإدارية ؛ إذ أصبح يتسنى الآن ، من مكان واحد ، توجيه الإنتاج ، وتحديد مسارات شحنات البضائع ، وإصدار الأوامر وإلغاؤها ، وعقد صفقات البيع ، وتقديم القروض ، وعمل المقاصات المالية . فالتحكم من بعد ، الذى كان يتمثل أولاً فى انفصال هيئة القيادة عن باقى رجال الجيش ، امتد إلى العمليات التجارية . وبصنع الآلة الكاتبة فى سبعينيات القرن التاسع عشر ، وتوافق ذلك مع انتشار استخدام الاختزال الفائق المبرعة ، أخذ يزداد مدى الأعمال المثمرة التى يتسنى أداؤها بكتابة الرسائل ، وقد ساعدت الوسائل الميكانيكية للمواصلات والوسائل الميكانيكية لكتابة الوثائق وإخراج نسخ عديدة منها ، والأنظمة الميكانيكية لمراجعة الحسابات وضبطها - ساعدت هذه الوسائل على ظهور بيروقراطية تجارية هائلة فى وسعها أن تقوم بالبيع فى مناطق تزداد بعداً على الدوام ، وذلك عن طريق نشر الأساليب الشائعة فى الحاضرة بوصفها مطابقة للمدينة بعينها أو لأى شئ يمكن أن يطلق عليه وصف « الحياة الحقيقية » .

والواقع أنه عند منتصف القرن التاسع عشر كانت كلمة بيروقراطية ،

كلمة ماركة مبططة مرادفة لعدم الكفاية الملتوية الأساليب . ولم يكن ديكنز فى حاجة إلى مواهب خاصة فى قوة الابتكار لخلق شخصية سير تابت بارنكل (Sir Tite Barnacle) أو مكتب تعطيل الأعمال ، فكل فرد فى جميع أنحاء العالم المالى والسياسى كابد صعوبة إنجاز الأعمال بطريق مباشر؛ إذ أن أبسط العقود المدنية كان يحتاج إلى تصديقات قانونية ، ومستندات ، ومراجعات ، ومن البحث عن وثيقة ما إلى إثبات حقوق مدنية بمقتضى الزواج ، ما كان أحد يستطيع أن يتحرك بدون حصوله من موظفين مختصين على مساعدتهم وموافقهم المتهمة . وكان المحامون الذين يعرفون الصيغ والقواعد الفنية المقررة ، يؤلفون شطراً كبيراً من أرباب المهن الآخذين فى الازدياد ؛ إذ كانت الحاجة تدعو إلى خدماتهم فى مراعاة أحكام القانون ، بل إن الحاجة إليها كانت أشد لانتهاك حرمة القانون بلباقة .

وفى أثناء كل هذا التطور ، اتخذ الناس من البروقراطية الحكومية هدفاً خاصاً للتشهير باستمرار ، فقد كانوا يظنون أنها تحتكر لنفسها الأساليب المعقدة والعناية بالأوضاع الشكلية عناية تتسم بالخذلقة وإضاعة الوقت . بيد أن رضا رجل الأعمال عن أساليبه ، وهو يبدى سخطه على نمو البروقراطية الحكومية على هذا الوجه المريع ، كان أبعد ما يكون عن الإنصاف ، فإن اتخاذ مثل هذا الموقف كان ينطوى على إغفال حقيقة هامة ، وهى أن أعظم تطور حدث فى البروقراطية فى أثناء القرن الأخير ، كان فى نطاق عالم الأعمال نفسه ، فكانت تتضاءل إلى جانبه الزيادات الطفيفة التى حدثت فى البروقراطية الحكومية . ومن الواضح أنه ما من مؤسسة صناعية لها جميع أنحاء العالم شبكة من العملاء ، والمراسلين ، ومراكز التصريف فى الأسواق ، والمصانع ، والممولين ، كان يتسنى لها البقاء بدون الاعتماد على خدمات جيش ممن يقومون فى صبر وأناة بالأعمال الكتابية الرتيبة فى

الحاضرة ، من كتبة الاختزال وموظفي السجلات وكتبة الحسابات ، ورؤساء الإدارات ، ومديري المبيعات ، ومديري الإعلانات ، والمحاسبين ، ومساعدتهم المتنوعين ، وهكذا فصاعداً إلى النائب الخامس لرئيس المؤسسة ، وهو الذى يكون توقيع أو موافقته بمثابة خاتمة مطاف المسئولية عن أى عمل من الأعمال .

ولإيواء هذه الهيئة من الموظفين فى مبان للمكاتب وفى عمارات ، وفى ضواحي سكنية ، كان لإحدى المهام الكبرى التى اضطلع بها توسع الحاضرة ، كما أن نقلهم فى الذهاب إلى مكان العمل وفى عودتهم منه فى أثناء فترة محدودة من الزمن ، أثار إحدى المشكلات الفنية العويصة التى واجهت مخطط المدينة والمهندس . ولم يكن الأمر مقصوداً على أن هيئة الموظفين ذاتها كانت فى حاجة إلى أماكن للمكاتب وأماكن للسكنى ، بل إن نصيباً متزايداً من المقر الجديد كانت تتطلبه المنتجات الجانبية لنظام العمل ، كالملفات ، والأقبية ومخازن للسلع الرائجة وأخرى للسلع الكاسدة ، وساحات للعرض ، ومثوى للوثائق حيث كانت سجلات الأعمال تنسق طبقاً للحروف الهجائية مراعاة لاحتمال الاستفادة منها فى المستقبل ، للاستشهاد بها ، أو لاستخدامها فى الدعاوى القضائية ، أو للرجوع إليها عند إبرام عقود فى المستقبل .

وقد وجد هذا العصر الوضع الذى يلائمه فى طراز جديد لعمائر المكاتب ، وقد حدث ذلك فى أمريكا منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر : وهذه العمائر ، من الناحية الرمزية ، أشبه ما تكون بخزائن أضابير عمودية للأدمين ، ذات نوافذ متوافقة ، وواجهات متوافقة ، ووسائل للراحة متوافقة ، وهى ترتفع طبقة فوق طبقة منافسة ناطحات السحاب الأخرى من أجل الحصول على الضوء والهواء ، وقبل كل شئ من أجل المكانة المالية . وإن الآراء التجريدية التى تراود دوائر المال العليا ، قد أوجدت فى هذه المباني النموذج المادى الذى تتجسد فيه على أكمل وجه ، وإن الميل إلى مضاعفة المرافق

البىروقراطية وإلى التوسع فى نظام الإشراف والتحكم البعء المءى ، لم يصل إلى نهاىته حتى الآن ؛ إء أنه كلما ازءاء عءء هذه المرافق ، وأصبحت عملىات التعامل أكثر تعقءاً ، أصبح مملاً بء منه أن نحل العملىات البىروقراطية المىكانىكىة مكان الانصال البشرى المباشر والاجتماع الشخصى. فى إنجلترا وویاز مثلاً نرى أنه فىما بین سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٥١ ازءاء المجموع الكلى لعدد الموظفىن بنسبة ثمانية فى المائة ، على حىن ازءاء عدد موظفى ءوائر الأعمال بنسبة ثلاثة وستى فى المائة ، وىبلغ عدد موظفى هذه ءوائر فى لءءن ضعف المعدل فى البلاد بأجمعها .

وهذا التطور أصبح یسطر على الحاضرة ثالث جءىء یتألف من المال ، والتأمین ، والإعلان . وبفضل هذه العوامل بسطت الحاضرة سىطرتها على أقالیم أقل منها أهمىة ، سواء فى ءاىل نطاق ءولها ءاتها أم فى بلاد بعىءة عنها ، فكانت هذه الأقالیم تبعث إلى المراكز الكبرى مباشرة أو عن طریق غیر مباشر ، بقیض متءفق من الإناءة . وبعد أن كانت الجرأة الاقءصاءىة والسلطة السىاسىة والقءرة الاجتماعىة موزعة بین أرجاء البلاد أصبحت الآن مركزة فى العواصم الكبىرة الجءىءة ، فللحصول على المال لا بء للمرء من الذهاب إلى الحاضرة ، وللمتع بالنفوذ لا بء للمرء من إءراك مركز مالى بارز فى الحاضرة . وفى حالات متفرقة ، نجد أن رجلاً عملاًقاً بمفرءه قء بقی خارء نطاق النظام السائء بصفءة مؤقتة مثل هنرى فورد الأكبر ، أو قء یحاول التحكم فى هذا النظام وتوجیهه نحو أهداف إنسانىة أرفع شأنأ مثل والتر راثناء (Walter Rathenau) . بیء أنه من شأن مثل تلك العزلة وهذا التحكم أن یكونا وهما إلى ءء كبىر ، وآىة ءلك أن فورد نفسه الذى كان فى وقت ما یقوم بصنع سىارة ملائمة للاءاباءات الشعبىة والحىاة الریفىة ، خضع فى نهاية الأمر لإغراء الطراز السائء فى الحاضرة .

فالنظام الاءكارى ، والائمان المالى ، والسمة المالىة ، عبارة عن الجواب

الثلاثة لهم الحاضرة . (ولكل منها ما يقابله في الاقتصاد الموجه الذى تديره الدولة فى البلاد « الشيوعية ») . وكل ما يحدث فى المدينة الكبيرة أيا كان شأنه يرجع فى النهاية إلى عامل أو آخر من هذه العوامل . والحاضرة هى المستودع الطبيعى لرأس المال فى هذه المرحلة الاقتصادية ، إذ أن مصارفها ومكاتب السمسرة فيها وما بها من أسواق للأوراق المالية ، تقوم بمهمة مركز لجمع مدخرات الريف المحيط بها ، وفى حالة العواصم العالمية تقوم هذه المؤسسات بجمع الفائض من رأس المال لدى المستثمرين الأجانب . فالحاضرة تجذب إليها أرباب المال وأرباب الصناعة ، وكلما كانت الحاجة إلى القروض المالية دائمة ، ازدادت حاجة المقرض إلى وجوده على مقربة من المصارف التى فى وسعها تقديم القروض له .

وتركيز السلطة المالية فى مصارف قومية أو شبه قومية ، مثل مصرف إنجلترا (Bank of England) الخليل الشأن ، وفى أيدى بيوت مالية خاصة ليست مسئولة سياسياً ، مثل بيتى روتشيلد ومورجان ، كان إحدى الخصائص المبكرة التى اتسم بها هذا النظام ، ولكن ظهرت على التوالى شبكات من المصارف المالية كانت أعظم شأنًا حتى من تلك المصارف ، فقد عمت جميع النجالات القومى ، بحيث إنه عاجلاً أو آجلاً ، اجتذب النظام الذى نأى فى الحاضرة شطراً كبيراً من السكان لتوظيف أموالهم ، أو لإيداعها أو للاقتراض ، أو للمضاربة . وكما رأى بلزاك بوضوح عند أول الشروع فى هذا التركيز ، كان المصرف هو المسيطر ، فإنه كان يحرك بنفسه أو بالواسطة ، الذى التى كانت تظهر على المسرح السياسى ، فقد كان يسهم فى تمويل الأحزاب السياسية ، وكانت موافقته ضرورية لنجاح حزب سياسى أو مشروع صناعى ، بقدر ما كان رفضه ضربة قاضية .

وبعد فإن الرهائن العقارية فى الحاضرة - وكانت قيمتها « مضمونة » باستمرار الرخاء والنمو فى الحاضرة - أصبحت إحدى الدعائم الأساسية

لمصارف الادخار وشركات التأمين ، فلكي تحمي تلك المؤسسات استثماراتها ، كان لا بد لها من محاربة أى محاولة للتخفيف من الازدحام ؛ لأن ذلك كان من شأنه أن يؤدي أيضاً إلى انخفاض معدل القيم التي يرتكز أساسها على الازدحام . ولنلاحظ كيف أن البرنامج الذي وضعت خطته حكومة روزفلت بعد سنة ١٩٣٣ لاستبدال الأحياء الفقيرة وإعادة تنظيم الاستقرار في الضواحي قد تداعى بسبب أن تلك الحكومة أنشأت في الوقت عينه هيئة أخرى كان الغرض الأساسي منها الإبقاء على سلامة الكيان القائم لعقود الرهن وأسعار الفائدة . فإن هذه السياسة جعلت من المستحيل العمل على التدرج في تخفيف عبء ما بلغت الأراضى الحضرية من القيمة المتضخمة وعبء الدين الحضري الثابت إلى المستوى العام للأسعار . ولنلاحظ أيضاً كيف أن التدابير السخية التي اتخذتها الحكومة الفيدرالية لانقاص جزء من الثمن المرتفع لأراضى الأحياء الفقيرة خدمة لإعادة التجديد الحضري ، لم ينشأ عنها انخفاض في معدل نسبة الكثافة وتحسن في حالة السكنى بين الفقراء الذين أخرجوا من مساكنهم على هذا الوجه ، بل كثيراً ما نشأ عنها ارتفاع في معدل نسبة الكثافة وعادت بأرباح أوفر بسبب إعداد المساكن لفئات من ذوى الدخل الأكبر . (ومما ماله دلالة خاصة أن المنتفعين الرئيسيين لم يكونوا سكان الأحياء الفقيرة ؛ بل المضاربين من رجال المال والقائمين بأمر البناء) .

وعلى الرغم من أن النظام بأسره يقوم على أساس التوسع الدينامي ، فإنه بحكم الزيادة المتوالية في التكديس ، يصبح صلباً وأقل مقدرة على مواجهة مواقف جديدة ؛ إذ أنه لا يستطيع المداورة ولا التراجع ، والواقع أن الاضطرار إلى الاستمرار في تنفيذ عمليات التوسع ليس أقل في النظام اتساما بالصلاية . وفي نظام العصور الوسطى ، كان ما في الحياة من صروف القدر وضروب الخطر يواجه بتنظيم النقابات وجمعيات الصداقة ، وأما في نظام الحواضر ، فإن هذه الخدمات تؤدى في الغالب مؤسسات مالية خاصة ،

وهي شركات التأمين . فالحريق ، والفيضانات ، والمرض ، والعجز ، والحوادث ، والموت ، يغطي أخطارها جميعا نوع أو آخر من أنواع التأمين . وقد انطوت التقديرات التي تمت لتحديد أسعار التأمين ، على أول ما حدث من التقدم في علم الاجتماع الإحصائي ، وفي البحوث العميقة التي أجريت عن المحافظة على الصحة والوقاية من المرض ، أثبتت منظمات كبرى ، مثل شركة متروبوليتان للتأمين على الحياة (Metropolitan Life Insurance Company) ، القيمة النقدية لتحسين الحالة في هاتين الناحيتين عن طريق التعليم والمساعدة الطبية .

ولسوء الحظ أنه ، وفقا للنظام السارى في الحواضر ، ليس التأمين إلا محاولة لتوفير الاطمئنان بتكديس أقصى عدد من المخاطر عند نقطة معينة . وقد تستطيع شركة التأمين الوفاء بالتزاماتها لأجل قصير ، إلا أنها في نهاية الأمر تصبح هي ذاتها أحد العوامل التي تؤدي إلى إفلاس النظام في مجملته . وما دام الجهاز الإنتاجي في حالة تمكنه من أداء عمله ، فإن توالى ورود السلع والقيام بالخدمات يظل مستمرا ، ولكن يكون من شأن فترة جفاف ، أو عاصفة محملة بالأتربة ، أو زلزال ، أو زيادة العرض على الطلب ، دون أن نقول شيئا عن نشوب حرب ، يكون من شأن ذلك زعزعة كيان النظام . وعندها يقف استمساك الحاضرة بمزاعمها الجائرة دون الوصول إلى تسوية سياسية معقولة . وإذا صح أن هذا النوع من الضمان كان سليما قبل اختراع الأسلحة النووية ، فإذا عسانا أن نقول عنه الآن ؟ وإذا كان لهذا النظام أساس معقول حقيقة ، فإن جميع الفائض من رؤوس أموال منظمات التأمين يجب أن يرصد للتأمين ضد خطر واحد تتضاءل الآن إلى أدنى حد ، بالقياس إليه ، جميع الأخطار الأخرى ، أى يجب أن يخصص للتأمين على السلام العالمى . والفيلسوف جوسياه رويس (Josiah Royce) هو الذى تقدم بهذا الاقتراح الحكيم منذ زمن طويل .

ولتكملة عملية الاحتكار التي تمارسها الحاضرة ، يجب دفع تحكمها المغرض إلى مدى أبعد ، وذلك بشراء وتجميع المشروعات المحلية ، وتكوين سلسلة من الفنادق أو المخازن التجارية الكبرى مما يتسنى وضعه تحت إدارة مركزية واستثماره لصالح الاحتكار . ولاستكمال حلقات هذا التحكم ، كان لابد من اتخاذ خطوة أخرى أبعد من ذلك ، وهى الاحتكار الفعلى لوسائل الإعلان ، والأخبار ، والنشر ، والمجلات الأدبية ، وفوق كل شيء الوسائل الجديدة للاتصال بالجمهور ، وهى الإذاعة والتليفزيون . وإذا كانت هذه النواحي المختلفة قد نشأت من أصول متباينة وتمثل أغراضا متنوعة فى البداية ، فإنها من الوجهة التاريخية ارتبطت بعضها ببعض من بادئ الأمر برباط غير وثيق ، وتلتئم معاً فى آخر الأمر داخل إطار الحاضرة .

وكل هذه الوسائل تعمل لغاية مشتركة ، وهى أنها تفضى طابع الأصالة والنفاسة على نهج الحياة الذى ينبثق من الحاضرة ؛ فهى تقرر الطابع القومى ، وهى تتحكم فى السوق المحلية ، وتجعل كل انحراف عن نموذج الحاضرة يبدو ريفيا قحا يبعث على الأسى ، بل تصممه بأنه عتيق فأت أوانه مما يجعله أكثر مدعاة للنفور . ومن شأن هذه العملية أن يكون هدفها الأخير ، جعل السكان موحدين ، متجانسين ، على شاكلة واحدة قامت طبقا لنموذج الحاضرة ، وليس فى وسعهم بحكم تنشئتهم أن يستهلكوا سوى السلع التى يقدمها لهم القائمون بالتحكم والتنشئة ، خدمة لصالح نظام اقتصادى دائب على التوسع . وفى بلاد مثل الولايات المتحدة ، حيث كان هذا التطور أسرع منه فى سواها ، أصبح هذا الهدف يتجلى للأنظار بوضوح منذ الآن . فهل ثمة ما يدعو إلى العجب من أنه فى خلال العشر السنوات الأخيرة بنغ نصيب كل أسرة مما أنفق على الإعلان ما يقرب من ضعف ما أنفق على التعليم العام الابتدائى والثانوى ؟ فهذا تحكم دون حكم ملكى ، ومطابقة دون اختيار ، وسطوة دون تدخل شخصى .

وحيثما تتركز أجهزة المال والنشر تتقارب وتتجمع كذلك طبقات الأثرياء مهما يكن أصل نشأتها ، فإن طقوس حياة أفرادها كما يعيشون أمام الناس مراعاة للصحف المصورة وبرامج التليفزيون ، هي جزء أساسي مما يغري به المال . وعند ما لاحظ مونتسكيو (Montesquieu) هذا النظام في مرحلة مبكرة ، وصف النتائج الاجتماعية التي تنشأ عنه بما عرف عنه من الدقة وبعد النظر ، فقال : « إن الترف يكون أيضا متناسبا مع كثرة السكان في المدن ، وبخاصة في العاصمة ولذلك فإنه يكون متناسبا مع ثروات الدول ، ومع عدم تساوى الأفراد في الثروة ، ومع عدد الناس المستقرين في أماكن معينة » . وتجمع الأغنياء ظاهرة نمطية تختص بها الحواضر ، وسنة الإنفاق عن سعة على نحو يلفت الأنظار ، وقد أصبحت غير مقصورة على البلاط الملكي ، تؤدي إلى أن تظهر في الحاضرة صناعات الترف المتعلقة باللبس والمأكول والزينة ووسائل التجميل . ولما كانت معايير الحواضر معايير عامة شائعة ، فإن أزياء الأغنياء الغربية تجرى محاكاتها في الحال ويعاد إنتاجها بالجملة ليفيد منها الشعب بأكمله ، وهذه في الواقع دعامة لا بد منها لنظام اقتصادي ماض في التوسع .

وبالرغم من أن الطمع وحب جمع المال ، والميل إلى التفاخر ، هي الحوافز الأساسية في نظام الحواضر ، فإنه في خلال الجيلين الثاني والثالث من السعى وراء جمع المال ، يغدو عمل البر ذاته ضربا إضافيا من ضروب الأعمال ويتمتع بسمعة كبرى . ففي البلاد التي يرتفع فيها مقدار الضريبة التصاعدية على الدخل ، تخدم المؤسسات الخيرية والتعليمية أغراض الفن الجديد - فن منح المال مع الاحتفاظ بالإشراف المحكم على وجوه التصرف فيه حتى تتسنى حماية النظام الذي جعل ذلك أمرا ميسورا . وعلى نحو ما تتحكم بضع مئات من المؤسسات الكبرى فيما يبلغ نحو نصف رأس المال الصناعي في الولايات المتحدة ، تتحكم كذلك طائفة قليلة نسبيا من طبقات

المالين والمديرين فى أجهزة الثقافة . وعند الشروع فى إنشاء مجالات جديدة للنشاط فى الفنون والعلوم ، يتجه أصحاب المشروع إلى الجيوب المتفتحة فى الحاضرة ، وهناك تستقر المؤسسة الجديدة فى أغلب الأحيان .

ومن ثم فإن عددا وفيرا من الجمعيات والمنظمات ذات المجال القومى والدولى توجد مراكزها الرئيسية بطبيعة الحال فى نيويورك أو لندن أو باريس . وهنا يلتقى الرعاة والعملاء ، وهنا تكون المنافسة على بذل الرعاية سبباً فى إتاحة مزيد من الفرص أمام الأغراض الخاصة لتجد العون والتأييد . ولما كانت المناطق الداخلية قد سلبت قدراً غير متناسب من السلطة والنفوذ والثروة ، فإن ساكن الأقاليم الذى يود أن يستعيد أيا من هذه الأشياء ؛ لابد له من مغادرة موطنه والمكافحة فى سبيل الحصول على مركز فى الحاضرة .

وما زالت هناك حالة ثالثة تحفز إلى تكدس السكان تكدسا أخرق ، فقد أبدى فيكتور برانفورد (Victor Branford) أنه لما كان نمو البيروقراطيات المتمتعة بسلطات عليا قد جاء نتيجة للتركيز السياسى فى أثناء الحرب ، فإنه كان أحد العوامل التى أدت إما إلى تغيير حال المدينة الصناعية ، وإما إلى جعلها تخضع للحاضرة فى السلطة وفى النفوذ ، فالحرب هى المصدر الذى تستمد منه البيروقراطية السياسية قوتها الطاغية . وفى خلال القرن التاسع عشر ، عند ما ازداد تكدس السكان فى بضعة مراكز كبرى ، اضطروا إلى الاعتماد بصورة أتم على مصادر بعيدة للتموين ، وأصبحت مهام الجيش والبحرية أن توسع نطاق قواعد التموين ، وأن تحمى « شريان الحياة » الذى يصل بين المصدر وفم الحاضرة البالغ الشراهة .

وما دامت الحاضرة نستطيع التحكم فى مصادر ثابتة للغذاء والمواد الأولية باستخدام وسائل قديمة أو معيبة ، فإن نمو الحاضرة يستطيع المضي فى سيره إلى ما لا نهاية ، وحتى فى بلاد مثل الولايات المتحدة ، كانت

المناطق الريفية البعيدة تعامل خلال مدة طويلة كما لو كانت من المستلزمات الاستعمارية ، وكان أبواب المصارف في الحواضر يحرمونها الأموال اللازمة لإنشاء مصانع الحديد الخاصة بها ، بل حتى لزيادة الاستهلاك المحلي ، فنشوب الحرب العالمية الثانية هو الذى اقتضى إنشاء مصانع الصلب على الساحل الباسيفيكي .

ولا يظن أحد أن هذه الجهود الحائنة على التكديس والازدحام كانت بأكملها تلقائية ، بل على النقيض من ذلك ، فقد بذلت - وما زالت تبذل - جهود مضنية لضمان الوصول إلى ذلك ؛ إذ أن شبكات الخطوط الحديدية كان يوضع تصميمها عمدا لإرغام الركاب والبضائع على المرور بالحاضرة قبل الذهاب إلى جهة أخرى. وما زالت كل حاضرة كبرى تقبع كالعنكبوت وسط بيت يتألف نسيجه من خطوط النقل المتشابكة ، على الرغم من أن الخطوط الحديدية ذاتها قد ضحى بها من أجل السيارة والطائرة النفاثة .

وفضلا عن ذلك فإنه في الولايات المتحدة - وقد بين ذلك وارن تومسون (Warren Thompson) منذ زمن طويل - لا يقوم نظام أسعار السكك الحديدية على أساس التكلفة الفعلية للخدمة التى تؤدى ، بل إن الأسعار جعلت متساوية بطريقة تعسفية بحيث تهبط تقديم المعونة إلى المدن الكبرى على حساب المدن المنافسة لها ، مع أنها قد تكون أقرب إلى نقطة الشحن ، وذلك بالرغم من أن تكاليف نقل البضائع في المدن الكبرى كانت على الدوام ، بسبب ذات ما فيها من ازدحام ، مرتفعة إلى درجة لا تتناسب مع العمل - وهذه التكاليف تكاد الآن تكون مائعة .

والإعانات الحكومية للنقل الجوى تؤدى إلى الغاية عينها ، وهى الوصول إلى أقصى مدى من الازدحام والقضاء على ضروب التحسين التى يحتمل أن تحدث بفضل تقدم الوسائل التكنولوجية ذاتها . وهكذا يتضح أن كثيراً مما يتشدد به عن مزايا الحاضرة ووجود كل الموارد التكنولوجية تحت

لإمرتها ليست إلا ضرباً من الأوهام . وعلى مثال الملكة الحمراء في قصة أليس (Alice's Red Queen) ، فإن الحاضرة رغم الجهود الجبارة التي تبذلها والسرعة المتناهية التي تتحرك بها تكاد تعجز عن الاحتفاظ بأوضاعها . والواقع أن كثيراً من مرافقها قد تفهقرت في خلال نصف القرن الأخير ، فالبراعة التكنولوجية ليست علاجاً لعدم الكفاءة السياسية والجمود الاجتماعى .

٤ - إزالة الحشود

ولننظر الآن إلى مركز الحاضرة من وجهة أعم ، فإن ما يسميه البعض الانفجار الحضري ، ما هو في الواقع إلا عرض لحالة أعم ، وهى إزالة الحدود الكمية ، وهذا يتم عن التحول من نظام عضوى تستخدم فيه القدرة البشرية إلى نظام ميكانيكى ، ومن نمو هادف إلى توسع بلا هدف .

وإلى القرن التاسع عشر ، كان قصور وسائل النقل المحلى والإقليمى معاً يفرض قيوداً طبيعية على نمو المدن . وحتى أكبر المدن ، مثل روما وبابل والاسكندرية وأنطاكية ، كانت مرعومة على احترام هذه القيود . بيد أنه عند منتصف القرن التاسع عشر ، استمد الاتجاه نحو الاحتكار الحضري عوناً من عامل جديد نشأ عن استخدام الحديد والفحم على وجه فعال ، وعن التوسع في مد الخطوط الحديدية ، فطبقاً للاحتياجات المادية البحث ، كانت مناطق الاستقرار تتمتع مع امتداد طبقات الفحم وطبقات الحديد الخام وخطوط السكك الحديدية . ولقد أوضح بانريك جيديس ، منذ وقت مبكر في القرن الحالى ، الدلالة الخاصة للخرائط الجديدة لعدد السكان بما كشفت عنه بجلاء من التكثف والانتشار بوجه عام في الكتلة الحضرية للسكان . ولقد بين أن أقاليم ومقاطعات بأسرها كانت ماضية في سبيل التحول إلى مناطق حضرية ، واقترح تمييز مثل هذه التكوينات المتشعبة باسم من شأنه أن يفرق بينها وبين المدينة التاريخية ، وهو : « التجمع الحضري » (Conurbation) .

وفي خلال ذلك كانت العوامل الأصلية التي أوجدت التجمع الحضري قد لقيت مكملاتها في مركز القدرة الكهربائية ، والسكة الحديدية الكهربائية ، ثم بعد ذلك ، في السيارة وطرق السيارات ، وعلى ذلك فإن الحركة التي كانت في مبدأ الأمر مقصورة على المنطقة التي يسهل الوصول إليها بالسكة الحديدية تأخذ الآن مجراها في كل مكان . وعلى حين أن الاتساع الأول في نظام البضائع أفضى إلى ظهور عدد كبير من المدن الجديدة ، وإلى زيادة عدد سكان المدن القائمة زيادة كبيرة ، فإن الشعب الحالي الذي تنسم به منطقة الاستقرار قد أوقف هذا النمو إلى حد كبير وأحدث زيادة عظيمة في ظهور تكوين حضري ليس له طابع مميز ، ولا تربطه أى رابطة سواء بنواة داخلية متماسكة أم بمحدود خارجية من أى نوع .

وإن النتيجة لتندر بأن ينتهى الأمر إلى قيام تجمع حضري عام . وأولئك الذين تجاهلوا التعريف الذى اقترحه جيديس منذ نصف قرن ، عادوا حديثا إلى اكتشاف هذه الظاهرة ذاتها من جديد ، ونظروا إليها كما لو كانت تطورا جديدا برمته . وقد تمادى بعضهم فى الخطأ إلى حد أنهم أطلقوا اصطلاحا غير ملائم - اصطلاح المدينة العظمى - على التجمع الحضري ، على الرغم من أن « التجمع الحضري » يمثل فى الواقع اتجاها يناقض تماما الاتجاه الذى أفضى إلى قيام المدينة التى عرفت أصلا بهذا الاسم . فقد كانت المدينة التاريخية المفرطة فى النمو لا تزال وحدة يحكم ما تبقى فيها ، وأما التجمع الحضري فإنه ليس وحدة ، وكلما ازداد انتشاراً ازداد ذلك وضوحا .

ولعله يتيسر الوصول على وجه أفضل إلى إدراك ما تعنيه هذه الإزالة للحدود بالرجوع إلى ما حدث فى اتساع المدن التاريخية ؛ وذلك أنه عندما أحيطت روما بيسور أوريليوس فى سنة ٢٧٤ ميلادية ، كانت تشغل مساحة تزيد على خمسة أميال مربعة ، والمساحة الحالية لمدينة لندن تبلغ ضعف ذلك مرة ١٣٠ مرة ، على حين أنها تبلغ تقريبا ضعف مساحة لندن فى العصور

الوسطى ٦٥٠ مثلاً ، وكانت إذ ذاك ٦٧٧ فداناً . والتجمع الحضري في نيويورك يمتد حتى إلى مدى أوسع من ذلك ، فهو يشغل نحو ٢٥١٤ ميلاً مربعاً تقريباً . وإذا لم تتدخل عوامل ذات أهداف إنسانية لوقف نمو المنطقة الريفية ولوضع حدود لنمو المدن واتساعها الطاغى ، فإن جميع المنطقة الساحلية من مين (Maine) إلى فلوريدا^(١) قد تلثم في تجمع حضري ليس له طابع مميز . بيد أن تسمية هذه الكتلة « مدينة إقليمية » ، أو الاعتقاد بأنها تمثل القياس الجديد للاستقرار الذى يجب على الإنسان الحديث أن يجعل أنظمتها وحاجاته الشخصية ملائمة له ، معناه حجب حقائق الحالة الإنسانية والسماح لعوامل تبدو تلقائية في ظاهرها أن تغلو بدلا عن الأغراض الإنسانية .

وهذه التكتلات الحضرية العديدة يمكن مقارنتها بجيش مشنت الشمل ، مختل النظام ، فقد قواده ، وتفرقت كتائبه وفصائله ، وتمزقت شاراته ، وهام على وجهه فاراً في كل النواحي ، جاعلاً شعاره « لينج بنفسه من استطاع » . وأول خطوة يجب اتخاذها لمواجهة هذه الحالة ، إلى جانب إنشاء قيادة عليا شاملة ، هو القيام بإعادة تكوين وحدات يمكن توجيهها توجيهها مجدداً . وما لم ندرِك أهمية الوحدات الصغيرة ، ونتمكن من إخضاعها للنظام ، فإننا لن نستطيع أن نتولى قيادة الجيش وتوزيعه بأكمله في أرجاء منطقة أوسع مدى ، فلقد تغير معيار المسافات ، « والمدينة الإقليمية » حبة محتملة الظهور ، بل هي في الواقع ضرورة حيوية ، ولكن شرط النجاح في هذه المحاولات يتوقف على ما لدينا من قدرة على تمييز وفرض حدود جوهرية ، وهذا يعنى أن نستبدل بالنظام الاقتصادي للحواضر ، الذى يتجه نحو استخدام المكثات ، نظاماً يتجه نحو خيرات الحياة وأهدافها .

(١) ولايتان على الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة أولاهما في أقصى الشمال ، والأخرى في

أقصى الجنوب .

وعلى الرغم من أن إزالة الحدود كانت أحد الأعمال الكبرى الرئيسية التي قام بها النظام الاقتصادي للحواضر . فإن هذا لا يفيد النزول عن أى سلطة من جانب الذين بيدهم الأمر من الأقطاب ، لأن هنالك ما يعادل هذه الإزالة ، وهو المضي في تجهيز كل شيء عن طريق الحاضرة وأجهزتها الميكانيكية التي تزداد تعقيدا . فالحاضرة في الواقع مركز لعمليات التجهيز ، حيث يتم ميكانيكيا تصنيف قدر عظيم متعدد الألوان من الأشياء المادية والمعنوية ، وتخفيضها إلى عدد محدود من المواد المطابقة لمعيار قياسي . التي تها في حزم موحدة التنسيق وتوزع على الجهات المرسله إليها ، بوسائل خاضعة لنظام محكم ، حاملة طابع الحاضرة المعتمد .

« وعمليات التجهيز » أصبحت الآن المظهر الرئيسى لإشراف الحاضرة . والحاجة إلى اتباعها على وجه دائم أدت إلى وجود مجموعة كاملة من المختبرات الميكانيكية والإلكترونية . من مكثات تسجيل حساب النقود إلى المكثات الإلكترونية الحاسبة ، وهى تتولى كل عملية من تسجيل الحسابات إلى الامتحانات الجامعية ، ولذلك فإن الشئون والكفايات التي لا تصلح لعملية التجهيز تنبذ فوراً . ولما كانت وسائل عمليات التجهيز تبلغ من التعقيد ودقة التركيب وكثرة التكاليف مما لا يتسنى معه استخدامها إلا على نطاق واسع ، فلأنها تستبعد كل ألوان النشاط التي تنبثق فجأة ولا تلوم طويلا ، أو التي تنطوى في طبيعتها على نوازع إنسانية خفية - على نحو ما تستبعد الإجابة بلفظ « نعم » أو « لا » الإجابات المميزة الأكثر دقة وصوابا ، التي كثيراً ما توجد عند نقطة أو أخرى فيما بين الأجوبة « الصحيحة » المزيفة . وكل ما هو محلى ، صغير ، شخصى ، مستقل الكيان ، يجب القضاء عليه . وإن من يتحكم في وسائل عمليات التجهيز ، يزداد تحكمه باطراد حياة ومصائر أولئك الذين يتحكم عليهم أن يستهلكوا منتجات تلك الوسائل ، فهم لا يستطيعون أن ينشدوا بديلا عنها لأخذهم

بأساليب الحاضرة ، وذلك لأن التجهيز وإعداد الحزم لا ينتهيان في مكان الإنتاج ، إذ أنهما يتوليان في آخر الأمر تكوين شخصية الإنسان .

وموجز القول أن احتكار السلطة والمعرفة - الذى وجد أول ما وجد في القلعة - عاد في صورة بالغة التضخم في المراحل الختامية لحضارة العواصم . ولا مفر في النهاية من وضع جميع نواحي الحياة تحت نير التحكم ، كالتحكم في الجو ، والتحكم في الحركة ، والتحكم في الاختلاط ، والتحكم في الإنتاج ، والتحكم في الأسعار ، والتحكم في الأهواء ، والتحكم في الآراء ، بيد أن الغرض الوحيد من التحكم ، فضلا عما يفيد المتحكمون من الغنى والسلطة والنفوذ ، هو التعجيل بعملية التحكم ذاتها .

وإنه لمن اليسير معرفة سدنة هذا النظام ، فإن النظام بأسره يعتمد في مرحلة الختامية على تكاثر ألوان المعرفة السرية ، ومن ثم فإنه يمكن التحكم فيها : وذات تقسيم العمل الذى يجعل من الميسور القيام ببحوث علمية متخصصة يحصر أيضا عدد الأفراد القادرين على جمع الأجزاء معا . ولكن أين الآلة الجديدة ؟ إن المفاعل النوى هو مقر سلطانهم ، وإذاعات الراديو وطيران الصواريخ هي وسائلهم الملائكية للاتصال والانتقال ، ولكن وراء هذه الوسائل الإلهية الصغرى ، تقوم غرفة التحكم ذاتها حيث يستوى ربها على عرش التحكم والتوجيه ، ويصدر أوامره في سرعة وميض البرق ، وردوده المعصومة من الخطأ ، فقد نجح العلم في أن يزاوج بين الإحاطة بكل شيء علما والقدرة على كل شيء . وإزاء هذا الاحتكار الإلكتروني لأسمى ملكات الإنسان ، لا سبيل إلى عودة الإنسان إلى ممارسة نشاطه إلا في أحط مراتب المستوى البدائي . ولقد اكتشف سيجموند فرويد ظهور مبادئ الفن الخلاق في زهو الطفل بالأشكال التي يكونها برازه ، وفي وسعنا الآن أن نتبين المظهر الذى انتهى إليه الفن الخلاق في أعمال التصوير والنحت التي

تتكشف محتوياتها عن زهو مماثل ودرجة مماثلة من الاستقلال الذاتي - وإنتاج مماثل .

ولقد كانت إحدى الصفات القديمة التي امتاز بها الآلهة ، أن يخلقوا الإنسان من لحمهم ، مثل أنوم (Atum) ، أو على هبتهم مثل يهوه (Yahweh) ، وعندما تقوم الطائفة المعتمدة لسدنة العلم بالمضى قليلا إلى الأمام في جهودها الحالية ، سيجرى أيضاً تجهيز الإنسان القمىء الحديد بحجمه الطبيعي ، وفي وسعنا منذ الآن أن نشاهد فيما لدينا من معارض الفنون نماذج تبشر بذلك ، ولسوف يبدو ، على نحو يلفت النظر ، في هيئة رجل يرتدى « لباس الفضاء » ، أى إن مظهره الخارجى سيكون على شكل حشرة ضخمة ذات حراشف ، ولكن الوجه المائل فى الداخل ستكون قدرته على التعبير كقدرة وجه الجنّة ، ومن ذا الذى سيكون فى وسعه أن يتبين الفرق بينهما ؟

٥ - انبطاح العلفة

خلق فى طائرة فوق لندن أو بيونس أيرس أو شيكاغو أو سيدنى ، أو شاهد هذه المدن على نحو يكشف عن تخطيطها بالاطلاع على خرائط تبين شوارعها ووحداتها . فكيف يبدو شكل المدينة ، وكيف تحدد كيانها ؟ إن الوعاء الأصيل قد اختفى بتمامه ، والانفصال الواضح بين المدينة والريف لم يعد له وجود . وعندما يمتد النظر نحو الأطراف غير الواضحة ، لا يستطيع المرء أن يتبين معالم محددة فيما عدا تلك التى كونتها الطبيعة ، فعلى الأصح يرى المشاهد كتلة متواصلة الامتداد لا شكل لها ، فهى هنا تبدو منبعجة أو متغضنة نتيجة لما يقوم فيها من المباني ، وهناك تبدو متقطعة من جراء وجود رقعة من النبات الأخضر أو شريط مستقيم الامتداد مؤلف من طريق مرصوف بالحرسانة . وانعدام الشكل فى الكتلة كالمها تتجلى

صورته في كل جزء منها بمفرده ، وكلما ازداد الاقتراب من المركز ،
تعذر عادة إمكان تمييز الأجزاء الصغيرة :

ولعجز المدينة عن توزيع كروموزوماتها^(١) الاجتماعية والانقسام إلى
خلايا جديدة تحمل كل منها قدراً من مزاياها الوراثية الأصلية ، فقد
استمرت تنمو على منوال غير عضوى ، بل في الحقيقة على منوال نمو
المرطان ، بالاستمرار في تدمير الأنسجة القديمة ، وبنمو أنسجة جديدة
لا شكل لها نموا مفرطاً . فهنا ابتلعت المدينة قرى ومدناً صغيرة وأحالتها
إلى أسماء لأماكن ، مثل مانهاتن فيل وهارلم في نيويورك ؛ وهناك ، لحسن
الحظ ، أبقى المدينة على أجهزة الحكم المحلي وبقايا حياة مستقلة ، بل ذهبت
إلى حد المعاونة على إحيائها : كما حدث في تشيلسى وكسينجتون بمدينة
لندن ، ولكنها مع ذلك أدججت هذه المناطق الحضرية في نظام تكوينها
المادى ، وملأت بالمباني الأرض الفضاء التى كانت تقوم في وقت ما بتأكيد
ذاتيتها واكتمال تكوينها . وأحيانا يتألف من اتساع نطاق شبكة الشوارع
شكل منتظم ، وأحيانا لا تنشأ عنه سوى شبكة مضطربة غير منتظمة الشكل
لا يستفاد منها حتى في حركة المرور ، ولكن الفرق بين طراز وآخر من
النظام ليس إلا مجرد فرق في درجة الانبطاح والاضطراب والتخريب :

وكلما يبتعد المرء عن المركز ، يزداد باستمرار ما يتسم به النمو الحضرى
من انعدام الهدف ، وعدم التواصل ، ويكون باطراد أكثر تشعباً وبعداً
عن التركيز ، إلا حينما تكون إحدى المدن الباقية قد خلفت الطابع الأصيل
لحياة ذات نهج أوفر نظاماً . وأما ما كان يوجد قديماً من مناطق الجوار
والخيط ، وهى الخلايا الاجتماعية التى كانت لا تزال تحتفظ في المدينة بقدر
من نموذج حياة القرية ، فإنه لم يتخلف منها إلا ظلها . ولا يتسنى لأى عين

(١) وهى الأجهزة الكروماتينية التى تظهر في أثناء انقسام النواة وعددها محدود وأشكالها
ثابتة لكل نوع من الحيوان ، وهى التى تنقل الصفات الموروثة .

بشرية أن تستوعب في نظرة واحدة هذه الكتلة التي تتألف منها الحاضرة ، كما أنه لا يتسنى لأى مكان واحد للاجتماع أن يتسع لجميع مواطنيها إلا كل شوارعها بأسرها ، وما من عقل بشرى يتسنى له أن يدرك أكثر من جزء مما يقوم به مواطنوها من أعمال التخصص المعقدة المتناهية في دقتها . وقد أصبحت الصفات القياسية التي يتسم بها نظام الحياة في الحواضر ، هي انعدام الكياسة ، وانعدام الاستقلال الذاتي ، ودوام الفشل والاضطراب في الأعمال اليومية ، دون أن نذكر شيئاً عن الحالات الجسيمة للعطل والتوقف ، وثمة اسم خاص للقوة عندما تُركّز بمثل هذا المعدل ، وهو العجز .

ولم ينشأ تضخم الحاضرة إلى هذا الحد الجبار نتيجة لتقدم الوسائل التكنولوجية وحدها ، فإنه على نقبض الاعتقاد الشائع ، كان نمو المدن سابقاً لضروب التقدم التقنى الحاسم الذى حدث في خلال القرنين الأخيرين . ولكن مرحلة نمو المدن نمواً مفرطاً حتى غدت حواضر كبيرة لم تصبح عامة إلا عندما أصبحت الوسائل التقنية لتهيئة الازدحام وافية بالغرض ، وأصبح استخدامها يعود بالربح على من كانوا يتولون صناعتها أو استعمالها . بل إن الحاضرة الحديثة مثل بارز ، على الأصح ، لتأخر حضارى غريب في مجال الوسائل التقنية ذاتها ، وذلك باستخدام وسائل تقنية بالغة الرقى لاستمرار أوضاع وأهداف عتيقة في مدنية متأخرة من الناحية الاجتماعية . فالممكنات والمرافق ، التي من شأنها أن تعين على التخلص من المركزية في نظام قوامه الحياة ، تغدو هنا وسيلة ، إما لزيادة الازدحام ، وإما لتهيئة قدر طفيف من التلطيف الوقتى — نظير مقابل .

فشكل الحاضرة إذن هو التجرد من الشكل ؛ كما أن هدفها هو أن تتسع بلا هدف . وأولئك الذين يعملون في داخل نطاق أيديولوجية هذا النظام ، ليست لديهم فكرة عن التقدم إلا من ناحية الكم ؛ ذلك أنهم

يسعون وراء جعل مبانيه أكثر ارتفاعاً ، وشوارعه أشد اتساعاً ، والأماكن المخصصة فيه لانتظار العربات أوسع مجالا . ومن شأنهم أن يضاعفوا عدد القناطر ، والطرق الرئيسية ، والأنفاق ، عاملين أبداً على تسهيل الدخول إلى المدينة والخروج منها ، ولكنهم يضيعون مقدار ما يمكن استخدامه من الفضاء الموجود في داخل المدينة لأى غرض آخر سوى النقل ذاته . ومشروع فرانك لويد رايت لإنشاء ناطحة سحاب تبلغ ميلاً في الارتفاع كان أقصى ما بلغته من السخف هذه النظرية بأكملها عن تطور المدينة ، فإنه من شأن الشكل النهائي لمثل هذه المدينة أن يوجد في مقابل كل فدان من المباني ، ميل مربع من طرق النقل السريع وأماكن انتظار السيارات ، وهو ما يوشك أن يتحقق عاجلاً في كثير من المناطق .

وعند ما يتعذر التمييز بين العلة والعلاج فإن في وسع المرء أن يثق بأن ثمة أمراً يحدث - أمراً عميق القرار بعيد الغور . ولا بد من أن نظاماً اقتصادياً اتخذنا في التوسع ، ومستهدفاً جنى الأرباح ، وليس سد حاجات الحياة ، لا بد من أن يؤدي إلى خلق صورة جديدة للمدينة ، وهي صورة معقدة دائمة ماضية في الاتساع ، عاكفة على استهلاك ثمار إنتاج صناعي وزراعي آخذ في الاتساع ، وذلك استجابة لحمولات الدعاية والإعلان المستمرة ، ومنذ قرنين ، كانت الحاجة إلى مثل هذا النظام الاقتصادي أمراً لا يقبل الجدل ، وفي كثير من البلاد الفقيرة ما زالت الحاجة إليه قائمة لرفع مستوى السكان فوق حافة الموت جوعاً والبؤس الذي لا حيلة لهم إزاءه . بيد أنه في بلاد الغرب ، وبخاصة في الولايات المتحدة ، لم تحل مشكلة الفاقة ، دون نظر إلى التوزيع والعلاقة بالحاجات الضرورية ، إلا لتظهر مجموعة جديدة من المشكلات موجبة لعين الحيرة ، وهي مشكلات الوفرة والامتلاء . وتبعاً لذلك ، فقد أصبح الاتساع اليوم غاية في ذاته ، ومن أجل الوصول إلى جعله ميسوراً ، يلجأ المتحكمون في هذا المجتمع إلى كل وسيلة ممكنة من وسائل الاتساع والفضخامة .

وذلك أنه من سوء الحظ أنه متى هُيئ أحد الأنظمة الاقتصادية للسير في طريق التوسع ، فإن الوسيلة تتحول على عجل إلى هدف ، « ويصبح السير هو الغاية » ، بل إن ما هو أكثر من ذلك مدعاة لسوء الحظ هو أن الصناعات التي تحظى بمثل هذا التوسع ، لكي تحتفظ بمعدل إنتاجها ، لا بد لها من أن تتفرغ لإنتاج السلع التي تستهلك سريعا ، إما بحكم طبيعتها ، وإما لأنه أسوأ صنعها بحيث يتحتم استبدالها عاجلا . ومن ثم فإنه بحكم مقتضيات البدع (الموضة) وما تنطوي عليه من عوامل زوال الاستعمال ، نجد أن ما يحققه الإنتاج الميكانيكي من اقتصاد بدلا من أن يكون سببا في توفير الفراغ والثروة الدائمة ، يقضى عليه الاستهلاك الاضطراري على وجه يزداد نطاقه اتساعا على الدوام .

وجريا على هذا القياس ، فإن المدينة ذاتها تغدو قابلة للاستهلاك أو بالأحرى ، قابلة للاستنفاد ؛ إذ أن الوعاء يجب أن يتغير بالسرعة عينها التي تتغير بها محتوياته ، وهذا العامل الختمى الأخير يقوض دعائم وظيفة أساسية من وظائف المدينة بوصفها وسيلة لتواصل بقاء النوع الإنساني ، فتزول من المدينة عوامل الذكرى الحية التي كانت في حين ما تربط معا بين الأجيال والقرون ، ويعيش سكانها في بيئة دائبة على إفناء ذاتها ، فلا يتوافر فيها الوصل إلا بين لحظة وأخرى . ولا ريب في أن أشد الناس بؤسا من متوحشي العصر الحجري لم يعيشوا مطلقا في مجتمع معدم فاسد كهذا المجتمع .

وبعد فإن العمليات العضوية لها غايات ترمى إليها ، وأهداف تنشدها ، وحدود تقف عندها تلقائيا ، والواقع أن جميع الكائنات الحية تنطوي في تكوينها على ضوابط تؤدي إلى اتساق الحركات وتحديد مدى النمو ، أما النظام الاقتصادي الماضي في التوسع ، مثله مثل النظام التكنولوجي الذي أقيم على أساسه إلى درجة كبيرة جدا ، فلا توجد فيه مثل هذه الضوابط ؛ إذ أن مظهر استقراره هو مضاعفة عدد المستهلكين وتوسيع مدى احتياجهم . بيد أنه

لضمان استمرار قدرته على الإنتاج ، يعمد إلى قصر هذه الاحتياجات على ما يتسنى للمكنات أن توفره بحيث يعود ربح من ورائه . ولذلك فإن هذا النظام الاقتصادي ينتج السيارات والثلاجات بكثرة ، ولكنه لا يجد حافزاً على العمل لتوفير أعمال فنية خالدة ، أو حدائق جبيلة أو فرص للفراغ تكون طليقة غير مقيدة ولا مضنية مهلكة . والواقع أن نظامنا الاقتصادي معد على نحو يجعله أقدر على تدمير الإنتاج بأكمله منه على التبرع به أو الحد منه أصلاً .

وصورة النظام الصناعي الحديث التي نقلها تشارلي تشابلن من الماضي إلى قصته « عصور حديثة » تناقض تماماً حقيقة أمر المدينة العظمى ، فقد صور العامل على هيئة رجل عتيق الطراز يكدح وهو مقيد إلى مكتبته ، ويغذى آلياً وهو مستمر في تشغيلها . وهذه الصورة تنتمى إلى مدينة الفحم الكوك ؛ إذ أن العامل الحديث في الحاضرة ، قد أطلق سراحه تدريجاً من العملية الإنتاجية ؛ فالكبد الطاحن المضنى الذى جعل مصنع القرن التاسع عشر بغيضاً أشد ، لبغض قد زال بفضل الخدمات والتأمينات الاجتماعية ، وبفضل الوسائل الميكانيكية والتشغيل الأوتوماتى الكامل . ولم يعد العمل شديد القسوة ، ولكن التشغيل الأوتوماتى جعله أكثر مجلبة للملل . وما كان يستفد من الجهود والنصب فى العملية الإنتاجية ، أصبح يوجه الآن إلى الاستهلاك .

والعمال فى نظام اقتصادى ماضى فى التوسع مقيدون إلى نظام آلى للاستهلاك عن طريق ألف وسيلة ماكرة من القيود والضوابط ، الظاهرة منها والخفية ، فهم يؤمنون على كسب عيشهم ، بشرط أن يلهموا كل ما تهيئه الوسائل الميكانيكية دون إبداء ما لا موجب له من التدقيق فى الاختيار ، وألا يطلبوا شيئاً مما لا تنتجه الوسائل الميكانيكية . فنظام مجتمع الحاضرة بأكمله قد وضعت خطته على أساس قتل حرية الاختيار والتوجيه الذاتى ، فأنت تقف عند ظهور النور الأحمر وتسير عند ظهور النور الأخضر ، وترى

ما هو مفروض أن تراه ، وتفكر فيما هو مفروض أن تفكر فيه ، والمبالغ الشخصية التي تدفعها ، كضريبة الدخل وأقساط التأمين ، يمكن خصمها من مرتبك ، فالاختيار ، والانتقاء ، والتمييز ، وإبداء الحكمة أو العفة أو بعد النظر ، والمضى في ضبط النفس إلى حد الامتناع عن تعاطي المشروبات ، واتخاذ معايير تغاير المعايير السائدة في السوق ، ووضع حدود غير الحدود الخاصة بالاستهلاك الفوري - هذه كلها من ضروب المروق التي من شأنها مناهضة خرافة المدينة العظمى بحذافيرها وتقمي نظامها الاقتصادي . وفي مجتمع « حر » كهذا يجب أن يعتبر هنري تورو^(١) .

(H. Thoreau) عدوا للشعب .

وتتحول الحاضرة في المرحلة الأخيرة من تطورها إلى جهاز جماعي لتكفل تنفيذ هذا النظام المنافي للعقل ، ولإيهام أولئك الذين هم في الحقيقة ضحاياهم ، بالإحساس بالقوة ، والثروة ، والسعادة ، وبأنهم بلغوا الذروة العليا لما يتسنى للبشر أن يحققوه . بيد أن حقيقة الواقع هي أن حياتهم في خطر دائم ، وثروتهم بلا مذاق وسريعة الزوال ، وأوقات فراغهم عملة إلى حد مثير ، وسعادتهم التي تدعو إلى الإشفاق يشوبها ما هم محقون في توقعه على الدوام من الاعتداء والموت المفاجئ ، فيزداد باطراد إحساسهم بأنهم « غرباء وخائفون » في عالم لم تكن لهم يد على الإطلاق في تكييفه ، عالم تقل على الدوام استجابته للأوامر التي يصدرها الإنسان رأساً ، ويزداد على الدوام خلوه من المعنى الإنساني .

٦ - أسباح النجاص

فلاعتقاد إذن بأن الحضارة الإنسانية قد بلغت ذروتها النهائية المحيطة

(١) كان هنري دافيد تورو (١٨١٧ - ١٨٦٢) شاعرا وكاتبا أمريكيا من أقوى

دعاة المذهب الفردي .

في الحاضرة الحديثة ، يجب أن يتجنب الإنسان النظر إلى ما في النظام الرتيب للحياة اليومية من تفصيلات كثيفة . وهذا هو عين ما يروض كل نزيل في الحاضرة نفسه عليه ، فهو لا يعيش في العالم الحقيقي ، بل في عالم خياليّ تبرز صورته من حوله في كل لحظة ممثلة في ورق وسليولويد وأضواء تدار حركة تسليطها ببراءة ، عالم يجد نفسه فيه معزولا عن مخازي الحياة بما يقوم حوله من الزجاج والسلفان والبلوفيلم (Pliofilm) . وموجز القول أنه عالم يتألف من المغرّرين المحترفين وضحاياهم الأغرار .

وصوت حفيف الورق وقرقنته هو الصوت الأساسي الذي تقوم عليه الحاضرة ، فكل ما يشاهد وكل ما له وجود حقيقي في هذا العالم ينحصر فيما سطر على الورق ، أو ما اكتسب وضعاً أثرياً أكثر من ذلك في ثنايا ميكروفيلم أو شريط جهاز التسجيل . ولم تعد الأقاويل والشائعات اليومية الهامة التي تسرى في الحاضرة هي تلك التي يتناقلها الناس حين يلتقون وجها لوجه عند مفارق الطرق أو على مائدة طعام أو في السوق ، بل إن بضع عشرات من الناس يكتبون في الصحف ، إلى جانب عشرة أو نحوهم يذيعون في الراديو والتليفزيون ، هم الذين يتولون تقديم التفسير اليومي للحوادث وحركات الناس وسكناتهم ببراءة المحترف اللبق ، ومن ثم فإنه حتى أكثر وجوه النشاط الإنساني تلقائية خضعت لإشراف محترف وتحكم مركزي . وانتشار كل لون من أجهزة الاستنساخ ، يكسب أشد منتجات العقل تواضعا وتعرضا لسرعة الزوال — يكسبها دواما مؤقتا لا تستثقله ، فإن كتبها بأسرها لا تطبع إلا لإفراغ ما في أشرطة جهاز التسجيل من محتويات واهية .

وجميع وجوه النشاط الكبرى في الحاضرة لها صلة مباشرة بالورق واللدائن التي تستخدم بدلا منه : كما أن الطباعة وعملية حزم السلع في مقدمة الأعمال التي يستخدم فيها الورق ، وكذلك فإن الأعمال التي تجري في مكاتب

الحاضرة تتصل مباشرة بالورق ، مثل مكثات الجدولة ، ودفاتر اليومية ، ودفاتر الأستاذ ، وبطاقات الفهارس ، والحجج والعقود ، وصكوك الرهن ، وعرائض الدعاوى ، ومحاضر المحاكمات ، وكذلك أيضاً النشرات ، والإعلانات ، والمجلات ، والصحف . ومنذ عهد مبكر يرجع إلى القرن الثامن عشر ، لاحظ مرسيه (Mercier) هذا النوع من الوباء الأبيض الذى يتفشى فى الحواضر . ولم تخفف طرق الاستنساخ الحديثة من وطأة هذا الوباء ، وإنما استبدلت بالوسائل المشوبة بالتراخي وعدم الدقة - وهو ما كان كافياً فى الغالب - مدونات متقنة دقيقة لا تتناسب دقتها وتكاليفها مع ما دون فيها . وما كان قطرة فى عهد مرسيه ، أصبح الآن طوفانا طاغيا من الورق .

وكلما تقدم سير العمل اليوى فى نظامه الرتيب ، ازداد ارتفاع أكداش الورق ، فتمتلئ سلال الورق المهمل وتفرغ ثم تعود فتمتلئ ثانية . وشريط الناقرة (ticker) يخرج تباعاً محملاً بأسعار الأسهم والسندات ونشرات الأخبار ، والطلبة فى المدارس والجامعات يملأون كراساتهم ، ويهضمون محتويات الكتب ويلفظونها فى يوم الامتحان فيكشفون عن حقيقة أمرهم ، شأنهم شأن دودة القز ، إذ تنغذى بورق التوت وتقوم بصنع شرنقتها . وفى عالم المسرح والأدب والموسيقى ، وفى دنيا الأعمال ، تبنى الشهرة على الورق : فالعالم بدرجاته العلمية وبحوئه المنشورة ، والممثلة بما لديها من قصاصات أقوال الصحف ، ورجل المال بأسهمه والتفويضات التى تخوله حق التصويت بالوكالة عن غيره ، يقيسون ما لهم من نفوذ ومكانة بمقدار ما فى حوزتهم من ورق ، فلا عجب أن الفوضويين قد ابتدعوا فى وقت ما هذه العبارة البشعة : « أحرقوا الوثائق » ! فإن هذا من شأنه أن يفضى إلى دمار هذا العالم بأسره بأسرع مما يفضى إليه طوفان أو زلزال عالمي ، وإن لم يكن له من الأثر الملاحق ما يكون لوايل من القنابل الهيدروجينية .

أما أن تكون الحياة فرصة للاستمتاع بالوجود ، وليست ذريعة لتغذية الصحف بمادة تكتب عنها ، أو الإدلاء بأحاديث تذاغ بالتليقزيون ، أو مشهداً للعرض أمام جماهير لا يشغل بالها سواه — هذه الخواطر لا تدور بخلد ساكن الحاضرة ، فإن مشهد العرض في نظرهم هو الحقيقة الواقعة ، و « المشهد يجب أن يستمر عرضه » .

فهذا العالم القائم في الحاضرة إذن ، هو عالم نصيب اللحم والدم فيه من الحقيقة الواقعة أقل من نصيب الورق والخبر والسليلويد . وهو عالم يستشعر فيه أغلب الناس عجزهم عن الاهتداء إلى نهج الحياة أكثر اكتمالا وأدعى إلى الرضا فيعمدون إلى الاستمتاع بالحياة عن طريق الغير ، قراء ، ومتفرجين ، ومستمعين ، ومشاهدين سلبين . ولما كانوا يعيشون على هذا النحو ستة بعد أخرى حياة لم يمارسوها بأنفسهم ، بعيدين عن طبيعة الكون ، وليسوا أقل بعداً عن طبيعة أنفسهم ، فلا عجب أنهم يمعنون باطراد في إسناد وظائف الحياة ، بل التفكير نفسه ، إلى الأجهزة التي ابتدعها المخترعون منهم ، وفي هذه البيئة المختلة النظام ، لا يحتفظ ببعض صفات الحياة سوى الأجهزة الميكانيكية ، على حين أن الكائنات البشرية يجرى تحويلها تدريجاً إلى مجموعة من الانعكاسات لهذه الأجهزة ، بلا حوافز تدفعها تلقائياً إلى التصرف ، ولا أهداف مستقلة تسعى وراءها ، أو عبارة أخرى إلى « أشخاص سلوكيين » .

٧ — الازدحام وتخفيف الازدحام

لا سبيل إلى إنكار حقائق الازدحام في الحاضرة ، فإنها ظاهرة في كل جانب من جوانب الحياة في المدينة ، فالإنسان يلقي الازدحام في التكرار المتواصل لوقوف حركة المرور ، وهو ما ينشأ عن تراكم وسائل النقل في

أماكن لا يتسنى إطلاق حرية الحركة فيها إلا إذا سار الناس على أقدامهم ، ويلقاه الإنسان في ازدحام المصاعد بمباني المكاتب ، أو فيما هو أكثر تكديسا وتفوح فيه الروائح الكريهة المنبعثة من الأبدان البشرية ، وهو القطار الذي يجري تحت الأرض . وبهض دليلا على ازدحام الحاضرة افتقارها إلى ما يلزمها من الأماكن للمكاتب والمدارس والمنازل بل افتقار جيباتها إلى الاتساع الكافي لدفن الموتى . وكل مظهر من مظاهر الحاضرة يتسم بطابع الازدحام ، سواء أكان مكانا للاستحمام على شاطئ البحر ، أم ساحة للملاكمة ، أم ملعباً لكرة القدم ، فهي جميعاً تغص بالناس وتزدحم بهم . وبازدياد عدد السيارات الخاصة تحولت الشوارع العادية والعريضة إلى أماكن لانتظار السيارات ، ولكي يتسنى تسيير حركة المرور على نحو ما ، شق المدينة عدد كبير من الطرق انفسحة المعدة للنقل السريع فتجعل الحاجة أشد إلى المزيد من أماكن الانتظار وحظائر السيارات . وبالعمل على تيسير الوصول إلى قلب الحاضرة ، جعل مدبرو الازدحام تلك المنطقة غير صالحة تقريبا للسكن .

وتكاليف الازدحام ذاته ، بما ينشأ عنه من عرقلة وجوه النشاط الاقتصادية الجوهرية في منطقة الحاضرة ، تزداد بما يضاف إليها من تكاليف الوسائل الميكانيكية البحت التي تستخدم للتغلب على هذا الازدحام . ولو أنه كان للمقاييس الاقتصادية المعقولة أى نصيب في تكوين خراطة الحاضرة لأدى ذلك منذ زمن بعيد إلى التخلص من هذه التكاليف المالية الباهظة حتى لو كان في وسع الناس تحمل أعبائها .

والحدود المادية البحت لتوسع الحاضرة تفرضها ثلاثة عوامل أساسية وهي : مقدار كمية الماء التي يتسنى لمجموعة واحدة من السكان أن تستعملها بدون أن تجور على مجموعة مجاورة منافسة لها ، ومقدار الأرض التي يمكن الاستفادة منها قبل أن تتمزج إحدى الحواضر بحاضرة مجاورة وتندمج فيها ،

وأخيراً ما يتكلفه النقل من حيث الوقت والمال معا ، نظراً إلى أنه بازدياد بعد المسافة عن المركز ، يصل البعد إلى نقطة تضعف عندها قوة جاذبية الحاضرة إلى درجة ترجع كفة الانتقال إلى مراكز أخرى يكون الوصول إليها أسر سبيلا ، ما دامت توفر مزايا اقتصادية مماثلة . ولتر الآن مدى أثر هذه العوامل .

فأولا الحاجة إلى الماء : تبعاً لازدياد الازدحام في الحاضرة ، يزداد التخلي تدريجياً عن الينابيع والآبار المحلية والاتجاه نحو موارد أغزر ماء ، مثل الأنهار التي ظلت مياهها الملوثة تنسم بالشرب منها أكثر من مدينة عظمى ، بما فيها باريس ولندن وروما ، إلى وقت متأخر وصل إلى منتصف القرن التاسع عشر . وحتى في الوقت الحاضر ما زال من شأن تناول مياه الشرب في أغلب المدن الكبرى أن يكون مصدراً للخطر ، ولا سيما في خلال شهور الشتاء ، إذا لم تطهر هذه المياه بإضافة الكلورين إليها . فضلا عن مشروع كروتون (Croton) ، الذي افتتح في سنة ١٨٤٢ ، ظلت نيويورك إلى ما يزيد على نصف قرن بعدها تتوغل في طلب الماء حتى جبال كاتسكيلز (Catskills) الواقعة على بعد مائة ميل منها . وكل ميل إضافي من الأنفاق والأنابيب ، وكل خزان إضافي يزيد من تكاليف المرفق ، ولكن قلة الأمطار في سنة ما ، على نحو ما عانته نيويورك في سنة ١٩٥١ ، قد تؤدي بالمدينة إلى بلوغ حافة الخطر . هذا إلى أن امتداد المدينة لا يؤدي إلى إغلاق موارد الماء المحلية فحسب ، بل إلى انخفاض منسوب المياه الجوفية نتيجة لردم المستنقعات وتجريد جوانب التلال من النباتات ، كما أن استخدام المياه في الصناعة فضلا عن شيوع استخدامها في أجهزة تكييف الهواء في الولايات المتحدة ، يؤدي إلى ازدياد الاقتراب من درجة القحط حتى على أساس المستوى الحالي لعدد السكان .

والأمل الوحيد المرتجى لتخفيف هذه الحالة المزمنة لنقص الماء في

الحواضر المتكدسة بالسكان ، هو اللجوء إلى تقطير مياه البحر بكميات ضخمة ، ولكنه حتى إذا كان ذلك ميسوراً عن طريق استخدام الطاقة الشمسية الرخيصة التكاليف أو الطاقة النووية ، فإنه من المحتمل ألا تكون هذه المياه أكثر استساغة في الشرب من المياه التي تصنع الآن على ظهر السفن . ومهما يبلغ من رخص تكاليف الطاقة التي تستخدم في هذه العملية ، فإنه من شأن تكاليفها أن تكون عبئاً جديداً يضاف إلى سعر المياه الآخذ في الازدياد .

وتكاليف نظام النقل الداخلى في مدينة كبيرة يبلغ ما يعادل ذلك في الضخامة ، ومع ذلك فإن بعضاً من أهم العوامل يعز تقديرها على وجه الدقة ، فتكاليف إنشاء خطوط النقل تحت الأرض ، والأنفاق والقناطر والطرق العامة الإضافية ، وما يستدعيه ذلك من الأعمال الشاقة لحفر الأرض وتجويئها ، تكاليف مرتفعة بطبيعة الحال . ولكن هذا ليس إلا جزءاً من العبء الكامل ، ففي كل سنة بعد أخرى يجب أن يضاف ثمن ما يستهلك من الفحم والكهربا في نقل الأجسام البشرية ، وفوق كل شيء يجب أن يضاف إلى ذلك ما يتكلفه الإنسان من سوء التأثير على صحته ، ومن الملل والمضايقة وانقباض النفس من جراء هذا الغدو والرواح يومياً بين مكان النوم ومكان العمل . وعندما تبلغ حركة المرور أشدها يقضى الإنسان دقائق وساعات لا يستطيع الانتفاع بها حتى في تخدير أعصابه بمطالعة صحيفة يومية . أضف إلى ذلك معاناة تعب الرحلة ، والتعرض للأمراض المعدية في عربات مزدحمة إلى حد يفوق الطاقة ، واضطراب وظائف المعدة والأمعاء نتيجة لتوتر الأعصاب ، والقلق على الوصول إلى المكتب أو المصنع في الموعد المحدد . ومن المحقق أن أى مشروع لتحسين أحوال الحياة في مناطق الحواضر ، من شأنه أن يكون أدنى ما يستلزمه إنقاص الوقت والمسافة اللازمين للانتقال اليومي :

ولقد قال إيمرسون إن الحياة عبارة عن الاستمتاع بأيام سعيدة ، ولكنها كذلك عبارة عن الاستمتاع بدقائق سعيدة أيضا . ومن ذا الذى يجروا على بيان أية تعويضات لا يتحتم بلها لمن يعمل فى الحاضرة لتجزية عما يعانيه من توتر أعصابه وانقباض نفسه فى مدى العشرين أو الأربعين أو الستين أو الأكثر من ذلك من الدقائق التى يقضيها كل مساء وصباح مخترقا هذه المجارى الآدمية الممتدة فى الحاضرة - حتى لو كانت تبلغ من الكفاية ما تبلغه تلك الموجودة فى لندن أو باريس ، أو تبلغ من الترف مبلغ تلك الموجودة فى موسكو ؟ وعلى النقبض من ذلك ، فإن السير على الأقدام إلى مكان العمل ولو مقدار ميل واحد يوميا يكون فى أكثر فصول السنة باعثا على القوة ، ولا سيما فى حالة من يؤدون عملهم جالسين ، وهم أولئك الذين يقومون بدور كبير فى مكاتب الحاضرة ومصانعها بالعمل على الآلة الكاتبة ، وآلة سبك حروف الطباعة سطورا مصفوفة ، وآلة الخياطة ، وأمام خزانة الأضابير .

ولو أنه أنشئت فى منطقة الحاضرة مراكز فرعية على أساس أن يكون الانتقال فيها سيرا على الأقدام ، لتسنى تفادى شطر لا بأس به من مصاعب النقل الحضرى .

وفى المدن المتعددة المراكز والتى قضى فيها على المركزية إلى حد ما ، مثل لندن ، عن طريق إعادة تقسيمها إلى مراكز شبه مستقلة بإدارة شئونها ، حصل أربعون فى المائة من السكان الذين يبيتون فيها على أعمال فى داخل نطاق مراكزهم المحلية ، وذلك طبقاً لما ذكره وسترجارد (Westergard) ، وللقيام بالرحلات الضرورية فى أرجاء الحاضرة على وجه سريع وواف بالغرض ، يجب الإقلال من عدد الرحلات التى لا ضرورة لها - وكذلك من مقدار طولها الذى لا ضرورة له : ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا يجعل مكان العمل قريباً من البيت ، ولبلوغ هذه الغاية ، يكون مشروع

باربيكان (Barbican) في لندن تنمة لا بد منها لسياسة المدن الجديدة ، وإن كان لسوء الحظ لم يفكر فيه إلا عندما بلغت نسبة السكان حداً قد يؤدي إلى فشل الغاية المنشودة منه .

وما ينطبق على حالة غدو الناس إلى مركز المدينة ورواحهم منه يومياً ، ينطبق سواء بسواء على حالة نقل البضائع ، وذلك أن الازدحام لا يقتصر أثره على مجرد أنه يؤدي إلى بطء مرور البضائع في الشوارع ، بل إنه يؤدي كذلك إلى زيادة الوقت اللازم للتفريغ ، وكلاهما يؤدي إلى رفع قيمة التكاليف . والواقع أن تضاعف عدد سيارات النقل القادرة على بلوغ سرعة كبيرة قد أفضى إلى الزيادة المطردة في تأخر النقل وإلى ازدياد التكاليف . فطبقاً للدراسة أجريت في سنة ١٩٠٧ ، كانت المركبات التي تجرها الخيول تتحرك بسرعة يبلغ معدلها ١١.٥ ميلاً في الساعة ، واليوم تزحف السيارات بمعدل ستة أميال في الساعة بالقياس إلى متوسط ساعات النهار ، وحتى هذه السرعة سوف تزداد انخفاضاً تبعاً لازدياد نسبة كثافة المباني في فقدان الواحد . وأما عن تكاليف مثل هذا الازدحام ، فقد قدر - مع مراعاة التحفظ - بمبلغ ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار في السنة في خلال عشرينيات هذا القرن . والآن يتعين دفع أجر نقل إضافي على البضائع التي تنقل من أحد أقسام نيويورك إلى قسم آخر فيها ، ويبلغ المجموع الكلي للتكاليف - بعد إضافة إتاوة النقابات التي يؤيدها رجال العصابات وتسيطر على حرفة النقل وشحن السفن - يبلغ ذلك المجموع من الضخامة ما يماثل الأبعاد الفلكية .

وإذا كانت تكاليف الازدحام في الحاضرة تبلغ حداً يبعث على الذعر ، فإن نفقات تخفيف الازدحام تبلغ على السواء حداً مخيفاً . وفي الولايات المتحدة ، نجد أنه - بفضل تواطؤ السلطات البلدية وحماستها - ينتشر في نواحي الريف شطر من السكان يزداد عدده دائماً باطراد ، سعيًا كما رأينا

وراء الظروف الملائمة للحياة العائلية ، ووراء الاتساع وحرية الحركة ، فقد أصبح لا سبيل إلى كل ذلك في قلب المدينة ، وأملا كذلك - ولكن هيات - في أن انخفاض قيمة الأرض والضرائب في المناطق المتطرفة سوف يبقى بصفة مستديمة حتى بعد القيام بعمل الإصلاحات المدنية الضرورية . وفي جميع أنحاء العالم ، نجد أن هذا النوع بعينه من الانتشار الحضري يجري الآن بسرعة كبيرة . وقادة هذا الانتشار ، في محاولتهم التغلب على الازدحام ، قد تصرفوا كما لو كان الاتساع الذى لا حد له بديلا يغنى بصفة فعالة عن مجتمع محكم التنظيم ومحكم التخطيط .

والعامل الرئيسى الذى يحول دون أن يكون هذا الانتشار بأسره عشوائيا ، هو : طرق النقل السريع والطرق المتصلة بها التى جعلت ذلك الانتشار ميسورا ، فهى بمثابة المداخل التى تساعد على نفث الغبار الحضري إلى مسافة أكثر بعدا عن المركز بعد إزالة الطبقة العليا من تربة الحياة المشتركة . ويلاحظ أحد المعلقين الحديثين في كتاب « المدينة المهجورة » أنه « يبدو أن التكنولوجيا تدأب على الاندفاع باستمرار نحو توفير وسائل السرعة العالية التى سوف تدفعنا في اتجاه يزداد على الدوام بعدا عن المدينة » . ويبلغ من مدى ذبوع المشاركة في هذا الرأى أن الكاتب لا يكلف نفسه عناء دعمه بالشرح والتفسير ، ومن ثم فإنه لا يفسر السبب في أن اندفاع التكنولوجيا وحده يجب أن يحدد حاجات الإنسان ، وأن يعتبر الغاية العليا التى ينبغي أن تنحني أمامها جميع الأغراض البشرية الأخرى . ومن شأن محاولة القيام بمثل هذا التفسير إثارة الشك في المقدمات ، بل العقائد المقدسة ، التى بنى عليها نظام الحضارة الاقتصادية .

٨ - الوعاء المنفجر

ينبغي أن يكون قد أصبح واضحا الآن أن الازدحام في الحضارة والاتجاه نحو التوسع هما في الواقع حركتان تكمل إحداهما الأخرى ، ولو أنهما

تمثلان مرحلتى البداية والنهاية فى دورة المدينة العظمى . فالخواضر الرئيسية فى العالم كانت تمثل ألوانا من التركيز الضخم للقوى السياسية والمالية والتكنولوجية التى نمت غالبا على هذا الترتيب . وعلى مرور الزمن ، ساعدت على نمو الخواضر تجمعات دينية وتعليمية تعادل تلك القوى فى ضخامتها . وقد بلغ من شأن الأثر الفعال لهذا الاحتكار ، ومن شأن رسوخ هذا الأسلوب فى التحكم ، ومن شأن وفرة ما عاد به من مغام ، أنها حجبت مؤقتا ما يعانى الناس من جراء الازدحام فى الخواضر ، وأن الأحوال التى كان ينبغى أن تكون وصمة عار غدت تقريبا شارة تشريف .

ومن الغريب أن أكبر عامل لتبرير الازدحام فى الخواضر قد مرّ دون أن يسترعى الأنظار تقريبا ، فقد نشأ عن نشاط هذه القوى أن المدينة الكبيرة كانت فى القرن التاسع عشر ، بحكم حجمها وتنوع سكانها ، وسيلة تشجع على قيام هيئات لم يسبق قيامها إطلاقا على نفس هذا النطاق ، ونفى بذلك هيئات جماعية وجمعيات تضم أفرادا متماثلين فى آرائهم ، يتابعون ألوانا من النشاط تتناول كل ناحية من نواحي الحياة البشرية . وإلى هذا الحين كانت الكنيسة والجامعة والمدرسة والقنابة ، هى المراكز الأساسية لألوان النشاط الجماعية ، وذلك فضلا عن المدينة ذاتها . ولكن منذ أوائل عهد النهضة أخذت هذه الجماعات الجديدة تزدهر واتخذت أوضاعا عديدة مختلفة ، على هيئة جمعيات علمية ، ومتاحف ، وأندية اجتماعية ، وشركات تأمين ، وأحزاب سياسية ، وجماعات اقتصادية ، وجمعيات تاريخية ورابطات زمالة من جميع الأنواع .

وإذا كانت الحاضرة فى القرن التاسع عشر تتسم بفرديتها ، فلإنها كانت فى الواقع أكثر انساما بتنوع هيئاتها الجماعية الاختيارية ومدى مجال هذه الهيئات . وإذا رجعت إلى قائمة الأندية والجمعيات الواردة فى الأقسام المبوبة بدليل التليفون الخاص بمدينة أمريكية كبرى ، فإن ما تجده من

العدد الهائل للهيئات ذات الأهداف هو إلى حد ما ، نتيجة فرعية للتجمع في الحاضرة ، وتظل هذه الهيئات مزدهرة مادام يتسنى لعدد كبير من أعضائها أن يلتقوا دون مشقة في اجتماعات أسبوعية أو شهرية على الأقل . وإزاء وجود هذه النواة القوية للمشاركة ، تيسر قيام منظمات أوسع نطاقا ذات مجال قوى ودولى .

وكما أن تركيز السلطة السياسية والاقتصادية في القلعة نشأ عنه ظهور منظمات حضرية وفوائد اجتماعية لم تكن بين الأهداف المباشرة التي رى إليها الحكام ، فإن تكاثر الأندية والجمعيات على هذا الوجه أفضى إلى نتائج ماثلة : ومهما يبلغ اتساع الحاضرة فإنه في وسع المرء أن يجد فيها على الأقل نفرا من الأشخاص المتماثلين في آرائهم ليزكوا أى دعوة يمكن تصورها ويوالوها بالسهر والرعاية . وقد أسدى هذا خدمة جليلة للتقدم الإنسانى ، وإن شطرا ليس بالضئيل من الفضل في المقدرة الخلاقة والقدرة الإنتاجية ، مما عزى إلى مبتكراتنا التكنولوجية ومنظمتنا الصناعية ، يتسنى إرجاعه في المقام الأول إلى هذه الأجهزة الوفيرة العدد .

وموجز القول أنه على الرغم من أن الازدحام قد اتجه نحو كبس أو تحطيم التكوين العضوى لمناطق الجوار والمجتمعات الصغرى ، فإنه أعان على إيجاد أجهزة جديدة ذات طابع أكثر تخصصا وتدقيقا في الاختيار . وقد جعل وجود هذه الأجهزة أمرا ميسورا ، أنها في متناول عدد كبير من السكان إلى درجة غير مألوفة . ولهذا الحقيقة أثر هام في إعادة إنشاء المدن والمناطق في المستقبل .

وإننا لنواجه الآن حالة ليس لها ، فيما أعلم ، سابقة في التاريخ ، فعلى الرغم من أن وعاء الحاضرة قد انفجر ، فإن مراكز الجاذبية المشروعة ما زالت تحتفظ إلى مدى كبير بقوة جاذبيتها الأصلية . وفي كل منطقة من

مناطق الحواضر ، يفيض سيل السكان فينتشرون في مناطق جديدة من الضواحي ، فيما يلي الحواضر وفي الريف ، بسرعة تفوق السرعة التي يتراكون بها في الخزان الموجود عند المركز . ومع ذلك فإن الخزان نفسه ، أى قلب الحاضرة ، ليس في طريقه إلى النضوب . وبعد فإنه في سنة ١٩٤٠ ، كان يبدو متوقعا بصفة قاطعة أن يستمر انخفاض معدل الزيادة في عدد السكان حتى يصل إلى الاستقرار في سنة ١٩٨٠ في أكثر من دولة واحدة ؛ فثلا كان الانخفاض يسير بخطى وثيدة ثابتة في إنجلترا إلى درجة أن أرقى المشروعات التي وضعت للبناء بعد الحرب ، اتخذت من انخفاض عدد السكان في المدن أساسا جوهريا - ومعينا - لإعادة البناء طبقا لنمط أقل اكتظاظا .

ولكن كلا من المعدل العام والمعدل الحضري للنمو قد طرأ عليه تحول مفاجيء في خلال العشرين السنة الأخيرة ، حتى في مناطق بلغ التصنيع فيها مستوى رفيعا ، واقتزن ذلك بحركة أشد اتجاهها نحو الارتفاع في مناطق متخلفة اقتصاديا . ولقد ساعد على هذا الاتجاه في بلاد أكثر رقا من الوجهة التقنية ، ما حدث من التحول في العمل بوجه عام ، من الاشتغال بالزراعة والصناعة إلى الانخراط في سلك الوظائف العامة ومزاولة الأعمال المهنية . وفي حالات معينة ، كحالة لندن ، كانت زيادة الفرص التي أتاحتها نواحي النشاط الإداري سببا في زيادة تأثير ما للمدينة من جاذبية نموذجية بما تهيئه من فرص للتنافس في الإنفاق ، وبما يتوافر فيها من مغريات على الاستهلاك . وقد كان لهذا أثر فعال في مقاومة ميل كثير من الصناعات نحو الانتقال إلى الريف ، بل إنه في الحقيقة أدى في إنجلترا إلى اجتذاب الصناعة من المناطق الصناعية المعتمدة في لانكشير وويست ريدنج ، ولو لإرضاء هيئة الموظفين الإداريين والفنيين وزوجاتهم :

ونتيجة لذلك لم يحدث انخفاض جوهري في عدد سكان الحواضر ، أ

فما عدا ما كان نتيجة وقتية للدمار أو الإخلاء في أثناء الحرب ، بل الأصح أن ما حدث كان على عكس ذلك . بيد أن أسرع معدل للنمو كان في المناطق المتطرفة ، وقد اتسع نطاق المشكلة الحضرية بأسرها من جراء ما حدث من أن المدن الريفية والمراكز الإقليمية - وهي التي كان يتسنى لها في الغالب أن تفخر بأن ما لديها من نظم للإسكان ، واتساع للحدائق ، ومناطق للزهة يسهل الوصول إليها ، يفوق ما لدى المدينة الكبيرة - أصبحت هي ذاتها بؤرا للمزيد من النمو السائد في الحواضر . وقد بدأت تظهر في هذه المدن عين وجوه القصور في البيئة ، وعين الاختلال في الميزانية ، وعين الإنفاق على خطط آلية سريعة للإصلاح بدلا من الإنفاق على إصلاحات إيجابية رشيدة على نحو ما تفعل منافساتها الأكبر منها ذات الماضي الطويل . ولذلك فإن الوضع الجديد - وضع المدينة العظمى - يوشك أن يصبح عاجلا وضعا عاما .

والأمر الهام الذي يجب أن ندركه عن هذه العملية بأكملها ، هو أنه إذا كانت وسائل النقل السريع والاتصال الفوري قد غيرت معيار التطور الحضري ، فإنها إلى الآن لم تغير النموذج الحضري ذاته . والواقع أن هذا التغير الواسع المدى أخذ يجري في داخل إطار حضري فات أوانه ، وأن هذه الضروب من التقدم التكنولوجي السريع أخذت تسعى وراء أهداف فات أوانها أو أهداف إنسانية بدائية ، فهذه هي حقيقة طبيعة المرحلة الأخيرة في انحلال المدن العظمى ، كما تتضح سواء في تخطيطات المدن التي توضع يوما بعد يوم ، أم في الخطط النهائية التي تدبر لإبادة الجنس البشري بوسائل ذرية وبكثيرة وكيميائية . وحتى الزيادة المفرطة في معدل المواليد قد تكون من أعراض هذا التدهور ، لأنه - كما لاحظ و . م . هويلر عن مجتمعات الحشرات - يقترن التوالد المفرط بتوقف نواح أخرى من النمو البيولوجي . ومع ذلك فإن استمرار الحاضرة في التوسع والامتداد إلى حد التحول

إلى تجمع حضري ضخم ليس له شكل معين ، وتكاثر هذه التجمعات الحضرية واتساعها ، تكشف جميعاً عن سوء الحالة التي تواجه كل مجتمع الآن . ومن ثم فإنه لا أمل في الظن بأن هذه المشكلة مما يتسنى للسلطات المحلية أن تجد لها حلاً ، حتى إذا توافر لها من القدرة والسلطة الضخمة ما يتوافر لدى مجلس محافظة لندن ، كما أنها ليست من المشكلات التي يمكن معالجتها بنجاح عن طريق مجرد توسيع نطاق الحكم المحلي بإنشاء حواضر ذات حكومات محلية ؛ فقد أنشأت فيلادلفيا مثل هذا الجهاز الإداري منذ عهد مبكر يرجع إلى منتصف القرن التاسع عشر ؛ ونرتب على ذلك تحويل مقاطعة كبرى إلى مدينة ، ولكن أغلب الأجزاء التي تألفت منها ظلت مدة طويلة لا تزيد على أنها قرى صغيرة . وهذه المنطقة التي تتولى إدارتها حكومة الحاضرة ، لا يمكن تمييزها الآن من تلك التي بقيت دون توحيد إلا حيث أسعد الحظ الأخيرة بأن كان استقلالها سبباً في الاحتفاظ لها بنصيب أوفر من الفردية والحكم الذاتي . وليست المشكلات الداخلية للحاضرة والمناطق الملحق بها إلا انعكاسات حضارة موجهة بأسرها نحو التوسع بوسائل منطقية وعلمية صارمة لتحقيق أغراض أصبحت تزداد باطراد حملاً وتفاهة ، واتساعاً بطابع الطفولة والبدائية ، ونزوعاً إلى الوحشية ، ومنافاة لأحكام العقل إلى مدى بعيد :

وهذا أمر يجب معالجته من أساسه ، غير أن أغلب مشروعاتنا الحالية — بما فيها تلك التي من شأنها أن تفرض بلاميز نوعاً من نظم الإدارة السياسية حتى على مناطق حضرية أوسع نطاقاً — مثلها مثل من يحاول أن يعيد إلى بركان فيزوف ما طفح منه بعد ثورانه ، أو مثلها مثل ما لا يقل عن ذلك بعداً عن الواقع من الادعاء بأن الأرض التي لفحتها اللحم البركانية لا تحتاج إلى أكثر من جمعها في حقول أكبر اتساعاً لاستغلالها استغلالاً مشمراً باتباع نهج جديد في الزراعة .

وليس في وسعنا أن نصل إلى تجديد المدينة عن طريق الاستبدال بمنشآت قديمة مباني جديدة ليس من شأنها إلا دعم النموذج الذى فات أوانه لنمو المدينة ، ولا تعتمد إلا على ما فات أوانه كذلك من الأسس الايديولوجية « للتقدم الميكانيكى » . وما دامت العوامل الحالية تظل ماضية في نشاطها ، فإن المنطقة التى يسودها سوء النظام الحضرى سوف تظل ماضية في الاتساع ، وفى خلال عملية الاتساع بلا حد ، استجابة لعامل « الاندفاع التكنولوجى » والرغبة فى الحصول على الربح العاجل ، سوف تندمج ماديا كل حاضرة بجارتها . وسيترتب على هذا الاندماج ، أن تفقد كل حاضرة المنظر الطبيعى الذى يجاورها والذى تفيد منه فى التعليم والتزه ، كما تفقد معه ما تبقى لها من الفردية الحضرية .

وعلى ذلك فإن ذات المحاولة للهروب من التضخم تسد كل المسالك على نفسها ، وما من شيء يتسنى حدوثه فى هذا الطراز الجديد للمجتمع المنحط عن المستوى الحضرى ما لم يكن ذلك عن طريق تنظيم شامل يتولى تنفيذه جهاز موحد تسيطر عليه قيادة مركزية . ونظراً إلى أنه لن تعود هناك أهمية للمكان الذى يوجد فيه مركز هذا التحكم عن بعد ، فإن المسوغ الأخير لوجود المدينة الكبرى سيزول فى عين الوقت الذى تتخذ فيه شكل تجمع حضرى لا حدود له ، وعند هذا الحد سوف يكون المسرح مهياً لظهور « رجل ما بعد التاريخ » .

وإن أولئك الذين يظنون أنه لا بدليل من هذا المصير الحضرى المحتوم ، وأنه ليس فى قدرة البشر الإفلات منه ، قد ثبت أنهم على صواب فى تقديرهم لما يحتمل وقوعه . ولكن إذا صح هذا ، فسوف يكون سببه أن قدرة أبناء هذا العصر على إدراك العوامل التاريخية قدرة محدودة ، وأن فهمهم لوظائف المدينة يشوبه العجز والقصور ، وأنه يسيطر عليهم ميل ساذج نحو المغالاة فى تقدير قيمة الوسائل التكنولوجية دون نظر إلى تلاؤمها

مع الأغراض البشرية . وهم في الواقع ضحايا ميتافيزيقا شبه علمية لا تستطيع تفسير العمليات العضوية ولا المعاونة على تقدم الحياة الإنسانية .

و ذات العيوب التي تشوب الأيديولوجية السائدة بين قادتنا سوف يكون من شأنها أن تؤدي إلى تحقيق تنبؤاتهم ، وهذا يبررون خططهم العقيمة . ومن السخرية القذرة أن المتحكمين أنفسهم ابتدعوا جهازاً جماعياً لا سبيل في الواقع إلى التحكم فيه ، فإذا ما بدأ عمله لا يستطيع طراز العقول الذي ابتدعه أن يتحكم فيه . وهم يعززون أنفسهم عن هذا العجز بالفكرة الغريبة القائلة « بأنك لا تستطيع إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء » ولكن هذه الاستعارة التي أسىء اختيارها تكشف عن الخطأ الأساسي ، فمن ذا الذي يثق في أن تدور بدقة ساعة يتعذر إرجاع عقاربها إلى الوراء ، ساعة لا يتسنى ضبطها إلا لغرض واحد - وهو أن تدور بمزيد من السرعة ؟

وكلما ازداد اتسام منظمتنا بالطابع التلقائي ، ازدادت الحاجة إلى نظام للضبط ، وهذا النظام على غرار نظام الساعة ، يجب أن يضبط وفقاً لمقياس أساسي خارجي مستقل عن الجهاز ، وهو في حالة الساعة عبارة عن دوران الأرض ، وفي حالة المنظمات الإنسانية ، طبيعة الإنسان بأكملها ، وليس مجرد ذلك الجزء منها الذي سحرته الوسائل الميكانيكية وأصبح خاضعاً لاحتياجاتها هي . وكذلك الشأن فيما يتعلق بالمدن ، فإنه لتصحيح وجوه النقص في مدينتنا التي تجاوزت المدى في استخدام الوسائل الميكانيكية ، يتعين علينا أن نقيم نظاماً للتحكم متعدد المراكز ، مع النهوض بمستوى الأخلاق والإدراك واحترام النفس إلى حد يمكننا من وقف العمليات الأوتوماتية - الميكانيكية والبيروقراطية والتنظيمية - عند أي نقطة تتعرض فيها الحياة البشرية للخطر ، أو يكون فيها الإنسان مهدداً بضيايع القيم وضيايع حقه في الاختيار .

٩ - مصير المدينة العظمى

عندما نتتبع نمو حضارة المدن العظمى حتى نهايته ، نصل إلى مجموعة كاملة من العمليات الختامية ، وإنه لمن السذاجة الاعتقاد بأنه من المتوقع بأى وجه من الوجوه أن تستمر هذه العمليات باقية إلى ما لا نهاية ، فإن حياة خالية من أى معنى أو قيمة أو غرض ، فيما عدا المحافظة على استمرار حركة التنفس وحشو المعدة ، لى حياة لا تفضل إلا قليلا الحياة فى رثة حديدية ، وهى الحياة التى لا نطاق إلا لأن المريض لا يزال يراوده الأمل فى الشفاء والنجاة .

والنظام القائم فى الحواضر ينذر الآن بأن يبلغ ذروته فى حرب بلا معنى ، حرب إبادة شاملة ، غرضها الوحيد تفريج ضروب القلق والخاوف الناشئة عما أثقلت به القلاع نفسها على نطاق واسع من أسلحة الإفناء والإبادة ، وعلى ذلك فإن السلطة المطلقة قد أصبحت فى الواقع عديمة مطلقة . فإن الإفراط فى إتقان الوسائل العلمية والتكنولوجية دون أن تهذبها قيم الإنسانية وأهدافها ، قد فرض على بلاد مثل الولايات المتحدة وروسيا أن تنصرف إلى توفير أجهزة جماعية للدمار ، يبلغ من عنوها أنه لا يمكن تعديلها أو التحكم فيها بغير تدميرها تدميراً كاملاً . وحتى ما لدى الحيوان من ذكاء فطرى يظل عاطلاً فى هذا النظام ، فإن الارتباط بالوسائل الميكانيكية يقضى على جميع ما يصون الحياة بما فى ذلك القانون القديم - قانون صيانة النفس . فى سبيل سرعة الانتقال ، نقوم نحن فى الولايات المتحدة كل عام بقتل ٤٠,٠٠٠ نسمة على القور ، وبإصابة مئات الألوف من غيرهم بعاثات خطيرة . وفى سبيل التمتع بالسيادة الذرية المطلقة ، فإن زعماءنا مستعدون فى صفاقة للتضحية بما يتراوح بين خمسين وخمسة وسبعين مليوناً من مواطنهم أنفسهم فى اليوم الأول لحرب ذرية شاملة ، ولتشويه

الجنس البشرى أو حتى القضاء عليه ، وهو ما يحتمل أن تنتهى إليه مثل هذه الحرب . ومع ذلك فإنه تستخدم لتغطية هذه المشروعات الجنونية عبارة مضللة وهى « الأمن القومى » أو حتى عبارة أكثر منافاة للعقل وهى « البقاء القومى » .

وبعد فإنه فى كل كائن حى تحدث على وجه مستديم عمليات تكون الأنسجة وتحللها ، أى عمليات البناء والهدم . ولا تعتمد الحياة والنمو على انعدام الظروف السلبية ، بل على درجة كافية من التوازن ، وقدر واف من فيض الطاقة البناءة ، بما يتيح استمرار إصلاح العطب ، واستيعاب ضروب التجديد ، وتنظيم المقادير ، وإنشاء صلات الأخذ والعطاء مع جميع الكائنات والمجتمعات الأخرى ، وهى الصلات التى يحتاج إليها الاحتفاظ بالتوازن . وقد كان من المحتمل أن تهيئ العوامل السلبية فى حياة الحواضر الظروف الملائمة للوصول إلى درجة أرقى من التقدم لو أن ظروف التوسع ذاتها لم تكسبها السيطرة ، ولم تتجه نحو جعل هذه السيطرة دائمة فى عمليات تزداد على الدوام إمعانا فى التخريب .

وعند كتابة « حضارة المدن » فى أواسط ثلاثينيات هذا القرن ، كانت العوامل الخارجية التى تهدد مدنية الحواضر واضحة بجلاء ، وقد بلغ من وضوحها أنى عند تلك المرحلة من التجليل ، بسطها فى قالب « تخطيط موجز للجحيم » . ولقد حاولت حينئذ أن أزيد الصورة وضوحا بتقديم ملخص لتفسير باتريك جيديس لدورة النمو الحضرى ، من قرية (ecopolis) إلى مدينة عظمى (megapolis) ومدينة للمقابر (necropolis) . ولقد اشتملت هذه الدورة على وصف مجرى حياة جميع الحواضر التاريخية ، بما فى ذلك تلك التى بعثت من جديد من أطلالها وقبورها : وحتى عند ما نشر الكتاب فى سنة ١٩٣٨ ، بدا هذا التصوير للأوضاع فى نظر أكثر من ناقد واحد أنه متطرف فى التشاؤم ، بل إنه منحرف فى تطرفه وسقيم فى بعده

عن الواقع : وكان الكثيرون على يقين إذ ذاك من أنه لم تكن تهدد العالم الغربي مخاطر أسوأ من البطالة المزمنة ، وفوق كل شيء كانوا على ثقة من أن الحرب والتدمير الشامل للمدن أمران جد بعينين عن الاحتمال .

وأما اليوم فإنه من بين أجزاء الفصل الذى كتبته أصلا عن الحاضرة يوجد جزء واحد لا تيسر إعادة نشره إلا بوصفه طرفة تاريخية ، وهو بالضبط هذا « التخطيط الموجز للجحيم » ، وما ذلك إلا لأن جميع تنبؤاته قد أكدت صحتها أدلة وافية . ومع أنه من الطبيعى ألا يعود بعيننا أمر نبوءة تحققت ، إلا أنى أستعيد ذكرى هذه الواقعة الثابتة لثلاثي يعمد القارئ إلى نبذ التصوير الحالى لحالتنا التى بلغت حداً يبعث حتى على مزيد من الرعب - لثلاثي يعمد القارئ إلى نبذ هذا التصوير تحت تأثير ثقة مماثلة بأنه غير واقعى . وأود أن أذكر القارئ بأنه بأسرع مما كان الإنسان يتصور ، ازداد التوتر ووقعت الحرب ونزل التدمير الشامل بوارسو فى سنة ١٩٣٩ ، وبوسط روتردام فى سنة ١٩٤٠ . وفى بحر خمس سنوات ، دمرت مناطق حضرية أوسع نطاقاً من ذلك بكثير تدميراً كاملاً ، وأبيدت جموع كبيرة من السكان من لندن إلى توكيو ، ومن هامبورج إلى هيروشيا . فضلاً عن ملايين الناس - ستة ملايين من اليهود وحدهم - الذين قتلهم الألمان عن طريق الإجاعة والإحراق فى معسكرات الإبادة التى أقاموها فى ضواحي المدن ، فإن مدناً بأكملها حولت إلى معسكرات إبادة على يد الاسترانيجين الديمقراطيين ممن تجردوا من المبادئ الخلقية ، فالقتل على غير هدى ، والموت إلى غير مدى ، خلعا طابعهما الختامى على الحقائق التى ينطوى عليها توسع المدينة العظمى .

وعلى الرغم من أن الدمار كان واسع المدى ، فإنه لحسن الحظ بقيت رقعات كبيرة سليمة التكوين . وبفضل مجهود ضخيم لتجميع الموارد والمساعدات السخية التى قدمها مشروع مارشال (Marshall Plan) للكثير

من البلاد ، أمكن الاضطلاع بنجاح بالعبء العظيم لإعادة بناء المدن وأنظمة النقل . وفي بعض الأحيان ، كان ذلك يتخذ شكل واجب عاطفي قوامه جعل التقليد أساسا لإعادة البناء بحيث يكون « صورة من الماضي » ، كما حدث في حالة كثير من المدن الألمانية ، وأحيانا أخرى ، كان ذلك يؤدي إلى محاولة جريئة لتخليص طراز عتيق من شوائبه ، كما حدث في إعادة بناء شربورج . وأحيانا ، كما حدث في روتردام أو في كوفنترى ، نراه قد تحول إلى مجهود كبير لإكساب قلب المدينة شكلا جديدا من شأنه أن ينصف - عن طريق أوضاع عصرية بمخاديفها - قيا تقليدية أهملت في القرن التاسع عشر . وفي بلدين ، وهما إنجلترا والسويد ، بذلت جهود أكبر من ذلك للوصول إلى إيجاد نموذج حضري جديد من شأنه الابتعاد عن التجمع الآلى في المدينة الكبيرة وعن توسعها على وجه آلى كذلك . ولقد ثبت بصورة وافية في حالة « المدن الجديدة » في إنجلترا ، أن من الميسور عمليا توجيه النمو الحضري والتحكم فيه في مجتمعات متوازنة مكثفة بذاتها نسبيا .

وما يلفت النظر أن إعادة تعمير مدن أوروبا على نطاق واسع وعلى مستوى أعلى مما وصلت إليه في الماضي ثم في أقل من اثنتي عشرة سنة ، وما حدث من حشد الجهود على منوال يكاد يفوق طاقة البشر ، قد أثبت أن إعادة بناء المدن وتجديدها على نطاق أوسع من ذلك بكثير ، قد يتسنى القيام به في غضون جيل واحد ، على شريطة أن يكون النظام الاقتصادي موجها نحو الحاجات الإنسانية رأسا ، وألا يكون الشطر الأكبر من الدخل للقوى محولا إلى وجوه الإهمال في التبيد الاستهلاكي وخطط التدمير المدبرة ، مما يتطلبه نظام الحواضر الاقتصادي - ذلك النظام الآخذ في التوسع - وتطلبه فوق كل شيء الاستعدادات المتواصلة للإبادة والانتحار الجماعيين .

ولسوء الحظ أنه حالما انتعشت الحياة الاقتصادية وعادت إلى متابعة أهدافها الأصلية ، عادت كذلك إلى الظهور جميع خصائصها المنافية للعقل ، فإنه لكي تستمر هذه الحياة في سيرها ، يجب أن يستنفد من طاقاتها قدر يزايد على الدوام في الاتساع والضخامة . وإن ما في الخرافة الشائعة - خرافة المدن العظمى - من النواحي المنافية للعقل لم يكشف النقاب عنه على صورة أنم وأوضح مما تجلى في تطور ما تسمى أسلحة « مطلقة » للإبادة التي لا حد لها بوسائل ذرية وبكثيرة وكيميائية . وإن إنشاء هذه الأسلحة في « الدول الذرية » قد أكسب « رغبة الموت » مكانة سياسية قومية ثابتة ، وجعل الغاية المثالية لهذه المدينة بأسرها ، تحويل العالم إلى معسكر للإبادة .

وحتى لو اتخذت الأمم التدابير قبل قوات الأوان لتدمير المختزن من أمثال هذه الأسلحة ، فإنه سوف ينقضى وقت طويل قبل أن تبدد الآثار الخلقية الويلة الناجمة عن هذه السياسة ، فإن جناح البالغين على نحو لم يقف عند حد التفكير فحسب ، بل امتد إلى الاعداد الفعلية بكل التفصيلات ، يحتاج إلى اتخاذ تدابير علاجية مضادة قد تقتضى مرور قرن بأكمله قبل أن تظهر لها أى نتيجة إيجابية . وهذا آخر وأسوأ تراث خلفته القلعة المحاصرة المدن . اقرأ (« البنناجون » و « الكرملين ») .

وفي بحر بضع سنين قليلة ، وصلت مدينتنا إلى النقطة التي تنبأ بها هنرى أدامز (Henry Adams) منذ أكثر من نصف قرن بمقدرة غير عادية على اختراق حجب الغيب ، فقد كتب يقول : « تبعاً لسرعة سير التقدم منذ سنة ١٦٠٠ سوف لا يحتاج الأمر إلى أكثر من قرن أو نصف قرن لكي ينقلب التفكير رأساً على عقب . وفي تلك الحالة سوف يزول القانون بوصفه نظرية لما قواعد ، أو مبدأ يأخذ بترتيب النتائج على الأسباب ، ويحل مكانه للقوة ، ويصبح زمام الأمور بيد الشرطة ، وتبلغ قوة المتفجرات من الشدة ما يماثل عنف الطبيعة ، كما أن الانحلال سوف يتغلب على

التماسك . ولقد تحقق كل جزء من هذه النبوءة ، وإنه لمن العجب التأمل فيما يكون عليه مستقبل المدن إذا لم ندخل في اعتبارنا عوامل الإقناء والإبادة التي تعمل الآن بطريقة تكاد تكون آلية ، وبسرعة يزداد معدلها باطراد على الدوام ، لإحداث انهيار أعم وأوسع اشتمالا .

فدنية الحاضرة إذن يتجسد فيها التناقض الأساسي الذي وجدناه راسخا من قبل في مجرى حياة المدينة منذ اللحظة إنشائها ، وهي تتولى الوصول به إلى نهايته ، وهو تناقض ناشئ عن الأصل المزدوج للمدينة ، وعن تضارب أهدافها على الدوام . فالمدينة تستمد من القرية طبيعتها ، بوصفها بيئة ترضى أبنائها وتكفل لهم أسباب الحياة وتتسم بالاستقرار والأمان ، وتقوم على الصلات المتبادلة بين الإنسان والكائنات والمجتمعات الأخرى . وهي تستمد أيضا من القرية الأساليب والقيم السائدة في حياة ديمقراطية خالية من تفاوت الطبقات ، حيث يقوم كل فرد بأداء دوره المناسب في كل مرحلة من مراحل دور الحياة .

ومن الناحية الأخرى فإن المدينة تدين بوجودها ، وإلى حد أكبر بتوسعها ، لمحاولات مركزة لإخضاع أفراد آخرين والسيطرة على البيئة بأسرها عن طريق استخدام القوة الجماعية . وهكذا تحولت المدينة إلى مرفق بجمع السلطة بتدبير من رجال الملك الذين كانوا يتولون جمع الطاقات الموزعة للمجتمعات الصغيرة في مستودع جبار يقوم بتنظيم الحركة الجماعية لتجمعها وانسيابها ، وبتوجيهها وجهات جديدة - فحينما ينحصر بعنايته الوحدات الصغرى عن طريق الإحسان إليها بإعادة تشكيل صفحة الأرض ، ولكنه في النهاية يقذف بجميع طاقاته إلى الخارج في هجمات مدمرة يسلطها على مدن أخرى . فالإطلاق والاستعباد ، والحرية والقهر ، كانت جميعا موجودة في حضارة المدن منذ البداية .

ولقد تولدت عن هذا التوتر الداخلي بعض المظاهر الخلاقة التي تعبر عن

الحياة الحضرية ، ولكننا لا نجد السلطة السياسية موزعة على نسق سليم في المجتمعات الصغيرة كما كانت الحال في هولندا أو سويسرا في خلال القرن السابع عشر ، أو المثل العليا للحياة جادة على الدوام في كبح جماح المظاهر الشاذة للقوة ، لا نجد هاتين الظاهرتين إلا في حالات متفرقة وبين حين وآخر . ومثل مدينتنا الحاضرة مثل سيارة ضخمة تنطلق في طريق ذى اتجاه واحد بسرعة لا تفتأ تزداد باستمرار . ولسوء الحظ أن هذه السيارة بالحالة التي هي عليها في الوقت الحاضر ، تنقصها عجلة القيادة والضوابط (الفرامل) ، وليس لدى السائق ما يباشره من وجوه التحكم سوى وجه واحد ينحصر في جعل السيارة تنطلق في سرعة أكبر ، إلا أنه في افتتاحه بالسيارة ذاتها ، وفي ارتباطه بتحقيق أقصى سرعة ممكنة ، قد نسي تماما الغرض من الرحلة . وهذه الحالة من الاستسلام العاجز للأجهزة الاقتصادية والتكنولوجية التي ابتدعها الرجل الحديث ، تستخفي على وجه غريب في زى التقدم والحرية ، وسيطرة الإنسان على الطبيعة . ونتيجة لذلك أصبح كل ترخيص إكراهاً سقيماً ، فالإنسان الحديث قد قهر كل مخلوق فوق مستوى الفيروس والجراثيم - إلا نفسه .

ولم يسبق إطلاقاً أن كان « للقلعة » مثل هذه السلطة الغاشمة على بقية الجنس البشرى ، فعلى مدى الشطر الأكبر من التاريخ ظلت القرية ونواحي الريف مستودعا دائماً لحياة جديدة . وهى حياة وإن كانت حقاً مقيدة بقواعد سلوك الأسلاف التي عاينت على جعل الناس يتسمون بصفات إنسانية ، إلا أنها كانت تتصف في آن واحد بما في الإنسان من نواحي النقص وما لديه من إمكانيات . ومهما تكن أخطاء حكام المدينة ووجوه انحرافهم فإنها مع ذلك كان يمكن إصلاحها ، وحتى إذا قضى على جميع سكان بعض المناطق الحضرية ، فإن أكثر من تسعة أعشار الجنس البشرى كانوا يبقون بمنأى عن الهلاك . أما اليوم فقد ولى هذا العامل من

عوامل الأمان ؛ إذ أن انفجار الحواضر سيحمل ما فيها من سموم فكرية وكيماوية إلى كل ناحية من نواحي الأرض ، وقد لا يتسنى لإصلاح العطب النهائي .

وإني لأعيد القول بأن هذه الاحتمالات النهائية لم تظهر للعيان لأول مرة عند استعمال الأسلحة الذرية ، فقد كانت واضحة أمام ذوى العقول اليقظة النيرة مثل بوركاردت (Burckhardt) في ستينيات القرن التاسع عشر ، ومثل هنرى أدامز في أوائل القرن الحالى .

وهنرى جيمس ، الذى كان معاصراً لأدامز ، قد صور الموقف الإنسانى على نحو ما زال يطابق الواقع إلى اليوم على وجه غريب ، وهو صورة الأسرة السعيدة والمكنة الجهنمية ، فقال : « إن المكنة قد تغلغلت جذورها إلى مدى يتعذر معه اقتلاعها ، والأسرة ما زالت سادرة عن خطر ما يهددها من النسف في أثناء مضيقها في مباشرة شئون الأسرة من شراء وبيع ، ومن لغو ورقص » . وقد كانت المكنة التى يشير إليها جيمس هى الجهاز السياسى فى فيلادلفيا ، وكان إذ ذاك الصورة النموذجية للجسم للفساد والإجرام ، ولكن ما من أحد سوى مراقب سليم الطوية إلى حد بعيد يمكن أن يعجز عن إدراك أن تلك الصورة تنطبق على أجهزة أخرى فاسدة فى مدينة حواضرنا الآخذة فى الاتساع . وإن ما كانت فى وقت ما مظاهر محلية للإجرام ومنافاة العقل ، أصبحت الآن تهدد كوكبنا بأسره ، مقنعة بزهو وخيلاء فى ثوب مشروعات تجارية سديدة ، أو تقدم تكنولوجيا ، أو كفاية شيوعية ، أو براعة سياسية ديمقراطية . فلا عجب أن الوجوديين المعروفين - وهم يمثلون عصرنا - يرون أن « الحقيقة » صنو « السخافة » . وأن شطرا كبيرا من أعمال التصوير والنحت فى الجيل الماضى ، ليتنبأ رمزياً بنتائج الكارثة النهائية التى تنشأ عن هذه الحضارة الموجهة نحو الموت ، وذلك بتقديم صورة للبتر وتقطيع الأوصال والتجريد من الصفات الإنسانية على نحو شامل فى فراغ خال من الحياة والمعالم . وبعض الأعمال الممتازة

التي أنتجها هذا الفن - مثل الأشكال العتيقة التي رسمها هنري مور (Henry Moore) على هيئة أشخاص رؤوسهم كروؤوس الدبابيس - تنبأ ببداية جديدة على مستوى يبلغ من بدائيته أن العقل يكاد لا يكون قد بدأ يعمل بعد .

وبعد ، فلو أن الصورة في جملتها كانت تبلغ من البشاعة الحد الذي رسمته في هذا الفصل ، لما كان هناك مسوغ لكتابة هذا الكتاب ، أو على الأصح ، لكان عملا منافيا للعقل كالكثير من الأعمال الأخرى العقيمة والمنافية للعقل التي أشرت إليها . وإذا كنت قد قت بما ينبغي من إبراز ما في مرحلة الحواضر الكبرى من ألوان الانحلال ، فإن ذلك لم يكن إلا لسبب واحد - وهو أن أولئك الذين يلمون بها ستتوافر لهم وحدهم القدرة على توجيه طاقتنا الجماعية نحو عمليات أكثر اتساما بالروح البناءة . فلم يكن أبناء القرن الخامس للميلاد من الرومان المتعصبين ، الذين ظلوا يفاخرون بما قامت به روما من جلائل الأعمال ، ويتطلعون إلى القيام بمثلها على مدى ألف سنة أخرى ، لم يكن هؤلاء ليدركوا ما كان الموقف يتطلبه ، بل على التقيض من ذلك ، فإن أولئك الذين نبذوا الأسس الرومانية وأنشأوا حياتهم على أساس جديد ، هم الذين أقاموا صرح مدينة جديدة تفوقت في النهاية على أعظم ما قامت به روما ، حتى في مجال الهندسة ونظام الحكم .

وهكذا الشأن اليوم ، فإن أولئك الذين يعملون في غمار خرافة الحاضرة الكبرى ، ويعتبرون ما فيها من أورام سرطانية مظاهر عادية للنمو ، سوف يعمدون إلى الاستمرار في استخدام «الكماشات» والمراهم ، ورقى الإعلانات ، وسحر العلاقات العامة ، وتدجيل ألوان العلاج الميكانيكي ، إلى أن يقضى المريض نحبه أمام عيونهم العاجزة ، وإن قدرا ليس بالقليل من ضروب إصلاح المدن وتحسين حالتها ، التي كانت تجري في خلال مائة السنة الأخيرة ،

ولم تكن أقل من ذلك شأنًا ، تلك التي جرت خلال الجليل الأخير - من هدم المنازل الفقيرة ، وإقامة مساكن نموذجية ، وإدخال ألوان من التجميل المعماري ، وتوسع في إنشاء الضواحي ، « وتجديد حضري » - لم يؤد إلا إلى الاستمرار ، تحت أشكال جديدة في ظاهرها ، في عين التجميع بلا هدف ، وعين التفكيك العضوي ، وهو ما كان قد حفز إلى تلمس العلاج .

إلا أنه في وسط كل هذا التصدع ، ظهرت مراكز جديدة للنمو ، بل أكثر من ذلك دلالة ، أنه بدأ يظهر في الوجود نموذج جديد للحياة . ومن البديهي أن هذا النموذج يقوم على أساس يختلف اختلافا جوهريا عن الأسس التي أخذ بها بناء القلعة القديمة ، أو تلك التي اعتمد عليها مناظروهم المحدثون ، بناء الصواريخ والمبيدات الذرية . فإذا استطعنا أن نبين الخطوط الرئيسية لهذا النظام الواسع الأفق والموجه نحو الحياة ، فإنه يكون في وسعنا أيضاً أن نصف طبيعة ووظائف المدينة الآخذة في الظهور ، وكذلك النموذج المقبل لاستقرار الإنسان . وفوق كل شيء يجب أن نسبق ما سوف يجري في الفصل التالي في مسرحية الحياة على شريطة أن ينبجوا الجنس البشرى من شرك الموت الذي نصبه له ارتباطنا الأعمى بنوع من التكنولوجيا مختل التوازن ، هدفه القوة ، وعمله مضاد لطبيعة الحياة .

١٠ - دور المدينة العالمية في الحضارة

بعد مواجهة أسوأ الاحتمالات أصبحنا في النهاية في موقف يسمح لنا بإدراك الوظيفة الإيجابية للحاضرة التاريخية لا بوصفها مركزاً لنظام قوى أو استعماري ، بل من حيث ما هو أجل شأننا من ذلك بكثير ، وهو الدور الذي يمكن أن تؤديه بوصفها مركزاً عالمياً . وهي إذ تسير على غير هدى لأداء هذا الدور الأساسى الذى لم يتحقق أدواه إلى الآن ، قد حاولت أن تحقق ، بمجرد القيام بتكديس قوى ووظائف ومنظمات ، ما لا سبيل إلى تحقيقه إلا بإعادة التنظيم من أساسه .

والدوافع الواعية التي أفضت إلى تركيز مثل هذا القدر الكبير من القوة في بضعة مراكز عظمى ، لا تكفى لتعليل ما لهذه المراكز من قوة جاذبية هائلة ، أو ما لها من تأثير في حضارة هذا العصر ، والحقيقة هي أن ما في الحضارة من تضخم وازدحام ، له في الواقع مسوغ أبعد غورا ، ولو أنه لم يتكشف على وجه تام ، وذلك أنها مركز لتلك الضروب من النشاط التي تقوم لأول مرة بجمع كل قبائل وشعوب الجنس البشري في مجال مشترك من التعاون والتأثير المتبادل . وما قاله هنري جيمس عن لندن يمكن أن يقال كذلك عن منافساتها الكبرى ، وهو أنها « أكبر تجمع في حياة البشر ، وأكمل صورة مجمة للعالم ، فالجنس البشري ممثّل هناك على وجه أفضل منه في أى مكان آخر » . ورسالتها الجديدة هي أن تنقل إلى أصغر الوحدات الحضارية موارد الحضارة التي تؤدي إلى وحدة العالم وقيام التعاون بين أرجائه .

وعلى ذلك فإن ذات الصفات التي كانت تجعل الحضارة تبدو على الدوام في مظهر غريب وعدائى معاً في نظر أهل المناطق الداخلية ، هي جزء أساسى من وظيفة المدينة الكبرى ، فقد جمعت معاً ، في داخل نطاق ضيق نسبياً ، ما في الحضارات من تنوع وتباين ، فهنا يتسنى أن توجد ، بمقادير رمزية على الأقل ، جميع الأجناس والحضارات مصحوبة بلغاتها ، وعاداتها ، وأزيائها ، وطرق الطهي الخاصة بها ، وهنا التي يمثلو الجنس البشري وجهاً لوجه لأول مرة على أرض محايدة . فما في الحضارة من تعقيد وحضارة جامعة ، يتمثل فيه ما في العالم بأسره من تعقيد وتنوع . فقد كانت العواصم الكبرى ، على غير وعى منها ، تقوم بإعداد الجنس البشري لما هو أوسع نطاقاً من ضروب الترابط والتوحيد ، التي جعلها ماتم حديثاً من قهر الزمن والقضاء ، محتملة الوقوع إن لم تكن محتومة .

وهنا نجد أيضاً السبب الخوهري لإنشاء المتحف وهو أكبر منظمات الحضارة دلالة عليها ، فهو عكس على حياتها المثالية ، شأنه في ذلك شأن

الجيمنازيوم في المدينة الهيلينية أو المستشفى في مدينة العصور الوسطى . وقد نشأ المتحف نتيجة لذات الاحتياجات التي اقتضاها نمو الحضارة إلى حد بالغ التطرف .

ولم يكن ثمة مفر من أن تنتقل إلى المتحف كثير من الخصائص السلبية التي اتسمت بها الحضارة ، مثل ولعها بالافتناء على غير هدى ، وميلها إلى الإفراط في التوسع وإلى سوء النظام ، وعادتها في قياس نجاحها بعدد الذين يلجون أبوابها . وكثيراً جداً ما يحدث أن يستعاض بالحجم المادي عن التنظيم الوافي بالغرض - كما هي الحال في سوق العمل - وأن يخلط بين التوسع الميكانيكي وبين أهميته . إلا أن المتحف في شكله المعقول لا يقتصر على أنه مثل مادي لدار الكتب ، بل إنه يقوم أيضاً - عن طريق نماذج وأمثلة منتقاة - بمهمة وسيلة للإحاطة بأحوال عالم من شأن ضخامة اتساعه وتعمده أن يعز على قدرة الإنسان الإحاطة بها بغير تلك الوسيلة . والمتحف على هذا النحو المعقول ، بوصفه أداة للاختيار ، يؤدي لحضارة المدن خدمة لا غنى عنها ، وعندما نصل إلى بحث إعادة تكوين المدن تكويناً عضوياً ، سوف نرى أنه ستكون للمتحف مهمة جديدة في النظام الإقليمي لا تقل عن مهمة دار الكتب ، والمستشفى ، والجامعة . وفي المعارض المتنقلة والأقسام الفرعية ، شرعت كثير من المتاحف فعلاً - تخطي بعض ما فيها من نواحي النقص الأصلية الممثلة في التكدر والتضخم .

يبد أنه إذا كانت المدينة الكبيرة صاحبة الفضل الأكبر في ابتداع المتحف ونشر فكرته ، فإن ثمة ناحية تكون إحدى المهام الرئيسية للمدينة فيها قيامها بدور المتحف ، وذلك أن المدينة التاريخية بحكم وضعها الطبيعي ، وبسبب اتساعها وماضيها الطويل ، تحتفظ بمجموعة من النماذج الحضارية أوسع نطاقاً وأكثر تنوعاً مما يتسنى وجوده في أي مكان آخر . فكل نوع من وظائف الإنسان ، وكل تجربة من تجارب الترابط ، وكل عملية

تكنولوجية ، وكل أسلوب للعمارة والتخطيط ، يمكن العثور عليه في مكان ما في داخل نطاقها المزدحم .

فهذه الضخامة ، هذه المقدرة على الاحتفاظ ، هي إحدى القيم العظمى التي تتوافر للمدينة الكبيرة . فامتداد مدى التجارب الإنسانية في الحاضرة الدينامية التي لا تزال تحتفظ بعنفوانها ، يناظره مدى كثافة سكانها وعمق محتوياتها ، وقدرتها على تسهيل الوصول إلى طبقة بعد أخرى من تاريخ البشر وقصة حياتهم ، وليس ذلك عن طريق سجلاتها وآثارها الخاصة بها فحسب ، بل عن طريق مناطق بعيدة تمكنها من إمدادها الخاصة من الإفادة منها . وإن مدينة تبلغ من التعقيد وتعدد النواحي ما تبلغه مدينتنا لحي في حاجة إلى منظمة حضرية وطيدة من هذا القبيل ، تكون قادرة على اجتذاب ملايين عديدة من المخلوقات البشرية ، والاحتفاظ بهم متعاونين تعاوناً وثيقاً ، ليتسنى لها المضي في القيام بكل وجوه نشاطها . ولكن الناحية التي تهيج للمدينة المقدرة على الإحاطة والإدماج من الوجهة الحضارية ، تجعلها عن طريق ذات مقتضيات التكثيف والتخزين ، وسيلة للاستيعاب والاختيار . ولو أن جميع عناصر حضارتنا كانت متفرقة إلى مدى يجاوز الحد ، وكان ما يتصل بها من الحقائق والمخلفات يتعذر جمعه في مكان واحد ، وتصنيفه ، وإعداده لإعادة توزيعه ، لما تسنى أن يكون لها إلا جزء يسير من الأثر الذي تحدثه .

وإذا كانت المدينة الكبيرة أفضل جهاز للتذكر استطاع الإنسان أن يبتدعه إلى الآن ، فإنها أيضاً — إلى أن تصبح مكسدة ومختلة النظام إلى حد الإفراط — أفضل وسيلة للتمييز ومقارنة القيم بعضها ببعض ، وليس ذلك لجرد أنها تعرض مثل هذا القدر الكبير من موضوعات الاختيار ، بل لأنها كذلك تكون عقولا واسعة الأفق ، قادرة على معالجتها . نعم إن الإدماج وكثرة العدد كثيراً ما يكونان ضروريين ، ولكن كثرة العدد لا تكفي ،

فإن فلورنسا وهى تضم نحو أربعمائة ألف نسمة ، تؤدى من وظائف الحاضرة أكثر مما تؤديه كثير من المدن الأخرى التى تضم عشرة أمثال ذلك العدد . وإحدى المشكلات الرئيسية التى تواجه حضارة المدن اليوم ، هى زيادة مقدرة الوعاء على الاستيعاب دون جعل التركيب المادى يتحول إلى كتلة ضخمة متماسكة تقضى على نفسها بنفسها . وإنه لمن المحال تجديد قرارة قلب الحاضرة دون الإقدام على تغيير أوسع مدى بكثير ، على مستوى إقليمي ، وارتباط الأقاليم بعضها ببعض .

١١ - المدينة الخفية

وثمة ناحية أخرى فى إعادة التنظيم على هذا الوجه لكيان الحاضرة المعقد ، وهى ناحية تتصل بتجريد المنظمات القائمة من صفاتها المادية أى بآثيريتها ، ونعنى الناحية التى سبق أن كانت إلى حد ما سبباً فى إيجاد المدينة الخفية ، وهى فى ذاتها صورة للإعراب عن أن العالم الجديد الذى شرعنا نعيش فيه ليس مفتوحاً من ناحية السطح فحسب ، إلى مدى يتجاوز بكثير الأفق البادى أمام العيون ، بل إنه مفتوح أيضاً من الناحية الداخلية ، حيث تخرقه أشعة وانبعاثات غير منظورة استجابة لمؤثرات وقوى تستعصى رؤيتها على السبيل العادى للملاحظة :

وكثير من الوظائف الأصلية للمدينة - وكانت أصلاً احتكارات طبيعية تتطلب الوجود المادى لجميع العناصر المشتركة فيها - قد تحولت الآن إلى أوضاع يمكن نقلها بسرعة ، واستنساخها بالوسائل الميكانيكية ، وإرسالها إليكترونياً ، وتوزيعها فى جميع أرجاء الأرض . فإذا كان يتسنى لقرية نائية أن تشاهد عين الصور المتحركة أو تستمع إلى عين برنامج الإذاعة أسوة بأعظم المراكز ضخامة ، فإنه لم يعد لأحد حاجة إلى الإقامة فى ذلك المركز أو إلى زيارته من أجل المشاركة فى ذلك النوع المعين من النشاط .

وبدلاً من ذلك يجب العمل على إيجاد صلة متبادلة بين أصغر الوحدات وأكبرها ، بحيث تكون هذه الصلة قائمة على قيام كل منها بالوظيفة التي تنفرد بالصلاحية لها ، وإذ ذاك تصبح المدينة الظاهرة للعين ، المكان الذى لا غنى عنه لتجميع تلك الوظائف التى تؤدى على خير وجه عند تراكبها أو انتظام بعضها بالقرب من بعض ، أى تكون مكاناً تعقد فيه الاجتماعات ، وتجرى المقابلات ، وتقع المنازعات ، على نحو ما يحدث بين الشخصيات ، فتعزز شبكة الأعمال الهائلة غير المشخصة التى تنتشر الآن فيما حولها وتعيدها من جديد إلى المقاييس الإنسانية .

وليسمح لى بأن أبدأ تناولى أكثر علاقات المدينة الخفية تجرداً بضرب مثل يوضح العلاقة الجديدة بجلاء ، وهو مثل صغير ولكنه دقيق . وذلك أن الكثير من الأمثلة الرائعة المبكرة للتصوير على الجدران توجد متناثرة فى جميع أرجاء فرنسا ، وكثيراً ما توجد فى قرى وأديرة نائية ، وطبقاً لنظام الحواضر القديم ، كان مآل الكثير من هذه الصور أن تنقل - وكان يترتب على ذلك إصابتها بالتلف فى أحيان كثيرة - من موقعها الأصلى وتوضع فى متحف بباريس . وكان من شأن هذا العمل أن يخلف فجوة فاعرة فى المكان الأصلى ، وأن يحرم الأهالى ملكية أشياء لها قيمتها من الوجهتين المحلية والاقتصادية ، دون أن ينشأ عن وجودها فى باريس أى أثر للمعنى الحقيقى لوجودها فى موقعها الأصلى . أما اليوم فقد تم تنفيذ برنامج أفضل من ذلك ، إذ أنه جمع متحف الصور الحائطية بقصر شايو (Palais de Chaillot) عدد كبير من النماذج الرائعة المنقولة عن تلك الصور . وفى فترة ما بعد الظهر من يوم واحد يستطيع المرء أن يرى صوراً أكثر مما يتسنى له أن يراها دون إجهاد فى خلال رحلة تستغرق أسبوعين . وخدمة لمن يريدون إلاماً أوفى بالصور الأصلية فى مواقعها ، وضعت بيانات للتعريف بالصور ومواقعها ، وبذلك أصبح الوصول إليها أيسر مثلاً دون أن تفصل سفلها عن مكانها الأصلى والغرض الذى عملت من أجله .

وهذه هي الخطوة الأولى نحو أنثيرةٍ أعم وأشمل ، ولما كانت لوحات فانوس العرض الملونة قد أصبحت الآن ميسورة ، فإنه يتسنى المضي في العملية إلى مدى أبعد ؛ إذ أن متحف أو دار كتب أى مدينة صغيرة تستطيع اقتراض لوحات مجموعة أكبر عدداً من صور الحيطان ، والقيام بعرضها . فقد ولى عهد الاحتكار المحلى البدائي عن طريق العزلة ، وولى عهد احتكار الحاضرة عن طريق الغصب والاستغلال . وسوف يحتذى هذا المثل في عشرات من ضروب النشاط الأخرى ؛ إذ أن الرسالة المثالية للمدينة هي العمل على توسيع نطاق هذه العملية الخاصة بنشر الحضارة وإذاعتها ، وسوف يكون من أثر ذلك أن يعود إلى كثير من المراكز الحضرية الثانوية في الوقت الحاضر ، عدد من مختلف ألوان النشاط التي سلبت منها في وقت ما واحتكرتها المدن الكبرى وحدها .

وهذا الإيضاح له فائدة بالغة القيمة نظراً إلى أن فكرة قيام المتحف بمهمة دليل يرشد إلى الموارد الإقليمية ، أكثر منه بمهمة بديل عنها ، ظهرت تلقائياً ، ويكاد يكون من المحقق أنها لم تكن وليدة أى تفكير في إيجاد نظام مثالي للتعاون فيما بين المدن . وفي مجال الصناعة والأعمال التجارية ، ظهرت في خلال الجليل الأخير قرائن كثيرة على أن عمليات مماثلة تأخذ مجراها في سبيل توسيع ونشر ، وإلى حد ما توزيع وظائف كانت إلى الآن مركزة تركيزاً شديداً في بضعة مراكز . وذلك أن سلسلة من المصارف المالية . والأسواق ، والمخازن التجارية الكبيرة ، والفنادق ، ووحدات المصانع ، قد وضع نظامها على أساس انتشارها في جميع أنحاء البلاد ، وعلى الرغم من أن الغرض من هذا الانتشار هو — كما جرت العادة على نحو أكثر مما ينبغي — إنشاء احتكارات مالية وضمان أرباح لا يمكن مزاحمتها ، وأحياناً لمجرد إفساح المجال لأنانية شرهة ، فإن طريقة التنظيم ، وبخاصة في مناطق الحواضر ، تدل على أن العملية تسير وفقاً للنظام الذي تسير عليه كثير من ألوان

النشاط الأخرى . ومن شأن الوسائل التقنية ، التي طورت لكي تحقق التحكم الشامل ، أن تكون صالحة كذلك لنظام اقتصادي يكفل وجود نشاط أكثر استقلالاً في داخل الوحدة الصغيرة ، وقيام نظام متبادل ذي شقين ، للاتصال والتوجيه .

فلم يكن من قبيل المصادفة إذن أن الوظائف القديمة للوعاء الحضري قد أضيفت إليها وظائف جديدة تؤدي عن طريق ما سوف أسميه الشبكة الوظيفية (functional grid) — وهي إطار المدينة الحفية . وعلى مثال الوعاء القديم ، فإن الشبكة الجديدة في جميع أوضاعها ، الصناعية والحضرية والحضرية ، يمكن إحسان استعمالها وإساءته على السواء ، ولكن ما له دلالة أكبر من ذلك هو أن هذا الوضع قد ظهر في عديد من الأماكن المختلفة كاستجابة طبيعية لحاجات الوقت الحاضر . فالصورة الجديدة للمدينة يجب أن تعبر إلى حد ما عن هذه الحقائق الجديدة . وعلى هذا الأساس نجد أن كلا من الحاضرة القديمة والتجمع الحضري الجديد قد أخفق إلى حد يبعث على الأسف ، لأنهما اتبعا نحو محور العناصر الأساسية التي تتكون منها المدينة بدلا من العمل على إدماجها فيها .

وفي الناحية التكنولوجية ، يوجد لدينا في أنظمة القوى المحركة والمواصلات ، مثالان من أكمل الأمثلة لهذه الشبكة الجديدة ، ويتجلى ذلك بوجه خاص في مركم القوى الكهربائية ، فإن نظاماً مركزياً لتوليد القوى تكون له قدرة محدودة جداً على الامتداد ؛ إذ أنه عند تجاوز نقطة معينة لا يقتصر الأمر على أن تكون الكميات التي تفقد عن طريق النقل كميات باهظة ، بل إن عطلا في المحطة المركزية أو عطباً محلياً في أسلاك النقل ، قد تنشأ عنه مصاعب كبيرة في كل مكان . وأما مركم القوى الكهربائية ، فإنه على النقيض من ذلك ، يكون على الأصح عبارة عن شبكة من محطات

القوى ، بعضها كبير ، وبعضها صغير ، بعضها يدور بقوة الماء ، وبعضها بالفحم ، وهذه المحطات موزعة في أرجاء منطقة كبيرة كثيراً ما تبلغ مساحتها آلاف الأميال المربعة . وإذا كان لا يتسنى لبعض هذه المحطات بمفردها أن تقوم بأكثر من تغذية المنطقة التي توجد فيها ، فإن قدرة بعضها الآخر أوسع مدى من ذلك :

وتتمتع كل وحدة في هذا النظام بقدر معين من الاكتفاء الذاتي والتوجيه الذاتي يكفي لمواجهة الظروف العادية ، ولكنها لما كانت جميعاً متصلة ببعضها بعضاً فإنه تتألف من الوحدات شبكة كاملة يتسنى لأجزائها ، على الرغم من أنها مستقلة نسبياً ، أن تعمل عند الحاجة كمجموعة وتعوض ما يوجد من نقص في أى منطقة معينة . وإذا نشأت الحاجة في أى نقطة من نقاط الشبكة ، فإنه يمكن الاعتماد على الشبكة في مجموعها لسد تلك الحاجة . وعلى الرغم من أن الكل تحت تصرف الجزء ، فإن المنتفع المحلى هو الذى يحدد متى يستخدم ومدى ما يؤخذ منه . وما من محطة مركزية لتوليد القوى ، مهما تكن كبيرة ، يمكن أن يتوافر لها من الكفاية أو المرونة أو الضمان ما يتوافر في الشبكة الكاملة ، كما أنها لا تستطيع أن تزداد في النمو إلا باتباع نسق الشبكة .

وهذا النسق ليس نسقاً تكنولوجياً بحتاً ، فإن له نظيراً في مجال الثقافة ، وبخاصة في نظام الاستعارة الذى تتبعه دار الكتب القومية في إنجلترا . فإذا كان المستعير من دار فرعية للكتب في مدينة صغيرة لا يجد هناك الكتاب الذى يحتاج إليه ، فإن في وسعه أن يقدم طلباً يرسل إلى دار الكتب المركزية الإقليمية القائمة في المدينة الرئيسية بالمقاطعة ، ولدى هذه الدار قائمة بجميع دور الكتب المتعاونة في الإقليم ، والتي يمكن الاستعانة بها في حالة عدم وجود الكتاب في دار الكتب المركزية الإقليمية . وإذا أخفقت هذه الوسيلة ، فإن الطلب يرسل إلى المركز القومى الذى يهيمن على جميع موارد دور الكتب المتعاونة :

وعلى ذلك فإنه دون أن توجد في متناول اليد دار كتب محلية كبيرة ، فإن أى وحدة بمفردها في هذا النظام ، تجد تحت تصرفها عند الحاجة مجموعة من الكتب الأوفر عدداً بكثير مما تستطيع حتى أكبر المدن أن تقدمه للمستعيرين المحليين . وبفضل ما لدينا الآن من وسائل لعمل الفهارس والاستنساخ والنقل السريع ، فإنه يمكن أن يتسنى لقرية ريفية الحصول على تسهيلات للدراسة والبحث لا يتسنى إلا لعدد قليل من الحواضر أن يفاخر بمثلها — على الأقل — إذا كانت الأتم تبدى من السخاء بنحو ميزانيات دور الكتب نصف ما تبديه الآن نحو المعدات الحربية .

ولنلق بالآ إلى النهج الجديد في كلا المثلين ، فإن الموارد الكبيرة لم تعد تتوقف على التكديس الطبوغرافى أو على التحكم المركزى الخاطئ ، ففي كلتا حالتى مكرم القوى الكهربائية ونظام الاستعارة من دور الكتب ، تصبح أقصى التسهيلات في متناول اليد ، لا عن طريق تكديسها معا ، بل عن طريق الربط بينها في نظام يمكن من استخدامه بمفرده — ما دام يفعل ذلك عن طريق وحدة معدة لهذا الغرض في المنطقة المحلية — أن يفيد مما يريده من الموارد طبقا لما تدعو إليه الحاجة . وهذا الشرط الأخير له أهمية جدية بالملاحظة ، فإن مثل هذه التسهيلات ليس من الميسور اقتصاديا تدبيرها ، لو أن الفرد حاول بمجهوده وحده أن يسد حاجاته عن طريق التعامل عن بعد مع المركز الرئيسى ، فإن النظام بأكمله لا يمكن أن يودى عمله بكفاية إلا عن طريق الانتشار والاتصال : ولمثل هذه الشبكات مزية أخرى ، وهى أنها لا تهى لوحدات ذات أحجام مختلفة أن تستفيد فحسب ، بل أن تفيد المجموع بما لها من مزايا تنفرد بها ، وعلى ذلك فإن داراً صغيرة للكتب تحتوى على مجموعة نفيسة من المخطوطات ، لا حاجة بها إلى التنازل عنها للمنظمة الأكبر منها لكي تتحقق من استخدامها على وجه ملائم ، أى إنه يتسنى لها أن تكون جزءا من المجموع ذا أثر فعال ، فتبدى مطالب ،

وتنقل رغبات ، وتؤثر في قرارات ، دون أن تبطلها المنظمة الأكبر حجماً .
وهذا الوضع يعيد إلى كل إقليم استقلاله الذاتي الملائم دون أن يعوق - بل
إنه في الحقيقة يشجع - العمليات العامة .

وهنا نموذج للكوكبة الحضرية الجديدة ، يوفر لها القدرة على الاحتفاظ
زوايا الوحدات الصغيرة ، مع التمتع بالمجال الواسع النطاق لنظام الحواضر ؛
ففي عالم محكم النظام أن توجد حدود مادية أو ثقافية أو سياسية لمثل هذا
النظام التعاوني ، فإن من شأنه أن يخترق الحواجز الجغرافية والحدود القومية
بمثل السهولة التي تخترق بها الأشعة السينية المواد الصلبة . وإذا توافر لمثل
هذا النظام حتى ما يتوافر حالياً من أسباب التيسير لنقل الصور برقياً وكذلك
للتنقل السريع فإنه يتسنى له مع مرور الزمن أن يشمل الكرة الأرضية بأسرها .
ومتى تحررت التقنيات من الاستعدادات الباهظة التكاليف التي تجرى على
نطاق واسع من أجل إبادة الناس ، وهو ما يستحوذ الآن على تفكير الدول
والامبراطوريات الكبرى ، أو تخلصت من الاتجاه البغيض نحو إنتاج سلع
للبيع يعتمد في الغالب إلى أن تصبح عتيقة الطراز قبل الأوان وتعود بربح
عاجل ، فإنه يتسنى وجود تسهيلات وفيرة لإحكام مثل هذه الوشائج
الواسعة النطاق بين الحضارات ، وسوف تكون الأداة الرئيسية هي المدينة
الإقليمية الجديدة ، في صورتها الظاهرة والخفية .

وإن هذا يشير إلى طريقة لتوفير طبيبات المدينة وتوزيعها ، وهي طريقة
أكثر أصالة من الطرق المتبعة في الحاضرة التاريخية أو في التجمع الحضري
الذي ظهر في العصر الحاضر . وإن ما في المدينة من وجوه القصور الأصلية
التي فرضت عليها في وقت ما بموجب احتكارها للمواصلات والتحكم
السياسي ، لا يمكن التغلب عليه بمجرد زيادة الأعداد ، أو بمجرد التوسع
في الطرق والمباني . فما من سبيل لتحسين حال المدينة تحسيناً جوهرياً بغير
إعادة تنظيم عملياتها ووظائفها وأهدافها ، وبغير إعادة توزيع سكانها في

وحدات تكفل التعامل مع بعضها بعضاً على أساس أن تعطى بقدر ما تأخذ ، وقيام علاقات ودية وثيقة فيما بينها ، وخضوع الحاجات المحلية لإشراف محلي . والشبكة الكهربائية ، وليس وعاء العصر الحجري ، هي التي تمدنا بالصورة الجديدة للمدينة الخفية والعمليات العديدة التي تؤيدها وتعين عايتها . والتحول المترتب على هذا التطور لن يقتصر على نموذج المدينة ذاتها ، بل سيشمل كل هيئة ، ومنظمة ، وجمعية تتألف منها المدينة . فالجامعات ودور الكتب والمناحف الكبرى ، إذا كانت تملك القدرة على تجديد نفسها ، فإنها قد تتولى زمام القيادة في هذا الابتكار الجوهري ، على غرار ما فعله أسلافها في إنشاء المدينة القديمة .

وإذا كنت قد وفقت في تفسير الحقائق على الوجه الصحيح ، فإنه في متناول يدينا كل المواد اللازمة لبناء نظام حضري جديد ، ولكن الاحتمال كبير بأن الأنظمة السياسية القائمة سوف تستمر في إساءة استخدام هذه المواد والانحراف بها عن السبيل السوي . وما زال المستقبل ينذر بالشر من جراء التوسع الجسيم فيما لدينا حالياً من الوسائل الميكانيكية الأليكترونية دون إحداث أى تغيير في هدفها الاجتماعي ، أو القيام بأى محاولة نحو تحويل إنتاجها إلى ما هو أسمى إعراباً عن الترابط الإنساني . وإنه لمن الواضح أن بلاداً مثل روسيا السوفيتية — في مناعة من الوجهة النظرية إزاء ما في المشروعات الرأسمالية المعاصرة من ألوان المغريات وضروب الفساد المألوفة — عرضة للتأثير بعين المغريات — وإن توارت خلف أقنعة من الفضائل — لتشجيع المضي في دعم سيادة البيروقراطية والسلطة المركزية على حساب الروابط الإنسانية الحرة والتطور الذاتي المستقل .

يبد أن الأمل الرئيسي المرتقب من وراء هذا النظام الجديد قد أعرب عنه إيمرسون منذ قرن مضى حيث لاحظ أنه « بتأثير مدينتنا وتأثير هذه الآراء تتحول الأرض إلى مخ . انظر إليها كيف تتحول إلى مخلوق بشري

بتأثير التلغراف والبخار ، . ولقد قام تيلهارد دوشاردان (Teilhard de Chardin) في عصرنا الحاضر ببسط هذه الفكرة من عندياته ، إلا أنه لم يدرك الطبيعة الغامضة لمثل هذا الأمل المرتقب ولم ير ضرورة العمل على تفادى هذه الأخطار الجديدة .

إن مدنيّتنا تواجه حركة توسع وتضخم بلا هوادة ولا انقطاع من جانب نظام اجتماعي بالغ التركيز ، يفتقر إلى مراكز مستقلة في وسعها مزاولة الاختيار ، وممارسة التحكم ، وفوق كل شيء القيام باتخاذ قرارات مستقلة ، والتجاوب مع الأحداث . والحل الشافي لهذه المشكلة الكامنة في صميم حضارة مدننا في المستقبل ، يتوقف على تكوين مفهوم للعالم يكون أكثر مطابقة لطبيعة الأشياء ، بحيث لا يغمط حق الكائنات الحية والشخصيات البشرية ، صغبرها وكبرها . ومنذ زمن طويل يدأب على العمل المفكرون الذين سوف يؤدون نحو هذا المفهوم الجوهري والإنساني ما أداه جاليليو ويكون وديكارت نحو مفاهيمنا للعلم والتكنولوجيا ، تلك المفاهيم التي أصبحت اليوم غير وافية بالغرض بل فات أوانها إلى درجة تنذر بالخطر . بيد أن الأمر قد يحتاج إلى قرن آخر أو قرنين من الزمان قبل أن يتسنى للجهود المفكرين أن توثق ثمارها ، فتخلع آلهتنا ، القابضة على زمام تصرفاتنا ، عن عروشها ، وتعيد إلى عالمنا صور الحياة وقواها وأهدافها .

الفصل التاسع عشر

نظرة إلى الخلف ونظرة إلى الأمام

حينما كانت المدينة القديمة في دور التكوين ، جمعت بين كثير من الأجهزة المنفردة في الحياة العادية ، وعاونت في داخل أسوارها على تبادل التفاعل فيما بينها وعلى اندماجها معا . وكانت الوظائف العامة التي تؤديها المدينة ذات أهمية ، بيد أن الأهداف العامة التي ظهرت نتيجة لزيادة سرعة أساليب الاتصال والتعاون كانت أكثر أهمية ، واتخذت المدينة وضعاً وسطاً بين النظام الكورني الذي كشف عنه الكهنة الفلكيون وجهود النظام الملكي للتوحيد . وقد استقر الوضع الأول في داخل المعبد وحرمة المقدس ، واستقر الوضع الثاني في داخل القلعة والأسوار المحيطة بالمدينة . وبفضل إثارة مطامع بشرية ظلت خامدة إلى ذلك الحين ، وجمعها معاً في نواة رئيسية سياسية ودينية ، استطاعت المدينة مغالبة وفرة النسل الهائلة التي اتسمت بها حضارة العصر الحجري الحديث .

وعن طريق النظام الذي استقر على هذا الوضع ، تيسر حل طرائف كبيرة من الناس على التعاون الفعال لأول مرة ، إذ أنه بالانتظام في جماعات منظمة للعمل ، تتولى توجيهها قيادة مركزية ، قام السكان الحضريون الأصليون ، في بلاد ما بين النهرين ومصر ووادي السند ، بالتحكم في الفيضان ، وإصلاح أضرار العواصف ، وتخزين المياه ، وإعادة تنسيق صفحة الأرض ، وإنشاء شبكة عظيمة من القنوات المائية للمواصلات والنقل ، وملء المستودعات الحضرية بما توافر من الطاقات البشرية لاستخدامها في مشروعات أخرى جماعية ، ومع مرور الزمن ، أوجد حكام المدينة وضعاً داخلياً يوفر النظام والعدالة مما هياً للخليط الذي تألف

منه سكان المدن ، عن طريق الجهود الواعية ، قدراً مما في القرية من الخلق المكين والمعونة المتبادلة ، فكانت تمثل على مسرح المدينة ألوان جديدة من مسرحيات الحياة .

يبد أنه يجب أن نضع إلى جانب هذه التحسينات النواحي القائمة التي أسفرت عنها حضارة المدن ، ونعني الحرب ، والاستعباد ، والإفراط في التخصص المهني ، وفي أماكن كثيرة : الدأب على الاتجاه نحو الموت . فهذه الأنظمة وهذه الوجوه من النشاط التي تألفت منها « حالة تكافل سلبي » (negative symbiosis) قد صاحبت المدينة في خلال معظم أطوار تاريخها ، وما زالت إلى اليوم - إذ تنسم بطابع الوحشية مع تجردها من صبغتها الدينية الأصلية - أعظم خطر يهدد المزيد من التقدم الإنساني . وكلتا الناحيتين ، الإيجابية والسلبية ، في المدينة القديمة قد انتقلتا بقدر ما إلى كل تكوين حضري جاء بعدها .

وعن طريق تركيز القوة المادية والحضارية ، زادت المدينة سرعة الاختلاط بين الناس ، وحولت منتجاتها إلى أوضاع يمكن اختزانها ومحاكاتها ، كما أن المدينة استطاعت ، عن طريق آثارها وسجلاتها المدونة وعاداتها المنظمة للتلاقي والتأخي . أن توسع آفاق جميع وجوه النشاط الإنساني وتبسط مداها الزمني تجاه الماضي وتجاه المستقبل . وبفضل توافر وسائل الاختزان (من مبان ، وأقبية ، ومحفوظات ، وآثار ، وألواح ، وكتب) أصبحت المدينة قادرة على نقل حضارة معقدة التركيب من جيل إلى جيل ؛ إذ أنها لم تقتصر على أن تنسق معاً الوسائل المادية فحسب : بل جميع الوسائل البشرية اللازمة لنقل هذا التراث وتنميته . ولقد ظلت هذه الهبة أئمن هبات المدينة . وأجهزتنا الاليكترونية البارة لاختزان المعلومات ونقلها تبدو فجأة محدودة النطاق بالقياس إلى نظام المدينة القائم على أساس بشرى معقد .

وشكل المدينة الذى انبثق من الوحدة المتكاملة الأصلية ، وحدة المعبد والقاعة ، والقرية ، و « الورشة » ، والسوق ، قد استمدت منه إلى درجة ما أشكال المدينة التى ظهرت فيما بعد ، من حيث تكوينها المادى وطرق تنظيمها . وما زالت لأجزاء كثيرة من أجزاء هذا الكيان ضرورة جوهريّة في التعاون الإنسانى الفعال ؛ وليس أقلها شأنًا ما انبثق أصلاً من المعبد والقرية . فبدون المشاركة الإيجابية للجاعة الأولى ، فى الأسرة وفى منطقة الجوار ، يشك فيما إذا كان يتسنى نقل آداب السلوك الأولى - احترام الجار وإجلال الحياة - من الشيوخ إلى الشباب دون زلات تنسم بالوحشية .

ويشك أيضاً من الناحية الأخرى ، فيما إذا كانت هذه الضروب العديدة من التعاون التى لا تصلح للإعراب عنها فى صورة معنوية أو رمزية ، يتسنى لها أن تستمر فى الازدهار بدون وجود المدينة ، وذلك لأنه لا يمكن تسجيل سوى جزء ضئيل مما تشتمل عليه الحياة . ولن يكون نصيب جانب كبير جداً من الحياة سوى التسجيل إذا لم تنضد وجوه عديدة مختلفة من وجوه النشاط الإنسانى - تشتمل مستويات عدة من التجارب - فى داخل منطقة حضرية محدودة ، حيث يمكن الإفادة منها على الدوام . وكلما اتسع مجال الاتصال ، وازداد عدد المشاركين فيه ، ازدادت الحاجة إلى تدبير مراكز دائمة عديدة يسهل غشيانها من أجل الاتصال وجها لوجه ، وتعدد اجتماعات الناس من مختلف الطبقات .

وطبقاً لذلك فإن استعادة القيم ووجوه النشاط الأساسية التى توافرت لأول مرة فى المدن القديمة - وقبل كل شيء فى مدن الإغريق - هو شرط أولى لحصول المدينة على مزيد من التقدم فى عصرنا الحاضر . فإن ما لدينا من الوسائل الميكانيكية البالغة الدقة والإنقان ، لا يمكن أن تغنى عن التخاطب بين الناس ، والتمثيل ، وجماعة الزملاء والخلان النابضة بالحياة ، أى صحبة الأصدقاء . فهذه هى العناصر التى تعين على استمرار نمو الحضارة الإنسانية

وتوالدها ، وبدونها يصبح كل تكوين المدينة الدقيق بلا معنى - بل يصبح في الواقع مناهضا لأغراض الحياة مناهضة فعالة .

ولقد تغيرت اليوم الأبعاد المادية والمجال الإنساني للمدينة ، ولذلك فإن أغلب الوظائف والمنظمات الجهرية في المدينة يجب أن يعاد تشكيلها لكي تقوم على وجه فعال بخدمة الأغراض الكبرى التي يجب تحقيقها ، وهي توحيد حياة الفرد الداخلية والخارجية ، والعمل تدريجاً على توحيد صفوف الجنس البشري ذاته . وإن الدور الإيجابي الذي يجب أن تؤديه المدينة في المستقبل ، هو أن تصل بتنوع وفردية المناطق والحضارات والأشخاص إلى أقصى ذروة من التقدم . وهذه الأهداف يكمل بعضها بعضاً ، وليس ثمة بديل عنها سوى ما هو سائد بفعل الآلات من سحق صفحة الأرض ، وشخصية الإنسان . وبدون المدينة ، لن تكون لدى الإنسان الحديث وسائل فعالة لتدبر عنه هذه الوسائل الميكانيكية الجماعية التي تقف على أهبة الاستعداد ، حتى منذ الآن ، لجعل جميع الوجوه الحقيقية للحياة الإنسانية تغدو زائدة على الحاجة إلا فيما يتعلق بأداء بعض وظائف ثانوية لم تصل الآلة بعد إلى إتقان القيام بها .

وإن عصرنا الحاضر هو عصر حل فيه التوسع الحضري وعمليات الإنتاج التي تزداد تحولاً إلى عمليات أوتوماتية ، مكان الأهداف الإنسانية المفروضة أنها تقوم على خدمتها . وقد أصبحت مقادير الإنتاج هي الهدف الوحيد الذي لا مندوحة عنه في نظر أبناء العصر الحاضر الذين تسيطر على عقولهم فكرة الضخامة ، فهم يقدرون الكم دون الكيف . وفي مجال الطاقة الطبيعية ، والإنتاج الصناعي ، والاختراع ، والمعرفة ، وعدد السكان ، تسود عين الأساليب الجوفاء ، أساليب التوسع والانتشار . وكلما ازدادت هذه الوجوه من النشاط في حجمها وسرعتها ، ازدادت على التوالي إمعاناً في الابتعاد عن أية أهداف إنسانية مرغوب فيها . ونتيجة لذلك أصبح النوع الإنساني مهدداً

بغوائل ضروب من الفيضانات أشد هولاً بكثير مما تعلم الإنسان الغابر كيف يكافحها . فلكنى ينقذ نفسه ، يجب أن يحول عنايته نحو الوسائل التى يستطيع بها أن يتحكم ويوجه وينظم ويخضع لوظائفه البيولوجية وأغراضه الحضارية ، القوى الهوجاء التى من شأنها بحكم وفرتها البالغة أن تهدم حياته . فيجب عليه أن يكبحها ، بل أن يزيلها بتاتا ما دامت ، كما هو الشأن فى حالة الأسلحة النووية والبكتيرية ، تهدد وجوده بالذات .

وليس الأمر اليوم أمر وادى أحد الأنهار هو الذى يجب إخضاعه لتحكم الإنسان ، بل أمر الكرة الأرضية بأسرها ، وليس الموضوع موضوع فيضان الماء على نحو لا يمكن السيطرة عليه ، بل هو موضوع أكثر إثارة للرب وأشد فتكا ، موضوع انفجارات الطاقة التى قد تقوض كل أركان نظام الصلات الطبيعية المتبادلة بين الكائنات الحية وبيئتها ، وهو النظام الذى تتوقف عليه حياة الإنسان نفسه ورفاهيته . وأول ما يحتاج إليه عصرنا هو ابتكار سبل لتصريف الطاقات المفرطة وألوان الحيوية الدافقة التى شدت عن الحدود والقواعد الأساسية . والتحكم فى فيضان الحضارة فى كل ميدان يتطلب إقامة جسور وسدود وخزانات لموازنة مستوى انسياب التيار وتوزيعه فى الأوعية النهائية — وهى المدن ، والأقاليم والجماعات ، والأسر ، والأشخاص — التى سوف تستطيع استخدام هذه الطاقة من أجل نموها وتقدمها . ولو كنا على استعداد لكنى نعيد إلى الأرض صلاحيتها للإقامة فيها ونقوم بغرس النواحي المقفرة فى نفوس البشر ، لوجب علينا ألا نشغل أنفسنا إلى هذا الحد بمشروعات عميمة — هربا من مواجهة الحقائق — لارتياح الفضاء الواقع بين الكواكب ، أو بما هو أكثر إمعانا فى التجرد من الروح الإنسانية من الخطط القائمة على سياسة الإبادة الجماعية الشاملة : ألا لقد حان الوقت للعودة إلى الحقائق ومواجهة الحياة فى جميع مظاهرها الجوهرية — خصبها وتنوعها وقدرتها الخلاقة — بدلا من التهرب إلى عالم إنسان ما بعد التاريخ بأبعاده المنكمشة .

ولسوء الحظ أنه ما زال على الانسان الحديث أن يقضى على ألوان الانحراف الخطيرة التي اتخذت وضع الأنظمة في مدن العصر البرونزى ووجهت أجل أعمالنا نحو غاية مدمرة ، فعلى غرار حكم العصر البرونزى ، مازلنا نعتبر القوة المظهر الأكبر للألوهية ، أو إذا لم يكن الأمر كذلك ، نعتبرها الوسيلة الرئيسية لتقدم الانسان . ولكن « القوة المطلقة » شأنها شأن « الأسلحة المطلقة » ، من حيث الانتماء إلى عين نظام السحر الدينى بوصفها طقوسا تتطلب تقديم الضحايا البشرية ، ومثل هذه القوة تقضى على التعاون المتكافل بين الانسان وجميع مظاهر الطبيعة الأخرى ، وبين الناس بعضهم بعضا . ولا نستطيع الكائنات الحية أن تستخدم إلا قدراً محدوداً من الطاقة ، فزيادة هذا القدر « فوق ما ينبغى » ، وكذلك قلته « دون ما ينبغى » يؤدى كلاهما على السواء إلى هلاك الكيان العضوى . وما الكائنات الحية ، والجمعيات ، وأفراد البشر ، والمدن - على نحو لا يقل شأننا عن ذلك - إلا وسائل دقيقة لتنظيم الطاقة وتسخيرها لخدمة أغراض الحياة .

والمهمة الرئيسية للمدينة هى تحويل القوة إلى نظام ، والطاقة إلى حضارة ، والمادة الجامدة إلى رموز حية للفن ، والتكاثرات البيولوجى إلى قدرة اجتماعية خلقة . ولا يتسنى للمدينة أن تؤدى وظائفها الإيجابية بدون إنشاء أنظمة جديدة تستطيع أن تتولى أمر الطاقات العظيمة المدى التى يسيطر عليها الآن الإنسان الحديث ، أنظمة تبلغ من الحرارة ما بلغت تلك التى أدت أصلا إلى تحويل القرية التى تجاوزت الحد فى نموها ومعها حصنها ، إلى المدينة ذات النواة المركزية والنظام البالغ الدقة .

وربما كان يتعذر تصور هذه التغيرات الضرورية لو أن الأنظمة السلبية التى صحبت ظهور المدينة لم تكن سائرة فى طريق الاضمحلال فى خلال القرون الأربعة الأخيرة ، وبدأت إلى عهد قريب على وشك الانحدار إلى زوايا

النسيان . فنظام الحكم الملكي بموجب الحق الإلهي قد زال تقريباً ، حتى كفكرة دور الاحتضار ، والوظائف السياسية ، التي كان ينفرد بمباشرتها القصر والمعبد مع الاستعانة بوسائل القهر على يد الجيش وطبقة الموظفين ، تولاها في خلال القرن التاسع عشر عدد كبير من المنظمات والهيئات ، والأحزاب ، والجمعيات ، واللجان . وكذلك تحققت أيضاً إلى حد كبير الشروط التي وضعها أرسطو لإلغاء تشغيل الأرقاء ، وذلك نتيجة لتسخير موارد غير عضوية للطاقة وابتكار أجهزة ومرافق أوتوماتية . ومن ثم فقد أخذ يخلف الرق ، والعمل الإجباري ، ونزع الملكية بمقتضى القانون ، والاحتكار الطبقى للمعرفة — أخذ يخلف كل ذلك ، العمل الحر ، والضمان الاجتماعي ، وانتشار معرفة القراءة والكتابة ، والتعليم المجاني ، وفتح أبواب المعرفة أمام من يشاء ، وبدء تعميم أوقات الفراغ من حيث المدى اللازم للمشاركة الواسعة في أداء الواجبات السياسية . وإذا كانت جموع كبيرة من الناس في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ما زالت تعيش في ظروف بدائية وفقر محزن ، فإن الاستثمار الغاشم الذي ساد في القرن التاسع عشر زحف إلى هذه الشعوب الآراء التي من شأنها أن تفضي بهم إلى التحرر ، فإن سهم النور قد اخترق « حجب الظلام » ، منذ عهد ليفينجستون (Livingstone) ومن تلاه إلى شفاينزر (Schweitzer) .

وجملة القول أن الظروف الجائرة التي كانت تحد من تقدم المدن في جميع مراحل التاريخ ، بدأت في الزوال ، فالممتلكات ، والطبقات الوراثية ، وحتى التخصص المهني ، فقدت أغلب ما فيها من صفات الرسوخ والاستقرار — عن طريق ضريبة الدخل التصاعدية ، والانقلاب في النظم الإدارية للأعمال . فلاحظه أليكسيس دو توكفيل (Alexis de Tocqueville) منذ قرن من الزمان أكثر انطباقاً على الحالة اليوم منه في أي وقت مضى حيث قال : « إن تاريخ الثمانمائة السنة الأخيرة ما هو إلا تاريخ تحقيق المساواة تدريجياً بين

«الطبقات» . وهذا التغيير ينطبق على حالتي النظامين الرأسمالي والشيوعي على السواء ، بصورة من المحتمل أنها كانت تصدم كارل ماركس ولكنها ما كانت لتدهش چون ستيوارت ميل ، فقد تنبأ هذا الأخير بظروف الاندفاع الدينامي نحو التوازن ، التي قد يتسنى في كنفها أخيراً تحويل تقدم اقتصاديات المكنتات إلى ما فيه فائدة إيجابية للإنسان . وعلى ذلك فإنه حتى الأمر القريب ، كان يبدو أن حالة التكافل السلبي التي صحبت ظهور المدينة مقضى عليها بالزوال ، فكان واجب المدينة الآخذة في الظهور أن تهبط وضعاً مثالياً لهذه الظروف الأفضل جوهرياً .

ولسوء الحظ أن أنظمة الشر التي صحبت ظهور المدينة بعثت من جديد وتضخمت في عصرنا الحاضر ، ولهذا فإن المآل النهائي يستوجب الشك . فقد عاد إلى الظهور حكام ينفردون بالسلطة ، ويرفعون في بعض الأحيان إلى مرتبة الألوهية ، كما حدث في حالة هتلر ، أو يحنطون بعد الموت على غرار الفراعنة ، ليكونوا موضع العبادة ، كما حدث في حالة لينين وستالين . وأساليبهم في القهر والإرهاب تتجاوز أبشع ما سجله التاريخ عن الحكام الأقدمين ، بل إن ما كان يحدث في العهود السحيقة من الإبادة الشاملة لأهالي مدن بأكملها ، قد مارسه القادة المنتخبون في دول ديمقراطية ، فهم يمتلكون سلطة التدمير فوراً التي كانت وقفاً على الآلهة فيما مضى . وفي كل مكان قضت السرية على النقد الفعال والإشراف الديمقراطي ، ونشأ عن التحرر من العمل البدوي نوع جديد من الاستعباد ، وهو الاعتماد الذليل على الآلة ، فكل آلهة العالم القديم المرعبة عادت إلى الظهور مضخمة تضخماً هائلاً وتطالب بالتضحية الشاملة بالجنس البشري . ولتهدة سورة إله النعمة الأكبر ، المستوى على عرشه في المعابد النووية ، تقف شعوب بأكملها مستعدة في تحاذل واستكانة للالقاء بقلذات أكبادها في أتونه المستعر .

وإذا استمرت هذه النزعات المفسدة للأخلاق ، فإن العوامل الماضية

تقى عملها الآن سوف تثبت أنه لا سبيل إلى التحكم فيها ، وأنها مفضية إلى الهلاك ؛ وذلك لأن القوى التى يسيطر عليها الإنسان الآن ما لم تُحرر من القيود القديمة التى كانت تربطها بالقلعة ، وتوجه نحو غايات إنسانية ، لا بد من أن تفضى فى النهاية إلى الانتقال مما يغشاها حالياً من جنون الشك والكراهية إلى جنون التدمير . ومن الناحية الأخرى ، إذا كانت الأنظمة الأساسية السلبية فى المدينة تستمر فى الانهيار - أى إنه إذا كانت التشنجات التى تعترى الآن الحكومات المستبدة تدل حقيقة على أن النظام القديم يلفظ أنفاسه الأخيرة - فهل من المحتمل أن تفلت الحرب من عين المصير ؟ لقد كانت الحرب إحدى « الجرائم الويلة » التى كانت المدينة تنقلها من قرن إلى قرن ، فتسبب دائماً فى حدوث الخسائر ، ولكن مدى اتساعها لم يبلغ إطلاقاً إلى الآن حدّاً يودى إلى القضاء على المدنية ذاتها . وقد انتهت الآن هذه الفترة من التسامح ، فإذا لم تعمل المدنية على استبعاد الاحتمال المطلق لوقوع الحرب فإن ما لدينا من الوسائل النووية كفيل بتدمير المدنية - ومن المحتمل بإبادة النوع الإنسانى . وسيهلك مع سكان المدن ذلك العدد الضخم من سكان القرى الذين كانوا فيما مضى بمثابة موارد تستمد منها الحياة .

أما إذا حدث من الناحية الأخرى أن تكتلت معا جميع قوى الحياة لنشد أزر بعضها بعضاً ، فإننا سوف نقف على أبواب تجمع حضرى جديد . ويروى لنا كاتب مصرى قديم ، أنه عندما أنشئت المدن كانت رسالة منشها « وضع الآلهة فى هياكلها » . ومهمة المدينة المقبلة لا تختلف عن ذلك اختلافاً جوهرياً ، فإن رسالتها هى جعل أجل الشئون التى تهتم الإنسان محور جميع ضروب نشاطه ، وتوحيد شخصية الإنسان ، التى تناثرت أشلاؤها ، بتحويل الأفراد الذين حرموا بعض صفاتهم بطريقة صناعية - كالبروقراطيين ، والمتخصصين ، و« الخبراء » ، والعملاء الذين اختلت شخصيتهم - إلى مخلوقات إنسانية مستكملة الصفات ، وكذلك بإصلاح

الأضرار التي نجمت عن الفصل بين المهن ، وعن التفرقة الاجتماعية ، وعن فرط العناية بوظيفة أو ثرت بمكانة خاصة ، وعن النزعات القبلية والقومية ، وعن انعدام ألوان المشاركة الفعالة والأهداف المثالية .

وقبل أن ينسئ للإنسان الحديث التوصل إلى السيطرة على القوى التي تهدد الآن وجوده ذاته ، يجب أن يستعيد سيطرته على نفسه . وهذا يجعل الرسالة الرئيسية لمدينة المستقبل إنشاء نظام اجتماعي محسوس للأقاليم والمدن ، بحيث يتيح للإنسان أن يستشعر الانسجام مع ما يدور في قرارة نفسه وما يدور في العالم من حوله ، ويكون وثيق الصلة بالصورة التي تغذى مشاعر الإنسانية والمحبة .

وطبقةً لذلك يجب الآن ألا نتصور المدينة ، على أساس أنها قبل كل شيء مركز للأعمال أو الحكومة ، بل على أنها جهاز أساسي للاعتراف عن الشخصية الجديدة للإنسان وتحقيقها - ونعني بها شخصية « إنسان العالم الواحد » ، فإنه لا يمكن الإبقاء بعد الآن على الحواجز القديمة التي كانت تفصل بين الإنسان والطبيعة ، بين ابن المدينة وابن الريف ، بين الإغريقي والمصري ، بين المواطن والأجنبي ، لأنه بفضل المواصلات أخذت الكرة الأرضية بأسرها تتحول إلى قرية . ونتيجة لذلك فإن أصغر وحدة للجوار أو أصغر خطة يجب أن يوضع تخطيطها على أنها نموذج يمكن اتباعه في العالم الأكبر . وما يجب أن يتمثل اليوم في المدينة بصورة مجسدة ، ليست الإرادة الفردية لحاكم موته ، بل الإرادة الفردية والجماعية لمواطنيها الذين ينشدون معرفة كنه أنفسهم وحكم أنفسهم وتحقيق أنفسهم . وسوف يكون محور نشاطهم التعليم وليس الصناعة ، وسوف يتوقف نصيب كل عملية وكل وظيفة من التقدير والاستحسان على قدر ما تفيد به التقدم الإنساني ، على حين أن المدينة ذاتها سوف تهيء مجالاً نشيطاً للمقابلات التلقائية ، ولما في الحياة اليومية من أطوار التحدي والنضال .

ويبدو أن ما في المدينة الحالية من قصور ذاتي ما زال ماضياً نحو كارثة
تووية تشمل العالم بأسره ، وحتى إذا تأجل وقوع هذا الحادث المشتموم ،
فإنه قد يتقضى قرن أو يزيد قبل أن يزول احتمال وقوعه . وفي اللحظة
الأخيرة - وقد يكون جيلنا في الواقع قريباً من اللحظة الأخيرة - قد
تتغلب الأهداف والمشروعات التي من شأنها إنقاذ ما لدينا حالياً من قوة
دافعة بلا هدف . وعندما يحدث ذلك فسوف تتلاشى العقبات التي يبدو
الآن أنه لا سبيل إلى التغلب عليها ، كما أن المقادير الضخمة من المال
والنشاط ، والجهود الضخمة ، العلمية والتقنية ، التي تبذل الآن في صنع
القنابل النووية ، وصواريخ الفضاء ، وتدبير مائة وسيلة أخرى مأكرة
تتصل من قريب أو من بعيد بأهداف مجردة من الروح الإنسانية والقيم
الخلقية ، سوف تنطلق جميعاً لإعادة تحسين أحوال العالم ، وإعادة إنشاء
المدن ، وفوق كل شيء لتزويد شخصية الإنسان بما يستكمل جوانب النقص
فيها ، واليوم الذي تتبدد فيه الأحلام العقيمة والتصورات السادية المفرغة
التي تسيطر على نخيلة الطبقة الحاكمة الممتازة ، سوف تنطلق القوى الحيوية
للإنسان على نحو يجعل حركة النهضة الأوروبية تبدو وكأنها ولدت ميته .

وإنه لمن الحماقة التنبؤ بالوقت أو الطريقة التي يحتمل أن يتم بها هذا التغيير
إلا أنه قد يكون أكثر مجافاة للواقع استبعاد ذلك كأمر محتمل الوقوع ، بل
ربما على وشك الوقوع ، بالرغم من أن خرافة المكثات ما زالت تسيطر على
العالم الغربي . ولحسن الحظ أنه منذ زمن طويل يجري الاستعداد للتحويل
من نظام اقتصادي غايته القوة إلى نظام اقتصادي غايته الحياة ، ومتى تغير
اتجاه الأفكار والأهداف الأساسية ، فإن ما لا بد منه من التغييرات السياسية
والمادية قد تتبع ذلك على عجل . وإذا ذلك سوف نجد أن كثيراً من القوى
الموجهة الآن نحو الموت قد وجهت نحو الحياة .

وعند مناقشة الثبات الواضح في معدل نسبة المواليد على نحو ما تجلى في

أرجاء عالم المدينة الغربية قبل سنة ١٩٤٠ ، لاحظ إذ ذاك مؤلف كتاب « حضارة المدن » أنه « يتسنى للمرء أن يتصور بسهولة ظهور عقيدة جديدة لحياة الأسرة حين يواجه الناس كارثة مروعة تتطلب التعجيل بإعادة النظر في مشروعات الإسكان وتطور المدن . وقد يحدث تعارض في الخطط بين حافز نبيل يدفع نحو التناسل ، وبين الآراء الداعية إلى التبصر حرصاً على الاحتفاظ بتوازن لم يتحقق إلا بشق الأنفس » .

وفي نظر كثير من الباحثين الاجتماعيين المحترفين ، الذين خلّبت ألبابهم المنحنيات الرقيقة التي تتجلى في رسومهم البيانية لأعداد السكان ، كان ذلك الاحتمال يبدو قبل الحرب العالمية الثانية بعيد التحقيق ، بل لا يمكن نصوره مطلقاً في الواقع . ولكن رد فعل مثل هذا قد حدث فعلاً على وجه تلقائي بعد قيام الحرب بفترة وجيزة ، وظل مستمراً في خلال عشرين السنة الأخيرة على الرغم مما صدر عن « الخبراء » من تنبؤات عديدة تناقض ذلك . وكثير من الناس ، الذين كان ينبغي أن يؤرقهم التفكير في أمر فناء الجنس البشري بتأثير الانفجارات النووية ، أخفوا عن أنفسهم هذا الاحتمال الرهيب بالإفراط في إبداء القلق حول « تفجر السكان » — دون أن يخامرهم أدنى شك ، على ما يظهر ، في احتمال وجود صلة في الواقع بين خطر فرط تناقص السكان وخطر فرط زيادة السكان .

وأما فيما يتعلق بالموقف اليوم ، فإن هذه العودة إلى زيادة التناسل قد تفتّرت إلى حد ما بأنها رد غريزي عميق الترار على موت عشرات الملايين من الناس قبل الأوان في جميع أرجاء الأرض . ولكن يحتمل أكثر من ذلك أن تكون بمثابة رد فعل لا شعوري مبعثه احتمال حدوث ثورة مهلكة من الإبادة النووية للجنس البشري على نطاق يشمل الأرض بأسرها . وفي هذه الحالة فإن كل طفل جديد يكون بمثابة صوت يائس أعمى يعرب عن الرغبة في البقاء . وكأن الناس الذين يجدون أنفسهم عاجزين عن تسجيل

احتجاج سياسى ذى أثر فعال ضد سياسة الإبادة يعمدون إلى الاحتجاج عن طريق القيام بعمل بيولوجى . وفى البلاد التى تنعدم فيها معونة الدولة ، كثيراً ما يؤثر الآباء الشبان قبول لون من الحرمان القاسى من حاجيات الحياة ومن أوقات الفراغ ، على قبول الحرمان من الحياة بالكف عن إنجاب الأولاد . فإن رد الفعل التلقائى الذى يحدث فى كل نوع مهدد بالهلاك ، يتجلى على هيئة الإفراط فى التناسل ، وهذه هى إحدى المشاهدات الأساسية المستمدة من دراسة عادات الكائنات الحية والصلات الطبيعية القائمة فيما بينها وبين البيئة التى تعيش فيها .

وما من نظام اقتصادى غابته الريح ورائده اللهو يستطيع أن يواجه مثل هذه المطالب ، وما من نظام اقتصادى تسيطر عليه القوة يتسنى له أن يكتبها على الدوام . وإذا امتد عين هذا الاتجاه إلى أجهزة التعليم والفنون والحضارة ، وهى أرقى ما لدى الإنسان من الوسائل البيولوجية للتوالد ، فإن من شأن ذلك أن يغير وجه مستقبل البشرية على إطلاقه ، وذلك لأن الصالح العام سوف تكون له الأسبقية على الصالح الخاص ، وتصبح الأموال العامة موفورة لبناء وإعادة بناء القرى ، والإحياء ، والمدن ، والأقاليم على نمط من السخاء أعظم مما كان فى مقدور الطبقات الأرستقراطية أن تقوم به لنفسها فى الماضى . وإنه لمن شأن مثل هذا التغير أن يعيد نظام الحديقة ووجهتها إلى كل ناحية من نواحي الحياة ، وقد يكون ، بفضل اهتمامه بنوع الحياة وصفها ، أبعد أثراً من أى تدبير جماعى آخر لإيجاد التوازن فى معدل نسبة المواليد .

ولقد رأينا أنه طرأت على المدينة تغيرات عديدة خلال خمسة الآلاف من السنين الأخيرة ، ولا شك فى أنه ما زال محباً لها مزيد من التغير . ولكن الابتكارات التى تدعو إليها الحاجة الملحة لا صلة لها باستكمال وتوسيع نطاق المعدات المادية ، بل إن الحاجة أقل إلى الإكثار من الوسائل

الأوتوماتيكية الاليكترونية التي من شأنها تبديد ما بقى من أجهزة الحضارة وتحويلها إلى حطام شبه حضري بلا لون ولا وضع معروف . فالأمر على النقيض من ذلك ؛ إذ أن الإصلاحات الهامة لن تأتى إلا عن طريق استخدام الفن والفكر فى شئون المدينة الرئيسية المتعلقة بالإنسان . مع توجيه عناية جديدة نحو العمليات الكونية والاكولوجية التى تكتنف كل كائن حى . إذ يجب أن نعيد إلى المدينة وظائفها كأم تغذى حياة أبنائها ، وكذلك ضروب نشاطها المستقلة وروابط تكافلها مع غيرها ، وهى التى طال إهمالها أو كبها . فإن المدينة يجب أن تكون وسيلة لقيام المودة ، وخير نظام للمدن هو ما يقوم على العناية بالناس وتحضيرهم .

ولقد تكونت المدينة فى مبدأ الأمر لتكون موئلا لأحد الآلهة ، أى إنها كانت مكاناً تتمثل فيه قيم خالدة ، وتكشف آيات القدرة الإلهية ، وإذا كانت الرموز قد تغيرت ، فإن الحقائق الكامنة وراءها قد بقيت . فنحن تعلم اليوم أكثر مما كنا نعلم فى أى وقت مضى ، أن ما فى الحياة من إمكانيات لم يكشف عنها الحجاب ، تبلغ فى مداها حداً يتجاوز بكثير ما وصل إليه العلم المعاصر فيما يشمخ به من رموز جبرية ، وأن هذه الإمكانيات توحى بآمال ساحرة لا ينضب معينها ، آمال فى المزيد من ضروب التغير فى حالة الإنسان . وبدون ما عاونت المدينة على إذكائه من الآمال الدينية فى المستقبل ، يشك فيما إذا كان قد أمكن تنمية أكثر من جزء ضئيل من ملكات الإنسان التى تهته للمعيشة والتعليم ، فالإنسان يشب على غرار آلهته ويرتفع إلى مستوى المبادئ التى وضعوها . وذلك المزيج من الألوهية والقوة والشخصية ، الذى كان سبباً فى ظهور المدينة القديمة إلى الوجود ، يجب أن يوزن من جديد طبقاً لمعايير ايدولوجية عصرنا وحضارته ، ويصب فى قوالب جديدة تلائم المدن والأقاليم والدنيا بأسرها . وللتغلب على القوى

المجردة من الإحساس التي تهدد الآن مدينتنا من الداخل ، يجب أن نتخطى ضروب الفشل والعوامل السلبية الأصلية التي تعقبت خطى المدينة خلال مراحل تاريخها . وبغير ذلك فإن آلهة القوة العقيمة ، التي لا تقيد حدود مادية ولا أهداف إنسانية ، سوف تعيد تكوين الإنسان على غرار ذات صورتها الشوهاء وتودى بتاريخ الإنسانية إلى نهايته .

والرسالة النهائية للمدينة هي أن تعين على زيادة مشاركة الإنسان الواعية في العملية الكونية والتاريخية ، فإن المدينة ، بفضل تكوينها المعقد القادر على طول المقاومة والبقاء ، تزيد إلى مدى شاسع من مقدرة الإنسان على تفسير هذه العمليات والقيام فيها بدور إنشائي فعال ، بحيث تنقسم كل مرحلة من مراحل المسرحية التي تتولى المدينة لإخراجها بأقصى ما يستطيع من نور الوعي ، وقوة الهدف ، ودلائل المحبة . فقد كانت أسمى مهمة للمدينة في التاريخ ، هي رفع قدر كل جوانب الحياة عن طريق الروابط العاطفية ، والصلات العقلية ، والتفوق التكنولوجي ، وفوق كل شيء التثمين المسرحي . وما زالت هذه المهمة هي السبب الرئيسي في استمرار بقاء المدينة .

كشاف تحليلي

الأرقام تشير إلى الصفحات والأرقام المصورة بين قوسين () تشير إلى اللوحات المصورة

٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٣١١ .
 آثوس : ٢١٤ ، ٤٤٦ .
 أثينا ، الآلة : ٢٦٠ .
 أثينا ، المدينة : ٩٦ ، ٢١١ ، ٢٤١ ، احتفالاتها : ٣٠٢ ، احتكاكها
 الاقتصادي : ٢٧٣ ، الدلالة الرمزية
 لمبانيا : ٢٩١ - ٢٩٢ ، بوصفها
 مدرسة : ٣٠٤ - ٣٠٥ ، بوصفها مدينة
 حافظت على أصولها الأولى : ٢٨٩ -
 ٢٩٠ سكانها ٢٧٥ - ٢٧٦ صفات
 ينفرد بها مواطنوها ٣٠١ ، طابعها
 الهيليني ٣٣٠-٣٦٥ ، فرط ازدهارها
 بالمبانى : ٢٩٥ ، مدرسة أثينا تغلق أبوابها
 ٤٢٥ ، مراحل تطورها كدنية إغريقية :
 ٢٥٩ - ٢٩٩ ، موقى الاثنينين : ٢٦١
 نقص الوسائل الصحية فيها : ٢٣٢ ،
 وصفها والحياة فيها ٢٩٧ - ٢٩٨ .
 أجاثون : ٢٢٩ .
 أجريا : ٤٠٩ .
 أجريكولا : ٦٩٨
 (ال) أجورا : اتساع مهمتها ٢٥٩ ،
 أرسطو والأجورا ٣٣٧ ، ٣٤٢ ،
 الأجورا ذات الأروقة ٣١١ ،
 الأجورا في التخطيط الملطى ٣٤٥ -
 ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، بقاؤها مكانا للاجتماع
 ٢٦٦ ، تعدد خصائصها ٢٦٧ ، تنوع
 أشكالها ٢٦٨ ، مظاهر اتساع وظائفها
 ٢٦٧ - ٢٧٠ ، مقارنة بين الأجورا

(ال) إبادة : الإبادة الذرية : ١٠٢٩ -
 ١٠٣٧ ، ١٠٦٢ ، استعدادات العهد
 الحاضر من أجل الإبادة ، ٤١٨ ،
 ٨٩٠ ، ٩٧٥ . وسائل علمية ٩٢ ،
 توضيحات من أجل الإبادة ١٨٠ ،
 شغل الرومان بالإبادة ٤١٧ - ٤١٨ ؛
 على نطاق واسع ٧٣ - ٧٤ .
 أبابو : (أوعية التفكك والنضوب)
 ٨٣٤ ، ٨٣٥ - ٨٣٤ .
 إبراهيم : ١١٠ .
 ابن رشد : ٥٠١ .
 ابن سينا : ٥٠١ .
 أبقرط : ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥ ، ٣٣٧ .
 أبولو : ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
 ٢٥٢ ، ٢٦٦ .
 أيداروس : ٢٤٣ ، ٢٥٣ .
 أيدوس : ١٤٧ ، ٢٠٦ .
 أبيقور : ٣٥٠ ، ٣٦٧ .
 أيبوس كلوديوس : ٣٨٩ .
 أتاننا : ٤١ .
 (ال) اتحاد البيوت : ٢٥٧ ، ٢٨٠ .
 اتحاد الحصن والمعبد : ٦٥ .
 اتروريا : ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٣٤٩ .
 أتلانتيس : ٣١٥ ، ٣٢٢ .
 أنوم : ٤٥ .
 أنيكا : ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ،

أربطو: ١٢، ١٩٩، ٢١٩، ٢٢٨ ،
 ٢٣٣ ، ٢٥٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣٠ -
 ٣٣٩ ، ٤٤٩ ، ٥٠١ .
 أرميلاس ، بيدرو: ١٥٣ .
 أرنايم : ٨٩٩ .
 أريزو: ٦٤٧ .
 أريحا : ٥٩ ، ٩٩ ، ١٦٩ ، ٢٢١ .
 أركادبوس : ٢٨٤ .
 أريستوفان (أريستوفانيس) : ٢٣٦ ،
 ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ .
 أريستيدس : ٢٧٨ ، ٣٠١ ، ٤٢٩ .
 أريون : ٦٧ .
 (ال) أزاتكة : ٧٣ ، ٩١ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .
 أزوكا : ٣٥٨ .
 اسبرطة : ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٦ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، إشادة
 أفلاطون بمزايا أهل اسبرطة ٣١٣ ،
 تشبه النازيين بالاسبرطيين : ٢٣١ .
 استرابون : ٣٨٨ .
 استرقاق الأعداد الكبيرة : ٩٨٠ - ٩٨٨ .
 (ال) استثمار : أثينا والاستغلال الاستثماري
 ٢٣٥ ، ٢٨٢ ، أسس الاستثمار ،
 والاستغلال الاستثماري ٦٦٨ ، أفلاطون
 والاستثمار ٣٢٤ ، الاستثمار الإسباني
 ٦٠٧ ، الاستثمار الحضري الروماني
 ٢٧٦ - ٣٧٨ ، الاستثمار الحضري في
 المصور الوسطى ٤٧٠ - ٤٧١ ، ٥٧٤ ،
 الاستثمار كوسيلة للتحكم في نمو المدن
 ٣٣٤ ، سياسة دلتا الاستثمارية ٢٥٢ ،
 وسائل الاستثمار الإغريقي ٢٥٣ .
 (ال) استغلال : اتساع نطاقه ١٩٩ ،
 الاستغلال التجاري للأرض ٧٧٧ -
 ٧٨٦ ، الاستغلال في الحواضر ٩٨٤ -

والأكروبول: ٢٩٢ ، وظيفتها الأولى :
 ٢٣٩ .
 "أحاديث" ، كتاب : ٥٨٧ .
 (ال) احتكار : الاحتكار لسبل السلطة
 والمعرفة ١٧٨ ، ١٧٩ ، ومظاهره .
 ١٨١ - ١٨٣ ، الاحتكار الجماعي
 ٩٩٧ ، الاحتكار الاقتصادي في أثينا
 ٢٧٣ ، الاحتكار في الحواضر ٩٩٦ -
 ٩٩٧ ، التحكم الاحتكاري في المصور
 الوسطى ٦١٩ - ٦٢٠ ، زوال الاحتكار
 الحضري ١٠٤٤ ، عودة احتكار
 سبل السلطة والمعرفة ١٠٠٥ .
 (ال) "أحر والأسود" ، رواية ٦٩٢
 أخيتاتون : ١٤٨ .
 أغيلس : ٢٢٩ ، ٢٦٧ .
 آدام ، روبرت : ٧٩٠ .
 آدامز ، هنري : ٥٠٤ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٦ .
 "أداة التعطيل" : ٦٥٠ .
 ادجاستون : ٩٠٤ .
 ادنبرة ٥٣٣ ، ٦٦٠ ، ٨٣٢ ، ادنبره
 الجديدة : ٧٣١ مشروع كبري لتخطيطها :
 ٧٣٣ .
 ادواردز ، دكتور : ٨٧٣ .
 أديلي ، شرفة : ٨٢١ .
 أراجون : ٦٤٦ .
 أرانتو : ٩٦ .
 إرازموس : ٥١٤ .
 أريباغية : ١١٧ .
 أرثقليد ، جاك : ٤٦٧ ، ٦٢٢ .
 أرجيليتوم : ٤٠٢ .
 أرخيدس : ٣٥٩ ، ٣٦٤ .
 أرغون ، باسيلوس : ٢٥٩ .
 أرغيتوس : ٢٧٧ .
 أرغيتوم : ٢٨٨ .
 آرل : (١٦) ٤٥١ .

أثليدس : ٣٥٩ .
 أكاد : ٧٦ ، ١٥٥ .
 (ال) أكاديمية : ٢٤٨ ، ٣٠٦ .
 (ال) اكتظاظ : ٧٩٤ الحضري ٧٩٦ -
 ٧٩٨ تكاليف الاكتظاظ الحضري
 ١٠١٦ ، ١٠٢٠ ، تنظيم الاكتظاظ
 ٧٦٥ - ٨٠١ ، خطة هوارد لإيقافه
 ٩٥٨ - ٩٦١ ، طبيته المقصودة ١٠٠٠
 علاج الناجع ٩٤٣ ، فرط الازدحام في
 القرن السابع عشر : ٦٥٩ - ٦٦٠ ،
 فرط الازدحام لا يعود بأي كسب ٩١٩ -
 ٩٢٤ .
 (ال) أكربول : ٢٣٦ ، ٢٣٨ ،
 ٢٤٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ،
 ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٣ ،
 ٣٢٣ ، ٣٤٢ وصف أكربول أثينا
 ٢٨٨ - ٢٩٢ ، (٩) ، (١٠) .
 اكس - آن - بروثانس : ٣٨٠ .
 أكسيل يونيوس : ٤٤٥ .
 اكليزيا : ٢٧٨ .
 أكويتانيا : ٣٧٨ .
 أكونياس ، توماس : ٦٣٢ ، ٧٥٧ ،
 ٧٥٩ .
 ألارليك : ٤٣٥ .
 ألبا : ٢٨٥ .
 ألبريت ، و. ف. : ١١٧ .
 أليزي ، ليون باتيستا : ٥٢٣ ، ٥٥٤ ،
 ٥٥٥ ، ٥٦٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٠ ،
 ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٩ ، ٧٤٤ ،
 ٨٩٧ ، ٨٩٨ .
 ألتاميرا : ١٠ .
 (ال) ألباب : الأوبية ٢٣٧ ، ٢٤٢ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٦ - ٢٤٩ ، ٢٥٥ ،
 في فطر الرومان ٤١٨ ، البنية ٢٤٣ ،
 البرزخية ، ٢٤٣ ، الجنازية ٢٤٦ ،
 التنية ٢٤٣ .

٩٨٨ ، لدى الآثنيين ٢٣٥ ، لدى
 الرومان ٤٠٠ ، مظهره الباكر ٦٤ ،
 ٩٣ .
 أسرفي الفضل : ٩٤٨ - ٩٥٢ .
 أسكليبيوس : ٢٤٣ ، ٢٤٥ .
 (ال) اسكندر : ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٥ ،
 ٢٥٣ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥٩ ، ٤٣٩ .
 (ال) إسكندرية : ٢٣٠ ، ٢٤١ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ .
 أسيسي : ٥٨٥ .
 (ال) اشتراكية : الروسية ٣١٩ ، مناهضة
 البابا للاشتراكية المسيحية ٥٨٥ .
 أشلي ، و. ج. : ٤٩٢ .
 أشنونا : ١١١ ، ١١٢ .
 أشور : ٦٩ ، ٩٨ ، ١١٢ ، ١٣٤ ،
 ١٥٨ ، ٣٤٤ ، ٣٦١ .
 أشوربانيبال : ٤٠ ، ٦٩ ، ١٤٩ .
 (ال) « اطار الأخضر » : ٩٣٣ - ٩٤٤ .
 (ال) أعداد : الأعداد العسكرية ٦٥٦ ،
 أهمية الأعداد الحضرية ١٩٦ ، تجمع
 الأعداد وزيادتها ٥٥ ، قوة الأعداد
 ٦٦٥ .
 أغسطس : ٣٩٤ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤٥٠ .
 أغسطس ، أمير سكوتيا الناخب : ٦٩٨ .
 افروديت : ٤٦ ، ١٩٠ .
 أفلاطون : ٩٠ ، ١١٣ ، ١٨٧ ، ٢١١ ،
 ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ،
 ٢٥٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ، ٣٠١ ،
 ٣٠٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٦ ، آراء أفلاطون
 وأحلامه ٣١٠ - ٣١٩ ، مافيا من
 أخطار ٢٢٠ - ٢٢١ مدينة أفلاطون
 ٣٢٢ - ٣٢٩ .
 افيوس : ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ .
 (ال) أقصر : (٢) ١٤٣ .

أنتورب (أنفريس) : ٥٠٨ ، ٥٠٧ : ٧٦٠ .
 أنتيجوني ، مسرحية : ٢١٠ .
 أنتيسينز : ٢٢٦ .
 انجلترا : ٢٨٢ ، ٢٥٤ ، ٢١٥ ، ١١٣ ، ٣٧٧ ، ٤٧٤ ، ٤٦١ ، منظر المدن
 في انجلترا : ٧٣٠ .
 انجيز ، فردريك : ٨٥٨ .
 أندروكليس : ٤٢٣ .
 أندري ، يوهان ، ٥٣٥ ، ٥٨٥ ، ٧١٠ .
 (ال) أندي : ظهور الحاجة إليها في المدينة
 الهيلينية : ٣٦٥ - ٣٦٦ .
 إنسان ما بعد التاريخ : ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٠٢٧ ، ١٠٥٥ .
 انسبروك : ٥٦٦ .
 أنطاكية : ١٨٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢ ، وصفها : ٣٨٢ - ٣٨٤ .
 إنكا : ٣٤٩ .
 انكيو : ٣٩ ، ٤٧ ، ١١٥ ، ١٢٣ : ١٢٩ .
 آثر : ١١٥ ، ١٢١ .
 أوتنايشتم : ١٧١ ، ٣٦٨ .
 اوتو : ٦٧ .
 اوتو الثاني : ٤٦٠ .
 أوتون (أوتن) : ٣٧٧ ، ٤٥٠ .
 أوجسبرج : ٤٦٤ ، ٥٢٦ ، ٧٩٧ .
 أوجستين : ٤١٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ .
 أود : ٦٠٥ .
 أوديسيوس : ٢٢٩ .
 (ال) أوديسية : ١٧٣ .
 أور : ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١٠ : ١٤١ ، ١١٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ : ١٤١ .
 أور : ١٧٤ ، ١٨٨ ، ٢٣٢ .
 أورانج : ٣٨٦ .
 أندرو : ٨٧٣ .
 أورفيوس : ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

أفريد ، الملك : ٤٥٥ .
 ألكايوس : ٢٨٦ .
 أنكار : (٢٣) .
 آلهة التحكم والتوجيه : ١٠٥٠ ، ١٠٥٥ .
 الياد ، ميرسيا : ٨٥ ، ٦٦ .
 (ال) الياذة : ٢٢٧ ، ٩٥ .
 إليزابث ، الملكة : ٤٩٨ .
 إليس : ٢٧٠ ، ٢٥٦ .
 أليسي ، جاليانزو : ٦٤١ .
 ألين من ليل : ٧٥٧ - ٧٥٨ .
 اليوسيس : ٢٣١ ، ٣٦٦ .
 (ال) أمازون : ١٦٥ .
 آمال كبيرة ، قصة : ٩١٠ .
 أمانا : ٥٩٧ ، ٦١١ ، ٦١٢ .
 أمير جيو دي كيرنس : ٧١١ .
 امتزاج السلطين الدينية والزمنية ونتائجها : ٦٧ .
 (ال) أمراض : القرن التاسع عشر يعين
 على نشرها : ٨٥٢ - ٨٥٥ ، المعدية
 ٥٣٠ - ٥٣١ ، الناشئة عن القذارة
 ٧٠٩ ، تحكم مدينة المصور الوسطى فيها
 ٥٤٠ - ٥٤١ ، في مدينة الفحم : ٨٦٢ .
 أمستردام : ٧١٧ ، (٣٦) الدروس
 المستفادة منها : ٨١٩ - ٨٢١ ، بوصفها
 مدينة تجارية نموذجية : ٨١٠ - ٨٢٢ ،
 حالتها في مبدأ أمرها (٢٠) ، سوقها
 المالية (البورصة) : ٧٦٠ ، نموها
 السريع : ٨١٦ ، وسائل تسهيل التجارة
 بها : ٨١٣ .
 أمستل ، نهر : ٨١٢ .
 أموروت : ٥٩٦ .
 أمانوس : ٢٨٤ .
 (ال) أمير ، كتاب : ٦٣٨ .
 (ال) أناضول : ٢١٨ ، ٢٢١ .
 أناكساجوراس : ٢٨٦ .

- أورليان : ٣٧٦ .
أورليانوس : ٤٢٨ .
أوروك : ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٥ ،
٦٧ ، ٦٩ ، ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، وصفها : ١٣٥ .
أوزونيوس : ٣٨٠ .
أوزيماندياس : ١٧٥ .
أوزيريس : ٤٧ ، ٦٩ ، ٩١ ، ١٥٠ ،
٢٤٦ .
آوستا : ٣٧٦ .
أوستن ، ماري : ٢٣٦ .
أوستوالد ، ولهم : ٨٨ .
أوستيا : ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٧ .
أوسلر ، الدكتور ولیم : ٥٣٣ .
أوشيلو : ٦٦٩ .
أوفيتسي ، دواوين الحكومة في فلورنسا
(٢٥) ، ٦٤٢ .
"أوقات عصية" ، رواية : ٨٢٥ ، ٩٠٤ .
أوك رينج : ٥٥٦ .
أوكسفورد : (١٩) های ستريت : ٥٥٤ .
اوكرينخوس : ٢٥٧ .
أولم : ٨٦٨ .
أولستيد ، فردريك لو : ٧٨٠ ، ٩٠٦ ،
٩٢١ .
أولوس جيلوس : ٢٦٥ ، ٣٤٤ .
أوليمبيا : ٢٣٨ - ٢٥٩ الآلهة الأوليمبية :
٢٦١ ، ٢٦٣ .
أوليمبيوس : ٢٦٣ ، ٢٦٤ .
أوليتوس ، ١١٢ ، ٢٩٦ .
أونوين ، ريموند : ٦٥٥ ، ٧٧٩ ،
٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ .
أونيس : ١٥٦ .
أوين ، روبرت : ٨٤٣ ، ٩٥٥ .
اير-ستات : ٦٥٩ .
ايو - وير : ١٠٥ ، ١٧٩ .
ايچ مورت : ٤٨٠ .
ايچينا : ٢٣٨ .
اير : ٤٧٦ .
ايرلاخ ، فيشر فون : ٦٨٩ .
ايرلندا : ٣٤٦ ، ٣٨٤ ، ٤٥١ .
ايرويل ، نهر : ٨٤٨ .
ايريك : ٦٨ .
ايزل ، لورين : ٤٥ .
ايزوپوليتي : ٢٥٧ .
إيزيس : ١٩٠ .
ايسخليوس : ٣٠١ .
ايسلنده : ٢١٥ .
ايسن : ٨٧١ .
ايسوقراط : ٣٠٤ .
ايشار : ٤٦ ، ١١٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
ايفانز ، السير آرثر : ٢١٦ .
ايفلن ، جون : ٦١٨ ، ٦٣٧ ، ٦٩٨ ، ٧٣٠ .
ايكريا : ٢٩٣ .
إيما ، الأرملة : ٤٦٠ .
إيمرسون : ١٧٦ ، ٢٩٧ ، ٣٢٠ ،
٣٣٩ ، ٦١١ ، ٧٠٥ ، ٧٩٣ ،
٩١٧ ، ١٠١٩ ، ١٠٤٩ .
ايمز ، ادابرت : ١٢٦ .
اينانا : ٤٦ .
اينليل : ١٣٧ .
اينياس : ٤٢١ .
ايونا : ٤٥١ .
ايونيا : ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٣٤٢ ،
٣٤٥ ، احتقار الإغريقين لأهل
ايونيا ٢٧١ - ٢٧٢ .
بابل : ٧٥ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٨ ،
١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٣٤ ،
١٣٧ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٢١٨ ،
٢٣٨ ، ٢٦٥ ، ٣٠٩ ، ٣٢٣ ،
وصف هيروذوت ١٢٨ - ١٤٠ .

پاوسانياس : ٢٣٩ ، ٢٩٣ ، ٣٦٢ ، ٤٤٤ .
 بايبرى : ٦٠٣ ، ٦٠٤ .
 بايستوم : ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤٥ .
 بتاح : ٦٢ ، ٨٦ ، ١٥٠ .
 بتمبرج : (٤٣) ٨٧١ ، ٨٧٣ .
 « بحوث الفيديرالية » (ال) : ٦٢٥ .
 بدفورد : ٧٣١ .
 بدوى : ٣٧٣ .
 براماتى : ٧١٣ .
 براندنبرج : ٦٥٣ .
 برانديس ، القاضى : ٩١٦ .
 برانفورد ، فيكتور : ٩٩٩ .
 براونفلز ، وولفجانج : ٥٤٤ ، ٥٥٩ ، ٦٤٧ .
 براينى : ١١٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٥ .
 بركتون ، نيكولاس : ٦٨٩ .
 برتيناكس : ٤١٦ .
 برجامو : ٤٦١ ، ٦٢٠ .
 برجامون : ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ .
 « برج توم » : ٦٣٣ .
 بررميس : ١٥٧ .
 برشلوة : ٤٥٨ ، ٧١٦ .
 بركليس : ٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
 « برلمان النساء » ، رواية : ٢٩٥ .
 برلين : ٣٥٢ ، ٥٣٣ ، ارتفاع قيمة الأرض بها : ٦٦٠ .
 برمنجهام : ١٨٢ ، ٦٦٧ ، ٨٣٩ .
 ٨٥٣ ، ٨٧١ ، ٨٧٤ .
 برنارد (ساف) من كليرفو : ٤٤٨ ، ٤٦٩ ، ٥٨٠ .
 برنارد. كلود : ٨٧٩ .
 برنيتى : (٢٧) ٤٣١ ، ٦٤٣ ، ٦٩٥ .

بات : (٣٧) ، ٢٥٤ ، ٧٣٢ ، ٧٤٧ ، ٧٩٠ .
 بانولوبوليس (مدينة الأمراض) : ٤١٨ ، ٤٢٦ .
 بادتيرا : ٦٧ .
 بادوا : ٥٨٩ ، ٦٥٠ ، ٦٩٤ .
 بارازيتوبوليس (مدينة الطفيليات) : ٤١٨ ، ٤٢٦ .
 باربور ، فيوليت : ٨١٣ .
 باربون ، دكتور : ٧٧٠ .
 باربيكان : ١٠٢٠ .
 پارثينون (ال) : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٩ .
 پاركان ، فرنسيس : ٩٠٩ .
 بارديه ، جاستون : ٥٩٧ .
 بارلو ، سيرانتوف مونتايجيو : ٩٦٨ .
 پارمنيدس : ٢٨٤ ، ٢٨٦ .
 باورد (ال) : المبالغة في تقدير قيمته ٦٥٥ .
 باريس : (٢٩) (٣٠) ، (٣١) (٣٨) ، ٣٧٩ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ ، ٧٢٧ ، شوارعها في المصور الوسطى ٥٠١ ، مشروع تخطيط كولير ٧٣٨ .
 بازل : ٣٧٦ .
 باستور : ٥٣٠ ، ٨٧٩ .
 باسيليك (ال) : ٤٠١ ، ٤٤٣ .
 باقيا : (١٤) ٣٧٩ ، ٤٩١ .
 باكوس : ٤٧ ، ٦٩ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
 بالاتين : ٤٠٠ .
 بالاديو : ٦٦١ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٩٤ ، ٧٢٦ ، ٩٠٥ .
 بالمانوفا : ٦٠٧ ، ٧١٤ ، ٧٢٠ .
 بالميرا : ٣٨٢ .
 باليسترا (ال) : ٢٤٧ .
 بانثيون (ال) : ٤١١ .
 باور ، جورج : ٥٣٨ .

٢٧٨ - ٢٧٩ ، المواطن الإغريق غنى
بتجاربه ٢٩٨ ، تحول في الاقتصاد
الإغريق ٢٧٠ - ٢٧١ ، تفاؤل
الإيمان بالآلهة الإغريقية ٢٦١ ، حضارة
الإغريق : صلتها بالحضارات الأخرى :
٢٢٣ - ٢٢٤ ، طابعها ٢٢٦ - ٢٢٩ ،
عصرها الذهبي ٢٩٩ - ٣٠٦ ، مختارات
من الأدب الإغريق ٤٣٩ ، مراحل
تطورها ومظاهرها ٢٣٨ - ٢٨٣ ،
وجوه نقصها ٣٠٧ - ٣٠٨ ، مدن
الإغريق : أثر اتصالها بالقرية في دور
انحلالها ٢٣٢ - ٢٣٣ - أثر مشكلة حزم
المدينة ٢٣٢ - ٢٣٥ ، إخراج التاجر
والعامل من الصورة المثالية للمدينة ٢٧٦ ،
أنظمتها الحكومية ٢٥٦ - ٢٥٨ ، تدميرها
٣٤٢ ، تفككها ٣٥٥ ، سرها ٢٤٢ ،
سكانها ٢٧٤ ، سوء الحالة الصحية فيها
٢٣٢ ، شكلها ٢٨٨ ، قوتها الحقيقية
٢٦٥ ، مشاكل نموها ٣٠٨ - ٣١٠ ،
وجوه النشاط اليومية ٢٦٠ .
بلاد ما بين النهرين : ٣٠ ، ٣٣ ، ٥٨ ،
٦٢ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٩٩ ،
١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،
١٠٦ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٣١ ،
١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،
١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ،
١٧١ ، ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ ،
٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦ ،
٢٦٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ .
بلاس دي فيكتور : ٧٣١ .
بلاط (ال) : تأثير قصر البلاط الباروكي
على المدينة ٦٩٢ - ٧٠٢ ، حفلات
باهظة التكاليف ٦٨٥ ، حياة البلاط
٦٨٩ - ٦٩٠ ، رجل الحاشية ٦٨٤ ،

بروتستنتية (ال) : ٤٦٧ ، ٦٣٠ .
بروج : ٤٧٢ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٦١٦ ،
٧٥٧ ، ٧٦٠ .
برودستريت ، فيلادلفيا : ٧٩١ .
برودهون : ١٩٢ .
بريست : ٦٩٢ .
بروفانس : ٤٦٩ .
بروندينس (رودايلند) : ٣٧٥ .
برونكسفيل : (٤٣) ٩٣٤ .
بروني : ٥٣٢ .
برونيليسكي : ٦٦٩ .
برونيل : ٥٠٠ .
برينانوم : ٢٣٩ .
بريدود ، روبرت : ٢٧ .
بريستول : ٦٥٢ .
بريتيد ، جيمس هنري : ١٠٢ ، ١٥١ .
بريمن : ٤٧٩ .
بشارك : ٤٧٩ .
بطانة (ال) : ٣٥٥ .
بيلرس الأكبر : ٦٥٤ .
بيليموس فيلادلفوس : ٣٦٠ ، ٣٦٣ .
بنداد : ٩٦ .
بغلو : ٩٧٠ .
بكنجهام ، جيمس سيلك : ٨١٠ ، ٩٥٤ .
بلاتيا : ٣٣٧ .
بلاد الإغريق (اليونان) : إساءة الإغريق
انقلاص السلطة الملكية ٢٢٩ ، إعادة تقييم
طريقة الحياة ٣٢٨ ، الإغريق والنظام
الديمقراطي للقرية ٣٤ ، الاستقلال
الشخصي لدى المواطن الإغريق ٢٢٧ ،
الانتشار المنظم للإغريق ٢٥٢ ، التحدي
والجدل الصوري لدى الإغريق ٣١٨ -
٣٢٩ ، الديانة الإغريقية ٢١٨ ،
الفارق بين الإغريق والرومان ٣٦٩ ،
الجناس الإغريقية ومهمتها الديمقراطية ،

بنيان ، جون : ٥٨٥ .
 دينيكس : ٣٦٩ ، ٣٠٣ .
 برو ، نهر : ٣٧٢ .
 بوانك : ٣٥٠ ، ٣٥١ .
 (ال) بوابة : الحضريّة ١١٨ - ١١٩ ؛
 في العصور الوسطى ٥٥٧ .
 بواسوقاد ، پروسبر : ٤٧١ .
 پوتوماك ، نهر : ٧٤٧ .
 بوتير ، جيوفاني : ٥٢٧ ، ٦٦٥ ؛
 ٦٧٣ .
 يودفروك ، آل و رواية : ٤٩٧ .
 پوديسا : ٦٤٦ .
 بودا : ٣٦٧ .
 بورت صنلايت : ٥٢٦ ، ٨٧٨ .
 بورخارد ، يعقوب : ٦٥٠ ، ١٠٣٦ .
 بورديو : ٤٥٠ ، ٤٦٤ .
 (ال) بورصات : ٧٦٠ .
 پورفيريوس : ٢٤٤ .
 بورنفييل : ٥٢٦ ، ٨٧٨ .
 بوزويل : ٧٣٥ .
 بوسطن (بوسن) : (٤٧) ٦٠٧ ؛
 ٩١٦ ، ٩٣١ ، ٩٤١ .
 بوسطن كريست : ٧٣١ .
 بوغازكوي : ١٥٨ .
 بوكاتشو : ٥٣٥ ، ٩٠١ .
 بولفارسان ميشيل : ٤١١ ، ٧١٢ .
 پولمان : ٨١٠ .
 بولونيا : ٣٥١ ، ٣٧٨ ، ٥٠١ ؛
 ٥٦٣ .
 پوليبوس : ٣٤٩ .
 بوليغنوتوس : ٢٩٩ .
 بوليوتيريون : ٢٧٧ .
 پومپي : (١٣) (١٤) ٤٢٤ . الفوروم
 (١٢) .
 پومريوم : ٣٧٢ .
 بوندرباي : ٩٠٤ .

مراسم البلاط الباروكي ٦٩٠ - ٦٩٢ .
 مركز الفهرس الباروكي ٦٨٨ - ٦٩٢ .
 بلاكنيا : ٣٧٧ .
 بلان باليه : ٥٤٥ .
 بلانشار ، رازول : ٧٧٣ .
 بلايفير : ٨٥٥ .
 بلايو : ٤٧٣ ، ٥٥٥ .
 بلدوين هيلز ، قرية : (٥١) .
 بلدية (ال) : أثر الأنظمة والإدارة ،
 البلدية ٩٢٢ - ٩٢٤ أساقفة يرأسون
 البلديات ٤٦١ ، اشتراكية البلديات
 في القرن التاسع عشر ٨٨١ ، الأنظمة
 الصحية البلدية في العصور الوسطى ٥٢٤ ،
 القيود البلدية ٧٦٥ ، أهلية البلدية
 ٤٥٦ ، توحيد الرومان للمعدات البلدية
 العامة ٣٧٥ ، واجب السلطات البلدية
 إزاء مشكلة النقل ٩٤٢ .
 بلزك : ٩٩٤ .
 بلوطارخ : ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٤ ،
 ٣٩٨ .
 بلوطو : ٣٦٦ .
 بلومزبري : (٤٦) ٧٣١ .
 بليك ، ولیم : ٢١٠ .
 بناء القوة الباروكية : ٦٣٢ - ٦٨٧ .
 بناتس : ٤١٠ .
 بنارس : ١٩٦ .
 پنتاجون : (٤٩) ٥٠ ، ١٠٣٣ .
 (ال) بندقية : (انظر فينسيا) ٣٢٥ ،
 ٤٦٤ ، ٤٧١ ، ٥٤١ ، إنشاء البندقية
 ٥٨٩ ، حي دار الصناعة البحرية
 ٥٩٢ ، ٦٢٠ ، صناعة الزجاج بها
 ٥٩٣ ، مزايا تخطيطها ٥٩١ - ٥٩٦ ،
 نظامها السياسي ٥٩٤ - ٥٩٥ .
 بنديكت (من ترسيا) وبنديكتيون : ٣٢٧ ،
 ٤٤٧ ، ٤٩٣ .

- بوندستريت : ٧٣٩ .
 بونر ، روبرت : ٢٥٩ .
 بونفيزين ديلاريقا : ٥٤٨ .
 بويت ، مارسيل : ٣٥٥ ، ٣٨٢ ، ٥٣٤ .
 بوير ، مابل : ٨٦٥ .
 بيانزا ديلاسنيوريا : ٥٤٦ .
 بيانزا ديل بوبولو : ٧١٥ ، ٧٢٢ .
 بيانزا ديل كامبو : ٥٧٠ .
 بيانزا سانتوسا انونزيانا : (٢٥) ٦٤٠ ، ٦٤٢ .
 بيانزاسان كارلو : (٢٨) .
 بيانزيتسان ماركو : ٥٦٢ ، ٥٩٤ .
 بيانززا : ٣٧٧ .
 بيبس : ٥٤٣ ، ٧٢٩ .
 بيبودي ، جورج : ٨٠٠ .
 بيت المقدس : ٤٤٤ .
 بيترونيوس : ٣٩٦ .
 بيتري ، فلتندز : ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٧٢ ، ١٨٦ .
 بيتوريكس : ٣٨٥ .
 بيني : ١٣٧ .
 بيرج : ٥٥٥ .
 بيرد ، تشارلس : ٢٦١ .
 « بيرز الحراث » ، كتاب : ٥١٩ ، ٥٣٧ ، ٧٦٩ .
 بيرفورد : ٦٠٣ .
 بيرك ، جيرالد : ٨١٢ .
 بيركل (كايغورنيا) : (٥٦) .
 بيرن ، هنري : ٧٤ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ .
 بيرنهام ، دانيل : ٧٣٨ ، ٧٤١ .
 بيرو : ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ .
 بيروجيا : ٦٥٧ .
 بيروسس : ٧٢ .
 (ال) بيروقراطية : البيروقراطية ذات
 القواس ٩٨٩ - ١٠٠١ ، أثر النظام
 البيروقراطي في المدينة ٦٥١ ، تحكمها
 في الورق ٧٦٠ ، ظهور الحاجة إلى
 بيروقراطية غير حكومية ٧٥٩ ، ظهور
 بيروقراطية تجارية ٩٩٠ ، عيوب النظام
 البيروقراطي ٦٨٦ - ٦٨٧ .
 بيرى ، كلارنس : ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ .
 بيرين ، جاك : ١٤٦ .
 بيريه : ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣١١ .
 بيريه ، أوجست : ٧١١ .
 بيرزا : ٤٥٢ ، ٦٤٦ .
 بيرنطة : ٣٧٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .
 بيريزتراتوس : ٣٠٨ .
 بيريزيه : ٥٢٨ .
 بيستويا : ٦٢٠ .
 بيكوبين : ١١٢ .
 بيك ، فرانك : ٩٣٣ .
 بيكون فرنسيس : ٦٨٦ .
 بيلجريف سكوير : ٧٣١ .
 بين ، مركز : (٥٤) .
 بين ، ولیم : ٦٠٠ ، ٧٤٥ .
 بيوت انخل : مشاهيرها لمدن : ٨ .
 بيوتيا : ٢٢٥ .
 (ال) تاجر الإنجليزى الكامل ، كتاب :
 ٨٠٢ .
 تارن ، و.و. : ٣٦٥ .
 تائور : ٥٣٧ .
 (ال) تأمين : ٩٩٣ ، نظامه في
 في الحواضر : ٩٩٦ .
 تاونسند : ٨٣٧ .
 تاوت ، توماس فردريك : ٤٧٧ ، ٦٤٩ .
 تبلور المدينة : ٥١ - ٩٧ ، مراحل
 التكوينية ٥٨ - ٥٩ .

٦٣٤ - ٦٤٥ : التوزيع الحضري في
المصور الوسطى ٥٧٥ - ٥٧٦ ،
التوسع التجاري والانحلال الحضري ،
٧٥٦ - ٨٢٢ ، التوسع الحضري رأسى
٥٥٨ ، ٧٩٣ ، الحجم الحضري وصلته
بالحالة الصحية ٢٩٥ ، الخواص الحضرية
الجديدة ١٢٤ - ١٢٥ ، الدورات
الحضرية ١٠٣٠ ، الزائدون عن الحاجة
١٧٢ ، الشبكة الحضرية الوظيفية
١٠٤٥ ، الشخصية الحضرية ٢٥١ ،
المقدمة الحضرية في العالمين القديم والجديد
١٦٣ - ١٦٦ ، القرى الحضرية في
المصور الوسطى ، ٤٥٧ - ٤٥٨ ،
المجتمعات الحضرية في العالم الجديد ٩٦٠ -
٩٦١ ، المزايا الحضرية الباكورة ١٣١ ،
المساكن الحضرية وإنكارها ٨٥٢ ،
المناسبات الدرامية في الحياة الحضرية
٢٠٨ - ٢٠٩ ، النسق الحضري
للتوسع في المصور الوسطى ٥٧٥ ،
ألوان الفن الحضري ١٢٢ ، الوظائف
الحضرية : ١٦٩ - ١٧٧ خلط
الإغريق بينها ٢٧٧ ، توزيعها في المصور
الوسطى ٥٦٣ ، إهمالها ٧٢٠ ، تفرقتها
في الضواحي ٩٤٣ ، الوعاء الحضري :
٥٩ ، ١٧٤ ، استمرار بقاء العيب
فيه ٦٠١ ، الوعاء الحضري الهليني ٣٦٢
تخطيط النمو الحضري وعواقبه ٩٥٢ -
٩٧٣ ، تخطيط نمو ولاية نيويورك
٩٧٠ - ٩٧٢ ، تدبير الشئون الحضرية
في المصور الوسطى ١١١ ، تدبير الخلايا
الاجتماعية ١٠٠٧ ، تركيز المنشآت
الحضرية ٥ ، تشخيص موارد المجتمع
الحضري ٩٦٠ - ٩٦١ تشبث طريق
التراث الحضري ١٥٩ ، تفرق طرق
المجتمع الحضري ٤ ، تكوين حضري
جديد في المصور الوسطى ٥٤٧ ، دلائل

(ال) تجار : حى التجار قديما ٤١٩ ،
٤٥٧ ، الروح التجارية في المصور
الوسطى ٥٧٧ - ٥٧٨ ، طبقة جديدة
من التجار ٤٥٧ ، عدم ثقة الإغريق
بالتجار ٢٣٧ ، موتف أرسطوحيال
التجار ٣٣٥ ، نقابات التجار ٤٩١ -
٤٩٢ ، نمو الروح التجارية ٢٤٨ .
(ال) تجارة : الدولية ٤٦٢ - ٤٦٣ ،
ازدياد أهميتها ٦٢٠ ، التجارة مع
البلاد البعيدة ٧٥٨ ، توسع سوق البيع
بالجملة ٧٤٨ ، عودة انتماش التجارة
٥٩ ، المراكز التجارية ٧٦٩ ، ٧٧٢ -
٧٧٤ ، المشروعات التجارية ٧٥٧ ،
المدينة التجارية واتساعها الأتق ٧٩٣ ،
التوسع التجاري والانحلال الحضري ٧٥٦ -
٨٢٢ .
تجمع عناصر القوة في المدينة : ٦٠ تفسيره
وعوامله ٦١ - ٦٢ .
(ال) تحصينات : الأولى ١١٧ ، الباروكية
الجديدة ، ٦٥٧ - ٦٦١ تكاليف إنشائها
٦٥٨ ، حاجة التحصينات إلى المهندسين
٦٦١ ، رسالة دور عن تحصين المدن
٦٦٠ ، طبيعة التحصينات ١١٨ - ١١٩ .
(ال) تحضر : إحصاء أوجوه نشاط
المدينة ١٧٠ ، أساس الحياة الحضرية
٣ ، الاختزان الحضري ١٧٦ ،
الاستعمار الحضري الإغريق ٢٥٢ ،
الرومانى ٣٧٦ - ٣٧٨ ، في المصور
الوسطى ٤٧٠ ، في نيوانجلند ٤٧٠ ،
الأشكال البدائية للمنشآت الحضرية ٢١ ،
الانقلاب الحضري ٥٤ ، البقايا الحضرية
ونقص ما فيها من أدلة ٩٨ ، الأورام
الحضرية وسوء تفسيرها ١٠٣٧ ،
التجارة الحضرية والكتابة ١٧٤ ، التحضر
المضوى ٥٥٢ - ٥٥٥ الترابط الحضري
٦٢٣ - ٦٢٥ ، التمتع الحضري الجديد

إرشادات أبقرات واتخاذها قواعد حضرية
 ٢٥٣ - ٢٥٤ ، استغلال طبيعية الموقع
 ١٥٩ ، أقدم تخطيط معروف ١٣٧ ،
 ١٣٨ ، الأساس الاقتصادي في تخطيط
 الضواحي ٩٠٦ - ٩٠٨ ، التخطيط
 التجاري المثالي ٧٧٦ - ٧٧٩ ،
 التخطيط عدم الشخصية ٧٨١ ، التخطيط
 المعصومي ٥٥٢ - ٥٥٥ ، ٧٢٥ ،
 التخطيط على أساس وحدات للجوار
 وخطط وظيفية ٥٦٨ - ٥٧٢ ، التخطيط
 المجرد ٧٢٣ ، أونوين يحدد وصف التخطيط
 المعب ٩٢٢ - ٩٢٣ ، تخطيط المدن
 الحديثة التحسين ٦٥٨ - ٦٥٩ ،
 قواعد التخطيط في العصور الوسطى
 ٥٤٦ - ٥٥٨ ، نظام التخطيط في مصر
 وبواعة ١٥٥ - ١٥٦ ، نظام في عهد
 الرومان ٣٧٢ - ٣٧٥ ، هدف التخطيط
 السليم ٨٧٨ .
 (ال) تخطيط : الباروكي ٧٣٧ - ٧٤٢ ،
 الشبكي ونشأته ٣١١ ، انتشاره ٣٤٦ ،
 ٧٧٩ - ٧٨٥ ، نتائج تطبيقه ٣٤٩ ،
 الشبكي الأمريكي ٣٥١ ، التخطيط على
 هيئة النجم ٧١٤ - ٧١٧ ، التخطيط
 الكندي الباكر ٧١٦ ، التخطيط المحوري
 ٤٠٥ ، المحوري الهليني ٣٥٢ -
 ٣٥٣ ، المستطيل ٣٧٢ ، ٥٥٠ -
 ٥٥١ ، الملطي ٣٤٥ ، موطن الضعف
 فيه ومزاياه ٣٤٧ - ٣٤٨ .
 التخطيط العام على أساس المضاربة : ٧٧٦ -
 ٧٨٦ .
 تخطيط باريس : مشروع تيرجو . ٧٣٠
 مشروع كولبير ٧٣٨ .
 " تخطيط موجز لتجهيز " ١٠٣٠ .
 (ال) تدمير : ٨٩ - ٩٧ ، التدمير
 البعيد المدى ٦٦٣ ، التدمير على يد
 الآشوريين ٩٦ ، أجهزة التدمير

حديثة على الانحلال الحضري ٤٤٠ ،
 شواهد المصورات الحضرية في المصور
 الوسطى ٤٧٣ ، طفرات حضرية ٦١٤ ،
 ظهور الفوارق في الترابط الحضري
 ١١٠ - ١١١ ، كوكبة حضرية ١٠٤٨ ،
 ما قدمه الرومان للتراث الحضري ٤٢٥ ،
 مظاهر الجبال الحضري الهليني ٣٥٤ -
 ٣٥٥ . الروماني ٤٤٠ ، في المصور
 الرسومي ٥٥٥ - ٥٥٧ ، ٥٤١ -
 ٤٤٤ ، مقارنة بين المناطق
 الحضرية ١٠٠٢ - ١٠٠٣ ، نمو
 المجتمعات الحضرية ١٠٢٣ .
 تحكم : في النمو والتوسع ، ٥٧٢ - ٥٨٨ .
 (ال) تحكم : ٧٦٠ ، آلة التحكم الحديثة
 ١٠٠٥ ، تحكم لا سبيل إلى التحكم فيه
 ١٠٢٨ ، الحاجة إليه في روما ٤٣٤ ،
 الاهتمام الحضري بوسائل التحكم ١٥٨ ،
 مركز التحكم ١٥١ - ١٦١ ، مركز
 التحكم لدى المصريين ١٤٤ ، مظاهر
 التحكم في الحواضر ١٠٠٤ - ١٠٠٥ ،
 منشؤه ١٧٧ - ١٧٩ .
 (ال) تخصص : التخصص الجنسي ١٨٨ -
 ١٨٩ ، التخصص الحضري ١٨٥ ،
 التخصص في العهد الحضري الباكر ١٣١ ،
 التخصص في المجتمعات البشرية والحضرية
 ٨١ ، أنواع التخصص في مصر ١٧٦ -
 ١٨٧ ، تجنب الإثنيين التخصص
 ٢٩٩ - ٣٠٥ .
 تخطيط الطرق : الاعتبارات الباكرا فيه
 ١٣٢ ، ١٥٥ ، ٣٤٩ ، انعدام النظام
 في المدن الباكرا وسببه ٢٩٤ ، رأى
 أرسطو في تخطيط الشوارع ٣٣٧ ، مراعاة
 اعتبارات النقل ٣٥٢ ، نظام الطرق
 الرومانية ٣٩٤ .
 تخطيط القنارات الثلاث ٨١٥ .
 تخطيط المدن : ابتكار هيبوداموس ٣١١ ،

٤٢١

- تطور المهام الحضرية ١٦٩ - ١٧٧ .
تطور دور الصيد في مجتمع العصر الحجري
القديم والحديث ٤٤ .
(ال) تمارن : الاختيارى ١٦٠ ، ٤٦٨ ،
الجامعى ١٠٤ ، المدينة كظهر للتمارن
العالمى ١٠٤٢ .
(ال) تمدين : التخصص في العمل بالمناجم
١٨٩ ، المنجم وأثره الهدام ٨٣١ ،
٨٣٢ ، التمدين على نطاق صغير ٨٤١ ،
منافاته للحياة ونظامها ٨٣١ .
تفكك الإمبراطورية الرومانية : ٤٣٨ ،
٤٣٩ ، ٤٥٠ .
تقسيم الطبقات : في العصور الوسطى ٤٩٩ ،
في روما ٣٩٦ ، في نظر أرسطو ٣٣١ ،
٣٣٥ ، في نظر أفلاطون ٣١٤ - ٣١٧ .
تقسيم العمل : أثره في تكوين الهرم الاجتماعى
١٩٥ وفي تكوين الشخصية ١٩٦ ،
وفي تطور مجتمع المدينة ١٩٧ ، صلته
بأول نظام اقتصادى للوفرة ١٩٥ ،
عوامله ومظاهره وآثاره ١٨٤ - ١٩٢ .
تقنيات التجميع : ٨٣٩ - ٨٤٥ .
(ال) « تقنيات والمدينة » ، كتاب ٦١٣ :
٨٧٤ ، ٩٨٣ .
(ال) تكافل : ١٩ ، ٩٦ ، الإيجابى
١٩٨ ، ٢٠٢ ، السلبى ١٩٨ ، حالة
تكافل إيجابى ١٠٥٢ .
تكتلات متحضرة : ١٦٧ .
(ال) تكتل الحضري : ٨٦٨ ، ٩٨٢ ،
العوامل التى ينشأ عنها ١٠٠٢ .
تكر : ت . ج . ٤٢٩ .
قل العارفة : ١٤٥ ، ١٥٥ .
قل الكابيتول : ٤٠٣ ، ٦٤٢ .
تل ستروبيرى : ٦٣٣ .
(ال) تليستيريون : ٣٦٦ .

١٠٢٩ ، التدمير في العصر الحاضر

١٠٥٨ - ١٠٥٩ .

- تدهور العصور الوسطى ، كتاب : ٦٣٧ .
تراث روما الحضري : ٤٢٧ - ٤٣٤ .
تراجان : ٣٧٣ ، ٣٨٩ .
تريمايوس : ٢٩٦ .
تريمر : ٤٤٣ .
تاليا : ٢٢٥ ، ٣٣٧ .
تشايجان : ٦٠٢ .
تشاهايم (قرية) : (٤٣) .
تشادويك : ٨٨٢ .
تشارستون : ٥٧٤ .
تشارلى تشابلن : ١٠١١ .
تشانديجار : ٩٣٠ .
تشايلد ، ف . جوردون : ٢٢ ، ٥٤ ،
٦٥ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٨٤ ،
٢١٤ .
تشتن - اتزا : ١٦٦ .
تشرشل ، ونستون : ٤٠٢ .
تشريعات المباني : ٧٥٤ .
تشتير : ٣٧٥ .
تشوسر : ٤٦٧ ، ٥٠٤ .
تشينج كامدن : (٣٣) (٤٢) ٦٠٣ .
(ال) تضخم : ١١٥ ، الاتجاه نحو التضخم
وعوامله ١١٦ - ١٢٣ ، الأثر في
تضخم - ملحة الملك وحياة الناس ١٢٤ ،
١٢٦ ، التضخم في المدينة الإغريقية
٢٣٨ ، تضليل التضخم وكيف نشأ
١٧٥ ، الفسحامة غاية ٣٦٤ ، روما
وحركة التضخم ٣٨٧ ، زيادة الأحجام
في العصر المليونى ٣٥٢ ، ٣٥٦ -
٣٥٧ ، عوامل التضخم في
الفن ١٢٥ ، مظاهر التضخم في مصر
الفرعونية ١٤٣ - ١٤٤ ، مظاهر
تضخم الذات الجماعية وعبادتها ٢٦٢ -
٢٦٥ ، مظهر التضخم في السيرة الرومانية

- (ال) تليفزيون : كبديل عن الحياة : ٤٢٠
 تناجرا ٣٤٤
 تندر ، ، الأستاذ كريستوفر : ٨٩٣ .
 تنظيم الاكتظاظ : ٧٩٥ - ٨٠١ .
 تنظيم النقل والمبادلة : ٧٧٢ - ٧٧٦ .
 تنوشيتلان : ١٦٦ .
 توحد حضارة المصريين الحجري القديم
 والحديث ٤٤ .
 تورشيلو : ٤٣٩ .
 تورينجتون سكوير : ٧٣١ .
 تورينو : (٢٨) ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٦ ،
 ٣٧٩ ، بوانك تورينو ٣٥٠ .
 (ال) توسع التجارى والانهلال الحضري :
 ٧٥٦ - ٧٦٣ .
 توسكانيا : ٣٧٦ .
 توكفيل ، أليكس دو : ٩٥١ ، ١٠٥٧ .
 توكيو : ١٠٣١ .
 توماس ، بيكيت : ٤٨٥ ، ٥٧٦ .
 تومسون ، وارن : ١٠٠٠ .
 توينبى ، أرنولد : ١٧٣ ، ١٨٧ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤٣ ،
 ٦٢٥ .
 تيامات : ٤٦ ، ٩١ .
 تيتوس : ٤٢٤ .
 تيرتايروس : ٢٥٥ .
 تيرجو : ٧٣٥ .
 تيرينس : ٤١٣ .
 تيسوس : ٢٢٠ ، ٢٨١ .
 تيفولى ، حدائق : ٦٩٥ .
 تيلبرى : ٧٧٤ .
 تيمجاد : ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
 تين : ٦٩١ .
 تيودور ، ملوك أسرة : ٦٥٥ .
 ثروة الأمم ، كتاب : ٨٢٧ .
 تيسيس : ٢٩٢ .
 ثكنات الجيش : بناؤها لأول مرة : ٦٦٥ .
- ثمن التوسع الحضري : ٧٨٦ - ٧٩٠ .
 ثميستوكليس : ٢٧٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ .
 ثورندايك ، ادوارد ، ل : ٩٢٦ .
 ثورندايك ، الأستاذ لين : ٥٣٢ .
 ثورة الأرقاء : ١٩٤ ، ٤١٨ .
 (ال) ثورة الزراعية : ١٧ - ٢٠ ،
 ٣٠ ، ٣٢ .
 « ثورة المدنيات » : ١٧٢ .
 ثوريوم : ٣٤٨ .
 ثوكيديديس : ٢٢٨ ، ٢٦٢ ، ٣٠١ ،
 ٣٣٧ ، ٣٦٦ .
 ثيرا : ٢٦٨ .
 ثيرسيستس : ٢٢٧ .
 جاردني ، الأسقف : ٦٠٦ .
 جارى (بولاية انديانا) : ٨٦٨ .
 جاسترو ، موريس : ٢١٨ .
 جاسكيل : ٨٦١ .
 جاكوبسن ، ثوركيلد : ٣٣ .
 جالاتيو : لوسته : ٦٩٩ .
 جاليبوليس : ٦٠٨ .
 جاليونوس : ٢٥٤ .
 (ال) جامعة : بدء ظهورها في المصن
 الوسطى ٥٠١ ، ظهورها القديمة ٥٠٢ ،
 معاداة الروح التجارية للجامعة ٥٧٧ ،
 وظائفها ٥٠٢ .
 جبل أتوس : ٤٤٦ .
 جبل سيناريو : ٤٤٧ .
 جبل كاسينو : ٤٤٦ ، دير ٤٤٩ .
 جراد جريند : ٩٠٤ .
 جراكوس : ١٩٤ ، ٤١٨ .
 جرانبريه - مولير : ٦٠٥ .
 جريزود ، دير النساء في ٤٦٠ .
 جروفتر : ٧٣١ .
 جروس ، تشارلس : ٤٩٢ ، ٤٩٩ .
 جريجورى الأكبر : ٦٣٢ .

جريتز إن : ٧٢٨ ، ٧٢٧ .
 جريتز بورو (٤٧) .
 جرينوبل : ٧٧٣ .
 جزر بحر إيجه : ١٢١ ، ٢١٢ ، ٣٤٢ ،
 طبيعة مذهبها وعوامل حياتها ٢١٣ -
 ٢١٤ ، مبتكراتها ٢٢١ .
 (ال) جزر في روما ٣٩٧ ، ٣٩٩ ،
 استمرار أوضاع الجزر الرومانية ٤٤٥ .
 (ال) جزويت : ٤٨٧ .
 جزيرة پاروس : ٢١٢ .
 جزيرة كوني : ٦٩٧ .
 جلائيل ، يوسف : ٦٣٧ .
 جليكتات : ٧١٤ .
 جلدات نصر : ١٠٨ .
 (ال) جميات السرية الحضرية : ٣٦٥ -
 ٣٦٦ .
 (ال) الجمعية الشعبية في أثينا : ٢٠٥ ،
 ٢٧٨ ، ٣٠١ ، نوع جديد ٤٤٣ .
 خمية يسوع : ٦٢٣ .
 (ال) جناز يوم : ٢٣٩ ، ٢٤٧ - ٢٥٠ ،
 ٢٥٥ ، ٢٩٢ ، تعدد دور ٢٩٣ ،
 تطوره ٣٠٦ .
 (ال) « جمهورية » ، كتاب : ٣١٣ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
 (ال) الجند المرتزة : ٦٤٦ .
 (ال) جنتول : ٥٨٩ .
 جنرال ، مورتورز ، شركة ٩٤٢ .
 (ال) جنس : الثورة الجنسية ١٧ الحياة
 الجنسية في روما ٤٦٦ ، الحياة الجنسية
 في العهد الباروكي ٧٠٦ - ٧٠٧ ،
 الرموز الجنسية ٢٢ الطقوس المقدسة
 للمخالطة الجنسية ١٤٠ المخالطة الجنسية
 في المصور الوسطى ٥٢١ .
 جنوة : ٦٤١ .
 جنيف : ٤٧٥ .

جنيتر ، سوم : ٩٠٣ .
 (ال) جهاز الحكومي : الحاجة إلى الإدارة
 عن طريق الإنابة ٦٤٩ ، إطراد التطور
 ٩٩١ ، حالة الجهاز الحكومي في المصور
 الوسطى ٦٤٨ .
 جوارينوفس : ٥٣٥ .
 جويتر بيلوس : ١٤٠ .
 جوتو : ٥٢٦ .
 جوتو : ٥٨٥ ، بيرج جوتو (٢٦) .
 جودريتش : ٧١٦ .
 جورجتاون : ٧٥٣ .
 جورج هنري : ٧٨٦ .
 جورجياس : ٣٠٩ .
 جوردان ، منطقة في امستردام : ٨١٨ .
 جورنيا : ١٠٩ ، ٢١٦ .
 جوستيان ، تشريعات : ٤٣٩ .
 جولدايسيت ، أوليشر : ٦٩٦ .
 جون السالبيوري : ٤٥٣ .
 جويتشاردين : ٦٥٦ .
 جيديس ، باتريك : ٤٩ ، ٩٥ ، ٢٤٣ :
 ٤١٨ ، ٧٩٩ ، ٨٥٨ ، ٨٦٨ :
 ١٠٠١ ، ١٠٣٠ .
 جيرك ، أوتو : ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٥٢ .
 جيروم (القديس) : ٤٣٣ ، ٤٤٦ .
 جيفرسون ، توماس : ٣٨٦ .
 جيل ، برتراند : ٤٦٩ .
 جيلجاميش : ٣٩ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٧ :
 ١٠٥ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٢٥ :
 ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٨٩ .
 جيمس الأول : ٦٨٤ .
 جيمس ، هنري : ٢٤٥ ، ٢٩٢ ، ٤٨٨ :
 ١٠٣٦ ، ١٠٣٩ .
 جيمس ، وايم : ١٢٢ ، ٩١٥ .
 حاتحور : ١٥٠ .
 (ال) حاضرة : احتكار الحواضر لتجارة

٩٩٧ ، إزالة الحدود في الحواضر
١٠٠١ - ١٠٠٦ ، الاستغلال المالى
في الحواضر ٩٨٤ ، الحدود المادية
لتوسع الحضارة وأثرها ١٠١٦-١٠٢١ ،
العوامل المسيطرة على الحواضر ٩٩٣ ،
انتشار وغائف الحواضر ١٠٤٣ ،
انعدام الصفات المميزة ١٠٠٦ -
١٠٠٨ ، تدهور الحواضر ١٠٢٥ ،
توسعها ٩٨١ - ٩٨٢ ، توسع نظامها
الاقتصادى ١٠٠٩ - ١٠١١ خرافة
الحواضر ١٠٣٧ ، ضمان مركز المضاربين
في الأراضي ٩٩٥ ، رسالتها بوصفها
مراكز عالمية ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، زوال
الاحتكار الحضري ١٠٤٤ ، سكان
الحواضر ٩٨٠ - ٩٨٢ ، طابعها العام
٩٩٨ ، ١٠١٥ ، عدم استقرار مدنية
الحواضر حاليا ٩٧٤ - ٩٩٥ عوامل
التحكم فيها ٩٩٠ ، ٩٩٧ ، ١٠٠٤ -
١٠٠٥ فاقة الحياة في مجتمع الحواضر
١٠١١ - ١٠١٢ ، فرط الازدحام بها
١٠٠٩ - ١٠١١ ، فشلها ١٠١٤ ،
مثل بارز لتأخر حضارى غريب ١٠٠٨ ،
مراكز لعمليات التجهيز ١٠٠٤ ، مظاهر
التنظيم القتال في الحواضر ٩١٦ - ٩٨٧ ،
مكاسب اجتماعية أقدمتها مدنية الحواضر
٩٨٧ ، مكافة الورق في الحضارة
١٠١٣ - ١٠١٤ ، نظام الحواضر
الاقتصادى ٩٧٥ ، نمو الحواضر ٩٧٧ ،
نواحي مدنيها المتأخرة للعقل ١٠٠٩ -
١٠١١ .
حالة الإنسان ، كتاب : ٤١٧ .
حاموراني : ٤٢ ، ٩٤ ، ١٤٩ ، ١٩٣ .
حاجية المدينة : ٦٦٦ .
حتشبسوت ، معبد الملكة : (٤) .
حدائق الأمير ، اذبرة ، ٨٣٢ .
حدائق فورست ديلز ، ضاحية : ٩٢٧ .

الدولة المملوكية السلطان ٦٨٦ ، الإمارات
الحضرية على الحكم الاستبدادي ٦٨١ ،
حاجة المدينة إلى الإكراه ٦٧٩ - ٦٨٠ ،
سلاح النظام الاستبدادي ٦٦٧ ، ظهور
الحكم الاستبدادي واقتضائه ٦٣٥ ،
٦٦٣ - ٦٦٤ ، نوع منه في الفوضى
٩٥١ ، وسائل الإكراه ٦٥٤ .
(ال) حكم الذاتي : عودة مصر إليه
١٤٦ ، ١٤٨ ، نظامه المحلي في بلاد
الإغريق ٢٥٦ - ٢٥٧ ، نظامه في
الأقاليم الرومانية ٤٣٦ - ٤٣٨ .

حكومة روزنفلت : ٩٩٥ .

(ال) حمامات : الخاصة والعامة لدى
الإغريق ٢٩٦ ، ولدى الرومان ٤٠٠ -
٤١٢ ، سو. سميتها ٤١٢ ، كأماكن للهو
الزوار ٥٣٦ - ٥٣٧ ، كتجمعات
للملاحة بالمياه المعدنية ٢٥٤ ، مكائنها
في المصور الوسطى ٥٣٥ - ٥٣٦ مكائنها
لدى الرومان ٤٠٩ ، وقف استخدامها
في العهد الباروكي ٧٠٨ ، ٧٠٩
حمامات كراكلا : ٤٠٧ ، ٤٢٥ .

(ال) حماية : ٨٩ - ٩٧ ، اتاوات
للحماية ٤٠ ، الحاجة إلى الحماية ٤٥٠ -
٤٥٩ ، الحماية الإقطاعية الحديثة ٤٩٤ ،
الحماية الرومانسكية ٤٥١ ، الحماية الجماعية
٤٨٩ ، الحماية على يد الأساقفة ٤٦٠ .

(ال) حوانيت : استمرار بقاء الواجبات
المفتوحة للحوانيت ٤٤٥ ، تفقد
الحوانيت شاغل مثير ٨٠٣ ، الحوانيت
ذات الطراز الحديث ٨٠٢ .

« حويلات أسرة فلورنسية » ، كتاب : ٤٧٣ .
« حويلات الانجلوسكسون » ، كتاب : ٤٥٥ .
حياة الإنسان الباكر الاقتصادية : ١٦ .
حياة التنقل : ٣٨ ، ٧٥ ، في روما ٤١٣ -

٤١٦ .

بلا مدن لدى الاسبرطيين ٨٦ ، تسرب
الحضارة ١٨١ - ١٨٢ ، تميز الحضارة
٣٠٤ - ٣٠٥ ، حضارة الإغريق ،
حضارة الرومان ٣٦٩ ، صلة عصرنا
الحاضر بحضارة المدن الهلنيسية ٣٦٢ ،
مظاهر الحضارة الرومانية وأساسها ٣٧٠ -
٣٧٢ ، فصل المنشآت الهندسية الرومانية
٣٨٩ ، ماقدمته روما للتراث الحضري
٤٢٥ ، ٤٢٧ - ٤٣٤ ، ثلاثي الحضارتين
الهلينسية القديمة والرومانية ٤٢٥ -
٤٢٦ ، روما والعمران الحضري الحاطي
٤٤٠ ، نهاية العمران الحضري الروماني
٤٤٤ ، حركة العمران الحضري وأمره
الإقطاع ٤٥٩ ، ٤٧٦ ، انتعاش الحضارة
التربية في القرن الحادي عشر ٤٦٢ ،
الحضارة الباروكية ٦٩٧ ، الحضارة
الدينية ٤٤٧

حضارة العالم الجديد : اثبات والتباين مع
حضارة العالم القديم ١٦٢ - ١٦٧ .
حضارة القرى الإغريقية : طابعها وأثرها
في تطور حضارة المدن ٢٢٤ - ٢٣٨ ،
عوامل تطورها ٢٣٨ - ٢٥٩ .
« حضارة المدن » ، كتاب : ١٠٣٠ ،
١٠٦٢ .

(ال) حضارة المينوية : بدء ظهورها
٢١٥ ، أثرها في المدينة الإغريقية
٢٢٠ ، معالمها ٢١٦ - ٢١٧ .
(ال) حفلات الراقصة : التنكرية ٦٩٥ ،
تأليفها الباطلة ٦٨٥ .

حقوق الملكية الخاصة : نشأتها واستقرارها
١٩٢ - ١٩٣ ، نكرانها من جانب
أفلاطون ٣٢٨ .

« حقول ومصانع ودور للتشغيل » ، كتاب :
٩٥٣ .

(ال) حكم الاستبدادي : أسسه الحديثة
٩٥١ - ٩٥٢ ، السياسة الاقتصادية في

- ٢٥٠ - ٢٥٢ ، ٢٥٤ .
 (ال) درج الأسباني : (٢٧) ٦٤٣ .
 دوسدن : ١٨٢ ، ٦٩٨ .
 درهام : ١٥٩ .
 (ال) دعارة : الاحتراف المبكر ١٨٩ ،
 نشأتها ١٩٠ : في المصور الوسطى
 ٥١٢ .
 دقلديانوس : ٤٠٧ ، ٤٢٤ .
 دكموس يوفوس بروتوس ٤٢٢ .
 دلي : ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ - ٢٥٩ ،
 ٢٧٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ .
 « دايل الطرق في فرنسا » : ٦٥١ .
 دمشق : ٩٦ ، ٣٨٣ .
 دتكر : (٣٤) .
 دو بورز : ٧٦٠ .
 دورا - أوروبوس : ٣٥٣ .
 دور الأوعية في مراحل التحضر : ٢٧ - ٣٠ .
 دور الحضارة : ٣٢٦ .
 دور المدينة العالمية في الحضارة ١٠٣٨ -
 ١٠٤٢ .
 دور المرأة في الاستئناس : آثاره في العصر
 الحجري الحديث ١٩ - ٢٠ ، أثرها
 في القرية ٢١ .
 دور المرأة في تطور صناعة وحضارة العصر
 الحجري الحديث ٢٦ - ٢٧ .
 دورر ، ألبريخت : ٥٠٧ ، ٦٦٠ .
 دورة المدنية : ٩٧٤ .
 دوق دوسان سيمون : ٦٨٥ .
 (ال) دولة الحديثة : أمارات بدتكوينها
 ٦٤٩ .
 دوسداي ، كتاب : ٤٧١ .
 دوموزي : ٤١ .
 دونكاستر : (٥٠) .
 دونورا (بنسلفانيا) : ٨٨٩ .
 ديانا الأسرار : ٣٦٥ - ٣٦٩ .
 ديترويت : ٨٦٨ .

- خالكيس : ٢٤٩ .
 خايرونيا : ٢٥٨ ، ٢٦٣ .
 خرافة المدينة العظمى : ٩٧٤ - ١٠٥٠ .
 خطر الفاعلية الإشعاعية : ٨٩٠ .
 خفاجة : ١١١ ، ١٨٣ .
 (ال) خلوة : انعدام الخلوة في حجرة
 النوم في المصور الوسطى ٥٢١ ،
 أهمية الخلوة ٤٨٨ - ٤٨٩ ، بدء الميل
 إلى الاختلاء وأثره في تعديل بيت المصور
 الوسطى ٥١٩ ، ظهور العزلة ٧٠٣ ،
 نمو العزلة ٧٠٥ - ٧٠٦ .
 خورساباد (خورزباد) : ٦٦ ، ١١٠ ،
 ١١٥ .
 (ال) خوريجوس : ٢٩١ .
 خيوس : ٢٣٨ .
 دار البلدية : الإغريقية ٢٥٩ ، ٢٦٦ ،
 ٢٨٣ ، في المصور الوسطى ٤٩٦ -
 ٤٩٧ .
 دار التوفيق ، حركة : ٩٢٧ .
 دار السوق : ٤٩٢ ، ٤٩٦ .
 دار الصناعة البحرية بالبندقية : (٣٤) .
 دار المدينة : ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٤٩٢ ،
 ٤٩٦ .
 دار النقاية : ٤٩٢ .
 دار أوبرا سان كارلو : (٢٩) .
 دارهل : ٩٢٨ .
 داووين : ٨٣٥ .
 دافيتل : ٦٨٥ ، ٧٦٨ ، ٧٩٦ ، ٨٠٤ .
 دانتزيغ : ٤٦٤ .
 دانتق : ٥٠٤ ، ٥٨٢ ، ٦٢٧ .
 دارنر وبلنت : ٨٨٢ .
 (ال) دراما : بدء نشأتها ٢٠٤ ، تطورها
 ٢٥٠ - ٢٥٢ كظهر لتطور الحضرة

ديموسثينيس : ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣٣٠ ، ٣٥٩ .

(ال) دين : آثاره : في المجتمع الفرعوني

١٤٧ ، ١٤٩ في تدعيم السلطة الملكية

١٧٨ ، في تشابه مدن المايا ومدن المصريين

١٥٤ ، في تطور مجتمع المدينة ٨٦ ،

في حياة المدن الإغريقية ٢٥٢ ، ٢٥٣ :

٢٥٩ ، في قيام المدينة ٥٧ ، في نشأة

الدراما ٢٠٤ ، في وظيفة المدينة ١٧٧ -

١٧٨ ، آلهة مصر وأثرها في تكوين

مدنها ١٥٠ ، بحث الصلة بين الديانات

المبكرة ٢١٨ ، دور الدين في حياة

القرية الإغريقية ٢٢٦ ، صلته بقيام

الحروب المبكرة ٧٢ - ٧٥ ، صلته

بنظام الحكم الملكي ٦٦ ، مبلغ أهمية

دور رجال الدين ٦٨ ، ٦٩ .

دينوكراتيس : ٢١٤ .

ديوتيماء : ٢٤٤ .

ديوجينيس : ٣٥٠ .

ديوكليس : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٦ .

ديونيسيوس : ٢٤٤ ، ٢٥٠ .

ديونيسيوس من هاليكارناسوس : ٣٨٨ .

ديوى ، جون : ٢٦٢ .

(ال) ذرة : مخاطر القوى الذرية ١٠٣١ ،

معابد الذرة ١٠٥٨ ، منافاة التضحيات

الذرية لأحكام المثل ١٠٥٩ ، وحشية

عصرنا الذرى ٩٦ .

(ال) رابطة الرومانية : ٤٣٢ .

رابليه : ٦٣٣ .

رادبرن : (٥١) ٥٩٥ ، تخطيط رادبرن ٩٣٠ .

(ال) رأساية : بدء مظاهر نشاطها

الباكر في العصور الوسطى ٤٦٥ -

٤٦٧ ، تحولها إلى النزعة العسكرية

(ال) دير : ٢٤٥ ، الدير والمجتمع

٤٤١ - ٥١٠ ، أفضال الدير وخدماته

الخاصة والعامّة ٤٤٨ ، ٤٦٩ - ٤٧٠ ،

٤٨٨ - ٤٨٩ .

ديرتيليسا : ٦٣٣ .

ديرسان جورجو : ٥٩٢ .

ديرسنت أورم : ٤٥٥ .

دير طائفة البندكتيين : ٣٢٧ ، ٤٤٧ -

٤٤٩ .

دير فولدا : ٤٢٩ .

ديركليفو : (١٨) وصف نظامه الصناعى

٤٦٩ - ٤٧٠ .

ديروستمنستر : ٤٤٩ .

« ديزى مياره قصه : ٣٩٢ .

ديفو ، دانيل : ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٧٠٦ .

ديكارت : ٥٧١ ، ٦٣٨ ، ٧٢٤ .

ديكاميرون : ٩٠١ .

ديكايارخوس : ٢٩٣ .

ديكر : ٢١١ ، ٦٠٢ ، ٧٦٣ .

ديكنز ، تشارلس : ٧٥٠ ، ٨٢٥ ،

٩٠٤ ، ٩١٠ ، ٩٩١ .

(ال) ديكومانوس : ٣٧٣ ، ٣٨١ .

ديلفت : ٧٧٣ .

ديلوس : ٢٤٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ .

ديمر : ٤٦ .

(ال) ديمقراطية : أدوار نشأتها لدى

الإغريق ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

الدلالة الأولى للاتجاه نحوها ٢٧٧ ،

الديمقراطية الآثينية وشواحبها ٢٤١ -

٢٤٢ ، النظام السياسى الديمقراطى فى

أمريكا ٦١١ ، محاولات المدن الإغريقية

لتطبيق قواعد الديمقراطية ٢٧٧ -

٢٧٩ ، وجوه النقص فى الديمقراطية

٢٧٩ .

(ال) ديمقراطية فى أمريكا ، كتاب :

٩٥١ .

روتيلوس زاماتيانوس : ٢٧١ ، ٢٨٤ .
 روثاستيد : ٤٤٦ .
 رودان : ٤٣٣ .
 رودس : ٢٣٤ ، ٢٧٣ ، تمثال رودس
 . ٣٥٦ .
 روسو ، جان جاك : ٤٣ ، ١٦٨ ، ٤٧٥ .
 روسيا السوفيتية (الشيوعية) : ٦٤ ،
 . ١٧٩ ، ٣١٩ ، ١٠٤٩ .
 روشفورد ، جارد : ٤٦٩ .
 رولاند يارك : ٩٢١ .
 روما : إنشاء روما ٣٨٦ ، ازدحامها
 بالسكان ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، تحويل معابدها
 إلى كنائس ٤٤٣ ، تنظيم حركة المرور
 بها ٣٩٥ ، جاذبية روما ٣٧٩ ،
 جزر روما ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، الحاجة فيها
 إلى إحراق الخشب ٣٩٤ ، حياة الطفل
 فيها وأثرها ٤١٣ - ٤١٦ ، حمامات
 روما العامة ٤٠٩ ، ضخامة المعابر فيها
 ٣٨٧ ، ٤٢٨ ، وصف الشوارع فيها
 ٣٨٩ ، روما أعظم معرض ٤٢٧ ،
 روما المالية ٤٠٣ ، سوء الحالة الصحية
 ٣٩١ - ٣٩٣ ، طابعها في المدن الأخرى
 ٣٨٠ ، فرط ازدحام المساكن بها
 ٣٩٩ ، فشل روما ٤١٣ ، قصور
 نظام الشوارع فيها ٣٩٤ ، ماقدمته
 روما للتراث الحضري ٤٢٥ ، ٤٢٧ -
 ٤٣٤ ، مرض روما الخلعير ٤٣١ ،
 موارد الماء في روما ٣٨٩ - ٣٩١ ،
 نسق الحياة فيها ٤١٠ - ٤٢١ ، وديتها
 للمسيحيون ٤٣٣ .
 (ال) رومان : إنشاء المدن في الإمبراطورية
 الرومانية ٣٧٠ ، بقاء أوضاع الجزر
 الرومانية ٤٤٥ ، تخطيط المدن الرومانية
 الشرقية ٣٨٢ ، تعميم الرومان لقواعد
 موحدة لإنشاء المدن ٣٧٥ ، تفكك
 الإمبراطورية الرومانية ٤٣٨ ، ٤٣٩ ،

٦٦٨ ، تحول الحكومات الملكية نحو
 الرأسمالية ٦٦٨ ، جمع رأس المال ٢٨ ،
 جهود الرأسمالية وآثارها ٧٥٦ -
 ٧٦٠ ، ٧٦٣ ، خدماتها ٨٢١ ، رأس
 المال السائل ٧٦١ ، رفعها لأجور
 المساكن ٧٦٨ ، قانون النمو الحضري
 لدى الرأسمالية ٧٨٦ ، قوة الرأسمالية
 ٧٦٤ ، نمو النظام الرأسمالي وأثره
 ٦٦٨ ، هيوب الرأسمالية ٧٥٥ .
 رافائيل : ٦٩٩ .
 رافنا : ٤٣٩ .
 رانيليو ، حدائق : ٦٩٥ .
 رايت ، فرانك لويد : ٩٠٨ ، ١٠٠٩ .
 رايت ، هنري : ٥٧٠ ، ٨٨٨ ، ٩٣٠ ،
 . ٩٧٠ .
 « رجل البلاط الإنجليزي » كتاب : ٨٩٦ .
 « رجل الحاشية » ، رسالة : ٦٨٤ .
 رحلات ومواكب ومهرجانات : ٥٠٤ -
 . ٥١٠ .
 « رحلات في إنجلترا » ، كتاب : ٧٢٩ .
 « رحلة مسافر » : ٥٠٤ .
 « رديرن » ، قصة : ٧٩٨ .
 ردفيلد ، روبرت : ٢٠٧ .
 وسكن ، جون : ٥٤٤ ، ٨٧٨ ، ٩١٢ .
 رح : ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٧ .
 ركليس ، اليزيه : ٥٧٥ .
 رمبراندت : ٦٨٣ .
 رمسيس : ١٥٧ .
 رن (رين) ، سيركريستوفر : ٦٣٣ ،
 ٦٨٣ ، ٧١٠ .
 (ال) رهينة ، دورها الحضري : ٤٤٦ .
 « رؤيا القديسة أوردسولا » ، صورة : ٥٢٠ .
 « روائع مدينة ميلان » ، ٥٤٨ .
 روتردام : (٦٢) (٦٣) ٦١٥ ، ٧٧٣ ،
 ٧٨٢ ، ١٠٣١ .
 روتشستر : ٤٥٥ ، ٧٨٥ ، ٩٢٨ .

سافانا : ٣٤٦ ، ٧٨٤ .
 سالكير (٤١) .
 ساليرنو : ٥٠١ .
 ساليزبوري : ٥٥٥ ، ٥٦٥ .
 سانتا ماريا فوفيللا : ٥٤٦ .
 سانت أندرو : ٤٧٦ .
 سانت أومر : ٤٩١ ، ٤٥٥ .
 سانت برنارد : ٤٦٩ .
 سانت بطرسبرج : ٦٥٤ .
 سانت بول ، كنيسة : (٤٧) (٥٥) ٦٨٣ .
 سانت بيتر ، كنيسة : (٢٧) .
 سانت توماس ، مستشفى (١٨) .
 سانت جال : ٥٥٠ .
 سانت جيروم : ٤١٢ .
 سانت كروتشي : ٥٥٩ .
 سانتياجو دي كومبيوستيلا : ٥٠ .
 سانت يانواريس : ٤٨٥ .
 سان جيرمان : ٧٤٩ .
 سان جينيافانو : ٥٦٣ .
 سان دومينجو : ٦٠٦ .
 سانوفينو : ٥٩٠ ، ٦٤٠ .
 سان فرنسيسكو : ٧٧٩ .
 سبازير : ٦٩ .
 سبروس ، شارع : ١٨٠ .
 سبنس ، توماس : ٩٥٤ .
 سبنسر ، هربرت : ٨٦٧ ، ٩٨٦ .
 سبيد : ٤٧٣ .
 سبيكل ، دانييل : ٧١١ .
 ست : ٩١ ، ٢٤٦ .
 ستالين : ١٠٥٨ .
 سترادافوفا : ٦٤١ : ٧٢٧ .
 ستراسبورج : ٣٧٦ ، ٦٥٩ .
 سترالسند : ٤٦٤ .
 ستو ، جون : ٢١٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٧ :
 ٥٢٨ ، ٥٣٤ ، ٦٧٦ ، ٧٦٨ : ٨٩٦ .

٤٥٠ ، خدمات الهندسة الرومانية للعمران
 الحضري ٣٨٧ ، سكان المدن الرومانية
 الجديدة ٣٧٧ ، فصل الاقترارين على
 المدن الرومانية ٣٧٣ .
 (ال) رون ، نهر : ٢٣٤ .
 رويس ، جوسياه : ٩٩٦ .
 ري ، أوجيستان : ٧٨٠ .
 ريتشاردسون ، الدكتور بنيامين وارد :
 ٨٨٤ ، ٨٨٥ .
 ريتشاردسون ، . ٨ : ٩٠٨ .
 ريتشاردز ، ج. ٢٠٠ : ٩٠٩ .
 ريجا : ٥٣٦ .
 ريمنت ، حديقة : ٧٠٢ ، ٧٢٥ ، شارع
 ٧٤٢ .
 ريتزبرج : ٤٥٧ ، ٥٦٩ .
 ريدسترات : ٦١٦ .
 ريشليو : ٦٥٩ .
 ريفوسيد : ٩٢١ ، ٩٣٤ .
 ريل ، و. ٨ : ٨٣٨ .
 رينر ، مارياريلكي : ٦٩٧ .
 (ال) زراعة في العصر الحجري الحديث ٣٢
 زاق ايلفوث : ٦٠٠ .
 زورواسنر : ٣٢ .
 زويد. زي : ٦١٥ .
 زينون (الكتيوني) : ٣٥٠ ، ٤١٣ ،
 ٤٣٦ .
 زيوس : ٢٦٤ ، ٣٢٣ .
 ساتريكون : ٣٩٦ .
 ساحة المتأقنين : ٧٢٧ - ٧٣٦ .
 ساحة انتظار السيارات : ما فيها من تبديد
 ٩٤٢ - ٩٤٣ .
 (ال) سادية : فوباتها اليومية : ٤١٧ .
 سارتون ، جورج : ٢٤٥ ، ٨٩٤ .

سميث ، روبرت : ٦٠٦ .
 سترال بارك ، حديقة : ٩٠٦ .
 سنحريب : ٩٦ .
 سني مايدجاردنز : ١١٢ .
 (ال) سواقي : كيفية استخدامها في مصر
 الباروكي ٦٨٩ .

(ال) سور : اتساع الأسوار في المصور
 الوسطى ٦٥٩ ، أرسطو والأسوار
 ٣٣٧ ، أسوار أوروک وبابل ١١٠ ،
 إعادة بناء الأسوار ٤٥٤ ، أفلاطون
 والأسوار ٣٢٤ ، الأسوار في مصر
 ١٢١ ، ١٤٥ - ١٤٨ ، ١٥٨ ،
 الأهمية النسبية للسور ٥٥٦ - ٥٥٧ ،
 التناظر بالسور ١٢٠ ، الرومان
 والأسوار ٣٧١ ، السور والقوى الدينية
 ٨٦ ، المدن الإغريقية والأسوار ٢٣٥ ،
 أهمية السور الأثرية ٦٥ ، أهمته في
 المصور الوسطى ٥٥٦ - ٥٥٨ ،
 سور بابل وكيف بنى ١٣٩ ، سور
 رمزي ١٥٢ - ١٥٣ ، عوامل إقامة
 أسوار عالية ٨٤ - ٨٥ ، عوامل
 تضخم الأسوار ١١٦ ، عودة الحاجة
 إلى الأسوار في الإمبراطورية الرومانية
 ٤٣٨ ، ٤٥٨ ، فصل السور ٨٧ ،
 كوسيلة جديدة للحماية والحركة ٤٥٥ -
 ٤٥٦ ، وظيفة السور ١١٧ ، ١١٨ ،
 ١٢٠ .

سور سرفيوس تولوس ٣٩٣ ، ٤٢٨ .
 سور ، ماكس : ٩٧ .
 سور وكون ، بيتريم : ٦٦٦ .
 سوريا : ١٠٩ ، ٣٧٥ ، ٣٨٢ .
 سوريا إلى ماثا ، ٧٨٣ ، ٩٦٣ .
 سوفوكليس : ٢١١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٩ - ٣٠٤ ، ٣٠٤ .

(ال) سوق (انظر أجورا) : الأسواق

ستوايرت ، دانيل : ٨١٥ .
 ستيت ستريت : ١٨٨ .
 ستيتس ، هندريكي : ٨١٥ .
 ستيفن ، ولیم فيتز : ٥٢٦ ، ٥٤٣ ،
 ستين ، كلارنس : ٥٧٠ ، ٩٢١ ،
 ٩٣٠ ، ٩٦٥ .

سرجون : ٧٦ .
 سثث اثيو ، أطالته : ٧١٣ .
 سفارة : ١٥٥ .

سقراط : ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ،
 ٣٦٦ .

(ال) سكان : ازدياد عدد السكان في
 القرن السابع عشر ٦٥٢ - ٦٥٣ ،
 السكان في المصور الوسطى ٤٥٩ -
 ٤٧٤ ، تزايد السكان في المصور الوسطى
 ٤٧٢ ، تنقل السكان ٨٢٧ ، زيادة
 نمو السكان ، ٨٤٥ ، مشكلة ازدياد
 عدد السكان لدى الإغريق ٢٥٢ ، ٢٨٠ -

٢٨١ .

سكسنس الرابع ، البابا : ٧٢٢ .
 سكيپو أفريكانوس : ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
 ٤٢١ .

(ال) سلام ، مسرحية : ٢٩٦ .

(ال) سلام الروماني : ٤١٢ .

سلامنكا : ٥٠٢ .

سلم الترف في القرن الحادي عشر : ٤٦٤ .

(ال) سلوقيون : ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

سلون ، السير هانز : ٦٩٩ .

سليفان ، اريس : ٨٠٨ .

سليونس : ٣٠٠ ، ٣٦٣ .

سمرقند : ٧١٦ .

سميث ، آدم : ١٨٥ ، ٧٥٨ ، ٧٦٥ ،

٨٢٧ ، ٨٤٠ .

سميث ، ج . إليوت : ١٦٤ .

سياريس : ٣٤٨ .
 سيقى كاميللو : ٥٦٦ ، ٨٧٨ .
 سيراكوسة : ٢٢١ ، ٣١٠ .
 « سيرالمستر » ، مجموعة مقالات : ٧٣٥ .
 (ال) سيرك : ٤١٨ ، ٤٢١ ، استمرار ،
 بقائه ٤٢٧ ، بده تكوينه ٤٢١ ،
 مصير رجال السيرك القديم ٤٢٧ .
 سيرك فلاديميوس : ٤٢٤ .
 سيرك ماكسيموس : ٤٢٤ .
 سيراو : ٦٦٩ ، ٦٦٥ .
 سيرنستر : ٤٨٣ .
 سيفر : ١٨٢ .
 سيكتوس الخامس (البابا) : ٣٥٧ ،
 ٧١٥ .
 سيمبولي : ٢٥٧ .
 سينيكا : ٤٠٩ ، ٤٢٠ .
 سيننا : ٢٧٠ ، ٥٣٣ ، ٥٧٠ ، ٧٨٠ .
 شارتر : ٤٦٣ .
 شاردن ، تيلهارد دو : ٥٧ ، ١٠٥٠ .
 شارع الأوبرا (باريس) (٣٠) .
 شارع الأوبزرتوار (باريس) : ٧١٨ .
 (ال) شارع المريض : ٦٧٥ - ٦٨١ ،
 توسيمه ٧٢٢ ، رحابته المفرطة في
 واشنطنون ٧٤٤ - ٧٤٥ ، على ميثه
 در : ٧٩١ .
 (ال) شارع الحديد : ٣٩٤ .
 (ال) شارع الكاثوبي : ٣٥١ ، ٣٦٢ .
 (ال) شارع المقدس : ٣٩٤ .
 شارع پنسلانيا (واشنطن) : ٧٤٨ ،
 ٧٤٩ .
 شارع بنيامين فرانكلين (فيلادلفيا) :
 ٧١٣ .
 شارع تشيري (نيويورك) : ٧٩٨ .
 شارع شانز اليزيه : ٧١٨ ، ٧٤٤ .
 شارلفيل : ٧٣٢ .

التجارية الجديدة ٨٠٢ - ٨٠٣ ،
 الأسواق الدولية ٤٦٢ ، السوق المركزية
 الرومانية ٤٠٢ ، السوق وانتخيلط
 الباروكي ٧٢٠ ، السوق والمرح ٢٥٠
 المهمة الأولى لساحة السوق ٢٠٥ ،
 تطور مهمة ساحة السوق ٢٥٩ ، ٢٦٦ -
 ٢٦٧ ، حتى إقامة سوق أسبوعية ٤٥٦ ،
 شكلها في المصور الوسطى ٥٦٢ ، صلتها
 بابتكار الكتابة ١٢٨ ، صلتها بالمعبد
 والنظام الاقتصادي الباكر ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ١٨٨ ، قانون خاص بالسوق ٤٦١ ،
 كيف ومتى نشأ لها مقر دائم ١٢٨ -
 ١٢٩ ، مكانها في البداية ١٢٧ ، من ساحة
 السوق إلى اقتصاديات السوق ٧٥٦ - ٧٦٣ .
 « سوق الخيل » ، رواية : ٦٩٢ .
 (ال) سوق الملكية للأوراق المالية : (٨٥)
 ٦٨٩ .
 سولون (سولون) ٢٤٠ ، ٢٦٥ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ،
 ٣٥٩ .
 سوبرت : ٦٦٦ .
 سومر : ٣٩ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٦٧ ،
 ٧٨ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٢٨ ،
 ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
 ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٩٦ ، ٢٠٦ ، ٢١٧ ،
 (ال) سيارات : بعدها عن بلوغ درجة
 الكمال الفني ٨٧٥ - ٨٧٦ ، زحف
 السيارة ٩٣٣ - ٩٤٤ ، كيف بات
 التنقل بالسيارات يناقض الغرض منه
 ٩٤٢ - ٩٤٣ ، مكان السيارة في
 التخطيط ٩٤٤ ، نتائج انتشار استخدام
 السيارات ٩٣٨ .
 (ال) « سياسة » ، كتاب : ١٢ ، ٢٣٣ ،
 ٣١٢ .
 سيار : ٦٧ .

طائفة البنيديكتيين : ٤٤٧ ، ٤٩٣ .
 طائفة البيجين : ٥٨٦ .
 طائفة الجزويت : ٤٨٧ .
 طائفة الفرنسيسكان : ٥٨٥ .
 طائفة المورمون : ٨٢٩ ، ٩٦٠ .
 طابع المدن المصرية القديمة وعوامله :
 ١٤٢ - ١٤٨ .
 (ال) طاقة : ازديادها بفضل زراعة
 النباتات ٤٥ ، حشدها ١٠٣٢ ، ،
 وجوب التحكم فيها على مختلف ألوانها
 ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ .
 طاليس : ٢٣٨ ، ٣٤٣ .
 (ال) طراز الباروكي : انظر « النظام
 الباروكي » .
 (ال) طراز القرطبي الحديث : ٦٣٣ .
 (ال) طرق الحديدية : ٨٣٢ - ٨٥٩ ،
 ٩٣٣ - ٩٤٤ ، تأثيرها على البيئة
 المحيطة بها ٨٥٠ - ٨٥١ ، مصير محطات
 الطرق الحديدية في نيويورك ٨٢٢ .
 طرق النقل السريع : عدم وفائها بالغرض
 ٩٤٦ - ٩٤٧ .
 طروادة : ٢٢٩ ، ٣٤٣ .
 طريق حدائق نهر بروكس : ٩٣٥ .
 (ال) طيور ، مسرحية : ٣١٠ .
 ظهوز المدينة ومبتكراتها ومجتمعها ٤٧ ،
 ٥١ - ٥٥ .
 ظهوز طبقة وسطى ٣٤٣ .
 ظهوز وسائل التدوين والتسجيل ١٧٤ -
 ١٧٥ .
 عبيد : ١٠٨ ، ٨٩٣ .
 (ال) عرض : الاستعراضات الهيلينية
 ٣٦٢ - ٣٦٤ ، المرض كشهد في
 مسرحية الحياة الباروكية ، ٦٨٠ ،
 ساحات العرض والتدريب ٦٦٥ .
 عشروت : ٤٦ .

(ال) ضرائب : إدارة شتونها في المدن
 الإيطالية ٦٦٧ ، التحكم الاستبدادي
 لايتراز الضرائب ٦٦٧ - ٦٦٨ ، جمع
 الضرائب ٦٥٠ ، « ضريبة قومية للهواء
 المطلق » ٩٣٥ ، كيفية تبرير جبايتها
 للملك لويس الرابع عشر ١٩٣ ، هيئة موظفي
 الضرائب ٨٣٦ .
 (ال) ضواحي : الضاحية التاريخية ٨٩٢ -
 ٩٠١ ، الضاحية التجارية ٤٥٧ ،
 الضاحية كالكسلا في تكوينها ٩٠٠ ،
 الضاحية بوصفها وحدة جوار - ٩٢٤ -
 ٩٣٣ ، الضاحية في عهد الملكة فكتوريا
 ٩٠٤ - ٩٠٥ ، الضاحية مدارها الأطفال
 ٩١١ الضواحي في المصور الوسطى ٥٤٨ ،
 ٨٩٦ ، الضواحي وما وراءها ٨٩٢ -
 ٩٧٣ ، الضواحي واسعة التطاق أوضاع
 مضادة للمدن ٩٤٤ - ٩٤٨ ، الظهور
 الباكر للضواحي ٨٩٣ ، ٨٩٥ امتداد
 ألبيرق لصفات الضاحية ٨٩٧ ، انعدام
 وسائل الحماية فيها ٨٤٠ ، تباعد الضاحية
 ٨٩٩ ، تفوق الضاحية من الوجهة
 الصحية ٨٩٧ ، حركة الضواحي والحركة
 الرومنطقية ٨٩٥ ، ٩٠٥ - ٩٠٧
 حاجتها إلى صغر الحجم ٩٣٧ ، دوافع
 الهجرة إلى الضواحي ٨٩٥ ، ٩٠١ ،
 ٩٠٣ ، صفات الضاحية ٩٠١ - ٩٠٢
 والصفات المرغوب توافرها فيها ٩٢٦ ،
 ضواحي الطرق الحديدية ٩٣٣ - ٩٣٥ ،
 ضواحي المدائن ٨٨٤ ، مراحل نمو
 الضاحية ٩٠١ - ٩١٣ ، مزاياها من
 الوجهة البيولوجية ٩١٥ ، نهج الحياة
 في الضواحي ٩١٣ - ٩١٩ ، وجوه
 النشاط في الضواحي ٩٢٦ - ٩٢٧ .
 طائفة الأنابابتيست : ٥٨٦ .

عصبة الراين : ٦٢٤ .
عصبة مدن سوابيا : ٦٢٤ .
عصبة هانزا : ٥٧٨ ، ٦٢٤ .
عصر التحليل : ٦٧٢ .
عصر النهضة : أمارات على الطراز الجديد
٦٤٠ ، أوفيتسى النموذج المثالي للطراز
الجديد ٦٤١ ، تفصيل التعبير بالهضة
٦٣٨ ، عدم وجود مدينة نهضة ٦٣٩ ،
مراحل التطور من طراز النهضة إلى
الطراز الباروكي ٦٤٢ - ٦٤٥ .
(ال) عصور الوسطى : اتساع المدن فيها
٥٧٣ ، إساءة فهم مدن العصور الوسطى
٥٧٨ - ٥٧٩ ، استقلال المدن ١٤٦ ،
الحالة الصحية في العصور الوسطى ٥٢٣ -
٥٣٥ ، العناية بالشئون الصحية ٥٢٩ -
٥٣٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، العناية
بالشوارع ٥٦٧ - ٥٦٨ العوامل الدينية
الجديدة ٥٤٧ القوى الحضرية ٥٥٧ ،
المدن النبطية ٥٧٣ ، المظاهر الوثنية
لحياتها ٥٥٢ . النظام الاقتصادي المغلق
٦١٧ - ٦١٨ : النظريات السياسية
في العصور الوسطى ٦٢٤ ، النظرية
الحضرية في العصور الوسطى ٥٥٣ -
انهيار المدينة ٦٣٠ ، تخطيط المدن
٥٥٠ - ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، انحلال
العصور الوسطى ٦٣٢ ، تدفُّل الفساد
في منظمات العصور الوسطى ٦٣٦ -
٦٣٧ ، توزيع السكان ٥٧٥ -
٥٧٦ ، توزيع التكوين الجديد للجمتمع
٥٤٧ ، حجم المدن ٤٧١ ، حرية
المدن والحرية الحضرية ٤٥٨ ، خواص
المنازل ٥١٢ - ٥٢٠ ، دلالات انهيار
العصور الوسطى ٥٧٨ دور الأسرة في
العصور الوسطى ٥١١ مساكن المدينة
وصلته بالريف ٤٨١ - ٤٨٢ : سر
الشكل الظاهري لمدينة العصور الوسطى

عصور حديثة » ، قصة : ١٠١١ .
« عظمة صانع الأحذية » ، مسرحية : ٧٦٣ .
« العقد الاجتماعي » : الحضري ٤٧٥ .
(ال) عمل والعمال : التقسيم الحضري للعمل
١٨٣ - ١٩٢ ، العمل في الحفارة
الباكرة ٤٧ - ٤٨ ، العمال الفائضون
عن الحاجة ٨٤٣ ، إمال حتى العمال في
أستردام ٨١٨ - ٨١٩ ، تقسيم العمل
في الحفارة الباكرة ٨ - ٣١ ، جيوش
العمل ١٠٧ ، حشد الناس للعمل قديما
٦٠ ، مورد العمال ٨٤٥ .
(ال) عمل المنزل : ٧٠٤ .
عمليات التجهيز في الخواضر ١٠٠٢ .
عملية الأثيرة : ٢٠١ .
عملية التمدية : ٢٠٢ .
« عن التمدين » ، كتاب : ٥٣٨ .

فرساي : ٦١٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٣ ، ٧١٥٠ ، ٧١٩ ، ٧٤٢ .

« فرط الازدحام لا يمود بأى كسب » رسالة : ٩٢١ .

نرعون مصر : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٩٦ ، خلوده : ١٤٩ .

« فرق تسد » ، مبدأ السيطرة الرومانية : ٤٣٦ .

فرنسيس الأول : ٥٢٧ ، ٦٦٦ ، ٧٧٥ . (ال) فرنسيسكان ، طائفة : ٥٨٥ .

فرنسيس من أسيسى : ٥٨٠ ، ٥٨٤ . فرويد سيجموند : ١٠٠٥ .

فرويد نثشات : ٧٢٠ .

فريد لندر ، لودفيج : ٣٩٧ ، ٤٠١ .

فريزر ، سير جيمس : ٧٠ ، ٧٢ .

فريزيا : ٤٦٨ .

فسارى (فازارى) : ٤٥٢ ، ٦٤١ ، ٦٥٠ .

فلاندر : ٤٦٦ ، ٤٦٨ .

فلسطين : دلائل على تحول مقر الصياد الموقت

إلى حصن دائم : ٣٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٣٥ ، ١٥٨ .

فلورنسا : (٢٤) (٢٥) (٢٦) ٢٥١ ، ٣٠١ ، الاحتفال فيها بعيد القديس يوحنا

٤٧٢ ، اعتدائها على جيرانها ٥٥٧ ، ٦٢١ ، امتدادها وإحاطتها

بالأسوار ٥٧٣ ، تكوين سكانها في

القرن الرابع عشر ٥٤٧ ، وباء الطاعون

فيها ٩٠١ .

فن الدراما : مصدره وتطوره : ٢٠٤ -

٢١١ .

(ال) فندق : صلته بنظام الحياة الباروكية

٦٩٤ .

فنزويلا : ٩٥١ .

فنان من بونيه : ٥٧٨ .

فويان ، سياستيان : ٦٦١ .

« عن العارة » ، كتاب : ٥٥٤ .

(ال) عناية بالأثاث : ٧٠٤ .

(ال) عنف : اتساع آفاق العنف ٩٨٦ -

٩٨٧ ، آراء مبالغ فيها عن العنف البدائى

٤٣ ، العنف الجماعى ٤١٧ ، العنف

في بلاد ما بين النهرين ١٤٩ ، دورة

العنف ٧٣ .

عوامل التحول الحضري الأول ونتائجه

٥١ - ٥٤ .

(ال) « عوامل الدينية الاجتماعية والثقافية » ،

كتاب ٦٦٦ .

غاز الإضاءة الصناعية : ابتكاره ٨٧٠ .

غرفة الاستقبال وغرفة النوم في العهد الباروكى

٧٠٢ - ٧٠٧ .

غشت : ٤٦٧ ، ٤٧٢ ، ٦٢٢ .

فايولا : ٥٤٠ .

(ال) فاتيكان : ٢٤٢ ، متحف ٦٩٩ .

فارانياك ، أندريه : ٣١ .

فارس : ٣٦١ .

فارنيل ، لويس : ٢١٨ .

فارو : ٣٧٢ .

فان كليف ، جوس : ٥١٣ .

فان ديك : ٦١٤ .

فالر ، و. و. وارد : ٢٧٨ ، ٣٠١ .

فايستوس : ٢١٧ .

(ال) فحم : أهيت ٨٤٢ - ٨٤٥ ،

التكتل الحضري حول الفحم ٨٦٨ -

٨٦٩ .

فرانكفورت ، هنرى : ٤١ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٥٨ .

فرجينيا : ٤٧١ ، ٥١٥ .

فردريك الأكبر : ٧٧١ .

فرسان المعبد : ٥٧٨ .

فيسول : ٢٥١ ، ٩٠١ .
 فيكو ، جامباتيستا : ١٩٤ .
 فيث أثير : ٧٩١ .
 فيلادلفيا : (٥٤) ١٨٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ .
 ٦٠٠ ، ٧٤٥ ، السور الصبى ٨٥١ .
 فيلاريت : ٧٢٠ .
 فيلان ، جوفانى : ٨٩٦ ، ٥٤٠ .
 فيلثيف ليزافنيون : ٩١٣ .
 فيلون ، فرانسى : ٥٢٢ .
 فيليب المقدونى : ٢٥٨ ، ٣٣٠ .
 فينكلان : ٢٨٤ .
 فينوس : ١٩٠ .
 فينسيا (انظر البنقية) : (٢١) (٢٢)
 (٣٤) إنشائها ٥٨٩ ، عيوبها السياسية
 ٥٩٤ .
 فيول - لو - دوك : ٥١٦ .
 فيين ، سيليا : ٧٢٩ .
 قابيل : ٤١ .
 قاعة توينبى : ٩٢٨ .
 « قانون النجم » : ٧٨٢ .
 (ال) قپور : لدى الأسلاف ٩ - ١٠ ،
 ماتدل عليه فى عصر ما قبل الأسرات فى
 مصر ٨٥ .
 (ال) فذارة : الصناعية ٨٧١ - ٨٧٢
 قراصة الشمال : ٤٥٣ .
 قرطاج : ٤١٨ .
 قرقميش : ١٠٩ .
 (ال) قرية : ٣ ، ٢٧ ، ٢٢٨ -
 ٢٢٩ ، الاستناس والقرية ١٦ -
 ٣٠ ، أثر المرأة فى منشآت القرية
 ٢١ ، ادوار تكوين حضارة القرية
 الباكرا ٣١ - ٣٦ ، أشكال القرى
 ٦٠٨ - ٦٠٩ ، الحضارة الباكرا
 للقرية ٣١ ، الحياة فى القرية ٢٠ ،
 ٢٥ ، الطراز العتيق للقرية ، وتنوعه

فوجر ، يعقوب : ٦٢٩ ، ٦٦٨ ،
 ٧٩٧ .
 فور د ، هنرى : ٨٦٨ .
 فورثيرون : ٦١٣ .
 (ال) فوروم الرومانى : ٢٧٠ ، ٣٧٥ ،
 ٤١٠ - ٤١٢ ، الفوروم مركز الحياة
 الرومانية ٤٠٣ ، رأى فيثروفيوس فى
 فى حجمه المثل ٤٠٢ ، طبيعة الفوروم
 ٤٠١ .
 فوروم تراجان : ٤٠٥ .
 فوروم روما : ٤٠٢ .
 فوروم نيرفا : ٤٠٢ .
 فورييه ، شارل ٩٦١ .
 فوكسهول ، حدائق : ٦٩٥ .
 فوكيس : ٧٩ .
 فون ايرناخ ، فيشر : ٦٨٩ .
 فون بيكلر - موسكاو : ٣٨٥ .
 فون بيلوف ، جوج : ٤٦٣ ، ٥٣٦ .
 فونتاذا دى تريش : ٤٢٩ .
 فون سمسون ، أوتو : ٤٦٤ .
 فيثروفيوس : ٢٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ،
 ٤٠٢ .
 فيثفوجل ، كارل ا . ٢٩ .
 فيثيلسكو ، هيبوليتو : ٦٣٧ .
 فيثاغورس : ٢٨٤ ، ٣٠٩ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٧ .
 فيجفانو : ٧١١ .
 فيدروس : ٢٣١ ، ٣٠٧ .
 فيدياس : ٢٦٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٩ .
 فيزارا : ٦٥٠ .
 فيرانقى ، ملك نابولى : ٦٣٨ .
 فيرجسون : ٢٠٥ ، ٢٠٢ .
 فيرريل : ٤١٣ .
 فيرمان ، ه . و . ١٤٥ .
 فيسپاسيان : ٤٢٤ .
 فيسبر ، اليزابث : ٢٢٨ .

القلعة في كريت ٢١٥ ، قلعة الروح
٤٤٧ : قلعة أورووك ١٢٠ ، موقع
القلعة في خريطة نيبير ١٢٧ .
قلعة سان انجليو : ٩ .
قناة ايرى : ٧٨٩ .
(ال) قندس : بناء مستعمراته ٨ .
قنسطنطين (قنسطنطين) : ٤٠٧ : ٤٢٥ ،
٤٣٨ .
قنطرة جارد : ٣٨٨ .
(ال) قنوات المقامة على قناطر : ٣٨٦ -
٤٠٠ .
(ال) «قوانين» ، كتاب : ٩٨ ، ٢٦٤ ،
٢٧٩ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،
٣٢٦ ، ٤٣٦ .
«قوس الأميرالية» ، في لندن : ٤٩ ،
٧١٣ .
(ال) قوة : اتساعها ٤٩ ، اسطورتها
٧٠ ، اسطورتها الجديدة ٦٠ ، المظهر
الجديد لاتساعها ٩٣ ، اندماج القوى
الزمنية والمقدسة ١٦٦ ، انتقال القوة
في المصور الوسطى ٤٦٦ ، انحرافات
القوة وخصائصها ٦٤ ، ٩٠ ، استخدام
أجهزة توليد القوى كوسائل للترف :
٦٨٩ ، ايدولوجية القوة ٦٦٧ ،
تضخم القوة ٥٥ ، ١٤٤ ، ١٦٦ ،
تضخمها من الناحية التكنولوجية ٥٩ ،
تركيزها في المدن ١٠٠٤ - ١٠٠٥ ،
تشعبها ١٢٢ ، تعدد وجود ازدياد
القوة ٩٧٤ - ٩٨٠ ، رواسب باروكية
للقوة ٧١٣ ، عصر الذرة يبعث أسطورة
القوة ١٠٢٨ - ١٠٢٩ ، مركز القوى
الكهرية ١٠٤٥ ، مظهر القوة في
الإمبراطورية الرومانية ٣٧٠ .

كابري : ٦٩٧ .

(ال) كاتدرائية : القوطية ومقارنتها

٣٣ ، القرية الباكورة ٣٠ ، القرية
في نيوانجلند ٦٠٧ ، انزال القرويين
إلى مصاف الرعايا ٥٣ ، تحول القرية
١٠١ ، تكاثر القرى وانتشارها ٤٥ ،
تكتل القرى ٢٢٦ ، خواص القرويين
كما صورهم لادوتسي ٣٢ ، سيادة القرية
٩٧ ، صوت القرية ٢٢٤ - ٢٣٨ ،
عاداتها الديمقراطية ٢٢٢ ، مجتمع القرية
٢٠٤ .
قرن التقدم : ٨٦٢ .
(ال) قصر : ٦٥ ، الحاجة إليه ٨٤ ،
القصر في كريت ٢١٥ - ٢١٧ ، القصر
في مينوس ٢١٦ ، القصور ١١٦ ،
حياة القصر ٦٨٨ - ٦٩٢ ، مركزه
وأثره في المدينة ٦٩٢ - ٧٠٢ .
(ال) قصر الباروكي : الحياة فيه وتأثيره
على المدينة ٦٨٨ - ٧٠٢ .
قصر البلور (كريستال بالاس) : (٣٨) .
قصر الدوق بالبندقية : ٥٩٠ : ٥٩٤ .
قصر بكنجهام : ٧١٣ .
قصر بيتي : ٦٤١ ، ٧١٩ .
قصر شاير : ١٠٤٣ .
قصر فاريزي : ٦٧٠ .
قطب المغناطيسي يأتي قبل الوعاء : ١٥ .
قلاع على سطح الأرض ، قصة : ٩٠٩ .
(ال) قلعة : أغراضها البدائية ٦٣ ، انتقال
المعد إليها ٦٥ ، أثر التطور الحديد
٦٧ ، ٨٤ ، أهمية موقعها المتوسط
٨٥٠ ، ١٠٠ ، القلعة كدينة صغيرة
١١٣ ، مهمتها الأساسية ١١٥ - ١١٧ .
القلعة في مصر ١٢٢ ، القلعة
والحياة الاقتصادية ١٢٧ ، القلعة
والمبتكرات التقنية ١٨١ - ١٨٣ ،
القلعة وتطور الحضارة ١٥٩ ، ١٦١ ،
أثر توسع وظائف القلعة ١٩٨ - ١٩٩ ،
انتقال السلطة إلى المجتمع ٢٢١ ، ظهور

۳۱۳ ، ۳۴۵ ، ازدهارها ۲۱۶ ،
 تدمیرها ۲۱۹ ، أثرها ۲۲۰ .
 کریج : ۷۳۳ .
 کریستال بالاس (قصر البلور) (۳۸) .
 کریستیانوبولیس ۵۷۷ - ۵۸۸ .
 کریمرن ، حدائق : ۶۹۵ .
 کریمونا : ۳۷۷ .
 کریئی : ۳۴۵ .
 کسینوفون : ۲۹۵ ، ۳۳۷ .
 کلابام : ۹۰۳ .
 کلودویوس : ۳۹۵ ، ۴۱۹ .
 کلیتمنتر : ۲۲۹ .
 کلیتیز : ۱۷۱ .
 کلیفلند : ۹۰۱ .
 کبرج : ۵۰۲ .
 کبودیا : ۱۶۳ .
 کنوسوس : ۲۱۵ ، ۲۱۷ ، ۲۲۱ ،
 ۳۵۲ .
 کنیدوس : ۲۴۳ ، ۲۵۳ .
 « کنز الخلاص » : ۵۷۸ .
 (ال) کنیسه : اطراذ زیاده ثروة الكنيسة
 المسيحية ۵۸۲ - ۵۸۳ . انحلاها ۶۸۳ ،
 سطرته ۴۸۲ - ۴۸۹ ، طیمتها فی
 المصور الوسطی ۴۸۳ - ۴۸۴ ، عالیة
 ۶۲۹ - ۶۳۰ ، فشل الكنيسة العالمية
 فی المصور الوسطی ۶۲۸ - ۶۲۹ ،
 کرکز للمجتمع ۵۶۱ ، کنیسه روما
 ۶۲۸ ، ۶۳۲ ، مظاهر التحول الباروكی
 فی الكنيسة ۶۸۲ .
 کنیسه الثالث المقدس ۶۴۳ .
 کھف الحوریات : ۱۰ .
 کھوف جبال الدوردونی : ۱۰ .
 کھوف لاسکروالتامیرا : ۱۰ .
 کوبنهاجن : ۱۸۲ ، ۶۹۵ .
 کویت ، توماس : ۷۳۴ .
 کورتیوس : ۴۲۴ .

بالاکروبول ۲۹۰ ، الکاتدرائیات فی
 مکان الیادة ۵۵۹ ، کاتدرائیه وستمنستر
 الکاثولیکیة الرومانية ۱۰۸ ، تعریف
 فیکتور هو جو لها ۳۶۲ .
 (ال) کابیتول : ۷۴۹ ، ۷۵۰ .
 کاتو الكنسور : ۴۰۲ .
 کاراکاس : ۹۵۱ .
 کارپاشیو : ۵۲۰ .
 (ال) کاردو : ۳۷۳ ، ۳۸۱ .
 کارکاسون : ۵۴۷ .
 کارکویینو ، جیروم : ۳۹۴ ، ۴۱۱ ،
 ۴۲۴ ، ۴۲۸ .
 کارلسروه : ۷۱۷ ، ۷۲۰ .
 کازول ، دانیل : ۷۵۳ .
 کاستجلیون : ۶۸۴ .
 کاسیودوروس : ۴۲۹ .
 کافکا : ۶۵۱ .
 کالفرسترات : ۷۳۹ .
 کالی : ۴۶ .
 کالی فلوریدا : ۷۳۹ .
 کامپوسانتو (پیزا) : ۴۵۲ .
 کانبری : ۵۰ .
 کانونجیت : ۴۷۶ .
 کاهون : ۱۵۵ .
 کیادوکیا : ۳۵۰ .
 کپلنج ، ردیارد : ۹۱۵ .
 کتاب طروادة : ۵۳۰ .
 کراسوس : ۳۹۷ .
 کرامر ، س. ن. : ۱۲۹ .
 (ال) کرملین : ۵۰ ، ۱۰۳۳ .
 کروتون : ۳۴۸ ، ۸۸۲ ، ۱۰۱۷ ،
 ۷۶۹ .
 کروی ، روبرت : ۳۷۹ ، ۶۳۰ .
 کروم : ۸۰۷ .
 کرویوس : ۲۶۸ .
 کریت : ۲۱۳ - ۲۲۰ ، ۲۲۳ ، ۳۱۲ ،

لاپلاتا : ١٦٥ .
 لاير ، الدكتور ماريو : ٧٢٧ .
 لاتويوليس : ١٤٥ .
 لاثيوم : ٣٧٦ .
 لاجاش : ٣٣ ، ١٢٢ .
 لاراك : ٦٧ .
 لارس : ٤١٠ .
 لارسن : ٢٥٧ .
 لاسكو : ١٠ .
 لافدان ، بير : ١٥٥ ، ٣١١ ، ٣٣٨ ،
 ٤٠١ ، ٤٤٤ ، ٥٥٤ ، ٥٧١ .
 لانجلاند : ٥١٩ ، ٥٦٧ ، ٦٣١ .
 لاندا : ١٥٣ .
 لانثان ، رودولفو : ٣٩٣ ، ٤٢٨ .
 لانغان ، الميجر بير شارل : ٧٤٣ -
 ٧٥٢ ، ٧٥٤ ، عزله ٧٥٣ .
 لاو - تسي : ٣٢ ، ٣٦٧ ، ٥٨٤ .
 لاور ، شومباردو : ٩٢٥ .
 لاوكون : ٢٨٥ .
 (ال) لاوين : ١٣٥ .
 لايارد : ١٣٦ .
 لجنة الخدمات العامة ، نيويورك : ٧٨٤ .
 « لجنة مكيلان » : ٧٤٨ .
 (ال) لحود الرومانية : ٣٩٣ .
 لدرستوننج : ٢٨ .
 لغز أطلال المدن : ١٠٨ - ١١١ .
 لندن : (٣٥) (٣٨) (٤٠) (٤٤) (٤٧)
 (٥٥) ١١٢ ، ٢١١ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ -
 ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٩ ، ٤٥٥ ،
 ٤٩٨ ، ٥٢٦ ، ١٠٣١ ، أنابيب
 نقل المياه ٥٣٨ ، تخطيط رن ٦٨٣ .
 قسم السكان ٨٨٩ ، سوتها المالية
 ٧٦٠ ، ميادينها ٧٢٨ .
 « لندن تبث حياة » ، كتاب : ٧٣٠ .
 لويك : ٤٦٤ ، ٥٧٥ ، ٧٧٤ .
 لوتيتيا (لوتيسيا) : ٤١١ .

كورسو ، شارع : ٧١٥ .
 كوركيرا : ٢٢١ .
 كورنفة : ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ،
 ٢٤٣ ، ٢٨١ .
 كورنفورد ، ف.م. : ٢١٨ .
 كوزيمو ، بيرو دي : ٨٩٧ .
 كوس : ٢٣٨ - ٢٥٩ .
 كوفنت جاردن : ٧٣١ .
 كوئنترى : (٥٩) ٣٧٥ .
 كولانج ، فوستيل دو : ١١٧ .
 كولير ، ٦٥١ ، ٧٣٨ ، ٧٦١ .
 كولتون ، ج.ج. : ٤٨٣ ، ٥١٧ ،
 ٥٢٥ .
 كولمار : ٦٢١ .
 كولبوس : ١٦١ .
 كولوسيوم : (١٦) ٤٠٣ ، ٤٢٤ .
 كولومبيا مقاطعة : ٧٤٨ .
 كولونا ، پروسپرو : ٦٥٧ .
 كوافيا ٥٥٥ ، ٦٢٢ .
 كومودوس : ٤١٦ .
 كونانت ، كينيث : ٥٥٠ .
 كونت ، أوجست : ١٧٤ .
 كوئنناو ، جورج : ٦٨ ، ١١٧ .
 كونفوتيري : ٦٤٧ .
 كونستانس : ٥٤١ ، صلح كونستانس
 ٤٥٦ .
 كونكوردي ، ميدان : ٧١٨ .
 كوهن ، أميل : ٢٣٦ .
 كويوردين : ٧١٤ .
 كييل : ٤٦ ، ٦٩ .
 كيرتن : ٤٦٠ .
 كيش : ٥٣ ، ٦٧ ، ١١٥ .
 كينز : ٢٧٣ .
 كينوسارجس : ٢٤٨ ، ٣٣٦ .
 لا بروير : ٦٨٤ .

- لرجال : ١٦٩ ، ١٩٦ .
 لوجوبندا : ٤١ .
 لوجيانى لانزى : ٦٣٩ .
 لودفيكو المغربى : ٧١١ .
 لورد : ٥٠ .
 لوروى ، جويون : ٧٧٥ .
 لوس انجليس : (٤٨) ، ٨٧٦ ، ٩٤٦ .
 (ال) لوفر : (٢٩) (٣٠) ٦٩٩ .
 لوکا : ٦٤٨ .
 لوكسمبورج ، حديقة : ٥٢٧ ، ٧١٢ .
 لوكوربيزيه : ٤٩٦ ، ٨٨٠ ، ٩٣٠ .
 ٩٦١ ، ٩٦٣ .
 لوكيانوس : ٤٣٠ .
 لولين پارك : ٩٢١ .
 لومبارديا : ٤٦١ .
 لونج ايلاند : ١١٢ ، ٧٩١ .
 لونوتر : ٦١٥ .
 لويس الرابع عشر : ١٩٣ ، ٣٥٧ ، ٦١٥ ، ٦٩٣ .
 لويس الورع : ٤٦١ .
 لويس دونيشير : ٤٦٦ .
 ليبانوس : ٣٨٣ ، ٣٨٤ .
 ليتشورث : ٨١٠ ، ٩٥٩ ، ٩٦٨ .
 ليتان و. ر. : ٧٤١ ، ٧٤٢ .
 ليدجيت : ٥٣٠ .
 ليدز : ٦٣١ .
 ليديا : ٢٦٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ .
 ليدى ميد : ٦٣١ .
 ليت : ٦٧ .
 ليستر : ٥٢٧ ، ٨٧٩ .
 ليستر سكوير : ٧٣١ .
 ليسانس : ٤٣٩ .
 ليسيكرايس : ٢٩١ .
 ليفربول : ٧٧٤ ، ٧٩٨ .
 لى ، جرتروود : ١١٧ .
 (ال) ليكيزم : ٢٤٨ .
- ليل : ٨٧١ .
 ليلاند : ٥٣٣ .
 ليمان ، بحيرة : ٤٧٤ .
 ليند ، روبرت : ٨٦١ .
 لينين : ١٠٥٨ .
 ليون : ٤٦٤ ، ٧٧٣ .
 ليوناردو دافنشى : ٣٢٥ ، ٣٨١ ، ٦٦١ ، ٧١١ .
- (ال) ماء : التحكم فى الماء ، ٩٩ ، التدمك
 فى الماء أساس التقدم التقنى للمدينة
 الهولندية ٨١١ - ٨١٥ ، الحاجة
 الحضرية إلى الماء ١٠١٧ ، القوى
 المتواعدة من الماء ٨٤٠ ، الماء كضرورة
 حضرية ٢٥٣ ، أنابيب الماء ٥٣٨ ،
 ٥٦٧ ، ٨٥٥ ، تزويد المدن الهيلينية
 بالماء ٣٦١ ، تزويد المدن بالماء فى
 العهد الرومانى ٣٩٠ - ٣٩١ ، تزويد
 مدن العصور الوسطى بالماء ٥٣٧ - ٥٣٨ ،
 مشروع كروتون ٨٨٢ ، نقص الماء فى
 المدن الصناعية ٨٥٤ - ٨٥٥ . هينات
 إساك الماء ٨١٢ .
- ماديسون أفتيو : ١٨٨ .
 مارتن الرابع : البابا : ٥٣٨ .
 مارتيايس : ٣٩٦ .
 مارتين رولاند : ٣٤٥ ، ٣٦٠ .
 مارتينى فرانسيكو : ٧١١ ، ٧١٤ ، ٧٢٢ .
 ماردوك : ٩١ ، ١٧٨ .
 مارشال ، ألفريد : ٩٣٥ ، ٩٣٦ .
 ماركس ، كارل : ٣٢١ ، ١٠٥٨ .
 ماركيلوس ، مسرح : ٤٤٥ .
 ماركوس أوريليوس : ٣٥٨ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ٤٢٠ .
 مارلو : ٢١١ .

ماكدونالد : ٢٥٧ .
 مائوكاي ، بنتون : ٩٧١ .
 مالتوس ، توماس : ٨٢٧ .
 مالفرن الكبرى : (٤٢) ٩٠٥ .
 مالنيسكي بروفيسلو : ٤٣ .
 مان ، توماس ، ٤٩٧ .
 مانتييا : ٢٣١ .
 مانفيل ، برنارد : ٧٦٥ .
 مانستر (٥٠) ٢٣ ، ٦٥٣ ، ٧٤٠ ، ٨٤٨ .
 مانهاتان : (٤٦) ٧٨٤ .
 مانيس : ٤٣٢ ، ٤٣٣ .
 مار ، أوجست : ٤٠١ .
 (ال) مايا : ١٥٢ - ١٥٤ ، ١٦١ - ٣٤٩ ، ١٦٦ .
 مايترن : ٣٣ .
 ماير ، ألبرت : ٩٣١ .
 مايسن : ١٨٢ .
 ماي فير : ٧٣١ .
 ماين ، سير هنري : ٤٧٥ .
 ماينز : ٤٥٤ ، ٤٩١ .
 مبنى التعميد : ٤٥٣ .
 (ال) متجر الكبير : ٨٠٧ - ٨٠٨ .
 (ال) متحف : الأصول الباروكية لمتحف
 ٦٩٧ ، السبب الجوهري لإنشاء المتحف
 ١٠٣٩ ، المتحف في شكله المقبول
 ١٠٤٠ ، المتحف البريطاني ٦٩٩ ،
 متحف الإسكندرية (دار العلم) ٣٦٠ .
 (ال) متحف البريطاني (٤٤) .
 متحف رودان : ٧٢٩ .
 مئز : ٤٤٣ .
 متريكيوي : ٢٧١ .
 (ال) مجاري : المجاري في أثينا ٢٩٦ ،
 المجاري في المصور الوسطى ٥٣٣ ،
 المجاري والبلوعات ٣٨٦ - ٤٠٠ ،

المجاري السينة في لندن ٧٠٨ ، المجري
 الأعظم ٣٨٧ .
 (ال) مجتل : ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٣ ،
 ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،
 ٤٢٥ .
 مجتمعات العصر الحجري الحديث : مظاهرها
 وفصلها على القرية والمدينة ٢٢ - ٢٦ ،
 موقفها من الحزب ٤٢ - ٤٤ .
 مجنو : ١٠٩ .
 (ال) مجردات : التفكير الباروكي ،
 وارتباطها بها ٦٧٢ - ٦٧٣ ، استخدامها
 في التخطيط ٧٢٣ - ٧٢٥ .
 مجلس : الشيخ (في القرية) ١٠٤ ،
 ٢٣٩ . مجلس العشرة ٣٢٥ ، مجلس
 فينيسيا ٥٩١ ، دار مجلس المدينة ٢٧٧ -
 مجلة كوارترلي : ٩٠٣ .
 مجمع المدن : ٦١٠ .
 مجمع ترنت : ٥٨٧ .
 (ال) « محاكمة » ، كتاب : ٦٥١ .
 محلة ينسلفانيا : ٤٠٦ .
 محكمة التفتيش : ٥٨٣ .
 « محكمة مسحوق الفطائر » : ٤٦١ .
 مخلفات باروكية : ٧٣٦ - ٧٤٢ .
 مدام مونتسوري : ٥٤٦ .
 مدرج الفلاطين : ٤٠٤ .
 (ال) مدن : الأولى الباكورة ٩٩ ،
 الأطلال الباقية ١٠٩ ، حجم المدن الباكورة
 وكثافة سكانها ١٠٩ - ١١٤ ، توزيع
 المدن في مصروبلاد ما بين النهرين ١٣١ ،
 ظهورها في بلاد ما بين النهرين ١٣٣ ،
 انتشارها الواسع ١٦٧ ، مدن المايا
 ١٥٣ - ١٥٤ ، مدن أمريكا الوسطى
 ١٦٥ ، المدن الاستعمارية الإغريقية
 ٢٣٤ نسق الحياة في المدن ٢٠٢ ، مدن
 ابوتيا التجارية ٢٧١ ، اتحاد المدن
 الإغريقية ٢٥٦ - ٢٥٨ ، المدن

الميلينية ٢٣٠ ، ٣٤٢ ، أنفلطون ،
والمدينة المثالية ٢٢٢ ، أرسطو والمدينة
المثالية ٣٣١ ، أسباب توقف نمو المدن
الميلينية ٣٢٩ - ٣٤٠ ، عيوب المدن
الميلينية ٣٥٥ ، المدن الجرمانية في
المصور الوسطى ٤٧٢ ، اتساع المدن
في المصور الوسطى ٥٧٣ ، ازدياد
الحجم في القرن السابع عشر ٦٥٢ ،
اكتشاف المدن ٤٥٠ - ٤٥١ ، حركة
المدن ٤٧٥ ، تطور المدن ٧٩٩ ،
المدن التجارية ٧٥٩ - ٧٦٠ ، دوام
بقاء المدن ٤٤٤ ، القيمة السياسية لوضع
مدن نيوإنجلند ٦٠٩ - ٦١٠ ، توسيع
المدن ٧١٠ - ٧١٢ ، انحلال مدينة
المصور الوسطى ٦٢٩ ، انتقال إنشاء
المدن إلى العالم الجديد ٦٥٤ ، مدن
المواقع ٧٥٧ ، ٧٧٤ ، مساحة المدن
في العهد الروماني ٣٧٦ - ٣٧٧ ، عيب
سياسة مدن المصور الوسطى ٦٢١ ،
مدينة ما بعد المصور الوسطى ٦٣٤ ،
نمو المدن في إنجلترا ٨٦٤ ، المدن
الاجتماعية كما يتصورها هوارد ٩٦٤ -
٩٦٥ ، معالجة هوارد لحياة المدن
ونموها ٩٦٨ ، وصف لمدينة المصور
الوسطى ٥٠٧ - ٥٠٩ ، التدمير الشامل
للمدن ١٠٣١ - ١٠٣٢ .
مدن الإطارات الخضراء : ٩٥٦ .
(ال) مدن الجديدة : الإنجليزية ١٤٢ ،
٩٣١ الرومانية ٣٧٦ - ٣٨٣ المدن
الجديدة في المصور الوسطى ٥٦٤ حركة
المدن الجديدة ٩٣٦ ، قانون المدن
الجديدة ٩٦٨ ، مزاعم عن فشل المدن
الجديدة ٩٦٨ - ٩٦٩ .
ومدن الحداث في الند ، كتاب : ٩٥٥ .
مدن السهول : ٩٨ ، أثرها الحضارى
ووجوه التباين بينها في مصر وبلاد ما بين

النهرين ١٠٤ - ١٠٥ ، صعوبة الكشف
عنها ٩٩ ، عوامل التضرر فيها وتشابهها
١٠٠ - ١٠٣ ، نتائج تركيز الحضارة
فيها ١٠٦ ، ١٠٧ ، وجوه التيسير في
إنشائها ١٠٨ .
مدن الطرق : ٩٦٣ .
مدن الموق : ٩ ، ١٠ ، ٩٥ ، ١٤٧ ،
١٤٨ ، أمارات الاقتراب من مدينة
الموق ٤٤٠ ، مدينة الموق في روما
٤٢٩ .
« مدن جديدة لأمریکا » : ٩٢١ .
(ال) مدنية : أولى مبتكراتها ٥٨ ، أولى
مميزاتها ٣٦ ، جوانبها القائمة ١٠٥٢ ،
دوراتها ٩٧٦ ، عدم استقرارها ٩٧٥ ،
عوامل الفساد الكامنة ١٠٣٢ - ١٠٣٣ ،
عوامل انهيار المدن ٤٣٥ ، عيوبها
١٨٥ ، فناؤها وإحراقها ٨٩٠ -
٨٩١ ، ما يرجع منها ١٠٤٩ - ١٠٥٠ ،
مشكلاتها وبواعثها الوحشية ١٠٢٦ ،
مظاهر الضلال فيها ٤١٧ ، مظاهر
خيبة الأمل ٣٦٥ - ٣٦٩ ، منافاتها
حكم العقل ١٠٣٣ ، نهاية مدنيتهما
٩٧٩ .
(ال) مدينة : على مر المصور ٣ - ٥ ،
أصلها وكيف فتعرف عليه ٥ ، ٦ ،
سوابق في عالم الحيوان ٧ ، ٨ ، كيف
بدأت ١٥ ، تبلورها ١٥ ، مراحل
التبلور التكوينية ٥٨ ، ٥٩ ، مائتين
به للقرية ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ -
٣٤ ، تجمع عناصر القوة وظروفه ٦٠ ،
٦١ ، ٦٢ ، تفوق المدينة الباكورة
على القرية ٦٣ ، مجتمع المدينة الباكورة
٦٦ ، أماراتها الآثارية ٦٥ ، أثر الدين
في قيام المدينة ٥٧ ، ظهور طبقات
جديدة ٦٨ ، دورها في نظام الحرب
النظامية ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، دورها

تعريف روسو ١٦٨ ، وجوه نشاط
المدينة ١٧٠ ، دورها في التطور الحضري
١٧١ - ١٧٧ ، قدرتها الخلاقة ١٧٨ ،
أثرها في تحول الإنسان وتحول البيئة
١٨٠ ، المدينة وتقسيم العمل ١٨٤ -
١٩٢ ، المدينة وتكوين شخصية الفرد
١٩٧ ، النواحي السلبية والإيجابية في
حياة المدينة ٢٠٠ ، الانطلاق نحو الأثرية
٢٠٠ - ٢٠١ ، الانطلاق نحو التمدية
٢٠٢ ، المدينة تجمع بين الأثرية والتدنية
المدينة وتطور فن الدراما ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،
المدينة والدراما الإنسانية ٢٠٨ ،
توفيرها لفرص التحدث ٢٠٩ ، أماره
إخفاق المدينة ٢١١ ، عوامل ظهور
المدينة الحرة ٢٢٠ - ٢٢١ ، المزاي
الإنسانية للمدينة الإغريقية ٢٣٥ ،
دور المدن الإغريقية في التطور الحضري
٢٣٨ - ٢٥٩ ، أمارات انتماء المدينة
الكلاسيكية ٢٥١ ، مزاي المدينة الإغريقية
في مرحلة تطورها ٢٩٨ ، موت المدينة
القديمة ٣٦٤ ، المدينة السباوية ٤٤١ -
٤٤٩ ، المدينة المسيحية ٥٧٨ ، مدينة
أفلاطون ٣٢٢ - ٣٢٩ ، أرسطو والمدينة
المتالية ٣٣١ - ٣٣٤ ، الحرب ودورها
في إنشاء المدن ٦٦٢ ، الطابع الباروكي
٦٧٩ ، حضارة المدينة الباروكية ٦٩٧ ،
المدن التجارية واتساعها الأفق ٧٩٣ ،
امتدادات المدن التجارية ٧٧٨ ، نموذج
هوارد نمو المدن ٩٥٥ ، الحد الأقصى
للمدينة ٩٥٦ - ٩٥٧ ، الفكرة الوظيفية
الجديدة للمدينة ٩٥٦ - ٩٥٧ ، المدينة
القائمة تحت الأرض ٨٨٥ - ٨٩١ ،
مدينة المستقبل المتالية ٩٦٦ ، تجرد
المدينة عن الشكل ١٠٠٨ ، المدينة العالمية
١٠٣٨ ، المدينة الخفية ١٠٤٢ -
١٠٤٥ ، المدينة كجهاز لتذكر ١٠٤١ -

في تطور الحرب وأثره فيها وفي المجتمع
٧٦ ، ٧٩ - ٨٠ ، وعاء للنفث ٨٢ ،
اتساعها بصفات متناقضة وأثر ذلك في
المجتمع ٨٢ - ٨٣ ، عوامل التفوق
على مستوى القرية ٨٦ ، مغزى النص
المصري القديم عن إنشاء المدينة ٨٦ ،
الجاذبية الباكورة للمدينة ٨٧ ، أثر القوة
في المظهر الكوني للمدينة ٨٨ ، كيف
أصبحت من عوامل القلق والمدون
٩٠ - ٩٢ ، أثرها في التوسع إلى
إمبراطورية ٩٣ ، وعاء للتخريب ،
والإبادة ٩٤ ، ٩٥ ، عوامل استمرار
تجدد حيويتها ٩٦ - ٩٧ ، ازدياد
مساحة وسكان المدن المبكرة ١٠٩ -
١١١ ، حجم مساكنها ومقارنته بالحجم
في عصور تالية ١١٢ ، تفاوت الحجم
تبعا للطبقات ١١٢ ، القلعة كمدينة صغيرة
١١٣ ، ارتباط الحجم بوسائل الاتصال
١١٣ ، ١١٤ ، تجمع القلعة والمعب
من أمارات المدينة ١١٥ ، بدء الاتجاه
نحو التضخم ١١٦ ، وصف هيرودوت
لمدن مصر ١٢١ ، التحول الحضري
١٢٢ ، عوامل الجاذبية في المدينة قديما
١٢٣ ، المدينة نموذج كوني ١٢٤ ،
المدن الباكورة والفن ١٢٥ ، عوامل
دينامية في حياتها ١٢٧ - ١٣١ ،
النظام الاقتصادي الباكر للمدينة ١٣٠ ،
تفسير توزيع مواقع المدن الباكورة ١٣١ ،
مبتكرات ونقصات تقنية ١٣١ ، اعتبارات
التخطيط الباكر للطرق ١٣٢ ، اكتمال
التكوين المادي للمدينة ١٣٣ ، الأساليب
الباكرة للتخلص من القمامة ١٣٤ ، ١٣٥ ،
كيف نتعرف على الحياة في المدن القديمة
١٣٦ ، الرمز الهرموني للمدينة وتفسيره
١٤٥ ، المدينة كمنطيس ٤٨ ، تعريفها
ونواحيها الجوهرية ١٥٢ ١٥٣ ،

نتائج تطبيق قواعد الديمقراطية ٢٧٨ -
 ٢٧٩ ، فشل المدن الإغريقية في الحكم
 النيابي ٢٨٠ ، النمط المثالي للمدينة الحرة
 ٢٨٧ ، دورها في تكوين شخصية المواطن
 الحر ٢٨٧ - ٢٨٨ ، أثرها في الموسيقى
 والتشكيل ٣٠١ ، ٣٠٢ ، الحاجة إلى
 هدف مثالي ٣٠٨ ، تجسد المثل الأعلى
 الإنسان الجديد ٢٩٩ ، عيوب عبادة
 المدينة ٣٠٦ - ٣٠٨ ، ماحقته المدينة
 الحرة للحضارة ٢٩٩ - ٣٠٨ مرحلة
 أرسطو الانتقالية ٣٣٠ - ٣٤٥ ، انتهاء
 عهد المدن الحرة ٦٥٤ .
 مدينة الصحة : ٨٨٤ .
 مدينة اللطيفيات : ٤١٨ ، ٤٢٦ .
 (ال) مدينة الطوباوية : ٢٠٣ ، ٣٠٨ -
 ٣١٨ ، ٥٨٨ طابعها ٥٩٦ ، مبتكرات
 مورفيها ٥٩٧ .
 (ال) مدينة العاصمة : ٦٤٩ ، احتكاكها
 لتجارة ٨٠٦ تركيز السلطة فيها وآثاره
 ٦٥١ .
 (ال) مدينة العظمى : ٢٨١ (انظر
 ميجالوبوليس) .
 (ال) مدينة القائمة تحت الأرض : ٨٨٥ -
 ٨٩١ .
 مدينة المستقبل : ٩٧٨ .
 (ال) مدينة المسيحية : ٥٧٧ - ٥٨٨ .
 (ال) مدينة المتمدنة طوليا : ٧٨٣ ،
 ٩٦٣ .
 (ال) « مدينة المهجورة » ، كتاب :
 ١٠٢١ .
 (ال) مدينة الوسطى : ٨٦١ .
 مدينة فحم الكوك : (٣٩) ٨٢٣ - ٨٣٠ ،
 صورة عن قرب لها ٨٦٧ - ٨٧٧ ،
 نتائج رد الفعل الناشئ عنها ٨٨٦ ،
 ٨٨٧ .
 مذهب المانوية : ٢٣٠ .
 مراحيض : ٧٠٨ ، ٨٦٠ ، انتشارها

١٠٤٤ ، فضل المدينة القديمة ١٠٥١ ،
 مجتمع المدينة القديمة ١٠٥٢ ، هبات
 المدينة القديمة والجانب القائم في حضارتها
 ١٠٥٢ ، رسالة المدينة وواجبها في
 المستقبل ١٠٥٤ - ١٠٦٠ ، رسالتها
 النهائية ١٠٦٥ .
 مدينة أفلاطون : ٣١٨ ، ٣٢٢ - ٣٢٩ .
 (ال) مدينة الاجتماعية : فكرة هوارد
 عنها ٩٦٤ .
 (ال) مدينة الإقليمية : ٩٦٥ .
 مدينة الأمراض : ٤١٨ ، ٤٢٦ .
 (ال) مدينة الباروكية : ٣٥٠ .
 (ال) مدينة التجارية : اتساعها أفقياً ٧٩٣
 ٧٨٦ ، ٨٨١ ، حجمها ٩٥٦ -
 ٩٥٧ ، ٩٦٣ .
 مدينة الحدائق : كثافة سكانها ٩٦٢ مدن
 الحدائق الإنجليزية ٩٦٣ .
 (ال) مدينة الحرة : ظهورها ٢١٢ ،
 موطئها الأول ٢١٤ ، مظاهر حضارتها
 الأولى ٢١٥ ، صلتها بالحضارات الأخرى
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، انتقال السلطة إلى مجتمع
 المدينة ٢٢١ ، عوامل انتشار المدن الحرة
 ٢٢٢ ، طابعها لدى الإغريق ٢٢٢ ،
 نتائج ظهور نظام اقتصادي جديد فيها
 ٢٢٣ ، دور أثينا الحضارى ٢٢٣ -
 ٢٢٤ ، عناصر تكوين المدن الإغريقية
 ٢٢٦ ، طابعها وكيف نشأ ٢٢٧ -
 ٢٢٩ ، الاتصال بالقرية وأثره ٢٣٢ ،
 المزايا الإنسانية للندن الإغريقية ٢٣٥ ،
 صفاتها المكتسبة من القرية ٢٣٦ -
 ٢٣٨ ، أثر أولمبيا ودلني وكوس في
 تطور حضارة الإغريق ٢٣٨ - ٢٥٩ ،
 مستحدثات في نظم الحكم ٢٥٧ ، مظاهر
 عبادة الذات الجاهلية في أثينا ٢٦٢ -
 ٢٦٥ ، عيوب المدن الإغريقية ٢٧٠ -
 ٢٧٦ ، نقطة التحول في تاريخها ٢٧٧ ،

(ال) مصارف : سيطرة رجال المصارف

٩٩٤ ، مقاومة المصارف ٧٦١ .

مصر : ٥٨ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ .

٨٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،

١٠٧ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٥٦ ،

١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢١٥ ،

٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٣٠٩ ،

٣١٢ ، ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ،

أصل نشأة المدينة المصرية ١٥٤ ،

التوازن الداخلى فى مصر ١٥٠ ، الرابطة

بين مصر وبلاد ما بين النهرين ١٠٢ ،

سياسة إنشاء المدن الجديدة فى مصر ١٥٦ ،

طبيعة المدينة فى مصر ١٤٢ - ١٥١ ،

ظهور الأشكال الأخرى المألوفة للمدن

١٥٥ ، كيف كانت مصر بأسرها أشبه

بمدينة فائقة ١٤٦ ، وجوه التباين بين

مصر وبلاد ما بين النهرين ١٠٥ مظهر

بارز للخلاف بين البلدين وتفسير ١٤٩٠ ،

١٥٠ ، ١٥٢ ، مظهر يبين الخلاف

بينهما فى الحياة الحضرية ١٥٩ - ١٦٠ .

فيلا الضاحية فى مصر ٨٩٣ .

مصرف إنجلترا : (٣٥) ٩٩٤ .

(ال) مضاربة : المضاربة فى أراضي مدينة

واشنطن ٧٥٤ ، مشروعات المضاربة

التجارية ٧٥٧ - ٧٦٢ ، وضع قيودا

٧٦١ .

مظاهر قيام المدينة وتفسيرها : ٥٧ .

معات : ١٤٩ .

(ال) معبد : المعبد فى كريت ٢١٥ .

المعبد نقطة البداية للعنوان ٧٨ ، انتقاله

إلى داخل القلعة ٦٥ ، تحويل المعابد

إلى كنائس ٤٤٣ ، تشييد المعابد فى

مصر وبلاد ما بين النهرين ١٢١ -

١٢٢ ، دور المعبد فى نشأة التخصص

١٨٩ - ١٩٠ ، دور مدوناته ١٧٨ ،

٨٨٣ ، فى المدن الصناعية ٨٥٣ .

مراكز القلقوس الدينية لدى الإنسان القديم

١١ - ١٣ ، مراكز ومواسم التجمع

البكر واعتباراتها ١٤ - ١٥ .

مرسليا : ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٣٨٦ ، ٤٦٤ .

مرسيه : ٦٨٠ ، ٦٨٦ ، ٦٩٨ ، ١٠١٤ ،

(ال) مركز التجارى : البكر ١٣٠ ،

الأمريكي ٢٦١ ، ٣٧٥ ، الحديث

٤١٠ ، فى الضاحية (٥٠) ٩٣٨ .

مركز المجتمع : أصل نشأته ٩٢٨ دور

الكنيسة كتركز للمجتمع فى العصور الوسطى

٥٦١ .

مركز بين : (٥٤) .

مركز روكفلر : ٧٨٢ .

مرمعة بنى سلامه : ٣٠ .

مستشفيات : أصل نشأة المستشفيات العامة

٥٤٠ ، الحاجة إلى مستشفيات صغيرة

٨٨٥ ، المستشفيات فى العصور الوسطى

٤٨٥ ، ٥٢٢ .

(ال) مسرح : أصل نشأته ٢٣٩ - ٢٤٠ ،

تطوره على يد الرومان ٤٢١ ، دوره

فى النظام الحضري الأغريق ٢٥٠ ،

٢٥٢ ، ٢٥٥ ، كيف أقيم أول مسرح

لدى الأغريق ٢٩٢ ، مراحل تقدمه

لدهم ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ظهور المسرح

الحديث ٦٩٤ .

مسرح البلاط : (٢٩) .

مسرح أولمبيكو : ٦٩٤ .

مسرح ديونيسوس : (٨) .

مسز بيل : ٨٥٦ .

(ال) مسيحية : أسباب انتصارها ٢٤٣ -

٢٤٤ ، انتشارها العالمى ٦٢٩ - ٦٣٠

انحلال الكنيسة ٦٨٣ ، سيادتها ٤٨٢ -

٤٨٩ ، طبيعة الكنيسة فى العصور الوسطى

٤٨٣ - ٤٨٤ ، كنيسة روما ٦٣٢ .

مشروع مارشال : ١٠٣١ .

٧٦٨ ، ازدياد ارتفاع وحجم المنازل
في مصر اهليني ٣٥٢ ، أزمة المساكن
في لندن ٧٦٨ - ٧٦٩ الحالة البدائية
لمساكن المدن الإغريقية ٢٣٢ ،
الحالة العامة للإسكان في أثينا ٢٩٤ ،
المنازل التجارية ٧٩٦ - ٨٠١ ،
المنازل في العصور الوسطى ٥١٢ -
٥٢٤ ، المنازل في بابل ١٣٩ ، المنازل
في كريت ٢١٦ ، المنزل كركر للأسرة
٣٩٨ ، تقسيم فراغ المنزل ٧٠٤ -
٧٠٥ ، حجم المنازل قديما ، ١١١ -
١١٢ ، ظهور المائر المتعددة الطوابق
٥٧٣ ، مبنى نموذجي للإسكان ٨٠٠ ،
منازل الفساحى ٩٠٧ ، منازل الطبقة
العامة ٨٥٩ ، منازل الطبقة العليا
في روما ٣٩٩ ، منازل عهد الوسائل
التقنية النيقة ٨٥٩ - ٨٦٢ ، نسبة
كثافة السكان والمنازل قديما ١١١ ،
نسبة هذه الكثافة في عهد الرومان ٣٩٧ -
٣٩٩ ، نظام تكوين المنزل في العهد
الباروكى ٧٠٣ - ٧١٠ .
المنازل الفقيرة : ٧٩٩ ، ٨١٩ - ٨٢٠ ،
بده ظهور المبكر حديثاً ٦٦٠ ، حالتها
في العهد الرومانى ٣٩٧ - ٣٩٨ ،
حالتها في المدن الصناعية ٨٥٩ - ٨٦٧ ،
حالتها بالمصنع والطريق الحديدى ٨٤٦ -
٨٥٩ ، مقام المالك لها ٧٧١ ، مقترحات
رسم لملاج حالة الإسكان ٨٧٨ .
(ال) منجم : أثره الهدام ٨٣١ - ٨٣٢ .
منشيوس : ١٢٤ .
منف : ١٤٨ .
(ال) مهرجانات : ٥٠٤ - ٥١٠ .
(ال) مواكب : ٥٠٤ - ٥١٠ ، المواكب
الآثنية الجامعة ٣٠١ ، المواكب المدنية
الإغريقية ٢٩٣ ، المواكب في العصور
الوسطى ٥٠٧ ، طريق المواكب في العهد

حور مبد أبو لوفى دلى وديلوس ٢٤٢ -
٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، دوره في
الحياة الاقتصادية ١٢٩ ، ١٣٠ ،
صلته بالتحول الحضري ٨٥ ، ٨٦ ،
١٠٦ ، كيف نشأ الاهتمام بأمر المعابد
٦٨ ، ٦٩ ، مجتمع المعبد ١٣٣ ، معابد
آشور ١٣٤ ، معبد أوروك ١١٥ ،
١٢٠ ، مواد بناء المعبد ندى الإغريق
٢٧٣ ، وصف المعبد في المدينة الإغريقية
٢٦٠ .

معدل نسبة المواليد : الارتفاع رد فعل

تلقائى ١٠٦٢ - ١٠٦٣ .

(ال) معرض القوى للفن : ٦٩٩ .

(ال) مقياس الجايده للزمان والمكان ٧٩٣ .

مفارة الأخوة الثلاثة في أربيج : ١١ .

مفارة المحوريات بجبل بنتليكون : ١١ .

(ال) مفناطيس : ١٥ ، ١٥٥ ، ١٧٤ ،

المدينة الحضرية كنفناطيس ١٤٨ .

(ال) مقال في المنهج ، كتاب : ٥٧١

مقدونيا : ١٣٨ ، ٣٥٥ .

(ال) مقو : ٤٠٠ ، ٤٠٦ - ٤١٢ .

مكانة الراعى في المجتمع الباكر : ٤١ - ٤٢ .

مكتب تعطيل سير الأعمال : ٦٥٠ ، ٦٨٦ ،

٨٣٦ ، ٩٩١ .

(ال) مكتبة : بالإسكندرية ٥٠٢ ، شبكة

دور الكتب بانجلترا ١٠٤٦ - ١٠٤٧ .

مكتبات ، توليد القوى : استخدامهما كوسائل

للتعرف ٦٨٩ .

مكة : ٥٠ .

مكيائيل : ٥٨٧ ، ٦٣٨ ، ٦٥٥ .

(ال) ملاجى : في العصور الوسطى ٤٨٦ .

ملفيل ، هرمان : ٧٩٨ .

(ال) ملك الشمس : ٦٨٤ .

(ال) عمر التجارى : في القرن التاسع عشر

٣٧٥ ، على هيئة بوائك مقوفة

بالزجاج (٣٨) ٨٠٩ ، ٨١٠ .

(ال) منازل : ارتفاع إيجارات المساكن

ميدان الاتوال (باريس) : ٧٤٠ .
 ميدان الإله مارس : ٤٠٤ ، ٤٢٤ .
 (ال) ميدان الباروكي : ٧١٧ .
 (ال) ميدان الدوق : ٧٣٢ .
 ميدان القوج : ٧٢٨ .
 (ال) ميدان الملكي (باريس) : ٧٢٨ .
 ميدان بدفورد : ٧٣١ .
 ميدان بلومزبرى : ٧٣١ .
 ميدان بيركلي : ٧٣١ .
 ميدان بيلجريف : ٧٣١ .
 ميدان تشارلوت : ٧٣٥ .
 ميدان رسل : ٧٩٠ .
 ميدان سان مارك : (٢١) ٥٦٧ ، ٥٩٠ .
 ميدان قننوم (٣٠) ٧٢٨ ، ٧٣٠ ، ٧٩٠ .
 ميدان نافونا : ٤٠٨ .
 ميدان وال : ٥١٨ .
 ميدان : ٨٣ ، ٨٤ .
 ميريان : ٤٧٣ .
 ميكيل أنجيلو : ٥٢١ .
 ميكيني : ١٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ .
 ميلان : الممر التجارى ذو البوائك المسقوفة :
 (٢٨) ٤٦٨ ، ٤٧١ ، وصف
 المدينة في العصور الوسطى : ٥٤٨ .
 ميل ، جون متيوارث : ١٠٥٨ .
 ميلر ، يوهانس : ٨٧٩ .
 ميلر ، هيو : ٨٤٨ .
 ميلو الكروتوفى : ٢٤٩ .
 ميلوس : ٢٦٢ .
 ميلتيوس (ملطية) : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
 ٢٧٣ ، ٣٢٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٥ .
 مينا : ١٠٧ ، ١٤٦ ، ١٥١ .
 ميتاندر : ٣٤٤ .
 مينستر : ٥٨٦ .
 مينوس : ٢١٢ ، ٢١٦ .
 نابليون الأول : ٧٣٧ .

الرومانى ٣٩٤ ، طريق المواكب في مصر
 ١٥٥ .
 مودينا : ٤٦١ .
 مور ، سيرتوماس : ٣٧٥ ، ٥٢٢ .
 ٥٩٦ ، ٦٢٩ .
 مور ، هنرى : ١٠٣٧ .
 مورجان ، لويد : ٥١ .
 مورلى : ١٥٣ .
 (ال) مورمون ، طائفة : ٨٢٩ ، ٩٦٠ .
 مورفينجتون كريست : ٧٣١ .
 موري ، جيلبرت : ٢٦٣ ، ٣٥٠ .
 موريس ، وليم : ٧٨٦ .
 موريتو ، ج. ل. : ٢٠٧ .
 موريه ، إسكندر : ١٥٥ .
 موسلبره : ٤٩ .
 (ال) مول : ٧٤٨ ، ٧٤٩ .
 مونبازيه : ٥٥١ ، ٥٦٤ .
 مونت سانت ميشيل وشارتر : ٥٠٤ .
 مونتكسيو : ٩٩٨ .
 مونديريان : ٩٢٣ .
 مونسل ، السيرريتشارد : ٦٢٠ .
 مونسي : ٨٦١ .
 مونسيجور : ٥٥١ .
 موهنجودارو : ١١٠ ، ١٣٢ ، ١٩٤ ،
 ٢١٧ .
 (ال) ميادين : أغراضها وفكرتها ٧٢٧ -
 ٧٣٠ ، تطورها وتنظيمها ٧٣١ - ٧٣٣ .
 ميتلاند ، فردريك وليم : ٤٥٥ ، ٤٧٥ .
 ميتون : ٣١٠ .
 ميثراس : ٤٣٣ ، ٤٣٣ .
 ميجالوپوليس (المدينة العظمى) : ٢٨١ ،
 ٩٣٦ ، انحلالها الخلق ٤٣٥ ، خرافتها
 ٩٧٤ - ١٠٥٠ ، سكانها ٩٨٠ -
 ٩٨٢ ، مايتهددها حاليا ٩٧٤ ،
 مصيرها ١٠٢٩ - ١٠٣٨ ، منافاتها
 لحكم العقل ١٠٣٣ .

الوسطى ٦٢٢ ، فصل الوظائف الاقتصادية
 ١٨٨ ، نظام اقتصادى جديد ٧٥٨ .
 (ال) نظام الانقطاعى : الأراضى الإقطاعية
 ٧٦٧ ، تأثير النظام الإقطاعى فى تشجيع
 زيادة المدن ٤٧٦ ، توحيد الأراضى
 الإقطاعية ٦٤٦ ، مصالح الملاك
 الإقطاعيين فى حركة البناء بالمدين ٤٧٩ .
 (ال) نظام الباروكى : ٦٠٢ ، أبهى
 مظهره ٧٢٣ ، الاتجاه إليه ٦٣٧ -
 ٦٣٨ ، أثره فى نمو المدينة ٦٦٢ ،
 التخطيط للباروكى وعيوبه ٧٢٥ -
 ٧٢٦ ، ٧٣٩ ، الترف الباروكى
 ٦٨٩ ، الطراز الباروكى ٧٣٧ -
 ٧٤٢ ، العمل المنزلى والمنايا بالأثاث
 ٧٠٤ ، المظاهر والسيطرة الباروكية
 ٧١٠ - ٧٢٠ ، الميدان الباروكى ٧١٧ ،
 ألوان اللور فى المدينة الباروكية ٦٩٥ -
 ٦٩٧ ، إيديولوجية النظام الباروكى
 ونواحي القصور فيها ٧٤٦ ، تخطيط
 واشتلون مثال نموذجى ٧٤٢ ، سكان
 المدينة الباروكية ٦٥٢ ، عواقب التفكير
 الباروكى ٦٧٢ - ٦٧٤ ، غرفة النوم
 وغرفة الاستقبال ٧٠٢ - ٧٠٧ ،
 مبتكرات التفكير الباروكى ٦٦٩ -
 ٦٧٢ ، مخلفات نظام المدينة الباروكية
 ٧٣٦ - ٧٤٢ ، مكانة التكنات وساحة
 التدريب فيه ٦٦٥ ، ميزة عدم مطابقة
 المنازل الباروكية لوظيفة معينة ٧٣٤ .
 نظام الحكم الفيدرالى : المجلس الشيدرال
 فى الاتحاد البيوت ٢٨٠ ، عوامل فشل
 النظام لدى الإغريق ٢٥٨ ، مظهره
 الأول لدى الإغريق ٢٥٦ ، نظام أول
 دولة فيديرالية ٢٥٧ .
 نظام الحكم المبنى : استقرار نظام هيئة
 للموظفين فى المصور الوسطى ٦١٧ -
 ٦١٨ ، التهرب من المسئوليات العامة .

ناپليون الثالث : ٢٧٢ ، ٣٥٧ ، ٦٧٩ ،
 ٧٢٧ .
 نابول (٢٩) ٣٤٥ .
 (ال) نار : المقدسة فى دار المدينة ٢٧٧ ،
 خطرهما فى المصور الوسطى ٥١٥ ،
 مزاياها لإبادة الجراثيم ٥٣٤ - ٥٣٥ .
 ناربون : ٣٧٧ ، ٣٨٦ .
 ناردن : (٤٩) .
 نارمر ، لوحة : (٥) .
 نائى ، جون : ٧٣٥ ، ٧٤٢ ، ٧٨٨ .
 ناطحات السحاب : ٧٩٣ ، ٨٨٩ .
 (ال) نافورات : فى العصر الباروكى ٦٤٣ ،
 فى المصور الوسطى ٥٣٨ - ٥٣٩ فى
 روما ٤٢٩ .
 نافورة تريش (فونتانا دى تريش) : ٤٢٩ .
 نان : ٦٩ .
 نابلسنتر : ٩٢٣ .
 نتائج زيادة الثروة الغذائية لدى الإنسان
 القديم : ١٧ .
 نشأة المدينة : ٤٧ - ٥٠ .
 نزول المرأة عن عامل القوة للرجل ٤٦ -
 ٤٨ .
 نصب فكتور إيمانويل : ٤٣٠ .
 (ال) نظافة : المبررات العلمية لوجوب
 النظافة ٨٧٩ ، تأثيرها على الصحة
 ٨٦٦ ، ما تتكلفه عمليات التنظيف ٦٧٢
 (ال) نظام الأبوى : ٥٩٧ .
 (ال) نظام الاقتصادى : أساليب أثينا
 الاحتكارية ٢٧٢ ، التحكم الاحتكارى
 فى المصور الوسطى ٦١٩ - ٦٢٠ ،
 النظام الاقتصادى الحديث فى الحواضر
 ١٠٠٩ - ١٠١١ ، النظام الاقتصادى
 المخلق فى المصور الوسطى ٦١٧ - ٦١٨ ،
 النظام الاقتصادى فى الفترة الوسطى بين
 المصريين الحبرى القديم والحديث ١٦ -
 ١٧ إنعدام المساواة الاقتصادية فى المصور

نوح : ٨٣ ، ٣٦٨ .
 نورث روجر : ٧٧٠ .
 نورفبرج : ٨٦٨ .
 نوريكوم : ٣٨٥ .
 نوف بريزاش : ٦٢٢ .
 نويكى ، ماتير : ٧٣٤ ، ٩٣١ .
 نيپور : ١٣٦ ، ١٨٨ .
 نيتنجيل ، فلورنس : ٨٧٩ ، ٨٨٣ .
 نيجى نوفوجورد : ٤٦٣ .
 نيرون : ٣٩٨ .
 نيكولاس ، رولند : ٧٤٠ .
 نيم : ٣٧٧ ، ٣٨٦ ، ٤٥١ .
 نينوى : ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٣٦ ، ٣٦٥ .
 نيروانجلند : ٤٧٠ ، ٤٩٩ استثمارها ٥١٥ ،
 تقاليدها الحضريّة ٧٨٧ ، القيمة السياسيّة
 لها ٦٠٩ - ٦١٠ ، نظام القرى
 والمدن فيها ٦٠٧ ، نمو المدن فيها ٥٧٤ .
 نيوتن : ٦٦٩ .
 نيون : ٤٧٤ .
 نيوهافن : ٣٤٦ .
 نيويورك (٤٦) : ٢٣ ، ٤٧١ ، اختصارها
 لحركة النقل ٧٨٩ ، حدائق البيرة فيها
 ٦٩٥ . مشروع كروتون ، ٨٨٢ ،
 نموها الحضري : ٩٧٠ - ٩٧٢ .

هاجياتريادا : ٣٥٠ .
 هادريان : ٣٩٥ .
 هاراپا : ٦٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ .
 هاردويك ، قصر : ٥١٤ .
 هارثارد : (٥٢) .
 هارلو : (٦٠) (٦١) ٣٧٥ ، ٣٧٩ .
 هارلى ستريت : ١٨٨ .
 هاريسون ، جين : ٢٠٤ .
 هارينجتون ، السيرجون : ٧٠٨ .

٣٠٥ ، تهيئة مبان باروكية لإيواء
 الإدارات الحكومية ٦٥٠ ، دفع مرتبات
 نظير الخدمات المدنيّة ٢٧٤ ، عدم
 وجود هيئة للموظفين لدى الإغريق
 ٢٧٨ ، مزايا النظام لدى الإغريق ٢٨٢ .
 نظام الحكم الملكى : ٦٢ ، ٦٦ ، الادعاء
 والاعتقاد بأن مصدره آلى ٦٧ الامتياز
 بالسلطة المدنيّة ٦٧ ، أثره الباكر
 في المدينة والمجتمع ٧٠ : ٧٩ ، اختيار
 بديل للملك لتقديمه قربانا ٧٢ ، انبثاق
 شخصية الملك ١٢٣ - ١٢٤ ، النظام
 الملكى في نظر الإغريق ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
 ٢٤١ ، النظام في مصر وبلاد ما بين
 النهرين ١٠٤ ، أوهاى ومطالب جنوبيّة
 للملك ٨٢ ، بحث النظام الملكى ٦٧٤ ،
 تحول الزعيم إلى ملك ٥٣ ، تضخيم
 النظام ٦٨ - ٦٩ ، تمثيل الملك لفكرة
 التطور الإنسانى ١٩٧ ، تمثيله للمجتمع
 ٧٠ - ٧١ ، حاجة الملك إلى الإيتماد
 المعنوى ٨٤ ، سيطرة فكرة الحرب على
 النظام ٧٥ ، عناصر النظام الملكى لدى
 الإغريق ٢٢٦ ، هيرودوت يصف حالة
 لقيام النظام الملكى ٨٣ - ٨٤ ، وجود
 النظام في المجتمعات الحضرية ٨١ .
 (ال) « نظام القديم » ، وصف كتبه تين :

٦٩١ .
 (ال) نظام الهندسى : ٧٢٢ - ٧٢٣ .
 (ال) نفعية ، مبادئها : ٨٣٤ - ٨٣٩ .
 (ال) نقابات ، خدماتها ٤٨٩ - ٥٠٤ .
 نقادة : ١٤٥ .
 فتراطيس : ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٨ .
 (ال) « نقد والاسماره رسالة : ٧٦٨ .
 (ال) نوافذ : في العصور الوسطى ٥١٣ -
 ٥١٤ ، نوعها المتبدع في كريت ٢١٦ -
 ٢١٧ .

٩٥٣ ، ٩٥٤ - ٩٧٣ .
 هوانج هو : ٩٩ .
 هوايت تشايل : ٥٤٥ .
 هوبز : ٤٣ .
 هوجارث : ٧٣٤ .
 هوجو ، فيكتور : ٣٦٢ .
 هوراس : ٤٣٨ .
 هوستون ، ج . م . : ٤٧٦ .
 هوكرات ، ا . م . : ٧٠ ، ١٨٤ .
 هوكلين ، توماس : ٥٢١ .
 هول ، كريستينا : ١١ .
 هولم : ٧٠٥ .
 هوميروس : ١٧٣ ، ٢٢٩ ، ٢٦٦ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٤٦١ .
 هونوريوس : ٤٢٥ .
 هوزنجا ، ، يوهان : ٦٣٦ ، ٥٠٦ .
 هويلر ، السير مورتير : ١٩٤ .
 هويلر ، وليام مورتون : ٥١ ، ١٧٤ ،
 ٢١٧ ، ٤٣٤ ، ٨٣٣ ، ١٠٢٥ .
 « هيئات امالك الملا » : ٨١٢ .
 هيئة الموظفين (انظر البيروقراطية) : استقرار
 هيئة الموظفين ٦٤٨ - ٦٤٩ :
 البيروقراطية ذات اللواس ٩٨٩ -
 ١٠٠١ ، الهيئة اقطاع للطبقة العليا
 ٦٨٦ - ٦٨٧ ، تهيئة مكاتب ومساكن
 للموظفين ٩٩٢ ، ظهور الحاجة إلى
 موظفين غير حكوميين ٧٥٩ ، ظهور
 الهيئة الحكومية ٦٤٩ ، مبان جديدة
 ل هيئة الموظفين ٦٥٠ ، موظفو أداة
 التعطيل ٦٥٠ ، هيئة الموظفين التجاريين
 ٩٩٠ .
 هيوداموس : ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
 ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
 هيودروم : ٢٧٠ .
 هيتلند ، و . ا . : ٤٧٧ .
 هيجل : ٤٥٧ ، ٤٦٠ .

(ال) - هافر : ٧٧٥ .
 هانزا (هانسا) المصبة التجارية ٤٧٩ ،
 ٥٧٨ .
 هاوسيان : ٢٧٢ ، ٣١٠ ، ٦٧٨ ، ٧١٢ ،
 ٧١٨ ، ٧٤٢ ، ٨٨٢ ، ٨٨٤ .
 هايكل ، ارنت : ٨٣٥ .
 هايغون : ٢٠٩ .
 هاي وايكوم : ٢٦٨ .
 هتلر : ٧٨ ، ٤١٧ ، ١٠٥٨ .
 هتون : ٦٦٧ .
 هرابانوس : ٤٤٩ ، ٤٨٧ .
 هرقل : ٥٧ .
 هستيا : ٢٧٧ ، ٢٢٣ .
 هيود : ٢٥ ، ٩٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ .
 (ال) حلال المالكى (باث) : (٣٧) ٧٣٢ .
 هليوبوليس : ٩٨ .
 همبورج : ٤٧٩ ، ٦٥٣ ، ١٠٣١ .
 هستيد : ٩٠٣ ، ٩٢١ .
 (ال) هندسة : الهندسة الصحية ٨٥٣ ،
 الهندسة العسكرية والمهندسون العسكريون
 ٦٥٥ - ٦٥٧ ، ٦٦٢ ، ٧١١ ،
 عجز وقصور الهندسة الرومانية والأمريكية
 ٣٨٩ - ٣٩٠ ، منشآت روما الضخمة
 ٣٨٦ - ٣٨٨ ، مهندسو الكك
 الحديدية ٨٥٠ ، مهندسو المدن ٧٢٤ -
 ٧٢٥ ، مهندسو النقل والطرق ٨٨٦ ،
 هندسة الطرق الرئيسية الحديثة ٩٣٨ -
 ٩٤٤ ، واجب مهندسى النقل والطرق
 إزاء مشكلة النقل ٩٤٢ .
 هنرى الأول ، الإمبراطور الألماني : ٤٥٤ .
 هنرى الثانى : ٦٤٩ ، ٧٦٠ .
 هنرى الثالث : ٤٩٧ .
 هنرى الرابع : ٧٢٨ .
 هوارد ايبزر : ١٤٨ ، ٢٨١ ، ٣٢٥ ،
 ٧٨٦ ، ٨١٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٤ ،

وردزورث : ٨٠٥ .
 ورستر : ٨٤١ .
 ورق : مكائنه البيروقراطية : ١٠١٣ -
 ١٠١٤ .
 وسائل الإكراه : ٦٥٤ - ٦٦١ ، حاجة
 المدينة إليها ٦٧٩ - ٦٨٠ ، قلة شأنها
 لدى المصريين ١٤٥ ، وسائل الإكراه
 في المجتمعات الباكورة ٤١ ، ٦٣ - ٦٤ .
 وسائل الانتقال : الأنهار أول نظام
 أساسي للنقل ١٠٠ ، الحاجة إلى نظام
 عام للنقل ٩٣٨ ، الحاجة إلى وسائل
 متعددة الأساليب ٩٤١ ، الاتجار في
 حركة النقل ٧٩١ - ٧٩٥ ، أول العهد
 بوسائل النقل ١٢٧ ، انتشار استخدام
 عربات النقل ٥٧٦ ، تكاليفها ١٠١٨ ،
 ظهور وسائل النقل العامة وأثرها ٧٩٢ ،
 في بلاد ما بين النهرين ١٤٠ - ١٤١ ،
 مراعاتها في تخطيط المدينة ٣٥٢ ، نقصها
 في العالم الجديد ١٦٥ ، وسائل الانتقال
 الحضرية ومدل سرعتها ١٠٢٠ ، وسائل
 نقل الأعداد الكبيرة ٩٤٥ .
 (ال) وسائل الصحة : اتساع نطاق ،
 وانتشار التحسينات الصحية ٨٨٢ -
 ٨٨٤ ، الحاجة إلى تنظيمها ٨٥٣ -
 ٨٥٥ ، العناية بالشئون الصحية في
 المصور الوسطى ٥٢٣ - ٥٣٥ ، المرافق
 الصحية في القلعة ١٨١ ، المرافق الصحية
 في المدينة الباكورة ١٣١ ، تحمين جديد
 في المرافق الصحية بالمدينة ٧٠٨ ، حالة
 المرافق الصحية في عهد الوسائل التقنية
 المتينة وتحسينها ٨٧٧ - ٨٨١ ، حركة
 الدعوة إلى إصلاح الشئون الصحية ٨٨٣ -
 ٨٨٤ ، سوء حالة المرافق الصحية في أثينا
 ٢٩٥ - ٢٩٦ ، ظهور الأطباء الرسميين
 والحجر الصحي ٥٤١ ، مفتشو الصحة
 لدى الإغريق ٢٣٣ ، نقص الشرائط

هيجينوس : ٣٧٦ .
 هيراكليونوبوليس : ١٤٥ .
 هيرودوت : ٣٥٩ .
 هيرودوت : ٨٣ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ١٢١ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ١٨٦ ، ١٩٠ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٤٦ ، ٢٧١ .
 هيروثيما : ١٠٣١ .
 هيلاس : ٢٤٧ .
 هيلبرخت : ١٣٧ .
 هيلفرسوم : ٤٩٧ .
 هين ، موريتز : ٥١٦ ، ٥٦٧ .
 وات : ٨٤٢ .
 وادي الأردن : ٥٨ .
 وادي السند : ٩٩ ، ١٥٨ ، ١٦٦ .
 وادي النيل : ٣٠ ، ٩٩ ، ١٠٣ ،
 ١٠٦ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٧١ .
 وارسو : ١٠٣١ .
 واشنطون ، الرئيس : ٧٥٣ .
 واشنطون : (٤٥) ٧١٦ ، عظام تخطيط
 مدينة واشنطون ٧٤٢ - ٧٥٥ ، وصف
 ديكنز للمدينة ٧٥٠ .
 والدو ، بيتر : ٥٨٥ .
 (ال) واندا : ٤١٨ .
 (ال) واندا ، نهر : ٧٨٦ .
 وباء : الأوبئة في العهد الروماني ٣٩٢ ،
 في المصور الوسطى ٥٣٠ - ٥٣٢ ،
 وباء الموت الأسود ، ٤٧٢ ، ٥٤١ ،
 ٦٣٥ .
 وب ، بياتريس وسيدني : ٨٨١ .
 وبستر : ٢١١ .
 وحدة الجوار : أساسها الديني قديما ١٣٣ ،
 إنشائها ممدأ لأول مرة ٣٤٨ ، وحدة
 الجوار في المصور الوسطى ٥٥٨ -
 ٥٧٢ .

والى ، ليفارد : ١١١ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٧١ ، ٨٩٣ .
 وير ، ماكس ١١٣ ، ٤٦٧ ، ٦٦٧ .
 ويتزبرج : ٥٣٦ .
 وينشرل ، ٢٣٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٣٥٣
 وينتى : ٨٤٩ .
 ويدن ، ولهم : ٦٠٨ .
 ويكفيلد ، ادوارد : ٩٥٥ .
 ويلان ، دكتور : ٨٥٢ .
 ويلسون ، جون ا. : ٣٠ .
 يارمو : ١٠٨ .
 يواكيم الفلورىسى : ٤٤٨ .
 يوبولس : ٢٧٠ .
 يوتويا : (انظر المدينة الطوباوية) ٣٧٥ ،
 ٥٢٢ ، ٥٩٦ .
 يوحنا الابن والمشرن ، البابا : ٥٨٥ .
 يورويديس : ٢١١ ، ٣٠١ ، ٣٥٤ .
 يوريديكى : ٣٦٦ .
 يوثنال : ٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ .
 يوليوس قيصر : ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤٢٤ .
 « يوميات بوزويل » : ٧٣٥ .
 يونج : ١٦٤ ، ٣١٤ .
 ييجر ، قرنر : ٢٤٤ ، ٣٠٣ .
 بينا : ١٠٠ ، ١٣٧ .

الصحية في العهد الباروكى ٦٦٠ ، نقصها
 لدى الرومان : ٣٩١ - ٣٩٢ .
 وستشتر : ٩٣٥ .
 وستر جارد : ١٠١٩ .
 وستمنستر : ٦٤٩ .
 وصف مدينة المدينة ومبكراتها : ٥٣ -
 ٥٤ .
 (ال) وظائف الحضرية : بوصفها بقايا
 نافضة ٧٢٠ - ٧٢٧ .
 (ال) وظائف الحكومية : نشل نظام أثينا
 مع مزاياه ٢٨٢ ، نظامها في أثينا ٢٧٨ -
 ٢٧٩ ، ٣٠٢ .
 (ال) وعاء : ١٥ ، ٢٧ ، ١٥٥ ،
 ٣٥٧ ، الأجورا كوعاء ٢٧٠ ،
 استمرار بقاء العيب في الوعاء الحضري
 ٦٠١ ، الرأسالية تقوم بتصفية الوعاء
 ٨٢١ ، الوعاء الحضري ٥٩ ، ١٧٤ ،
 الوعاء والمحتويات في روما ٣٧٦ ، طبيعة
 الوعاء ١٧٦ ، عصر الأوعية المصر
 الحجري الحديث ٢٧ ، وعاء جماعى ٢٧ .
 ولوين : ٩٥٩ ، ٩٦٨ .
 ووترلو ، جسر : ٧٤١ .
 وود ، جون : ٧٣٢ ، ٧٤٧ ، ٧٩٠ .
 وود ، روبرت : ٩٢٤ ، ٩٢٦ .

التصميم الأساسي للغلاف : أسامة العبد

الإشراف الفني : حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة